نداء الإيمان

هداية وتدبر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - 2013م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/٧/٢٨٢٩)

٢٤٦
حمدان، رضوان سلمان
ندا الإيمان هداية وتدبر/ رضوان سلمان حمدان . _ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢ .
(٧٥٦) ص
ر.أ: (٢٨٢٩/ ٧/ ٢٠١٢).
الواصفات: / الإيمان/ / الإسلام/ / العبادة

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

نداء الإيمان
هداية وتدبر

رضوان سلمان حمدان



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى

من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً

وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً

إلى

والديَّ رحمهما الله تعالى

إلى

زوجي متعها الله بالصحة والعافية

تمهيد

الحمد لله وكفى والصلاة ولسلام على عباده الذين اصطفى وبعد..

فإن القرآن الكريم هو الدستور الجامع لأحكام الإسلام، وهو المنبع الذي يفيض بالخير والحكمة على القلوب المؤمنة، وهو أفضل ما يتقرب به المتعبدون إلى الله تعالى.

عن ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: **"إن هذا القرآن مأدبة الله، فأقبلوا على مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمةٌ لَمن اعتصم به، ونجاة لمن اتبعه.." (رواه الحاكم).**

لقد جمع القرآن الكريم أصول العقائد، وأوامر العبادات، وأسس المصالح الاجتماعية، وكليات الشرائع الدنيوية، فيه أوامر وفيه نواهٍ، وكلها لمصلحة البشرية دون تفرقةٍ بدين أو لون أو جنس أو طبقة أو لسان.

واجب المسلمين نحو القرآن الكريم:

يوضح الإمام البنا – رحمه الله – واجب المسلمين نحو القرآن الكريم فيقول: "وأعتقد أن أهم ما يجب على الأمة الإسلامية حيال القرآن الكريم ثلاثة مقاصد:

أولها: الإكثار من تلاوته، والتعبُّد بقراءته، والتقرُّب إلى الله تبارك وتعالى به.

وثانيها: جعله مصدرًا لأحكام الدين وشرائعه، منه تُؤخذ وتُستنبط وتُستقى وتُتعلم.

وثالثها: جعله أساسًا لأحكام الدنيا منه تُستمد وعلى مواده الحكيمة تُطبَّق.

لقد كان القرآن الكريم فيما مضى زينة الصلوات فأصبح اليوم زينة الحفلات، وكان قسطاس العدالة في المحاكم، فصار سلوة العابثين في المواسم، وكان واسطة العقد في الخطب والعظات، فصار واسطة العقد في الحلي والتميمات.."

القرآن الكريم محفوظ في الصدور والسطور والعمل:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩].. أنزل الله القرآن الكريم ليكون آخر الكتب المنزلة من السماء؛ لهداية البشرية إلى قيام الساعة، ومن ثمَّ تعهَّد بحفظه، وتولَّى سبحانه صيانته، فلم يزل محفوظًا مصونًا من التحريف ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]. . وهذه واقعة تكشف هذا الحفظ، فعن يحيى بن أكثم قال: كان للمأمون مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي، فتكلَّم فأحسن الكلام، قال: فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال: دِيني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسْلمًا، قال: فتكلَّم على الفقه فأحسن الكلام؛ فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون، وقال: ألستَ صاحبَنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفتُ من حضرتك فأحببتُ أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط، فعمدتُ إلى التوراة فكتبتُ ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقّصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريتْ مني، وعمدتُ إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتُريتْ مني، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها؛ فعلمتُ أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

حفظ القرآن الكريم يكون في ثلاث صور:

1- **الحفظ في الصدور:** وهذا هو الأصل، ويتم بالتلقي مشافهةً، فقد قرأه أمين الوحي جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقرأه الرسول ﷺ على الصحابة رضوان الله عليهم، وتلقاه التابعون عن الصحابة، وهكذا سلسلة متصلة إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة.

2- **الحفظ في السطور:** وقد كان النبي ﷺ حين تنزل الآية أو الآيات يأمر كُتَّاب الوحي بأن يكتبوها في مكانها من السورة، وظلت صحائف موزعة إلى أن جمعها أبو بكر - رضي الله عنه - في مكانٍ واحد، ثم جاء عثمان رضي الله عنه من بعد ذلك فنسخ منها نسخًا ووزعها على الأقاليم.

3- **الحفظ بالعمل:** وذلك بأن يظل القرآن الكريم منهج حياة المسلم كفرد في نفسه وأسرته يطبق أحكامه يحل حلاله ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه وأخلاقه، كما كان النبي ﷺ، فقد سُئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن خُلق رسول ﷺ **فقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَىَ. قَالَتْ: "فَإِنّ خُلُقَ نَبِيّ اللّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ الْقُرْآنَ"** [صحيح مسلم].

ومِن حفظ العمل على مستوى الدولة التي دينها الإسلام أن يكون أساس دستورها ومصدر تشريعها الأول، وميزان عدالتها في المحاكم، وأن يكون من ثوابت المناهج الدراسية في كل مراحل التعليم... كما يجب عليها أن تعلم أن كل مادة في الدستور لا يسيغها الإسلام، ولا تُجيزها أحكامه يجب أن تُحذف منه، حتى لا يظهر التناقض في القانون الأساس للدولة.

خطة الكتاب

رأيت أن يكون للكتاب مدخلا في قضايا الإيمان المختلفة، ثم أخذت آية النداء وأعقبتها بكلمة أو قصة أو أبيات من الشعر تكون مدخلاً لما بعدها من هداية وتدبر تشمل التفسير والفوائد واللطائف مستخلَصة من كتب التفسير الكثيرة مدمجاً المعاني بعضها ببعض في كثير من الأحيان مما جعلني أقول: انظر المراجع التالية بالإجمال، ثم أثبتُّ معاني مفردات كل أية نداء من مراجع اللغة والتفسير، ثم أسباب النزول من كتبه المتخصصة والتفاسير، ثم أتبعته بإعراب الآية وما فيها من صرف وبلاغة، ثم رأيت أن أثبت القراءات المختلفة "الفرش"[1] - إن وجدت – في كل آية، ثم أنهيت الدرس بمناسبة آية النداء في السياق ليتبين القارئ علاقة الآية فيما قبلها.

جعلت المعاني وأسباب النزول والإعراب والمناسبة بعد الهداية والتدبر لمن لا يريد الانشغال بها، أو لمن لا يهمه الوقوف عليها. لذا كانت بخط أصغر.

(١) الفرش: هي الكلمات القرآنية التي ليست لها قاعدة فضابطها فقط هو الرواية. فنجد مثلا كلمة (يجمعون) بعض القراء يقرؤها بالتاء والبعض بالياء فهذه كلمة فرشية أي ليست لها قاعدة معينة وهذا ينطبق على مثيلاتها من الكلمات التي لا تندرج تحت قاعدة.

المدخـل

جاءت فكرة هذا الكتاب من الدرس الكبير الذي علمه ابن مسعود للأمة حيث "أتى رجلٌ عبدَ الله بنَ مسعود، فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

فحريّ بنا كمؤمنين أن نعرف أوامر الله ونواهيه لنا لنستقيم على الطريقة أليس اللّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [**الأنفال: ٢٤**].

لا أقول إني سآتي بما لم يُؤتَ به، بل نحن اليوم عيال على موائد أسيادنا العلماء نسترزق منهم الكلمة والفكرة والعبارة، ولكنها الحركة التي لا بد منها والومضة المطلوبة لنقول: نعم نحن أبناء هذا الدين لا نزال نقول ونعمل ونتحرك ولو كره الكارهون.. إنه خلاص النفس أولاً، وهو ما يجب أن يقدمه كل قادر وفي كل مجال..

إن من لا يرى ما يحل بالأمة اليوم فهو لا يرى الشمس في رابعة النهار، ومن يرى ثم لا يتمعر وجهه، فليراجع حقيقة إيمانه، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ غَيْرُ اللهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ لا يَهْتَمُّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»**(١)

أردت أن أضع بين يدي المؤمنين ما يريد الله تعالى منهم. ونقف على كل نداء، ونتبين ما فيه من أمر ونهي.. ومن افعل ولا تفعل..

– على المؤمن أن يعلم يقينا أن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل لتستقيم حياة البشر، وليقيم به الأمة ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. وأن هجران الكتاب والإعراض عنه فنتيجته الحتمية العيشة الضنكى . . فلم ينزل الله الكتاب ليتلى على المقابر، وفي محافل المآتم، بل ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى

---

(١) أخرجه أبو بكر البيهقي في شعب الإيمان بإستاد ضعيف.

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يـــس:٧٠]، ولم يُنـزل الله الكتـاب لتفتـتح بـه المهرجانـات والإذاعـات والتلفازات ثم يكون من شأنها ما يكون من كل ما يخالف أمر مالك الملك الكبير المتعال.

– إن كل نداءات الإيمان إنما هي نداءات عمل وحياة وتشريع واستقامة وتربية قلوب وعقول وضمائر وأخلاق. لتطبق أحكامه في الحياة حكما حكماً، وآية آية، وتكليفاً تكليفاً، وأمراً أمراً، ونهياً نهياً، وحدّاً حدّاً، وكلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٩][1].

– شاع في هذا الزمان فكرة شيطانية تدعو إلى ما يسمى بتجفيف منابع الإرهاب وهو في الحقيقة تجفيف منابع الإيمان والإسلام.. فالمقصود رأس الإيمان الذي أنزل الله من أجله الكتب وأرسل الرسل، وخلق الجنة والنار والتكليف وتحقيق العبودية لله الواحد الأحد. يريدون محو الإيمان من القلوب، أو أن يكون إيماناً باهتاً بارداً لا ماء فيه ولا رواء ولا أثر في الحياة...

إنها الخُطة القديمة لا تتحول ولا تتغير ابتداءً بسيدهم إبليس الذي توعّد ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٦- ١٧]. مروراً بتلامذته ومريديه على تعاقب الأزمان إلى يومنا هذا.. الذي لا وظيفة لهم إلا تتبع خطوات سيدهم حتى النهاية.. هؤلاء التلاميذ والمريدون لم يستفيدوا من الدروس المتتالية في أن كل من يسير في خط الشيطان مصيره الهلاك والبوار. إنها خيوط عنكبوتية.. خطوات عديدة متفرقة وليست خطوة.. سبل عدة وليست سبيلاً، ما أن تنتهي خطوة، وما أن تطمس سبيل، حتى يظهر آخر.. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ﴾ [سبأ:٣٣]، ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ ﴾ [ص: ٦].

(١) الفتنة بين الصحابة – محمد حسان.

ولكن جهلوا أن كلمة الصراط الواحد وكلمة الله الواحدة لا تزول ولا تحول مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، عليا في بقائها.. عليا في استمراريتها.. عليا في ثباتها.. عليا في صمودها.. وعليا في تمكنها. ونحن الأمة المسلمة المؤمنة حاملة اللواء الأخير إلى يوم القيامة بشّرنا رسولنا الكريم الذي لا ينطق عن الهوى أن طائفة من هذه الأمة ستبقى على الحق قائمة ظاهرة **«لا تَزَالُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»**[1] **وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيْنَ هُمْ ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»** ونحن وقد أكرمنا الله أن نكون في أكناف بيت المقدس نستشعر بعظم الأمانة والمسؤولية المنوطة بنا..

- أنصح أن يحفظ كل مؤمن آيات نداء الإيمان غيباً ويَعلم ما فيها من أحكام وتوجيهات، وتعليمها إلى الناس بشكل دؤوب حتى يعلم الناس ما لهم وما عليهم. مع الالتزام وحمل النفس عليها استجابة لله ورسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

الطريقة المثلى في بيان نداء الإيمان

أهي في التسلسل حسب ترتيب المصحف اليوم والذي استقر عليه أمر المسلمين.

أم حسب ترتيب النزول؟، وأرى أن لكل منهج فائدته. فبحسب ترتيب النزول يتبين لنا كيف تدرج الحكيم الخبير مع «الأمة» المنزلة عليهم الرسالة في التربية والتوجيه والتكليف، فنعرف كيف بدأ، ومن أين بدأ، ثم كيف انتهى وإلى أين انتهى.

---

(١) مسند أحمد ، إسناده صحيح على شرط مسلم.

أما الطريقة الأولى وهي حسب الترتيب المعروف اليوم فلها في رأيي وجاهتها، وهي أن حال الأمة استقر كأمة عبر أجيال وعصور فهم ليسوا خاليي الذهن حتى يُبدأ بهم من نقطة البداية الأولى، فما يناسب الأمة لاحقاً هو الترتيب المعروف اليوم... ونلحظ ذلك في النداء الأول في سورة البقرة آية ١٠٤ والتي يقول فيها تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فالأمر مستقر في مبادئها وثوابتها ومنهجها فلتثبت الأمة على ذلك ولتكتفِ بما عندها، ولتحرص على أن تكون متميزة متفردة لا تأخذ من الآخَر ما عنده وتستبدلها بما عندنا، فلا تقولوا ما يقول الآخر بل قولوا ما تقولونه أنتم وما علّمكم ربكم أن تقولوا، فعندكم الإسلام فقولوا الإسلام فلا تقولوا العلمانية ولا الديمقراطية ولا الاشتراكية ولا الليبرالية الخ ... قولوا خمور ولا تقولوا مشروبات روحية .. قولوا فاحشة ولا تقولوا فن وحرية.. وقولوا ربا ولا تقولوا فائدة... **إلخ**..

إنه أول ثابت يجب على الأمة أن تحافظ عليه.. فإن من يبدأ التنازل بخطوة لن يتوقف إلا عند الهزيمة الكبرى والانسحاق الكامل والذوبان التام.. ثم التحذير من اليهود وهم العدو الأشد عداوة كما قرر العزيز الحكيم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ ﴾ [المائدة: ٨٢]. هذا العدو الذي لن تنتهي عداوته وستعانون منه كثيراً، والحاضر دليل صارخ على مصداق ذلك. وهو ما نبهت عليه سورة الإسراء - سورة بني إسرائيل - في أوائلها وهي تبين للأمة تطور الصراع ومراحله.

إن قضية الإيمان هي القضية الأساس التي لا يعدلها شيء، وهي ركيزة كل عمل، وهي منطلق كل حركة في الحياة.. إنها قضية الأنبياء جميعاً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وكل عمل لا يقوم على هذا الأساس فهو باطل ماحق ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]. ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، فيأتي

الرجل العظيم عند الميزان فلا يزن جناح بعوضة، ويأتي الرجل بلا إله إلا الله فينجو بها فيدخل الجنة..

(قولوا لا إله إلا الله تفلحوا). وكما قالت الصدِّيقة بنت الصدِّيق **(لو كان أول ما نزل أن دعوا الخمر لقالوا لا ندعه أبداً)**، فما انتكست الأمة ولا ارتكست إلا عندما أصبح هذا الركن منبوذاً أو مؤخَّراً.. إن الحق يستطيع أن يشق طريقه بين ركام الأضاليل، ويستطيع أن يعلو ويظهر. وأبشِّر الأمة أن الإيمان ظاهر لا محالة لأنه كلمة الله فهي العليا، ولأنها العليا فهي المنتصرة، وأن الأمة لم تخلُ أبداً من الفئة المؤمنة الصادقة على الحق[1]..

نحن بهذا الإيمان نوقن أن وعد الله حق في نصر دينه والتمكين لعباده في الأرض.. حتى يبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار فيعم بنوره المعمورة كلها... عن تميم الداري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ» وكان تميم الداري، يقول: "قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ**»[2]

- نحن في زمان أمسى كثير من المسلمين يتسمَّون بغير أسماء المسلمين ويتنادَون بغير نداء الإسلام والإيمان: الشعوبيون – الرفاق – المواطنون – القوميون..إلخ

ويتباهَون بإنكار إيمانهم فقد استبدلوا العلمانية والماركسية والوطنية والقومية والقطرية بل والعشائرية بالإيمان والإسلام، بل أصبح الإسلام سُبّة وأضحى الإسلام قرين التخلف والرجعية والظلامية.

---

(١) إن ما جرى ويجري في تونس ومصر وليبيا وغيرها في المنطقة العربية منذ ١٤/ يناير٢٠١١ لهو برهان هلى أن هذه الأمة على خير فإا كانت دولة الظلم ساعة فإن دولة الحق إلى قيام الساعة.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، إسناده صحيح على شرط مسلم. تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد ، وآخرون.

نسمع ذلك ممن تسمّى بمحمد وأحمد وعبدالله وعلي ويتشدقون باسم التنوير والتقدم.. وما هو – والله – إلا الخذلان والهزيمة والاندحار واتباع سنن الآخرين مصداقاً لنبوءة المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه الذي لا ينطق عن الهوى.. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَبَاعًا فَبَاعًا، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ دَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، أَهْلُ الْكِتَابِ ؟ قَالَ: «فَمَهْ»** [1].

- فأردنا أن ينتبه الناس لهذا النداء الخالد العظيم الذي ارتضاه لنا رب العالمين.. هذا النداء الذي رضيه لنا رب السموات والأرض لننزع عنا لبوس الجاهلية المعاصرة بكل تلاوينها.. حتى نعلي صوتنا مجاهرين بعزة، بأننا مؤمنون مسلمون امتثالاً لأمر ربنا العزيز الحكيم ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٨]، فلنكسر الجرّة ولترتجّ الأرض بالنداء العظيم الخالد، **(رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)** وليعلُ صوت العزة بنداء العزة **(الله غايتنا والقرآن دستورنا والرسول زعيمنا ولو كره الحاقدون).**
- طغت الجاهلية وبغت وأكلت الأخضر واليابس وأينع سوقها، وضغطت حتى انكمش حزب الإيمان والإسلام من بعد أن مزقتهم يد الجاهلية فريقاً استضعف وفريقا قتِّل وأعدم، وفريقا شرِّد في الآفاق، وفريقاً غيِّب في السجون.. وفريقاً استسلم وركن وباع آخرته بدنيا غيره، لم يأخذ إلا المتساقط من أشداق الطغاة المفسدين.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، إسناده صحيح على شرط مسلم. تحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون.

الذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في أرض رفعوا عقيرتهم إنما نحن مصلحون ويشهد الله ما هم إلا مفسدون، أضاعوا العباد والبلاد لينالوا حظاً من الحياة الدنيا يجود به عليهم الأسياد، ونسوا حظاً مما ذكروا به واتبعوا أهواءهم وطُمس على قلوبهم فهم لا يفقهون.. لا يفقه من يبيع جنة عرضها السموات والأرض خالدين فيها أبدا.. بمتاع قليل يوشك أن يفارقه كما فارقه مَن قبله.. لا يفقه من يسكن في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وقد تبين لهم كيف فعل الله بهم.. ثم لا يتعلم..

فلنوقن نحن المؤمنين أننا لنحن المنصورون وأن العاقبة لنا، ألم يقل الحق تعالى ﴿وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ ﴿وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، نعم العاقبة والتمكين في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦]. فليعمل كلٌّ منا على تعجيل هذا اليوم حتى يكون على أيدينا نحن اليوم، **بتحقيق شرط التمكين فينا** ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥- ٥٦] ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

- وإن أهملنا وقصّرنا وبقينا نركن إلى الذين ظلموا فإن نصر الله قادم والتمكين لا محالة ولكن بغيرنا ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩] ﴿هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ

ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. فالإسلام قادم بنا وبغيرنا.. فنسأل الله العلي العظيم أن يكون بنا فنفوز بهذ الفضل العظيم في الدنيا ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

أول نداء وآخر نداء في القرآن الكريم

- أول نداء في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ..﴾ [البقرة: ٢١]. تكرر مرتين في سورة البقرة. وقد ورد النداء في سورة البقرة ثلاثاً وعشرين مرة، على النحو التالي: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ مرتان. ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ثلاث مرات، ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مرة واحدة من موسى لقومه، ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ مرتان، ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ مرة واحدة من يعقوب لبنيه.
- وأول نداء للمؤمنين في القرآن وكان في سورة البقرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. وقد تكرر هذا النداء في السورة إحدى عشرة مرة كما يلي: **١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢** .
- وآخر نداء في القرآن وهو خطاب موجه للكافرين ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].

قضية الإيمان في القرآن الكريم

وردت كلمة الإيمان وتصريفاتها حوالي ٨٠٨ مرات في ٣٥ صيغة كما يلي:

[آمَنَ آمنَتْ آمنْتُ آمنتم آمنّا آمَنوا تؤمن لتؤمننّ تؤمنوا تؤمنون نؤمن لنؤمننّ يؤمن يؤمنّ ليؤمنَن لتؤمنُن يؤمنوا يؤمنون آمِن آمِنوا الإيمان إيمان إيمانٍ إيماناً إيمانكم إيمانه إيمانُها إيمانهم بإيمانهن مؤمن مؤمناً مؤمنَين مؤمنِين مؤمنون مؤمنة مؤمنات]

في السور المدنية حوالي ٥١٤ مرة

في السور المكية حوالي ٢٩٤ مرة

فهل هذا يعني أن القرآن اهتم بقضية الإيمان بعد الهجرة واستقرار المسلمين في دولتهم في المدينة أكثر من اهتمامه بها قبل الهجرة في مكة، بينما المرحلة المكية هي قاعدة بناء الإيمان وتأسيسه، وبينما المدينة هي قاعدة بناء الدولة بتشريعاتها المختلفة؟

سيتضح لنا الأمر حين نعرف حجم القرآن المكي والمدني.

فكم عدد آيات كل من المكي والمدني؟ وكم عدد صفحات كلٍّ؟

عدد آيات القرآن الكريم = ٦٢٣٦ آية.

عدد آيات القرآن المكي = ٤٦٤٨ آية، بينما عدد آيات القرآن المدني = **١٦١٥.**

عدد صفحات المكي = ٣٧٠ صفحة، وعدد صفحات المدني = **٢٣٤** صفحة – حسب مصحف المدينة –.

صحيح أن تكرار مفردة الإيمان ومشتقاتها في المدني أكثر من المكي مع أن حجم المكي أكبر من المدني آياتٍ وصفحات، ولكن علينا أن نعلم أن كل القرآن المكي يعالج قضية الإيمان حيث ركّز على توحيد الله في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.. والتركيز على إقامة الحجة والبرهان على ذلك وكذا البعث والنشور والحشر والميزان والصراط والجنة والنار بشكل كبير جداً، وركز على القصص الداعم لقضية الإيمان ومصائر المكذبين في الدنيا...

من هنا نجزم بأن القرآن المكي جله إيمان وتثبيت لقواعده والبناء عليه.

– إن أهم ما ينبغي على كل مسلم الاهتمام به دائماً هو الدعوة إلى التوحيد وهو معنى قوله – تبارك وتعالى–: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [**محمد: من الآية ١٩**].

وهكذا كانت سنة النبي ﷺ عملاً وتعليماً.

فالنبي – ﷺ – في العهد المكي إنما كان فعله ودعوته محصورة في الغالب في دعوة قومه إلى عبادة الله لا شريك له. ففي حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – الوارد في

الصحيحين أن النبي – ﷺ – عندما أرسل معاذاً إلى اليمن قال له: "**ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك..**" [رواه البخاري]. وهكذا بدأ عليه الصلاة والسلام واستمر في دعوته في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً من عمره المبارك.

ولزيادة بيان في هذه المسألة فإني وجدت أن ذكر «**الجنة والنار**» جاءت كالتالي:

عدد المرات **٢٧٨** مرة:

في القرآن المكي **١٥٦** مرة.

وفي القرآن المدني **١٢٢** مرة.

والعجيب أن ذكر الجنة تكرر في المكي **٧٨** مرة، وذكر النار تكرر في المدني **٧٨** مرة.

و«**يوم القيامة**» تكرر في القرآن **٧٠** مرة:

في المكي **٤٦** مرة، وفي المدني **٢٤** مرة.

و«**البعث**» بنفس هذا اللفظ جاء ثلاث مرات:

مرتان في المكي، ومرة واحدة في المدني.

و«**الساعة**» بمعنى اليوم الآخر وردت **٤٠** مرة:

في المكي ثماني مرات وفي المدني **٣٢** مرة.

أما كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**) فجاءت **٢٢** مرة في خمس عشرة سورة وهي:

«البقرة ١٦٣»«طه ٨، ١٤، ٩٨»«الأنبياء ٢٥، ٨٧»«المؤمنون ١١٦»«النمل ٢٦» «القصص٨٨،٧٠»«فاطر٣»«الصافات ٣٥»«الزمر ٦»«غافر٣، ٦٢، ٦٥»«الدخان ٨» «محمد ١٩»«الحشر ٢٢، ٢٣»«التغابن١٣» «المزمل٩».

في المكي: سبع عشرة مرة في إحدى عشرة سورة.

في المدني: خمس مرات في أربع سور.

مما يدلل بشكل قطعي أن قضية الإيمان كان التركيز عليه في العهد المكي أكثر، ومما نفهم منه أيضاً أن بناء دولة الإسلام وتحكيم شرع الله تعالى يجب أن يسبقه قاعدة إيمانية متينة وصلبة يقوم عليها بناء الأمة المتكامل فالأمة لا تحافظ على كيانها ولا تنهض بالمهمة الثقيلة إلا من خلال جيل أو أجيال هم جبال في إيمانهم وعقيدتهم وأوتاد لتثبيت أركان دولة الإسلام من أن تميد بها الشبهات والشهوات، يقدمون أنفسهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله كما وصف الله تعالى

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [النساء: ٧٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١١١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. هذا الجيل لا يهتز لأي عارض لا كما نرى اليوم أمتنا كريشة في مهب الريح.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

النداء بـ "يا"

النداء هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو أو أنادي. ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وقد تحذف أداة النداء ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾.

فإذا كان النداء بـ "يا" في أصل استعمالها لنداء البعيد فإن الله تعالى حين ينادي عباده المؤمنين به فهو للدلالة على رفعة قدر المنادى وعظم شأنه ولكرامة المؤمنين وعلو منزلتهم عنده سبحانه الرحمن الرحيم.

وإلا فإن الله تعالى قريب من عباده المؤمنين ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومحيط سبحانه بكل شيء علماً ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وهو معهم سبحانه ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

فأي رحمة وأي تودد من الله الودود وهو ينادي عباده الذين أسرفوا على أنفسهم أن يُقبلوا عليه سبحانه وأن لا يقنطوا من رحمته فهو الغفور الرحيم – اللهم اشملنا بمغفرتك ورحمتك يا أرحم الراحمين ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ تَنفَلِتُ عَنْهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، وَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ لِيَضْطَجِعَ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عَلَى رَأْسِهِ**» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

النداء بصفة الإيمان

أتى رجلٌ عبدَ الله بن مسعود، فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

إنه النداء الحبيب المحبب لكل من ذاق طعم الإيمان فالله تعالى يستجيش في نفوس المؤمنين الاستجابة والتلبية فلا يملكون إلا أن يقولوا «لبيك وسعديك – يارب – والأمر كله بين يديك. نحن – معشر المؤمنين – عبادك.. لك الأمر، وعلينا الطاعة والامتثال إن كنا مؤمنين. وسنكون بإذنك ومشيئتك مؤمنين دائماً، تحبنا وترضى عنا.. إنه النداء العلويّ الرائع الذي يرفعنا إلى مرتبة العبودية لله تعالى مدى حبه تعالى للمؤمنين.. وإذ يتكرر هذا النداء تسعاً وثمانين مرة يوضح الطريق المستقيم إلى مرضاته سبحانه، ويبين السبيل الأقوم للحياة الطيبة في الدنيا والواعدة في الأخرى»[١].

«إنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولاً فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة.

وأيضاً فاسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات»[٢].

---

(١) دكتور: عثمان قدري مكانسيhttp://saaid.net/arabic/71.htm .

(٢) تفسير مفاتيح الغيب – بتصرف-: الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي

دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م. الطبعة: الأولى.

إن الإيمان هو سبب التكليف.. فالله لا يكلف كافراً أو غير مؤمن.. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا.. فما دام العبد قد آمن فقد أصبحت مسؤولية حركته في الحياة عند ربه.. ولذلك يوحي إليه بمنهج الحياة.. أما الكافر فلا يكلفه الله بشيء»[١].

تعريف الإيمـان

- جاء في المعجم الوسيط: آمن إيماناً: صار ذا أمن و- به: وثق، وصدقه وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وفلاناً: جعله يأمن[٢].

- قال مجد الدين في القاموس: «...وآمن به إيماناً: صدقه. والإيمان: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة»[٣].

- قال المرتضى في التاج: «... وما أحسن أمنك بالفتح ويحرك، أي دينك وخلقك، نقله ابن سيده وآمن به إيماناً: صدقه» .

والإيمان: التصديق وهو الذي جزم به الزمخشري في الأساس واتفق عليه أهل العلم من اللغويين وغيرهم. **قال بعض المحققين:** الإيمان يتعدى بنفسه كصدق، وباللام باعتبار معنى الإذعان، وبالباء باعتبار معنى الاعتراف إشارة إلى أن التصديق لا يعتبر بدون اعتراف. وقد يكون الإيمان بمعنى: الثقة يتعدى بالباء بلا تضمين؛ قاله البيضاوي. **وقال الجوهري:** أصل آمن أأمن بهمزتين، لُيِّنَت الثانية، وقال الأزهري: أصل الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله تعالى عليها، فإن اعتقد التصديق بقلبه كما صدّق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مُؤدّ للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق، ومن زعم أنَّ الإيمان هو إظهار القول دون التصديق بالقلب فهو لا يخلو من أن يكون منافقاً أو جاهلاً لا يعلم ما يقول أو يقال له.

---

(١) تفسير خواطر محمد متولي الشعراوي.

(٢) المعجم الوسيط ص28 مادة "أمن" .

(٣) ترتيب القاموس المحيط للطاهر الزاوي ص1/ 182 مادة "أمن" .

- **قال الزبيدي**: وقد يطلق الإيمان على الإقرار باللسان فقط كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣]، أي آمنوا باللسان وكفروا بالجَنان فتأمَّل.

وقد يكون الإيمان إظهار الخضوع، وأيضاً: قبول الشريعة، وما أتى به النبي ﷺ، واعتقاده وتصديقه بالقلب، قاله الزجاج.

قال الإمام الراغب رحمه الله تعالى: الإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها النبي ﷺ، وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان، ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول والصدق والعمل الصالح إيمان"[١].

قال ابن فارس: أمن: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق، والمعنيان كما قلنا متقاربان... وأما التصديق فقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي مصدق لنا. وقال بعض أهل العلم: إن «المؤمن» في صفات الله تعالى هو أن يصدق ما وعد عبدَه من الثواب، وقال آخرون: هو مؤمن لأوليائه يؤمِّنهم عذابه ولا يظلمهم فهذا قد عاد إلى المعنى الأول. ومنه قول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها = ركبان مكة بين الغيل والسَّعَدِ[٢]

التعريف الاصطلاحي: عند أهل السنة:

بوب الإمام البخاري في الصحيح: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ **«بني الإسلام على خمس»** ثم قال: وهو قول وفعل. يزيد وينقص. قال ابن حجر في الفتح في شرح كلامه: قوله «وهو» أي الإيمان «قول وفعل يزيد وينقص» وفي رواية للكشميهني «قول

---

(١) تاج العروس لمرتضى الزبيدي ج18،24،25 مادة "أمن".

(٢) معجم المقاييس في اللغة ص88،89 مادة "أمن".

وعمل»، وهو اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك، والكلام هنا في مقامين: **أحدهما**: كونه قولاً وعملاً، والثاني كونه يزيد وينقص. فأمَّا القول فالمراد به النطق بالشهادتين، وأمَّا العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقاد والعبادات. ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان ومن نفاه إنَّما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، فالسلف قالوا هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان وعمل بالأركان. وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله. ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص. أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط فمن أقرَّ أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعل فعل الكافر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.

وأما المقام **الثاني**: فذهب السلف إلى أنَّ الإيمان يزيد وينقص. قال الشيخ محي الدين: والأظهر المختار أنَّ التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصدّيق أقوى من إيمان غيره بحيث لا يعتريه الشبهة. ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى أنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلاً منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها. وروى أبو القاسم اللالكائي بسنده الصحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أنَّ الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة والجماعة، وقال الحاكم في مناقب الشافعي: قال الشافعي: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص، وزاد: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ثم تلا: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدَّثر: ٣١][١].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ح1/ 47:45 .بتصرف.

بعض ما ورد عن السلف في تعريف الإيمان:

- **سفيان بن سعيد الثوري:** «... والإيمان قول وعمل ونية يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. ولا يجوز القول إلا بالعمل والعلم إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بموافقة السنة»[١].

- **أحمد بن حنبل:** .. والإيمان قول وعمل يزيد وينقص كما جاء في الخبر: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**[٢].

- **علي بن المديني:** «.. والإيمان قول وعمل على سنة وإصابة ونية والإيمان يزيد وينقص وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٣].

- **وعن مالك بن أنس وسفيان الثوري:** الإيمان قول وعمل[٤].

- **قال سفيان بن عيينة:** خالفنا المرجئة في ثلاث، نحن نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: قول بلا عمل، ونحن نقول: يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ونحن نقول: نحن مؤمنون بالإقرار، وهم يقولون: نحن مؤمنون عند الله[٥].

- **قال القاضي أبو يعلى في مسائل الإيمان:** «وأما حده في الشرع فهو جميع الطاعات الباطنة والظاهرة، فالباطنة أعمال القلب وهو تصديق القلب، والظاهرة هي أفعال البدن الواجبات والمندوبات.

- **الخلاصة:** أنَّ الإيمان اعتقاد في القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح وهذا مذهب الجمهور من أهل السنة.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة اللالكائي ج1/ 170 .

(٢) المرجع السابق ص179 .الحديث أخرجه أبو داود 2/ 632، برقم:(4682)،والترمذي 3/ 466، برقم: (1162) وغيرهما، قال الألباني حسن صحيح.

(٣) المرجع السابق ص187 .

(٤) المرجع السابق ص94 .

(٥) شرح السنة للإمام البغوي ج1/ 41 .

مخالفة الأحناف لمذهب جمهور أهل السنة في تعريفه:

قال الإمام الأعظم رحمه الله في كتابه الوصية: «ثم الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر، ولا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر، فكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمناً وكافراً، والمؤمن مؤمن حقاً وليس في إيمان المؤمن شك، كما أنه ليس في كفر الكافر شك، لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي في موضع ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي في محل آخر والعاصون من أمة محمد ﷺ كلهم مؤمنون حقاً وليسوا بكافرين أي حقاً»[1].

وقال أيضاً في كتاب الوصية: «ثم العمل غير الإيمان والإيمان غير العمل بدليل أن كثيراً من الأوقات يرتفع العمل من المؤمن، ولا يجوز أن يقال: يرتفع عنه الإيمان فإن الحائض ترتفع عنها الصلاة، ولا يجوز أن يقال: يرتفع عنها الإيمان، أو أمر لها بترك الإيمان، وقد قال لها الشارع: دعي الصوم ثم اقضيه، ولا يصح أن يقال: دعي الإيمان ثم اقضيه، ويجوز أن يقال: ليس على الفقير زكاة، ولا يجوز أن يقال: ليس على الفقير الإيمان»[2].

ومن خلال ذلك يتبين لنا خلاف الأحناف لمذهب جمهور أهل السنة في تعريف الإيمان حيث قصروه على التصديق ولم يدخلوا فيه الأعمال وهو عندهم لا يزيد ولا ينقص خلافاً لمذهب الجمهور القائلين بزيادته ونقصانه. والله أعلم.

العمل من الإيمان

نسوق هذا الكلام النفيس لمحمد رشيد بن علي رضا:

«جعل الله تعالى للمؤمنين آيات، ووصفهم في كتابه بصفات غيرها المحرفون واستبدلوا بها آيات الغش وصفات المخادعة التي يفتنون بها العامة. أكبر آيات الإيمان

---

(١) شرح الفقه الأكبر لملا علي قادري ص127، 128 .

(٢) المرجع السابق ص130 .

وأظهرها الاهتداء بكتاب الله تعالى والدعوة إليه، وإيثاره على كل ما يخالفه، واحتمال البأساء والضراء في سبيل الحق الذي يهدي إليه والخير الذي يحض عليه، ويدخل في ذلك بذل المال والنفس، فمن بخِل بما آتاه الله من مال وقوة على تأييد كلمة الله فلا وزن لإيمانه في كتاب الله.

فيا أيها المسلم المقلد لوالديه ومعاشريه وأقرانه، الذي يحسب أنه من أهل الجنة؛ لأنه ولد وربي بين المسلمين، ورضي ببعض ما هم عليه من رسوم الدين، أو اتكالا على شفاعة الأولين، اقرأ أو اسمع وتأمل ما عاتب الله تعالى به أفضل سلفك الصالحين، وما ذكره عمن سبقهم من أتباع النبيين.

ويا أيها العلماء بالرسوم، والعاكفون على قراءة كتب العلوم، ليس بأمانيكم ولا أماني الكاتبين، فقد وضع كتاب الله الميزان للصادقين والمنافقين، فعليكم أن تتذكروا وتذكروا به إخوانكم المسلمين، ولا يصدنكم عن آيات الله والاهتداء بكتاب الله أنكم فضلتم الناس بقراءة مطولات الكتب العربية، وصرف السنين الطوال في فهم الأحكام الفقهية، والاكتفاء من علم الإيمان بمثل السنوسية والنسفية؛ فإن ينبوع الإيمان كتاب الله تعالى فاحصوا ما فيه من الشعب والآيات على الإيمان ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾.

ويا أيها الأمراء والسلاطين الذين انتحلتم لأنفسكم الرياسة في هذا الدين، وإفاضة السلطة الدينية على العلماء والحاكمين، اعلموا أنكم مخاطبون كغيركم بهذه الآيات، بل هي موجهة إلى غيركم بالتبع وإليكم أولا وبالذات؛ لأنكم سلبتم الأمة الاستطاعة على العمل للملة، ومنكم من سلبها أيضًا حرية القول والدعوة، فعليكم أن تخفضوا من هذه الكبرياء، وأن تتحملوا في سبيل الحق البأساء والضراء، وأن تبذلوا في تأييد كَلمة الله قناطير الذهب التي تخزنون، وهذه المزارع والدساكر التي تتأثّلون، فإن ما تستدلون به على أصل سلطتكم من القرآن مقيد بكونكم من أهل الإيمان، وهذه آيات المؤمنين، وما أعلم الله به أهل الإيمان الصادقين، بل عليكم بعد إقامة شعب الإيمان في أنفسكم، أن تقموها

في أنفس رعيتكم، وتكونوا قدوة لعالمهم وعاملهم، وغنيهم وفقيرهم؛ لتكونوا أئمة هدى ونور لا أئمة ضلالة وفجور، وإلا كان عليكم إثمكم وإثم جميع الأمم التي منيت بكم.

وجملة القول أنه يجب على كل مكلف أن يتحقق بصفات الإيمان الّتي جاء بها الكتاب العزيز، ويعلم أن للإيمان عليه حقوقا عامة وواجبات خاصة هن آيات الإيمان وثمراته في الأنفس والأعمال، وبهن يؤدي إلى غايته من سعادة الدارين، ولم يسلب الله هذه الأمةَ تلك النعم التي أنعم بها على سلفها بقيامهم بحقوق الإيمان إلا بعد التفريط فيها، ثم إنهم ليمنون أنفسهم بالجنة بدلا عما فاتهم من السيادة والعزة غافلين عن الآيات البينات التي تفرض عليهم من الأعمال لسعادة الآخرة أكثر مما تفرضه عليهم لسعادة الدنيا، وإن في كل آية منها ما يكفي لاستئصال جراثيم الغرور والأماني، فما بالك بمجموعها ! فعلى المسلم المذعن أن يشغله تطبيقها على نفسه عن اشتغاله بعيوب غيره، وأن يتعاون مع أهلها على البر والتقوى، ويهجر الراغبين عنها غرورًا بزينة الحياة الدنيا»[١]

«الإيمان باللّه في الإسلام قاعدة التصور. وقاعدة المنهج الذي يحكم الحياة. وقاعدة الخلق وقاعدة الاقتصاد.. وقاعدة كل حركة يتحركها المؤمن هنا أو هناك. الإيمان باللّه معناه إفراده - سبحانه - بالألوهية والربوبية والعبادة.. ومن ثم إفراده بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه في كل أمر من أمور الحياة.. ليس هناك شركاء - إذن - في الألوهية أو الربوبية. فلا شريك له في الخلق. ولا شريك له في تصريف الأمور. ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد. ولا يرزق الناس معه أحد. ولا يضر أو ينفع غيره أحد.. ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيرا كان أو كبيرا إلا ما يأذن به ويرضاه.. وليس هناك شركاء في العبادة يتجه إليهم الناس. لا عبادة الشعائر ولا عبادة الخضوع والدينونة. فلا عبادة إلا للّه.. ولا طاعة إلا للّه ولمن يعمل بأمره وشرعه، فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذي لا سلطان إلا منه.. فالسيادة على ضمائر الناس وعلى سلوكهم للّه وحده

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا.

بحكم هذا الإيمان.. ومن ثم فالتشريع وقواعد الخلق، ونظم الاجتماع والاقتصاد لا تتلقى إلا من صاحب السيادة الواحد الأحد .. من اللّه .. فهذا هو معنى الإيمان باللّه .. ومن ثم ينطلق الإنسان حرا إزاء كل من عدا اللّه، طليقا من كل قيد إلا من الحدود التي شرعها اللّه، عزيزا على كل أحد إلا بسلطان من اللّه»[1].

ثمار الإيمان

من أعظم النعم التي أنعم بها الحق تبارك وتعالى علينا وأهمها نعمة الإيمان فهي القضية المصيرية التي ينبغي للإنسان أن يهتم بها، فهي السعادة الأبدية، إما في الجنة أوعياذاً بالله في النار، هذه النعمة التي نحمده عليها لها ثمار يانعة، وفوائد عظيمة وجليلة يشاهدها كل من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فثمار هذا الإيمان أكثر من أن تحصى، فهي متعددة ومتنوعة تنوع مواضيع الإيمان فهناك ثمار عامة في الدنيا، وهناك ثمار في حياة الفرد يجدها في نفسه، وهناك ثمار في المجتمع تشعر بها الجماعة المسلمة، وهناك ثمار في الحياة الأخرى، وهناك ثمار خاصة في كثير من قضايا الإيمان كثمار الإيمان بالله - سبحانه وتعالى-، وما يتفرع عنه من ثمار لتوحيد الرب تبارك وتعالى في ربوبيته وألوهيته، والثمار التي يجدها المسلم في توحيد الأسماء والصفات، والثمار اليانعة التي يجنيها المسلم بالإيمان بالرسل الكرام، وثمار الإيمان بالكتب، وثمار الإيمان بالملائكة.

أولاً: الثمار العامة:

- **ثمار الإيمان في الحياة الدنيا:**

١- **الهداية للحق**: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

٢- **الحياة الطيبة**: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

---

(١) فى ظلال القرآن - ص٣٤١.

طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

٣- **الولاية:** قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٤- **الرزق الطيب**: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٥- **العزة**: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

٦- **النصر على الأعداء**: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

٧- **الدفاع**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. وقال ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه...**»[1].

٨- **عدم تسليط الكافرين**: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٩- **التمكين والاستخلاف في الأرض**: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ

---

(١) صحيح البخاري:٥/ ٢٣٨٤، برقم: ٦١٣٧.

(١) فتح القدير: ٤/ ٦٩، وانظر في تفسير الآية تفسير ابن كثير: ٣ / ٤٠١، وتفسير القرطبي: ١٢/ ٢٧٢.

فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

- **ثمار الإيمان في الحياة الآخرة:**

١) **الخاتمة الحسنة:** ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

٢) **التثبيت عند السؤال في القبر:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يقول الألوسي: «في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك ولا تدهشهم الأهوال»(١).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قولُ اللهِ:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾»(٢).

٣) **التوسعة في القبر:** جاء في حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال: «.. **فينادى مناد في السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره...**»(٣).

---

(١) تفسير الألوسي: ٩ / ٣٦٢ ، وانظر في تفسير الآية: تفسير الطبري: ١٦ / ٥٨٩، وفتح القدير: ٤ / ١٤٥ ، والتحرير والتنوير: ٧ / ٤٣١، وتفسير الرازي: ٩/ ٢٤٧.

(٢) صحيح البخاري: 4/ 1735، برقم: 4422.

(٣) سنن أبي داود:2/ 652 ، برقم: 4753، ومسند أحمد بن حنبل:4 / 287، برقم: 18557، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

٤) **الأمن من الفزع الأكبر:** ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

٥) **الوقاية من شر يوم القيامة:** ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

٦) **الحساب اليسير وإعطاء الكتاب باليمين:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ – ٩].

٧) **النجاة من النار:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

٨) **النور الذي يكشف الطريق الموصلة إلى الجنة:** ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

٩) **استقبال الملائكة بحفاوة:** ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٣].

١٠) **الخلود في الجنة:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

١١) **ألوان مختلفة من النعيم في الجنة:**

- من الأزواج المطهرة: ﴿.... وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

- والرضوان والنعيم المقيم: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

- المساكن الطيبة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

- ينزع الله الغل من صدورهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣].

- النظر إلى وجه الله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. قال النبي ﷺ: **«جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»**(١).

- يحلون أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

- الرزق المعلوم: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤١ - ٤٣].

- الظلال والعيون والفواكه الشهية: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٣].

فهذه نماذج من النعيم المقيم الذي يلقاه أهل الإيمان في دار النعيم نسأل من الله العزيز القدير أن يجعلنا من أهل الجنة بمنه وفضله وكرمه إنه على ما يشاء قدير.

قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر "فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»(٢)، والمقصود ذكر طرف من هذا النعيم الذي ينعم به أهل الإيمان في الحياة

(١) صحيح البخاري:٤ / ١٨٤٨ ، برقم: ٤٥٩٧، ورواه مسلم:١/ ١٦٣، برقم:١٨٠.

(٢) صحيح البخاري:٣ / ١١٨٥، برقم: ٣٠٧٢، ورواه مسلم:٤/ ٢١٧٤، برقم: ٢٨٢٤.

الآخرة لتظهر لنا من خلاله الثمار العظيمة التي تحصل لأهل الإيمان في الآخرة.

ثانياً: الثمار الخاصة:

- **ثمار الإيمان بالله سبحانه وتعالى:**

١- **أعظم النعم**: فتوحيد الألوهية من أعظم النعم التي أنعم الله على بها على عباده، حيث هداهم إليه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

٢- **عبادة المولى تبارك وتعالى**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٣- **إنزال الكتب**: وخاتم هذه الكتب القرآن الكريم ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ - ٢].

٤- **تفريج الكرب**: فهو السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، ودفع عقوبتهما كما في قصة يونس عليه السلام.

٥- **منع الخلود في النار**: قال ﷺ: **«لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»**، قال الإمام النووي: فالمراد دخول الكفار وهو دخول الخلود[(١)].

٦- **منع دخول النار بالكلية**: قال عليه الصلاة والسلام: **«فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»**[(٢)].

٧- **حصول الاهتداء الكامل والأمن التام لأهله في الدنيا والآخرة**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(٢) رواه مسلم:1 / 93، برقم:91.

(١) شرح صحيح مسلم:2/ 91.

(٢) رواه البخاري: 1/ 164، برقم 415، ورواه مسلم: 1/ 454 ، برقم 33.

وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٨- **حصول الرضا**: فهو من أهم الأسباب لنيل رضا الله وثوابه.

٩- **حصول الشفاعة**: " قال رسول الله ﷺ: **«أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»**[1].

١٠- **ترتب قبول الأعمال عليه**: جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها، وفي كمالها، وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

١١- **يسهل على العبد فعل الخيرات**: ويعينه على ترك المنكرات، ويسليه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات؛ لما يرجوه من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي؛ لما يخشى من سخطه وأليم عقابه.

١٢- **تحبيب الإيمان في القلب**: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجُرات: ٧].

١٣- **تحرر العبد**: من رق المخلوقين ومن التعلق بهم، وخوفهم، ورجائهم، والعمل لأجلهم. وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، فيكون بذلك متألهاً متعبداً لله، فلا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

١٤- **التوفيق والتسديد**: فالله تكفل لأهله بالفتح والنصر، والعز والشرف، وحصول الهداية، والتيسير، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال، ويمن عليهم بالحياة الطيبة، والطمأنينة إليه وبذكره.

---

(١) رواه البخاري: ١ / ٤٩.

- **ثمرات توحيد الأسماء والصفات:**

١. **طريق معرفة الله:** فالعلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفته، فالله خلق الخلق ليعرفوه، ويعبدوه، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم؛ فالإيمان بالصفات وتعرفها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة الإحسان.

٢. **محبة الله**: فمعرفة الله تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له: وهذا هو عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه بمعانيها، وأحكامها، ومقتضياتها.

٣. **الإقتداء**: يسعى العبد إلى الاتصاف والتحلي بها على ما يليق به، فالمحب يحب أن يتصف بصفات محبوبة، فأحب الخلق إلى الله تعالى من اتصف بالصفات التي يحبها الحق تبارك وتعالى وابغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها.

٤. **تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد**: فالشريعة المنزلة من عند الله تهدف إلى إصلاح الإنسان، وطريقُ الصلاح هو إقامة العباد على منهج العبودية لله وحده لا شريك له، والعلمُ بأسماء الله وصفاته، يعصم ـ بإذن الله ـ من الزلل، ويفتح للعباد أبواب الأمل، ويثبت الإيمان، ويملأ قلبه بأجل المعارف والألطاف. فمثلاً أسماء العظمة تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله، فتثمر الخضوع والاستكانة والمحبة.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة له، وشوقاً إليه، ورغبة بما عنده، وحمداً وشكراً له. وأسماء العزة، والحكمة، والعلم، والقدرة ـ تملأ القلب خضوعاً وخشوعاً وانكساراً بين يديه عز وجل وهكذا..

٥. **الإنزجار عن المعاصي**: ذلك أن النفوس قد تهفو إلى مقارفة المعاصي، فتذكر أن الله يبصرها، فتستحضر هذا المقام وتذكر وقوفها بين يديه، فتجانب المعصية.

٦. **التوبة من المعصية**: فتضيق عليه الأرض بما رَحُبت، ويأتيه الشيطان؛ ليجعله

يسيء ظنه بربه، فيتذكر أن من أسماء الله "الرحيم، التواب، الغفور" فلا يتمادى في خطيئته، بل ينزع عنها، ويتوب إلى ربه، ويستغفره فيجده غفوراً تواباً رحيماً.

٧. **اللجوء إلى الله**: فالعبد تتناوشه المصائب، والمكاره، فيلجأ إلى الركن الركين، والحصن الحصين، فيذهب عنه الجزع والهلع، وتنفتح له أبواب الأمل.

٨. **الشجاعة**: فعند مقارعة الأشرار، وأعداء دين الله من الكفار والفجار، فيجدُّون في عداوته، وأذيته، ومنع الرزق عنه، وقصم عمره، وإلحاق الأذى به فعندما يعلم العبد بتفرد الرب تبارك وتعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه ظاهراً وباطناً.

٩. **زيادة الإيمان**: فالعلم بأسماء الله وصفاته من أعظم أسباب زيادة الإيمان، وذلك لما يورثه في قلوب العابدين من المحبة، والإنابة، والإخبات، والتقديس، والتعظيم للباري جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [**محمد: ١٧**].

١٠. **من أحصاها دخل الجنة**: قال ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة**»[1].

فما من صفة لله تعالى، أو اسم من الأسماء إلا ولها ثمار عظيمة، وآثار كبيرة، وهذا من فضل الله - عز وجل- على أهل التوحيد.

---

(١) صحيح البخاري: 2/ 981، برقم 2585، وصحيح مسلم: 4/ 2062، برقم:2677.

- **ثمار الإيمان بالرسل الكرام:**

إيمان المؤمن بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام له آثار عظيمة وثمرات كثيرة يجنيها المؤمن نذكر منها:

١- **معرفة رحمة الله:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

٢- **شكر الله تعالى على هذا النعمة:** فإرسال الرسل نعمة أنعم الله بها على الناس قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

٣- **محبة الرسل الكرام:** عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»**[1].

٤- **أتباع الهدى:** ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤].

- **ثمار الإيمان بالملائكة:**

الإيمان بالملائكة الكرام ثمراته عظيمة على المؤمن نذكر طرفاً منها:

١- **عظمة الخالق:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر: ١]. وقال النبي ﷺ:

---

(١) رواه البخاري: ١ / ١٤، برقم:١٦.، ومسلم: ١ / ٦٦ ، برقم:٤٣.

«أذن لي أن أحدِّث عن ملك من ملائكةِ اللَّه من حملة العرشِ، ما بين شحْمة أذنهِ إلى عاتِقِهِ مسيرة سبعمائةِ عام»(١).

٢- **محبة الملائكة**: على ما هداهم الله إليه من تحقيق عبادة الله على الوجه الأكمل ونصرتهم للمؤمنين واستغفارهم لهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦]. عن عائشة أنها قالت: قال نبي الله ﷺ: **«مَا فِي السَّمَاءِ الدُّنْيا مَوْضِعُ قَدَمٍ إلا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أو قائم»**.

فمن ثمرات ذلك أن يتشبه المسلم بالملائكة في مداومتهم على طاعة الله عز وجل والعبادة له.

٣- **عناية الله عز وجل بعباده**: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

والمعقبات: المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه، ويكون بدلاً منه، وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين.

٤- **المراقبة الدائمة – لله عز وجل-**: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧- ١٨].

٥- **الاستئناس بالملائكة في طاعة الله عز وجل**: حيث أن الله عز وجل يثبت بهم أولياءه على طاعته ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢].

٦- **البعد عن إيذاء الملائكة**: قال ﷺ: **«من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن**

---

(١) سنن أبي داود: 2/ 645، برقم: 4727، وقال الألباني: صحيح، انظر الجامع الصغير وزيادته: 1 / 86 ، برقم: 856.

مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[1].

٧- **التنبه من الغفلة والتذكر الدائم للموت**: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

٨- **تطهير العقيدة من الشرك**: المسلم إذا آمن بوجود الملائكة الذين كلفهم الله بهذه الأعمال العظيمة تخلص من الاعتقاد بوجود مخلوقات وهمية تسهم في تسيير الكون، فيطهر المسلم عقيدته من شوائب الشرك وأدرنه، وعندما يعلم المسلم أن الملائكة لا ينفعون ولا يضرون إلا بإذن الله، وإنما هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فلا يعبدهم ولا يتوجه إليهم، ولا يتعلق بهم.

- **ثمار الإيمان بالكتب:**

١- **الشعور بأن دين الله واحد**: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

٢- **عناية الله تعالى بخلقه**: يعلم المسلم عناية الله – عز وجل- بخلقه فإنزال الكتب على كل قوم منه سبحانه وتعالى ليهديهم ويرشدهم بها تدل على عنايته سبحانه بهم.

٣- **العلم بحكمة الله تعالى**: حيث أنزل على كل قوم ما يناسبهم من الشرائع، وتناسب أحوالهم. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

٤- **شكر نعمة الله في إنزال تلك الكتب**: فيتعيّن شكر الله على هذه النعم العظيمة كما في شكره على سائر النعم.

---

(١) صحيح مسلم: ١ / ٣٩٤، برقم: ٥٦٣.

- **ثمار الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره:**

الإيمان بالقضاء والقدر من أهم أركان الإيمان فهو قطب رحى التوحيد ونظامه، وهو سر من أسرار الله تعالى التي اختص به، فلم يَعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب.

والمؤمن بالقضاء والقدر يجني من الإيمان به ثماراً عديدة وفوائد جليلة في الدنيا والآخرة فمن جملة هذه الثمار والفوائد:

١- **الاعتماد على الله تعالى**: فالمسلم عند فعل الأسباب يعتمد على الله عز وجل لأنه مقدر الأسباب والمسببات. يقول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير، إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١).

٢- **الراحة النفسية**: قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٣]. فتسكن النفس ويطمئن البال، فإن من علم أن كل شيء بقدر هان عليه الأمر.

٣- **تهون على العبد المصائب**: قال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**»(٢).

٤- **ترك الإعجاب بالنفس**: فالإيمان بالقدر يَعْرِف الإنسان قَدْر نفسه، فلا يتكبر ولا يَبْطُر ولا يتعالى أبدا؛ لأنه عاجز عن معرفة المقدورِ، ومستقبل ما هو حادث، وحصول النعم له من الله تعالى ما هي إلا بما قدره الله له من أسباب الخير والنجاح،

---

(١) صحيح مسلم: ٤ / ٢٠٥٢، برقم: ٢٦٦٤.

(٢) صحيح مسلم:٤/ ٢٢٩٥، برقم: ٢٩٩٩.

فالإنسان يقرّ بعجزه وحاجته إلى ربه تعالى دائماً.

٥- **الثبات عند المحن والشدائد**: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]. إن الإيمان بالقدر يبعث في القلوب الشجاعة والثبات على مواجهة الشدائد، ويقوي فيها العزائم، ولا تخاف الموت.

٦- **الإيمان بالقدر هو القوة الدافعة والطاقة المولدة للنشاط**: فهو يدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والثراء لأن المؤمن إذا علم أن الناس لا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، ولا ينفعونه إلا بشيء قد كتبه الله له فإنه يتوكل ولا يهاب أحد من المخلوقين، ولا يعتمد عليه وإنما يتوكل على الله.

٧- **الصدع بالحق والجهر به**: إن الداعي إلى الله يصدع بدعوته، ويجهر بها أمام الكافرين والظالمين، لا يخاف في الله لومة لائم، يبين للناس حقيقة الإيمان ويوضح لهم مقتضياته، كما يبين لهم مظاهر الكفر والنفاق ويحذَرهم منها، ويكشف الباطل وزيفه، ويقول كلمة الحق أمام الظالمين، فإن المؤمن يفعل كل ذلك وهو راسخ الإيمان واثق بالله، متوكل عليه، يعلم أن كل شيء بقدر، صابر على كل ما يحصل له في سبيله؛ لأنه موقن أن الآجال بيد الله وحده، وأن الأرزاق عنده وحده، وأن العبيد لا يملكون من ذلك شيئا مهما وجد لهم من قوة يتقوون بها، وأعوان ينتصرون بهم.

٨- **القضاء على كثير من الأمراض**: والإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، الذي يدفع العبد إلى الضغينة والحقد، فإن العبد إذا علم أن الله هو المعطي وهو المانع، وأن الرزق مقسوم، والأجل محدود، سلَّم أمره إلى الله، وقنع بما رُزق ، وعلم أن ما كتب له سيأتيه، ولو لم يرد أهل الأرض، وأن ما لم يكتب لن يأتيه ولو أراد أهل الأرض.

٩- **التحرر من الخوف**: فمن ثمار الإيمان بالقدر تحرر العبد من الخوف إلا من الله جلَّ وعلا، فإذا علم المسلم أن لكل أجل كتاب، ولكل أمر مستقر، وأن نواصي العباد بيده سبحانه، لم يرهبه ظلم ظالم، ولا تجبر جبار.

١٠- **الحرص على العمل الصالح**: ومن ثمار الإيمان بالقدر الحرص على الأعمال الصالحة، لعلم العبد أن الموت قد يدهمه في أي لحظة، فيكون حاله كمن يسابق الزمن في سبيل التزود من عمل الخير.

١١- **شهود منة الله ونعمه على العباد**: يوجب للعبد شهود منة الله عليه فيما يمن به عليه من فعل الخيرات وأنواع الطاعات، فلا يعجب بنفسه ولا يدلي بعمله؛ لعلمه أنه تعالى هو الذي تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق، وأنه لو وكل إلى نفسه لضعف وعجز عن العمل، كما أنه سبب لشكر نعم الله بما ينعم عليه من نعم الدين والدنيا. فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من الله وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة.

- **ثمار الإيمان باليوم الأخر:**

الإيمان باليوم الأخر هو الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد البعث فهو إيمان بالأمور الغيبية التي تكون في يوم القيامة، والله – عز وجل – قد علق حصول التقوى والفلاح للإنسان في الدنيا والآخرة بالإيمان بما ذكره الله – سبحانه وتعالى- من الأمور الغيبية قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ – ٥]. فالإيمان به يورث المسلم ثمار عظيمة يجدها في الحياة الدنيا فمن هذه الثمار:

١- **الحرص على الأعمال الصالحة والزيادة منها**: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤١].

٢- **تسلية المؤمن**: عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها،

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

٣- **المحاسبة للنفس**: لأنه يعلم أين مصيره بعد موته، ويعلم أنه ملاق جزاء عمله، إن خيرا فخيراً وإن شرا فشراً، وأنه سيوقف للمحاسبة، وسيقتص له ممن ظلمه، وتؤخذ حقوق العباد منه لمن ظلمهم أو اعتدى عليهم.

٤- **إحياء المعاني والصفات الحميدة**: فالإيمان باليوم الآخر يحي في نفوس المؤمنين معاني الصبر والاحتساب، والرضا، والعفو والبذل في سبيل الله عز وجل.

5- **تحقيق الأمن والسلامة من الظلم**: في زمن عز فيه الأمن، ولم تتوقف فيه الحروب - وما ذاك إلا لأن الإيمان بالله وباليوم الآخر يلزم الإنسان أن يكف شره عن غيره في سره وفي علنه، فهو يردع الإنسان عن ظلم الآخرين وانتهاك حقوقهم، فإذا آمن الناس باليوم الآخر سلموا من ظلم بعضهم لبعض وحفظت حقوقهم.

6- **كمال العدل الإلهي**: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

7- **راحة البال**: فالإيمان باليوم الآخر هو إجابة لأهم الأسئلة من الذي خلقك؟ ولماذا خلقت؟ وإلى أين المصير بعد الموت؟ فالمؤمن يجد الجواب على هذه الأسئلة، فيعيش مطمئن البال، أما الكافر الذي لا يجد الجواب عليها يعيش في حيرة عظيمة وقلق دائم.

من الأعمال التي تزيد الإيمان

١. بر الوالدين:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [**الإسراء: ٢٣- ٢٤**]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [**لقمان: ١٤**].

وأمر بصحبتهما والإحسان إليهما ولو كانا كافرين، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [**لقمان: ١٥**].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلُ أمي؟ قال: «**نعم صلي أمك**»[1].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [**العنكبوت: ٨**].

بل حقهما أولى على الابن من حقوق جميع المخلوقين، في حدود الشرع الذي شرعه الله رب العالمين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من ؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من ؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من ؟ قال: « **ثم أبوك**»[2].

---

(١) رواه البخاري ٢/ ٩٢٤، برقم: ٢٤٧٧، ومسلم ٢/ ٦٩٦، برقم: ١٠٠٣.

(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٢٢٢٧، برقم: ٥٦٢٦، ومسلم ٤ / ١٩٧٤، برقم: ٢٥٤٨.

يقول أمية بن أبي الصلت يصف حال ابنه الذي خاب ظنه به:

غَـذَوْتُكَ مولـوداً وَعُلتُـكَ يافعـاً = تُعَـلُّ بما أدنـي إليـك وتَنْهَـلُ

إذا ليلـةٌ نابَتْـكَ بالشَّـكْوِ لم أَبِـتْ = لشَـكْواكَ إلا سـاهراً أَتَمَلْمَـلُ

كـأني أنـا المطـروقُ دونَـكَ بالـذي = طُرِقْـتَ بـه دونـي وعـينيَ تَهْمُـلُ

تَخَـافُ الـرَّدَىْ نَفْسِـي عليـكَ وإنهـا = لـتَعلمُ أن المـوتَ حـتمٌ مؤجـلُ

فلمـا بَلَغْـتَ السِّـنَّ والغايـةَ الـتي = إليهـا مَـدَىْ مـا كُنْـتَ فيـكَ أُؤَمِّـلُ

جَعَلْـتَ جزائـيْ منـكَ جَبْهـاً وغِلْظـةً = كأنـكَ أنـتَ المـنعمُ المتفضِّـلُ

فليتـكَ إذ لم تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتي = فَعَلْـتَ كمـا الجـارُ المجـاورُ يفعـلُ

وسَـمَّيْتَني باسْـمِ المُفَنَّـدِ رأيُـهُ = وفي رَأْيِـكَ التفنيـدُ لـو كُنْـتَ تعقـلُ

تَـراهُ مُعِـداً للخِـلاَفِ كأنـهُ = بِـرَدٍّ علَـى أَهْـلِ الصَّـوَابِ مُوَكَّـلُ[(١)]

ويصور أحد الشعراء حنو الأم في أبياتٍ شعريةٍ، قائلاً:

أغـرى امـرؤٌ يومـاً غلامًـا جاهـلاً = بنقـوده كـي مـا ينـال بـه الضـرر

قـال ائـتني بفـؤاد أمـك يـا فـتى = ولـك الجـواهرُ والـدراهمُ والـدرر

فمضـى وأغمـدَ خنجراً في صـدرها = والقلـب أخرجـه وعـاد علـى الأثـر

لكـنه مـن فـرط سـرعته هـوى = تـدحرج القلـب المقـطع إذ عثـر

نـاداه قلـب الأم وهـو معـفّر = ولـدي حبيي هـل أصابك مـن ضـرر

فكـأن هـذا الصـوت رُغْـم حُنـوه = غضبُ السماء على الغـلام قـد انهمـر

ورأى فظيـع جنايـةٍ لم يأتهـا أحـدٌ = سـواه منـد تاريـخ البـشر

---

(١) ديوان الحماسة، للتبريزي، ١/ ٣١٤- ٣١٥.

فارتـــد نحـــو القلــــب يغســـله بمـــا = فاضـــت بـــه عينـــاه مـــن ســـيل العـــبر

حزنـــاً وأدرك ســـوء فعلـــته الـــتي = لم يأتهـــا أحـــدٌ ســـواه مـــن البـــــشر

واســـتل خنجـــره لـــيطعن نفـــسه = طعنـــاً فيبقـــى عـــــبرة لمـــن اعتـــــبر

ويقـــول يـــا قلـــب انتـــقم مـــــني = ولا تغفـــر فـــإن جـــريمتي لا تغتفـــــر

نـــاداه قلـــب الأم كـــــف يـــداً ولا = تـــذبح فـــؤادي مـــرتين علـــى الأثـــر

نسأل من الله أن يوفقنا لطاعته وأن يرزقنا البر والإحسان إلى الوالدين إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ، يجيب دعوة الداع إذا دعاه.

٢. قيـام الليـل

من المعلوم أن من أفضل الأعمال وأهمها الصلاة فهي الركن الثاني من أركان الدين القويم، وهي من أعظم ما يتقرب به العبد إلى المولى – عز وجل- من الأعمال الصالحات فكثرة الصلاة والسجود من أحب الأعمال إلى الحق تبارك وتعالى بها ينال العبد الرضا من ربه، أمر بها المولى جل وعلا فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢]. وقال ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[١]، وقد سأل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «الصلاة لأول وقتها»[٢]، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهي صله بين العبد وربه، فيها يناجي الإنسان ربه ويسأله حوائجه من خير الدنيا والآخرة.

فالصلاة من أهم الأعمال – أعمال الجوارح – التي تزيد الإيمان في القلوب وهي فرائض ونوافل وأفضل النوافل بعد الفرائض قيام الليل والتهجد فعن أبي هريرة رضي

---

(١) سنن النسائي:٧/ ٦١، برقم:٣٩٤٠، ومسند أحمد بن حنبل:٣/ ٢٨٥، برقم: ١٤٠٦٩، وقال الألباني: الجامع الصغير وزيادته:١/ ٥٤٤، برقم: ٥٤٣٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل:٦/ ٣٧٤، برقم: ٢٧١٤٨، سنن الدارقطني: ١/ ٢٤٧، برقم:١٠، وقال الألباني: صحيح، أنظر مشكاة المصابيح: ١/ ١٣٤، برقم: ٦٠٧.

الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»(١).

فقيام الليل والتهجد من الأعمال التي تزيد الإيمان وتقويه فهو دأب الصالحين من قبلنا وهو النور لمن أراد أن يضيء الطريق ويستنير في السير فالقيام في الظلمات والأسحار ينير الطريق على الصراط، يجعل القلب يستنير بنور الإيمان، فيصبح الوجه وقد فاض عليه من هذا النور الذي استنار به القلب فيصبح وضاءً ويشع هذا النور ليصل إلى كل الجوارح فتجدها تنطق الخير، وتعمل الصالح، وتبتعد عن المنكر والرذائل فيعيش يومه في سعادة وآمان، وراحة واطمئنان.

وهي من صفات أهل الإيمان الذين أعد الله لهم الجزاء العظيم قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٦- ١٧].

وما أجمل تعليق الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه الآية حيث قال: «وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة»(٢).

ومن الأحاديث التي تبين فضل قيام الليل:

عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم:٢/ ٨٢١، برقم: ١١٦٣.

(٢) حادي الأرواح: ١/ ١٩١.

(٣) صحيح البخاري:٤/ ١٨٣٠، برقم:٤٥٥٧، ومسلم:٤/ ٢١٧٢، برقم: ٢٨٢٠.

قال ﷺ: **«أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة في جوف الليل وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم»**[1].

وعن عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه– قال: فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية[2].

ولا شك أن هذه العبادة العظيمة لها أهمية كبيرة فقيام الليل والتهجد فيه:

- يزيد الإيمان في القلوب.
- يساعد على ترك المحظورات.
- الإكثار من صلاة الليل يساعد على موافقة ساعة الإجابة التي يستجاب فيها دعاء المرء.
- من أسباب غفران الذنوب.
- من الأسباب الجالبة للرزق.

- **فوائد وثمار هذه العبادة:**
  - من أسباب دخول الجنة.
  - زيادة الإيمان في القلوب.
  - حط الذنوب والخطايا.
  - ينور القبر ويحسن الوجه ويذهب الكسل وينشط البدن.

- **وهناك فوائد صحية لقيام الليل نذكر بعضها على سبيل الإجمال:**

١- يؤدي قيام الليل إلى تقليل إفراز هرمون الكورتيزون وخاصة قبل الاستيقاظ بساعات، وهذا يتوافق مع وقت السحر، مما يقي من الزيادة المفاجئة في مستوى سكر الدم، والذي يشكل خطراً على مرضى السكر، ويقي كذلك من السكتة

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٨٢١، برقم: ١١٦٣.

(٢) مصنف عبد الرزاق: ٣/ ٤٧، برقم: ٤٧٣٥.

المميتة والأزمات القلبية في المرضى المعرضين لذلك.

٢- قيام الليل علاج ناجح لما يعرف باسم مرض الإجهاد الزمني بسبب ما يوفره قيام الليل من انتظام في الحركة ما بين الجهد البسيط والمتوسط الذي ثبتت فاعليته في علاج هذا المرض.

٣- قيام الليل ينشط الذاكرة، فقيام الليل له دور كبير في تنشيط الذاكرة وتنبيه المخ ووظائفه المختلفة، ويساعد على قوة التركيز والانتباه.

٤- يقي قيام الليل من مخاطر الشيخوخة وأمراضها، ويقي من أمراض كثيرة كمرض الزهايمر، والاكتئاب وغيرها.

٥- ويقرر مجموعة من الأمريكيين في كتاب الوصفات المنزلية المجربة وأسرار الشفاء الطبيعية أن القيام من الفراش أثناء الليل، والحركة البسيطة داخل المنزل، والقيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة، وتدليك الأطراف والتنفس بعمق له فوائد صحية عديدة، وهذا يشبه الوضوء وحركات الصلاة[1].

٣. إكرام الجار

ومن الإيمان إكرام الجار، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟**» فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعَدَّ خمساً وقال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**» [2]، والناس جميعاً

---

(١) أنظر هذه الفوائد الصحية باختصار من الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، ص: ٩١٦، وما بعدها.

(٢) أخرجه الترمذي، ٤/٥٥١، برقم: ٢٣٠٥، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان، والحسن لم يسمع عن أبي هريرة شيئاً، هكذا روي عن أيوب ويونس بن عبيد و علي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة وروى أبو عبيدة الناجي عن الحسن هذا

يبحثون عن السعادة، إلا أن مشاربهم قد اختلفت، ووسائلهم قد تنوعت، وها هو نبي الرحمة، بأبي وأمي هو ﷺ يدل على الخير ويبين الطريق، عن نافع بن عبد الحرث قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سعادة المرء الجار الصالح والمركب الهنيء والمسكن الواسع**».

- **المقصود بإكرام الجار في الشرع:** امتثال الوصية به بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة كالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه وتفقد حاله ومعاونته فيما يحتاج إليه إلى غير ذلك وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو معنوية[1].

- **حد الجوار:** والذي يظهر أن الإسلام لم يجعل للجوار حداً، فهو موكول إلى ما تعارفه الناس، قال ابن عاشور: «واختلف في حد الجوار: فقال ابن شهاب و الأوزاعي: أربعون داراً من كل ناحية، وروي في ذلك حديث وليس عن مالك في ذلك حدٌّ، والظاهر أنه موكول إلى ما تعارفه الناس»[2].

- **الحث على إكرام الجار:** ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

قال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[3].

وقال ﷺ: «**لا يمنع أحدُكم جارَه أن يغرز خشبه في جداره**»[4].

الحديث قوله ولم يذكر فيه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ-، وقال الشيخ الألباني: حسن، انظر حديث برقم : ١٠٠ في صحيح الجامع.

(١) فتح الباري، ١٠/ ٤٤٢.

(٢) التحرير والتنوير، ١/ ٩٤٨.

(٣) أخرجه البخاري، ٥/ ٢٢٣٩، برقم: ٥٦٦٩، ومسلم ٤/ ٢٠٢٥، برقم: ٢٦٢٥.

(٤) أخرجه البخاري، ٢/ ٨٦٩، برقم: ٢٣٣١، ومسلم، ٣/ ١٢٣٠، برقم: ١٦٠٩.

وقال ﷺ: «**يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك**»[1].

قال ﷺ: «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن**». قيل: ومن يا رسول الله ؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[2].

قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»[3].

قال عبدالله بن مسعود: سألت رسول الله ﷺ، أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**» قال: قلت له إن ذلك لعظيم قال: قلت ثم أي ؟ قال: «**ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» قال: قلت ثم أي ؟ قال: «**ثم أن تزاني حليلة جارك**»[4].

عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ قال: «**هي في النار**» قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وإنها تصدق بالأتوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «**هي في الجنة**»[5].

• أهمية الإحسان إلى الجار:

١. زيادة الإيمان وتقويته: فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟» فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدي فعد خمساً وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك**

---

(١) أخرجه مسلم، ٤/ ٢٠٢٥، برقم: ٢٦٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، 5/ 2240، برقم: 5670.

(٣) أخرجه البخاري، ٥/ ٢٢٤٠، برقم: ٥٦٧٢.

(٤) أخرجه مسلم، ١/ ٩٠، برقم: ٨٦.

(٥) مسند أحمد بن حنبل، ٢/ ٤٤٠، برقم: ٩٦٧٣، صحيح الترغيب والترهيب، ٢/ ٣٤٥، برقم: ٢٥٦٠. تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[1].

٢. في الإحسان إلى الجار دعوة إلى الله - عز وجل - بالسلوك والأخلاق الفاضلة: كان غلامٌ يهوديٌ يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: **«أسلم»** فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: **«الحمد لله الذي أنقذه من النار»**[2].

٣. الإحسان إلى الجار يثمر سلوكاً حسناً في المجتمع: فهو عنوانٌ للإيمان، وشعارُ الخير والإحسان، ولذا نفى النبي الكريم الإيمان عمن لا يحسن إلى جاره فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: **«لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»**[3]. و«البوائق بالموحدة والقاف جمع بائقة وهي الداهية والشيء المهلك والأمر الشديد الذي يوافي بغتة»[4].

٤. صلاح المجتمع المسلم وترابطه وتماسكه.

٥. حصول السعادة الأسرية بصلاح الجار، وتبرز جوانب السعادة الأسرية في جانب الجار الصالح:

- أن الجار الصالح يحفظ العورة ويستر العيبة.
- صلاح الجار يعين على نشوء الأبناء في بيئة صالحة.
- الجار الصالح يعين على نوائب الدهر.
- الجار يتأثر بسلوك جاره وكذلك الأولاد والنساء، والتأثر يكون سلباً أو إيجاباً.

٦. أداء حقوق الجار والإحسان إليه ومواساته وكف الأذى عنه: قال رسول الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، ١/ ٤٥٥، برقم: ١٢٩٠.

(٣) أخرجه مسلم، ١/٦٨، برقم: ٤٦.

(٤) فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٤٤٣.

ﷺ: **«خير الأصحاب عند الله خيره لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**[(١)].

٧. تناصح المجتمع المسلم، وتقييم السلوك والرجوع عن الخطأ: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قال جيرانك قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا قالوا إنك قد أسأت فقد أسأت»**[(٢)].

٨. في إكرام الجار منعٌ لإيذائه ورفعٌ للضرر عنه.

٤. التمسك بالجماعة

قال ﷺ بعد أن ذكر فتناً يتعرض لها المسلم في أخر الزمان، وقد قيل له ما المخرج منها ؟ قال ﷺ: **«تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»**[(٣)] فالحق مع الجماعة القائمة بالحق، والإمام الشرعي، وهما التي تجب ملازمتهما وعدم العدول عنهما، فالتمسك بالجماعة يحصل به الهدي إلى الصراط المستقيم، والنجاة من الفتن ويؤمن به من الانحراف إلى طرق أهل الضلال، فعلم من ذلك أن التمسك بالجماعة من أسباب تقوية الإيمان والحفاظ عليه، فنلاحظ أن كثيراً من العبادات تؤدى بشكل جماعي كالصلاة والصوم والحج وغيرها مما يشعر أن التمسك بالجماعة والسير معها من أهم العوامل التي تزيد الإيمان وتقويه.

والاعتصام على نوعين: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨] والاعتصام افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف فالعصمة: الحمية،

---

(١) أخرجه الترمذي، ٤/ ٣٣٣، برقم: ١٩٤٤. قال الشيخ الألباني: صحيح انظر حديث برقم: ٣٢٧٠ في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة، ١/ ٢١١، برقم: ١٠٣، وأخرجه أحمد بن حنبل، ٢/ ١٦٧، برقم: ٦٥٦٦، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجة، ٢/ ١٤١١، برقم: ٦١٢. قال الشيخ الألباني: صحيح، انظر حديث رقم: ٦١٠ في صحيح الجامع، وصحيح ابن ماجة، ٢/ ٤١٢، برقم: ٣٤٠١.

(٣) أخرجه البخاري: 3/ 1319، برقم: 3411، ومسلم: 3/ 1475، برقم: 1847.

والاعتصام: الاحتماء ومنه سميت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين[١].

ولفظ الجماعة يراد بها التمسك بجماعة المسلمين وعدم التفرق والتنازع، ووجوب الطاعة وعدم الخروج على إمام المسلمين، مثل قوله ﷺ: «**فعليك بالجماعة، فإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[٢]، وقوله ﷺ: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»[٣].

ومن النصوص التي تدل على وجوب الطاعة وعدم الخروج على ولي الأمر القائم بشرع الله، وعدم مفارقة جماعة المسلمين ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتةً جاهليَّة**»[٤].

ويطق لفظ الجماعة على المنهج الذي ينبغي على الجماعة التمسك والعمل به، والذي منه الاجتماع على الأصول العامة من القرآن والسنة مثل قوله ﷺ: «**لا يحلُّ دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٥].

ورحم الله ابن المبارك حيث قال:

إن الجماعـــة حبـــل الله فاعتصـــموا = منـــه بعروتـــه الـــوثقى لمـــن دانـــا[٦]

وقد نهي سبحانه وتعالى عن التفرق الذي هو من أسباب ضعف الاجتماع والقوة قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود: ١/ ٢٠٥، برقم:٥٤٧، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٣٠، برقم:٧٦٥، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر صحيح الترغيب والترهيب: ١/ ١٠٢، برقم: ٤٢٧.

(٣) سبق تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه مسلم: ٣/ ١٤٧٦، برقم: ١٨٤٨.

(٥) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٥٢١، برقم: ٦٤٨٤، ومسلم: ٣/ ١٣٠٢، برقم: ١٦٧٦.

(٦) التمهيد:٢١/ ٢٧٥.

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

تــأبى القــداح إذا اجــتمعن تكســرا = فــإذا افترقــن تكســرت أفــرادا[(١)]

قال ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**»[(٢)].

ومما يدل على أهمية التمسك بالجماعة أنها ضمان بالعصمة من الخطأ عند الاتفاق على أمر من الأمور.

قال ﷺ: «**لن تجتمع أمتي على الضلالة أبداً فعليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة**»[(٣)]، **وفي رواية: "فمن شذ شذ في النار»**[(٤)].

قال ﷺ: «**إنه سيكون بعدي هنات وهنات فمن رأيتموه فارق الجماعة أو يريد يفرق أمر أمة محمد ﷺ كائنا من كان فاقتلوه فإن يد الله على الجماعة فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض**»[(٥)]، والهنات جمع هنة وتطلق على كل شيء والمراد بها هنا

---

(١) السحر الحلال:١/ ٤٢، السحر الحلال في الحكم والأمثال، تأليف: أحمد الهاشمي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت

(٢) (23) – صحيح مسلم: ٣/ ١٣٤٠، برقم: ١٧١٥.

(٣) أخرجه الترمذي: ٤/ ٤٦٦، برقم: ٢١٦٧، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢٠١، برقم: ٣٩٧، والمعجم الكبير: ١٢/ ٤٤٧، برقم: ١٣٦٢٣، واللفظ له.

(٤) المستدرك:١/ ٢٠٠، برقم: ٣٩٢. قال الحاكم: فقد استقر الخلاف في إسناد هذا الحديث على المعتمر بن سليمان وهو أحد أركان الحديث من سبعة أوجه لا يسعنا أن نحكم أن كلها محمولة على الخطأ بحكم الصواب لقول من قال: عن المعتمر عن سليمان بن سفيان المدني عن عبد الله بن دينار، ونحن إذا قلنا هذا القول نسبنا الراوي إلى الجهالة فوهنا به الحديث و لكنا نقول أن المعتمر بن سليمان أحد أئمة الحديث و قد روي عنه هذا الحديث بأسانيد يصح بمثلها الحديث فلا بد من أن يكون له أصل بأحد هذه الأسانيد، ثم وجدنا للحديث شواهد من غير حديث المعتمر لا أدعي صحتها و لا أحكم بتوهينها بل يلزمني ذكرها لإجماع أهل السنة على هذه القاعدة من قواعد الإسلام فممن روى عنه هذا الحديث من الصحابة عبد الله بن عباس– رضي الله عنهما–.أنظر المستدرك:١/ ٢٠١. وقال الشيخ الألباني: صحيح انظر الجامع الصغير وزيادته:١/ ٢٧٣، برقم: ٢٧٢٩، وما بين قوسين وهي قوله شذ شذ في النار، ضعيف عند الألباني.

(٥) أخرجه النسائي: ٧/ ٩٢، برقم: ٤٠٢٠، وابن حبان في صحيحة:١٠/ ٤٣٧، برقم: ٤٥٧٧، وقال الشيخ الألباني: صحيح، انظر مشكاة المصابيح: ٢/ ٣٣٧، برقم: ٣٦٧٧، والحديث أخرجه مسلم

الفتن والأمور الحادثة[1].

وأما وصف الجماعة فقد ورد عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه قال حين صلى الظهر بالناس بمكة شرفها الله - فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: **«ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة»**[2].

والجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة[3].

وقال آخرون هي جماعة العلماء لأن الله عز وجل جعلهم حجة على خلقه وإليهم تفزع العامة في دينها وهم تبع لها.

فعلى المسلم أن يلزم جماعة المسلمين من الصحابة الكرام والتابعين وتابعيهم والأئمة من بعدهم ومن جاء بعدهم إلى يوم الدين حتى يسلم من الفتن الظاهرة والباطنة، يلزم جماعة المسلمين ولا يشذ عنهم يلزمهم في الاعتقاد والأقوال والأعمال قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] فمن رغب عنها فقد فارق الجماعة وخلع ربقة الإسلام من عنقه وشذ عنهم واتبع غير سبيل المؤمنين.

- **ولعل من أهم ثمار التمسك بالجماعة التي يجنيها المسلم في الدنيا والآخرة:**

بلفظ: "إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان" أنظر صحيح مسلم:٣/ ١٤٧٩، برقم: ١٨٥٢.

(١) شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٢٤١.

(٢) أخرجه أبو داود: ٢/ ٦٠٨، برقم: ٤٥٩٧، وأحمد في المسند: ٤/ ١٠٢، برقم: ١٦٩٧٩، والطبراني في المعجم الكبير: ١٩/ ٣٧٦، برقم: ٨٨٤، وقال الألباني: صحيح، أنظر مشكاة المصابيح: ١/ ٣٧، برقم:١٧٢.

(٣) الاعتصام: ١/ ٤٨٠.

١. المحافظة على الإيمان وتقويته.

٢. العصمة من الخطأ عند الاتفاق.

٣. حصول القوة والمنعة.

فلو تمسك المسلمون بهدي نبيهم لكانوا على خير عظيم، وصار لهم سؤددهم وكرامتهم التي ضعت في زماننا هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله فما ضاعت إلا بسبب التفرق والتمزق التي تعيشه أمة الإسلام اليوم.

إن باب التفرق والاختلاف من أعظم أبواب الفساد التي وقعت فيه الأمة، ولكن الخير سيظل في هذه الأمة فهي خير أمة كما نطق القرآن الكريم، وتكلمت السنة النبوية، والله نسأل أن يجنبنا طرق الضلال، وأن يهدينا إلى سواء السبيل أنه على ما يشاء قدير.

٥. صلة الأرحام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].. ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٢٢].

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه»[(١)].

فمن هدية ﷺ الأمر بصلة الأرحام، أنه كان من أول ما أمر به بعد أخلاص العبادة للواحد سبحانه وعدم الإشراك به عدم قطع الأرحام فهذا أبو سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه يجيب هرقل الروم بعد أن سأله بماذا يأمركم؟ يعني النبي ﷺ فقال: قلت يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة،

---

(١) أخرجه البخاري: ٥/ ٢٢٧٣، برقم: ٥٧٨٧.

والصدق والعفاف، والصلة»[١].

وكذلك كان جواب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سأله ملك الحبشة عن الدين الذي جاء به النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء[٢].

وهذا الهدى والنور الذي جاء به محمد ﷺ يقوم على أمرين هامين يجب المحافظة عليهما هما حق الله تبارك وتعالى وحق الخلق، يقول ﷺ: «**أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان.**»[٣].

فصلة الأرحام من أهم الأعمال الصالحات التي يتقرب بها العبد لينال رضا ربه، ولا شك أن الأعمال الصالحات التي من جملتها صلة الرحم تزيد في الإيمان وتقويه فالإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والسيئات كما هو معلوم من مذهب أهل السنة والجماعة.

إن صلة الرحم كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم وكذلك إن بعدوا أو أساؤوا، وقطع الرحم ضد ذلك كله يقال وصل رحمه يصلها وصلا وصلة والهاء فيها عوض من الواو

(١) أخرجه البخاري: 1/ 7، برقم: 7، ومسلم: 3/ 1393، برقم: 1773.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند:1/ 201، برقم: 1740، وابن خزيمة في صحيحه: 4/ 13، برقم: 2260، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) أخرجه مسلم: 1/ 569، برقم:832

المحذوفة فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم من علاقة القرابة والصهر(١).

قال القاضي عياض رحمه الله: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة .. ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مستحب لو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلا(٢).

والرحم عامة وخاصة، فالرحم العامة تشمل كل المسلمين وهي رحم الإسلام والدين، ورحم خاصة وهي رحم القرابة. يقول العلامة القرطبي رحمه الله: والرحم عامة وخاصة فالعامة رحم الدين ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم والنصفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم، وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة كالنفقة وتفقد أحوالهم وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب(٣).

- **فضل صلة الرحم:**

ولعل من أهم الفضائل أن **صلة الرحم من أسباب القرب من الجنة والبعد عن النار:** روى أبو أيوب رضي الله عنه أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله أو يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار قال فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه ثم قال: «**لقد وفق أو لقد هدي،**

(١) النهاية في غريب الأثر: 5/ 425.

(٢) شرح النووي على مسلم: 16/ 113.

(٣) تفسير القرطبي: 16/ 209 .

قال: كيف قلت ؟» قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: **«تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم دع الناقة»**(١).

ومما يدل على فضل الرحم وفضل واصلها، قوله ﷺ: **«الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»**(٢).

ومما يدلل على عظم صلة الرحم وتعظيم أمرها وأن صلتها مرغب فيه، وأن قطعها من الكبائر لورود الوعيد الشديد في قطعها قوله ﷺ: **«إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى قال فذاك لك»** ثم قال ﷺ: **«اقرؤا إن شئتم:** ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾**[محمد: ٢٢ - ٢٤]»**(٣).

ولعل من أهم ما ورد به النص من حصول البركة في العمر أو الرزق أو غير ذلك صلة الأرحام، فهي مما يكافئ الله عز وجل عليه الناس في الدنيا من بسط للرزق وإطالة العمر فصلة الأرحام من أسباب الزيادة في العمر مصداق ذلك: قال: ﷺ: **«من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ في أثره فليصل»**(٤). والنسء التأخير ويكون في العُمُرِ والدَّيْنِ فقوله يُنْسَأُ أَي يُؤَخَّر، فينسأ له في أثره أي في أجله فالأثر الأجل وسمي به لأنه يتبع **العمر قال زهير:**

والمـرءُ مـا عـاش ممـدودٌ لـه أَمَـلٌ = لا يَنْتَهـي العمْـرُ حتـى ينتهـي الأَثـرُ

وأَصله من أَثَّرَ مَشْيُه في الأَرض فإِنَّ من مات لا يبقى له أَثرٌ ولا يُرى لأَقدامه في

---

(١) أخرجه البخاري: ٢/ ٥٠٥، برقم: ١٣٣٢، ومسلم: ١/ ٤٢، برقم: ١٣، واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم: ٤ / ١٩٨١، برقم: ٢٥٥٥.

(٣) أخرجه البخاري:٥/ ٢٢٣٢، برقم: ٥٦٤١، ومسلم:٤/ ١٩٨٠، برقم: ٢٥٥٤، واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري:٥/ ٢٢٣٢، برقم: ٥٦٣٩، ومسلم:٤/ ١٩٨٢، برقم: ٢٥٥٧، واللفظ له.

الأرض أثر[١].

يقول الإمام النووي رحمه الله بعد أن عرض الإشكال: وأجاب العلماء بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة بالبركة في عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، والثاني أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فان وصلها زيد له أربعون وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك، والثالث أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده فكأنه لم يمت[٢].

وقال ﷺ: «**إن صدقة السر تطفىء غضب الرب وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء وأن صلة الرحم تزيد في العمر**»[٣].

وقال ﷺ: «**إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم**»[٤].

قال رجل يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عنهم ويجهلون علي فقال: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»[٥]. والمل بفتح الميم الرماد الحار، والظهير المعين والدافع لأذاهم، وقوله: ويجهلون أي يسيئون والجهل هنا القبيح من القول[٦]، والحاصل أن الواصل لأرحامه بالإحسان إليهم والعطف، مع الحلم عليهم وهم يقطعونه كان الله عز وجل معه يحفظه ويرعاه.

---

(١) لسان العرب:انظر،١/ ١٦٦، وانظر ٤/ ٥.

(٢) شرح النووي على مسلم:١٦/ ١١٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ١/ ٢٨٩، برقم: ٩٤٣، وفي الكبير: ٨/ ٢٦٥، برقم:٨٠١٤، وقال الألباني: حسن انظر الجامع الصغير وزيادته:١/ ٧٢٥، برقم: ٧٢٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ١/ ٣٦، برقم: ٦٣، والبيهقي في شعب الإيمان: ٦/ ٢٢٣، برقم: ٧٩٦٢، وقال الألباني: ضعيف، أنظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ٣٣٩، برقم: ٣٣٨٧.

(٥) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٨٢، برقم: ٢٥٥٨.

(٦) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١١٥.

- **أهمية صلة الأرحام:**

- **أنها من أسباب قبول الأعمال:** قال ﷺ: **«إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم»**[1]. وعنه ﷺ: **«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم...»**[2].

- **أنها من صفات أهل الإيمان:** قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [**الرعد:٢١**].

كما أن من صفات أهل دار البوار قطعهم لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل الذي يدخل فيه صلة الأرحام دخولاً أولياً: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [**الرعد: ٢٥**].

- **أن عقوبة قطع الرحم في الدنيا والآخرة:**

قال ﷺ: **«لا يدخل الجنة**[3] **قاطع رحم»**[4].

وقد يعجل له العذاب في الدنيا مع ما يلقه في الآخرة من الوعيد: قال ﷺ: **«ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»**[5].

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند: ٢/ ٤٨٣، برقم ١٠٢٧٧، والبخاري في الأدب المفرد: ١/ ٣٥، برقم:٦١، وقال الألباني: حسن، انظر صحيح الترغيب والترهيب: ٢/ ٣٣٩، برقم: ٢٥٣٨.

(٢) أخرجه مسلم: ٤/ ٢٠٩٥، برقم: ٢٧٣٥.

(٣) يقول الإمام النووي- رحمه الله-:قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع» هذا الحديث يتأول تأويلين سبقا في نظائره في كتاب الإيمان احدهما حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها فهذا كافر يخلد في النار ولا يدخل الجنة أبدا، والثاني معناه ولا يدخلها في أول الأمر مع السابقين بل يعاقب بتأخره القدر الذي يريده الله تعالى. شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١١٢.

(٤) أخرجه البخاري: ٥/ ٢٢٣١، برقم: ٥٦٣٨، ومسلم: ٤/ ١٩٨١، برقم: ٢٥٥٦.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن:٢/ ٦٩٣، برقم: ٤٩٠٢، والترمذي في السنن:٤/ ٦٦٤، برقم: ٢٥١١، وقال الألباني: صحيح أنظر مشكاة المصابيح:٣/ ٦٩.

- **الوقاية من ميتة السوء:**

سبق وذكرنا أن صلة الأرحام من موجبات الجنة، كذلك الصلة تقي الإنسان من ميتة السوء، فهي من الأسباب التي تؤدي بصاحبها إلى الخاتمة الحسنة بالحسنى فعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: **«من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه»**[(١)].

- **صلة الرحم مطلوبة ولو كانت غير مسلمة:**

قال ﷺ: **«إن آل أبي ليسوا بأوليائي إنما وليي الله وصالح المؤمنين» وفي زيادة «ولكن لهم رحم أبلها ببلالها»**[(٢)]. يعني أصلها بصلتها.

وقد سألت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عن صلة أمها المشركة قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: **«نعم صلي أمك»**[(٣)].

- **الواصل الحقيقي**: هو من يصل رحمه سواء وصلوه أم قطعوه، فعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: **«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»**[(٤)].

- **فضل الصدقة على الأرحام:**

- **الصدقة** على المسكين تحسب بصدقة، أما الصدقة على الأقارب وذي الرحم فهي صلة وصدقه فعن سلمان بن عامر رضي الله عنه: يبلغ به النبي ﷺ قال: **«الصدقة على**

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند:١/ ١٤٣، برقم:١٢١٢، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي وجوده المنذري في الترغيب، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط:٧/ ٧٠، برقم:٦٨٨١، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٦، برقم:١٤٨٨.

(٢) صحيح البخاري:٥/ ٢٢٣٣، برقم: ٥٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري: ٢/ ٩٢٤، برقم: ٢٤٧٧، ومسلم: ٢/ ٦٩٦، برقم: ١٠٠٣.

(٤) أخرجه البخاري: ٥/ ٢٢٣٣، برقم: ٥٦٤٥.

المسكين صدقة وهي على ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»[١].

وقد سألت امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما النبي ﷺ، عن الصدقة على الأقارب فقال ﷺ: «**نعم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة**»[٢].

- **وصلة** الرحم من الخصال التي تبقى عليك من بر الوالدين بعد موتهما فقد سُئل ﷺ عن ما يبقى من بر الوالدين بعد موتهما فقال: «**خصال أربع الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما**»[٣].

بل من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه، قال ﷺ: «**إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه**»[٤].

إن صلة الرحم من أعمال القلوب التي تزيد الإيمان في القلب وتجعله عامراً بالإيمان وعمل الصالحات.

واللهَ نسأل أن يجعلنا من الواصلين، وأن يلهمنا الرشد والصواب والتوفيق والسداد إنه على ما يشاء قدير.

6. حسن الخلق

جاء الإسلام لإرشاد الناس لما فيه الخير، ومن أعظم أبواب الخير التي دل الناس عليها حسن الخلق، كما أنه جاء ليدل الناس على ترك كل ما فيه شر يعود على الناس

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن: ٣/ ٤٦، برقم: ٦٥٨، والنسائي في سننه: ٥/ ٩٢، برقم:٢٥٨٢، وقال الألباني:صحيح، انظر مشكاة المصابيح:١/ ٤٣٧،برقم: ١٩٣٩

(٢) أخرجه البخاري: ٢/ ٥٣٣، برقم: ١٣٩٧، ومسلم: ٢/ ٦٩٤، برقم:١٠٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: ٢/ ٧٥٨، برقم: ٥١٤٢، وأحمد في المسند: ٣/ ٤٩٧، برقم: ١٦١٠٣، برقم:٣٥، ورواه الحاكم في المستدرك:٤/ ١٧١، برقم: ٧٢٦٠، وقال الذهبي: صحيح، وقال الألباني: ضعيف، أنظر السلسلة الضعيفة: ٢/ ٦٢، برقم: ٥٩٧.

(٤) أخرجه مسلم:4/ 1979، برقم:2552.

بالضرر، ومن أعظم أبواب الشر الضارة بالإنسان سوء الأخلاق التي تفتح أبوابا من الشر يعود ضررها على الإنسان والمجتمع بأسره، ولهذا كان للأخلاق في ديننا الإسلامي مكانة عظيمة لما فيها من حكم عالية وثمار يانعة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

• مكانة الأخلاق في الشرع:

ا- مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُنال الدرجات، وتُرفع المقامات، وقد خص اللّه جل وعلا نبيه محمداً ﷺ بآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب فقالجل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **[القلم: ٤]**.

ب – قدم الله المَنَّ على الفداء في كتابه الكريم؛ لأنه من معالي الأخلاق، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ **[محمد: ٤]**. **قال الشوكاني – رحمه الله –:** «وإنما قدم المن على الفداء؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به كما قال شاعرهم:

ولا نقتـــل الأســـرى ولكـــن نفكهـــم = إذا أثقـــل الأعنـــاق حمـــل المغـــارم»[1]

ج- **وأرشد** الله في كتابه إلى القول الحسن الجميل مع الأهل والأولاد أو مع الأيتام المكفولين: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ **[النساء: ٥]**.

د- جمع الله مكارم الأخلاق في آيةٍ واحدةٍ فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ **[الأعراف: ١٩٩]**.

هـ- جعل الله الأخلاق مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة فقال تعالى:

---

(١) فتح القدير، ٥/ ٤٣.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣].

و- أمر الله بتزكية النفس وتخليصها من الأحلاق الدنيئة والأوصاف الرذيلة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩- ١٠] .

ز- أرشد الله إلى حسن الخلق مع الكافر، وذلك عند عرض الدعوة عليه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ويقول تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ح- من اقترف الرذائل وسوء الأخلاق مثله لا يكون من أهل الفضل، ومن ثم فهو لا يرشح لمنصبٍ عالٍ؛ لأن أصحاب الأخلاق الرذيلة لا ينهض لذلك وإنما يكون في مؤخرة القوم، وفي ذيل القافلة، ولذلك نجد أن فرعون - عليه اللعنة - أراد أن يلبس على موسى – عليه السلام - بذلك، وأنه ليس من أصحاب المكارم، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩].

- وقال ﷺ: **«ما شيء أثقل من ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وأن الله ليبغض الفاحش البذيء»**[١].

- قال معاذ: يا رسول الله أوصني قال: **«اتق الله حيثما كنت أو أينما كنت»** قال: زدني قال: **«أتبع السيئة الحسنة تمحها»** قال: زدني قال: **«خالق الناس بخلق حسن»**[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي، 4/ 362 برقم: 2002، قال الشيخ الألباني: صحيح، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، 3/ 5، برقم: 2641.

(٢) 129- أخرجه أحمد بن حنبل، 5/ 236، برقم: 22112. تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث حسن وهذا إسناد ضعيف.

- وقال ﷺ: **«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**[1].

- وبالمقابل فقد كان يسأل الله حسن الخلق: **«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»**[2].

- قيل يا رسول الله: أي العباد أحب إلى الله قال: «**أنفع الناس للناس**» قيل: فأي العمل أفضل؟ قال: **«إدخال السرور على قلب المؤمن»** قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: **«إشباع جوعته وتنفيس كربته وقضاء دينه، ومن مشى مع أخيه في حاجته كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيء يفسد الأعمال كما يفسد الخل العسل»**[3].

- «**قال الغزالي**: الخلق الحسن أفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين، وهو ثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة»[4].

- «**قال الجنيد**: أربع ترفع العبد إلى أعلا الدرجات وإن قل علمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق»[5].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٦٧٠، برقم:٤٢٢١، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، ١/ ١١٢، برقم: ٤٥.

(٢) صحيح مسلم،1/ 534، برقم: 771.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ٦/ ٣٤٨، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، قال الشيخ الألباني: حسن، انظر حديث رقم: ١٧٦ في صحيح الجامع.

(٤) فيض القدير، ٢/ ٤٤٦.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٨٨.

- **قال ابن تيمية رحمه الله:** «وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض وبعض هذا واجب وبعضه مستحب»[١].

- «وعن معاذ بن سعيد قال: كنا عند عطاء بن أبي رباح فتحدث رجلٌ بحديثٍ، فاعترض له آخرٌ في حديثه، فقال عطاء: سبحان الله ما هذه الأخلاق؟ ما هذه الأخلاق؟ إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم منه به فأريه أني لا أحسن منه شيئا»[٢].

- **هل يمكن اكتساب الأخلاق؟**

يرى الدكتورعبد الكريم زيدان أن ذلك يتلخص فيما يأتي:

«**أولاً**: إن الأخلاق من حيث الجملة يمكن تقويمها وتعديلها، كما يمكن اكتساب الجيد منها والتخلي عن قبيحها وبالعكس، ودليلنا على ذلك أن الشرع أمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة ونهى عن التخلق بالأخلاق الرديئة، فلو لم يكن ذلك ممكناً مقدوراً للإنسان لما ورد به الشرع، الإسلام لا يأمر بالمستحيل، ومن القواعد الأصولية في الفقه الإسلامي: لا تكليف إلا بمقدور أو لا تكليف بمستحيل...

ثانياً: إن بعض الناس قد يجبل على بعض الأخلاق بحيث تكون هذه الأخلاق بارزة فيهم وظاهرة في سلوكهم، ودليلنا على هذا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو داود، وقد جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس: **«إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة»** قال يا رسول الله: «أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما» قال: **«بل الله جبلك عليهما»**، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله.[٣]»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/ ٦٥٨.

(٢) صفة الصفوة، ابن الجوزي، ٢/ ٢١٤، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي.

(٣) أخرجه أبو داود، 2/ 778، برقم: 5225 .

(٤) أصول الدعوة، د: عبد الكريم زيدان، 91- 92.

رابعاً: حسن الأخلاق وزيادة الإيمان:

إن الأعمال الصالحة تدل على الإيمان، والعمل الصالح يزيد الإيمان، ومن أعظم الأعمال الصالحة التي تزيد الإيمان الأخلاق الحسنة، والأخلاق الحسنة في ديننا الإسلامي واسعةٌ وكثيرةٌ جداً، فالأخلاق الكريمة هي من الإيمان، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الكثير من الأخلاق مقرونةً بالإيمان وهي كالتالي:

ا – **الحياء:** عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **«الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»**(1).

ب- **إفشاء السلام:** قال ﷺ: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم»**(2).

ج- **الإحسان إلى الجار وإكرامه:** قال ﷺ: **«والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن»**. قيل: ومن يا رسول الله ؟ قال: **«الذي لا يأمن جاره بوائقه»**(3).

د- **العفة والتنزه عن الزنا والسرقة وشرب الخمر والكف عن قتل النفس التي حرم الله، مما يزيد الإيمان، كما أن الوقوع في هذه المعاصي والذنوب مما يضعف الإيمان،** قال ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»**(4).

خامساً: من أمثلة الأخلاق الحسنة في ديننا الإسلامي.

١- الصدق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) أخرجه البخاري، ١/ ١٢، برقم: ٩، و مسلم، ١/ ٦٣، برقم: ٣٥، وهو عند مسلم بلفظ: "قال الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان".

(٢) أخرجه مسلم، 1/ 74، برقم: 54.

(٣) أخرجه البخاري، ٥/ ٢٢٤٠، برقم: ٥٦٧٠.

(٤) أخرجه البخاري، ٥/ ٢١٢٠، برقم: ٥٢٥٦، ومسلم، ١/ ٧٦، برقم: ٥٧.

قال ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**»(1).

٢- العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(2).

٣- **كظم الغيظ، والتخلي عن الغضب:** ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]. ..أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني قال: «**لا تغضب**». فردد مرارا قال: «**لا تغضب**»(3).

٤- الإحسان: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه**»(4).

٥- النهي عن النجوى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ

---

(١) رواه مسلم، ٤/ ٢٠١٢، برقم: ٢٦٠٧ والبخاري ٥/ ٢٢٦١، برقم: ٥٧٤٣، بلفظ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا».

(٢) أخرجه مسلم، ٣/ ١٤٥٨، برقم: ١٨٢٧.

(٣) أخرجه البخاري، 5/ 2267، برقم: 5765.

(٤) حديث 5167 – صحيح مسلم.

إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

٧. إحياء السنن

لا شك أن السنة النبوية لها أهمية كبيرة، ومكانه عظمية في التشريع الإسلامي، فهي المصدر الثاني في هذا التشريع، وهي المبينة الشارحة للقرآن الكريم، وفي هذا الزمان يجد المتأمل أن كثير من الناس اليوم قد أبتعد عن الهدي النبوي الشريف، مع كثرة الماديات التي أصبح الناس ينامون عليها ويستيقظون عليها، والتغيرات والتحولات التي يشهدها العالم، التي تجعل المسلم ينشغل عن الهدى النبوي، هذا مع الجهل الذي عم كثيراً من بلاد المسلمين رغم الوسائل الحديث الموجودة الا أن تجهيل الأمة متعمد حتى تبقى بعيده عن مصادر التلقي من القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ومن المعلوم أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنة والجماعة يزيد بفعل الطاعات والأعمال الصالحات، وينقص بالمعاصي والسيئات، ولا شك أن الأعمال الصالحات على اختلاف أنواعها من أهم العوامل التي تقوي الإيمان في القلوب وتزيده.

ومن جملة هذه الأعمال الصالحات التي يقوم بها المسلم هي إحياء السنن النبوية من العمل بها، ونشرها وتعليمها الناس كما سيأتي الحديث عنه، وخاصة السنن التي هجر المسلمون أو الأغلب منهم العمل بها، ولا شك أن هذا العمل مع ما فيه من الأجر الجزيل والعظيم من أهم الأمور التي تساعد على تقويه الإيمان والمحافظة عليه.

• **السنة في الاصطلاح**: الطريقة المسلوكة في الدين التي تشمل قوله وفعله ﷺ وتقريره من غير افتراض[1].

• **وعند أهل الحديث**: ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير أو صفة خَلقية، أو خُلقية، ولو كان قبل الرسالة[2]، فهي عامة تشمل الواجب وغيره.

---

(١) أنظر التعريفات: ١/ ١٦١، أنيس الفقهاء ١/ ١٠٦

(٢) مصادر التشريع الإسلامي: ص ١٠٩. وانظر في تعريف السنة توجيه النظر إلى أصول الأثر:١/ ٤٠، طاهر الجزائري الدمشقي تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.

- **المقصود بإحياء السنن:** هو العمل بهذه السنن، في زمن ترك الناس العمل بها، وكذلك من الإحياء العلم بها ونشرها بين الناس بالقول والعمل، وتعليم الناس هذه السنة، والحث على التمسك بها، والتحذير من مخالفتها.
- **فضل إحياء السنن:**

- حصول الأجر الكثير[1].

وقوله ﷺ: **«من سن سنة حسنة فعمل بها بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا»**[2].

- المتمسك بالسنة له أجر شهيد[3].

- مرافقة النبي – ﷺ– في الجنة[4].

---

(1) قال ﷺ: «إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً».أخرجه الترمذي:٥/ ٤٥، برقم: ٢٦٧٧، قال أبو عيسى هذا حديث حسن، والطبراني في المعجم الكبير: ١٧/ ١٦، برقم:١٠، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، أنظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ٢٨٩، برقم:٢٨٩٠.

(٢) أخرجه مسلم: ٤/ ٢٠٥٨، برقم:١٠١٧، من حديث جرير بن عبد الله -رضي الله عنه-.

(٣) قال ﷺ: «المستمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد»وفي رواية: «له أجر مائة شهيد». أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ٥/ ٣١٥، برقم: ٥٤١٤، وحلية الأولياء: ٨/ ٢٠٠، وقال الألباني ضعيف، انظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ١٢٦٩، برقم: ١٢٦٨٣، وقال الهيثمي: فيه محمد بن صالح العدوي ولم أر من ترجمه وبقية رجاله ثقات انتهى وقد رمز المصنف لحسنه أي السيوطي، انظر فيض القدير:٦/ ٢٦١.

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال لي يا بني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة». أخرجه الترمذي: ٥/ ٤٦، برقم: ٢٦٧٨ وقال هذا حسن غريب من هذا الوجه، والطبراني في المعجم الصغير: ٢/ ١٠٠، برقم:٨٥٦، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، أنظر ضعيف الترمذي: ١/ ٣١٧، برقم: ٥٠١.

- الدال على الخير كفاعلة:

قال ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»[١].

● أمثلة على السنن المهجورة في المجتمع المسلم:

١. السواك: قال ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة**»[٢]. **وعند الوضوء**[٣]. **وعند دخول المنزل**[٤]. **وفي يوم الجمعة**[٥]. **وعند قراءة القرآن الكريم**[٦].

يقول ابن قدامه رحمه الله: واتفق أهل العلم على أنه سنة مؤكدة لحث النبي ﷺ ومواظبته عليه وترغيبه فيه وندبه إليه وتسميته إياه من الفطرة[٧].

(١) أخرجه مسلم: ٣/ ١٥٠٦، برقم: ١٨٩٣.

(٢) أخرجه البخاري:١/ ٣٠٣، برقم: ٨٤٧، ومسلم: ١/ ٢٢٠، برقم:٢٥٢.

(٣) قال أبو هريرة-رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء». أخرجه البخاري: ٢/ ٦٨٢، ومسلم: ١/ ٢٢٠، برقم: ٢٥٢.

(٤) يقول المقدام بن شريح عن أبيه قال: سألت عائشة- رضي الله عنها- قلت بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته ؟ قالت بالسواك". أخرجه مسلم:١/ ٢٢٠، برقم: ٢٥٣.

(٥) فقد أخبر ابن عباس -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال في جمعة من الجمع: "يا معشر= =المسلمين إن هذا يوم جعله الله عيدا فاغتسلوا ومن كان عنده طيب فلا يضره أن يمس منه وعليكم بالسواك". أخرجه ابن ماجة: ١/ ٣٤٩، برقم: ١٠٩٨، ومالك في الموطأ: ١/ ٦٥، برقم:١٤٤، وللفظ له، وقال الألباني: صحيح، أنظر مشكاة المصابيح: ١/ ٣١٣، وعند النسائي: "الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم والسواك ويمس من الطيب ما قدر عليه"، أنظر سنن النسائي: ٣/ ٩٢، برقم:١٣٧٥.

(٦) قال رسول الله ﷺ: "إن أفواهكم طرق للقرآن، فطيبوها بالسواك". أخرجه ابن ماجة: ١/ ١٠٦، برقم: ٢٩١، وأبو نعيم في حلية الأولياء: ٤/ ٢٩٦، وقال الشيخ الألباني:صحيح، انظر الجامع الصغير وزيادته:١/ ٧٣٩، برقم: ٧٣٨٦.

(٧) المغني: ١/ ١٠٨.

٢. الاستخارة[1]: والاستخارة طلب الخيرة في الأمور منه تعالى، وحقيقتها تفويض الاختيار إليه سبحانه فإنه الأعلم بخيرها للعبد والقادر على ما هو خير لمستخيره إذا دعاه أن يخير له فلا يخيب أمله والخائب من لم يظفر بمطلوبه، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول: خر لي واختر لي[2]. والاستخارة تكون في الشيء المباح، وفي الواجب المخير، وفي المستحب.

قال ﷺ: **«من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له»**[3]-[4].

٣. صلاة ركعتين عند الخروج والدخول في المنزل[5]: وكان ﷺ: **«إذا نزل منزلا في سفر أو دخل بيته لم يجلس حتى يركع ركعتين»**[6]. والمقصود بالمنزل محل الإقامة من نحو

---

(١) يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، قال ويسمي حاجته». أخرجه البخاري: ١/ ٣٩١، برقم: ١١٠٩.

(٢) فيض القدير:٥/ ٤٤٢.

(٣) أخرجه الترمذي: ٤/ ٤٥٥، برقم: ٢١٥١، والمستدرك للحاكم: ١/ ٦٩٩ ، برقم:١٩٠٣، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الألباني: ضعيف، انظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ١٢٠٨، برقم:١٢٠٧٩.

(٤) وإحياء هذه السنة يغني عما يقع فيه كثير من الناس من قراءة الكف وضرب الرمل والوسائل الأخرى التي حذر الإسلام منها، أو لم يشرعها، فالعلم الحقيقي عند الله سبحانه والدعاء مع العبادات خير وسيلة لمساعدة الإنسان على ما يريد. فتاوى الأزهر: ٩/ ٣٥.

(٥) قال ﷺ: «إذا خرجت من منزلك إلى الصلاة فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء، وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين يمنعانك من مدخل السوء». أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ٣/ ١٢٤، برقم: ٣٠٧٨، وقال الشيخ الألباني:صحيح، انظر السلسلة الصحيحة: ٣/ ٣١٥، برقم: ١٣٢٣.

(٦) المعجم الكبير: ١٨/ ٣٠٠، برقم: ٧٧٠، وحلية الأولياء:٥/١٤٨، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، انظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ٩٩٤، برقم: ٩٩٣١.

منزل، أو خلوة، أو مدرسة، أو خيمة، أو حتى غار في جبل، أو غير ذلك، وهذه الركعتان تحصل بصلاة فرض، أو نفل.

وقد بين ﷺ العلة في ذلك والحكمة، وهي الوقاية من مخرج ومدخل السوء.

وهناك سنن كثيرة قد غيبت عن عموم الأمة، ولا يعمل بها إلا من كان من أهل الالتزام، وإن كان هذا ليس على أطلاقه، فسنن النبي ﷺ كثيرة، وقد تجد أناساً يعملون بسنن هنا، وأخريين في مكان أخر يعملون بسنن أخرى وهكذا، فمن هذه السنن: سنة التبكير يوم الجمعة إلى صلاة الجمعة، وخروج النساء إلى المصلى في صلاة العيد، فقد كانت هذه السنة منعدمة في كثير من المناطق واليوم بدأت بالعودة والظهور من جديد وهو من إحياء السنن، وكذلك من السنن النبوية بعض الأدعية المأثورة في بعض الأوقات والأماكن كدعاء اللباس، والبسملة، والدعاء بعد الأذان، وغيرها من الأدعية المأثورة، وكذلك الترجيع في الأذان، ومن السنن كذلك زيارة المريض فهي من حقوق المسلم على أخيه المسلم، ومن السنن الدلالة على الخير، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، وإعانة المحتاج، والكلام الحسن، وإزالة الأذى عن طريق الناس، وسنة المسارعة إلى الصلاة عند سماع النداء، وقراءة سورة الكهف في يوم الجمعة، وسنة التبسم في وجه غيرك، عدم قيام إمام المسلمين بالخطبة يوم الجمعة والعيدين، وهذه سنة منعدمة عند كثير من حكام المسلمين اليوم إلا من رحم الله[1]، وسنن الحج منها المبيت في منى يوم الثامن، ورفع الصوت بالتلبية بالنسبة للرجال، والاستمرار فيها من بدء الإحرام إلى رمي جمرة العقبة، والاضطباع، واستلام الركن اليماني، والتكبير عند الركن، والرمل في الأشواط الثلاثة الأولى، وغيرها كثير من سنن الحج، والسنن النبوي على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

---

(١) وهي معمول بها هذه الأيام في قطاع غزة. حيث يخطب رئيس الوزراء الجمعة والعديدين ويؤم الناس فيها وفي قيام رمضان كاملاً.

٨. عيادة المريض

كل من أتاك مرة بعد أُخرى فهو عائد، لكنه اشتهر ذلك في عيادة المريض حتى صار كأنه مختص به، وهو المقصود هنا[١].

فعيادة المريض زيارته وافتقاده قال القاضي عياض رحمه الله: سميت عيادة لأن الناس يتكررون أي يرجعون يقال عدت المريض عودا وعيادة [٢].

قال ابن فارس: المرض: كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة، أو نفاق أو تقصير في أمر، والفاعل مريض وجمعه مرضى[٣].

- **فضل عيادة المريض:**

- **«من عاد مريضاً لم يزل في خُرفة الجنة قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة ؟ قال جناها»**[٤]. يشبه ﷺ ما يحرزه عائد المريض من الثواب بما يحرزه المخترف من الثمر[٥].

- عائد المريض تغمره الرحمة:

قال ﷺ: **«من عاد مريضاً لم يزل يخوض الرحمة حتى يجلس فإذا جلس اغتمس فيها»**[٦]. والمسلم مطلوب منه دائماً التعرض لرحمة الله تعالى، وما أحوجنا إلى ذلك فعيادة المريض وزيارته من أسباب التعرض لرحمة الله تعالى.

---

(١) أنظر في تعريف عيادة المريض لسان العرب: ٣/ ٣١٥، وتاج العروس: ١/ ٢١٤٤، والنهاية في غريب الأثر: ٣/ ٦٠١.

(٢) المطلع: ١/ ١١٤.

(٣) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: ٢/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه مسلم: ٤/ ١٩٨٩، برقم: ٢٥٦٨.

(٥) تحفة الأحوذي: ٤/ ٣٦.

(٦) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند: ٣/ ٣٠٤، برقم: ١٤٢٩٩، والحاكم في المستدرك: ١/ ٥٠١، برقم: ١٢٩٥، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، وقال الألباني: صحيح، أنظر مشكاة المصابيح:١/ ٣٥٦.

- طيب الممشى:

قال ﷺ: **«من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»**[1].

- استغفار الملائكة[2].

- الأجر المضاعف[3].

- الزائر للمريض كالزائر للمولى – جل وعلا-[4]. - قال ﷺ: **«من عاد مريضا لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرار أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»**[5].

---

(١) أخرجه الترمذي: ٤/ ٣٦٥، برقم: ٢٠٠٨، وابن ماجة: ١/ ٤٦٤، برقم: ١٤٤٣، وقال الشيخ الألباني: حسن، أنظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ١١٣٤، برقم: ١١٣٣٣.

(٢) يقول ﷺ: «من أتى أخاه المسلم عائداً مشى في خرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح» أخرجه ابن ماجة: ١/ ٤٦٣، برقم:١٤٤٢، وأحمد بن حنبل في المسند: ١/ ٨١، برقم:٦١٢، وقال الألباني:صحيح، انظر السلسلة الصحيحة: ٣/ ٣٥٣، برقم: ١٣٦٧.

(٣) قال ﷺ: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبعمائة ومن أنفق على نفسه أو على أهله أو عاد مريضا أو ماز أذى عن طريق فهي حسنة بعشر أمثالها» أخرجه أحمد بن حنبل في المسند: ١/ ١٩٦، برقم: ١٧٠٠. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن إن كان واصل سمعه من الوليد فإنه يرويه عن بشار بن أبي سيف عنه، وأبو يعلى: ٢/ ١٨٠، برقم: ٨٧٨، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

(٤) قال ﷺ: «إن الله -عز وجل- يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك ؟ وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب وكيف أطعمك ؟ وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ ...» الحديث. أخرجه مسلم: ٤/ ١٩٩٠، برقم: ٢٥٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود: ٢/ ٢٠٤، برقم: ٣١٠٦، والحاكم في المستدرك: ١/ ٤٩٣، برقم: ١٢٦٨، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح الترغيب والترهيب: ٣/ ١٩٨، برقم: ٣٤٨٠.

٩. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أعظم الخصال التي دعا إليها القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أحسن الأقوال وأعظم الأعمال في ميزان الإسلام، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصِّلت: ٣٣]، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

والمجتمع المسلم يعيش في سعادة أبدية وبهجة سرمدية ما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وما إن يترك ذلك حتى تنزل المصائب وتتوالى الكوارث.

- والأمر بالمعروف: هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله والعمل بشرائعه.
- والنهي عن المنكر: هو النهي عن الشرك بالله وتكذيب رسوله، وعن العمل بما نهى عنه(١).

• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزيادة الإيمان.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١].

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوصاف المؤمنين ذكرهم الله ضمن المؤمنين الذين بشرهم الله بدخول الجنة فقال:﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ

---

(١) تفسير الطبري، ٣/ ٣٨٩.

ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

يقول ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**(١).

قال سيد قطب – رحمه الله –: «وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم؛ ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم؛ فيبقى أضعف الإيمان؛ وهو تغييره بقلوبهم؛ وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه، إن هم كانوا حقاً على الإسلام! وليس هذا موقفاً سلبياً من المنكر – كما يلوح في بادئ الأمر – وتعبير الرسول ﷺ بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابي في طبيعته.

فإنكار المنكر بالقلب، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي يخضع له ويعترف به وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر، ولإقامة الوضع المعروف في أول فرصة تسنح ، وللتربص بالمنكر حتى تواتي هذه الفرصة، وهذا كله عمل إيجابي في التغيير، وهو على كل حال أضعف الإيمان، فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع ولأن له ضغطاً – قد يكون ساحقاً – فهو الخروج من آخر حلقة، والتخلي حتى عن أضعف الإيمان! هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني إسرائيل: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨– ٧٩]»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، 1/ 69، برقم: 49.

(٢) في ظلال القرآن، 2/ 409– 410.

نواقض الإيمان

قبل الحديث عن نواقض الإيمان يحسن أن نتحدث عن:

ضوابط التكفير

فمسألة التكفير من أهم المسائل في زماننا هذا.. والناس فيها على صنفين:

صنف تساهل فيها فلم يكفر إلا من اعتقد الكفر؛ فالسجود للصنم والاستهزاء بآيات الله – عز وجل- أو السب ليس كفراً إذا لم يعتقد ذلك.

وصنف وسع دائرة الكفر فكفروا بكل ذنب فاستباحوا دماء وأموال المسلمين وجازفوا في التكفير، وقاطعوا المسلمين، وحكموا على المجتمعات بالكفر والانحراف عن الدين، فضلوا عن الصراط المستقيم وهدى رب العالمين، ولم ينظروا إلى الشروط والموانع وضوابط التكفير.

قال ابن أبي العز الحنفي: «إن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراق وتشتت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم... فالناس فيه على طرفين ووسط»[1].

الكفر في الاصطلاح: حكم شرعي يطلق على ما يخالف الإيمان، سواء كان ذلك ستر الحق بالباطل، أو التغطية، أو بعدم التصديق.

- تحدث العلماء عن أنواع الكفر فقسموه إلى أربعة أقسام:

كفر الإنكار: هو أن ينكر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ١/ ٣١٦.

كفر الجحود: وهو أن يعرف بقلبه ولا يقر بلسانه فهذا كفر جاحد ككفر إبليس، وكفر أميه بن أبي الصلت، وبلعم بن باعورا. وهو على قسمين كما ذكر ابن القيم – رحمه الله –: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول، والكفر الخاص المقيد: أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام أو تحريم محرم من محرماته.[1].

كفر المعانده: هو أن يعرف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل الإيمان ككفر أبي طالب.

كفر النفاق: كفر النفاق فان يقر بلسانه ويكفر بقلبه ككفر المنافقين [2].

○ **ومنهم من قسمه إلى نوعين** كالإمام ابن القيم – رحمه الله–: قال الكفر نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار، والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود.

ثم قسم الكفر الأكبر إلى خمسة أقسام: فأدخل فيها الأقسام الأربعة المذكورة سابقاً وزاد كفر الشك: وهو ما لا يجزم بصدقه ولا بكذبه أي الرسول بل يشك في أمره وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول.

وأما الكفر الأصغر فالأمثلة عليه كثيرة منها ما ورد من الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت»**[3]، وقوله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**[4]، وقوله ﷺ: **«من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل الله على محمد»**[5]، فهذا موجب لاستحقاق

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣٣٨.

(٢) أنظر هذه الأنواع في تهذيب اللغة: ١٠/ ١١٠، والزاهر: ١/ ٣٨٠، وتاج العروس: ١/ ٣٤٥٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٨٢، برقم: ٦٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: ١/ ٥٦، برقم:١٢١، ومسلم في صحيحه: ١/ ٨١، برقم:٦٥.

(٥) أخرجه الترمذي في السنن: ١/ ٢٤٢، برقم: ١٣٥،وابن ماجة في السنن: ١/ ٢٠٩، برقم: ٦٣٩، وقال الألباني: صحيح، أنظر الجامع الصغير وزيادته: ١/ ١٠٨٩، برقم: ١٠٨٨٣.

الوعيد دون الخلود كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

أصول المكفرات:

الكفر بجميع أنواعه لا يخرج عن ثلاثة أصول هي جماع كل المكفرات.

الأصل الأول: المكفرات الاعتقادية:

وهي كل عقيدة تخل بركن من أركان الإيمان، أو تخالف أي معتقد من المعتقدات الإسلامية القاطعة، كإنكار الخالق سبحانه، أو صفات الكمال فيه، أو القول بأنه ثالث ثلاثة، أو إنكار نبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً، أو إنكار ركن من أركان الإيمان، أو الجنة والنار، وغيرها من الأمور الثابتة بدليل قطعي، ومعلومة من الدين بالضرورة.

الأصل الثاني المكفرات القولية:

وهي كل قول فيه اعتراف بعقيدة مكفرة، أو فيه جحود لعقيدة من عقائد الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، أو فيه استهزاء بالدين في عقائده أو أحكامه.

الأصل الثالث المكفرات العملية:

وهي كل عمل يعتبر أمارة ظاهرة على عقيدة مكفرة، كتمزيق المصحف مع قرينة الإهانة، أو إلقائه في القاذورات، أو السجود لصنم، أو تعليق الصليب على الصدر وغير ذلك[1].

- **وهناك جملة من المسائل ينبغي التأكيد عليها:**

المسألة الأولى: الأمر بالتثبت قبل إصدار الأحكام:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ

---

(١) أنظر بتصرف العقيدة الإسلامية وأسسها: ص٦١٧، عبد الرحمن بن حبنكه الميداني.

إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النساء:٩٤].

المسألة الثانية: ما ورد من النهي عن التكفير وعواقب ذلك:

قال ﷺ: **«إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما»**(١)، وفي رواية: **«أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»**(٢).

المسألة الثالثة: التحرز من تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة المعتبرة عليه:

فالتكفير المطلق لا يستلزم منه تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع.

يقول الإمام الغزالي- رحمه الله-: «والذي ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلا فإن استباحة دماء المصلين المقرين بالتوحيد خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم لمسلم واحد».

المسألة الرابعة: لا يكون أمر التكفير إلا من كان من أهل العلم عالماً بالموانع والشروط.

شروط التكفير:

١- ثبوت أن هذا القول أو الفعل أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، قال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

٢- ثبوت قيامه بالمكلف، فلا يحل أن يرمى إنسان بالكفر لمجرد الظن، قال تعالى:﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾[الإسراء: ٣٦].

٣- بلوغ الحجة، قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) أخرجه مسلم: ١/ ٧٩، برقم:٦٠

(٢) أخرجه مسلم: ١/ ٧٩، برقم:٦٠.

٤- العلم فلا بد أن يكون عالماً بمخالفته التي وجب من خلالها أطلاق حكم الكفر عليه.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ضوابط التكفير:

١. الإكراه: وهو أن يقع منه الكفر أو الفسق بغير إرادة منه، فمن يكره على الكفر، فيفعله لداعي الإكراه، لا اطمئناناً به، فلا يكفر لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

٢. الإغلاق على المرء من شدة الفرح أو الحزن: قال ﷺ: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**»[١].

٣. العذر بالجهل: ويستدل العلماء على هذا الضابط بكثير من الأدلة من أشهرها: قوله ﷺ: «**كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه إذ أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحد فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت؟ قال يا رب خشيتك فغفر له**». **وقال غيره «مخافتك يا رب»**[٢].

---

(١) أخرجه مسلم: ٤/ ٢١٠٤، برقم: ٢٧٤٧.

(٢) أخرجه البخاري:٣/ ١٢٨٣ ، برقم: ٣٢٩٤، ومسلم:٤/ ٢١٠٩، برقم: ٢٧٥٦، وهذا لفظ البخاري. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى وإنكار معاد الأبدان وان تفرقت كفر لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك ضالاً في هذا الظن مخطئاً فغفر الله له ذلك" مجموع الفتاوى:١١/ ٤٠٩.

٤. **العذر بالخطأ**: فالخطأ: ضد الصواب[1]، وهو من أراد شيئاً واتفق منه غيره يقال أخطأ[2] فيعذر الإنسان إذا صدر منه بالخطأ أمر كفري، قال ﷺ: **«إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»**[3].

والخطأ سواء كان بعد الاجتهاد في مسألة معينة، أو من قصد شيئاً فوقع غير ما قصده فهو معذور.

٥. **التأويل**: والمراد بالتأْويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إِلى ما يَحتاج إِلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ [4]. يقول الإمام الشوكاني رحمه الله:« وأما قول بعض أهل العلم أن المتأول كالمرتد فهنا تسكب العبرات ويناح على الإسلام وأهله بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر لا بسنة ولا لقرآن ولا لبيان من الله ولا لبرهان»[5].

ومن أشهر ما يستدل به أهل العلم على الإعذار بالتأويل قصة حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه-[6].

---

(١) القاموس المحيط:١/ ٤٩.

(٢) التعاريف:١/ ٣١٨.

(٣) أخرجه ابن ماجة في السنن:١/ ٦٥٩،برقم: ٢٠٤٥، وابن حبان في صحيحه: ١٦/ ٢٠٢ ،برقم: ٧٢١٩ ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة: ١/ ٣٤٨، برقم: ١٦٦٤.

(٤) لسان العرب:١١/ ٣٢.

(٥) الروضة الندية: ٢/ ٢٨٧.

(٦) عندما أرسل كتاباً إلى مشركي مكة يخبرهم بأمر النبي ﷺ والقصة في الصحيح وقد جاء فيه" فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: "يا حاطب ما هذا" قال يا رسول الله: لا تعجل علي إني كنت أمرأً ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ: " لقد صدقكم"، قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: "إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" أخرجه البخاري: ٣/ ١٠٩٥، برقم: ٢٨٤٥، ومسلم:٤/ ١٩٤١، برقم: ٢٤٩٤.

٦. **التكفير حكم شرعي: فهو يثبت بالشرع وليس بأقوال الرجال، يقول ابن القيم رحمه الله:**

الكفـــر حـــــق الله ثـــم رسولـــــه = بالشـــــرع يثبـــت لا بقـــول فـــلان

مـــن كـــان رب العـــالمين وعبـــده = قـــد كفـــراه فـــذاك ذو الكفـــران[1]

فالكفر حكم شرعي متلقى عن صاحب الشريعة والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفراً في الشرع[2].

فينبغي التورع والتثبت في المسألة.. ولا بد من أدراك خطورة التوسع فيها.

---

(١) شرح قصيدة ابن القيم: ٢/ ٤١٢

(٢) درء التعارض:١/ ١٤٠ .

أما نواقض الإيمان النداء

1. **الكفر:** وهو إنكار شيء مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ووصل إلينا بطريق يقيني قاطع. فهو إذن نقيض الإيمان.. فمن أنكر شيئاً مما يجب الإيمان به يسمى كافراً.

مثال ذلك:

- من اعتقد ألوهية المسيح عيسى ابن مريم، أو اعتقد ألوهية غيره من البشر، أو اعتقد بأن الله ثالث ثلاثة فهو كافر، وهذا الاعتقاد باطل قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 73- 72].
- ومن اعتقد بعدم فرضية الصلوات الخمس في الإسلام فقد كفر.
- ومن اعتقد إباحة الزنا أو إباحة الخمر أو ما شابه ذلك فقد كفر.

- **أنواع الكفر:**

1- **كفر الشك:** وهو الذي يشك في ما جاء به رسول الله ﷺ فلا يجزم بصدقه، ولا يجزم بكذبه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: 9].

2- **كفر الإعراض:** وهو الإعراض عمَّا جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يصدقه ولا يكذبه ولكنه يعرض عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [**السجدة**: 22].

3- **كفر الجحود:** وهو أن يجحد جملة بما أنزله الله تعالى أو يجحد شيئاً مما هو معلوم بالضرورة من الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [**النمل**: 14].

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [**الأنعام**: ٣٣].

4- **كفر التكذيب:** وهو اعتقاد كذب الرسول ﷺ في أيٍّ شيء مما جاء به.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [**فاطر**: 25 - 26].

5- **كفر إباء واستكبار:** وهو مثل كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، وهذا مثل حال من يعلم أن دين الإسلام هو دين الحقِّ الذي لا يقبل الله سواه، والذي فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، ثم يتركه إباءً واستكباراً ويتخذ له ديناً أو مذهباً من صنع البشر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [**البقرة**: 34].

- **حكم الكفر:**

إن حكم الكافرين هو الخلود في النار قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 39].

2. **الشرك:**

- **أنواع الشرك:**

– شرك من يؤمن بالله ولكنه يجعل له شريكاً في المُلك والتصرف في المخلوقات: خلقاً وحياة ورزقاً وموتاً وضراً ونفعاً.

وهذا الشرك كشرك النصارى والمجوس إذ يعتقد النصارى أن الله ثالث ثلاثة – سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً – ويعتقد المجوس أنه ثاني اثنين تعالى الله عما يقولون.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: 2].

– شرك من يصف نفسه أو غيره من البشر بصفات الكمال الخاصة بالله عز وجل:

وهي الصفات التي لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى كقول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

– شرك من يعبد غير الله بأي لون من ألوان العبادة:

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: 36].

فالعبادة تكون خالصة لله سبحانه ومن أشرك في العبادة شيئاً: كعبادة الشمس أو القمر أو النجوم أو الوثن أو الصنم أو الطبيعة أو الملائكة أو الأنبياء أو الرسل أو الصالحين، فحكمه حكم الكافرين المشركين.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزُمَر: 64].

- **حكم من أشرك بالله عزَّ وجلَّ:**

إن الله لا يغفر إشراك من أشرك به بخلاف من عصى الله من المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: 116].

ومن أشرك فإن الله يحرم عليه الجنة فلا يدخلها أبداً.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ ﴾ [المائدة: 72].

3. **الردة:**

- **والمرتد:** من ترك دين الإسلام وهو عاقل بالغ، مختار غير مكره إلى دين آخر، كالنصرانية أو اليهودية أو غير ذلك من الأديان الباطلة، أو إلى عقيدة باطلة ومذهب فاسد كالشيوعية، أو إلى تبنى نظرية إلحادية، أو أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة، أو قال قولاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر، أو حكم بغير ما أنزل الله مع اعتقاده بأنَّ النظام الإسلامي نظام رجعي أو متأخر.

- **أنواع الردة:**

1) ردة في الاعتقاد.

2) ردة في الأقوال. □

3) ردة في الأفعال.

- **الردة في الاعتقاد:**

اتفقت علماء الأمة الإسلامية على: أن من أنكر من المسلمين وجود الله، أو أنكر صفات الكمال لله، أو أشرك بالله سبحانه وتعالى فجعل له ولداً أو بناتٍ أو مثيلاً مشابهاً له أو أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، فهو مرتد خارج عن دين الإسلام.

- معنى الأمر المعلوم من الدين بالضرورة:

ما ثبت بنص القرآن الكريم أو بالسنة المتواترة وكان قطعي الدلالة وليس فيه شبهة أو بإجماع جميع الصحابة المتواتر إجماعاً قطعياً قولياً غير سكوتي.

أمثلة عن الأمور المعلومة من الدين بالضرورة:

- الإيمان بوجود الله ووصفه بصفات الكمال وتنزيهه عن كل نقصان وأن كل ما سواه فهو مخلوق.
- الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام وبمعجزاتهم.
- الإيمان برسالة محمد ﷺ بأنها عامَّة إلى جميع الخلق، وهي صالحة لكل زمان ومكان، والإيمان بأنه خاتم النبيين ولا نبي بعده، وأن شريعته باقية إلى قيام الساعة وهي كفيلة بإسعاد البشرية.
- الإيمان بالملائكة وأنهم عباد مكرمون خلقهم الله تعالى.
- الإيمان بوجود الجن، وأن النبي ﷺ محمداً مرسل إليهم وأن الله خلقهم من مارج من نار، وأن منهم المؤمنين ومنهم الكافرين.
- الإيمان بالبعث والحشر والحساب ووزن الأعمال.
- الإيمان بالجنة بأنها دار النعيم للمؤمنين خالدين فيها أبداً بأرواحهم وأجسادهم.
- الإيمان بالنار بأنها للكافرين خالدين فيها أبداً بأرواحهم وأجسادهم.
- الإيمان باللوح المحفوظ والقلم والعرش والكرسي. خلقها الله لحكمة لا لاحتياج إليها.
- الإيمان بشفاعة محمد ﷺ العظمى في فصل القضاء حيث يلجأ إليه الخلق جميعاً في الموقَف العظيم.
- الإيمان بفرضية الوضوء لمن كان غير متوضئ عند الصلاة والغسل لمن وجب عليه كالجنب، والإيمان بفرضية الصلوات الخمس، وفرضية الجمعة.
- والإيمان بفرضية الزكاة على من ملك حدَّ النصاب، والصوم، والحج على من استطاع إليه سبيلاً.
- الإيمان بفرضية الجهاد في سبيل الله، وأنه لا يسقط أبداً.
- الإيمان بحرمة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعقوق الوالدين، والسحر، وشهادة الزور، والزنا واللواط، وأكل أموال الربا، وأكل أموال اليتامى، والرشوة، والسرقة، والظلم، والغصب، والغش، والخيانة، وإيذاء الناس بغير حق، والسخرية، والغيبة، والنميمة، والكذب، وقذف المحصنات، والرياء، والعجب، والكبر، والبخل، والحسد.

وغير ذلك من الأمور الواضحة المعلومة من الدين بالضرورة.

- **الردَّة في الأقوال:**

إذا قال المسلم قولاً مكفِّراً فقد ارتد وخرج عن الإسلام.

من ردة الأقوال: من جحد قولاً لعقيدة من عقائد الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة فهو مرتد.

من اعترف اعترافاً قولياً بعقيدة مكفِّرة بأنها صحيحةٌ.

من سبَّ الله أو القرآن أو الرسل أو الأنبياء أو أحدهم سواءً كان مازحاً أو جاداً فهو مرتد.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: 65 - 66].

من طعن في الدين، فهاجم الإسلام وشرائعه أودعا إلى مبدأ إلحادي أو كفري فهو مرتد.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: 12].

- **الردة في الأفعال:**

إذا فعل المسلم فعلاً مكفراً، فقد ارتد وخرج عن الإسلام من ردة الأفعال:

من ألقى المصحف أو جزءً منه في القاذورات أو لطخه بالنجاسات متعمداً فهو مرتد.

ومن سجد لصنم أو شمس أو قمر أو غير ذلك من الأشياء المخلوقة فهو مرتد.

ومن استهزأ بفعل صريح بدين الله فقد ارتد.

ومن علق الصليب على الصدر أو وضع من شارات الكفر الخاصة بهم فقد ارتد.

ومن حارب الشريعة الإسلامية واستبدلها بالقوانين الوضعية البشرية تعطيلاً لأحكام الله سبحانه وتعالى فقد ارتد.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: 44].

○ **حكم المرتد:**

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

- **حكمه في الدنيا:**

لا يرث ولا يورث ولا تؤكل ذبيحته، ولا يُزَوَّج وتقع الفرقة بينه وبين زوجته من غير تنقيص عدد للطلاق، وليس له أن يردها إلى عصمة الزواج إلا بعد أن يسلم من جديد بعقد شرعي، وتحبط أعماله كلها.

المرتد يحبس ثلاثة أيام ويعرض عليه الإسلام مع معرفة سبب كفره ورفع الشبه والشكوك من نفسه بالأدلة المقنعة والنقاش العلمي، فإن أصر على كفره ولم يرجع إلى دين الإسلام، يقتل من قبل الحاكم المسلم.

قال رسول الله ﷺ: **«من بدل دينه فاقتلوه»**.

- **حكمه في الآخرة:**

حكمه حكم الكافرين يخلد في النار وله عذابٌ أليم.

● **النفاق:**

أ- **معنى النفاق:** وهو أن يظهر الإنسان إيمانه وهو في باطنه كافر مكذب.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1].

○ **صفات المنافقين:**

من صفات المنافقين التي جاءت في القرآن الكريم:

- **الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح:**

قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١ - 12].

- اتهام المؤمنين بالسَّفه:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 13].

- خداع الذين آمنوا بإظهار الإيمان إذا قابلوهم، ثم إظهار الكفر مع أوليائهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة: 14- 15].

- الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله وصد الناس عن الحكم بما أنزل الله:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ(1) وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾ [النساء: 60 - 61].

- اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: 138 - 139].

- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: 67].

○ **أنواع النفاق:**

النفاق نوعان:

- **نفاق اعتقادي:** وهو أن يظهر الإنسان الإيمان ويبطن خلاف ذلك.

- **ونفاق عملي:** وهو أن يكون الإنسان مؤمناً ظاهراً وباطناً إلا أنه يخالف في بعض أعماله الظاهرة العمل الصالح كخيانة الأمانة والتحدث بالكذب وخلف الوعد.

قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف**».

د- حكم النفاق:

حكم النفاق الاعتقادي: هو كحكم الكافرين وهو الخلود في النار.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [**التوبة**: 68].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [**النساء**: 145].

حكم النفاق العملي: حكمه حكم الفسق وهو معصية يجب الرجوع عنها.

النداء الأول

الأمة شخصية خاصة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[البقرة: 104] .

بين يدي النداء

إن الكلمة إذا أصبح لها مدلول اصطلاحي أي حقيقة عرفية خاصة، وصار لاستعمالها واقع فحينها يسَلَّط الحكم الشرعي على المعنى الاصطلاحي وليس على المعنى اللغوي، فإن كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾كلمة عربية بمعنى انتظرنا وأمهلنا وهي نفس معنى كلمة ﴿ٱنظُرۡنَا﴾، ولكن اليهود يستعملون (راعنا) في معنى السبّ والشتم ويستغلون استعمال المسلمين لها في نداء الرسول ﷺ فسيتعلمونها هم في نداء الرسول كذلك بقصد السبّ والشتم، فنزلت الآية بأن لا يستعمل المسلمون هذه الكلمة لأنها أصبحت اصطلاحاً – حقيقة عرفية خاصة – بمدلول جديد، وأصبح الحكم الشرعي لمثل هذه الكلمات يسلط على المعنى الاصطلاحي وليس على المعنى اللغوي.

فمثلاً لو سُئلنا عن الحكم الشرعي في الاشتراكية، فلا نبحث معنى الاشتراكية اللغوي من اشترك أو شركاء أو شركة حسب معانيها اللغوية ونسلط الحكم عليها، بل نسلط الحكم الشرعي على المعنى الاصطلاحي لكلمة (اشتراكية) فنجد أن أهلها سمَّوها بهذا الاسم للدلالة على مبدأ معين ينكر أن هناك خالقاً للمادة ويعتبرها أزلية، ثم يطبق أحكاماً منبثقة من عقيدته هذه، فيقول بتطور المادة وإلغاء الملكيات وأنواع المساواة المبنية في ذلك النظام، وبهذا المعنى نقول إن الاشتراكية نظام كفر للنصوص الواردة حول مدلولها الاصطلاحي[1]. ومثلها الديمقراطية والرأسمالية والعلمانية.. إلخ.

---

(١) التيسير في اصول التفسير: عطا ابو الرشتة ص١٣٤-١٣٥. ط ١٤١٨هـ ١٩٩٨م

هداية وتدبر[1]

١. الرعي حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعنا أي راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فنُهيَ المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس، وهو انظرنا بمعنى: انظر إلينا. أو انتظرنا من نظره إذا انتظره. وقرىء أنظرنا من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ، وقرىء راعونا على لفظ الجمع للتوقير.

٢. كان المسلمون يستعملون كلمة راعنا بمعنى تمهل وترفق بنا وكان هذا اللفظ يوافق كلمة (راعينو) العبرية التي معناها (شرير) فراح اليهود يستعملون هذه الكلمة في حديثهم مع الرسول وهم يُميلون ألسنتهم لتكون قريبة من (راعينو) العبرية.

٣. نهي الجماعة المسلمة عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب في قول أو فعل بما يتوافق مع معاني ومدلولات غير المسلمين، فما بالكُم بالإيمان والاعتقاد والعمل بما عندهم من أفكار ومناهج حياة وسلوك.

٤. التمسّك بسدّ الذرائع وحمايتها.. وقد دلّ على هذا الأصل الكتابُ والسُّنة. والذَّرِيعة عبارةٌ عن أمر غير ممنوع لنفسه يُخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع. – وهي الوسائل التي يتوسل بها إلى أمر محظور –.

٥. استخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى عظيم غيظهم وحقدهم، كما يشي بسوء الأدب، وخسة الوسيلة، وانحطاط السلوك.

٦. النهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة، ودفاعه – سبحانه – عن أوليائه، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين.

٧. كشف دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين؛ وتحذير الجماعة المسلمة من

---

(١) انظر: أسباب نزول القرآن. الواحدي. مفاتيح الغيب. التحرير والتنوير. في ظلال القرآن. التفسير المنير. الجامع لاحكام القرآن. تفسير البيضاوى حـ ١ صـ ٣٧٥.

ألاعيبهم وحيلهم، وما تُكنه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر، وما يبيتون لهم من الكيد والضر. ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الدفينة التي تكمن وراء أقوال اليهود وأفعالهم، وكيدهم ودسهم، وألاعيبهم وفتنهم، التي يطلقونها في الصف الإسلامي.

٨. فرِّغوا أيها المؤمنون أسماعكم لما يقول النبي عليه السلام حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، واسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا. واسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه تأكيداً عليهم.

٩. تجنّب الألفاظ المحتمِلة التي فيها التعريض للتنقيص والغَضّ.

10. قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا﴾ نهيٌ يقتضي التحريم.

....

المعاني المفردة

رَاعِنَا: فِعْلُ أَمْرٍ من المراعاة، أي راعنا سمعك أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه أو انظر في مصالحنا وتدبير أمورنا..

انْظُرْنا: انظر إلينا، أو انتظرنا وتأنّ علينا وأمهلنا.

سبب النزول[١]

قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها، فَلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك وكان ﴿رَاعِنَا﴾ فِي كلام اليهود سبًّا قبيحًا فقالوا: إنا كنا نسب محمدًا سرًّا فالآن أعلنوا السب لمحمد لأنه من كلامهم، فكانوا يأتون نبي اللّه ﷺ فيقولون: يا محمد ﴿رَاعِنَا﴾ ويضحكون ففطن بها رجل من الأنصار وهو

---

١) انظر: التفسير المنير ج1 ص235.

سعد بن عبادة وكان عارفًا بلغة اليهود، وقال: يا أعداء اللَّه عليكم لعنة اللَّه والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه فقَالوا: ألَستم تقولونها له؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾الآيةَ.

الإعراب والصرف[1]

(يا) أداة نداء (أي) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و **(ها)** حرف تنبيه **(الذين)** اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت ل **(أيّ)** أو بدل منه **(آمنوا)** فعل ماض مبنيّ على الضمّ..

والواو فاعل **(لا)** ناهية جازمة (تقولوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون.. والواو فاعل **(راع)** فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة و **(نا)** ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت **(الواو)** عاطفة (قولوا) أمر مبنيّ على حذف النون.. والواو فاعل **(انظر)** أمر دعائي **(ونا)** مفعول به والفاعل أنت، **(الواو)** عاطفة **(اسمعوا)** مثل قولوا. **(الواو)** استئنافيّة **(للكافرين)** جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم **(عذاب)** مبتدأ مؤخّر مرفوع **(أليم)** نعت ل **(عذاب)** مرفوع مثله. جملة النداء يأيّها ... لا محلّ لها استئنافيّة. وجملة: **«آمنوا» لا محلّ** لها صلة الموصول **(الذين)** . وجملة: **«لا تقولوا... » لا محلّ** لها جواب النداء. وجملة: **«راعنا» في محلّ** نصب مقول القول. وجملة: **«قولوا...»** لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء. وجملة: **«انظرنا» في محلّ** نصب مقول القول. وجملة: **«اسمعوا» لا محلّ** لها معطوفة على جملة جواب النداء. وجملة: **«للكافرين عذاب...»** لا محل لها استئنافيّة.

«راعِنا»: فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء، حذف حرف العلة في الأمر لكونه معتل

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم. الجدول في إعراب القرآن الكريم، المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ

الآخر في المضارع، وزنه فاعِنا.

المناسبة في السياق[1]

لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر ، الذين يضمرونه للنبي ﷺ والمسلمين، من الطعن والحقد والحسد، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفا للطعن، والتجريح، بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية.

---

(١) صفوة التفاسير – الصابوني.

النداء الثاني

استعينوا بالصبر والصلاة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]

بين يدي النداء

لقد كانت الصلاة من أعظم ما يتزود به النبي ﷺ في مسيرته الدعوية فكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول أيضًا: «أرحنا بها يا بلال».

وكيف يربي المربي الناس على أمور هو مفرط فيها ومضيع لها أو على الأقل متهاون فيها، وهذا مما يضعف همته في التربية ويفقده الحماس المطلوب للعملية التربوية، بل يجعل المتربين لديه غير متأثرين به؛ لأنهم يرونه قدوة غير صالحة في هذا المجال، يقول محمد أحمد الراشد: [في كتاب الرقائق]: فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله، والمتخلف يابس قاس تقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بشر الحافي منذ القديم شاهده وأرشد إليه فقال: بحسبك أن أقوامًا موتى تحيا القلوب بذكرهم وأن أقوامًا أحياء تقسو القلوب برؤيتهم.

ويقول الشيخ عائض القرني في كتاب: [حتى تكون أسعد الناس]: الصَّبْرِ وَالصَّلاةِ هما وقود الحياة، وزاد السير، وباب الأمل، ومفتاح الفرج، ومن لزم الصبر وحافظ على الصلاة فبشره بفجر صادق، وفتح مبين، ونصر قريب. جُلد بلال وضُرب عُذب وسُحب وطُرد وهو يردد: أحد أحد، لأنه حفظ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما دخل الجنة احتقر ما بذل واستقل ما قدم لأن السلعة أغلى من الثمن أضعافاً مضاعفة.

هداية وتدبر[1]

١. اطلبوا العون - أيها المؤمنون - فى كل ما تأتون وما تذرون بالصبر على النوائب والمصائب والأمور الشاقة، والصبر على الطاعات والقربات. وبالصلاة التى هى أمّ العبادات، التي تطمئن بها النفس. وتنهى عن الفحشاء والمنكر. إن الله بقدرته القاهرة وبعونه وتوفيقه وتسديده مع الصابرين فهو وليهم وناصرهم.

٢. علم الله تعالى ما سيلاقيه المؤمنون في الدعوة إلى دينه وتقريره وإقامته من المقاومات وتثبيط الهمم، وما يقوله لهم الناس في ذلك، وما يقول الضعفاء في أنفسهم: كيف تبذل هذه النفوس وتستهدف للقتل بمخالفة الأمم كلها؟ وما الغاية من قتل الإنسان نفسه لأجل تعزيز رجل في دعوته؟ وغير ذلك مما كانوا يسمعونه من المنافقين والكافرين، وربما أثر في نفوس بعض الضعفاء فاستبطؤوا النصر، فعلمهم الله سبحانه وتعالى ما يستعينون به على مجاهدة الخواطر والهواجس، ومقاومة الشبهات والوساوس. فأمر أولاً بالاستعانة بالصبر والصلاة .

٣. الناظر في القرآن الكريم يجد الحديث عن الصبر ومشتقاته قد جاء في نحو من تسعين آية: تأمر به حيناً، وتثني على أهله حيناً آخر، تعدُهم بالمحبة والمعية، وتزفُّ البشرى بالجنة وبالأجر العظيم الذي يوفَّى لهم بغير حساب.

٤. نحن مأمورون بطلب العون من الله تعالى وأن ندعو الله تعالى به ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾..

إذا لم يكــن عــون مــن الله للفتــى = فــأول مــا يجــني عليــه اجتهــاده

٥. تارك الصلاة على خطر عظيم. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا

---

(١) جامع البيان. تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تفسير بحر العلوم. فتح القدير. تفسير المنار حـ ٢ صـ ٢٧ ـ ٣٤. تفسير المنتخب. تفسير مجمع فهد.

يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: 59 - 60]. يقول ﷺ: **«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»** [١].

٦. الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين. وهي أُم العبادات: وأفضلُ الطاعات، ولذلك جاءت نصوص الكتاب والسنة بإقامتها والمحافظة عليها والمداومة على تأديتها في أوقاتها.
٧. كانت الصلاة آخر وصايا النبي ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.
٨. الصلاة أفضل الأعمال. وهي نهر من الطهارة والمغفرة. وكفارة للذنوب والخطايا. وعهد من الله بدخول الجنة. وأول ما يُحاسب عنه العبد يوم القيامة. والصلاة نور. وهي مناجاة بين العبد وربه. وأمان من النار. وأمان من الكفر والشرك. وهي حفظ وأمان للعبد في الدنيا.
٩. كان رسولنا الكريم إذا حزبه أمر صلى. عَنْ حُذَيْفَةَ قال: «**كان النبى ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**»[٢].
١٠. الصبر والصلاة: رادعان عن المعاصي. فليس شيء من الطاعة الظاهرة أشد من الصلاة على البدن لأنه يجتمع فيها أنواع الطاعات: الخضوع والإقبال والسكون والتسبيح والقراءة فإذا تيسر عليه الصلاة تيسر عليه ما سوى ذلك، وليس شيء من الطاعات الباطنة أشد من الصبر على البدن فجمع تعالى الأمر بهما.
١١. الصبر أنواع:
   - صبر على ترك المحارم والمآثم. □
   - وصبر على فعل الطاعات والقربات. □
   - وصبر على المصائب والنوائب.
١٢. الصبر سبب في مضاعفة الأجر.. ويكفي في ذلك بشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزُّمَر: 10].

---

(١) حديث 256 - كتاب الإيمان - باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة - صحيح مسلم.
(٢) حديث ١٣٢١ - التطوع - سنن أبى داود.

١٣. إن المعية التي أوضحها الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إثبات معيَّة الله الخاصة بالمؤمنين، وفيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال.

14. جمع الله تعالى للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي: الصلاة منه عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 155- 157].

١٥. ويمكن تحقيق الصبر بـ: معرفة حقيقة الحياة الدنيا الزائلة فهي ليست بدار مقام. وتذكر حسن الجزاء عند الله للصابرين. والتأسي بأنبياء الله تعالى ورسله أكرم الخلق على الله، وقد لاقوا من بلاء الدنيا ما لاقوا وصبروا.. والتيقن بالفرج بعد الشدة. والنصر مع الصبر، والاستعانة بالله والتوكل عليه فإنه خير معين، والتزود بالإيمان بالقضاء القدر، والعلم بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وتصغير المصاب وشأنه، وتذكُّر أن الهمَّ الأكبر همُّ الآخرة. فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

....

المعاني المفردة

الاستعانة: طلب العون.

الصبر: قال الجَوْهَرِيّ: حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ، وحَبْسُ اللّسَانِ عن الشَّكْوَى، وحبْسُ الجوارِحِ عن التَّشْوِيشِ .

الصلاة: في اللغة: أصل معناها الدعاء ومنه قولُه تعالى: **(وصَلِّ عَلَيْهِم)**، أي ادْعُ لَهُم. وقيلَ: الصَّلاةُ في اللغةِ مُشْتركةٌ بينَ الدُّعاءِ والتَّعْظِيمِ والرَّحْمة والبَرَكةِ.

الإعراب والصرف[1]

«اسْتَعِينُوا» فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب. «بِالصَّبْرِ» متعلقان بالفعل قبلهما. «وَالصَّلاةِ» معطوف على الصبر. «إِنَّ اللَّهَ» إن ولفظ الجلالة اسمها. «مَعَ الصَّابِرِينَ» مع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر إن، «الصابرين» مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

(الصابرين): جمع الصابر، اسم فاعل من صبر الثلاثيّ، وزنه فاعل.

مناسبة الآية في السياق[2]

بعد تقرير القبلة، وإفراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة، التي تتفق مع حقيقة تصورها المميزة كذلك، كان أول توجيه لهذه الأمة ذات الشخصية الخاصة والكيان الخاص، الأمة الوسط الشهيدة على الناس، كان أول توجيه لها هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم. والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، والخوف والجوع، ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله في الأنفس، وإقراره في الأرض بين الناس. وربط قلوب هذه الأمة بالله، وتجردها له، ورد الأمور كلها إليه، كل أولئك في مقابل رضى الله ورحمته وهدايته، وهي وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن، الذي يدرك قيمة هذا الجزاء..

---

(١) الجدول في إعراب القرآن.

(٢) في ظلال القرآن.

النداء الثالث

تمتعوا واشكروا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]

بين يدي النداء

[يختلف الإنسان المسلم عن غيره في كونه يعيش الحياة بقطاعيها الباطني والخارجي بتركيز أشد .. في الباطن يحرك الإسلامُ كل قوى الإنسان وفاعلياته وإمكانياته الذاتية، الحسية والعاطفية والخيالية والعقلية والانفعالية والروحية، ويسير بها صوب استجابة مكثفة مترعة إزاء كل ما يحركها ويهزها ويدفعها إلى مزيد من «الحياة»، ومن ثم مزيد من المعطيات التعبيرية. وفي الخارج يدفع الإسلام الإنسان إلى أن ينمي ويوسع متع واستجابات حواسه المختلفة عن طريق ربط هذه المتع والاستجابات ربطاً نفسياً وذهنياً فذاً بتجربة الإيمان الشاملة، باعتبار أن هذه الطيبات جميعاً، وتلك الطاقات الجمالية الكونية التي لا بدء لها ولا انتهاء، أمور سخرها الله سبحانه لبني آدم، وأن عليهم ـ إذا ما أرادوا تقدير خلق الله حق قدره ـ أن يتمتعوا ويشكروا، وأن ينموا علاقاتهم الحسية الثرّة واستجاباتهم لكل ما يحيط بهم من قوى مذخورة ، ومتع طيبة، وقيم جمالية ..

ان الله سبحانه ـ وهو أدرى بخلقه ـ رسم للإنسان الحدود القصوى لتجربة أحاسيسه واستجاباتها: ابتداء من الطعام والشراب والجنس وانتهاء بالمشاهدة والسماع .. الحدود التي إذا قصر الإنسان عن ادراكها أو تجاوزها إلى ما وراء، عرض طاقاته الحسية للضمور والانكماش، أو للتشتت والدمار .. وفي كلتا الحالتين لابد وان تصاب الأجهزة الحسية بما يعرضها للانحراف عن تأدية دورها كاملاً في الاستجابة والتلقي عما يحيط بها من علامات وقيم وأشياء ..

أما وقد حدد الإسلام مجالات الحس البشري وآفاقه، فيمكننا ان نقول مطمئنين أن

الإنسان المسلم قد اتيحت له الفرصة التي لم تتح يوما للآخرين .. وقد علمه وحي الله سبحانه، وهديه، الطريق الذي إذا ما سار فيه يوما فسينتهي ـ وقد استكملت حواسه أسبابها ـ إلى أن يكون وجوده وتعبيره مقطوعة موسيقية أو لوحة فذة، أو قلما لا تكف اليد التي تمسك به عن الحركة، ولا القلب الذي يمده بالدم عن الخفقان، ولا الرؤى والأحلام التي تبعث فيه الحياة عن الانسياب إلى الآفاق التي لا تحدها حدود.

وما أروع القرآن الكريم وهو يسأل باستنكاره المؤثر العجيب ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ .. ﴾وما أروعه، مرة أخرى، عندما يحشد عدداً كبيراً من الآيات يطالب فيها الإنسان أن يفتح حواسه جميعاً لتلقي المؤثرات التي بثها الله في الكون، من أجل أن يتمتع عباده ويعبروا عن شكرهم بضروب من معطيات الفكر والفن والوجدان لا تعدو أن تكون حمداً وتسبيحا[١]].

هداية وتدبر[٢]

١. إن الله ينادي الذين آمنوا بالصفة التي تربطهم به سبحانه، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع؛ وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام. ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم؛ فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيباً من الطيبات، وأنه إذا حرم عليهم شيئاً فلأنه غير طيب، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم - وهو الذي أفاض عليهم الرزق ابتداء - ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك. فيوحي إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد. كل أولئك في آية واحدة قليلة الكلمات..

٢. يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأقروا لله بالعبودية، وأذعنوا له بالطاعة، اطعَموا

---

(١) أ. د. عماد الدين خليل http://alfikr.org/view.aspx?rid=254 [موقع الغكر الحر]

(٢) تفسير الطبري . من دروس الشيخ محمد راتب النابلسي
http://www.nabulsi.com/text/03quran/2j-ram04/ram4-008a.php. تفسير المنار.

من حَلال الرزق الذي أحللناهُ لكم، فطاب لكم بتحليلي إياه لكم، مما كنتم تحرِّمونَ أنتم، ولم أكن حرمته عليكم، من المطاعم والمشارب. وأثنوا على الله بما هو أهله منكم، على النعم التي رزقكم وَطيَّبها لكم. إن كنتم منقادين لأمره سامعين مطيعين، فكلوا مما أباح لكم أكله وحلله وطيَّبه لكم، ودعوا في تحريمه خطوات الشيطان.

٣. كل ما في الأرض والبحر والجو من نبات وحيوان وسمك وطير حلال لنا إلا ما ذكر من المحرمات هنا وفي سورة المائدة وما نص عليه في كتب الفقه الإسلامى.

٤. وللمضطر أن يأكل مما حرم **قدر الضرورة**[١]. والضرورة: هي الحالة الشاقة الشديدة التي لا مدفع لها، والتي لا يطيق الناس تحملها في المعتاد، ولا يصبرون على استمرارها، سواء أدت إلى هلاكهم، أو إلى إدخال العنت الشديد في حياتهم، والمؤمن الذي يخاف الله، لا بد أن يعرف حد الضرورة، والإنسان على نفسه بصيرة، وينبغي عرض كل حالة على العلماء الموثوقين لتقدير تلك الضرورة، وهل هي تدخل في حد الضرورة أو لا؟.

٥. أهمية شكر الله تعالى على كل نعمه، فلقد أمر الله أن نشكره، ونهى عن أن نكفره، وأثنى على الشاكرين، ووصف فيه خواص المتقين، وجعله غاية خلقه وأمره، فالشكر غاية، ووعد أهله بأحسن الجزاء، وجعله سبباً لمزيد من العطاء، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم الذين ينتفعون بآياته، واشتق له اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو ينقل الشاكر إلى مشكور، تَشكر فتُشكر،

---

(١) أن يقتصر فيما يباح تناوله للضرورة في رأي جمهور الفقهاء على الحد الأدنى أو القدر اللازم لدفع الضرر، (ما تندفع به الضرورة) لأن إباحة الحرام ضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، لذلك "اختلف العلماء في مقدار ما يأكل المضطر من الميتة، فقيل: لا يأكل المضطر من الميتة إلا مقدار ما يسد الرمق والنفس، وقيل: ما يسد جوعته، وقيل: من تغذ لم يتعش منها، ومن تعش لم يتغذ منها، أي ليس له أن يجمع بينهما، وفي الحديث المرفوع، متى تحل لنا الميتة يا رسول الله؟ قال: (ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا) والصبوح الغداء، والغبوق العشاء، ونحو هذا".

وهو غاية الرب من عبيده، وهو ثمن الجنة وأهله قليلون جداً. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٦. الأكل قد يكون واجباً، وذلك عند دفع الضرر عن النفس، وقد يكون مندوباً، وذلك أن الضيف قد يمتنع من الأكل إذا انفرد، وينبسط في ذلك إذا سوعد، فهذا الأكل مندوب، وقد يكون مباحاً إذا خلا عن هذه العوارض، والأصل في الشيء أن يكون خالياً عن العوارض، فلا جرم كان مسمى الأكل مباحاً. وهنا في قوله تعالى ﴿كُلُواْ﴾ في هذا الموضع لا يفيد الإيجاب والندب بل الإباحة.

٧. الطيِّب في أصل اللغة هو المستلذ المستطاب، ولعل أقواماً ظنوا أن التوسع في المطاعم والاستكثار من طيباتها ممنوع منه. فأباح الله تعالى ذلك بقوله: كلوا من لذائذ ما أحللناه لكم فكان تخصيصه بالذكر لهذا المعنى.

٨. الأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. وكذا فإن الشكر يكون بالقول والعمل، ولذلك قارَنَ النبي ﷺ بين هذه الآية في خطاب المؤمنين، وما في معناها من خطاب المرسلين قال ﷺ: **«أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾**، وقال:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»**[١].

٩. وجوب شكر الله على نعمه ومنها النصر على الأعداء والفتح للمسلمين وعلى كل نعمة من نعمه عز وجل التي لا تُعَد ولا تُحصى بتسبيحه وتحميده واستغفاره

---

(١) رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق.

والتوبة إليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر]. وبالشكر تزيد النعم.

١٠. من واجب شكر الله عز وجل على هذه النعمة العظيمة أن يحافظ عليها وأن يتجنب أسباب زوالها. قال ﷺ: **«التحدُّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل؛ لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس؛ لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب»**[١].

١١. إن شكر النعمة مربوط بالزيادة ؛ فمن شكر الله تعالى على نعمه؛ زاده.. والزيادة من الله تعالى؛ زيادة من الغني.. مالك كل شيء! قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]. قال علي رضي الله عنه لرجل من أهل همدان: «إنَّ النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل؛ حتى ينقطع الشكر من العبد».

١٢. لقد ثبت علمياً وبشكل مؤكد الأضرار الصحية والنفسية والسلوكية في الميتة ولحم الخنزير[٢]...

....

(١) رواه البيهقي في الشعب/ صحيح الجامع: ٣٠١٤.

(٢) د. جواد الهدمي (PhD)

http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=1956&select_pa ge=3

والدكتور الطبيب محمد نزار الدقر

http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=1956&select_page=3

والدكتور الطبيب محمد نزار الدقر

http://55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det&id=125 ومن هذا الرابط

تشاهد مقطع تشريحي لجسم الخنزير:

http://www.johnabbott.qc.ca/~p.anderson/805labtest1/PIGDIAG1.html .

معاني المفردات

طَيِّبَاتِ: الطيبات: أكثر ما يرد بمعنى الحلال المستلذ، كما أن الخبيث كناية عن الحرام.

رَزَقْنَاكُمْ: الرِّزْقُ: الكسب الحلال، والحرام لا يسمَّى رزقاً.. فإنّ كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالاً[1].. قال تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

الإعراب

«**كُلُوا**» فعل أمر **والواو** فاعل والجملة لا محل لها ابتدائية. «**مِنْ طَيِّباتِ**» متعلقان بمحذوف صفة للمفعول المحذوف. «**ما رَزَقْناكُمْ**» ما اسم موصول في محل جر بالإضافة. **رزقناكم**: فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة صلة الموصول. «**وَاشْكُرُوا**» معطوف على كلوا. «**لِلَّهِ**» لفظ الجلالة مجرور باللام وهما متعلقان بالفعل قبلهما. «**إِنْ كُنْتُمْ**» إن حرف شرط جازم **كنتم**: فعل ماض ناقص **والتاء**: اسمها وهو فعل الشرط. «**إِيَّاهُ**» ضمير منفصل مبني على الضم في محل نصب مفعول به مقدم. «**تَعْبُدُونَ**» فعل مضارع وفاعل والجملة خبر كنتم، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

---

(١) تفسير الكشاف/ الزمخشري.

النداء الرابع

القِصاصِ حياةٌ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة: ١٧٨ - ١٧٩]

بين يدي النداء

هذه الآية فيها الرد الجلي الواضح على دعاة العَلمانية[1] الذين ينازعون الله تعالى في أخص خصائصه – الحاكمية – فيقولون الإيمان علاقة روحية ذاتية شخصية بين العبد الفرد وبين خالقه. إن من سمات العلمانية الواضحة أنها تريد من المسلم أن يعيش إسلامه طقوساً منزوعة المعنى، أما تدبير شؤون الحياة بكل تفاصيلها فليس لله فيها شأن، لذا فإن العلمانية تشن معارك طاحنة ضد المسلمين بوسائل شتى حتى فرضت بعض النظريات العلمانية نفسها على الأطر الفكرية لكثير من المثقفين الإسلاميين، فصرنا نسمع منهم من ينادي بدولة إسلامية تتبنى تعدد الأحزاب حتى لو كان منها أحزاب علمانية وشيوعية.

لا أجد حرجاً في القول إن العلمانية اليوم هي العدو الأول للإسلام، وإن العلمانية هي أحد الأسباب التي مزقت الأمة والبشرية شر ممزق، وذلك لأن مرض العلمانية يصيب العقول بالتلوث، فيفقدها القدرة على التفكير السليم، فتتخبط في عقائدها واقتناعاتها وأقوالها وأفعالها، فتقود الشعوب والأمم للتفرق والضعف والهلاك. فالعلمانيون كالمجانين لا يهتدون، ويتناقضون في تصوارتهم وأقوالهم. والعلمانيون

---

(١) العلمانية: ترجمة مضللة لمصطلح أجنبي وترجمته الصحيحة: اللادينية أو الدنيوي، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدين، والفصل الكامل بين الدين والحياة ولا صلة لها بالعلم.

مقتنعون بأنهم بإمكانهم وبعقولهم المجردة، وبدون الحاجة إلى نور الوحي إلى الوصول إلى جميع الحقائق، فهم يجهلون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. ويطالب العلمانيون باتباع العقل البشري، ونحن نقول لهم أي عقل بشري نتبع؟ فالرأسماليون لهم عقول، وكذا الشيوعيون والبوذيون والنازيون وغيرهم، فكل هؤلاء استخدموا عقولهم وكلها عقول بشرية ولكنهم لم يتفقوا، ولم يصلوا إلى كل الحقائق، بل وصوا إلى اقتناعات فيها جهل وغباء وسخافة وسفك دماء ودمار عمران وهتك أعراض وما فلسطين والعراق والأفغان والشيشان منا ببعيد[١].

ولا ننكر أن العلمانية جاهدت فينا حتى أوصلتنا إلى ما قال الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله[٢]: "وغير خاف أن الأمة التي تسمى اليوم بالمسلمين قد جمعت بين أحضانها كل رَطب ويابس من الأفراد والرجال فقد يوجد فيهم كل ما يوجد في الأمم الكافرة من أنواع الطبائع والأخلاق وهم يسابقون الكفار ويزاحمونهم بالمناكب في شهادة الزور في المحاكم، ويبارونهم في اخذ الرشي، وارتياد دور البغاء، وارتكاب السرقة والتجرؤ على غيرها من الأخلاق الذميمة" ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هداية وتدبر[٣]

١. الإسلام دين ينظم الله تعالى به حياة وشؤون البشر، ليس روحاً معزولة وعلاقة نفسية خاصة بين العبد وربه لا أكثر.
٢. التشريع الإسلامي يقضي على الجريمة أو يجعلها في أضيق حدودها، أما التشريع

---

(١) إصلاح الشعوب أولاً، بقلم عيد الدويهيس.

(٢) انظر: منهج الانقلاب الإسلامي ص٢٢.

(٣) في ظلال النداء. الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ ا/أ.د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ. تفسير القرطبي ٢/٢٣٧. تفسير الشعراوي.

الوضعي البشري فلا يمنعها ولا يخففها، بل تزداد الجرائم وتتسع حتى تنهك المجتمعات وتقضي عليها، والواقع شاهد صدق على ذلك.

٣. إن القصاص ليس الانتقام، وليس إرواء الأحقاد. إنما هو أجلُّ من ذلك وأعلى. إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة. ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله..

٤. أكرم الله هذه الأمة فشرع لهم قبول الدية في القصاص، ولم يكن هذا في شريعة التوراة.

٥. فرضية القصاص حكم قانوني شرعي.

٦. ولق كرَّم الله تعالى جنس الإنسان على وجه العموم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [**الإسراء**: 70]. وصانَ دمه وماله وعِرضه بغير حق. ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ...﴾ [**المائدة**: 45]. ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ ...﴾ [**المائدة**: 32]. لذا فقد تقرر شرعاً باتفاق الأئمة الأربعة قتل الجماعة بالواحد، سداً للذرائع، فلو لم يقتلوا لما أمكن تطبيق القصاص أصلاً، إذ يتخذ الاشتراك في القتل سبباً للتخلص من القصاص. ثم إن أكثر حالات القتل تتم على هذا النحو، فلا يوجد القتل عادة إلا على سبيل التعاون والاجتماع.

٧. في القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتيل في سمة الحياة. فإذا كف القصاصُ الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان في هذا الكف حياة. حياة مطلقة. لا حياة فرد ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة. بل حياة..

٨. الثارات الموجودة في المجتمعات المعاصرة سببها أننا لم نُمكن ولي الدم من القاتل، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم،

وبالغ في طلب العفو منهم، وأخذ كفنه معه وقال لهم: جئتكم لتقتصوا مني، وهذا كفني معي فاصنعوا بي ما شئتم، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه، لماذا؟ لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم، وفي العادة تنقلب العداوة إلى مودة. فيظل القاتل مديناً بحياته للذين عفوا عنه. والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذي نَجّا حياة قريبهم، وهكذا تتسع الدائرة، وتنقلب المسألة من عداوة إلى ود. ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فُصِّلَت: 34].

٩. لو لم يشرع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى. لكنه يشرعه، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلاً من ولي الدم ويحببه لنا ويقول: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

١٠. ندرك سعة آفاق الإسلام؛ وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها؛ ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الذي يكسر شرة النفوس، ويفثأ حنق الصدور، ويردع الجاني كذلك عن التمادي، ولكن الإسلام في الوقت ذاته يحبب في العفو، ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامي في حدود التطوع، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق.

١١. جاء الإسلام ديناً عاماً جامعاً شاملاً، يثير في النفس التسامي، ويضع الحقوق في نصابها، فأبقى القصاص، وترك للفضل مجالاً. لذلك يقول الحق عن الدية: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

١٢. إن الحق يرفع العقاب والعذاب عن القاتل إذا قبل القصاص ونُفذ فيه، أو إذا عفي عنه إلى الدية وأداها. ولكن الحق لا يقبل سوى استخدام الفرص التي

أعطاها الحق للخلق ليرتفعوا في علاقاتهم. إن الحق لا يقبل أن يتستر أهل قتيل وراء العفو، ليقتلوا القاتل بعد أن أعلنوا العفو عنه فذلك عبث بما أراده الحق منهجاً بين العباد.

١٣. ردع أهل العدوان عند الإقدام على قتل الأنفس إذا علموا أن جزاءهم القتل، فإن الحياة أعز شئ على الإنسان في الجبلة فلا تعادل عقوبة القتل في الردع والانزجار.

١٤. تطمين أولياء القتلى بأن القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتيلهم قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: 33] أي لئلا يتصدى أولياء القتيل للانتقام من قاتل مولاهم بأنفسهم؛ لأن ذلك يفضي إلى صورة الحرب بين رهطين فيكثر فيه إتلاف.

١٥. نقل المولى – جل وعلا – بهذا التشريع الحكيم العقوبات، من معنى انتقامي إلى معنى سام جليل، فقد كانت العقوبات السالفة، انتقاماً ينتقم بها المجتمع من المجرمين، أو ينتقم بها أهل القتيل من أهل المقتول، فلا يقبلون حتى يسفكوا مقابل الدم الواحد الدماء البريئة ويزهقوا الأرواح. وربما قتلوا بالرجل مائة رجل، فجعل الله الغرض منها الاستصلاح ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ولم يقل لكم فيه انتقام. ولقد رقت قلوب قوم من رجال "التشريع الوضعي" فاستفظعوا قتل القاتل، ورحموه من القتل، ولقد كان "المقتول ظلماً" أولى بالرحمة والشفقة والعطف، وإذا رحموا القاتل فمن يرحم المجتمع من سطوة المجرمين من أهل الفساد!! وماذا نصنع مع العصابات التي كثرت في هذه الأيام واتخذت لها طريقاً إلى ترويع المجتمع بالسلب والنهب وسفك الدماء؟ لقد نظروا نظرة ضيقة بفكر غير سليم، ولو نظروا نظرة عامة شاملة بفكر وعقل مستنير لرحموا الأمة من المجرمين، بالأخذ بشدة على أيدي العابثين، فإن من يرحم الناس يسعى لتقليل الشر عنهم، وكف عادية المعتدين.

١٦. "اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض، وإنما ذلك لسلطان أو من نصبه السلطان لذلك، ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدي الناس بعضهم عن بعض.

وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من رعيته، إذ هو واحد منهم، وإنما له مزية النظر لهم كالوصي والوكيل، وذلك لا يمنع القصاص، وليس بينهم وبين العامة فرق في أحكام الله عز وجل، لقوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾، وثبت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرجل شكا إليه أن عاملاً قطع يده: لئن كنت صادقاً لاقيدنك منه.

وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم شيئاً إذ أكب عليه رجل، فطعنه رسول الله ﷺ بعرجون كان معه، فصاح الرجل، فقال له ﷺ: "تعال فاستقد". قال: بل عفوت يا رسول الله.

١٧. تخفيف العقوبة رحمة من الله على عباده المؤمنين يجب عليهم شكرها.

١٨. لماذا كُتب عليكم وليس لكم؟ ﴿كُتِبَ﴾ بضم الكاف. ولم يقل "كَتب" بفتح الكاف. وتلحظ الفرق جلياً في الأشياء التي للإنسان دخل فيها، فهو سبحانه يقول: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21] إنه سبحانه هنا الذي كتب، لأنه لا شريك له. عندما تقرأ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ فافهم أن فيها إلزاماً ومشقة، وهي على عكس "كتب لكم" مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51].

إن "كتب لنا" تشعرنا أن الشيء لمصلحتنا. وفي ظاهر الأمر يبدو أن القصاص مكتوب عليك، وساعة يكتب عليك القصاص وأنت قاتل فيكون ولي المقتول مكتوباً له القصاص، إذن كل "عليك" مقابلها "لك"، وأنت عرضة أن تكون قاتلاً أو

مقتولاً. فإن كنت مقتولاً فالله كتب لك. وإن كنت قاتلاً فقد كتب الله عليك. لأن الذي "لي" لا بد أن يكون "على غيري"، والذي "علي" لابد أن يكون "لغيري". فالتشريع لا يشرع لفرد واحد وإنما يشرع للناس أجمعين. عندما يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾، ثم يقول في الآية التي بعدها: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، فهو سبحانه قد جاء بـ "لكم"، و "عليكم". "عليكم" للقاتل، و"لكم" لولي المقتول. فالتشريع عادل لأنه لم يأت لأحد على حساب أحد، والعقود دائما تراعي مصلحة الطرفين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾.

١٩. بيّنت هذه الآية على وجازتها حكمة القصاص، بأسلوب لا يُسامى، وعبارةٍ لا تُحاكى، واشتهر أنها من أبلغ آي القرآن.

ومن دقائق البلاغة فيها أن جعل فيها الضد متضمناً لضده، وهو (الحياة) في (الإماتة) التي هي القصاص، وعرّف القصاص ونكّر الحياة للإشعار بأن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب في حياة البشرية. ثم إنها في إيجازها قد ارتقت أعلى سماء للإعجاز، وقد اشتهر عن بعض بلغاء العرب كلمة في معناها، كانوا يعجبون من إيجازها وبلاغتها، ويظنون أن الطاقة لا تصل إلى أبعد من غايتها وهي قولهم: (القتل أنفى للقتل) وإنما فتنوا بهذه الكلمة وظنوا أنها نهاية ما يمكن أن يبلغه البيان، لأنها قيلت قبلها أقوال المشاهير البلغاء كقولهم: (قتل البعض إحياء للجميع) وقولهم: (أكثروا القتل ليقلّ القتل) وأجمعوا على أن كلمة (القتل أنفى للقتل) أبلغ هذه العبارات على الإطلاق.

قال الإمام الفخر: "وبيان التفاوت بين النظم الكريم وبين كلام العرب من وجوه عدة:

الأول: أن النظم الكريم (في القصاص حياة) أشد اختصاراً من قولهم (القتلُ أنفى للقتل) لأن حروفها أقل.

الثاني: أن قولهم (القتل أنفى للقتل) ظاهرة يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال.

الثالث: أنّ كلامهم فيه تكرار للفظ القتل، وليس في الآية الكريمة هذا التكرار.

الرابع: أن قولهم لا يفيد إلا الردع عن القتل، والآية أجمع لأنها تفيد الردع عن القتل والجراح.

الخامس: أن القتل ظلماً قتلٌ وليس نافياً للقتل، بل هو سبب لزيادة القتل، فظاهر قولهم باطل، وبذلك يظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب.

20. القانون الإلهي ليس جامداً وجافاً بل يستثير في النفس البشرية الروح والمودة والحب والإخاء.. أراد الإسلام أن يرقق القلوب ويربطها ببعض، فلا تنسَ أن الذي أخطأ بحقك وارتكب هذه الجريمة إنما استزله الشيطان وهو أخوك في الإيمان والإسلام، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجُرات: 10]. نعم لك الحق في القصاص ولكن يمكن أن تعفو وتطلقه لوجه الله تعالى إن رأيت أن في ذلك خيراً، وأنه ليس صاحب سوابق إجرامية ولن يعود لمثل هذه الجريمة أبداً وأنه تائب ونادم، ولقد أعطى الإسلام بديلاً عن القصاص الديَة المقررة شرعاً..

لذا فالإسلام اهتم بالأخوة الإيمانية.. لما لها من أثر في المجتمع المسلم.. فهو أول عمل قام به النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة المنورة إذ آخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار بما لا نظير له في التاريخ البشري.. لابن تيمية كلام في هذا يقول: "الأخوة عقدها الله عز وجل"، لا تحتاج إلى حلف ولا مستندات، ولا صكوك شرعية من محاكم العدل، لقد عقدها الله عز وجل من فوق سبع سماوات..

21. حصر الإسلام القتل فيما لا يمكن تجاوزه فيما يلي:

- **المرتد:** وهو من كفر بعد إسلامه ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ "مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ" (١)

---

(١) رواه البخاري (6524). (14) رواه مسلم (٤٥٠٩).

- **الزاني المحصن:** وعقوبته الرجم بالحجارة حتى الموت.

والمحصن: هو من تزوج ووطئ زوجته في نكاح صحيح، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - "خُذُوا عَنِّى خُذُوا عَنِّى قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْىُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ."(١)

- **القاتل عمداً:** يقتل قصاصاً إلا إن عفى عنه أولياء المقتول أو رضُوا بالدية؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ...﴾ [البقرة: 178].

ولقوْلِهِ ﷺ "لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلا بِإِحْدَى ثلاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ" (٢).

- **قاطع الطريق:** وهو المحارب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33].

٢٥. التقوى هي الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء بالقتل ابتداء، وفي الثأر أخيراً. إنها حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله؛ وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه. إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة، ولا يفلح قانون، ولا يتحرج متحرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان! وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي - ﷺ - وعهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الحدود - باب حد الزنا حديث 4509 .

(٢) رواه البخاري (6484) ومسلم (1676).

٢٦. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِىَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ عَلَى جَبْهَتِهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ "الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»[٢].

....

المعاني المفردة[٣]

كُتِبَ: فُرِضَ وَأُلْزِمَ.

الْقِصَاصُ: قص: القاف والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشَّيء. من ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثَر، إذا تتبَّعتَه. ومن ذلك اشتقاقُ القِصاص في الجِراح، وذلك أنَّه يُفعَل بهِ مثلُ فِعلهِ بالأوّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره. ومن الباب القِصَّة والقَصَص، كلُّ ذلك يُتَتَبَّع فيذكر. القصاص: المساواة في القتل والجراحات وفي آلة القتل أيضاً.

الإعراب

«**فَمَنْ**» الفاء استئنافية من اسم شرط جازم مبتدأ وقيل موصولة. «**عُفِيَ**» فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط. «**فَاتِّبَاعٌ**» **الفاء**: رابطة لجواب الشرط. **اتباع**: مبتدأ مؤخر والخبر محذوف والتقدير فعليه اتباع والجملة في محل جزم جواب الشرط وخبر المبتدأ من فعل الشرط وجوابه. «**فَمَنْ**» **الفاء عاطفة، من شرطية** مبتدأ. «**اعْتَدى**» فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر وهو فعل الشرط والفاعل هو.

(١) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي،١٦٢٩١.

(٢) صحيح البخارى. الوصايا حديث 2805.

(٣) معجم مقاييس اللغة ولسان العرب. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر الجزائري.

«بَعْدَ» ظرف زمان متعلق باعتدى.

سبب النزول[1]

عن سعيد بن جبير قال: إن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال فحلفوا أن لا يرضوا حتى بالعبد من الحر منهم وبالمرأة من الرجل منهم فنزل فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ الآية، وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس المائدة الآية ٤٥ فجعل الأحرار في قصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وما دون النفس وجعل العبيد مستويين في العمد النفس وما دون النفس رجالهم ونساؤهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي قال: نزلت هذه الآية في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عمية على عهد الرسول ﷺ قال: يقتل بعبدنا فلان بن فلان وتقتل بأَمَتنا فلانة بنت فلانة فأنزل الله الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى.

المناسبة في السياق

قال البقاعي: لما فتح سبحانه وتعالى لنا باب الرحمة بالقصاص منبهاً على تبكيت أهل الكتاب وكان ذلك من حكم التوراة لكن على سبيل الحتم وكان العفو على النصارى كذلك، أظهر في الفرقان زيادة توسعة بوضع هذا الإصر عنا بالتخيير بينهما.

---

(١) الدر المنثور – السيوطي.

النداء الخامس

كتب عليكم الصيام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة: ١٨٣]

بين يدي النداء

صوم شهر رمضان ركن من أركان الإسلام وفرض من فروضه الثابتة بالتواتر اليقيني، المعلومة من الدين بالضرورة، بدليل القرآن والسنة والإجماع: وقد أجمع المسلمون على وجوب صيام شهر رمضان.. ولذلك يحكم علماء الأمة جميعاً بالكفر والردة على كل من ينكر فرضية صوم رمضان، أو يشكك فيها، أو يستخف بها، ويعذر الجاهل إذا كان حديث عهد بالإسلام.

وقد فُرِضَ صَوْمُ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ إِجْمَاعًا فَصَامَ رسول اللَّهِ عليه أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلام تِسْعَ رَمَضَانَاتٍ إِجْمَاعًا، فلا شك أنه صام أول رمضان في العام الثاني من الهجرة.

الغالبُ على أحوال الأمم في جاهليتها وبخاصة العرب هو الاستكثار من تناول الملذات من المآكل والخمور ولهو النساء والدعة، وكل ذلك يوفر القُوى الجسمانيةَ والدموية في الأجساد، فتقوى الطبائع الحيوانية التي في الإنسان من القوة الشهوية والقوة الغضبية. وتطغَيَان على القوة العاقلة، فجاءت الشرائع بشرع الصيام، لأنه يفي بتهذيب تلك القوى، إذ هو يمسك الإنسان عن الاستكثار من مثيرات إفراطها، فتكون نتيجتُه تعديلَها في أوقات معينة هي مظنة الاكتفاء بها إلى أوقات أخرَى. والصوم بمعنى إقلال تناول الطعام عن المقدار الذي يبلغ حد الشبع أو تركِ بعض المآكل: أصل قديم من أصول التقوى لدى المليين ولدى الحكماء الإشراقيين، والحكمة الإشراقية مبناها على تزكية النفس بإزالة كدرات البهيمية عنها بقدر الإمكان، بناء على أن للإنسان قوتين:

إحداهما رُوحانية مُنبثة في قرارتها من الحواس الباطنية، والأخرى حيوانية منبثة في قرارتها من الأعضاء الجسمانية كلها، وإذ كان الغذاء يخلف للجسد ما يضيعه من قوته الحيوانية إضاعةً تنشأ عن العمل الطبيعي للأعضاء الرئيسية وغيرها، فلا جرم كانت زيادة الغذاء على القدر المُحتاج إليه توفر للجسم من القوة الحيوانية فوق ما يحتاجه وكان نقصانه يقتِّر عليه منها إلى أن يبلغ إلى المقدار الذي لا يمكن حفظ الحياة بدونه، وكان تغلب مظهر إحدى القوتين بمقدار تضاؤل مظهر القوة الأخرى، فلذلك وجدوا أن ضعف القوة الحيوانية يقلل معمولَها فتتغلب القوة الروحانية على الجسد ويتدرج به الأمر حتى يصير صاحب هذه الحال أقرب إلى الأرواح والمجردات منه إلى الحيوان، بحيث يصير لا حَظَّ له في الحيوانية إلاّ حياة الجسم الحافظة لبقاء الروح فيه، ولذلك لزم تعديل مقدار هذا التناقص بكيفية لا تفضي إلى اضمحلال الحياة، لأن ذلك يضيع المقصود من تزكية النفس وإعدادِها للعوالم الأخروية، فهذا التعادل والترجيح بين القوتين هو أصل مشروعية الصيام في الملل ووضعيته في حكمة الإشراق، وفي كيفيته تختلف الشرائع اختلافاً مناسباً للأحوال المختصة هي بها بحيث لا يفيت المقصد من الحياتين، ولا شك أن أفضل الكيفيات لتحصيل هذا الغرض من الصيام هو الكيفيَّة التي جاء بها الإسلام.

فضل الصيام

– قَال ﷺ فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّه: «**لِكُلِّ عَمَلٍ كَفَّارَةٌ وَالصَّوْمُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ وَلَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**» (١).

– قال ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّار، فَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلاَ يَجْهَلْ يَوْمَئِذٍ، وَإِنِ امْرُؤٌ جَهِلَ عَلَيْهِ فَلاَ يَشْتِمْهُ وَلاَ يَسُبُّهُ، وَلْيَقُلْ: إِنِّى صَائِمٌ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»(٢). **الجُنَّة**: الوقاية. **الخلوف**: تغير ريح الفم.

– قال ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ فَإِذَا**

---

(١) حديث 7633 – التوحيد – صحيح البخارى. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث 2246 – الصيام – سنن النَسائى. عن عائشة رضي الله عنها.

دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»(١).

- قال ﷺ: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوجْ، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاء»**(٢).

أنواع الصيام

أولاً: الصوم الواجب:

١. صوم رمضان. ٢. قضاء أيام رمضان. ٣. صوم المتمتع والقارن في الحج إذا لم يجدا الهدي.(٣) ٤. كفارة الحلق في الحج – على التخيير٤. ٥. جزاء قتل الصيد للمحرم – على التخيير(٥). ٦. كفارة القتل – على الترتيب(٦). ٧. كفارة اليمين – على الترتيب(٧).

---

(١) حديث 1930 – الصوم – صحيح البخارى. عن سهل رضي اللَّه عنه.

(٢) حديث 5121 – النكاح – صحيح البخارى.

(٣) ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٦].

(٤) ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٦].

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ..﴾ [المائدة: 95].

(٦) ﴿... وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 92].

(٧) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ ..﴾ [المائدة: ٨٩].

٨. كفارة الظهار – على الترتيب[١]. ٩. صيام النذر[٢].

ثانياً: صيام التطوع:

1. **صيام داود عليه السلام**[٣]. 2. **صوم شهر الله المحرم**[٤]. 3. **صيام ستّ من شوال**[٥]. 4. **صوم يوم عرفة لغير الحاج:** [٦]. 5. صيام العشر أو التسع الأيام من ذي الحجة[٧]. 6. **صيام يوم عاشوراء**[٨]. 7. **صيام أيام البيض**[٩]. 8. **صيام يومي الاثنين والخميس**[١٠]. **9. صيام شهر شعبان**[١١].

فوائد الصيام

لم يخلق الله تعالى الإنسان عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

---

(١) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ..﴾ [المجادلة: ٣].

(٢) ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

(٣) قال ﷺ: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود،... وكان يصوم يوماً ويفطر يوم».

(٤) سئل رسول الله ﷺ: فأي الصيام أفضل بعد رمضان؟ قال: «شهر الله المحرّم»

(٥) قال ﷺ: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال، فذلك صيام الدهر».

(٦) قال ﷺ: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده».

(٧) قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام"، يعني أيام العشر..»

(٨) قدم النبي ﷺ، فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: «ما هذا؟» فقالوا: يوم صالح نجى الله فيه موسى وقومه وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال: «أنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه».

(٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام".

(١٠) قال ﷺ: «ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»

(١١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: "وما رأيته أكثر صياماً منه في شعبان".

[المؤمنون: ١١٥] إنما خلقه لحكمة عظيمة ألا وهي عبادة الله الواحد الأحد، والله تعالى يتعبد عباده بما يشاء، وفيما فيه مصلحة العباد وخيرهم في دنياهم وآخرتهم، فكل أمر أو نهي فيه مصلحتنا وخيرنا علمنا أو جهلنا ولا تمر الأيام إلا وتتكشف الحكم من العبادات التي فيها نفع الناس.

في الصيام فوائد طبية ونفسية وروحية واجتماعية لم تعد مثار جدال بل مسلَّمات ليزداد الذين آمنوا إيماناً: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

- ❖ (**الصيام جُنَّة**): ثبت من خلال الأبحاث الطبية بعض الفوائد الوقائية للصيام ضد كثير من الأمراض والعلل الجسمية والنفسية، ومنها على سبيل المثال – لا الحصر:

١) يقي الجسم من تكون حصيات الكُلى.

٢) يقي الجسم من أخطار السموم المتراكمة في خلاياه.

٣) يخفف ويهدئ ثورة الغريزة الجنسية، وخصوصاً عند الشباب وبذلك يقي الجسم من الاضطرابات النفسية والجسمية، والانحرافات السلوكية، وذلك تحقيقاً للإعجاز في حديث النبي ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**»، إذا التزم الشاب الصيام وأكثر منه.

- ❖ **ويعالج الصيام عدداً من الأمراض الخطيرة من أهمها**:

السمنة، وتصلب الشرايين وضغط الدم وبعض أمراض القلب. وبعض أمراض الدورة الدموية الطرفية. كما يعالج الصيام المتواصل مرض التهاب المفاصل المزمن. ويعدل الصيام الإسلامي من ارتفاع حموضة المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب. ولا يسبب الصيام أي خطر على المرضعات أو الحوامل، ولا يغير من التركيب الكيميائي أو التبدلات الاستقلابية في الجسم عند المرضعات، وخلال الشهور الأولى والمتوسطة من الحمل.

الحكمة من ربط التقوى بالصيام

فيه بيان عدم حاجته تعالى إلى عبادات الناس، ولكنّها لصلاح أنفسهم: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ ﴾ [**الزُّمَر**: ٧].

ولأن في الصيام امتثالاً لأمر الله واحتسابًا للأجر عنده تتربى بذلك العزيمة والإرادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها؛ ولأنه من أكبر أسباب التقوى فإن إعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة:

منها: أنه يعوِّد الإنسان الخشية من ربه في السر والعلن أما الشهوات والمغريات المختلفة من الشراب والطعام والنساء، ولولا ذاك لما صبر عنها وهو في أشد الشوق إليها، راجيًا بتركها ثواب الله عز وجل.

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ ولهذا ثبت في «الصحيحين»: **«يا معشر الشباب.. »**. الحديث.

ومنها: أن الغني إذا ذاق الجوع فربما أوجب له ذلك مواساة الفقراء، وهذه من خصال التقوى.

ومنها: أن من اعتاد الحياء من ربه والمراقبة له في أمره ونهيه في السر والعلن لا يقدم غالبًا على غش الناس ومخادعتهم ولا على أكل أموالهم بالباطل ولا على اقتراف المنكرات واجتراح السيئات، وإذا ألمّ بشيء منها يكون سريع التذكر قريب الرجوع بالتوبة النصوح: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾) ولما للصوم من جليل الأثر في تهذيب النفس، جاء في الحديث: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»**، وجاء في الحديث القدسي: **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به»**.

....

المعاني المفردة

الصِّيَامُ في اللغة: الإمساك عن الشيء. وصَامَ: يُصُومُ "صَوْمًا" و"صِيَامًا" مطلق الإمساك.

الصيام شرعاً: هو التعبد بنية إلى الله تعالى بالإمساك عن المفطرات "يوما كاملا" من طلوع الفجر الثاني "الصادق[1] " إلى غروب الشمس، فهو إمساك مخصوص في زمن مخصوص عن شئ مخصوص بشروط مخصوصة.

الإعراب[2]

كُتِبَ» فعل ماض مبني للمجهول. «**عَلَيْكُمُ**» جار ومجرور متعلقان بكتب. «**الصِّيَامُ**» نائب فاعل. «**كَما**» الكاف حرف جر و**ما:** مصدرية. «**كُتِبَ**» فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل هو يعود إلى الصيام. «**عَلَى الَّذِينَ**» متعلقان بكتب. «**مِنْ قَبْلِكُمْ**» جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول. «**لَعَلَّكُمْ**» لعل واسمها. «**تَتَّقُونَ**» فعل مضارع والواو فاعل والجملة في محل رفع خبر لعل، والجملة الاسمية تعليلية.

---

(١) الفجر فجران: فجر كاذب لا يدخل معه وقت صلاة الفجر، ولا يمنع من الطعام والشراب والجماع لمن أراد الصوم، وفجر صادق، وهو الذي يدخل معه وقت صلاة الفجر، ويمنع من الطعام والشراب والجماع في الصيام، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]. قال ابن قدامة رحمه الله: وجملته: أن وقت الصبح يدخل بطلوع الفجر الثاني إجماعاً، وقد دلَّت عليه أخبار المواقيت، وهو البياض المستطير المنتشر في الأفق، ويسمَّى "الفجر الصادق"؛ لأنَّه صدقك عن الصبح وبيَّنه لك، والصبح ما جمع بياضاً وحمْرة، ومنه سمِّي الرجل الذي في لونه بياض وحمرة: "أصبح". فأما الفجر الأول: فهو البياض المستدق صعداً من غير اعتراض فلا يتعلق به حكم، ويسمَّى "الفجر الكاذب" ثم لا يزال وقت الاختيار إلى أن يسفر النهار.

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

المناسبة في السياق

لما ذكر تعالى القصاص الذي هو قتل النفس حساً أتبعه بذكر الصوم وفيه حياة الأجساد معنى وحياة الأرواح بطهارة القلوب وفراغها للتفكر وتهيئها لإفاضة الحكمة والخشية الداعية إلى التقوى وإماتة الشهوة[1].

(١) أنصح كل مسلم أن يكون في بيته كتاباً في الفقه ليعبد الله تعالى على علم.. وحتى تصح عبادته؛ فإنه من عبد الله على جهل فكأنما عصاه. وأيسر الكتب اليوم هو "فقه السنة" للشيخ سيد سابق رحمه الله تعالى.

النداء السادس

ادخلوا في السلم كافة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]

بين يدي النداء

يشكل عالم الشياطين العدو الخفي والأشد ضراوة على بني آدم، فهو لا يفتأ يفسد أخلاق بني آدم وعقائدهم، ويورث بينهم العداوة والبغضاء، لذلك فلا غرو أن تتواتر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في بيان خطر هذا العدو، وسبل إضلاله وإفساده، حتى يحذره الناس، ويكونوا في مأمن من مكره وشره .

وقد بسط الله سبحانه القول في الشيطان في آيات كثيرة، وأوضح طرائق إضلاله وإغوائه في بيان جلي أقام به الحجة على الخلق، وأزال به كل عذر لمعتذر. وأتبعه بآيات كثيرة تبين سبل إغواء الشيطان وإضلاله للعباد.

ولا يكتفي الشيطان بإضلال العباد فحسب بل يتبع إضلاله تزييناً لباطله، فلا يدع ضحاياه فريسة لتأنيب الضمير، وأسرى لتقريع المواعظ، وإنما يحاول أن يبقيهم في سلام داخلي مع أنفسهم بأن يزين لهم أعمالهم، فلا يشعروا بأي نفور عنها، أو أنها مخالفة للفطر والعقول، ويأتي هذا التزيين على شكل مبررات يسوقها الشيطان لضحاياه لتبرير أفعالهم.

ومن العجيب أن أسلحة الشيطان في ذلك لا تخرج عن التأثير النفسي، وهو ما سماه الله بـ"الوسوسة" فالوسوسة هي سلاح إبليس الأمضى.

إن قوة العدو في أحيان كثيرة لا تستند إلى قوة ذاتية بقدر ما تستند إلى ضعف

الخصم وتراخيه واستسلامه؛ لذلك كانت الآيات القرآنية منصبة على التحذير من وسائل الشيطان وأساليبه في الغواية من أجل تقوية النفس البشرية، وتحصين دفاعاتها.

وفي إطار الصراع الشامل بين الخير والشر ومعسكر الإيمان ومعسكر الكفر يستعمل الشيطان في سبيل هزيمة المؤمنين أساليب متعددة منها؛ نشر الخوف والذعر فيما بين المؤمنين، والخوف إذا استبد بالإنسان يفقده كل قدرة على المبادرة، ويشل تفكيره، ويجعله ضمن مخططات الغير، فلا يستطيع لنفسه ضرا ولا نفعاً.

ومن أساليب إبليس التي يتبعها لهزيمة المؤمنين نشر الإشاعات الكاذبة والأخبار المحبطة.

وفي سبيل محافظة إبليس على معسكر الشر خاضعاً وتابعاً له، فإنه يبدأ معهم بالأماني والأحلام، فيعدهم النصر على المؤمنين، ويعدهم الغنى والرفاهية والثراء، غير أنه لن يكون مصير هؤلاء الحالمين أتباع الشيطان سوى الفشل والخذلان.

نماذج من كيد الشيطان ومكره:

أولاً: تغيير خلق الله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

ثانياً: الصد عن ذكر الله: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

ثالثاً: إضلال العلماء: فإضلال العالِم إضلال لأتباعه.

رابعاً: نزغ الشيطان: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] شبه سبحانه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس الإنسانية بنزغ الإبرة ووخزها لخفائها وخفاء أثرها.

خامساً: طائف الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] تصوير بليغ لمحاولة إبليس إضلال بني آدم فهو يطوف حولهم طواف النازل بالمكان قبل دخوله، حتى إذا أصاب منهم حالة غفلة

وإعراض أصابهم بمسه، فأطلق في نفوسهم خواطر المعصية والسيئات.

سادساً: استفزاز الشيطان بني آدم ومشاركتهم في الأموال والأولاد: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[**الإسراء: ٦٤**] معركة ساحتها وميدانها قلب ابن آدم وعقله، وطرفاها الشيطان وبني آدم، وغرضها الاستيلاء على ابن آدم قلبا وقالباً وإخضاعه لطاعة إبليس وحزبه.

سابعاً: ومن سلاح إبليس أيضاً وعوده وأمانيه وبهذا السلاح أخرج آدم – عليه السلام – وزوجه من الجنة.

ثامناً: تسويل الشيطان وإملاءه: بتحسين الشيء وتزيينه وتحبيبه وتسهيله، حتى تقبل عليه النفوس راغبة مقدمة لا يتقاعس بها كره ولا مشقة، فإن اعترضها ذكر الموت ومخافة الفوت عالجها إبليس بالإملاء وهو التغرير بالأمل وطول العمر.

تاسعاً: النجوى من الشيطان: وهي التكتم في الكلام سواء كان بين اثنين أو جماعة، والتي من الشيطان ما كان فيها تآمر على حق، أو إضرار بمسلم، أو إدخال للشك في نفسه.

عاشراً: وحي الشيطان لأوليائه من الإنس: وهو نوع من الوسوسة.

الحادي عشر: تنزل الشياطين على الكهنة والعرافين.

الثاني عشر: إدخال الشيطان الشك على المؤمن في عقيدته.

الثالث عشر: التبذير والإسراف.

هذه بعض سبل الشيطان في إضلال العباد وإفسادهم والحيلولة دون عبادتهم لربهم، ومع هذا البيان الواضح والتحذير الجلي إلا أن أكثر الخلق أتباع له، والسبب أن طريق الله محفوف بالمكاره، وطريق الشيطان محفوف بالشهوات، والنفوس تقبل على

الشهوات العاجلة – وإن كانت عاقبتها الألم والحسرة - أكثر من إقبالها على المكاره - وإن كانت عاقبتها الجنة.

هداية وتدبر[1]

١. أول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله، في ذوات أنفسهم، وفي الصغير والكبير من أمرهم. أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور، ومن نية أو عمل، ومن رغبة أو رهبة، لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضاه. استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية. الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشا؛ وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير، في الدنيا والآخرة سواء.

٢. إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحداً منها، أو يخلط واحدا منها بواحد. كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر. إن هذا في سبيل الشيطان، سائر على خطوات الشيطان.

٣. ليس هنالك حل وسط، ولا منهج بين بين، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل. هدى وضلال. إسلام وجاهلية. منهج الله أو غواية الشيطان. والله يدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة؛ ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان. ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم، تلك العداوة الواضحة البينة، التي لا ينساها إلا غافل. والغفلة لا تكون مع الإيمان .

٤. خطوات الشيطان هي مناهجه وسبله وطرائقه وهي كثيرة ومتشعبة ومتجددة في كل زمان ومكان وقوم، وتظهر في صور متعددة. أذكر بعضاً منها حتى تُحذر وتُحارب وقد ملأت الأرض فساداً وهي تعلن الحرب السافرة على الإسلام، ويتبعها

---

(١) في ظلال القرآن.

المليارات من بني آدم ولا حول ولا قوة إلا بالله:

العلمانيـــة[١]، الرأسماليـــة[٢]، الشـــيوعية[٣]، الصـــهيونية[٤]، الداروينيـــة[٥]، الوجوديـــــة[٦]، الماســـــونية[٧]، القوميـــــة العربيـــــة[٨]، القاديانيـــــة[٩]،

---

(١) العلمانية تعني فصل الدين والمعتقدات الدينية عن السياسة والحياة العامة،

(٢) الرأسمالية نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعاً في مفهوم الحرية، معتمداً على سياسة فصل الدين نهائياً عن الحياة.

(٣)الشيوعية مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة هي أساس كل شيء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي. ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة 1917م بتخطيط من اليهود، وتوسعت على حساب غيرها بالحديد والنار. وقد تضرر المسلمون منها كثيراً.

(٤) الصهيونية: حركة سياسية عنصرية متطرفة، ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كله. واشتقت الصهيونية من اسم (جبل صهيون) في القدس حيث ابتنى داود قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وهذا الاسم يرمز إلى مملكة داود وإعادة تشييد هيكل سليمان من جديد بحيث تكون القدس عاصمة لها. وقد ارتبطت الحركة الصهيونية الحديثة بشخصية اليهودي النمساوي هرتزل الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الحديث والمعاصرة الذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم.

(٥) تنتسب الحركة الفكرية الداروينية إلى الباحث الإنجليزي شارلز داروين –اليهودي- الذي نشر كتابه أصل الأنواع سنة 1859م الذي طرح فيه نظريته في النشوء والارتقاء مما زعزع القيم الدينية، وترك آثاراً سلبية على الفكر العالمي.

(٦) الوجودية: مذهب فلسفي أدبي ملحد، وهو أشهر مذهب استقر في الآداب الغربية في القرن العشرين. ويركز المذهب على الوجود الإنساني الذي هو الحقيقة اليقينية الوحيدة في رأيه، ولا يوجد شيء سابق عليها، ولا بعدها، وتصف الوجودية الإنسان بأنه يستطيع أن يصنع ذاته وكيانه بإرادته ويتولى خلق أعماله وتحديد صفاته وماهيته باختياره الحر دون ارتباط بخالق أو بقيم خارجة عن إرادته، وعليه أن يختار القيم التي تنظم حياته.

(٧) الماسونية: لغة معناها البناؤون الأحرار، وهي في الاصطلاح منظمة يهودية سرية هدامة، إرهابية غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعه (حرية ـ إخاء ـ مساواة ـ إنسانية) جلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، من يوثقهم عهداً بحفظ الأسرار، ويقيمون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيداً لتأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية ـ كما يدعون ـ وتتخذ الوصولية والنفعية أساساً لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينية عالمية.

٨. القومية العربية: حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحَّدة لهم، على أساس من رابطة الدم واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين. وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا.

٩. القاديانية: حركة نشأت سنة 1900م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية.

البابية والبهائية[١]**، الأحباش**[٢]**، النصيرية**[٣]**، الدروز**[٤]**،حـزب البعـث**[٥]**، الناصـرية**[٦]**، الليبرالية**[٧]**.**

---

(١) **البابية والبهائية:** حركة نبعت من المذهب الشيعي الشيخي سنة 1260هـ/ 1844م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية. أسسها الميرزا علي محمد رضا الشيرازي 1235ـ1266هـ (1819 ـ 1850 م).

(٢) **الأحباش:** طائفة ضالة تنسب إلى عبد الله الحبشي، ظهرت حديثاً في لبنان مستغلة ما خلّفته الحروب الأهلية اللبنانية من الجهل والفقر والدعوة إلى إحياء مناهج أهل الكلام والصوفية والباطنية بهدف إفساد العقيدة وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية. أسسها عبد الله الهرري **الحبشي:** هو عبد الله بن محمد الشيبي العبدري نسباً الهرري موطناً نسبة إلى مدينة هرر بالحبشة.

(٣) **النصيرية:** حركة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، أصحابها يعدُّون من غلاة الشيعة الذين زعموا وجوداً إلهيًّا في علي وألهوه به، مقصدهم هدم الإسلام ونقض عراه، وهم مع كل غاز لأرض المسلمين، ولقد أطلق عليهم الاستعمار الفرنسي لسوريا اسم العلويين تمويهاً وتغطية لحقيقتهم الرافضية والباطنية. مؤسس هذه الفرقة أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري (ت 270هـ).

(٤) **الدروز:** فرقة باطنية تؤلِّه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وهي تنتسب إلى نشتكين الدرزي. نشأت في مصر لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام. عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس، ولا تعلمها لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين.

(٥) **حزب البعث:** حزب قومي علماني، يدعو إلى الانقلاب الشامل في المفاهيم والقيم العربية لصهرها وتحويلها إلى التوجه الاشتراكي، شعاره المعلن (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وهي رسالة الحزب، أما أهدافه فتتمثل في الوحدة والحرية والاشتراكية.

(٦) **الناصرية:** حركة قومية عربية، نشأت في ظل حكم جمال عبد الناصر (رئيس مصر من عام 1952مـ 1970م) واستمرت بعد وفاته واشتقت اسمها من اسمه وتبنت الأفكار التي كان ينادي بها وهي: الحرية والاشتراكية والوحدة وهي نفس أفكار الأحزاب القومية اليسارية العربية الأخرى. أول من أطلق لفظ (الناصرية) محمد حسنين هيكل، الصحفي الذي رافق عبد الناصر إبان حكمه، وأصبح له شهرة في العالم العربي، وذلك بمقال له في جريدة الأهرام في 14/ 1/ 1972م.

(٧) **الليبرالية** هي مذهب رأسمالي ينادي بالحرية المطلقة في السياسة والاقتصاد، وينادي بالقبول بأفكار الغير وأفعاله، حتى ولو كانت متعارضة مع أفكار المذهب وأفعاله، شرط المعاملة بالمثل. والليبرالية السياسية تقوم على التعددية الإيدلوجية والتنظيمية الحزبية. والليبرالية الفكرية تقوم على حرية الاعتقاد؛ أي حرية الإلحاد، وحرية السلوك؛ أي حرية الدعارة والفجور، وعلى الرغم من مناداة الغرب بالليبرالية والديمقراطية إلا أنهم يتصرفون ضد حريات الأفراد والشعوب في علاقاتهم الدولية والفكرية. وما موقفهم من الكيان اليهودي في فلسطين، وموقفهم من قيام دول إسلامية تحكم بالشريعة، ومواقفهم من حقوق المسلمين إلا بعض الأدلة على كذب دعواهم .

٥. يطلب الله تعالى من عباده المؤمنين أن يكونوا على ملة واحدة وأن يجتمعوا على الإسلام كله ويثبتوا عليه. فلا يُقبل ممن آمن بالله ربا وبمحمد نبيًا ورسولا وبالإسلام دينًا أن يأخذ جزءاً من عقيدة الإسلام ومن شريعته وأحكامه ويترك جزءاً، فإن فعل ذلك فقد اتبع منهج الشيطان ودين الشيطان لا منهج الرحمن الذي له الخلق والأمر سبحانه.

٦. من تجزيء الإسلام أن نقول دين الدولة الإسلام بينما العلمانية هي دين الدولة ودستورها وقانونها، ومن تجزيء الإسلام أن نأخذ من الإسلام قانون الأحوال الشخصية والميراث بينما باقي الأنظمة والقوانين مأخوذة من الشرق والغرب. ومن تجزيء الإسلام أن نفصِل المسجد عن السوق والمدرسة والجامعة والإعلام.. إلخ

٧. وجوب قبول شرائع الإسلام كافة وحرمة التخير فيها. شاهده قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية.

٨. وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل الحياة الشخصية والعامة والتسليم المطلق لها برضى وحب.

٩. الشيطان عدو مبين يجب الحذر من من اتباعه والوقوع في شراكه.

١٠. وجوب معاداة الشيطان وأن اتخاذه عدوا عبادةٌ لله تعالى.

١١. كلُّ ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان.

١٢. النجاة من الشيطان تكون بمعرفته ومعرفة طرقه ومسالكه والاستعانة بالله تعالى على صرفه وخذلانه.

١٣. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً، أَيْ ادْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ". وروي أن حذيفة بن اليمان قال في هذه الآية: "الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر. وقد خاب من لا سهم له في الإسلام".

١٤. شبه سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه، بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الإستعارة البديعة.

....

المعاني المفردة[1]

السِّلْمِ: الإِسْلاَمِ.

كَآفَّةً: جميعًا .

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: جمع خطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي، وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار. تزيين الشيطان ووسوسته. طرائقه وأوامره. الشبهات التي يلقيها أصحاب الضلالة والغواية. طريقه وأوامره في التحليل والتحريم ، كفعل أهل الجاهلية.

مُّبِينٌ: الظاهر الجلي. ظاهر العداوة.

الإعراب والصرف[2]

- **جملة: «آمنوا»** لا محلّ لها صلة الموصول **ٱلَّذِينَ** . **«كافة»**: حال من الواو في ٱدخلواْ. جملة **«إنه لكم عدو»** مستأنفة في حيز جواب النداء. **«السلم»**، مصدر بمعنى المسالمة أو هو اسم مصدر من فعل سالم وزنه فعل بكسر فسكون، وقد تفتح الفاء، وهو يذكّر ويؤنّث.

- **«كافّة»** مصدر بمعنى الجماعة أو الجميع بوزن اسم الفاعل من كفّ، وهو لا يضاف ولا يدخله ال، ويستعمل مفردا فلا يثنّى ولا يجمع..

القراءات[3]

فِي السِّلْمِ قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير والكسائي بفتح السين **ٱلسَّلْمِ**، بمعنى المسالمة والمصالحة. والباقون بكسرها، بمعنى في الإسلام.

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. توفيق الرحمن. صفوة التفاسير.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

(٣) حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة.

"**خُطُوَاتِ**" قرأ نافع والبزى وأبوعمرو وشعبة وحمزة وخلف بإسكان الطاء "**خُطْوَاتِ**"، وحجتهم أنهم استثقلوا الضمتين بعدهما واو في كلمة واحدة فسكنوا الطاء طلبا للتخفيف. والباقون بضمها "**خُطُوَاتِ**"، وحجتهم أن أصل فُعْلة إذا جمعت أن تحرك العين بحركة الفاء مثل ظلمة وظلمات، وقالوا ولم تستثقل العرب ضمة العين.

النداء السابع

أنفقوا مما رزقناكم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]

بين يدي النداء

ذُكر الإنفاق في القرآن الكريم **٦٨ مرة**، في **٥٣ آية**، في **٢٢ سورة**، منها ٤ آيات مبدوءة بنداء الإيمان **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ** أولها ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. **وآخرها** ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧]، **أما الآيات** المبدوءة بنداء الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهي ٤ آيات؛ **مما ينبئ بأهمية هذا الموضوع.**

صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيم علم**» [الترمذي وحسنه الألباني].

إن المال سبب موصل إما إلى الجنة وإما إلى النار، فمن استعان به على طاعة الله، وأنفقه في سبل الخيرات، كان سبباً موصلاً إلى رضوان الله والفوز بالجنة، ومن استعان به على معصية الله، وأنفقه في تحصيل شهواته المحرمة، واشتغل به عن طاعة الله، كان سبباً في غضب الله عليه واستحقاقه العقاب الأليم.

لقد رغب الإسلام في الصدقة، والعطف على الفقراء، ومواساة أهل الحاجة والمسكنة، ورتب على ذلك أعظم الأجر عند الله تعالى يوم القيامة. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ نظر إلى رجل يصرف راحلته في نواحي القوم فقال: «**من كان عنده فضل من ظهر – أي مركوب– فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده**

فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له» قال ابن مسعود: حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل !! [مسلم].

أخبر الله سبحانه وتعالى أن الصدقة زكاة وطهارة للمسلم، حيث تزكو نفسه وترتفع عن أخلاق السفلة من الشح والبخل ولأثرة وغيرها قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة: ١٠٣].

إن الإنفاق يشمل الزكاة المفروضة، والصدقة النافلة، والإيثار والمواساة للإخوان.

صور من إنفاق السلف

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك عندي مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوما قال: فجئت بنصف ما لي. فقال رسول الله: ﷺ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله!! فقلت: لا أسابقه إلى شيء أبدا [أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح].

وكان عثمان ﷺ من المنفقين أموالهم في سبيل الله، فعن عبدالرحمن بن خباب قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان فقال: يا رسول الله! علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول الله! علي ثلاثمائة عير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله قال: فرأيت رسول الله ﷺ ينزل على المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذه.. ما على عثمان ما فعل بعد هذه». [الترمذي وقال: غريب وله شواهد].

وروي عن سعيد بن العاص أنه كان يعشي الناس في رمضان، فتخلف عنده ذات ليلة شاب من قريش بعدما تفرق الناس، فقال له سعيد: أحسب أن الذي خلفك حاجة؟ قال: نعم! أصلح الله الأمير. قال: فضرب سعيد الشمعة بكمه فأطفأها ثم قال: ما حاجتك؟ قال: تكتب لي إلى أمير المؤمنين أن علي ديناً، وأحتاج إلى مسكن وخادم. قال: كم دَينك؟ قال: ألفا دينار، وذكر ثمن المسكن والخادم، فقال سعيد: نكفيك مؤونة السفر، اغدُ فخذها منا. فكان الناس يقولون: إن إطفاء الشمعة أحسن من إعطائه المال،

لئلا يرى في وجهه ذل المسألة!!.

هداية وتدبر[1]

١) الآية الكريمة تحض المؤمنين على الإِنفاق في سبيل الله، لأنه هو أهم عناصر القوة في الأمة، وأفضل وسيلة لإِقامة المجتمع الصالح المتكافل. والمراد بالإِنفاق هنا ما يشمل الفرض والنفل، والأمر المطلق الطلب، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها. وفيها إشعار بأن هذا المال الذي بين أيدي الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فمن الواجب عليهم شكرها بألا يبخلوا بجزء منه على الإِنفاق في وجوه الخير، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم.

٢) وفي الأية حث على التعجيل بالإِنفاق، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذي تنتهي فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات. فكأنه – سبحانه – يقول لهم: نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتي يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذي قدمتموه.

٣) والشفاعة المنفية هنا هي التي لا يقبلها تعالى، وهي التي لا يأذن بها، قال ﷺ: **«أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**. والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة، والغي على الرشد، والشر على الخير، والبخل على السخاء.. أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم، وبذلوا الكثير من أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله ، وفي إعانة المحتاجين.

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي. تفسير المراغي. وفيض القدير، للمناوي. وشرح الزرقاني للموطأ، وسبل السلام للصنعاني.وتيسير الكريم الرحمن للسعدي. الآداب الشرعية، لابن مفلح: ١-٣١٠.

٤) إذا اضطرب حبل الأمن في الأمة، أو انتشر المرض في أبنائها، أو كثر الجهل في أفرادها، ولا سبيل لدرء هذا إلا ببذل المال - وجب على الأغنياء أن يبذلوه لدفع هذه المفاسد، وإزالة هذه الطوارئ لحفظ المصالح العامة.

٥) يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال.. إنما الرزق هو ما ينتفع به فالقوة رزق، والعلم رزق، والحكمة رزق، والتواضع رزق.. وكل ما فيه حركة للحياة رزق.. فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال.. وتتصدق بها على العاجز والمريض.. وان كان عندك حلم.. فإنك تنفقه بأن تقي الأحمق من تصرفات قد تؤذي المجتمع وتؤذيك.. وان كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل.. وهكذا نرى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تستوعب جميع حركة الحياة..

٦) ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدِق عليك تفضلاً منه سبحانه، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ...﴾ [الحديد: ١١] وكأن الله تعالى يقول لنا: أنا لا أعود في هبتي ولا عطائي، فأقول: أعْطِ ما أخذتَه لفلان، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع، فرِزْقك الذي وهبك الله إياه مِلْكك، ولا نغبنك في شيء منه أبداً، فربّك يحترم ملكيتك ويحترم جزاء عملك وجدِّك واجتهادك.

٧) الصدقة من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله عز وجل؛ ودليل ذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: "**وإن أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مؤمن، تكشف عنه كرباً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً**"[1] بل إن الصدقة لتباهي غيرها من الأعمال وتفخر عليها؛ وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: "**إن**

---

(١) قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا: ٤٠ رقم: ٣٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١ - ٩٧ رقم: ١٧٦.

الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم[1] .

٨) وصاحب **الصدقة** والمعروف لا يقع، فإذا وقع أصاب متكأً. فمن الأحاديث الدالة على ذلك قوله ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات**»[2].

ما أسعد المتصدقين! إذ دلت النصوص الثابتة على أن صاحب المال يدرك بتصدقه وإنفاقه من ثواب عمل العامل بمقدار ما أعانه عليه حتى يكون له مثل أجره متى استقل بمؤونة العمل من غير أن ينقص ذلك من أجر العامل شيئاً، ومن هذه النصوص الدالة على ذلك قوله ﷺ: «**من فطَّر صائماً كتب له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء**»[3] وقوله ﷺ: «**من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا**»[4] والأمر غير مقصور على هذه العبادات بل شامل لجميع الطاعات؛ فمن أعان عليها كان له مثل أجر فاعلها.

٩) إن الله يربي الصدقات، ويضاعف لأصحابها المثوبات، ويعلي الدرجات. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [**الحديد: ١٨**].

١٠) تحفظ الصدقة المال من الآفات والهلكات والمفاسد، وتحل فيه البركة، وتكون سبباً في إخلاف الله على صاحبها بما هو أنفع له وأكثر وأطيب ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

١١) الصدقة والإنفاق في سبل الخير فدية للعبد من العذاب، وتخليص له وفكاك من

---

(١) صحيح ابن خزيمة: رقم: ٢٤٣٣، والمستدرك، للحاكم: ١ - ٤١٦ وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

(٢) المستدرك، للحاكم: ١-١٢٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢-٧٠٧ رقم: ٣٧٩٥.

(٣) المسند، لأحمد: ٢٨-٢٦١ رقم: ١٧٠٣٣، وهو حديث صحيح.

(٤) البخاري ، فتح: ٦-٥٨ رقم ٢٨٤٣، مسلم: ٢-١٥٠٦ رقم: ١٨٩٥.

العقاب، ومثلها ـ كما في الحديث ـ: **"كمثل رجل أسره عدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير؛ ففدى نفسه منهم"**[1]

١٢) جعل الله الصدقة والإنفاق في مرضاته مفتاحاً للبر الذي هو جماع الخير والطريق الموصل إلى الجنة. وداعية للعبد إلى سائر أنواعه؛ وذلك لأن المال من أعظم محبوبات النفس؛ فمن قدم محبوب الله على ما يحب فأعطى ماله المحتاجين ونصر به الدين وفقه الله لأعمال صالحة وأخلاق فاضلة لا تحصل له بدون ذلك، وآتاه أسباب التيسير بحيث يتهيأ له القيام ببقية أعمال البر فلا يستعصي شيء منها عليه، يدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧] قال السعدي في تفسيره: "فسنيسره لليسرى: أي: نيسر له أمره، ونجعله مسهلاً عليه كل خير، ميسراً له ترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له لذلك"

١٣) الصدقة تهذب الأخلاق وتزكي النفس وتربي الروح على معالي الأخلاق وفضائلها؛ إذ فيها تدريب على الجود والكرم، وتعويد على البذل والتضحية وإيثار الآخرين، وفيها سمو بالعبد وانتصار له على نفسه الأمارة بالسوء، وإلجام لشيطانه، وإعلاء لهمته؛ إذ تُعلق العبد بربه وتربطه بالدار الآخرة، وتزهده بالدنيا؛ وتضعف تَعلُّق قلبه بها. ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

....

المعاني المفردة[2]

أَنفِقُواْ: نَفَقَ: الفرسُ والدابةُ وسائر البهائم يَنْفُقُ: نُفُوقاً: مات. ونَنَفَقَ: البيع نَفَاقاً:

---

(١) جامع الترمذي: ٥-١٤٨ رقم: ٢٨٦٣ وقال: (حسن صحيح غريب)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١-٣٥٤ رقم: ١٧٢٤.

(٢) لسان العرب. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - أبو بكر الجزائري. صفوة التفاسير ـ للصابوني.

راج. ونَفَقت: السِّلْعة تَنْفُق: نَفاقاً، بالفتح: غَلَتْ ورغب فيها. وأَنْفَقَ: المال: صرفه.

رَزَقْنَاكُم: الرزق هو: كل ما أوجده الله تعالى في الدنيا للإنسان من صنوف الأموال وضروب المأكولات والمشروبات والملبوسات والمركوبات والمساكن، والمراد بالرزق في الآية: المال صامتاً كان أو ناطقاً.

خُلَّةٌ: الخُلَّة الصَّداقة.

شَفَاعَةٌ: الشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك، ولهذا سميت شفاعة، فهي إذاً إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع. والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرته، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو دونه.

الإعراب والصرف[1]

«**أَنْ يَأْتِيَ**» المصدر المؤول في محل جر بالإضافة. «**يَوْمٌ**» فاعل «**لا بَيْعٌ**» لا نافية للجنس تنصب الاسم وترفع الخبر ولم تعمل هنا لأنها كررت **وبيع** مبتدأ «**فِيهِ**» متعلقان بمحذوف خبر «**وَلا خُلَّةٌ**» عطف على لا بيع «**وَلا شَفاعَةٌ**» عطف على ما قبله «**وَالْكافِرُونَ**» الواو للاستئناف الكافرون مبتدأ «**هُمُ**» مبتدأ ثان «**الظَّالِمُونَ**» خبر المبتدأ الثاني والجملة الاسمية خبر المبتدأ الأول.

«**ممّا**»، كلمتان: من، ما. وتحذف نون (من) الجارّة، وكذلك (عن) إذا تلاهما (ما)، مهما كان نوعها.

«**بيع**»، مصدر سماعيّ لفعل باع يبيع باب ضرب، وزنه فعل بفتح فسكون.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن.

«**خلّة**»، اسم مصدر من فعل خالّه أي صادقة، فهي بمعنى الصداقة كأنّها تتخلّل الأعضاء أي تدخل خلالها، ويحتمل أن تكون بمعنى اسم الفاعل أي مصادق- بكسر الدال- أو بمعنى اسم المفعول أي مصادق- بفتح الدال- ووزن خلّة فعلة بضمّ فسكون.

القراءات(١)

(لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) قرأ ابن كثير وأبوعمروويعقوب بالفتح من غير تنوين فى الثلاثة **(لا بَيْعَ فِيهِ وَلا خُلَّةَ وَلا شَفَاعَةَ)** والباقون بالرفع مع التنوين فى الثلاثة.

قوله تعالى ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ يقرأ ذلك بالرفع والتنوين وبالنصب وترك التنوين، فالحجة لمن رفع أنه جعله جواباً لقول قائل: هل عندك رجل؟ فقال: لا رجل. فلم يعمل لا؛ لأن هل غير عامله. والحجة لمن نصب، أنه جعله جواباً لقول قائل: هل من رجل؟ فقال: لا رجل. لأن من لما كانت عاملة في الاسم كان الجواب عاملاً فيه النصب، وسقط التنوين للبناء، كما سقط في رام هرمز.

المناسبة في السياق(٢)

إن أصعب الأشياء على الإنسان بذل النفس في القتال وبذل المال في الإنفاق فلما قدم الأمر بالقتال أعقبه بالأمر بالإنفاق وأيضاً فيه وجه آخر وهو أنه تعالى أمر بالقتال فيما سبق بقوله ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **ثم أعقبه بقوله** ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]والمقصود منه إنفاق المال في الجهاد ثم إنه مرة ثانية أكد الأمر بالقتال وذكر فيه قصة طالوت ثم أعقبه بالأمر بالإنفاق في الجهاد وهو قوله ﴿يُرِيدُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ....﴾.

---

(١) الحجة في القراءات السبع اسم المؤلف الامام ابن خالويه. والبدور الزاهرة.

(٢) مفاتيح الغيب ـ فخر الدين الرازي.

النداء الثامن

لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

بين يدي النداء

أفسدتَ بالمنّ ما أسدَيْتَ من حَسَنٍ = ليس الكريم إذا أسْدَى بمنّانِ

الإنفاق الحق في الإسلام هو التبرع المحض الذي يفي بالحاجات ويهذب المشاعر دون أن يؤذي كرامة، أو يخدش شعوراً، وهو الذي يصدر عن أريحية ونقاء، ويقصد به مرضاة الله وحده. وكل تصرف يحول هذا التبرع عن هذه الغاية السامية فهو محبط للعمل، مبطل للأجر. فثواب الإنفاق عند الله تعالى ومنه وحده، والإسلام يدعو المرء إلى الإنفاق من غير أن ينتظر جزاء من الناس ولا شكوراً، ويعلق ثواب الإنفاق على ترك المن والأذى ليكون خالصاً نقياً مما يشوبه أو يفسده، وليحفظ على الفقير كرامته ومشاعره.

فالزكاة أو الصدقة ليست منة يهبها الغني للفقير، يستذله بها وينتظر منه مقابلتها على حساب كرامته ومشاعره، وإنما هي حق استودعه الله لدى الغني ليؤديه إلى أهله، وليوزعه على مستحقيه. وبذلك تتقرر حقيقة هامة هي أن المال ليس وقفاً على الأغنياء دون غيرهم، وإنما هو للجميع؛ الأغنياء والفقراء على حد سواء، يتداولونه فيما بينهم وتستقيم به حياتهم. وحين يصرف المال في وجوهه الصحيحة، يتحول المجتمع إلى أسرة واحدة، يسودها التعاون والتكافل والتوادد والتراحم، وترتفع البشرية إلى المستوى الكريم الذي يليق بها حيث المعطي والآخذ سواء. وهذا السلوك غير مقيد بزمن معين ولا

بشروط محددة، بل إنه يأتي تلبية لاحتياجات واقعية في المجتمع الإنساني تتكرر في كل الأزمنة والظروف.

وبما أن الغاية الأولى للصدقة هي تهذيب النفوس، وتأليف القلوب، فإنه لا حاجة بالمجتمع إلى الصدقة التي يتبعها أذى، وأولى منها كلمة طيبة، وشعور سمح، لأن الكلمة الطيبة تضمد جراح القلوب، وتشعرها بالرضا والبشاشة، وأحسن منها أيضاً دعاء من الأعماق يغسل أحقاد النفوس ويزرع فيها الإخاء والمحبة.

لقد جعل الإسلام كرامة الإنسان أغلى بكثير من راحته المادية، ونهى الأغنياء عن جرح مشاعر الفقراء أو إيذائهم بعد إنفاقهم عليهم، لأن الصدقة التي يتبعها التجريح أكثر ضررا بالمرء من منفعتها، وهذا يقرر القاعدة العامة في الفقه الإسلامي: (**درء المفاسد مقدم على جلب المصالح**). وقد حذر الله المؤمنين من مداخل الشيطان ومخارجه في الرياء وحب الظهور والمفاخرة، ورغبهم بالإنفاق سراً حتى لا تعلم شمال أحدهم ما تنفق يمينه، وجعل حافزهم إلى ذلك يقينهم بأنهم سيلقون الأجر والعوض من الله. وهذا اليقين هو الحلقة المفقودة عند أهل الرياء والمفاخرة، الذين يرون المجد مجد الدنيا، والثواب ثواب الدنيا فقط، فيفقدون بذلك نصيبهم في الآخرة. عن الإمام علي كرم الله وجهه قال: (**ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير، وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان**).

والرياء معناه طلب الجاه والمنزلة لدى الناس بالتظاهر بالطاعات، وقد نهى الله عنه وحذر منه؛ لما له من آثار سيئة في النفس والمجتمع، ولأنه نوع من الشرك المحبط للعمل. ومن يتتبع الآثار السيئة للرياء في المجتمع البشري، وفي الحياة الإنسانية جمعاء، ومدى ما يحدثه من فساد في الخلق، واضطراب في النظم، وانحراف للعرف، وإعاقة عن النهوض والارتقاء، يدرك على الفور الحكمة من تحريم الرياء والنهي عنه. ذلك أنه قناع زائف بصورة الفضيلة، سرعان ما يسقط ليكشف عن قبح النفس التي كان يسترها، فيصيب من حولها بخيبة الأمل وضياع الرجاء، ويجعلهم يشكون بقيم الفضيلة ذاتها.

هداية وتدبر[1]

١. الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها.

٢. المن والأذى يبطلان الصدقة، فالمراد إبطال أجرها وثوابها، لأن الأجر لم يحصل بعد وهو مستقبل فيصح إبطاله بما يأتيه من المن والأذى.

٣. الإنسان إذا أنفق متبجحاً بفعله، ولم يسلك طريقة التواضع والانقطاع إلى الله، والاعتراف بأن ذلك من فضله وتوفيقه وإحسانه فكان كالمان على الله تعالى.

٤. أعمال العباد ذخائر لهم يوم القيامة، فمن عمل بإخلاص فكأنه طرح بذراً في أرض فهو يضاعف له وينمو حتى يحصده في وقته، ويجده وقت حاجته، والصفوان محل بذر المنافق، ومعلوم أنه لا ينمو فيه شيء ولا يكون فيه قبول للبذر، والمعنى أن عمل المان والمؤذي والمنافق يشبه إذا طرح بذراً في صفوان صلد عليه غبار قليل، فإذا أصابه مطر جود بقي مستودعاً بذره خالياً لا شيء فيه.

٥. سمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل: فعلت إليك وفعلت! فقال له: اسكت فلا خير في المعروف إذا أُحْصِي. وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر ثم تلا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى»**.

٦. "كره مالك لهذه الآية أن يُعطِي الرجل صدقته الواجبةَ أقاربَه لئلا يَعْتاضَ منهم الحمد والثناء، ويُظهر منّته عليهم ويكافئوه عليها فلا تخلص لوجه الله تعالى. واستحب أن يعطيها الأجانب، واستحب أيضاً أن يولّى غيره تفريقها إذا لم يكن الإمام عدلاً؛ لئلا تحبط بالمنّ والأذى والشكر والثناء والمكافأة بالخدمة من المُعْطَى". "قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكفَّ سلامك عنه".

---

(١) تفسير القرطبي. تفسير معالم التنزيل. خواطر الشعراوي . الجدول في إعراب القرآن الكريم.

٧. عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: « **ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَنَّانُ الَّذِى لاَ يُعْطِى شَيْئًا إِلاَّ مَنَّهُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ** [١]».

٨. الذي يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى، إنما يُبطل صدقته، وخسارته تكون خسارتين: الخسارة الأولى أنه أنقص ماله بالفعل؛ لأن الله لن يعوض عليه؛ لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المن والأذى، والخسارة الأخرى هي الحرمان من الثواب؛ فالذي ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق، عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا: أنه يعطي الأجر على قاعدة أن الذي يدفع الأجر هو من عملت له العمل.

٩. بلاغة – التشبيه التمثيلي: فقد شبه المرائي في الإنفاق وحالته العجيبة كحجر أملس عليه شيء يسير من التراب فأصابه مطر عظيم القطر فتركه أملس ليس عليه شيء من الغبار.

....

المعاني المفردة[٢]

تُبْطِلُوا: بَطَل الشيءُ يَبْطُل بُطْلاً وبُطُولاً وبُطْلاناً: ذهب ضيَاعاً وخُسْراً، فهو باطل. و"الإبطال للصدقات: إذهاب أثرها، وإفساد منفعتها".

بِالْمَنِّ: المنّ: أَن تَمُنَّ بما أَعطيت وتعتدّ به كأَنك إِنما تقصد به الاعتداد. وهو "من العباد تعيير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير".

وَالأَذَى: توبيخ المعطَى. الأذى: و"أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه".

رِئَاء: راءَيْت الرجلَ مُراآةً ورِياءً: أَرَيْته أَنّي على خلاف ما أَنا عليه، وهو أن يرى الناس ما يفعله من البر حتى يثنوا عليه ويعظموه بذلك لا نية له غير ذلك.

---

(١) صحيح مسلم ٣٠٧.

(٢) لسان العرب. وتفسير فتح القدير. وتفسير معالم التنزيل. وتيسير التفسير. وتفسير البحر المحيط. وتفسير الطبري.

صَفْوَانٍ: الصفوان هو الصفا، وهي الحجارة الملس.

وَابِلٌ: المطر الشديد الضَّخْم القطْرِ.

صَلْداً: والصلد من الحجارة: الصلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهو من الأرضين ما لا ينبت فيه شيء.

الإعراب والصرف[1]

جملة "**لا تبطلوا**" جواب النداء مستأنفة. والجار "**كالذي**" متعلق بحال من الواو أي: لا تبطلوا صدقاتكم مشبهين الذي، وقوله "**رئاء**": مفعول لأجله منصوب. وجملة "**فمثله كمثل**" معطوفة على جملة "**لا يؤمن**" لا محل لها، وجملة "**عليه تراب**" نعت لـ "**صفوان**" في محل جر، وقوله "**صلداً**": مفعول به ثان، وترك بمعنى صيَّر، وجملة "**لا يقدرون**" حال من "**الذي**" في محل نصب، وجُمع الضمير حملا على المعنى.

"**رئاء**" الهمزة الأولى عين الكلمة لأنه من رأى، والثانية مبدلة من الياء لوقوعها متطرفة بعد ألف ساكنة زائدة. وهو مصدر مضاف إلى مفعوله، وقد تخفّف الهمزة الأولى فتقلب ياء أي رياء، وزنه فعال مصدر ل (راءى) فاعل.

"**صفوان**" جمع صفوانة أو صفا، أو هو اسم جنس، وقيل هو مفرد وزنه فعلان بفتح الفاء وقد تكسر.

"**وابل**" اسم فاعل من وبل مطر السماء أي اشتدّ، وزنه فاعل.

"**صلداً**" صفة مشبّهة وزنه فعل بفتح فسكون من باب فرح أو ضرب.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن الكريم. ومشكل إعراب القرآن للمسكي.

النداء التاسع

أنفقـوا..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]

بين يدي النداء

[نظرت البارحة فإذا الغرفة دافئة والنار موقدة، وأنا على أريكة مريحة، أفكر في موضوع أكتب فيه، والمصباح إلى جانبي، والهاتف قريب مني، والأولاد يكتبون، وأمهم تعالج صوفاً تحيكه، وقد أكلنا وشربنا، والراديو يهمس بصوت خافت، وكل شيء هادئ، وليس ما أشكو منه أو أطلب زيادة عليه.

فقلت "الحمد لله"، أخرجتها من قرارة قلبي، ثم فكرت فرأيت أن "الحمد" ليس كلمة تقال باللسان ولو رددها اللسان ألف مرة، ولكن الحمد على النعم أن تفيض منها على المحتاج إليها، حمد الغني أن يعطي الفقراء، وحمد القوي أن يساعد الضعفاء، وحمد الصحيح أن يعاون المرضى، وحمد الحاكم أن يعدل في المحكومين، فهل أكون حامداً لله على هذه النعم إذا كنت أنا وأولادي في شبع ودفء وجاري وأولاده في الجوع والبرد؟، وإذا كان جاري لم يسألني أفلا يجب علي أنا أن أسأل عنه؟

وسألتني زوجتي: فيمَ تفكر؟، فقلت لها.

قالت: صحيح، ولكن لا يكفي العباد إلا من خلقهم، ولو أردت أن تكفي جيرانك من الفقراء لأفقرت نفسك قبل أن تغنيهم.

قلت: لو كنت غنياً لما استطعت أن أغنيهم، فكيف وأنا رجل مستور، يرزقني الله رزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً؟

لا، لا أريد أن أغني الفقراء، بل أريد أن أقول إن المسائل نسبية، وأنا بالنسبة إلى أرباب الآلاف المؤلفة فقير، ولكني بالنسبة إلى العامل الذي يعيل عشرة وما له إلا أجرته غني من الأغنياء، وهذا العامل غني بالنسبة إلى الأرملة المفردة التي لا مورد لها ولا مال في يدها، ورب الآلاف فقير بالنسبة لصاحب الملايين؛ فليس في الدنيا فقير ولا غني فقرا مطلقا وغنىً مطلقا، وليس فيها صغير ولا كبير، ومن شك فإني أسأله أصعب سؤال يمكن أن يوجه إلى إنسان، أسأله عن العصفور: هل هو صغير أم كبير؟، فإن قال صغير، قلت: أقصد نسبته إلى الفيل، وإن قال كبير، قلت: أقصد نسبته إلى النملة..

فالعصفور كبير جدا مع النملة، وصغير جدا مع الفيل، وأنا غني جدا مع الأرملة المفردة الفقيرة التي فقدت المال والعائل، وإن كنت فقيرا جدا مع فلان وفلان من ملوك المال..

تقولون: إن الطنطاوي يتفلسف اليوم .. لا؛ ما أتفلسف، ولكن أحب أن أقول لكم إن كل واحد منكم وواحدة يستطيع أن يجد من هو أفقر منه فيعطيه، إذا لم يكن عندك – يا سيدتي– إلا خمسة أرغفة وصحن "مجدّرة" (وهو طعام من البرغل أي القمح المجروش مع العدس)، تستطيعين أن تعطي رغيفا لمن ليس له شيء، والذي بقي عنده بعد عشائه ثلاثة صحون من الفاصوليا والرز وشيء من الفاكهة والحلو يستطيع أن يعطي منها قليلا لصاحبة الأرغفة والمجدّرة..

والذي ليس عنده إلا أربعة ثياب مرقعة يعطي ثوبا لمن ليس له شيء، والذي عنده بذلة لم تخرق ولم ترقع ولكنه مل منها، وعنده ثلاث جدد من دونها، يستطيع أن يعطيها لصاحب الثياب المرقعة، ورب ثوب هو في نظرك عتيق وقديم بال، لو أعطيته لغيرك لرآه ثوب العيد ولاتخذه لباس الزينة، وهو يفرح به مثل فرحك أنت لو أن صاحب الملايين مل من سيارته الشفروليه طراز سنة ١٩٥٣– بعدما اشترى كاديلاك طراز ١٩٥٦– فأعطاك تلك السيارة.

ومهما كان المرء فقيراً فإنه يستطيع أن يعطي شيئا لمن هو أفقر منه، إن أصغر

موظف لا يتجاوز راتبه مئة وخمسين قرش، لا يشعر بالحاجة ولا يمسه الفقر إذا تصدق بقرش واحد على من ليس له شيء، وصاحب الراتب الذي يصل إلى أربعة جنيهات لا يضره أن يدفع منها خمس قروش ويقول "هذه لله"، والذي يربح عشرة آلاف من التجار في الشهر يستطيع أن يتصدق بمئتين منها في كل شهر.

ولا تظنوا أن ما تعطونه يذهب بالمجان، لا والله، إنكم تقبضون الثمن أضعافا؛ تقبضونه في الدنيا قبل الآخرة، ولقد جربت ذلك بنفسي، أنا أعمل وأكسب وأنفق على أهلي منذ أكثر من ثلاثين سنة، وليس لي من أبواب الخير والعبادة إلا أني أبذل في سبيل الله إن كان في يدي مال، ولم أدخر في عمري شيئاً، وكانت زوجتي تقول لي دائماً: يا رجل، وفر واتخذ لبناتك داراً على الأقل"، فأقول: خليها على الله، أتدرون ماذا كان؟!!

لقد حسب الله لي ما أنفقته في سبيله وادخره لي في بنك الحسنات الذي يعطي أرباحا سنوية قدرها سبعون ألفا في المئة، نعم: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ ، وهناك زيادات تبلغ ضعف الربح: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فأرسل الله صديقا لي سيداً كريماً من أعيان دمشق فأقرضني ثمن الدار، وأرسل أصدقاء آخرين من المتفضلين فبنوا الدار حتى كملت وأنا – والله – لا أعرف من أمرها إلا ما يعرفه المارة عليها من الطريق، ثم أعان الله برزق حلال لم أكن محتسبا فوفيت ديونها جميعا، ومن شاء ذكرت له التفاصيل وسميت له الأسماء.

وما وقعت والله في ضيق قط إلا فرجه الله عني، ولا احتجت لشيء إلا جاءني، وكلما زاد عندي شيء وأحببت أن أحفظه وضعته في هذا البنك.

فهل في الدنيا عاقل يعامل بنك المخلوق الذي يعطي ٥٪ ربحاً حراماً وربما أفلس أو احترق، ويترك بنك الخالق الذي يعطي في كل مئة ربح قدره سبعون ألفا؟، وهو مؤمن عليه عند رب العالمين فلا يفلس ولا يحترق ولا يأكل أموال الناس.

فلا تحسبوا أن الذي تعطونه يذهب هدراً، إن الله يخلفه في الدنيا قبل الآخرة، وأنا لا أحب أن أسوق لكم الأمثلة فإن كل واحد منكم يحفظ مما رأى أو سمع كثيرا منها، إنما

أسوق لكم مثلا واحداً:

قصة الشيخ سليم المسوتي رحمه الله، وقد كان شيخ أبي، وكان – على فقره – لا يرد سائلا قط، ولطالما لبس الجبة أو "الفروة" فلقي رجل يرتجف من البرد فنزعها فدفعها إليه وعاد إلى البيت بالإزار، وطالما أخذ السفرة من أمام عياله فأعطاها للسائل، وكان يوما في رمضان وقد وضعت المائدة انتظاراً للمدفع، فجاء سائل يقسم أنه وعياله بلا طعام، فابتغى الشيخ غفلة من امرأته وفتح له فأعطاه الطعام كله!!، فلما رأت ذلك امرأته ولولت عليه وصاحت وأقسمت أنها لا تقعد عنده، وهو ساكت ..

فلم تمر نصف ساعة حتى قرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة، فسألوا: ما الخبر؟، وإذا الخبر أن سعيد باشا شموين كان قد دعا بعض الكبار فاعتذروا، فغضب وحلف ألا يأكل أحد من الطعام وأمر بحمله كله إلى دار الشيخ سليم المسوتي، قال: أرأيت يا امرأة؟

وقصة المرأة التي كان ولدها مسافراً، وكانت قد قعدت يوما تأكل وليس أمامها إلا لقمة إدام وقطعة خبز، فجاء سائل فمنعت عن فمها وأعطته وباتت جائعة، فلما جاء الولد من سفره جعل يحدثها بما رأى ....

قال: ومن أعجب ما مر بي أنه لحقني أسد في الطريق، وكنت وحدي فهربت منه، فوثب علي وما شعرت إلا وقد صرت في فمه، وإذا برجل عليه ثياب بيض يظهر أمامي فيخلصني منه ويقول "لقمة بلقمة"، ولم أفهم مراده، فسألته عن وقت هذا الحادث وإذا هو في اليوم الذي تصدقت فيه على الفقير، نزعت اللقمة من فمها لتتصدق بها فنزع الله ولدها من فم الأسد.

والصدقة تدفع البلاء ويشفي الله بها المريض، ويمنع الله بها الأذى، وهذه أشياء مجربة، وقد وردت فيها الآثار، والذي يؤمن بأن لهذا الكون إلها هو يتصرف فيه وبيده العطاء والمنع، وهو الذي يشفي وهو يسلم، يعلم أن هذا صحيح، والملحد ما لنا معه كلام.

والنساء أقرب إلى الإيمان وإلى العطف، وإن كانت المرأة – بطبعها- أشد بخلا بالمال من الرجل، وأنا أخاطب السيدات وأرجو ألا يذهب هذا الكلام صرخة في واد مقفر، وأن يكون له أثره، وأنت تنظر كل واحدة من السامعات الفاضلات ما الذي تستطيع أن تستغني عنه من ثيابها القديمة أو ثياب أولادها، ومما ترميه ولا تحتاج إليه من فرش بيتها، ومما يفيض عنها من الطعام والشراب، فتفتش عن أسرة فقيرة يكون هذا لها فرحة الشهر.

ولا تعطي عطاء الكبر والترفع، فإن الابتسامة في وجه الفقير (مع القرش تعطيه له) خير من جنيه تدفعه له وأنت شامخ الأنف متكبر مترفع، ولقد رأيت بنتي الصغيرة بنان – من سنين – تحمل صحنين لتعطيهما الحارس في رمضان قلت: تعالي يا بنت، هاتي صينية وملعقة وشوكة وكأس ماء نظيف وقدميها إليه هكذا، إنك لم تخسري شيئاً، الطعام هو الطعام، ولكن إذا قدمت له الصحن والرغيف كسرت نفسه وأشعرته أنه كالسائل (الشحاذ)، أما إذا قدمته في الصينية مع الكأس والملعقة والشوكة والمملحة ينجبر خاطره ويحسّ كأنه ضيف عزيز.

ومن أبواب الصدقة ما لا ينتبه له أكثر الناس مع أنه هين، من ذلك التساهل مع البياع الذي يدور على الأبواب يبيع الخضر أو الفاكهة أو البصل، فتأتي المرأة تناقشه وتساومه على القرش وتظهر "شطارتها" كلها، مع أنها قد تكون من عائلة تملك مئة ألف وهذا المسكين لا تساوي بضاعته التي يدور النهار ليبيعها، لا تساوي كلها عشرة قروش ولا يربح منها إلا قرشين!

فيا أيها النساء أسألكن بالله، تساهلن مع هؤلاء البياعين وأعطوهم ما يطلبون، وإذا خسرت الواحدة منكن ليرة فلتحسبها صدقة؛ إنها أفضل من الصدقة التي تعطى للشحاذ.

ومن أبواب الصدقة أن تفكر معلمة المدرسة حينما تكلف البنات أو تصر على شراء الدفاتر الغالية والكماليات التي لا ضرورة لها من أدوات المدرسة، أن تفكر أن من التلميذات من لا يحصل أبوها أكثر من ثمن الخبز وأجرة البيت، وأن شراء الدفاتر العريضة أو "الأطلس" أو علبة الألوان نراه نحن هينا ولكنه عنده كبير، والمسائل – كما

قلت – نسبية، ولو كلفت المعلمة دفع ألف جنيه لنادت بالويل والثبور، مع أن التاجر الكبير يقول: وما ألف جنيه؟! سهلة! سهلة عليه، وصعبة عليها، كذلك الخمس قروش أو العشر سهلة على المعلمة ولكنها صعبة على كثير من الآباء.

والخلاصة يا سادة: إن من أحب أن يسخر الله له من هو أقوى منه وأغنى فليعن من هو أضعف منه وأفقر، وليضع كل منا نفسه في موضع الآخر، وليحب لأخيه ما يحب لنفسه، إن النعم إنما تحفظ وتدوم وتزداد بالشكر، وإن الشكر لا يكون باللسان وحده، ولو أمسك الإنسان سبحة وقال ألف مرة "الحمد لله" وهو يضن بماله إن كان غنيا، ويبخل بجاهه إن كان وجيها، ويظلم بسلطانه إن كان ذا سلطان لا يكون حامداً لله، وإنما يكون مرائيا أو كذاباً.

فاحمدوا الله على نعمه حمداً فعلياً، وأحسنوا كما تحبون أن يحسن الله إليكم، واعلموا أن ما أدعوكم إليه اليوم هو من أسباب النصر على العدو ومن جملة الاستعداد له؛ فهو جهاد بالمال، والجهاد بالمال أخو الجهاد بالنفس.

ورحم الله من سمع المواعظ فعمل بها ولم يجعلها تدخل من أذن لتخرج من الأخرى[١]]

هداية وتدبر[٢]

١. التوجيه هنا يتطلب شيئين الأول: الإنفاق من الطيبات خاصة، والثاني: الإنفاق من الكسب وهو ما يُكسب بالبذل والجهد.

٢. إن المال الذي أمر الله بإنفاقه في سبيل الله ينبغي أن يكون حلالاً طيباً.

٣. إنه نداء عام للذين آمنوا – في كل وقت وفي كل جيل – يشمل جميع الأموال التي

---

(١) الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله مقالة نشرت سنة 1956 في مجلة الإذاعة.

(٢) انظر: في ظلال القرآن. تفسير الرازي. تفسير القرطبي. تفسير ابن كثير. خواطر الشعراوي. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. الجدول في إعراب القرآن.

تصل إلى أيديهم. تشمل ما كسبته أيديهم من حلال طيب، وما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبترول. ومن ثم يستوعب النص جميع أنواع المال، ما كان معهوداً على عهد النبي - ﷺ - وما يستجد. فالنص شامل جامع لا يفلت منه مال مستحدث في أي زمان. هو قول أبي حنيفة رحمه الله، واستدلاله بهذه الآية ظاهر جداً.

٤. الكسب يكون بتعب بدن وهي الإجارة، أو مقاولة في تجارة وهو البيع. والميراث داخل في هذا؛ لأن غير الوارث قد كسبه.

٥. دلّت الآية على أن المكاسب فيها طيب وخبيث.. روى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي أُمامة عن أبيه قال: «أمر رسول الله ﷺ بصدقة فجاء رجل من هذا السُّحَّل بكبائس ـ قال سفيان: يعني الشِّيص ـ فقال رسول الله ﷺ: «مَن جَاء بهذا»؟! وكان لا يجيء أحد بشيء إلاَّ نُسب إلى الذي جاء به. فنزلت: **(وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ)**. قال: ونَهَى ﷺ عن الجُعْرُور وَلَوْن الحُبَيق أن يؤخذا في الصدقة» ـ قال الزهريّ: لونين من تمر المدينة ـ وأخرجه الترمذيّ من حديث البراء وصححه.

٦. قَال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ وَلا يُعْطِي الدِّينَ إِلا لِمَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَلا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ قَالُوا وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ وَلا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ وَلا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ إِنَّ الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ**»[(١)]

٧. إن هذه الآية تعطي صوراً تحدث في المجتمع البشري. فأراد الله أن يجنب المسلمين هذا الموقف، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٦٧٢.

٨. وقال ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[1].

٩. كيف يروق لكم أن تتصدقوا بالخبيث الرديء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم إلا أن تتساهلوا وتتسامحوا فيه تساهل من غض بصره عن شيء فلم ير العيب فيه، ولو كان لأحدكم حق أو دين، فجاءكم دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تُنقصوه، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟! فحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه.

١٠. بلاغة: «**إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**» أي إلا وقت إغماضكم فيه أو إلا بإغماضكم فيه وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة التصريحية. حيث شبه التجاوز عن الشيء الجدير بالمؤاخذة بغض العين عما يتفادى المرء رؤيته مما يكره.

....

المعاني المفردة[2]

أَنفِقُواْ: زكوا. ابن عباس: تصدقوا.

مِنْ طَيِّبَاتِ: جياد وحسان، مفرده طيب أي جيد مستطاب، وضده الخبيث المستكره.

وَلاَ تَيَمَّمُواْ: ولا تعمدوا ولا تقصدوا. والأصل تَتَيَمّموا فادغم التاء في التاء.

الْخَبِيثَ: الرديء غير الجيد.

تُغْمِضُواْ: الْغَمَضُ: ما تطامن من الأرضِ. وأَغْمَضْت في السِّلْعة استَحْطَطْت من ثمنها لرداءتها، قيل أغمضت عنه إذا تجاوزت. **الإِغْماض:** المُسامَحة والمُساهلَة.

---

(١) البخاري ١٤٤٢.

(٢) تفسير الطبري. المخصص ـ لابن سيده. إعراب القرآن- النحاس. المصباح المنير. النهاية في غريب الحديث والأثر. تفسير أيسر التفاسير. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

حَمِيدٌ: محمود في الأرض والسماء في الأولى والأخرى لما أفاض ويفيض من النعم على خلقه.

سبب النزول[1]

عن البراء بن عازب قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البسر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظنّ أن ذلك جائز، فأنزل الله عزّ وجلّ فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ قال لا تيمموا الحَشَفَ منه تنفقون، ولو أهدي إليكم ما قبلتموه. فعاب الله ذلك عليهم ونهاهم عنه.

الإعراب والصرف[2]

جملة "**تنفقون**" حال من فاعل "**تيمموا**". قوله "**ولستم بآخذيه**": الواو حالية، والباء زائدة في خبر ليس، والمصدر المؤول "**أن تغمضوا**" منصوب على نـزع الخافض الباء، وجملة "**ولستم بآخذيه**" حال من واو "**تنفقون**"، وجملة "**واعلموا**" مستأنفة.

"**تيمّموا**" أصله تتيمّموا، فيه حذف إحدى التاءين.

"**الخبيث**" صفة مشبّهة على وزن فعيل من خبث باب كرم.

"**لستم**" فيه إعلال بالحذف، حذفت الياء لالتقاء الساكنين، فالياء ساكنة والسين بني على السكون لاتصال الفعل بضمير الرفع المتحرّك، وزنه فلتم بفتح الفاء.

"**تغمضوا**" فيه حذف الهمزة تخفيفا، وأصله تؤغمضوا.

"**حميد**" صفة مشبهة على وزن فعيل بمعنى محمود، من حمد يحمد باب فرح.

---

(١) تفسير الطبري.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

"آخذيه" جمع آخذ، اسم فاعل من أخذ يأخذ باب نصر وزنه فاعل، والمدّة أتت من اجتماع الهمزة والألف الساكنة.

القراءات[١]

"وَلا تَيَمَّمُوا" قرأ البزي وصلاً بتشديد التاء مع المد الطويل لالتقاء السكانين، وإنما ثبت حرف المد فى هذا وأمثاله.

ولم يحذف على الأصل كما حذف فى نحو **"ولا الذين"**، لأن الإدغام هنا طارىء على حرف المد فلم يحذف المد لأجله، بخلاف إدغام اللام فى الذين ونحوه فإنه لازم وليس بطارىء على حرف المد فحذف حرف المد الذى قبله في **"ولا"** لأجله، فإذا ابتدأ خفف.

---

(١) البدور الزاهرة.

النداء العاشر

الطاعة والانقياد شرط الإيمان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]

بين يدي النداء

[لقد تعرض العالم الاسلامي، منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى اليوم إلى غزو غربي استعماري، وهذا الغزو لم يكن عسكرياً فقط بل كان غزواً ثقافياً وأخلاقياً وسياسياً واقتصادياً. لقد أنشأ الغرب الاستعماري المؤسسات الثقافية الغربية والتعليمية والجامت، وأنشأ كذلك البنوك الأجنبية الغربية في البلاد التي احتلوها واستعمروها، فأنشأت بريطانيا بنوكاً ربوية في البلاد التي احتلتها واستعمرتها، وتم هذا من أسبانيا وهولندا وإيطاليا وغيرها من الدول الاجنبية، وأنشأ الغرب غير البنوك الربوية والمصارف الربوية، مؤسسات أخرى تقوم على الربا والمقامرة كشركات التأمين على اختلاف فروعها.

لقد شاع التعامل في بلاد المسلمين بالتعامل بالربا. وكانت هذه البنوك الأجنبية الغربية هي المهيمنة على اقتصاد العالم الإسلامي. كان المطلوب شرعاً من المسلمين أن يقاوموا هذا الاستعمار الغربي بجميع مؤسساته الربوية الرأسمالية، إلا ان الذي يؤسف له أن هؤلاء المستعمرين أعدو حكاماً على مناهجهم وأفكارهم وسياساتهم الاقتصادية. فسارو على مناهجهم وقلدوهم حذو القذة بالقذة، فأقاموا بنوكاً ربوية على غرار البنوك الاجنبية الربوية، وعملت هذه البنوكمع البنوك للدول الاستعمارية بنفس الطريقة الربوية في استثمار الأموال بالربا، ومما يجدر ذكره هنا أنه كان هناك أفراد قليلون يأخذون الربا وكانو منبوذين ومقاومين عند عامة الناس وينكرون عليهم هذا.

وبانتشار البنوك الربوية الأجنبية وغير الأجنبية من عربية وغيرها أصبح التعامل بالربا والاقتراض بالربا شائعاً على المستويات الرسمية الحكومية، وعلى المستويات غير

الرسمية ولكن أقل، إذ قلما تجد تاجراً لا يتعامل مع هذه البنوك الربوية، ومن هؤلاء التجار المسلمون الملتزمون بدينهم وأحكام شرعهم، فيتوقفون عند حقوق الله وحرمات الله من ربا وغيره فلا ينتهكونها، وأمام هذا الغزو الفكري والثقافي والاقتصادي نشأت الحاجة عند الحريصين على تنمية أموالهم بالطرق الشرعية، وعدم مخالفة أحكام الشرع، واقتراف جريمة الربا إلى فكرة إنشاء البنوك الإسلامية التي لا تتعامل بالربا. بل تحرم على غيرها أن يتعامل معها كذلك إلا وفق أحكام الشريعة الإسلامية المحرمة للربا.

وفي الحق فإن افتتاح البنوك الاسلامية أو المصارف الإسلامية قد فتحت أبواباً لأثرياء مسلمين الذين يحرمون الربا على أنفسهم وعلى غيرهم لتنمية أموالهم بالطرق المشروعة كالمرابحة وغيرها، وأوجدت طريقاً للذين يملكون مالاً ولا يملكون خبرة في التجارة أن يعقدوا عقداً مع البنك هو عقد مضاربه، وتكون إدارة البنك مضاربة لهؤلاء ومضاربة للمساهمين كذلك، وتسمى هذه: المضاربة المشتركة، يضارب لنفسه وضارب لغيره.

والمطلوب من كل مسلم شرعاً ألا يتعامل مع البنوك الربوية قرضاً وإقراضًا ويسارع إلى التعامل مع البنوك الإسلامية أو المصارف الإسلامية، ليكون كسبه حلالاً، وينبت جسمه على الحلال، ويتجنب الربا فإنه سحت، والجسم الذي ينبت على السحت النار أولى به.

وبهذه المناسبة أوجه النداء للمصارف الإسلامية، والعاملين بها أن يحسنوا معاملة الناس وييسروا عليهم، ولا ينفروهم في التضييق عليهم والتشديد الذي لا حاجة له، فيروا منهم معاملة حانية وسهلة تجذبهم إلى الحلال وهجران الحرام.

وهناك طريقة أخرى إنشاء الجمعيات التعاونية التي يشارك فيها مجموعة من الناس وتقوم بالإقراض لأفرادها بلا فائدة ربوية.

هذا ويمكنها أن تقوم بدور البنك الإسلامي في أن تشتري السلعة نقداً لمن يريد شراءها، ثم تبيعه ديناً مقسطاً في مقابل ربح معين.

ولقد كانت دائرة تنمية أموال الأيتام بالإقراض بالربا، ثم هداها الله منذ ثلاثين سنة بتنمية أموالهم بهذه الطريقة الشرعية.

ولقد شعرت بعض البنوك الربوية برواج المعاملات في المصارف الإسلامية الخالية من الربا وإقبال الناس عليها، ففتحت أقساماً فيها تعرض على الناس أن تعاملهم بالطريقة الإسلامية في تجنب الربا وذلك بشراء السلعة من صاحبها نقداً ثم تبيعهم إياها لأجلٍ بثمن أكثر فتحقق ربحاً حلالاً.

بل لقد أنشأت بنوك ربوية بنوكاً على الطريقة الإسلامية في الاستثمار وتنمية الأموال. ومن جملة ذلك البنك الإسلامي العربي الدولي في الأردن وغيره. وحققت أرباحاً أكثر للمساهمين[١]].

هداية وتدبر[٢]

١. إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا. فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويذروا ما بقي من الربا. ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون. فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به. والنص القرآني لا يدعهم في شبهة من الأمر. ولا يدع إنساناً يتستر وراء كلمة الإيمان، بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله، ولا ينفذه في حياته، ولا يحكمه في معاملاته. فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين.مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون!

---

(١) المبسوط في فقه المعاملات/ د. محمد عبد القادر أبو فارس، ج١ ص٣٠١-٣٠٣، ط١ ٢٠٠٨م دار الفرقار للنشر والتوزيع عمان الأردن.

(٢) انظر: تفسير مفاتيح الغيب. والدكتور يوسف القرضاوي أخذا من موقع: http://www.qaradawi.net/site/topics/article.aspx?cu_no=2&item_no=2926&version=1&template_id=6&parent_id=12. وتفسير آيات الأحكام/ الصابوني. والرّبا وبدائله في الإسلام. إعداد: رغداء محمّد أديب زيدان. وأيسر التفاسير/ أبو بكر الجزائري. التفسير الميسر.

٢. دليل صحة الإيمان وثباته امتثال أمر الله في ترك الربا.

3. الرّبا معصية لله، واتّباعٌ للشّهوات.

4. الرّبا فيه استغلال لحاجة المحتاج ولظروفه الصّعبة.

5. نتيجة الرّبا القسوة في القلب والأنانيّة والبخل الّذي يكون عليه المرابي.

6. نتيجة الرّبا الرّكود الإقتصادي، وتركّز المال عند فئة معيّنة دون غيرها.

7. الرّبا يعطي المرابي ربحاً وهميّاً، فالمرابي عندما يسحب أموال غيره يؤثّر ذلك على النّشاط الإقتصادي، ويؤدّي إلى الرّكود، وعندما يحلّ الرّكود في المجتمع، فإنّ مال المرابي سوف يقلّ مع الزّمن، أو يفقد قيمته، فالرّبا ربح مظنون مؤقّت، ولكن فيها الدّمار والهلاك للمجتمع كلّه.

8. الرّبا يفكك المجتمع، ويزرع البغضاء والتّشاحن بين أفراده، حيث يستغلّ بعضهم بعضاً، وتصبح نظرة أفراده نظرة ماديّة، خالية من الودّ والحبّ والتّعاون.

9. الرّبا ينمّي حبّ المال في نفس المرابي، ويجعله جشعاً لا يكتفي بالقليل، ولا يراعي حرمات الله، فيدوس على كلّ شيء في سبيل تحقيق رغباته.

10. الرّبا يؤدّي إلى إحساس الفقير بالظّلم، وبأنّه وحيد لا يجد من يقف إلى جانبه، مما يُدخل إلى نفسه الحقد والبغض لباقي النّاس.

11. إنّ تعامل الفقير بالرّبا، مع قناعته بحرمته، يجعله يشعر بتأنيب الضّمير، ويشعره بعقدة الذّنب الّذي لا يستطيع دفعه.

١٢. إنّ تعامل الفقير بالرّبا، مع معرفته بحرمته، يجعله يستهين بحرمات الله، فيتجرّأ عليها، ويبرر لنفسه كلّ حرام، على أساس الحاجة والإضطرار.

١٣. يقسّم الربا المجتمع إلى قسمين: المرابون الّذين يملكون المال فيتسلّطون على باقي أفراد المجتمع، والمحتاجون الّذين لا يملكون شيئاً.

14. الرّبا يؤدّي إلى تعطيل المواهب النّاشئة، لأنّ هؤلاء لا يجدون المال، ولو حصلوا على

رأس المال المتناسب مع قدرتهم لاستطاعوا تحقيق أحلامهم واثبات جدارتهم، ولما أصبحوا محبطين عاطلين.

15. الرّبا ينمّي النّظرة الماديّة في المجتمع، ويقتل النّاحية الرّوحيّة، ويصبح المال غاية في حدّ ذاته، بعد أن كان وسيلة إلى حياة أفضل.

16. الرّبا يسبّب الأزمات الإقتصاديّة: وذلك من ناحيتين: الأولى، ما تصيبه طبقة المرابين من إثراء غير مشروع بسبب حصولهم على الفوائد المقرّرة على المقترضين دون المساهمة في مخاطر مشروعاتهم. والثّانية، ميل طبقة المرابين في أوقات الرّخاء إلى التّوسّع في الإقراض، وميلها إلى تقنين الإقراض في أوقات الرّكود، أو منعه خوفاً من احتمالات الخسارة، وعملاً على استرداد قروضها، وإرغاماً للمقترضين على السّداد، مما يزيد من سوء الأزمات الإقتصاديّة ويوسّع أضرارها.

17. الرّبا يسبب الغلاء والإنحرافات الماليّة: فالفائدة الّتي يدفعها المنتج إلى المقرض تُضاف إلى تكاليف الإنتاج، وما ذلك إلا لأنّ أيّ مشروع لا يعطي أرباحه إلا بعد سنة أو بضع سنوات، بينما تكون الفائدة مستحقّة في فترة لا علاقة لها بالأرباح، مما يؤدّي إلى غلاء الأسعار، ونحن نعرف أنّ الّذي يستخدم هذا الإنتاج هم أفراد الشّعب الفقراء بشكل عامّ..

18. يؤثّر الرّبا على إنشاء الصّناعات الجديدة، وتوسّع الصّناعات القائمة، فالآلات الّتي تُخترع يجب أن تحقق ربحاً سنويّاً يعادل تكلفتها + سعر الفائدة، حتّى يستطيع الصّناع توظيفها في الإنتاج.

١٩. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " **إنّ الرّبا وإن كثر، فإنّ عاقبته تصير إلى قل**". وهذا الحديث يبيّن أنّ الرّبا مهما كثر ومهما استطاع المرابي أن يجمع مالاً عن طريق الرّبا، فإنّ هذا المال لا بدّ أن ينقص، وذلك لأنّ المرابي إذا سحب الأموال من أيدي المستثمرين، وأنهكهم بالفوائد الكبيرة فإنّ هذا سيؤدّي إلى خسارتهم وإفلاسهم، وهذا سيعود في النّهاية على المرابي نفسه، حيث تخفّ

حركة التّبادل، ويضطر المرابي إلى صرف ماله، مما يؤدّي إلى نقصانه في النّهاية.

20. يقول الدّكتور شاخت الألماني: "إنّ جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل من المرابين، وإنّ قيام النّظام الإقتصاديّ على الأساس الرّبويّ يجعل العلاقات بين أصحاب الأموال والعاملين في التّجارة والصّناعة علاقة مغامرة مستمرّة، مع أنّ مصالح العالم لا تقوم إلا بالتّجارة والحرف والصّناعات، واستثمار الأموال من المشاريع العامّة النّافعة".

21. هذه الآية أصل كبير في أحكام الكفار إذا أسلموا، وذلك لأن ما مضى في وقت الكفر فإنه يبقى ولا ينقص، ولا يفسخ، وما لا يوجد منه شيء في حال الكفر فحكمه محمول على الإسلام.

٢٢. قال ﷺ: "**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ فَقُلْتُ مَا هَذَا فَقَالَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا**"[١]

....

المعاني المفردة[٢]

وَذَرُواْ: اتركوا.

الرِّبَا: لغة: رَبا الشيءُ يَرْبُو رُبُوّاً ورِباءً زاد ونما وأَرْبَيْته نَمَّيته وفي التنزيل العزيز ويُرْبِي الصدَقات ومنه أُخِذَ الرِّبا الحَرام قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾.

---

(١) البخاري ٢٠٨٥.

(٢) لسان العرب. الدر المصون في علم الكتاب المكنون.

وشرعاً: زيادة أحد البدلين المتجانسين من غير أن يقابل هذه الزيادة عوض[1].

سبب النزول[2]

كان العباس وخالد بن الوليد شريكين في الجاهلية، يسلفان في الربا إلى ناسٍ من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: **"ألا إنّ كل رباً من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس، وكل دم من دم الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب".**

الإعراب

الجار **"مِنَ الرِّبَا"** متعلق بحال من فاعل **"بقي"**. جملة الشرط

"إِن كُنتُم" مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي: إن كنتم مؤمنين فذروا ما بقي.

(١) الفقه على المذاهب الأربعة. ومجلة مجمع الفقه الإسلامي - باب حكم التعامل المصرفي المعاصر ج٢.

(٢) تفسير الطبري.

النداء الحادي عشر

أحكام الدَّيـن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم ....وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (1) [البقرة: ٢٨٢]

بين يدي النداء

دلت آية الدين على مشروعية توثيق الدين بالكتابة المبينة له، المعربة عنه، المعرفة للحاكم بما يحكم عند الترافع إليه، وذلك في صك موضح للدين بجميع صفاته.

غير أن الفقهاء اختلفوا في حجية الكتابة في توثيق الدين على قولين:

أ - فذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) إلى صحة توثيق الدين بالكتابة، وأنها بينة معتبرة في الإثبات إذا كانت صحيحة النسبة إلى كاتبها.

ب - وذهب (مالك والشافعي وأحمد) في رواية عنه وجماعة من الفقهاء إلى أنه لا يعتمد على الخط المجرد إذا لم يشهد عليه؛ لأن الخطوط تشتبه والتزوير فيها ممكن، وقد تكتب للتجربة أو اللهو.. ومع قيام هذه الاحتمالات والشبهات لا يبقى للخط المجرد حجية، ولا يصلح للاعتماد عليه وحده. أما إذا أشهد عليه

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 282].

فيعتبر وثيقة وحجة؛ لأن الشهادة ترفع الشك وتزيل الاحتمال.

ومن أهم صور التوثيق بالكتابة:

- **أولاً**: إذا أمر شخص آخر بأن يكتب إقراره، فيكون هذا الأمر إقراراً حكماً. جاء في "الدر المختار": "الأمر بكتابة الإقرار إقرار حكما، فإنه كما يكون باللسان يكون بالبنان، فلو قال للصكاك: اكتب خط إقراري بألف علي، أو اكتب بيع داري، أو طلاق امرأتي صح".

- **ثانياً**: إن قيود التجار - كالصراف والبياع والسمسار - التي تكون في دفاترهم المعتد بها، وتبين ما عليهم من ديون تعتبر حجة عليهم، ولو لم تكن في شكل صك أو سند رسمي، وذلك لأن العادة جرت أن التاجر يكتب دينه ومطلوبه في دفتره صيانة له من النسيان، ولا يكتبه للهو واللعب. أما ما يكتب فيها من ديون لهم على الناس فلا يعتبر وثيقة وحجة، ويحتاج في إثباتها إلى وجه آخر.

- **ثالثاً**: السندات والوصولات الرسمية تعتبر حججا معتمدة في توثيق الدين وإثباته. جاء في فتاوى قارئ الهداية: "إذا كتب على وجه الصكوك يلزمه المال، وهو أن يكتب: يقول فلان الفلاني إن في ذمتي لفلان الفلاني كذا وكذا، فهو إقرار يلزم".

- **رابعاً**: إذا أنكر من كتب أو استكتب سنداً رسمياً ممضيا بإمضائه أو مختوماً بختمه الدين الذي يحتويه ذلك السند مع اعترافه بخطه وختمه، فلا يعتبر إنكاره، ويلزمه أداء ذلك الدين دون حاجة إلى إثبات بوجه آخر. أما إذا أنكر خط السند الذي أعطاه مرسوما أيضا وقال: إنه ليس خطي، فينظر: - فإن كان خطه مشهوراً ومتعارفاً بين الجار وأهل البلد وثبت أنه خطه، فلا يعتبر إنكاره، ويعمل بذلك السند بدون حاجة لإثبات مضمونه.

- أما إذا لم يكن خطه مشهوراً ومتعارفاً فيستكتب، ويعرض خطه على الخبراء، فإذا أفادوا أن الخطين لشخص واحد، فيؤمر ذلك الشخص بأداء الدين المذكور، وإلا فلا.

- **خامساً**: إذا أعطى شخص لآخر سنداً رسمياً يفيد أنه مدين له بمبلغ من المال، ثم

توفي، فيلزم ورثته بإيفائه من التركة إذا اعترفوا بكون السند للمتوفى، ولو أنكروا الدين. أما إذا أنكروا السند، فينظر: إن كان خط المتوفى وختمه مشهوراً ومتعارفاً، وثبت أن الخط خطه والختم ختمه، فيجب عليهم أداء الدين من التركة، ولا عبرة لإنكارهم، وإن كان خلاف ذلك فلا يعمل بالسند لوجود شبهة التزوير فيه.

- **سادساً**: إذا وجد الوارث خطاً لمورثه يفيد أن عليه ديناً قدره كذا وكذا لفلان، فيجب على الوارث العمل بخط مورثه ودفع الدين إلى من هو مكتوب باسمه من التركة.

حكم التوثيق بالكتابة: **اختلف الفقهاء في حكم توثيق الدين بالكتابة على قولين:**

- **أحدهما**: لجمهور الفقهاء، وهو أن كتابة الدين مندوب إليها وليست واجبة. إذ الأمر في قوله تعالى "**فَاكْتُبُوهُ**" للإرشاد لمن يخشى ضياع دينه بالنسيان أو الإنكار، حيث لا يكون المدين موضع ثقة كاملة من دائنه، يدل على ذلك قوله تعالى: فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته، وهو يفيد أن الكتابة غير مطلوبة إذا توافرت الأمانة والثقة بين المتعاملين، وقد درج الناس من عهد الصحابة إلى يومنا هذا على عدم كتابة الديون ما دامت الثقة قائمة بين المتداينين، ولم ينقل عن فقهائهم نكير مع اشتهار ذلك.

- **والثاني**: لابن جرير الطبري وبعض السلف: وهو أن كتابة الدين واجبة لقوله تعالى: "**فَاكْتُبُوهُ**" إذ الأصل في الأمر إفادة الوجوب. ومما يؤيد دلالة هذا الأمر على الوجوب اهتمام الآية ببيان من له حق الإملاء، وصفة الكاتب، وحثه على الاستجابة إذا طلب منه ذلك، والحث على كتابة القليل والكثير، ثم التعبير عن عدم وجوب الكتابة في المبادلات الناجزة بنفي الجناح، حيث إنه يشعر بلوم من ترك الكتابة عند تعامله بالدين.

هداية وتدبر[1]

١- إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضح وأقوى. لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا

---

(١) أيسر التفاسير. في ظلال القرآن.

ينوب فيه لفظ عن لفظ. ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد.. ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادىء للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون، كما يعترف الفقهاء المحدثون!

2- وكان ابن عباس يقول: نزلت هذه الآية في السَّلَم[١] خاصة[٢].

٣- وجوب كتابة الديون سواء كانت بيعاً، أو شراءً، أو سلفاً، أو قرضاً هذا ما قرره ابن جرير، ورد القول بالإرشاد والندب والأقرب إلى الصواب أن بعض الأمور تجب فيها الكتابة كبيع الدور والمزارع وغيرها وبعضها لا تجب وإنما تندب الكتابة لا غير.

4- رعاية النعمة بشكرها لقوله تعالى للكاتب: كما علمه الله فليكتب إذ علمه الكتابة وحرم غيره منها.

5- جواز النيابة في الإملاء لعجز عنه وعدم قدرة عليه.

6- وجوب العدل والإنصاف في كل شيء لا سيما في كتابة الديون المستحقة المؤجلة.

7- وجوب الإشهاد على الكتابة لتأكدها به، وعدم نسيان قدر الدين وأجله.

8- شهود المال لا يقلّون عن رجلين عدلين من الأحرار المسلمين لا غير، والمرأتان المسلمتان اللتان فرض شهادتهما تقومان مقام الرجل الواحد.

9- الحرص على كتابة الديون والعزم على ذلك ولو كان الدين صغيراً تافهاً.

١٠- الرخصة في عدم كتابة التجارة الحاضرة السلعة والثمن المدارة بين البائع والمشتري.

١١- وجوب الإشهاد على بيع العقارات والمزارع والمصانع مما هو ذو بال.

12- حرمة الإضرار بالكاتب والشهيد. قال تعالى: ﴿إِذَا مَا دُعُواْ﴾ دل على أن الشهود يأتون الحاكم ليشهدوا، ودل على أن من لم يدع ليس عليه أن يشهد، ولكن ورد في

---

(١) وهو في اللغة: التقديم والتسليم وكذلك السلف. وهو في الشرع: اسم لعقد يوجب الملك في الثمن عاجلا وفي المثمن آجلا، وسمي به لما فيه من وجوب تقديم الثمن. (الاختيار لتعليل المختار).

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري.

السنة الترغيب في أداء الشهادة ولو لم يدع إليها المسلم لا سيما إذا توقف على شهادته إثبات حق من الحقوق فقد قال ﷺ: **«خير الشهود الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»**رواه الأئمة.

13- تقوى الله تعالى بسبب العلم، وتُكسب المعرفة بإذن الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ هو وعد منه تعالى بأن يجعل للمتقي نوراً في قلبه يفهم به ما يلقى إليه ويفرق بين الحق والباطل يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [**الأنفال**: 29].

14- جواز أخذ الرهن في السفر والحضر توثيقاً من الدائن لدينه.

15- جواز ترك أخذ الرهن إن حصل الأمن من سداد الدين وعدم الخوف منه.

16- حرمة كتمان الشهادة والقول بالزور فيها وأن ذلك من أكبر الكبائر كما في الصحيح.

17- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ فَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتْبَعْ".(١)

18- بلاغة – ﴿بِدَيۡنٍ﴾ذكره لتخليص المشترك ودفع الإيهام نصاً لأن تداينتم يجيء بمعنى تعاملتم بدين، وبمعنى تجازيتم، ولا يرد عليه أن السياق يرفعه لأن الكلام في النصوصية، على أن السياق قد لا يتنبه له إلا الفطن. وذكره أيضا ليرجع إليه الضمير إذ لولاه لقيل: فاكتبوا الدين.

– ﴿مُّسَمًّى﴾ قال ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما

---

(١) البخاري ٤٠٨٥. قال القاضي وغيره: المطل منع قضاء ما استحق اداؤه فمطل الغني ظلم وحرام ومطل غير الغني ليس بظلم ولا حرام بمفهوم الحديث ولأنه معذور ولو كان غنياً ولكنه ليس متمكناً من الأداء لغيبة المال أو لغير ذلك جاز له التأخير إلى الإمكان. (وإذا أتبع أحدكم على ملئ فليتبع) ومعناه إذا أحيل بالدين الذي له على موسر فليحتل.

كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: الى الحصاد، أو الرياس، أو رجوع الحاج، لم يجز لعدم التسمية.

- ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهي عن إبائها تأكيدا لها. وقد تحوّط للأمر بأن أمره باتقاء الله بقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.
- كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بالإنعام، والثالثة تعظيم لشأنه تعالى.

....

المعاني المفردة[1]

"تَدَايَنْتُمْ": الدَّين: كل معاوضة يكون أحد العوضين فيها مؤجلا. والفرق بين القرض والدين: قال في القاموس: الدين: ماله أجل، وما لا أجل له فقرض. وقيل: وأما القرض: فهو إعطاء الشئ ليستعيد عوضاً وقتاً آخر من غير تعيين الوقت.

"وَلْيُمْلِلِ": أَمْلَلْتُ الكتاب على الكاتب إِمْلالاً ألقيته عليه وأمليته عليه إِمْلاءً والأولى لغة الحجاز وبني أسد، والثانية لغة بني تميم وقيس، وجاء الكتاب العزيز بهما **"وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ" "فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً"**.

"سَفِيهاً": السفيه الخفيفُ العقل.

"تَضِلَّ": الضَّلالُ والضَّلالةُ ضدُّ الهُدَى والرَّشاد. وهنا بمعنى تنسى.[2]

---

(١) معجم الفروق اللغوية للعسكري. المصباح المنير. لسان العرب. والقاموس المحيط. النهاية في غريب الحديث والأثر. أيسر التفاسير.

(٢) توجد فروق بين المرأة والرجل في هذه الجوانب نتيجة لمقتضيات طبيعية واجتماعية واقتصادية، أو لاعتبارات نفسية.. والواقع أن هذه المسألة لا تنقص من كرامة المرأة، خصوصًا وأن المرأة لها أهلية اقتصادية كالرجل تمامًا. فالمرأة، بحكم وظيفتها الاجتماعية في رعاية النشء بصورة تقتضي وجودها

تَسْأَمُـوا: سَئِمَ الشيءَ وسَئِمَ منه وسَئِمْتُ منه أَسْأَمُ سَأَماً وسَأْمَةً وسَآماً وسَآمةً: مَلَّ. وفي الحديث: إن الله لا يَسْأَمُ حتى تَسْأَمُوا. قال ابن الأَثير: هذا مثل قوله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وهو الرواية المشهورة. والسآمةُ: المَلَلُ والضَّجَرُ. "

أَقْسَـطُ: القِسْطُ العَدْلُ ويقال أَقْسَطَ وقَسَطَ إذا عدَلَ وجاءَ في بعض الحديث إذا حكَمُوا عدَلوا وإذا قسَموا أَقْسَطُوا أَي عَدَلُوا. في أسماء اللّه تعالى [المُقْسِط] هو العادِل. يقال: أَقْسَط يُقْسِط فهو مُقْسِط إذا عَدَل. وقَسَط يَقْسِط فهو قاسِط إذا جارَ. فكأن الهمزة في [أَقْسَط] للَّسلْب كما يقال: شَكا إليه فأَشْكاه.

تَرْتَابُـوا: الرَّيْبُ والرِّيبةُ الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهْمَةُ والرِّيبةُ بالكسر والجمع رِيَبٌ.

جُـنَاحٌ: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ ، وَلاَ تَضييقٌ.

فَرِهَـانٌ: أصل الرهن الدوام، وشرعاً: حبس عين في دين لاستيفاء الدين من العين أو من منافعها إذا عجز المدين عن التسديد، ويجمع الرهن على رهان، ورهن.

آثِمٌ قَلْبُهُ: لأن الكتمان من عمل القلب فنسب الإثم إلى القلب

الإعراب والصرف(1)

– جملة الشرط مستأنفة وقعت جوابا للنداء. **إذا** ظرفية شرطية متعلقة بمعنى الجواب، والتقدير: تلزم الكتابة إذا تداينتم. واللام في **ليكتب** لام الأمر الجازمة، وأصلها

بالبيت لفترات طويلة، قد تنسى ما يتعلق بالمعاملات المالية بين الناس، خصوصًا وأن هذه المعاملات لا تقع إلا نادرًا، ومن هنا جاء نسيانها لما يحدث في هذه المعاملات، واحتياجها إلى أخرى لتذكرها. وتعتمد شهادة المرأة الواحدة في الأمور التي لا يطلع عليها غيرها، كالولادة والرضاع وبعض شؤون النساء. [الموسوعة العربية العالمية].

(1) المشكل في إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

الكسر، وتسكينها تخفيف، المصدر المؤول "**أن يكتب**" مفعول "**يأب**". "**كما علّمه**" الكاف نائب مفعول مطلق أي: كتابة مثل، و "**ما**" مصدرية، والمصدر مضاف إليه. "**فليكتب**" الفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي: إن استكتب الكاتب فليكتب. جملة "**أو لا يستطيع**" معطوفة على خبر "**كان**" في محل نصب. "**هو**" توكيد للضمير المستتر في فاعل "**يمل**". والجار "**من رجالكم**" متعلق بنعت لـ "شهيدين". "**فرجل**" الفاء واقعة في جواب الشرط، رجل: خبر لمبتدأ محذوف تقديره فالشاهد. والجار "**ممن ترضون**" متعلق بنعت لرجل وامرأتان. والمصدر المؤول "**أن تضل**" مفعول لأجله أي: مخافة أن تضل. "**صغيرا**" حال من الهاء. "**إذا ما دعوا**": ظرفية محضة متعلقة بـ "**يأب**"، و "**ما**" زائدة. "عند" ظرف مكان متعلق بـ "**أقسط**". الجار "**للشهادة**" متعلق بـ "**أقوم**". والمصدر المؤول "**أن تكتبوه**" منصوب على نـزع الخافض "**من**". والجار "**إلى أجله**" متعلق بمحذوف حال من الهاء في "**تكتبوه**". "**عند**" ظرف مكان متعلق بـ "**أقسط**"، الجار "**للشهادة**" متعلق بـ "**أقوم**". والمصدر المؤول "**ألا ترتابوا**" منصوب على نـزع الخافض "**إلى**". والمصدر "**إلا أن تكون**" منصوب مستثنى منقطع. جملة "**تديرونها**" نعت ثان لـ "**تجارة**". "**ولا يضارّ**": مضارع مجزوم بالسكون، وحُرّك بالفتح لالتقاء الساكنين. وجملة "**ويُعلمكم الله**" مستأنفة لا محل لها.

– "**دين**" مصدر سماعيّ لفعل دان يدين باب ضرب، وزنه فعل بفتح فسكون. "**مسمّى**" اسم مفعول من فعل سمّى الرباعيّ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين. "**كاتب**" اسم فاعل من فعل كتب، وزنه فاعل. "**العدل**" مصدر سماعيّ لفعل عدل، وزنه فعل بفتح فسكون. "**يأب**" فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه يفع. "**سفيها**" صفة مشبّهة من سفه يسفه باب فرح، وزنه فعيل. "**ترضون**" فيه إعلال بالحذف، حذفت الألف لام الكلمة لمجيئها ساكنة قبل واو الجماعة الساكنة، وفتح ما قبل الواو دلالة على الألف المحذوفة، وزنه تفعون بفتح التاء والعين. "**إحداهما**" مؤنّث أحد، اسم يوصف به، ووزن إحدى فعلى بكسر فسكون. "**الأخرى**" مؤنّث الآخر، صفة مشتقّة، وزنه فعلى بضمّ فسكون. "**دعوا**" فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف، أصله دعيوا بضمّ الياء وكسر العين، ثمّ نقلت حركة الياء إلى العين، ولسكونها وسكون واو الجماعة حذفت الياء فأصبح الفعل دعوا وزنه فعوا بضم الفاء والعين. "**صغيرا أو كبيرا**" كلاهما صفة مشتقّة على وزن فعيل الأول من

باب كرم والثاني من باب فرح وباب كرم. **"أقسط"** اسم تفضيل وزنه أفعل، وهو على غير القياس لأنه مأخوذ من الرباعيّ أقسط بمعنى عدل. **"أقوم"** اسم تفضيل على وزن أفعل، وهو إمّا على غير القياس لأنه من الرباعيّ أقام، أو هو قياسيّ مأخوذ من الثلاثيّ قام. ولم تعلّ الواو فتقلب ألفا كما قلبت في الفعل لأن الأسماء أقرب للجمود من الأفعال. **"أدنى"** اسم تفضيل على وزن أفعل، وفيه إعلال بالقلب أصله أدنو بفتح النون، قلبت الواو ألفا لتحركها وفتح ما قبلها. **"حاضرة"** اسم فاعل لحقته تاء التأنيث، وزنه فاعلة.

القراءات[1]

"أَنْ يُمِلَّ هو" قرأ أبوجعفر بإسكان الهاء والباقون بضمها.

"أَنْ تَضِلَّ" قرأ حمزة بكسر الهمزة **"إِنْ"** والباقون بفتحها. **"فَتُذَكِّرَ"** قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بإسكان الذال وتخفيف الكاف مع نصب الراء **"فَتُذْكِرَ"**. والباقون بفتح الذال وتشديد الكاف مع نصب الراء إلا حمزة فبرفعهما **"فَتُذَكِّرُ"**. **"تِجَارَةً حَاضِرَةً"** قرأ عاصم بنصب التاء فيهما والباقون بالرفع. **"وَلَا يُضَارَّ"** قرأ أبوجعفر بتخفيف الراء وإسكانها والباقون بالتشديد مع الفتح.

---

(١) البدور الزاهرة.

النداء الثاني عشر

الحذر من طاعة أهل الكتاب

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]

طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة. كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعداً في طريق النماء والارتقاء. وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب.

هذا من جانب المسلمين. فأما من الجانب الآخر، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها. فهذه العقيدة هي صخرة النجاة؛ وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة. وأعداؤها يعرفون هذا جيداً، يعرفونه قديماً ويعرفونه حديثاً، ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعُدة. وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين. وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن ينتسبون- زوراً- للإسلام، جنوداً مجندة، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعاً غير أوضاعها، وقيادة غير قيادتها...

هذا كتاب ربنا عز وجل ينطق بالحق، وكأنه يخاطبنا الآن، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا نهتدي لولا أن هدانا الله عز وجل. وكلام الله عز وجل وموعظته وتحذيراته تكفينا.

فالله تعالى ينبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم ما دمتم أنتم - أيها المؤمنون - على الجادة، وما دمتم مستقيمين، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله

بال إلا أن يشككوا المؤمنين في دينهم، وأن يبغوها عوجاً، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم.

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا فأهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله، بمحاولة إقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذي اعتنقوه؛ فالمؤمنون هم الطائفة التي تلتزم بالتكليف من الله، لذلك يحذرهم الحق سبحانه.

هداية وتدبر[1]

١. إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولِنتم لهم، لا يكتفون بإيقاع العداوة بينكم كما فى الجاهلية، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة وكفركم بالله بعد إيمانكم.

٢. وناداهم بصفة الإيمان لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة فالمؤمن ليس خباً ولكن الخب لا يخدعه.

٣. لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشىء في الأرض طريقها على منهج الله وحده، متميزة متفردة ظاهرة. لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج الله؛ لتؤدي في حياة البشر دوراً خاصاً لا ينهض به سواها. لقد وجدت لإقرار منهج الله في الأرض، وتحقيقه في صورة عملية، ذات معالم منظورة، تترجم فيها النصوص إلى حركات وأعمال، ومشاعر وأخلاق، وأوضاع وارتباطات. وهي لا تحقق غاية وجودها، ولا تستقيم على طريقها، ولا تنشىء في الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة، إلا إذا تلقت من الله وحده، وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما تتلقاه من الله وحده. قيادة البشرية. لا التلقي من أحد من البشر، ولا اتباع أحد من البشر، ولا طاعة أحد من البشر. إما هذا وإما الكفر والضلال

---

(١) تفسير البحر المحيط. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري. الكشف والبيان. التفسير الوسيط- محمد سيد طنطاوي. تفسير أبي السعود. تفسير ابن أبي حاتم. في ظلال القرآن.

والانحراف.

٤. لقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه – رضوان الله عليهم – في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة، كشؤون الزرع، وخطط القتال، وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان. وفرق بين هذا وذلك بين. فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر. والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة..

٥. روى الإمام أحمد..: «جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله. إني أمرت بأخ يهودي من بني قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة. ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما وجهُ رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً. قال: فسري عن النبي ﷺ وقال: والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى – عليه السلام – ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم. إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

٦. قال رسول الله ﷺ **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء. فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا. وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق. وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»**. وفي بعض الأحاديث: **«لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي»**.

٧. هذا هو توجيه الله – سبحانه – وهذا هو هدى رسوله ﷺ فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ﷺ عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء

وهؤلاء، ومن الفلاسفة والمفكرين: الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين. أي دين. ثم نزعم - والله - أننا مسلمون! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح . فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ. حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون - مثلنا - أنهم مسلمون!

٨. إن الإسلام منهج. وهو منهج ذو خصائص متميزة: من ناحية التصور الاعتقادي، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها. ومن ناحية القواعد الأخلاقية، التي تقوم عليها هذه الارتباطات، ولا تفارقها، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها. فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية. ومما يتناقض مع طبيعة القيادة - كما أسلفنا - أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي.

٩. عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ"**[(١)].

١٠. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة: 13]. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ

(١) البخاري ٣٤٥٦.

عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [**آل عمران**: 71 - 75].

١١. لا ينفك اليهود - كلما حانت لهم الفرصة- يلقون بذور الفتنة بين أفراد المجتمع، كوسيلة لاضعاف شأن الناس وعلوّ شأن اليهود، وقد كثر هذا النوع من الفساد في عصر الرسول، وقد سعى أحد رجالاتهم في إفساد ذات البين في صفوف الأنصار بين الأوس والخزرج حتى كادوا يقتتلون لولا خروج الرسول إليهم وردهم إلى حظيرة المحبة والألفة ونبذ دعوى الجاهلية وراء ظهورهم.

١٢. إنكم إذا أصغيتم إلى ما يلقيه هؤلاء اليهود من مثيرات الفتن واستجبتم لما يدعونكم إليه فكنتم طائعين لهم فإنهم لا يقنعون منكم بالعود إلى ما كنتم عليه من العداوة والبغضاء، بل يتجاوزون إلى ما وراء ذلك، وهو أن يردوكم إلى الكفر، ويؤيد هذا قوله - تعالى -: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ اليهود هم اليهود بطباعهم وسجاياهم الخبيثة الماكرة الحاسدة الحاقدة في كل زمان وفي كل مكان.. وصدق الله تعالى فيهم ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا ﴾. وللأسف فإن المسلمين اليوم أشد طاعة لليهود والنصارى حتى أوردوهم المهالك الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والفكرية..

١٣. عصمة هذه الأمة من الذنوب والسقوط في هذين الأمرين الكتاب والسنة، فمهما تمسكت أمة الإسلام بهما فإنها لا تضل ولا تسقط ولو كادها أهل الأرض أجمعون، ومهما أعرضت عنهما سقطت وهانت ولو دعمها أهل الأرض أجمعون. روى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله يقول: «**يا أيها**

الناس إني قد تركت فيكم خليفتين إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله جل جلاله من السماء وعترتي أهل بيتي، ألا وإنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض». وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله رضى لكم ثلاثاً وكره لكم ثلاثاً: رضى لكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واسمعوا وأطيعوا لمن ولاّه الله أمركم، وكره لكم القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»**.

١٤. وفى التعبير "**بإن**" فى قوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ إشارة إلى أن طاعتهم لليهود ليست متوقعة، لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك.

١٥. ووصف – سبحانه – الذين يحاولون الوقيعة بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافاً لمن لم يفعل ذلك منهم. ونعتهم بأنهم ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للإشعار بأن تضليلهم متعمَّد، وبأن تآمرهم على المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام.

١٦. تعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فإنه في قوة أن يقال لا تطيعوا فريقاً.

١٧. الحق يحدد قسماً من الذين أوتوا الكتاب، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل. كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوي، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفراداً مع الإسلام؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب. لذلك يقول الحق ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة.

١٨. عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ فقد تقدم فيهم كما تسمعون، وقد حذركموهم، وأنبأكم بضلالتكم، فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنهم الأعداء

والْحسدة والضلال، كيف تأتمنون قوماً كفروا بكتابهِم وقتلوا رسلَهم ؟ أولَئك هم أهل التهمة والعداوة".

....

المعاني المفردة(١)

فَرِيقًا: والفريق: الجماعة من الناس، وأشار به هنا إلى فريق من اليهود وهم شاس ابن قيس وأصحابه، أو أراد شاسا وحده، وجعله فريقا[1].

يَرُدُّوكُمْ: الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه، لكن الردة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ [**محمد: ٢٥**]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [**المائدة: ٥٤**].

يَعْتَصِمْ: قال ابن جريج: يؤمن بالله، وأصل العصم والعصمة المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصم.

سبب النزول(٢)

عن عكرمة قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بين قلوبهم، وجلس يهودي - شاس بن قيس(٣) اليهودي وكان شيخا قد غبر في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم - في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعرا قاله أحد الحيين في حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحي الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا

---

(١) التحرير والتنوير. مفردات ألفاظ القرآن ـ الراغب الأصفهاني. الكشف والبيان.

(٢) أسباب نزول الآيات- الواحدي النيسابوري.

(٣) في الكيان الصهيوني المغتصب لفلسطين حزب سياسي ديني باسم (حزب شاس). شكل شاس كان في ١٩٨٤.

وكذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا وكذا، فقالوا: تعالى نرد الحرب جذعاً كما كانت، فنادى هؤلاء يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبي ﷺ حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون.

الإعراب[1]

"**يا**": أداة نداء، "**أيها**" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب و"**ها**" للتنبيه، "**الذين**" اسم موصول عطف بيان من "**أي**". "**.. إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً..**" **شرط فلذلك حذفت منه النون والجواب يُرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**". وجملة الشرط مستأنفة. "**كافرين**" مفعول به ثان؛ لأنَّ "**يردُّوكم**" بمعنى يُصَيِّروكم.

(١) إعراب القرآن للنحاس. ومشكل إعراب القرآن للمسكي..

النداء الثالث عشر

حـق التقـوى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

بين يدي النداء

ذُكرت التقوى في **٢٥٨** آية في القرآن مما يدلل على أهميتها وأنها منبع الإيمان ودليله.

[قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

تأمرنا هاتان الآيتان بتقوى الله، وكل واحدة منهما توضح المراد من الأخرى:

فآية آل عمران تأمر بأن نتقي الله حق تقاته. ومعنى "حق تقاته": تقوى حقة صادقة مخلصة جادة، بأن نبذل غاية وسعنا، وأقصى استطاعتنا، في تحقيقها وتحصيلها، وأن نبقى على هذه التقوى طيلة حياتنا، بحيث لا يموت الإنسان منا إلا وهو مسلم.

تقوى الله حق تقاته، معناها بذل الوسع والجهد والاستطاعة في تحصيلها، كما طلبت آية التغابن.

وآية **التغابن** تأمرنا بتقوى الله بمقدار الوسع والاستطاعة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، ويوضح المراد بقوله: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ قوله في آل عمران: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، فلا يحقق المسلم التقوى بقدر الاستطاعة، إلا إذا كانت هذه التقوى حق التقوى. فكل من الآيتين توضح

الثانية وتفسر معناها، وهما متلازمتان متكاملتان، لا بد أن تُقرآ معًا، وتُفهما معًا، وتُؤخذ دلالتهما مجتمعتين؛ حتى يكون المعنى صحيحًا مقبولاً.

ومما يوضح المراد من الآيتين حديث رسول الله، قال: **«دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**[1].

يدل هذا الحديث على موقف المسلم من الأوامر والأحكام الشرعية، فما نُهي عنه يجتنبه؛ لأن الحرام لا يجوز ارتكابه إلا عند الضرورة للمضطر، والضرورة تقدر بقدرها، ويحددها الشرع، وليس الشخص نفسه.

وأما ما أُمر به فإنه ينفذ منه ما يستطيع، والاستطاعة كذلك يحددها الشرع من خلال الرخص الشرعية، وليس الشخص نفسه.

وقد يقول قائل: ها هو الحديث الصحيح يطلب منا أن نتناول الواجبات بقدر استطاعتنا، وهو ما نقوله نحن في التقوى والتطبيق.

نقول: إنه يجعل تطبيقنا للأوامر بقدر الاستطاعة. لكن من هو الذي يحدد الاستطاعة ومقدارها؟ ومن هو الذي يصدر الرخصة في ترك أو تغيير صورة بعض الواجبات؟

إنه ليس الشخص، ليس هو الذي يحدد مقدار استطاعته، ولا هو الذي يحدد صورة الواجب بالنسبة له، ولكنه الشرع. إن الله تعالى هو الذي يعلم مقدار الطاقة البشرية وحدود الاستطاعة فيها؛ ولذلك جاءت الرخص في الدين في بعض الحالات ولبعض الأشخاص، مراعاة لبعض الأعذار والأحوال. فالاستطاعة يحددها الشرع، وحالة الاستطاعة يفصِّلها الشرع، وصورة الواجب الجديدة يوضحها الشرع.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: خطَبَنا رسول الله فقال: **«أيها الناس، قد فُرض عليكم**

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: 73.

الحج فحجّوا». فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا. ثم قال: **«ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم، وإنما أهلك من كان قبلكم كثرةُ سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»**[1].

إن الحديث في شأن الحج، ورد ردًّا على سؤال لا معنى له لأحدهم: أفي كل عام يا رسول الله؟ فجاء الجواب: "لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم. ثم قال: **«ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»**.

إنها استطاعة بخصوص الحج، الذي نص القرآن على وجوبه على المستطيع: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ويمكن أن نعمّمها على الواجبات الأخرى، التي رخص الشرع فيها لغير المستطيع، مثل إفطار المريض والمسافر، ومثل قصر الصلاة للمسافر، وسقوط الزكاة عن غير القادر، وغير ذلك.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾: يفسرها قوله: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، و﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: وضّح معناها سلفنا الصالح.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: لم تُنسخ. ولكن حق تقاته: أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم[2].

---

(١) جامع الأصول 3/ 3، 4.

(٢) الدر المنثور 2/ 282-284.

ومما تجدر ملاحظته في الآية أنها تركت "التقوى" مبهمة مطلقة: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وإبهامها وإطلاقها ليبقى المؤمن مستمرًّا في تحقيقها والتلبس فيها، وليبقى يتدرّج في منازلها، ويترقّى في مدارجها، ويتنقّل في آفاقها، وليتمّ التفاوت بين المتقين، بمقدار ما يبذلونه من جهد في تحقيقها والحياة بها، واستمرار التلبس بها.

كذلك يواجهنا تعقيب الآية: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، حيث تأمر المسلم أن لا يموت إلا وهو مسلم. فكيف يفعل هذا، والموت قادم، يأتيه فجأة بدون سابق إنذار أو وعد أو تهيئة؟! إن معنى هذا أن يبقى متلبسًا بحالة التقوى الحقة، ملتزمًا بالطاعة والعبادة، متجافيًا عن المعاصي، تاركًا للذنوب. لا يخرج عن هذه الحالة الإيمانية العالية لحظة من حياته؛ لأنه يخشى أن يحين أجله في هذه اللحظة، ويفارق دنياه فيها على غير طاعة، فيحبط عمله، ويُختم له بسوء.

اتقوا الله حق تقاته: ليس معناه اتقوه تقوى تليق بجلاله وعظمته سبحانه – فإن هذا مستحيل –، ولكن معناها: اتقوه تقوى حقة، صادقة جادة دائمة.[١]]

هداية وتدبر[٢]

١- فضل هذه الآي إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حاجة تلا آية آل عمران: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾. وتلا هذه الآية، ثم آية الأحزاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾، ثم يقول: أما بعد ويذكر حاجته.

٢- أهمية الأمر بتقوى الله تعالى إذا كررت في آية واحدة مرتين في أولها وفي آخرها.

---

(١) المصدر: كتاب [تصويبات في فهم بعض الآيات] للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. التحرير والتنوير من التفسير. في ظلال القرآن. الطبري.

٣- هذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية، وحاصل امتثال الأمر، واجتناب المنهي عنه، في الأعمال الظاهرة، والنوايا الباطلة. وحق التقوى هو أن لا يكون فيها تقصير، وتظاهر بما ليس من عمله، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(٤)(١) لأن الاستطاعة هي القدرة، والتقوى مقدور للناس. وبذلك إن لم يكن تعارض بين الآيتين، ولا نسخ.

٤- إن سوء أخلاقنا هو الذي جلب علينا الويلات والمآسي والظلم على المستوى الشخصي ومستوى المجتمع كله يرجع بالدرجة الأساس إلى فقدان تقوى الله سبحانه، وعدم الخوف منه ومن بطشه ومكره الذي يتجاهله الأغبياء الذين لا يقيمون وزناً لتقوى الله ولا للخوف منه رغم أن الشواهد على غضب الله على الناس لفقدانهم التقوى وعدم مصداقيتهم فيها هي شاخصة للعيان من مآسي الحروب والكوارث الطبيعية المزلزلة والمدمرة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(٢) وذلك لفقدانهم لتقوى الله والخوف منه وانغماسهم في الفساد بكافة أشكاله.

٥- إن تقوى الله سبحانه هي الطريق للنهوض بالأمة الإسلامية في كافة مجالات الحياة وكذلك هي الطريق لتخليص المجتمع الإسلامي من كافة آفاته وسلبياته الاجتماعية والنفسية والأخلاقية والتربوية وحتى الاقتصادية والسياسية.

٦- "التقوى حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه. إنه بغير هذا الرباط (التقوى) لا تقوم شريعة ولا يفلح قانون ولا يتحرج متحرج ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان.

---

(١) [التغابن: ١٦]

(٢) الإسراء١٦.

٧- عن ابن عباس قوله: "اتقوا الله حق تقاته"، قال: "حق تقاته"، أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومةُ لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

٨- قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[١].

المعاني المفردة

اتَّقُوا: التقوى مأخوذة من مادة (وقي) من أصل كلمة الوقاية ووقي تعني أنه جعل بينه وبين الشيء الأخر حاجزاً يحميه ويقيه.

وعرَّف علي بن ابي طالب التقوى فقال: هي العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سأل أبيّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يومًا:

يريد المرء أن يؤتى مناه	ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي	وتقوى الله أفضل ما استفادا

حَقَّ تُقَاتِهِ: استفراغ الوسع في امتثال أمره، واجتناب نهيه.

---

(١) صحيح مسلم ٤٨٨٢.

الإعراب

"اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل الله لفظ الجلالة مفعول به حق نائب مفعول مطلق "تُقاتِهِ" مضاف إليه "وَلا تَمُوتُنَّ" الواو عاطفة لا ناهية جازمة تموتن فعل مضارع مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو المحذوفة فاعل، وقد حذفت لالتقاء الساكنين ونون التوكيد حرف لا محل له من الإعراب والجملة معطوفة "إِلا" أداة حصر "وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب حال.

المناسبة في السياق

انتقل تعالى من تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض أهل الكتاب – في النداء السابق –، إلى تحريضهم على تمام التقوى، لأن في ذلك زيادة صلاح لهم ورسوخاً لإيمانهم، وهو خطاب لأصحاب محمد ﷺ ويسري إلى جميع من يكون بعدهم.

يدلّ على ذلك جمعه على ذلك وتصغيره فويه، وزنه فعل بضمّ فسكون ووزن أفواه أفعال. "صدور" جمع صدر، اسم ذات جامد، وزنه فعل بفتح فسكون.

المناسبة في السياق

قال البقاعي: ولما كان الجمال بالمال لا سيما مع الإنفاق من أعظم المرغبات في الموالاة، وكانت هذه الآية قد صيرت جميله قبيحاً وبَذوله شحيحاً؛ قال سبحانه وتعالى – مكرراً التنبيه على مكر ذوي الأموال والجمال الذين يريدون إيقاع الفتنة بينهم من اليهود والمنافقين ليضمحل أمرهم وتزول شوكتهم.

٢- **الانفصال:** وهو أن يقول المتكلم ما يوهم أنه معلوم ظاهر، ولكنه ينطوي على أمر وراء ذلك، وهو أبعد غاية، وأسمى متناولاً وذلك في قوله «مِنْ أَفْواهِهِمْ» فإن المعلوم أن المرء يعبر عما يكنه بفمه، والانفصال في ذلك التسجيل عليهم بأنهم لا يتمالكون أن تند عن ألسنتهم ألفاظ تنم على الشعور بالبغضاء والموجدة.

٣- **الطباق:** بين بدت وتخفي.

النداء الرابع عشر

لا تتخذوا بطانة من دونكم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

بين يدي النداء

[كأنما كانت قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م العاصفة التي أمطرت الإسلام والمسلمين بوابل من مخزون ثقافة الكراهية السوداء المستكنة لدى الصليبية الصهيونية الغربية.. وعلى نحو فاق الخيالات والتصورات..

فقبل بدء التحقيق في الحدث، أعلن الرئيس جورج بوش ـ الصغير ـ في ١٦ سبتمبر "حملة صليبية" على الإسلام وأمته وعالمه ـ بعد أن أطلق عليه "محور الشر".. وبدأ ـ في الشهر التالي ـ غزوه لأفغانستان.. ثم جاء الدور على العراق في مارس سنة ٢٠٠٣م.. ضاربًا عرض الحائط بالشرعية الدولية ومنظماتها وبالقانون الدولي والرأي العام العالمي.. وذلك على الرغم من أن أفغانستان ـ تحت حكم طالبان ـ قد طلبت ـ يؤمئذ ـ وجود قرار اتهام لبن لادن والقاعدة، لتسليمهم إلى دولة محايدة لمحاكمتهم!.. وهو منتهى المنطق والعدل والتحضر من طالبان!.. وليس من الأمريكان..

وبعد يوم واحد من إعلان بوش حملته الصليبية، وصف "توني بلير" ـ رئيس وزراء انجلترا ـ هذه الحرب بأنها "حرب المدنية والحضارة (في الغرب) ضد البربرية في الشرق.."

وفي نفس الشهر ـ ٢٦ سبتمبر ـ أعلن "سيلفيو بيرلسكوني "رئيس وزراء إيطاليا ـ أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية .. ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذي يجب أن يهزم، لأنه لا يعرف الحرية ولا التعددية ولا حقوق الإنسان.. وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته وفرض نفسه على الشعوب، وقسم من العالم

الإسلامي"..

ويعلن السيناتور الديمقراطي الأمريكي "جوزيف ليبرمان" . الذي كان مرشحًا لمنصب نائب الرئيس سنة ٢٠٠٠م .: "أنه لا حل مع الدولة العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التي نراها ضرورية.. فالشعارات التي أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهي عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى.."

وتعلن "مادلين أولبرايت". وزير الخارجية الأمريكية السابقة: "إننا معشر الأمريكيين، أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب.."

ويكتب الصحفي الأمريكي الصهيوني" توماس فريدمان" فيقول: "إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس، ولذلك يجب أن نفرغ من حملتنا العسكرية على أفغانستان بسرعة، ونعود مسلحين بالكتب المدرسة، لتربية جيل جديد يقبل سياساتنا، كما يحب شطائرنا.."

ويعتمد الرئيس بوش ملايين الدولارات "لدعم أئمة المساجد المستنيرين.. لترويج أفكار الغرب، وتشكيل الذهنية العربية لدى الجيل الجديد، وإعادة صياغته تجاه الصراع العربي الإسرائيلي.."

ويعلن "صموئيل هانجتون": "إننا نريد حربًا داخل الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة"!

أما وزير العدل الأمريكي "جون أشكروفت" فلقد سب إله المسلمين، عندما قال: "إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله .."

وكذلك صنع"الجنرال بويكين" ـ نائب وزير الدفاع، الذي خطب ـ في إحدى الكنائس.. وهو بزيه العسكري ـ فقال: "إن إلهنا أكبر من إله المسلمين.. إن إلهنا حقيقي

وإلهم صنم! وإن محمدًا هو الشيطان نفسه.."

ومنذ ذلك التاريخ لم يتوقف سجل ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام وأمته وحضارته.. على الرغم من عدم صدور قرار للاتهام ـ فضلاً عن المحاكمة والحكم ـ في هذا الحدث حتى هذه اللحظات...]

هداية وتدبر

1. إنها صورة كاملة السمات، ناطقة بدخائل النفوس، وشواهد الملامح، تسجل المشاعر الباطنة، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآيبة. وتسجل بذلك كله نموذجاً بشرياً مكروراً في كل زمان وفي كل مكان. ونستعرضها اليوم وغداً فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء. يتظاهرون للمسلمين – في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم- بالمودة. فتكذّبهم كل خالجة وكل جارحة. وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال، ولا يقصّرون في إعنات المسلمين ونشر الشوك في طريقهم، والكيد لهم والدس، ما واتتهم الفرصة في ليل أو نهار.
٢. أسباب النهي عن اتخاذ أولئك بطانة:

- عدم تقصيرهم في إلحاق الفساد والضرر بأهل الإيمان ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾.
- حرصهم على بذل ما فيه عنت المؤمنين وتعبهم وضلالهم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾.
- زيادة الكراهية فهم إلى حد عدم القدرة على كتمانها ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.
- أن ما يظهرونه من البغضاء أقل بكثير مما يضمرون ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾.
- أنهم غير أوفياء ﴿تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾.

- أنهم مخادعون ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.
- أنهم أهل حقد وضغينة ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.
- أنهم أهل حسد وبغي ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.
- أنهم أهل شماتة وتشفٍ ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾.
- أنهم أهل كيد ومكر ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

٢. إعلان المقاطعة بين المؤمنين ومن دونهم.

٣. حرمة اتخاذ مستشارين وأصدقاء من أهل الكفر عامة وحرمة إطلاعهم على أسرار الدولة الإسلامية، والأمور التي يخفيها المسلمون على أعدائهم لما في ذلك من الضرر الكبير.

٤. تحريم موالاة أعداء الدين من أي ملة أو نحلة كانوا أو تقريبهم. وقد فهم الصحابة ذلك من الآية، فإن أبا موسى لما قدم على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - بحساب رفعه إليه، أعجب به عمر، فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس، فقال: إنه لا يدخل المسجد، فقال: أجنب هو؟ قال: إنه نصراني، فانتهره وقال:لا تدنهم وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خونهم الله.

٥. عدم جواز إسناد الوظائف الكبيرة أو المسؤوليات الخطيرة إلى من ليسوا مؤمنين، وعدم جواز الإكثار من مخالطتهم ومعاشرتهم والتداخل معهم بلا ضرورة. قال القرطبي – رحمه الله -: "نهى الله – عز وجل – في الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم في أمورهم، ويقال: كل من كان على خلاف مذهبك ودينك، فلا ينبغي أن تحادثه".

٦. الأصل عدم جواز الاستعانة بالكفار في كل أمور المسلمين، وواجب المسلمين أن يبذلوا ويقوموا بكل ما يغنيهم عن اللجوء إلى معونة أهل الكفر في شئونهم

العسكرية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. **قال الجصاص**: "في هذه الآية دليل على أنه لا تجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة" ويلاحظ هنا أن الجصاص ذكر عدم جواز الاستعانة بـ (أهل الذمة) فمن ليست لهم ذمة ولا عهد أولى بعدم الجواز، إلا من ضرورة تقدر بقدرها.

٧. كل عمل من شأنه أن يجعل الكافر يتطاول على المسلم، فلا يجوز أن يسند إلى الكافر، وكذلك المبتدع الضال إذا تطاول بعمله على صاحب الدين الصحيح، وكذلك لا يجوز تولية منصب أو وظيفة لكافر أو مبتدع ضال إذا كان يشرف منها على أسرار المسلمين وعوراتهم. قال ابن كثير تعليقاً على قصة عمر بن الخطاب مع أبي موسى الأشعري: "ففي هذا الأثر مع هذه الآية، دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الأعمال التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء."

٨. بيان نفسيات الكافرين وما يحملونه من إرادة الشر والفساد للمسلمين.

٩. الوقاية من كيد الكفار ومكرهم تكمن في الصبر والتجلد وعدم إظهار الخوف للكافرين.

١٠. إرشاد المؤمنين وتقوية عزائمهم وإنهاض هممهم، ونهيهم عن الوهن والضعف والحزن عند المصائب، وأن العاقبة للمتقين.

١١. مهما أخفى المُبغض لا بد أن يظهر ما في نفسه من فلتات لسانه وكما قال تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ .

١٢. لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله، بل حدث ما هو العكس، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم؛ ولذلك وقعوا في الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم.

١٣. قال ﷺ: «لا تستضيئوا بنار أهل الشرك»، قال الحسن: لا تستشيروهم في شيء من

أموركم. قال: وتصديق ذلك في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾.

١٤. إن الأحكام المستفادة من الآية تضمن للمسلمين - إذا امتثلوا لها - العزة والتمكين والأمن من كيد الكافرين، أما إذا استهانوا بها، وتوسعوا في الاستعانة بالكفار ومشاورتهم واستعمالهم، فقد فتحوا على أنفسهم أوسع أبواب الوبال والخبال، والتاريخ يشهد، أن المسلمين ما أتوا من قبل أعدائهم إلا عندما اطمأنوا إليهم ووثقوا بهم واتخذوا منهم الوزراء والأمناء، وما حدث في الأندلس دليل باهر من التاريخ القديم.

١٥. موقف المسلم من المنافقين:

- عدم طاعتهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١].

- الإعراض عنهم وزجرهم ووعظهم: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

- عدم المجادلة أو الدفاع عنهم: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧].

- عدم موالاتهم والركون إليهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

16. جهادهم والغلظة عليهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: 73].

١٧. تحقيرهم وعدم تسويدهم: عن بريدة رضي الله عنه قال ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيد؛ فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم عز وجل».

18. عدم الصلاة عليهم: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: 84].

١٩. من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوما لتقوى ربه وطاعته، منيبا إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة.

٢٠. **بلاغة:**

١- ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال ﷺ: الأنصار شعار والناس دثار.

....

المفردات

"**بِطَانَةً**" والبطانة هم خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره، والأصل البطن، ومنه بطانة الثوب لأنها تلي البطن. وروي عنه ﷺ أنه قال: "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه". "**مِّن دُونِكُمْ**" يشمل المشركين والمنافقين وأهل الكتاب. **لاَ يَأْلُونَكُمْ:** لا يقصرون في جلب الخبال. "خَبَالاً" الخبال الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً، كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر، وفي الحديث: «من شرب الخمر ثلاثاً كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخبال». والخبال اختلاف الأمر وفساده، ومنه سمي فساد العقل خبالاً، وفساد الأعضاء. "**عَنِتُّمْ**" العنت: التعب الشديد. "**ٱلْبَغْضَاءُ**" البغض: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، وهو ضد الحب. "**ٱلأَنَامِلَ**" الأنملة: طرف الأصابع، وجمعه: أنامل. "**ٱلْغَيْظِ**" أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه.

مناسبة النزول

نزلت الآية في قوم كان بينهم وبين اليهود جوار وحلف في الجاهلية، فداوموا عليه في الإسلام فكانوا يأنسون بهم ويستنيمون إليهم، ومنهم أصحاب كعب بن الأشرف، وأبي رافع ابن أبي الحُقَيْق، وكانا يؤذيان رسول الله ﷺ.

الإعراب والصرف

جملة "**لا يألونكم**" مستأنفة، وكذا جمل "**ودّوا**"، و "**بدت البغضاء**" و "**بيّنّا**"، ويضعف جَعْلُ هذه الجمل نعتا لأنهم نهوا عن اتخاذ بطانة كافرة، والتقييد بالوصف يؤذن بجواز الاتخاذ عند انتفاء هذه الأشياء. وجملة "**إن كنتم تعقلون**" مستأنفة. والمصدر "**ما عنتّم**" مفعول به أي: ودّوا عَنَتَكم. و "ما" في قوله "**ما تخفي**" موصوله مبتدأ. وجملة "**إن كنتم تعقلون**" مستأنفة.

"**بطانة**" الخاصة الذين يباطنهم المرء في الأمور، مشتقّة من البطن والباطن دون الظاهر وفعله من باب نصر وزنه فعالة بكسر الفاء، اسم جامد وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه. "**خبالا**" مصدر بمعنى الفساد، وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فسادا أو اضطرابا، وفعله خبل يخبل من باب ضرب وهو بالتخفيف على وزن فعال بفتح الفاء أو بالتشديد. "**البغضاء**" مصدر كالسرّاء والضرّاء من بغض يبغض باب نصر وباب كرم وباب فرح، وزنه فعلاء بفتح الفاء. "**أفواه**" جمع فم وأصله فوه فلامه هاء، يدلّ على ذلك جمعه على ذلك وتصغيره فويه، وزنه فعل بضمّ فسكون ووزن أفواه أفعال. "**صدور**" جمع صدر، اسم ذات جامد، وزنه فعل بفتح فسكون.

المناسبة في السياق

قال البقاعى: ولما كان الجمال بالمال لا سيما مع الإنفاق من أعظم المرغبات في الموالاة، وكانت هذه الآية قد صيرت جميله قبيحاً وبَذوله شحيحاً؛ قال سبحانه وتعالى - مكرراً التنبيه على مكر ذوي الأموال والجمال الذين يريدون إيقاع الفتنة بينهم من اليهود والمنافقين ليضمحل أمرهم وتزول شوكتهم.

٢- **الانفصال:** وهو أن يقول المتكلم ما يوهم أنه معلوم ظاهر، ولكنه ينطوي على أمر وراء ذلك، وهو أبعد غاية، وأسمى متناولاً وذلك في قوله ﴿مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ فإن المعلوم أن المرء يعبر عما يكنه بفمه، والانفصال في ذلك التسجيل عليهم بأنهم لا يتمالكون أن تند عن ألسنتهم ألفاظ تنم على الشعور بالبغضاء والموجدة.

٣- **الطباق:** بين بدت وتخفي.

النداء الخامس عشر

حرمة الربا ومخاطره

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 130].

بين يدي النداء

[لقد تكرر كثيراً منذ انفجار الأزمة المالية في خريف ٢٠٠٨ م أن العالم الرأسمالي يجب أن يتعظ بما حدث وما تسبب في حدوثه، وأنه يجب أن يتعلم شيئاً من نظام التمويل والمعاملات الإسلامية.

تكررت هذه المقولة من قبل شخصيات سياسية ودينية ومصرفية لها وزنها الثقيل في العالم الغربي الرأسمالي، لقد وضعت الأزمة العالمية المنهج الاقتصادي الإسلامي كبديل عن النظامين الرأسمالي والاشتراكي حيث اعتبر خبراء ماليون فرنسيون أن حدة الأزمة المالية الدولية كانت وراء إعلان وزيرة الاقتصاد الفرنسية كريستين لاغارد قرب إدراج المعاملات الإسلامية في النظام المصرفي المحلى ورفع القيود التشريعية والضريبية التي تمنع إصدار صكوك إسلامية في البلاد .

وهو ما يترجم إدراك الحكومة أن النظام المالي الإسلامي يمكن أن يلعب دوراً تاريخياً في العالم بالنظر لقدرته على مواجهة التحديات التي يطرحها الوضع الحالي.

ورأى رئيس غرفة التجارة الفرنسية العربية ووزير الخارجية الفرنسى السابق هيرفيه دوشاريت أن استيراد" المعاملات الإسلامية يهدف لتمكين الاقتصاد المحلى من الاستفادة من السيولة النقدية التي يملكها المستثمرون المسلمون، وأن النظام المالي الإسلامي يمكن أن يكون "عامل دمج لملايين المسلمين الفرنسيين الراغبين فى الحصول على خدمات مصرفية تتفق مع مبادئهم الدينية".

ومن العوامل المشجعة لاستغلال منهجية الاقتصاد الإسلامي في إدارة الأزمة ما

توصلت إليه دراسات بحثية بشأن مدى قدرة نظام التمويل الإسلامي على إنقاذ الاقتصاد العالمي، خاصة بعد التأكد من أن النظام الرأسمالي كان سبباً رئيسياً في تفاقم الأزمة المالية العالمية.

حيث إن مبادئ النظام الرأسمالي تقوم على الحرية الاقتصادية دون تدخل من جانب الدولة، ونتيجة لذلك فقد توسعت البنوك في ضخ الائتمان دون مراقب لذلك النشاط حتى تعرضت تلك البنوك وغيرها من المؤسسات المالية إلى إشهار إفلاسها أثر عدم قدرة المقترضين على الوفاء بالتزاماتهم.

ومن هنا بدأت الآراء تتوجه نحو ضرورة إعادة هيكلة النظام الرأسمالي من خلال استخدام أدوات مالية جديدة تسهم في الحد من تفاقم الأزمة المالية العالمية، ولم يجد المفكرون أفضل من النظام الإسلامي كبديل لتعديل النظام الرأسمالي السائد اعتمادا على المقومات المؤهلة لذلك النظام من مبادئ تقوم على المشاركة الحقيقية في النشاط الاقتصادي دون الاعتماد على عامل الفائدة.

كما تقوم على استخدام صيغ تمويلية بديلة عن الرهن العقاري مثل عقود الإجارة المنتهية بالتملك، وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الاقتصاد الإسلامي يتمتع بالقبول العام الذي يؤهله لإنقاذ النظام العالمي، كما أن لديه القدرة على الانتشار وتنويع مصادر التمويل.

كما تبين أن البنوك والمؤسسات الإسلامية لم تتأثر بالأزمة العالمية مثلما تأثرت نظيراتها التجارية التقليدية الربوية، ومن العوامل التي تؤهل الاقتصاد الإسلامي أن يكون اقتصاداً مساهماً في مواجهة الأزمة المالية العالمية، بعض التجارب المؤسسية الناجحة مثل تجربة البنك الإسلامي للتنمية الذي أنشئ تطبيقاً لبيان صادر عن مؤتمر وزراء مالية الدول الإسلامية الذي عقد في جدة في عام ١٩٧٣، وتم افتتاحه رسمياً في عام ١٩٩٥ حيث قدم تمويلات تجاوزت حاجز أل ٥١ مليار دولار منذ بداية نشاطه حتى يناير ٢٠٠٨.

وقدم تلك التمويلات للعديد من أعضائه البالغين نحو ٥٦ دولة، ولكي يتمكن

البنك من الحصول على السيولة الكافية التي تمكنه من تقديم تلك التمويلات فقد عمل على إنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات التي تجتذب السيولة من الأفراد وتوجهها نحو البنك.

ولعل من أهم تلك الكيانات صندوق البنك الإسلامي للتنمية لحصص الاستثمار والذي أنشئ من أجل تعبئة الموارد للبنك الإسلامي للتنمية من جهة، إلى جانب تشجيع الاستثمار الأجنبي المباشر في الدول الأعضاء للبنك بما يتفق مع مبادئ الشريعة من جهة أخرى.

وفى خارج العالم الإسلامي نجحت تجربة صندوق "أمانة إنكوم" الاستثماري الإسلامي بالولايات المتحدة، وصندوق "أمانة جروث"، في إحراز أكبر كم من العوائد بأقل نسبة من المخاطر مقارنة بمنافسيهم على مدى السنوات الخمس الماضية.

واعتبرت صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية أنه على هذا الأساس فإن مبادئ الشريعة الإسلامية تمهد الطريق أمام صندوق (أمانة إنكوم) إلى القمة. وبحسب ما نقلته عن وكالة "مورنينج ستار"، المعنية برصد المعدلات المالية الأمريكية، فإن صندوق "أمانة إنكوم" حقق معدل نمو بلغ ٩,٧٪، وهو الأداء الأفضل في مقابل أداء الصناديق الاستثمارية الأمريكية الأخرى، التي لا تتبع الشروط الإسلامية في الاستثمار.

وأشارت الصحيفة إلى أن الصندوق بهذا الأداء أثبت، وبشكل خاص في عام ٢٠٠٨ الذي شهد تضخم الأزمة المالية العالمية، أن القيود التي تفرضها الشريعة الإسلامية على أداء ومجالات الاستثمار أثبتت فائدتها وأفضليتها، حيث لا يضم الصندوق أيا من الشركات التي تتعامل بالمضاربات أو الفوائد، التي منيت بضربات قاصمة، ووصلت إلى حد إفلاس بعضها في عام ٢٠٠٨.

ولكن هذا لا يعنى أن التمويل الإسلامي دون مخاطر وترجع تلك المخاطر إلى كون البنوك الإسلامية تستثمر أموالها في أصول حقيقية، ولاسيما فيما يتعلق بالعقارات][1].

---

(١) د. إسماعيل شلبي – أستاذ الاقتصاد بالجامعات المصرية.

هداية وتدبر[1]

١. قال ﷺ: **لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ، وَقَالَ: مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا إِلاَّ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**[2].

٢. قال ﷺ: «**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ فَقُلْتُ مَا هَذَا فَقَالَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا**»[3].

٣. إنه في الحقيقة ليس وصفاً تاريخياً فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة والتي قصد إليها النهي هنا بالذات. إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت أياً كان سعر الفائدة. إن النظام الربوي معناه إقامة دورة المال كلها على هذه القاعدة. ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة. فهي عمليات متكررة من ناحية، ومركبة من ناحية أخرى. فهي تنشئ مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال.

٤. من شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والخلقية، كما أن من شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية، ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها وتأثيره في مصائرها جميعاً. والإسلام - وهو ينشئ الأمة المسلمة - كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية .

٥. في قوله: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. تفسير الشعراوي. في ظلال القرآن.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٠٩.

(٣) البخاري ٢٠٨٥.

٦. وقيل: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فيه توطئة لتحريم الربا بكل صوره لتتأهب النفوس المؤمنة لتركه بالكلية فينزل بعد ذلك ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، مع التحريض بقوله تعالى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٧. **يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى:** والربا زيادة في المال، فهل يؤكل؟ نعم؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة التي تأكلها، هذا هو الأصل. والرسول ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ مُعَافىً في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا**».

ويضيف: ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا في منطقة ليس فيها رغيف خبز، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب. ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ وقوله سبحانه: ﴿أَضْعَٰفًا﴾ و﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ هو كلام اقتصادي على أحدث نظام، فالأضعاف هي: الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً، فعندما يكون أصل المال مائة - على سبيل المثال - وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين. إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة، هذا هو معنى أضعاف.. فماذا عن معنى ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً، وهذا ما يسمى بالربح المركب، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة؟! لا؛ لأن الواقع في عهد رسول الله ﷺ كان هكذا.. وقد يقول لك واحد: أنا أفهم القرآن وأن المنهي هو الأضعاف المضاعفة، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل المال فقط؟ ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [**البقرة: ٢٧٩**].

٨. ربا البنوك اليوم شر من ربا الجاهلية الذي هو: أن يبيع الرجل أخاه شيئاً إلى أجل فإذا حلّ الأجل ولم يجد سداداً قال له أخِّر وزِد، أما ربا البنوك فإنه يبيعه نقداً بنقد

إلى أجل بزيادة فورية يسجلها عليه.

٩. اتفق المفسرون والفقهاء على أن المراد من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ هو بيان الواقع لا اختصاص التحريم بحالة المضاعفة. قال الألوسي في روح المعاني: "وليس هذه الحال لتقييد المنهي عنه ليكون أصل الربا غير منهي، بل لمراعاة الواقع، فقد روى غير واحد أنه كان الرجل يربي إلى أجل، فإذا حل قال للمدين زدني في المال حتى أزيدك بالأجل فيفعل، وهكذا عند كل أجل فيستغرق بالشيء ماله بالكلية فنهوا عن ذلك".

١٠. ضمن مساعي التضليل في شتى شئون الدين والدنيا، بدأ فئام من المغرضين في الاقتراب من خطوط حمراء دينياً، والحَوم حول حماها، يريدون من ذلك إباحة الموبقات الواضحات، وأسلمة الكفريات. بعد أن ارتأوا أن ذلك أسلم "المخارج" لإبقاء الدعاوى الكاذبة على ما هي عليه، وتزويغ الممارسات التي تُعارضها، إذ من العسير عليهم تغيير الأسس وعناوين التأسيس. وبعد محاولاتهم الخائبة في الالتفاف على أحكام (الجهاد) في الإسلام.. بدأوا النظر في قضية أخرى لا زالت تحرجهم عند خصومهم. (الربا). يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ . ومن هنا تبدأ حيل الشيطان في البحث عن مخارج. إن المنهي عنه هو أكل الربا أضعافاً مضاعفة ليس إلا. وإن الحكمة من تحريم الربا أن لا يتأذى الفقراء والمعوزين. أما الفوائد (البنكية) إن كانت بهامش قليل، وأُخذت من غير المعوزين، فلا ضير. ونظامنا الاقتصادي في نهاية المطاف، يخلو من المحرمات والموبقات.. ﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾. الربا في الإسلام من الموبقات، وهو حرام قليله وكثيره. وقد اتفقت الإنسانية جمعاء على مقت الربا والمرابين، وأجمعت على وضوح شروره.

١١. محال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي في مكان. وحيثما قام النظام الربوي فهناك

الخروج من هذا الدين جملة، وهناك النار التي أعدت للكافرين! والمماحكة في هذا الأمر لا تخرج عن كونها مماحكة. والجمع في هذه الآيات بين النهي عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله وإلى اتقاء النار التي أعدت للكافرين ليس عبثاً ولا مصادفة. إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين.. وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وبتقوى الله. فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى ولتحقيق منهج الله في حياة الناس.

١٢. **بلاغة: المجاز المرسل:** في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾. ومعنى لا تأكلوا الربا: لا تأخذوا الربا فعبّر بالأكل لأنه مسبب عن الأخذ فعلاقة المجاز هنا المسببية.

....

المعاني المفردة[١]

لَا تَأْكُلُواْ: لا مفهوم للأكل بل كل تصرف بالربا حرام سواء كان أكلاً أو شرباً أو لباساً.

الرِّبَا: لغة: الزيادة، **وفي الشرع نوعان:** ربا فضل وربا نسيئة، **ربا الفضل:** يكون في الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح فإذا بيع الجنس بمثله يحرم الفضل أي الزيادة ويحرم التأخير، **وربا النسيئة:** هو أن يكون على المرء دين إلى أجل فيحل الأجل ولم يجد سداداً لدينه فيقول له أخرني وزد في الدين.

أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً[٢]: لا مفهوم لهذا؛ لأنه خرج مخرج الغالب، إذ الدرهم الواحد حرام كالألف، وإنما كانوا في الجاهلية يؤخرون الدين ويزيدون مقابل التأخير حتى يتضاعف الدين فيصبح أضعافاً كثيرة.

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

(٢) وهو أن يقول له بعد حلول الأجل : إما أن تَقْضِيَ وإمَّا أَنْ تُرْبِيَ، فإن لم يفعله ضاعف ذلك عليه ثم يفعل كذلك عند حلوله من بعد حتى تصير أضعافاً مضاعفة.

سبب النزول

قال السيوطى: عن مجاهد قال: كانوا يتبايعون إلى الأجل. فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل ، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ . وعن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بني المغيرة في الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون عنا. فنزلت ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ . وعن سعيد بن جبير في الآية قال: إن الرجل كان يكون له على الرجل المال، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول المطلوب: أخِّر عني وأزيدك في مالك فيفعلان ذلك.

الإعراب والصرف[1]

"لا" ناهية. **"تأكلوا"** فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، و**"الواو"** فاعل. و**"الربا"** مفعول به. و**"أضعافاً"** حال. و**"مضاعفة"** صفة وجاءت الصفة لتنفي القلة التي يعبر عنها جمع القلة وهو وزن: أفعال، وقيل: الصفة إشارة إلى تكرير التضعيف عاما بعد عام. والمبالغة في هذه العبارة تفيد التوبيخ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ **"الواو"** عاطفة. **"واتقوا"** فعل أمر مبني على حذف النون و**"الواو"** فاعل و**"اللّه"** مفعوله. **ولعل واسمها.** وجملة **"تفلحون"** خبرها وجملة الرجاء حالية.

"مضاعفة" مؤنّث مضاعف، اسم مفعول من ضاعف الرباعيّ وزنه مفاعل بضمّ الميم وفتح العين.

القراءات[2]

(مُضَاعَفَةً): قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين **(مُضَعَفَّةً)**. والباقون بإثبات الألف وتخفيف العين **(مُضَاعَفَةً)**.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن.

(٢) البدور الزاهرة.

المناسبة في السياق

قال البقاعي: لما كان الختم بهاتين الصفتين[1] ربما أطمع في انتهاك الحرمات لإتباع الشهوات فكان مبعداً لمتعاطيه من الرحمة مدنياً من النقمة، وكان أعظم المقتضيات للخذلان تضييعهم للثغر الذي أمرهم النبي ﷺ بحفظه بسبب إقبالهم قبل إتمام هزيمة العدو على الغنائم للزيادة في الأعراض الدنيوية التي هي معنى الربا في اللغة إذ هو مطلق الزيادة أقبل تعالى عليهم بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية.

---

(١) (﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾).

النداء السادس عشر

طاعة عاقبتها الخسارة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

بين يدي النداء

الناس فريقان لا ثالث لهما: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: وهم الذين اتبعوا الرسول الخاتم محمداً ﷺ، وكانوا مسلمين مؤمنين صالحين، وهم المقبولون عند الله سبحانه.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: وهم من لم يكونوا مع الفريق الأول، أي: لم يدخلوا في الإسلام، ولم يصدقوا النبي محمداً ﷺ، على اختلاف أديانهم وأزمانهم وبلدانهم، فقد يكونون يهوداً أو نصارى أو بوذيين أو هندوساً أو لا دينيين أو ملحدين أو منافقين، كل هؤلاء كفار، على اختلاف الزمان والمكان، لأن المؤمن هو المتبع لمحمد ﷺ، وكل من لم يكن كذلك فهو كافر! هذه بدهية مقررة وحقيقة قرآنية قاطعة!

ولا يجوز للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين، ومعلوم أن الطاعة تقوم على ثلاثة أسس:

الأول: شخص يجعل لنفسه زعامة وولاية وقيادة وأهلية لتوجيه الأوامر والنواهي.

الثاني: شخص تابع للشخص الأول، وخاضع لتوجيهه، وعنده استعداد لتلقي أوامره ونواهيه.

الثالث: الصلة بين الشخصين تقوم على أمر الأول للثاني وسيادته عليه، وتبعية الثاني للأول، وعبوديته له، وتنفيذه لأوامره.

وهذه الأسس الثلاثة تشكل جريمة عظمى في طاعة المؤمنين للكافرين، إذ كيف يرضى المؤمنون أن يتلقوا أوامر وتوصيات وتوجيهات الكافرين؟ وكيف يرضى المؤمنون

أن يكونوا تابعين خاضعين عبيداً للكافرين؟ وكيف يجعلون الكافرين أسياداً لهم متحكمين فيهم؟ إن هذه التبعية الذليلة من المؤمنين للكافرين تتعارض مع مقررات الإيمان والقرآن والإسلام، إذ كيف يخضع المؤمن البصير الحي العالم للكافر الأعمى الميت الجاهل؟!

يريد القرآن أن ينفخ في قلوب وأرواح المؤمنين معاني العزة والكرامة، والتفرد والريادة، والأستاذية والقيادة ليكونوا أعزة وليسوا أذلة وأسياداً وليسوا عبيداً..

إن طاعة المؤمنين للكافرين مرفوضة منطقاً وعقلاً، وديناً وشرعاً، وفطرة وتفسيراً، ولو لم تؤد إلى هذه النتيجة، فكيف يكون رفضها إذا أدت إلى هذه النتيجة الحتمية، التي يقررها جواب الشرط: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾؟ إذا أنت أطعت أوامر عدوك الكافر، التي ليست لمصلحتك، والتي تؤدي بك إلى الارتداد والتخلف والنكوص، والخسارة الحتمية، فماذا يقال عنك؟ وأين يكون عقلك؟

إن الكفار حريصون على ردتنا على أعقابنا، وإعادتنا إلى الوراء، وإيقاعنا في الخسارة والتخلف، والقضاء على قوتنا وسيادتنا، وإضعافنا وإذلالنا، وتحويلنا إلى عبيد تابعين لهم، نسير خلفهم بدون وعي أو علم أو قوة أو دين أو استقامة.

وهم بتدخلهم الدائم في أمورنا، وأطماعهم المستمرة في أوطاننا، وزياراتهم المتكررة لبلداننا، وإرسال وفودهم ولجانهم وخبرائهم ومستشاريهم إلى حكوماتنا، واستدعائهم المستمر لمسؤولينا وزعمائنا، وإعدادهم لخططهم وبرامجهم وأوراقهم وتوصياتهم لنا.. هم في هذا كله يهدفون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة ضدنا..

عل كل مسلم استحضار هذه الآية الحكيمة من سورة آل عمران، وحسن فهمها وتدبرها، وحسن الوقوف أمام حقائقها وتوجيهاتها، والنظر إلى أوضاعنا السيئة في عالمنا العربي والإسلامي من خلالها، وحسن «إسقاطها» على ارتباط الزعماء والحكام في بلاد المسلمين بأولئك الذين كفروا!!

اليهود والأمريكان وسائر الكفار يريدون إفسادنا وخسارتنا، وتخريب بيوتنا

وأوطاننا، واستعباد أمتنا! ويصدرون أوامرهم لتحقيق ذلك! والمصيبة الكبرى في زعماء ومسؤولين، ينفذون أوامر أولئك الأعداء، ويكونون سبباً في وصول تدهورنا وخسارتنا إلى ما وصلت إليه![١]

هداية وتدبر[٢]

١. لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ليثبطوا عزائمهم ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم. وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب وخلخلة الصفوف وإشاعة عدم الثقة في القيادة؛ والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء؛ وتزيين الانسحاب منها ومسالمة المنتصرين فيها! مع إثارة المواجع الشخصية والألام الفردية؛ وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة ثم لهدم كيان العقيدة ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين!
٢. المراد من طاعة الكافرين قبول قولهم والأخذ باراشادتهم.
٣. طاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا منفعة. فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر.
٤. تحرم طاعة الكافرين في حال الاختيار[٣].
٥. بيان السر في تحريم طاعة الكافرين، وهو أنه يترتب عليها الردة. والعياذ بالله.
٦. بيان قاعدة من طلب النصر من غير الله أذله الله.

---

(١) بقلم فضيلة الدكتور صلاح الخالدي، [بتصرف] .
http://www.tafsir.net/vb/showthread.php?t=16278.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. في ظلال القرآن. البحر المديد. تفسير ابن أبي حاتم. تفسير البحر المحيط. في ظلال القرآن.

(٣) أما في حال الإكراه فإن من لم يطق العذاب يرخص له في إعطائهم ما طلبوا منه على شرط أن يكون كارهاً بقلبه ساخطاً في نفسه غير راضٍ عنهم ولا عن صنيعهم وذلك للآية: {إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالأِيمَانِ}. [أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير].

٧. الآية عامة في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم؛ فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم. وهذا هو السبب في ارتداد من بقي من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى، هم وأولادهم، والعياذ بالله من سوء القضاء.

٨. ما زال الكفار مثابرين على رجوع المؤمنين عن دينهم، ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾. ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾.

٩. عَنِ ابْنِ جَرِيحٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ قَالَ: فَلا تَنْتَصِحُوا لِيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى دِينِكُمْ، وَلا تُصَدِّقُوهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ.

١٠. قال أبو بكر الرّازي: فيها دلالة على النهي عن طاعة الكفار مطلقاً، لكن أجمع المسلمون على أنه لا يندرج تحته من وثقنا بنصحه منهم، كالجاسوس والخرّيت الذي يهدي إلى الطريق، وصاحب الرأي ذي المصلحة الظاهرة، والزوجة تشير بصواب.

١١. التشبيه في: يردّوكم على أعقابكم، شبه الرجوع عن الدين بالراجع القهقري، والذي حبط عمله بالكفر بالخاسر الذي ضاع ربحه ورأس ماله وبالمنقلب الذي يروح في طريق ويغدو في أخرى.

....

المفردات[1]

كَفَرُواْ[1]: كفر الرجل - كفراً، وكفراناً: لم يؤمن بالوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة.

---

(١) القاموس الفقهي لغة واصطلاحا. التفسير الوسيط. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. الكشف والبيان.

أو بثلاثتها.

أَعْقَابِكُمْ: ما كنتم عليه قبل الإسلام من ضلال وكفران أو يردوكم إلى الحالة التى كنتم عليها قبل مشروعية الجهاد وهى حالة الضعف والهوان التى رفعها الله عنكم بأن أذن لكم فى مقاتلة أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق.

خَاسِرِينَ: فاقدين لكل خير في الدنيا، ولأنفسكم وأهليكم يوم القيامة.

مَوْلَاكُمْ: ناصركم وحافظكم على دينكم.

الإعراب والصرف(٢)

"**إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا**" إن شرطية "**تطيعوا**" فعل الشرط. و"**الواو**" فاعل. "**الذين**" اسم موصول مفعول به. وجملة "**كفروا**" صلة والجملة كلها مستأنفة مسوقة لتحذير المؤمنين. "**يردوكم**" جواب الشرط مجزوم و"**الواو**" فاعل و"**الكاف**" مفعول به "**على أعقابكم**" جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال "**فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ**" الفاء عاطفة. "**تنقلبوا**" فعل مضارع معطوف على يردوكم. "**خاسرين**" حال.

---

(١) قال بعض أهل العلم الكفر على أربعة أوجه: كفر إنكار وكفر جحود وكفر معانده وكفر نفاق وهذه الوجوه الأربعة من لقي الله بواحد منها لم يغفر له.. فاما كفر الانكار فهو أن ينكر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد كما قال الله عز و جل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كفروا بتوحيد الله وانكروا معرفته .. وأما كفر الجحود فانه يعرف بقلبه ولا يقر بلسانه فهذا كفر جاحد ككفر ابليس.. وكفر المعانده هو أن يعرف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل الإيمان ككفر أبي طالب فإنه قيل فيه آمن شعره وكفر قلبه أي كفر هو مثل قوله ... (ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البريه دينا) .. واما كفر النفاق فان يقر بلسانه ويكفر بقلبه ككفر المنافقين. [الزاهر - الأزهري]

(٢) إعراب القرآن وبيانه.

المناسبة في السياق

لما أمر سبحانه وتعالى بطاعته الموجبة للنصر والأجر وختم بمحبته للمحسنين، حذر من طاعة الكافرين المقتضية للخذلان رغبة في موالاتهم ومنا صرتهم

النداء السابع عشر

لا تكونوا كالذين كفروا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

بين يدي النداء

اليهود هم أول من أظهر النفاق ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

- **أحوال المنافقين:**

١) **في بدر:** روى البخاري عن عبد الله مرفوعاً: «هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول وأسلموا».

وقبل بدر روى البخاري أن ابن سلول قال: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذينا به في مجلسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

٢) **في بني قينقاع:** ابن أبي يقول مرفوعاً: يا محمد أحسن إلى مواليّ (أي من اليهود).

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء نادمين).

٣) **في أحد:**

أ) قال أُبيّ: سفه رأيي ورد حلفائي، ما أدري علام نقتل أنفسنا أيها الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ

غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

ب) وقال ابن أُبي لما أشيع مقتل النبي ﷺ يا قوم: إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، وقال: لو كان نبياً ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول.

٤) **بني النضير:** روى ابن هشام في سيرته أنه بعث رهط من بني الخزرج منهم ابن أبيّ ووديعة ومالك وسويد وداعس، بعثوا إلى نبي النضير: أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معهم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب. ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

٥) **في الأحزاب:**

١. قال معتب بن قشير (لما وعد رسول الله المؤمنين ببُصرى وغيرها): يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن من أن يذهب إلى حاجته ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾.

٢. استأذنت طائفة أخرى منهم من الحرب، وهم من بني حارثة بن الحارث ورفض سعد بن معاذ الإذن لهم. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

٣. المعوِّقون: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ﴾.

٦) **في غزوة بني المصطلق:** انتهى وجود أعوان لهم بعد غزوة بني قريظة، ولم يبق إلا الخلخلة.

أ. روى البخاري عن زيد بن أرقم أنه ازدحم مهاجري وأنصاري على الماء فاقتتلا فنادى المهاجري: يا معشر المهاجرين وصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار، فغضب عبد الله بن أُبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلام حدث فقال (أي ابن أبي): أو قد فعلوها؟!، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمع ذلك يزيد بن أرقم وأبلغه النبي، فأنكره المنافق وحلف بأنه ما قال: فنزل صدر سورة (المنافقون) فقال ﷺ: **«هذا الذي أوفى الله بأذنه»** وفي رواية في البخاري: **«إن الله قد صدقك يا زيد»**.

ب. **حادثة الإفك:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٧) **في غزوة تبوك:** ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ ۗ﴾. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ﴾. ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

مسجد الضرار:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

ج. سلوكهم لشتى الوسائل للصد عن سبيل الله: حسن اللعب – الغمز – السخرية – معاونة المشركين – الخلخلة – إثارة الإشاعات.

هداية وتدبر[1]

١. ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب. وتحذير من العود إلى مخالجة عقائد المشركين، وبيان لسوء عاقبة تلك العقائد في الدنيا أيضاً.

٢. الأخوّة في هذه الآيات أخوة النسب لا أخوّة الدين، فلعل أولئك المقتولين من المسلمين كانوا من أقارب المنافقين، فالمنافقون ذكروا هذا الكلام، ويحتمل أن يكون المراد من هذه الأخوة المشاكلة في الدين، واتفق الى أن صار بعض المنافقين مقتولاً

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير. تفسير التحرير والتنوير. مفاتيح الغيب. تفسير بحر العلوم. تفسير البحر المحيط. التفسير الكبير. خواطر محمد متولي الشعراوي. غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. أيسر التفاسير/ أسعد حومد.

في بعض الغزوات فالذين بقوا من المنافقين قالوا ذلك.

٣. المنافقون كانوا يظنون أن الخارج منهم لسفر بعيد، والخارج إلى الغزو، إذا نالهم موت أو قتل فذلك إنما نالهم بسبب السفر والغزو، وجعلوا ذلك سبباً لتنفير الناس عن الجهاد، وذلك لأن في الطباع محبة الحياة وكراهية الموت والقتل، فإذا قيل للمرء: إن تحرزت من السفر والجهاد فأنت سليم طيب العيش، وإن تقحمت أحدهما وصلت إلى الموت أو القتل، فالغالب أنه ينفر طبعه عن ذلك ويرغب في ملازمة البيت، وكان ذلك من مكايد المنافقين في تنفير المؤمنين عن الجهاد. فينهى الله الذين آمنوا أن يقولوا كما يقول المنافقون لمن يريد الخروج الى الجهاد: لو لم تخرجوا لما متم وما قتلتم فإن الله هو المحيي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق وإن لم يجاهد، وأيضاً الذي قتل في الجهاد، لو أنه ما خرج إلى الجهاد لكان يموت لا محالة، فإذا كان لا بد من الموت فلأن يقتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم، كان ذلك خيراً له من أن يموت من غير فائدة.

٤. ذكر بعض الضرب في الأرض الغزو وهو داخل فيه؛ لأن الضرب في الأرض يراد به الابعاد في السفر، لا ما يقرب منه، وفي الغزو لا فرق بين بعيده وقريبه، اذ الخارج من المدينة إلى جبل أحد لا يوصف بأنه ضارب في الأرض مع قرب المسافة وإن كان غازياً، فهذا فائدة إفراد الغزو عن الضرب في الأرض.

٥. وقال الضحاك: ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب المنافقين، لأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في أشجار الجنان حيث شاءت، وأرواح قتلى المنافقين في حواصل طير سُودٍ تسرح في الجحيم.

٦. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ **قال الراغب**: علق ذلك بالبصر لا بالسمع، وإنْ كان الصادر منهم قولاً مسموعاً لا فعلاً مرئياً. لما كان ذلك القول من الكافر قصداً منهم إلى عمل يحاولونه، فخص البصر بذلك كقولك لمن يقول شيئاً وهو يقصد فعلاً يحاوله: أنا أرى ما تفعله. "ترغيبٌ في الطاعةِ، وتحذيرٌ من المعصيةِ". **ويقول الشعراوي**: فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم لم يستتروا حتى في المعصية، ولكنهم

جعلوها حركة تُرى، وهذا القول هنا أقوى من "عليم"؛ لأن "عليم" تؤدي إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء، ولكن علم الله هو الذي يفضحهم لا، هي صارت حركة واضحة بحيث تُبْصَر.

٧. إن تركتم الجهاد وتم لكم الاحتراز عن الموت أو القتل بقيتم أياماً قلائل في الدنيا مع اللذات الخسيسة الحسية والخيالية فتركتموها لا محالة فتكون لذاتها لغيركم وتبعاتها عليكم، ولو أعرضتم عن اللذات الفانية وبذلتم النفس والمال في دين الله وصلتم إلى أعلى الدرجات وهي مقام العندية.

٨. قال ﷺ: **«مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»**(١). وقال ﷺ: **«مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقاً، أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ»**(٢).

٩. ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا﴾ أي لم يفارقونا ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا في غاية التهكم بهم، لأن إطلاق هذا القول منهم - لا سيما على هذا التأكيد - يلزم منه ادعاء أنه لا يموت أحد في المدينة، وهو لا يقوله عاقل.

١٠. إن الموت والحياة بيد الله، وإليه يرجع الأمر، وعلمه وبصره نافذان في جميعِ خلقه، فعلى المؤمنين أن لاَ يكونوا مثل هؤلاء في قولِهم واعتقادهم، وإلا أصابهم الضعف والوهَن والفشل؛ والإيمان الصادق يزيد صاحبه إيقاناً وتسليماً بكل ما يجري به القضاء، وأن ما وقع كان لا بد له من أن يقع.

١١. في هذه الآية استشراف إلى أن الآجال مقطوع بها، وأن الشجاعة لا تقرب الآجال والجبن لا يبعدها(٣).

....

(١) رواه الجماعةُ إلاَّ البخاريَّ.

(٢) انفرد به مُسْلم.

(٣) وقد عكس المنفلوطي هذا النوع من تفكير الجبناء فقال: «إن الموت في الإدبار أكثر منه في الإقبال» وألمح إلى هذا المعنى سيف الله خالد بن الوليد بقوله وهو على فراش الموت ما معناه: «لقد خضت من المعارك ما خضت حتى لم يبق في جسمي موضع شبر الا وفيه طعنة رمح أو ضربة سيف، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء».

المعاني المفردة[1]

كَفَرُواْ: الكفر في اللغة ستر النعمة وأصله الكَفر – بالفتح - أي الستر.. وفي الشريعة إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول به.

ضَرَبُواْ فِي الْأَرْضِ: الضَّرْبُ فِي الأَرْضِ - السَّفَرُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَالتِّجَارَةِ. وأصل الضرب في الأرض: الإبعاد فيها سيراً.

غُزًّى: جمع غاز وهو من يخرج لقتال ونحوه من شؤون الحرب.

حَسْرَةً: شدة الأسف على الحزن. ألم يأخذ بخناق النفس بسبب فوت مرغوب أو فقد محبوب.

سبب النزول[2]

ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قتلوا، ولم يبين هنا هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليثبطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. ولكنه بين في آيات أخر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو ليثبطوهم كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١] الآية. وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود. وأيسر التفاسير- أسعد حومد. جامع البيان في تفسير القرآن. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

(٢) أضواء البيان.

الإعراب والصرف والبلاغة[1]

«إذا ضربوا» ظرفية محضة متعلقة بـ **«قالوا»**. وقوله **«ليجعل»** اللام للتعليل، والفعل مضارع منصوب بأن مضمرة، والمصدر مجرور باللام متعلق بالفعل المقدر أوقع، والجملة المقدرة مستأنفة لا محل لها.

«غزّى» جمع غاز، وقياسه أن يجمع على غزاة، كرام جمعه رماة، ولكن حمل المعتلّ على الصحيح كضارب ضرّب ... وغاز أصله الغازي والياء منقلبة عن واو لسكونها وانكسار ما قبلها، وحذفت الياء للتنوين.. وأصل غزّى هو غزّو، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، ثمّ حذفت الألف لفظا لمناسبة التنوين.

- ﴿إِذَاضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيثار إذا المفيدة لمعنى الاستقبال على إذ المفيدة لمعنى المضي لحكاية الحال الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذي عليه يدور أمر استحضار الصورة. وهذا فن رائع من فنون البلاغة.
- **الطباق:** بين يحيي ويميت، وهو من أوجز الحديث وأصدقه وأبعده في الدلالة على المعنى المراد.
- ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ إظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار، لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد.

المناسبة في السياق[2]

قال البقاعي: ولما كان قولهم: إنا لو ثبتنا في المدينة الممثلة بالدرع الحصينة – كما "كان رأي رسول الله ﷺ والأكابر من أصحابه" لسلمنا، إلى غير ذلك مما أشار سبحانه وتعالى إليه قولاً موجباً لغيظ رسول الله ﷺ. لما فيه من الاتهام وسوء العقيدة، وكان مع

---

(١) مشكل إعراب القرآن للسبكي. الجدول في إعراب القرآن

(٢) جامع لطائف التفسير.

ذلك مظنة لأن يخدع كثيراً من أهل الطاعة لشدة حبهم لمن قتل منهم وتعاظم أسفهم عليهم. كان أنسب الأشياء المبادرة إلى الوعظ بما يزيل هذا الأثر، ولما كان الرسول ﷺ مؤيداً بأعظم الثبات لما طبع عليه من الشيم الطاهرة والمحاسن الظاهرة كان الأنسب البداءة بغيره، فنهى الذين آمنوا عن الانخداع بأقوالهم فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية.

القراءات[1]

(وَمَا قُتِلُوا) لا خلاف بين القراء في تخفيفه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بالياء **(يَعْمَلُونَ)**. والباقون بالتاء **(تَعْمَلُونَ)**.

---

(١) البدور الزاهرة.

النداء الثامن عشر

اصبروا وصابروا ورابطوا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 200].

بين يدي النداء

يعرف العلماء "الصبر" بأنه حبس النفس على ما تكره، وذلك يشمل الصبر على فعل الطاعة، ولو كرهت ذلك نفس الصابر، مثل: القيام لصلاة الفجر في أيام البرد القارص، مع شدة ثقل النوم ورغبة النفس في الاستمرار على الراحة وبقاء الجسم متغطيا بما يقيه البرد، ومثل الصبر على مقارعة الأعداء في ميدان القتال، أمام هجمات الأعداء بالنبال والسيوف، أو المدافع والصواريخ، و تحت نقع غبار الخيل أو الدبابات أو أزيز الطائرات ذات السلاح الفتاك.

ويشمل كذلك الصبر على ترك المعصية، مع شدة دواعيها، ورغبة النفس في اقتحام أبوابها للتمتع بما تهواه منها، مع إمكان الوصول إليها بسهولة أو بمشقة، مثل: من تتوق نفسه لتناول الخمر، أو لارتكاب فاحشة الزنا، مع تيسر ذلك، فيترك ذلك، رغبة فيما عند الله من الثواب، وخوفا مما عنده من العقاب، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الرسول ﷺ عن الثلاثة الذين أووا إلى غار فانحدرت عليهم صخرة فسدته عليهم، فاستغاث كل منهم ببعض عمله الصالح، فانفرجت عنهم، وقال أحدهم: «**اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلتْ حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه**» الحديث في البخاري برقم: 2152 .

ومن ذلك أن يشتد على المجاهدين في ميدان المعركة الأمر، لقوة عدوهم فتدعو بعضَهم أنفسُهم إلى الفرار والتولي عن الزحف، فيذكرون ما أعده الله للصابرين من الثواب، وما أعده من عقاب للمتولين يوم الزحف، فيحبسون أنفسهم على ما تكره ويبقون في مواجهة عدوهم.

هذا هو معنى الصبر، وهو أن يحبس المسلم نفسه على ما تكره، سواء كان ما تكرهه فعل طاعة، أو ترك معصية.

وقد ينفد صبر الصابر، فتغلبه نفسه وهواه والشيطان، فيترك طاعة الله، أو يرتكب معصيته. أما **المصابرة**، فهي أن يجاهد المسلم نفسه مجاهدة لا تنقطع، حتى يحقق المجاهد رضا ربه عنه، بفعل الطاعة وترك المعصية، ذاكراً قول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99].

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

ومن أهم أمثلة ذلك: مصابرة المجاهد عدوه، أي أن يشارك عدوه في الصبر، ولكنه يثبت على صبره ويلازمه ويستمر عليه حتى ينفد صبر عدوه وهو ثابت، فينتصر على عدوه ويهزمه، وقد يكون صبره دقائقَ محدودةً مصابرةً، ونفاد صبره في الدقائق هزيمة.

ولهذا أمر الله تعالى بالصبر والمصابرة معاً، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فلم يكتف بالأمر بالصبر وحده.

وهنالك آيات تدل على أن هذه المصابرة لا تكون إلا مع الشدة والضيق اللذين لا يثبت فيهما ويصبر عليهما إلا الأشداء من الرجال، كما قال تعال عن حالة المسلمين في

غزوة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ .

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ....﴾ الآيات الثلاث من سورة الأحزاب.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 214]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: 142].

المصابرة توهن العدو وتقلقه، وتضطره إلى أن يجبن ويتضعضع ويفر أمام المسلم المصابر.

هداية وتدبر[١]

١. الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء! والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. الأنوار الساطعات لآيات جامعات. الدر المنثور. اللباب في علوم الكتاب. تفسير الشعراوي. في ظلال القرآن.

الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة. من الألم والغيظ، والحنق، والضيق، وضعف الثقة أحياناً في الخير، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية؛ والملل والسأم واليأس أحياناً والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع..

٢. الصبر على الطاعات، ومصابرة العدو والنفس والهوى، والمرابطة عند الثغور، وتقوى اللّه طريق الفوز والنصر في الدنيا على الأعداء، والنجاة من عذاب اللّه، والظفر بنعيم الآخرة.

٣. عظم فضل الرباط، روى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول اللّه ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل اللّه خير من الدنيا وما فيها» وفي صحيح مسلم عن سلمان قال: «سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: **«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتّان»** أي الشيطان.

الصبر المأمور به له مواطن ثلاثة: وهي صبر على الطاعات، وصبر دون المعاصي، وصبر على البلاء. فلا جزع ولا تسخط، ولكن رضاً وتسليماً.

٤. المصابرة: هي الصبر في وجه العدو الصابر، ومن هنا كانت المصابرة أشد من الصبر؛ لأنها صبر في وجه عدو صابر، فأيهما لم يثبت على صبره هلك، وأصبح النجاح لأطولهما صبراً. قال زفر بن الحارث في اعتذاره عن الانهزام:

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها = ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

٥. قال الحسن: اصبروا على دينكم ولا تدعوه لشدة ولا رخاء، ولا سراء ولا ضراء، وأمرهم أن يصابروا الكفار، وأن يرابطوا المشركين.

وقال آخرون: معنى ﴿وَرَابِطُواْ﴾: أي رابطوا على الصلوات، أي انتظروها واحدة بعد واحدة؛ لأن المرابطة لم تكن لازمة على عهد رسول الله - ﷺ -. روي عن علي - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«ألا أدلكم على ما يكفر الله به الذنوب والخطايا: إسباغ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذالكم الرباط»**. وعن داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة: يا ابن أخي، تدري في أي شيء نزلت: ﴿ٱصۡبِرُواْوَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ ؟ قلت: لا، قال: سمعت أبا هريرة يقول: **«لم يكن في زمان النبي - ﷺ - غزو يرابط فيه، ولكن انتظار الصلاة بعد الصلاة»** رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

٦. كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم فكتب إليه عمر: أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من شدة يجعل الله بعدها فرجاً وإنه لن يغلب عسر يسرين وإن الله يقول في كتابه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

٧. عن سالم أبي النضر مولى عُمَر بن عُبيدِ اللَّهِ وكان كاتباً له ، قال : كتب إليه عبدُ الله بن أبِي أوفَى ٲنَّ رسول الله ﷺ في بعض أَيَّامِهِ الَّتي لقيَ فيها العَدُو، انتظر حتَّى مالتِ الشَّمْسُ، ثمَّ قام في النَّاس، فقال: **«يا أيُّهَا النَّاسُ لا تَمنوا لقاء العدُوِّ، واسْألُوا اللَّهَ العَافيةَ فإذا لقِيتُمُوهم فاصْبِرُوا، واعلَمُوا أنَّ الجنَّة تحتَ ظلالِ السُّيُوفِ»** ثم قال: **«اللَّهُمَّ مُنزلَ الكتابِ، ومُجْرِي السَّحابِ، وهازِمَ الأحْزابِ، اهزمْهُمْ، وانْصُرْنا عليْهِمْ»**.

٨. فائدة الرباط أن يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك وأنك لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتي بالمداهمة، ولكن تكون أنت مستعداً لها في كل وقت، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوما ماديا، بل المرابطة تعني: الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية

لوافدات الإلحاد قبل أن تفد، لماذا؟.. لأن المسألة ليست كلها غزواً بخيل وسلاح وعُدَد، فقد يكون الغزو بالفكر الذي يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر، فإذن لابد أن تكون أيضاً في الرباط الذي يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التي قد تفد على المؤمنين، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها.

٩. "اتق الله" تساوي أن يقول لك: "اتق النار" فمعنى "اتقو الله": أي اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية. ما هي الوقاية؟ أن تطيع، وما هي الطاعة؟ أن تنفذ ما أمر، وأن تنتهي عما نهى.

١٠. إن الفلاح إما أن يكون في الدنيا وإما أن يكون في الآخرة في الدنيا: بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له. هذا لون من الفلاح، ولكن على فرض أنهم فلحوا وضعفتم أنتم، في فترة من الزمن فثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة، وإلا فالذين يخاطبون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه، يفسرون الفلاح بماذا؟ الذين جاهدوا وتعبوا وعاشوا مضطهدين لا استقرار في حياتهم، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يمكن للإسلام، كيف يكون فلاحهم؟ إن فلاحهم في الآخرة، ولذلك تجد الاحتياط في قصة أهل الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ [**الكهف:** 19 - 20]. ونلحظ في هذه القصة قوله الحق: ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ هذه واحدة، ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾. إن كانوا يرجمونكم فسينتصرون عليكم في الدنيا، إنما ستأخذون الآخرة، وإن ردوكم إلى دينهم، فلن

تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة، إذن فعناصر الفلاح المرادة للإنسان، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معا إنّ عناصر الفلاح أن ننفذ أوامر الله في قوله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

١١. عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: **«أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ». قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»**[١].

- قال ﷺ: **«رِبَاطُ يَوْمٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»**[٢].
- قال ﷺ: **«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ »**[٣].
- قال ﷺ: **« كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الَّذِى مَاتَ مُرَابِطًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»**[٤].

....

المعاني المفردة[٥]

اصْبِرُواْ: الصبر: حبس النفس على طاعة الله ورسوله.

وَصَابِرُواْ: المصابرة: الثبات والصمود أمام العدو.

---

(١) حديث 610 – باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره – كتاب الطهارة – صحيح مسلم.

(٢) حديث 2930 – الجهاد – صحيح البخارى.

(٣) حديث 5047 – باب فضل الرباط فى سبيل الله عز وجل – كتاب الإمارة – صحيح مسلم.

(٤) حديث 1721 – فضائل الجهاد – سنن الترمذى.

(٥) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. والتبيان في تفسير غريب القرآن. وتفسير الشعراوي.

وَرَابِطُواْ: المرابطة: مصدر رابط رباطاً إذا حبس نفسه في ثغر من ثغور المسلمين يحرسها من مداهمة العدو الكافر لها. ورابطوا: اثبتوا وداوموا. وأصل المرابطة والرباط أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم في الثغر كل يعد لصاحبه فسمي القيام بالثغور رباطاً.

تُفْلِحُونَ: تفوزون بالظفر المرغوب، والسلامة من المرهوب في الدنيا والآخرة. و"الفلاح" كما قلنا: مأخوذ من فلح الأرض. وفلح الأرض هو شقها لتتعرض للهواء، ولتكون سهلة هينة تحت الجذير البسيط الخارج من البذرة، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثاً وبذراً وتعهداً بالري ماذا يحدث لك من الأرض؟ إنها تؤتيك خيراً مادياً مشهوداً ملحوظا.

الإعراب[1]

﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ أمر فلذلك حذفت منه النون، وجملة ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ جواب النداء لا محل لها. ﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ عطف عليه، وكذا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها.

المناسبة في السياق[2]

قال البقاعي: ولما كثر في هذه الآيات الأمر بمقاساة الشدائد وتجرع مرارات الأذى واقتحام الحروب واستهانة عظائم الكروب، والحث على المعارف الإلهية والآداب الشرعية من الأصول والفروع انخلاعاً من المألوفات إلى ما يأمر به سبحانه من الطاعات، وختم بتجرع فرقة من أهل الكتاب لتلك المرارات كانت نتيجة ذلك لا محالة قوله تعالى منبهاً على عظمة ما يدعو إليه لأنه شامل لجميع الآداب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس. ومشكل إعراب القرآن للمسكي.

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ عن: [نظم الدرر جـ 2 صـ 203].

النداء التاسع عشر

لا ترثوا النساء كرهاً

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

بين يدي النداء

[المرأة نصف المجتمع، هذه حقيقة يعرفها العقل، ويؤيدها الواقع. وحينما نرجع إلى القرآن الكريم، نجد أنه قد رسم للمرأة شخصية متميزة، قائمة على احترام الذات، وكرامة النفس، وأصالة الخلق، وإذا كان الرسول ـ ﷺ ـ يقول: **«النساء شقائق الرجال»** فإنه يستمد هذا من هدي القرآن الكريم.

فإنَّ آيات كثيرة منه تشعرنا بالمساواة البشرية في الحقوق الطبيعية بين الرجل والمرأة، فهو يتحدث عنها بما يُفيد مشاركتها للرجل، وتحملها للتبعة معه، فيقول في قصة آدم أبي البشر: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] ويقول عن النساء والرجال: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وهي درجة القوامة والرعاية في الأسرة.

ويقول: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ ﴾ [النساء: ٧].

ويقول: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ويقول أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [**الأحزاب: ٣٥**].

ثم نجد القرآن الكريم ـ من إشعاره لنا بشخصية المرأة وكيانها الذي يجب أن يُصان ويرعى ـ يُسمي سورة من أطول سورة باسم "**النساء**"، يتحدث فيها عن كثير من شئونهن، التي تدل على أن شخصية المرأة في المجتمع الإسلامي مبنية على أساس من التقدير والاحترام في نظر الإسلام.

وها هو ذا القرآن يُسمي سورة أخرى باسم "**المُجادلة**" يفتتحها بالحديث عن استماع الله من فوق سبع سماوات إلى امرأة تجادل النبي وتحاوره. فيقول في بدء هذه السورة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [**المجادلة: ١**].

ويحدثنا القرآن الحكيم عن المرأة، فيشير إلى أن شخصيتها تعلو وتسمو حين تتجمل بطائفة من مكارم الأخلاق الدينية والاجتماعية، فيوجه الخطاب إلى بعض نساء النبي في سورة التحريم فيقول: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ [**التحريم: ٥**]، **أي مُطيعات لله قائمات بالحقوق، يحفظن ما يجب حفظه من النفس والمال والعِرض والشرف، ففيهن خلق الأمانة والصيانة، وهن مهاجرات وصائمات، وهذه أمهات للأخلاق الكريمة الفاضلة.**

وقد عرض علينا القرآن الكريم نماذج رائعة سامية لفُضْليات النساء في تاريخ البشرية، فهو يُحدثنا عن نساء ضربن المثل في الإيمان والصبر والعفة والاعتصام بحبل الله المتين، فكان لهن على الأيام تاريخ مُخَلَّد، وذكر مُمَجَّد.

فلنستمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١ - ١٢].

ويعود القرآن في مواطنَ كثيرة إلى الحديث عن مريم البتول العذراء، وتكريمها بطهارتها وعِفَّتِهَا وصيانتها لنفسها، فيقول عنها مثلًا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

ويُحَدِّثُنا القرآن عن أم موسى التي تمثلت فيها عاطفة الأمومة بأجلى معانيها، خوفًا على وليدها، وحِرصًا على وحيدها. ولكنها لا تتأبّى على أمر ربها، بل تُلقيه في الْيَمِّ طاعة لقول ربها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. ولكنها بعد إلقائها بابنها في اليَمِّ، يُصبح تفكيرها فيه هو الشغل الشاغل لها، بطبيعة أمُومتها وحنانها، ولكنها تلجأ إلى عون الله الذي يُثَبِّت فُؤَادَهَا، وَيَرْبِطُ على قلبها، فذلك حيث يقول: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

فنفهم أن من مقومات الشخصية الرفيعة عند المرأة الفاضلة: الإيمان بالله والاستعانة بالله ، وحُسن احتمال الأحداث .

وفي القرآن الكريم إشارة إلى أن المرأة استطاعت أن تبلغ في بعض العصور السابقة

منازل مرموقة سامية. فهو يُحدثنا عن "مَلِكَة سَبأ" التي تحلّت بالذكاء وبُعْد النظر، مع تطلب المشورة والنصيحة، فيقول عنها في أمرها مع سليمان: قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ۝٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٢ - ٣٣]. وبعد أن يقص القرآن علينا مواقفها مع سليمان تنتهي ملكة سبأ إلى الإيمان، وتُرَدِّد قولها كما حكي القرآن: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

إن المرأة تستطيع بشخصيتها الأصيلة، وأخلاقها الجميلة، وأعمالها الجليلة، أن تُقيم البرهان على أنها شطر المجتمع الذي لا يُستهان به بِحَالٍ من الأحوال[1]].

هداية وتدبر[2]

١. الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده. وليس ذلك لأحد من البشر، لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين، إلا بسلطان من الله. وفق شريعة الله، والتحليل والتحريم - أي الحظر والإباحة - هو الشريعة وهو الدين. فالذي يحلل ويحرم هو صاحب الدين الذي يدين الناس. فإن كان الذي يحرم ويحلل هو الله فالناس إذن يدينون لله وهم إذن في دين الله وإن كان الذي يحرم أو يحلل أحداً غير الله فالناس إذن يدينون لهذا الأحد؛ وهم إذن في دينه لا في دين الله. والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها. وهي مسألة الدين ومفهومه. وهي مسألة الإيمان وحدوده، فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر؟ أين هم من الدين وأين هم من الإسلام، إن كانوا ما يزالون يصرون على ادعائهم للإسلام!!

٢. فهم بعض العلماء أنه لا يصح أن يرث أولياء الميت حق تزويج نساء المتوفين كرها عنهن من غير توكيل، فليس الميراث هو ميراث ذات المرأة كزوجة، بحيث يملك

---

(١) الشيخ أحمد الشرباصي الأستاذ بجامعة الأزهر رحمه الله. موقع إسلام أون لاين.

(٢) في ظلال القرآن. زهرة التفاسير. نيل المرام شرح آيات الأحكام. التفسير المنير...

زواجها بغير عقد، بل المراد حق تزويجها من نفسه أو من غيره، من غير أن تكون لها إرادة حرة فى الزواج. وبعض العلماء فهم أن المراد من الميراث هو ميراث الزوجية نفسها، بحيث تكون المرأة زوجًا من غير عقد. كما فهم آخرون أن المراد لا يحل أن ترثوا أموالهن. ولكن الظاهر من مجموع الروايات، أن المراد بالميراث هو ميراث حق التزويج، وميراث ما أعطيت من صداق.

٣. وقد عبر الله سبحانه وتعالى – ولكلامه المثل الأعلى – عن النهى عن هذا العمل بقوله تعالى: (لا يحل) بدل لا ترثوا للإشارة إلى أنه أمر غير مستحسن فى ذاته، فهو فى ذاته غير حلال وغير لائق، فلا يحتاج فى نفى الحل إلى نهيء ينشئ التحريم، بل إن الفطرة السليمة تدرك عدم حله، وقد كان الجاهليون فى ضلال مبين وظلم شديد، إذ كانوا يفعلونه، ولذلك استنكره كثيرون منهم، وكان العمل من بعضهم، لا من كلهم.

٤. واختلف العلماء فيمن خوطب بقوله ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه خطاب للأزواج، ثم في العضل الذي نهى عنه ثلاثة أقوال:

١) أن الرجل كان يكره صحبة امرأته ولها عليه مهر فيحبسها ويضربها لتفتدي قاله ابن عباس.

٢) أن الرجل كان ينكح المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه ويشهد على ذلك فإذا خطبت فأرضته أذن لها وإلا عضلها.

٣) أنهم كانوا بعد الطلاق يعضلون كما كانت الجاهلية تفعل أي أن الرجل كان يطلق المرأة ثم يراجعها ثم يطلقها كذلك أبدًا إلى غير غاية يقصد إضرارها حتى نزلت ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فنُهوا عن ذلك.

القول الثاني: أنه خطاب للأولياء ثم في ما نهوا عنه قولان:

١) أن الرجل كان في الجاهلية إذا كانت له قرابة قريبة ألقى عليها ثوبه فلم تتزوج أبدًا

غيره إلا بإذنه قاله ابن عباس.

٢) أن اليتيمة كانت تكون عند الرجل فيحبسها حتى تموت أو تتزوج بابنه قاله مجاهد أن الأولياء كانوا يمنعون النساء من التزويج ليرثوهن روي عن مجاهد أيضًا.

القول الثالث: أنه خطاب لورثة أزواج النساء الذين قيل لهم ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ كان الرجل يرث امرأة قريبة فيعضلها حتى تموت أو ترد عليه صداقها، وعلى هذا يكون الكلام متصلاً بالأول وعلى الأقوال التي قبله يكون ذكر العضل منفصلا عن قوله أن ترثوا النساء٣٠٤.

٥. استثنى اللّه تعالى حالاً واحدة يجوز فيها العضل أي الحبس والتضييق وهي حالة إتيان الفاحشة المبينة كالزنى والسرقة والنشوز عن الطاعة، ونحو ذلك من الأمور الممقوتة شرعا وعرفا، ففي هذه الحال يجوز العضل لاسترداد ما أعطوه من صداق وغيره من المال لأن الإساءة من جانبها، واشتراط كون الفاحشة مبينة أي ظاهرة ثابتة إنما هو لمنع عضلها بمجرد سوء الظن والتّهمة بسبب غيرة الرجل الشديدة وتسرعه في الحكم على الزوجة البريئة، أو المرأة العفيفة، فيقع الرجل في الظلم حينئذ.

٦. وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف: لقد وضع الخالق سبحانه قاعدة عظيمة في التعامل بين الزوجين، وهي في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: من الآية ١٩]. وللمفسرين في معنى المعاشرة أقوال:-

القول الأول: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم، وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحبون ذلك منهن، فافعلوا أنتم بهن مثله.

القول الثاني: النصفة في المبيت، والنفقة، والإجمال في القول.

القول الثالث: أن يوفيها حقها من المهر، والنفقة، والقسم، وترك أذاها بالكلام الغليظ

والإعراض عنها، والميل إلى غيرها، وترك العبوس والقطوب في وجهها بغير ذنب، وما جرى مجرى ذلك.

(واستدل المالكية بقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ على أن المرأة إذا كانت لا يكفيها خادم واحد أن عليه أن يخدمها قدر كفايتها، كابنة الخليفة والملك وشبههما ممن لا يكفيها خادم واحد، وأن ذلك هو المعاشرة بالمعروف)[1].

٧. وفي حالة طروء كراهية للزوجة لدمامة أو سوء خلق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز، يندب للرجل الصبر والاحتمال، فعسى أن تتبدل الأحوال وتحسن المرأة عشرة زوجها، ويرزقه اللّه منها أولادًا صالحين.

٨. ما أعظم قول عمر بن الخطاب - ﷺ- لرجل أراد أن يطلق زوجه «لأنه لا يحبها».. «ويحك! ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟»..

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقون باسم «الحب» وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، ويبيحون باسمه - لا انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية - بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟! وخيانة الزوج لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟!

....

معاني المفردات[2]

تَرِثُواْ: تجعلوا النساء كالمتاع ، ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر.

كَرْهاً: بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾. قال الأزهري: الكَره والكُره لغتان، فبأي لغة وقع فجائز.

وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ: لا تضيقوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياء في مراجعة أزواجهن. قال مجاهد: ولا تحبسوهن. وقال ابن عباس: ولا تقهروهن.

---

(١) تفسير القرطبي: ٥/ ٩٧.

(٢) معاني القرآن / النحاس. صفوة التفاسير. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

بِفَاحِشَةٍ: الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا.

مُّبَيِّنَةٍ: ظَاهِرَةِ القُبحِ.

وَعَاشِرُوهُنَّ: صاحبوهن.

بِالْمَعْرُوفِ: بما أمركم الله به من طيب القول، والمعاملة بالإحسان. ما تألفه الطباع السليمة ولا يستنكره الشرع ولا العرف ولا المروءة.

سبب النزول

عن ابن عباس قال: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ(١).

ويُروى عَنِه قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ جَارِيَةً أَلْقَى عَلَيْهَا حَمِيمَةَ – خيمة – ثَوْبِهِ فَمَنَعَهَا، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً حَبَسَهَا حَتَّى تَمُوتَ فَيَرِثُهَا".

النحو والصرف(٢)

المصدر المؤول **"أن ترثوا"** فاعل **"يحل"**. **"كرهاً"**: حال من **"النساء"**. والمصدر **"أن يأتين"** منصوب على نـزع الخافض **"في"**، أي: إلا في حال إتيان الفاحشة، فلا يحل العضل في كل حال إلا في هذه الحال. وجملة "فإن كرهتموهن" معطوفة على جملة **"تعضلوهن"** لا محل لها. قوله **"فعسى أن تكرهوا"**: الفاء رابطة، و**"عسى"** فعل ماض جامد تام، والمصدر المؤول فاعل **"عسى"**. **"ويجعل"**: الواو للمعية، والفعل منصوب بأن مضمرة وجوباً، والمصدر معطوف على مصدر من الكلام المتقدم أي: قد يكون رجاء كرهٍ منكم وجَعْل خيرٍ من الله.

«مبيّنة» مؤنّث مبيّن، اسم فاعل من بيّن الرباعيّ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة.

---

(١) حديث 4622 – التفسير – صحيح البخارى.

(٢) مشكل إعراب القرآن للسبكي.

القراءات[1]

«**كَرْهًا**» قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الكاف «**كُرْهًا**»، أي بمشقة. والباقون بفتحها، أي إجباراً.

«**مُبَيِّنَةٍ**» قرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء المشددة «**مُبَيَّنَةٍ**»، **أي** أوضح أمرها. والباقون بكسرها. أي ظاهرة.

(١) البدور الزاهرة. الشاطبية.

النداء العشرون

أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة عملية قتل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٩].

بين يدي النداء

إن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، ولا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ومن صور أكل أموال الناس بالباطل: الرشوة والغش والتدليس والمقامرة والنجش والغرر والاحتكار والغبن والمطل من الموسرين.. إلخ وقد ثبت النهي عن كل ذلك في الأدلة الصحيحة الأخرى. قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٩].

فنهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي بأنواع المكاسب الباطلة، كالربا والقمار والرشوة وما جرى مجرى ذلك من سائر أصناف الحيل والتصرفات التي تفضي إلى العداوات وأكل أموال الناس بالباطل.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وفيها إشارة إلى تحريم الرشوة، وأنه لا ينبغي لأحد أن يخاصم وهو يعلم أنه ظالم.

- ومما ورد في تحريم الغش حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟!» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من**

غش فليس مني».

- وإلى النهي عن الغرر يشير حديث أبي هريرة - في الصحيح - قال "**نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر**".

فالنهي عن بيع الغرر أصل عظيم من أصول البيوع، ويدخل فيه مسائل كثيرة غير منحصرة، كبيع المعدوم والمجهول وما لا يقدر على تسليمه وما لم يتم ملك البائع عليه.

- **وفي تحريم النجش:** وهو الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**نهى النبي ﷺ عن النجش**» بناء على قاعدة أن كل بيع باطل فهو ربا، وهذه قاعدة يقول بها بعض أهل العلم، وقال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا خائن.

- وفي تحريم أن يبيع الرجل على بيع أخيه حتى لا يوغر بذلك صدره حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبع بعضكم على بيع بعض**»**، وفي رواية «لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، إلا أن يأذن له»**.

- وإلى تحريم الاحتكار يشير حديث معمر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحتكر إلا خاطئ**». والاحتكار: شراء السلعة في وقت الغلاء وحبسها ليغلو ثمنها مع حاجة الناس إليها.

والحكمة في تحريم الاحتكار رفع الضرر عن عامة الناس.

- وإلى سوء منقلب من يجترئ على أكل أموال الناس بالباطل وبالأيمان الفاجرة يشير حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن قضيباً من أراك»**.

وما رواه مسلم عن ابن مسعود أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان»**.

هداية وتدبر[1]

١. إنها حلقة في سلسلة التربية، وحلقة في سلسلة التشريع.. والتربية والتشريع في المنهج الإسلامي متلازمان؛ أو متداخلان؛ أو متكاملان.. فالتشريع منظور فيه إلى التربية؛ كما هو منظور فيه إلى تنظيم شؤون الحياة الواقعية؛ والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر؛ كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع، وانبعاث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع؛ وتحقق المصلحة فيه. والتشريع والتوجيه المصاحب منظور فيهما - معاً - إلى ربط القلب بالله، وإشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه.. وهذه هي خاصية المنهج الرباني للحياة البشرية.. هذا التكامل الذي يصلح الحياة الواقعية، ويصلح الضمير البشري في ذات الأوان..

٢. النهي للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل - وبيان الوجه الحلال للربح في تداول الأموال - وهو التجارة - ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس؛ وهلكة وبوار. ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة، ومس النار!.. وفي الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير، والعون على الضعف والعفو عن التقصير.. كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض، والتوجه إلى الله - صاحب العطاء - وسؤال من بيده الفضل والعطاء.

٣. قال ابن عباس: هو الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيت أخذته وإلاّ رددته ورددت معه درهماً.

٤. ذكر اللّه تعالى هنا قاعدة التعامل العام في الأموال، بعد أن بيّن أحكام بعض

---

(١) الكشف والبيان. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. الأنوار الساطعات لآيات جامعات. التحرير والتنوير من التفسير. تفسير الخازن. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

المعاملات: وهي معاملة اليتامى، وإعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة، ووجوب دفع مهور النساء. والسبب واضح وهو أن المال قرين الرّوح، والاعتداء عليه يورث العداوة، بل قد يجرّ إلى الجرائم، لذا أوجب اللّه تعالى تداوله بطريق التراضي لا بطريق الظلم والاعتداء.

٥. سعة فضل اللّه ورحمته: إذ أنه تعالى يبيّن لخلقه أمر دينهم ومصالح دنياهم، وما يحل لهم وما يحرم عليهم. وهو دليل على امتناع خلو واقعة عن حكم اللّه تعالى، كقوله سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

٦. نهي الناس عن أكل بعضهم مال بعض، ويدخل في ذلك الربا والأموال التي تلقى إلى الحكام رشوة لهم، ويدخل في ذلك أخذ الغني والقادر القوي المكتسب الزكاة، وكذلك التعدي على الناس بغصب أموالهم وسرقتها والخيانة فيها وأخذها عن طريق الغش أو الخيانة في الوديعة أو العارية، والتحذير من عقود الربا وقيمة الملاهي والمنكرات من فيديوهات وسينمات وتلفزيونات، وما جاء عن طريق الميسر والقمار وكمرات التصوير ذوات الأرواح، وصور ذوات الأرواح والدخان، وشيش الدخان، وكل ما أعان على إهلاك النفس، وما جاء عوضًا لكتم حق وإخفائه أو لإظهار باطل، وإعلانه ونحو ذلك من المحرمات، وكل ما أعان على الصد عن طاعة الله.

٧. كل معاوضة في مباح فهي تجارة حتى إن الله تعالى سمى ثمن طاعته وطاعة رسوله تجارة في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ....﴾ الآية.

٨. حرمة مال المسلم، وكل مال حرام وسواء حازه بسرقة أو غش أو قمار أو ربا.

٩. إباحة التجارة والترغيب فيها والرد على جهلة المتصوفة الذين يمنعون الكسب بحجة التوكل.

١٠. تقرير مبدأ "إنما **البيع عن تراض**"، و "**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا**".

١١. حرمة قتل المسلم نفسه أو غيره من المسلمين؛ لأنهم أمة واحدة. جاء في الحديث: **«المؤمنون كالنفس الواحدة»**[1]

١٢. الوعيد الشديد لقاتل النفس عدواناً وظلماً بالإصلاء بالنار. ورد الوعيد الشديد في قاتل نفسه من ذلك قوله ﷺ: "**من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة**". رواه الجماعة. وقوله ﷺ: "**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلدا أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**".

١٣. متى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضّح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل. وهذه التكاليف التي جعلها الله قِواماً لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها. وكانت الموعدة كالمسبب عليها فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجُعل الإيمان عمودها وشرطاً للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقاً لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته. فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها. وعند تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم ولم يعجّل لهم الشر وتلوّم لهم في إنزال العقوبة.

١٤. قال النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع: "**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**".

١٥. إنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه تنبيهاً على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل لأن معظم المقصود من المال الأكل، وقيل يدخل فيه أكل ماله

---

(١) نص الحديث: «المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله» رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير.

نفسه بالباطل ومال غيره أما أكل ماله بالباطل فهو إنفاقه في المعاصي، وقيل يدخل في أكل المال الباطل جميع العقود الفاسدة.

١٦. ليس كلّ تراض معترفا به شرعا، وإنما يجب أن يكون التراضي ضمن حدود الشرع، فالرّبا المأخوذ عن بيع فيه تفاضل أو بسبب قرض جرّ نفعا، والقمار والرّهان وإن تراضى عليه الطّرفان حرام لا يحلّ شرعاً.

١٧. ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوماً، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده. وفيها أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.

١٨. أضاف الله الأموال إلى الجميع فقال: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ فلم يقل لا يأكل بعضكم أموال الآخرين للتنبيه إلى تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها فهو يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم، فمن أكل مال أخيه بالباطل فكأنما أكل مال المؤمنين جميعًا.

....

المعاني المفردة[1]

تَأۡكُلُوا: كلمة " أكل " معناها: الأخذ؛ لأنّ الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة؛ لأنها الظاهرة المتكررة، فقد تسكن في بيت واحد طوال عمركن وتلبس جلباباً كل ستة أشهر، ولكن أنت تتناول الأكل كل يوم.

بِالۡبَاطِلِ: بغير حق يبيح أكلها.

تِجَارَةً: بيعاً وشراءً فيحل لصاحب البضاعة أن يأخذ النقود ويحل لصاحب النقود أخذ البضاعة.

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تفسير الشعراوي.

تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ: أي: تزهقوا أرواح بعضكم بعضاً. ولا يقتل الإنسان نفسه.

عُدْوَانًا وَظُلْمًا: اعتداء يكون فيه ظالماً.

نُصْلِيهِ نَارًا: ندخله نار جهنم يحترق فيها.

سبب النزول[1]

قال السمرقندى: "هذه الآية نزلت في شأن امرىء القيس بن عباس الكندي وعيدان بن أشوع الحضرمي، اختصما إلى رسول الله ﷺ فادعى أحدهما على صاحبه شيئاً، فأراد الآخر أن يحلف بالكذب، فقال ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقٍّ أَخِيهِ وَأَرَى أَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ، وَأَنَّهُ لا يَرَى أَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ فَإِنَّما أَقْضِي لَهُ بِقِطْعَةٍ مِنَ النَّارِ**» فنزلت الآية فيهما وصارت عامة لجميع الناس".

النحو والصرف والبلاغة[2]

- «**إلا**» أداة استثناء، والمصدر المؤول مستثنى منقطع. والجار «**منكم**» متعلق بنعت لـ «**تراض**» وجملة «**إن الله كان بكم رحيما**» مستأنفة.

- «**تراض**» مصدر قياسي لفعل تراضى الخماسي، وفيه إعلال بالحذف لمناسبة التنوين، وزنه تفاعل، على وزن الماضي بقلب الألف ياء وكسر ما قبلها.

- **المجازر المرسل: في قوله تعالى:**﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ أي لا تأخذوا أموالكم بالحرام كالربا والميسر ونحو ذلك فعبّر بالأكل لأنه مسبب عن الأخذ، فالعلاقة المسببية.

---

(١) بحر العلوم حـ 1 صـ 152.

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. الجدول في إعراب القرآن.

القراءات[1]

(**تِجَارَةً**) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بالنصب، أي إلا أن تكون المداينة **تِجَارَةً**، والباقون برفعها، بمعنى الحدوث والوقوع أي إلا أن تقع **تِجَارَةٌ**.

المناسبة في السياق[2]

لما بين تعالى كيفية التصرف في النفوس بسبب النكاح، ذكر بعده كيفية التصرف في الأموال، وبما أن ذكر ابتغاء النكاح بالأموال، وأمر بإيفاء المهور، وأحكام المواريث التي تقدمت تتعلق بالأموال، بين بعد لك كيف يحصل التصرف بالأموال.

---

(١) الشاطبية. والبدور الزاهرة. حجة القراءات - ابن زنجلة.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن.

النداء الحادي والعشرون

لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣].

بين يدي النداء

[كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصلية الشاملة؛ وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع. كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً، الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته؛ وللمجتمع الفارسي أيضاً. وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته! والشأن أيضاً كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى!

في السويد - وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة - كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها. وكان متوسط ما يستهلكه الفرد، حوالي عشرين لتراً. وأحست الحكومة خطورة هذه الحال، وما ينشره من إدمان؛ فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور، وتحديد الاستهلاك الفردي، ومنع شرب الخمور في المحال العامة، ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة، حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب «النبيذ والبيرة» فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف!

أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت

قانوناً في سنة ١٩١٩ سمي قانون «الجفاف»! من باب التهكم عليه، لأنه يمنع «الري» بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣. وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات. وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة. وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن٢٥٠ مليون جنيه وقد أعدم فيها نفس ٣٠٠ وسجن كذلك ٥٣٢٣٣٥ نفسا وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببضع آيات من القرآن وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية وفي علاج المجتمع الإنساني بين منهج الله ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء ولكي ندرك تغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي؛ حيث نجد الخمر عنصرا أساسيا من عناصر المادة الأدبية؛ كما أنه عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفة لبيع الخمر يقول لبيد:

قـد بـت سـامرها وغايـة تـاجر = وافيـت إذ رفعـت وعـز مـدامها

ووصف مجالس الشراب والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلي وتطبعه طابعا ظاهرا ..

يقول طرفة بن العبد:

فلـولا ثـلاث هـن مـن عيشـة الفتـى = وجـدك لم أحفـل متـى قـام عـودي

فمـنهن سـبقي العـاذلات بشـربة = كميـت متـى مـا تعـل بالمـاء تزبـد

ومـا زال تشـرابي الخمـور ولـذتي = وبـذلي وإنفـاقي طريفـي وتالـدي

إلى أن تحـامتني العشـيرة كلـها = وأفـردت إفـراد الـبعير المعبـد

ويقول المنخل اليشكري:

ولقــــد شـــــربت مــــن المدامــــة = بالصــــــــــغير وبـــــــــــالكبير

فـــــــإذا ســــــــكرت فــــــإنني = رب الخورنـــــــــق والســـــــــدير

وإذا صـــــــــحوت فـــــــــإنني = رب الشـــــــــويهة والـــــــــبعير

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث وفيهم عمر وعلي وحمزة وعبدالرحمن بن عوف وأمثال هذا الطراز من الرجال تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية وتكفي عن الوصف المطول المفصل يقول عمر رضي الله عنه في قصة إسلامه في رواية كنت صاحب خمر في الجاهلية فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب وظل عمر يشرب الخمر في الإسلام حتى إذا نزلت آية يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما قال اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر. واستمر.. حتى إذا نزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ . قال: اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر! حتى إذا نزلت آية التحريم الصريحة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ..... فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾. قال: انتهينا انتهينا! وانتهى.

ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات؛ لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي. فهي كانت والميسر، الظاهرتين البارزتين؛ المتداخلتين، في تقاليد هذا المجتمع.

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة، التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبداً؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصيلة قديمة، تتعلق بها تقاليد اجتماعية؛ كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟

لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن؛ وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة. وكسب المعركة. دون حرب. ودون تضحيات. ودون إراقة دماء. والذي أريق

فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين - حين سمعوا آية التحريم - فمجوها من أفواهم. ولم يبلعوها. كما سيجيء!

في مكة - حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان. إلا سلطان القرآن - وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر. تدرك من ثنايا العبارة. وهي مجرد إشارة:

جاء في سورة النحل: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾. فوضع «السكر» وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب، وفي مقابل الرزق الحسن! ملمحا بهذا التقابل إلى أن السكر شيء. والرزق «الحسن» شيء آخر. وكانت مجرد لمسة من بعيد؛ للضمير المسلم الوليد!

ولكن عادة الشراب، أو تقليد الشراب - بمعنى أدق - فقد كان أعمق من عادة فردية. كان تقليداً اجتماعياً، له جذور اقتصادية.. كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة..

وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان.. لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان. إنما كان أولاً سلطان القرآن..

وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر، وفي خبرة بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية.

بدأ بآية البقرة رداً على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ...﴾ وكانت هي الطرقة الأولى، ذات الصوت المسموع.. في الحس الإسلامي، وفي الضمير الإسلامي، وفي المنطق الفقهي الإسلامي، فمدار الحل والحرمة، أو الكراهية، على رجحان الإثم أو رجحان الخير، في أمر من الأمور، وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما، فهذا مفرق الطريق..

ولكن الأمر كان أعمق من هذا، وقال عمر - رضي الله عنه - : «**اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر** ».. عمر!!! وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي!

ثم حدثت أحداث - كالتي رويناها - ونزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ . وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل.

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة، بين التنفير من الخمر، لأن إثمها أكبر من نفعها، وبين التحريم البات، لأنها رجس من عمل الشيطان. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة: هي «قطع عادة الشراب» أو «كسر الإدمان».. وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة. وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار. وبينها فترات لا تكفي للشراب - الذي يرضي المدمنين - ثم الإفاقة من السكر الغليظ! حتى يعلموا ما يقولون! فضلاً على أن للشراب كذلك أوقاتاً ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق، صباحاً ومساء. وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة. وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة.

ومع ذلك. فقد قال عمر رضي الله عنه - وهو عمر! - «**اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر**».

ثم مضى الزمن. ووقعت الأحداث. وجاء الوعد المناسب - وفق ترتيب المنهج - للضربة الحاسمة.

فنزلت الآيتان في المائدة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ..... فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ؟﴾ وانتهى المسلمون كافة. وأريقت زقاق الخمر، وكسرت دنانها في كل مكان. بمجرد سماع الأمر. ومج الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم - حين سمعوا ولم يبلعوها وهي في أفواههم. وهم شاربون.

لقد انتصر القرآن. وأفلح المنهج. وفرض سلطانه - دون أن يستخدم السلطان!!!

ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة، التي لا نظير لها في تاريخ البشر؛ ولا

مثيل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان، ولا في أي زمان؟

لقد تمت المعجزة، لأن المنهج الرباني، أخذ النفس الإنسانية، بطريقته الخاصة.. أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله - سبحانه - فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان. أخذها جملة لا تفاريق. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة.

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر، وخيالات السكر، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء، في الهواء، ملأ فراغها باهتمامات. منها: نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها، من تيه الجاهلية الأجرد، وهجيرها المتلظي، وظلامها الدامس، وعبوديتها المذلة، وضيقها الخانق، إلى رياض الإسلام البديعة، وظلاله الندية، ونوره الوضيء، وحريته الكريمة، وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة! وملأ فراغها - وهذا هو الأهم - بالإيمان. بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل البهيج. فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر، تحلق بها في خيالات كاذبة وسمادير! وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضيء.. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله، وتذوق طعم هذا القرب، فتمج طعم الخمر ونشوتها؛ وترفض خمارها وصداعها؛ وتستقذر لوثتها وخمودها في النهاية!

إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية؛ وفتحها بمفتاحها، الذي لا تفتح بغيره؛ وتمشى في حناياها وأوصالها؛ وفي مسالكها ودروبها، ينشر النور، والحياة، والنظافة، والطهر، واليقظة، والهمة، والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير، والخلافة في الأرض، على أصولها، التي قررها العليم الخبير، وعلى عهد الله وشرطه، وعلى هدى ونور.

إن الخمر - كالميسر. كبقية الملاهي. كالجنون بما يسمونه «الألعاب الرياضية» والإسراف في الاهتمام بمشاهدها، كالجنون بالسرعة، كالجنون بالسينما، كالجنون «بالمودات» «والتقاليع»، كالجنون بمصارعة الثيران، كالجنون ببقية التفاهات التي تغشى حياة القطعان البشرية في الجاهلية الحديثة اليوم، جاهلية الحضارة الصناعية!

إن هذه كلها ليست إلا تعبيراً عن الخواء الروحي.. من الإيمان أولاً.. ومن

الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانياً، وليست إلا إعلاناً عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية.. ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ، كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا. وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى «الجنون» المعروف، وإلى المرض النفسي والعصبي، وإلى الشذوذ.

إنها لم تكن كلمات. هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة. إنما كان منهج. منهج هذه الكلمات متنه وأصله. منهج من صنع رب الناس. لا من صنع الناس! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج، لا تؤدي إلى كثير!

إنه ليست المسألة أن يقال كلام! فالكلام كثير. وقد يكتب فلان من الفلاسفة. أو فلان من الشعراء. أو فلان من المفكرين. أو فلان من السلاطين! قد يكتب كلاماً منمقاً جميلاً يبدو أنه يؤلف منهجاً، أو مذهباً، أو فلسفة.. الخ. ولكن ضمائر الناس تتلقاه، بلا سلطان. لأنه «ما أنزل الله به من سلطان»! فمصدر الكلمة هو الذي يمنحها السلطان، وذلك فوق ما في طبيعة المنهج البشري ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور!

فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج، غير منهج العليم الخبير؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير؟ متى؟ متى ينتهون عن هذا الغرور؟؟؟[1]]

هداية وتدبر[2]

1. حرمة الصلاة حال السكر من الخمر وغيره، وذلك قبل تحريم الخمر تحريماً باتاً قاطعاً، فقد كان شرب المسكر مباحاً في أول الإسلام حتى ينتهي بصاحبه إلى

(١) في ظلال القرآن.

(٢) تفسير المنار. زهرة التفاسير. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

السكر.

2. السبب في تحريم المسكر في الصلاة هو إدراك معاني التلاوة والأدعية والأذكار الموجودة في الصلاة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي حتى تعلموه متيقنين فيه من غير غلط، والسكران لا يعلم ما يقول.
3. حرمة مكث[1] الجنب في المسجد، وجواز العبور والاجتياز بدون مكث.
4. وجوب الغسل على الجنب وهو من قامت به جنابة بأن احتلم فرأى الماء، أو جامع أهله ولو لم ينزل ماء[2].
5. إذا لم يجد المرء التراب لمطر ونحوه تيمم بكل أجزاء الأرض[3] من رمل وسبخة وحجارة والتيمم هو أن يضرب بكفه الأرض ثم يمسح وجهه وكفيه بهما لحديث عمار رضي الله عنه في الصحيح.
6. ذكر المفسرون في معنى لا تقربوا الصلاة تأويلين: **أحدهما:** أن المعنى لا تقوموا بها، أو لا تغشوها واجتنبوها وأنتم سكارى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ الإسراء، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾.
والثانى: أن معنى قرب الصلاة قرب مواضعها، أى لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى، وإذا كان النهى عن قرب الموضع قائماً، فهو بلا ريب متضمن النهى عن

---

(١) يحرم قراءة القرآن على الجنب لحديث ابن ماجة وغيره: "لا يقرأ الجنب والحائض شيئاً من القرآن"، وحديث الدارقطني: "كان رسول الله ﷺ لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جنباً". (أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير).

(٢) في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إذا قعد بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب عليه الغسل» زاد مسلم: «وإن لم ينزل».

(٣) الإجماع على جواز التيمم بالتراب المنبت الطاهر غير المنقول ولا المغصوب. والإجماع على عدم الجواز على الذهب والفضة والياقوت والزمرد والأطعمة؛ كالخبز واللحم وغيرهما. وكذا النجاسات واختلف فيه غير ما ذكر؛ كالحجارة والسبخة والرمل وما إلى ذلك. (أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير).

الفعل نفسه، فهذا التأويل يزيد المعنى فيه عن الأول بالنهي عن دخول السكران المسجد حتى يستفيق، وفى ذلك احترام للمسجد وتكريم لبيوت أذن الله تعالى أن يرفع ذكره فيها.

7. النهى هنا نهى عن الصلاة في حال السكر؟ لأن ذلك يتنافى مع الخشوع والقصد وإخلاص النية في كل جزء من أجزائها لله تعالى. وقد حد النهى بنهاية معينة، وهى الاستفاقة وفهم ما يقول، ولذا قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي حتى تقصدوا قصداً حقيقياً بنية خالصة، عالمين موقفكم من الله تعالى، وعالمين بما يشير إليه لفظ التكبير، ولفظ التسبيح، ومعاني الفاتحة التي هي دعاء القرآن وضراعة المؤمن لربه، ومعاني الآيات التي تتلى في الصلاة، فهذا هو ما يقال في الصلاة.

8. قد يقال: كيف يخاطب السكران بهذا النهى؟ والجواب عن ذلك أنه خطاب له وهو في وعيه بحيث يعمل على تجنب السكر في وقت الصلاة، ولا قرب وقتها، "فكان النهى يتضمن" الأمر بتجنب الشرب في "أوقات الصلاة" وما قبلها، بحيث يتحرى ألا يجيء وقت الصلاة إلا وهو مدرك إدراكاً تاماً. يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ فإن هذا التعبير يفيد النهى عن القرب من الصلاة وهم بهذه الحال، فهو يفيد النهى عن السكر قبلها، حتى يكون صاحياً وقتها.

....

المعاني المفردة[1]

لَا تَقۡرَبُواْ: لا تدنوا كناية عن الدخول فيها، أو لا تدنوا من مساجدها.

جُنُباً: من أصابته الجنابة بالجماع أو إنزال المني.

عَابِرِي سَبِيلٍ: مجتازي طريق أي مسافرين.

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

الْغَآئِطِ: المكان المنخفض من الأرض كالوادي، والمراد المكان المعد لقضاء الحاجة، وأهل البادية وبعض القرى يقضون حوائجهم في المنخفضات للستر عن أعين الناس.

لاَمَسْتُمُ النِّسَاء: كناية عن الجماع.

فَتَيَمَّمُواْ: اقصدوا.

صَعِيداً: طَيِّباً ترابا طاهراً. والصعيد: وجه الأرض.

عَفُوّاً: ذا عفو وهو محو السيئة وجعلها كأن لم تكن.

غَفُوراً: ذا مغفرة، والمغفرة: ستر الذنب بعدم الحساب عليه.

سبب النزول[1]

- نزول آية: لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ: روى أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني فقرأت: «قل: يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل اللّه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾. وروى ابن جرير عن علي أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن، وأن الصلاة صلاة المغرب، وكان ذلك قبل أن تحرّم الخمر.

- نزول: فَتَيَمَّمُوا: روى البخاري ومسلم من حديث مالك عن عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول اللّه ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء .. فأنزل اللّه آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. وفي رواية: يرحمك اللّه يا عائشة، ما نزل بك أمر تكرهينه

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

إلا وجعل اللّه فيه للمسلمين فرجا. قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته[1].

النحو والصرف والبلاغة[2]

جملة **«وأنتم سكارى»** حال، وقوله **«ولا جنبا»** حال مفردة معطوفة على جملة **«وأنتم سكارى»** وجملة **«وإن كنتم مرضى»** معطوفة على جملة **"لا تقربوا»** لا محل لها. وقوله **«إلا عابري»** **«إلاّ»** للحصر، و **«عابري»** حال منصوبة بالياء. والجار **«على سفر»** متعلق بمحذوف معطوف على خبر كان **«مرضى»**. **«صعيداً»** مفعول به على تضمين الفعل معنى اقصدوا.

- **«سكارى»** جمع سكران زنة فعلان بفتح الفاء، صفة مشبهة من سكر يسكر باب فرح، و **«سكارى»** بضم السين وقد تفتح. **«جنبا»** اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب، فهو لفظ يطلق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ... وبعضهم جمعه جمعا مذكرا سالما، قال قوم جنبون، وجمع تكسير فقالوا قوم أجناب، وفي تثنيته قالوا جنبان. **«عابري»** جمع عابر، اسم فاعل من عبر يعبر باب نصر وزنه فاعل. **«الغائط»** على لفظ اسم الفاعل وليس بذاك، فعله غاط يغوط باب نصر، فهو اسم جامد لمكان أو شيء. «صعيدا» اسم جامد بمعنى التراب. **«عفوا»** صفة مشبهة من عفا يعفو باب نصر، وزنه فعول، أدغمت لام الكلمة مع واو فعول.

- **الكناية:** في قوله تعالى ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ المجيء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليواري شخصه عن أعين الناس، وإسناد المجيء منه إلى واحد مبهم من المخاطبين دونهم للتفادي عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به. **والكناية:** في قوله تعالى ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾. يريد سبحانه أو

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٨٧- ٨٨.

(٢) الجدول في إعراب القرآن.

جامعتم النساء إلا أنه كنى بالملامسة عن الجماع لأنّه مما يستهجن التصريح به أو يستحي منه.

القراءات[1]

«**أولاَمَسْتُمُ**» قرأ حمزة والكسائي وخلف بحذف الألف التى بين اللام والميم «**أولَمَسْتُمُ**»، جعلوا الفعل للرجال دون النساء وحجتهما أن اللمس ما دون الجماع كالقبلة والغمزة عن ابن عمر اللمس ما دون الجماع أراد اللمس باليد وهذا مذهب ابن مسعود وسعيد بن جبير وإبراهيم والزهري. والباقون بإثباتها «**لاَمَسْتُمُ**»، أي جامعتم والملامسة لا تكون إلا من اثنين الرجل يلامس المرأة والمرأة تلامس الرجل وحجتهم ما روي في التفسير قال علي بن ابي طالب صلوات الله عليه قوله لامستم النساء أي جامعتم ولكن الله يكني وعن ابن عباس أولامستم قال هو الغشيان والجماع وقال إن الله كريم يكني عن الرفث والملامسة والمباشرة والتغشي والإفضاء وهو الجماع ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم.

المناسبة في السياق

قال البقاعي في نظم الدرر: ولما وصف الوقوف بين يديه في يوم العرض، والأهوال الذي أدت فيه سطوة الكبرياء والجلال إلى تمني العدم، ومنعت فيه قوة يد القهر والجبر أن يكتم حديثًا، وتضمن وصفه أنه لا ينجو فيه إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به، والطاعة لرسوله ـ ﷺ ـ وصف الوقوف بين يديه في الدنيا في مقام الأنس وحضرة القدس المنجي من هول الموقف في ذلك اليوم، والذِي حظرت معاني اللطف والجمال فيه الالتفات إلى غيره، وأمر بالطهارة في حال التزين به عن الخبائث.

---

(١) حجة القراءات – ابن زنجلة. والبدور الزاهرة.

النداء الثاني والعشرون

الحاكمية.. أخص خصائص الألوهية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

بين يدي النداء

إن الإسلام هو طاعة الله ورسوله - ﷺ-، إذ هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والإذعان، وهو ثمرة الإيمان وبرهان صدقه، فلا إيمان بدون طاعة وانقياد لله ورسوله قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾.

فدعوى الإسلام والنطق بالاعتراف به، والإيمان به بدون تحقيق الطاعة؛ هي مجرد دعوى مقالية لا تنبئ عن صدق فيها، وهي مظهر النفاق وصفة المنافقين الذين قال - تعالى- عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، ثم قال - تعالى- مبيناً ما يجب أن يكون عليه المؤمنون: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

كما هي صفة من ذمهم الله من بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ

فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فتأمل كيف ذم الله هذا الإيمان الذي لم يثمر الطاعة ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي لو كنتم مؤمنين ما أثمر إلا الطاعة والانقياد، وكذا قال بعض السلف: "الإيمان ما وقر في القلب، وصدقه العمل"، وذم النبي - ﷺ- أقواماً يأتون في أواخر الزمان هذه صفتهم قال رسول الله - ﷺ-: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**.

فهناك صنفان: صنف هم حواريون وأصحاب الأنبياء، صادقون في أقوالهم وأعمالهم.

وصنف بعكسهم أمر النبي - ﷺ- بمجاهدتهم، وربط هذا الجهاد بالإيمان، وإلا فلا إيمان ولو مثل حبة خردل.

فليحذر المسلم من ترك الطاعة، والامتثال لأمر الله ورسوله، والإعراض عن حكمه، أو الاعتراض على شرعه، فإن ذلك يدل على النفاق، وخلو القلب من الإيمان.

وعليه فكل الدعوات أو المذاهب أو المناهج العملية التي ترفض حكم الله ورسوله، وتأبى الالتزام به في حياة الفرد والجماعة هي دعوة ومناهج خارجة عن الإسلام، بأي اسم تسمت، وبأي شعار تذرعت، ولو زعمت بلسانها، أو كتبت في دساتيرها، أو تشريعاتها، أو برامجها؛ أنها تدين بالإسلام، وتؤمن به، إذ دعوة المقال اللساني والكتابي حاصلة من كل منافق، ومدار الصدق مطابقة القول العمل قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فتأمل التعقيب في الآية الثانية

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لقد أساءوا العمل وهم يزعمون الإيمان، فدل على عدم صدقهم في دعوى الإيمان.

وقال - تعالى- مبيناً حقيقة الصدق في الإيمان وأنه مطابقة القول للعمل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، قال عبد الرحمن السعدي في تفسيره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ "أي الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يُدَّعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك هو دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة".

هداية وتدبُّر[1]

١. في هذا النص القصير يبين الله - سبحانه - شرط الإيمان وحدَّ الإسلام. في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة؛ وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده؛ والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً، من جزيئات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال؛ مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام!

٢. إن «الحاكمية» لله وحده في حياة البشر - ما جل منها وما دق، وما كبر منها وما صغر - والله قد سن شريعة أودعها قرآنه. وأرسل بها رسولاً يبينها للناس. ولا ينطق عن الهوى. فسنته - ﷺ- من ثم شريعة من شريعة الله.

---

(١) توفيق الرحمن. تفسير المنار. صفوة التفاسير. محاسن التأويل. محاسن التأويل. نيل المرام شرح آيات الأحكام. في ظلال القرآن.

3. والله واجب الطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشريعته واجبة التنفيذ. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله – ابتداء – وأن يطيعوا الرسول – بما له من هذه الصفة. صفة الرسالة من الله – فطاعته إذن من طاعة الله، الذي أرسله بهذه الشريعة، وببيانها للناس في سنته.. وسنته وقضاؤه – على هذا – جزء من الشريعة واجب النفاذ.. والإيمان يتعلق – وجوداً وعدماً – بهذه الطاعة وهذا التنفيذ – بنص القرآن: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ ..

4. أما أولو الأمر؛ فالنص يعين من هم. ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ ..مِنكُمۡۖ ..﴾ أي من المؤمنين.. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية.. من طاعة الله وطاعة الرسول؛ وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء؛ والتلقي منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص؛ لتطبيق المبادىء العامة في النصوص عليه.

٥. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، وإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا.

٦. إطاعة الله هي الأخذ بكتابه كله، وفيه ما رأيت من النهي عن الاختلاف والتفرق في الدين. وإطاعة رسوله بعد وفاته هي الأخذ بسنته، وإطاعة أولي الأمر هي العمل بما يتفق أهل الحل والعقد وأولو الشأن من علمائنا ورؤسائنا بعد المشاورة بينهم في أمر اجتهادي، على أنه هو الأصلح لنا الذي يستقيم به أمرنا، فإن وقع التنازع والاختلاف وجب رده إلى الله ورسوله، وتحكيم الكتاب والسنة فيه، ولا يجوز أن يتمادى المسلمون على التفرق والاختلاف بحال.. هذا حكم الله الذي أبطله التقليد بما جعل بين المسلمين وبين الكتاب والسنة واجتماع رأي أولي الأمر والشأن من الحجب حتى صار به المسلمون شيعًا في أمر الدين، هذا خارجي وهذا شيعي، وهذا كذا وهذا كذا، وشيعًا في أمر الدنيا، هذا يتبع سلطانه ويحارب لأجل

هواه جماعة المسلمين، وهذا يتبع سلطانًا يعصي في طاعته نصوص الدين، وقد أفضى الخلاف إلى غاية هي شر الغايات، وخاتمة هي سوأى الخواتم.

٧. أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وفي قوله ﴿مِنكُمْ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم، يجب أن يكونوا مسلمين حساً ومعنيً، لحماً ودماً، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً.

٨. وقال الزمخشريّ: المراد بأولي الأمر منكم، أمراء الحق، لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان، وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وفي الصحيحين عن علي - رَضِي اللّهُ عَنْهُ - عن رسول الله ﷺ قال: **"إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"**. وروى الإمام أحمد عن عِمْرَان بن حصين عن النبي ﷺ قال: **"لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ الله"**.

٩. ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ قال أبو هريرة: هم الأمراء. وقال ابن عباس: يعني: أهل الفقه والدين. وقال ابن كثير: والظاهر والله أعلم: أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء. وعن النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: **«من أطاعني فقد أطاع اللّه، ومن عصاني فقد عصى اللّه، ومن يطع أميري فقد أطاعني، ومن يعص أميري فقد عصاني»**.

١٠. **لطيفة: قال الحافظ ابن حجر في "الفتح"**: النكتة في إعادة العامل في الرسول دون أولي الأمر، مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى - كون الذي يعرف به ما يقع به التكليف هما القرآن والسنة، فكان التقدير: وأطيعوا الله فيما قضى عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن وما ينصه عليكم من السنة،

والمعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن. ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بني أمية، لما قال له: أليس الله أمركم أن تطيعونا في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾؟ فقال له: أليس قد نزعت عنكم، يعني الطاعة، إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ؟. قال الطيبي: أعاد الفعل في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يعده في أولي الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته، ثم بين ذلك بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، كأنه قيل فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعونهم وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله.

١١. **ومن أحكام الآية:**

أ. **حجية السنة**: ووجوب اتباعها، بما في ذلك خبر الواحد لأن النص لم يفرق بين آحاد ومتواتر، ومن المعلوم أن معظم السنة آحاد ولا يشكل المتواتر إلا النزر اليسير، فرد السنة جملة أو الآحاد هو رد للشرع والدين برمته، ولهذا جاء الأمر الإلهي بطاعته وكرر لفظ الطاعة مع رسوله.

ب. **طاعة ولي الأمر هل تشمل المباح؟ قيل**: إنه لا يجب طاعتهم فيه، لأنه لا يجوز لأحد أن يحرم ما حلله الله تعالى ولا أن يحلل ما حرمه الله تعالى. وقيل: تجب أيضاً. وقيل يجب طاعة الإمام في أمره ونهيه ما لم يأمر بمحرم.

ج. **إثبات القياس** بل هي متضمنة لجميع الأدلة الشرعية فإن المراد بإطاعة الله العمل بالكتاب وبإطاعة الرسول العمل بالسنة وبالرد إليهما القياس أن رد المختلف فيه الغير المعلوم من النص إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وليس القياس شيئا وراء ذلك وقد علم من قوله سبحانه: إن تنازعتم أنه عند عدم النزاع يعمل بما اتفق عليه وهو الإجماع.

١٢. أخرج مسلم من حديث أم الحصين **«ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا وأطيعوا»** ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ . إلى النصوص أولاً، فإن لم توجد النصوص، فإلى المبادئ الكلية العامة والمقاصد الشرعية الثابتة التي تغطي كل جوانب الحياة الرئيسية، وفي ذلك احترام للعقل ومنحه مكاناً للعمل وهي مهمة العلماء العاملين والفقهاء المجتهدين.

....

المعاني المفردة(١)

أَطِيعُواْ: طاع له يَطُوعُ ويَطاعُ: انْقادَ "غير مكره".

تَنَازَعْتُمْ: التنازع التخاصُمُ. وتنازع القومُ: اخْتَصَمُوا. والمُنازَعةُ في الخُصومةِ: مُجاذَبةُ الحُجَجِ فيما يَتنازَعُ فيه الخَصْمانِ.

تَأْوِيلاً: سئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأْويل فقال : التأْويل والمعنى والتفسير واحد. قال أَبو منصور: يقال أُلْتُ الشيءَ أَؤُوله إِذا جمعته وأَصلحته، فكان التأْويل جمع معاني أَلفاظ أَشكَلَت بلفظ واضح لا إِشكال فيه.

سبب النزول(٢)

عن ابن عباس قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، بعثه رسول الله ﷺ في سرية. وقال ابن عباس في رواية، بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في سرية إلى حي من أحياء العرب، وكان معه عمار بن ياسر، فسار خالد حتى إذا دنا من القوم عرس لكي يصبحهم، فأتاهم النذير، فهربوا عن رجل قد كان أسلم، فأمر أهله أن يتأهبوا للمسير، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد ودخل على عمار فقال: يا أبا اليقظان إني منكم، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا، وأقمت لإسلامي، أفنافعي ذلك، أو أهرب كما

---

(١) لسان العرب. القاموس المحيط.

(٢) أسباب نزول الآيات: الواحدي النيسابوري.

هرب قومي؟ فقال: أقم فإن ذلك نافعك، وانصرف الرجل إلى أهله، وأمرهم بالمقام وأصبح خالد فغار على القوم، فلم يجد غير ذلك الرجل، فأخذه وأخذ ماله، فأتاه عمار فقال: خل سبيل الرجل فإنه مسلم، وقد كنت أمنته وأمرته بالمقام، فقال خالد: أنت تجير علي وأنا الامير؟ فقال: نعم أنا أجير عليك وأنت الامير، فكان في ذلك بينهما كلام، فانصرفوا إلى النبي ﷺ، فأخبروه خبر الرجل، فأمنه النبي ﷺ، وأجاز أمان عمار ونهاه أن يجيز (يجير) بعد ذلك على أمير بغير إذنه، قال: واستب عمار وخالد بين يدي رسول الله ﷺ فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد وقال: يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمني، فوالله لولا أنت ما شتمني، وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال ﷺ يا خالد كف عن عمار فإنه من يسب عماراً يسبه الله، ومن يبغض عماراً يبغضه الله، فقام عمار فتبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه، فرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بطاعة أولي الأمر.

الإعراب[1]

- جملة «**أطيعوا**» جواب النداء مستأنفة. وجملة «**فإن تنازعتم**» معطوفة على جملة «**أطيعوا**» لا محل لها. وجملة «**إن كنتم**» مستأنفة لا محل لها. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله. «**ذَلِكَ خَيْرٌ**» ابتداء وخبر. «**أَحْسَنُ**» عطف على خير «**تَأْوِيلاً**» على البيان.

- «**خير، أحسن**» قد يكونان اسمي تفضيل والمفضل عليه محذوف، وقد يكونان صفتين خالصتين من غير تفضيل أي خير وحسن. وخير وأحسن على المعنى الأول وزنهما أفعل بحذف الهمزة من كلمة خير لكثرة الاستعمال، وخير وحسن وزنهما فعل بفتح فسكون، وفعل بفتحتين على التوالي.

المناسبة في السياق

قال البقاعي: ولما أمر سبحانه بالعدل ورغب فيه، ورهب من تركه؛ أمر بطاعة المتنصبين لذلك الحاملة لهم على الرفق بهم والشفقة عليهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس. ومشكل إعراب القرآن للمسكي.

النداء الثالث والعشرون

خذوا حذركم فانفروا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: 71].

بين يدي النداء

إنها انطلاقة جديدة للدعوة إلى إطاعة الله والرسول، في خط الجهاد الذي فرضه على الأمة، لتكون قادرةً على مواجهة التحديات من مواقع القوة، لأن أية أمة تريد الوقوف على قدميها، لا بد لها من قاعدة فكرية تواجه بها الفكر المنحرف الضال، ومن قاعدةٍ للقوّة تواجه بها الفئات المنحرفة الضالة، لتستمر في رسالتها على مدى الزمن. ولهذا جاء النداء للمؤمنين ليأخذوا حذرهم من كل التحديات المحتملة المحيطة بهم، فهناك أكثر من عدو يتربّص بهم، سواء كان من أهل الكتاب أو المشركين، وهناك أكثر من جهة تعبث بأمنهم، سواء في ذلك المنافقون وغيرهم. فلا بد لهم من مواجهة ذلك كله بالاستعداد، فإذا جاء وقت النفر إلى الجهاد، فعليهم أن ينفروا متفرّقين أو مجتمعين، حسب الخطة الموضوعة للنفر في نطاق المصلحة العليا للإسلام والمسلمين؛ فقد تكون المصلحة أن يخرجوا فرقة فرقة، وهو ما يسمى بنظام السرايا، وقد تكون المصلحة أن يخرجوا جميعاً وهو ما يسمى بنظام العسكر.

هداية وتدبر[١]

1. ما أبعد الأمة المسلمة اليوم عن هذا النداء الرباني وهم يُضربون ليل نهار وتُحتل أرضهم كما في فلسطين والعراق والأفغان وباكستان والشيشان.. بل إن من يدعو لذلك يوسم بالإرهاب ويطارد في بلاد المسلمين قبل بلاد الكفار.
2. إن القرآن العظيم لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب؛ ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب - كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين! إنما

(١)في ظلال القرآن. القرطبي. زهرة التفاسير. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. أحكام القرآن لابن العربي.

هو يأخذ حياتهم كلها جملة. ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية.. ومن ثم يطلب - بحق - الوصاية التامة على الحياة البشرية؛ ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج، وتحت تصرفه وتوجيهه.

٣. وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة؛ المناسبة لموقفهم حينذاك. ولوجودهم بين العداوات الكثيرة في الخارج. والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل. وهو يحذرهم ابتداء: خذو حذركم من عدوكم جميعاً. وبخاصة المندسين في الصفوف من المبطئين.

4. قَال ﷺ يوم الْفتحِ **«لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»**(١).

5. إن الحذر يدفع ويمنع من مكائد الأعداء، ولو لم يكن كذلك ما كان للأمر بالحذر معنى.

6. ذكر الشيخ محمد عبده: "أن مِن أَخْذ الحذر تعرُّف حال البلاد الإسلامية، وتعرُّف حال بلاد الأعداء، أو من يتوقع منهم الاعتداء، وتعرف بلاد المعاهدين وغيرهم، بحيث إذا اضطروا إلى الحرب كانوا عالمين بمواطن قوتها وأماكن ضعفها". وذكر "أنه يدخل في الاستعداد وأخذ الحذر، واتقاء كل مخوف معرفة الأسلحة واستعمالها فإذا كان ذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجر الأثقال، فإنه يجب تحصيل ذلك". ولقد قال الإمام هذا في أول هذا القرن الذي يعيش فيه، وهو ألزم في هذا العصر.

7. تحذير الله تعالى لنبيه إذا جنحوا للسلم، فلا تغمد السيوف في أجفانها، ولا يسترخون، ويسكنون فإن المشركين إن جنحوا للسلم مدة، وجنح المسلمون استجابة للسلام يكونون على حذر دائم، فعساهم يأخذون المسلمين على غرة فيجب أن يكون المسلمون على استعداد دائم يستجيبون لكل هيعة.

---

(١) حديث 2862 - الجهاد - صحيح البخاري .

٨. الأمر بأخذ الحذر والحيطة لا ينافي التوكل، فإن قوماً فهموا هذا الباب على غير وجهه، ففهموا أن التوكل ينافي الأخذ بالأسباب، ولذلك قال الرسول ﷺ في بعض الأحاديث في البخاري وغيره: (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، فجاء سعد بن أبي وقاص وسمع لمجيئه صوت السلاح، قال: جئت أحرسك يا رسول الله).. والأسانيد الثابتة إلى عمرأنه كان يتخذ الحجبة والبوابين، ففي الصحيح أن عمر كان في مجلسه وله غلام يقال له: يرفأ، فقال: يا أمير المؤمنين هذا عثمان يستأذن عليك، قال: فأذن له، ثم قال: هذا عبد الرحمن بن عوف يستأذن عليك، قال: فأذن له.. وأيضاً أراد عيينة بن حصن الفزاري أن يدخل على عمر فلم يستطع، فقال لابن أخيه الحر بن قيس: يا ابن أخي! إن لك وجاهة عند هذا الأمير فاستأذن لي في الدخول عليه، فاستأذن الحر بن قيس لعمه عيينة بن حصن الفزاري في الدخول على عمر.. وأيضاً علي بن أبي طالب رضي الله عنه، جاءه آتٍ فقال: يستأذن عليك ابن جرموز قاتل الزبير بن العوام فقال: ائذن له وبشره بالنار، فالشاهد في قوله: يستأذن عليك فلان.

٩. أمر الله سبحانه المؤمنين ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم؛ فذلك أثبت للنفوس، وهذا معلوم بالتجربة. وأمر الله سبحانه الناس بالجهاد سرايا متفرقة أو مجتمعين على الأمير، فإن خرجت السرايا فلا تخرج إلا بإذن الإمام؛ ليكون متحسسا إليهم وعضدا من ورائهم، وربما احتاجوا إلى درئه.

١٠. إن الطبيعة العدوانية لليهود تجعلهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل نشر الفساد والمخدرات؛ وذلك لإرضاء حقدهم؛ وَحَرْفِ الناس عن دينهم وأخلاقهم، تمهيداً لإسقاطهم وسحقهم. من أجل ذلك نرى أنهم يستعينون بالعملاء لنشر ثقافة الفساد، ونشر المخدرات، وشرب الخمور، وارتكاب الفواحش، وبث الفكر الإباحي، وتسفيه القيم الدينية، وتقديس القيم الغربية.

....

المعاني المفردة

حِذْرَكُمْ: أخذ حِذْره إذا تيقظ واحترس. ومعنى خذوا حذركم، أي خذوا ما فيه الاحتياط لكم، ودفع كل مخوف عنكم.

فَانفِرُواْ: أجيبوا الطلب للجهاد.

ثُبَاتٍ: ثُباتٍ. جمع ثُبة: أي مجموعة. قال ابن عباس فانفروا ثبات أي عصبا سرايا متفرقين. ويقال في تصغير ثبة الجماعة ثُبَيّةٌ.

النحو والصرف والبلاغة[1]

- جملة «**خُذُواْ**» جواب النداء مستأنفة. «**ثُبَاتٍ**» حال منصوبة بالكسرة، لأنها جمع مؤنث سالم. و «**جَمِيعاً**» حال منصوبة.

- «**حذركم**» مصدر سماعي للفعل حذر وزنه فعل بكسر فسكون، «**ثبات**» جمع ثبة، اسم جمع قيل هو فوق العشرة أو فوق الاثنين، وزنه فعة بضم الفاء وحذفة لام الكلمة والغالب هو الواو لأن الفعل ثبا يثبو، وبعضهم يقول هو الياء لأنها من فعل ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه.. ويجمع بالألف والتاء- كما في الآية- وبالواو والنون.

- «**خُذُوا حِذْرَكُمْ**» الحذر هو الاحتراز عما يخاف فهناك الكناية والتخييل بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية.

المناسبة في السياق

لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين، وأوصى بطاعة اللـه وطاعة رسوله، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل اللـه لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغته الكفار، ثم بين حال المتخلفين عن الجهاد، المثبطين للعزائم من المنافقين، وحذر المؤمنين من شرهم.

---

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

النداء الرابع والعشرون

فتبينوا

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[النساء: ٩٤].

بين يدي النداء

إن من الخطأ أن يكون الرجل مؤمناً ويبقى بين ظهراني الكافرين! يجب أن يلتحق بدار الهجرة، حتى يعين في بناء الدولة الجديدة، ويتحمل مع إخوانه المسلمين أعباء المستقبل المنشود. إن بقاءه مستخفيًا بعقيدته قد يلحق به الأذى، وقد يستحق به حكم المستضعفين الذين ذكرتهم الآيات بعد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ .. ﴾ إلخ. والهجرة بالعقيدة طريق الأمان والنصر، وباب إلى غد أفضل وأسعد!. ليس هناك أذل ممن يقبل الدنية في دينه ودنياه لالتصاقه بتراب وُلد عليه، وقد وعَد الله المهاجرين بالمستقبل الأرغد، والخير الكثير في الدنيا والآخرة. والحق أن غيرنا تحرك على سطح الأرض فعمرها وملكها، وترك عليها عقيدته ولغته. والمسلمون أولى بالتنقل في أرض الله، كي ينشروا رسالتهم، ويصلوا الخلق بخالقهم(١).

---

(١) نحو تفسير موضوعي – محمد الغزالي.

هداية وتدبر[1]

١. يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة، ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان – إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان –.

٢. موضوع الآية محصور في ضرورة التّثبّت في الأحكام وعدم التّسرّع في أمر القتل، لخطورته، وأنه يكتفى في الحكم على الشخص بالإسلام بالنّطق بالشهادتين في الظاهر، دون حاجة للكشف عما في القلب واستبطان الحقيقة والواقع، فذلك ليس من شأن البشر، وإنما أمر القلوب متروك لعلّام الغيوب.

٣. يأمر تعالى عباده المؤمنين، إذا خرجوا جهادًا في سبيله، وابتغاء مرضاته ـ أن يتبينوا، ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة. فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة. فالواضحة البينة، لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك، تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، هل يقدم عليها أم لا؟ فإن التثبت في هذه الأمور، يحصل فيه من الفوائد الكثير، والكف عن شرور عظيمة، فإنه به يعرف دين العبد، وعقله، ورزانته. بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها، قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي. كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم يتثبتوا.

٤. وفي الآية نصّ صريح على أن هدف المؤمنين من الجهاد كما شرع اللّه هو إعلاء كلمة اللّه تعالى، لا من أجل التّوصل إلى المغانم الحربية أو العروض الدّنيوية أو المكاسب المادية، فإن اللّه وعد بالرّزق والمغانم الكثيرة من طرق أخرى حلال دون ارتكاب محظور، فلا تتهافتوا.

٥. والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة؛

---

(١) محاسن التأويل. التفسير المنير. فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن. نحو تفسير موضوعي – محمد الغزالي. في ظلال القرآن.

وما كان فيها من طمع في الغنيمة. ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم.

٦. يمن تعالى عليهم أن شرع لهم حدوداً وجعل لهم نظاماً؛ فلا تكون الهيجة الأولى هي الحكم الآخر. كما كانوا في جاهليتهم كذلك، وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم على قومهم من الضعف والخوف، فلا يظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين، وأن ذلك الرجل القتيل كان يخفي إسلامه على قومه، فلما لقي المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين.

....

المعاني المفردة[1]

ضَرَبْتُمْ: أي: ذهبتم.

فِي سَبِيلِ اللّهِ: إلى أرض العدو للغزو.

فَتَبَيَّنُواْ: التثبُّت، والبيان، وهما متقاربان لأن مَنْ تَثَّبت في الشيء تبينه، وقال الفارسي: "التثبُّت هو خلاف الإقدام والمراد التَّأنِّي، والتثبت أشد اختصاصاً بهذا الموضع.

السَّلاَمَ: التّحية، أو الاستسلام والانقياد بقوله كلمة الشهادة التي هي أمارة على الإسلام.

تَبْتَغُونَ: أي : تطلبون بقتله.

عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي : ماله الذي هو سريع النفاد. متاعها الفاني من الغنيمة.

مَغَانِمُ: أي أرزاق ونِعم.

---

(1) انظر: الدر المصون في علم الكتاب المكنون. محاسن التأويل. التفسير المنير.

سبب النزول[١]

وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآية، خلاصتها أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم له. فقال السلام عليكم. يعني أنه مسلم. فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها، فقتله. ومن ثم نزلت الآية، تحرِّج على مثل هذا التصرف؛ وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمة؛ أو تسرع في الحكم. . وكلاهما يكرهه الإسلام.

قال ابن عباس كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلاَم عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فأنزل اللَّه فى ذلك إلَى قوله ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تلك الْغنيمةُ قال قرأ ابن عباس السَّلاَمَ[٢]. وفي رواية فلما قدموا عليه ﷺ قالوا: يا رسول الله! إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال: 'ادعوا لي المقداد، يا مقداد! أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله ! فكيف لك بـ (لا إله إلا الله) غداً ؟.

الإعراب[٣]

﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ....﴾ جملة الشرط جواب النداء مستأنفة. وفي ﴿إِذَا﴾ معنى الشرط، وقد يُجازى بها كما قال: * وإذا تُصبْكَ خَصاصَةٌ فَتَجمَّل * والجيّدُ أن لا يجازي بها كما قال: والنفسُ راغبَةٌ إذا رغّبتَها * وإذا تُرَدُّ الى قَلِيلٍ تَقْنَعُ. **«فَعِنْدَ للَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ»** لم تنصرف لأنها جمع لا نظير له في الواحد **«كَذَلِكَ»** الكاف في موضع نصب. جملة **«تبتغون»** حال من فاعل **«تقولوا»**. وجملة **«فعند الله مغانم»** معطوفة على جملة **«لا تقولوا»** في محل جزم. وجملة **«فتبيّنوا»** الثانية معطوفة على جملة **«فمنَّ»**.

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢). حديث 4634 – التفسير – صحيح البخارى .

(٣) إعراب القرآن للنحاس. ومشكل إعراب القرآن للمسكي.

القراءات[1]

«فَتَبَيَّنُواْ» قرأ حمزة والكسائي وخلف بثاء بعدها باء بعدها تاء **«فَتَثَبَّتُواْ»** والباقون بباء وياء ونون. وتبينوا في هذا أوكد لأن الإنسان قد يتثبت ولا يتبين. وقيل: والأمر بينهما قريب لأن من تبين فقد تثبت ومن تثبت فقد تبين.

«السَّلاَمَ لَسْتَ» قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة وخلف بحذف الألف بعد اللام **«السَّلَمَ لَسْتَ»**. والباقون بإثباته، لأنه إذا سلم فقد ألقى السلم والعرب تقول: ألقى فلان إلي السَّلمَ أي انقاذ واستسلم. وقال جل وعز **«وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلم»**. والتقييد بلست لإخراج الموضعين قبله، وهما **«أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ»** و**«إِلَيْكُمُ السَّلَمَ»** فلا خلاف في حذف الألف فيهما. والحجة لمن أثبتها أنه أراد التحية ودليله أن رجلا سلم عليهم فقتلوه لأنهم قدروا أنه فعل ذلك خوفا فقرعهم الله به والحجة لمن طرحها أنه جعله من الاستسلام وإعطاء المقادة من غير امتناع

«مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ» قرأ ابن وردان بفتح الميم الثانية **«مُؤْمَنًا»**. والباقون بكسرها.

المناسبة في السياق

هذا بيان نوع من أنواع القتل الخطأ الذي كان يحصل في الماضي بسبب قيام حالة الحرب أو الحرب نفسها مع المشركين، وفيه تسرّع بالحكم بعدم الإسلام على الرجل، بعد أن بيّن اللّه تعالى في الآية السابقة حكم نوعي القتل: الخطأ والعمد. وذكر القرطبي أن هذه الآية متصلة بذكر القتل والجهاد في الآيات السابقة.

---

(١) الشاطبية. والبدور الزاهرة. والحجة في القراءات السبع - ابن خالويه.

النداء الخامس والعشرون

كونوا قوامين بالقسط شهداء لله

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

بين يدي النداء

العدل بمفهومه الإنساني هو إعطاء كل ذي حق حقه ولأهميته ومنزلته، بعث الله رسله وأنزل كتبه، لنشره بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم. والعدل صفة خلقية كريمة تعني التزام الحق والإنصاف في كل أمر من أمور الحياة، والبعد عن الظلم والبغي والعدوان.

- ضرب ابن عمرو ابن القبطي بالسوط وقال له: أنا ابن الأكرمين! فما كان من القبطي إلا أن ذهب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة وشكا إليه، فاستدعى الخليفة عمرَو بن العاص وابنه، وأعطى السوط لابن القبطي وقال له: اضرب ابن الأكرمين، فلما انتهى من ضربه التفت إليه عمر وقال له: أدِرها على صلعة عمرو فإنما ضربك بسلطانه، فقال القبطي: إنما ضربتُ مَن ضربني. ثم التفت عمر إلى عمرو وقال كلمته الشهيرة: "يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"؟.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: 18].

«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» (١).

---

(١) حديث 4825 - باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية - كتاب الإمارة - صحيح مسلم.

هداية وتدبر[1]

١. في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ قوّام صيغة مبالغة من قام بالأمر، وقام عليه وتعهده، وهو أبلغ من كونوا عدولاً، ما يشعر بأن حمل أمانة العدل ليس أمراً هيناً، وإنما هو حمل ثقيل، لا يقوى عليه إلا من وثق إيمانه باللّه، وأخلى نفسه من نوازع الضعف المادية والمعنوية، فلا يجعل لنفسه أو لمخلوق حساباً في أداء هذه الأمانة وإقامة ميزانها مستقيما على ما أمر اللّه به، وكلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ غير كلمة «قائمين»، لأنها تشعر بالشدّ والجذب والمعاناة، في لفظها، وفى معناها المستدلّ عليه من هذا اللفظ: «قوامين».

٢. إن القوّام بالعدل تكون فيه خصال ثلاث:

أولاها: أن يعدل في ذات نفسه، فلا يظلم أحدًا.

والثانية: أن تكون العدالة شأنًا ملازمًا له، لتكون كالسجية من سجاياه، والملكة من الملكات.

وثالثها: أن يرعى العدل في غيره، بأن يعمل على منع الظلم حيث كان، وأيا كان، فليس قوامًا بالقسط من يرى مظلوما يظلم، أو ضعيفًا يهضم، ولا يمنع الاستمرار فى ظلمه، ولو لم يكن قاضياً يحكم بين الناس، وهذا تطبيق لقول النبي – ﷺ: **«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»**[2].

٣. أمر الله تعالى بالعدل بهذه الصيغة فقال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ فلم يقل تعالت

---

(١) انظر: زهرة التفاسير. جامع لطائف التفسير. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. محاسن التأويل. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

(٢) حديث 20691 – كتاب آداب القاضى – سنن البيهقى .

كلماته "اعدلوا"، أو "قوموا بالقسط"، بل قال: ﴿كُونُوا﴾ وهذا التعبير يقتضى أمرين:

أحدهما: أن يروِّضوا أنفسهم على العدالة، ويربوها ويعلموها لشباب هذه الأمة، ويفطموا النفوس عن شهواتها، فإنه لا يذهب بالعدل إلا الشهوة.

وثانيهما: أن ينصبوا أنفسهم لنشر لواء العدل، فلا يتركوا ظالما يرتع، ولا مظلومًا يخضع، سواء أكان الظالم في فردًا أو جماعة، أم كان أمة، فأمة العدل يجب أن تكون قوامة بالعدل.

٤. إن القوامة على العدل توجب عدالة الإنسان في نفسه، وأهله، وولده، وصحبه، وكل من يتصل به، وتوجب منع الظلم أنى يكون، وتوجب العدل في الولاية والقضاء، والصلح بين الناس.

٥. معنى الشهادة لله تعالى، أن يقول الحق طلبًا لرضا الحق جل جلاله، لا يلتفت إلى رضا المخلوق، أيا كان ذلك المخلوق، فإن تحرى رضا المخلوق قد يذهب بالحق، ويضعف سلطانه، فإن الشاهد إذا لاحظ جانب الله في شهادته قال الحق من غير تلعثم ولا اضطراب، وأفاض الله تعالى عليه نورًا، فلا يضل في شهادته، ولا يخطئ ناحية من نواحى الحق. والشهادة لله تعالى توجب ألا يحابى قريب لقرابته، ولا يحابى غنى لغناه. وبذلك تدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة، فإقامة الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسط.

٦. شهادة المرء على نفسه هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله.

٧. الغنى أو الفقر لا يصح أن يكونا سببًا في التفاوت في الحكم؟ لأن الله هو الذي نظم الكون بما فيه ومن فيه، فهو الذي أراد للفقير الفقر مع الأسباب، وأراد للغني الغنى مع الأسباب الظاهرة لدينا، والمصلحة الإنسانية هو سبحانه وحده قدرها، فهو أولى بأن يكون الغني له لأنه هو الذي منحه، وأن يكون الفقير له لأنه هو

الذي منعه، فابتلى الأول بالمال، وابتلى الثاني بالحرمان. ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾.

٨. نحن شهود على الناس كافة؛ فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده، وعدله، ورأفته، علم أنه لم يغفل تعالى عنه، ولا عن أحد من الناس، ولا بخل عليهم ولا ظلمهم، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على من في زمانه، وعلى من قبله ومن بعده، وعلى هذا الوجه ما روي في الخبر: "أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم". والخبر الذي أشار إليه رواه البخاري عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً»**. فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾.

٩. لما بعث ﷺ عبدَ الله بن رواحة رضي الله عنه يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة[١]، حاول اليهود رشوته ليرفق بهم! فقال لهم: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ. ولأنتم والله أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير. وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم، على أن لا أعدل فيكم».. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض!.

١٠. عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِىِّ أَنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - قَالَ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِى يَأْتِى بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا[٢]»**. وقال قتادة: "أقم الشهادة يا بن آدم، ولو على نفسك أو الوالدين، أو الأقربين، أو على ذي قرابتك، وأشراف قومك، وإنما الشهادة لله، وليست للناس، وإن الله تعالى قضى بالعدل لنفسه، والإقساط والعدل

---

(١) حسب عهد رسول الله - ﷺ- بعد فتح خيبر..

(٢) صحيح مسلم حديث 4591 كتاب الأقضية باب بيان خير الشهود .

ميزان الله في الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على الحق... وبالعدل يصلح الناس".

١١. فوائد مختصرة: - وجوب إقامة العدل بين الناس – أهمية العدل لقيام المجتمعات – وجوب الإخلاص في ذلك لله وحده - العدل مطلوب مع القريب والبعيد – لا تأثير للغنى والفقر في أداء الشهادة - الله جل جلاله أولى بالغني والفقير - النهي عن إتباع الهوى - إتباع الهوى مانع من إقامة العدل - النهي عن التحريف في الشهادة - تحريم الإعراض عن أداء الشهادة - شهادة الإنسان على والديه وأقاربه مقبولة - شهادة الإنسان على والديه لا تنافي برهما - شهادة الإنسان على أقاربه لا تنافي صلة الرحم - علم الله المحيط الذي لا تخفى عليه خافية.

....

المعاني المفردة(١)

(قَوَّامِينَ) أن تقوموا على القسط وهو العدل وترعوه حق رعايته. **(بِالْقِسْطِ)**: بالعدل في الشهادة. **(شُهَدَاء لِلّهِ)** ترجون بشهادتكم وجه الله سبحانه وتعالى. **(تَلْوُواْ)** تلجلجوا. تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق. واللّيّ: هو التحريف وتعمد الكذب. قال مجاهد: تبدلوا الشهادة. والفعل منه لَوى والأصل فيه لَويَ قلبت الياء ألفاً بحركتها وحركة ما قبلها والمصدر ليّاً والأصل لويا وليّاناً والأصل لوياناً ثم أُدغِمَت الواو. **(تُعْرِضُواْ)** والإعراض: الترك. تكتموها ولا تقيموها.

النحو والصرف(٢)

(شُهَدَآءَ) نعت لقوامين أو خبراً بعد خبر. أو نصباً على الحال بمعنى كونوا قوامين

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. توفيق الرحمن. زهرة التفاسير. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. مختصر تفسير البغوي. التفسير المنير.

(٢) إعراب القرآن للنحاس. ومشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

بالعدل عند شهادتكم وحين شهادتكم، ولم ينصرف لأن فيه ألفَ التأنيثِ. الجار **(لله)** متعلق بـ "**شهداء**". **(وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ)** الواو حالية للعطف على حال محذوفة أي: كونوا كذلك في كل حال، ولو في حال كون الشهادة مستقرة على أنفسكم، والجار متعلق بمحذوف خبر كان مقدرة أي: ولو كانت الشهادة مستقرة على أنفسكم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله. **(أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)** عطف بأو **(إِن يَكُنْ غَنِيّاً)** خبر يكن واسمها فيها مضمر أي أن يكون المطالبُ غنياً. **(فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا)** الفاء عاطفة على جواب الشرط المحذوف أي: وإن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فليشهد عليه **(لاَ تَتَّبِعُواْ)** جواب شرط مقدر أي: إن كان الأمر كذلك فلا تتبعوا، والمصدر **(أَن تَعْدِلُواْ)** مفعول لأجله أي: محبة أن تعدلوا.

- «**الهوى**» مصدر سماعي للفعل هوي يهوى باب فرح فالألف منقلبة عن ياء وفيه إعلال بالقلب.

القراءات[1]

«**وَإِن تَلْوُواْ**» قرأ ابن عامر وحمزة بضم اللام وواو ساكنة بعدها «**تَلُوْاْ**» والباقون بإسكان اللام وبعدها واوان،الأولى مضمومة، والثانية ساكنة.

الحجة لمن قرأ بواوين «**تَلْوُواْ**» جعله فعلاً من لويت حقه وأصله تلويوا فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت وخزلت الواو لالتقاء الساكنين ثم ضمت الواو الأولى لمجاورة الثانية وسقطت النون علامة للجزم. والحجة لمن قرأه بواو واحدة «**تَلُوْاْ**» أنه جعله من الولاية يريد وإن تلوا ذلك أو تتركوه معناه أو تعرضوا عنه تاركين له وأصله توليوا فخزلت الواو الأولى لوقوعها بين ياء وكسرة وخزلت الياء لوقوع الحركة عليها وضمت اللام لمجاورة الواو.

---

(١) البدور الزاهرة. الحجة في القراءات السبع.

المناسبة في السياق:

هذا أمر عام بالقسط بين الناس، جاء عقب الأمر بالقسط في اليتامى والنساء في آية الاستفتاء لأن قوام المجتمع لا يكون إلا بالعدل، وحفظ النظام ودوام الملك لا يتم إلا به، فالعدل أساس الملك الدائم.

النداء السادس والعشرون

يا أيها الذين آمنوا آمنوا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

بين يدي النداء

إن الإيمان عقيدة راسخة في القلب، تنتج قولاً سديداً، وعملاً صالحاً، فهو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، فليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولا بالادعاء والتسمي، ولكن ما وقر في القلب ورسخ فيه، وصدقته الأعمال بفعل الطاعات واجتناب المعاصي، إنه التصديق بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

هداية وتدبر[1]

١. في المشار إليهم بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم المسلمون.. قاله الحسن فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بمحمد

---

(١) زاد المسير في علم التفسير. زهرة التفاسير. شرح أصول التفسير. محاسن التأويل. تفسير المنار.

والقرآن اثبتوا على إيمانكم.

والثاني: اليهود والنصارى.. قاله الضحاك فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن.

والثالث: المنافقون.. قاله مجاهد فيكون المعنى يا أيها الذين آمنوا في الظاهر بألسنتهم آمنوا بقلوبكم.

٢. هذه الآية تدل على وحدة الرسالة النبوية إلى الخليقة، إذ إن لبها هو الإيمان بالله ورسله وملائكته والكتب التى أنزلت على رسله، وأن المتأخرين يجب عليهم أن يؤمنوا بما جاء به السابقون لهم؟ لأن الرسالة الإلهية سلسلة متصلة الحلقات، كل حلقة منها تالية لسابقتها، وكما قال النبى ﷺ: "**إن صرح النبوة واحد**" (١) **تمامه وكماله**.

٣. النص الكريم فيه أجزاء الإيمان التى يلازم بعضها بعضًا، ولا ينفصل واحد منها عن باقيها، فهى كل لا يقبل التجزئة، ولا يمكن أن يتحقق معناه إلا باتصاله بعضه ببعض. وأول عناصر الإيمان هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وذلك باعتقاد أنه واحد أحد فرد صمد، فوق كل شيء وليس فوقه شيء، ليس كمثله شىء، منفرد وحده بالألوهية، فهو الواحد في ذاته وصفاته، وهو الواحد في خلقه وتدبيره، فهو لخالق كل شيء؟ وهو القادر على كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، وهو الواحد فى استحقاقه للعبادة، فلا يعبد بحق سواه.

هذه إشارات إلى معنى الإيمان بالله الرحمن الرحيم ذى الجلال والإكرام.

٤. إن الإيمان بالله تعالى على ذلك النحو يقتضى الإيمان بأن رحمته توجب ألا يترك

---

(١) فى معناه ما رواه البخارى ومسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ .» حديث 3575 – المناقب – صحيح البخارى .

الناس هملاً، بل لا بد من بشير ونذير، ومن يكون رحمة للعالمين، فلا بد من الرسل يرسلهم، وكان حقاً على الذين يدركون رسولاً أن يؤمنوا به، فكان حقاً على الذين أدركوا محمداً أن يؤمنوا به.

٥. المراد من رسوله هنا محمدًا ﷺ، وذلك واضح من الإفراد ومن تكرار كلمة الرسول مقترنة بالكتاب الذى ينزل تنزيلا.

٦. والكتاب الذى نزل على رسوله هو القرآن الكريم، وقد ذكر التعبير عن نزوله بـ﴿نَزَّلَ﴾ للإشارة إلى نزوله منجمًا، وأنه لم ينزل جملة واحدة، وأنه كان لا يزال ينزل وقت هذا الخطاب القدسى.

٧. ومعنى الإيمان بالكتاب الإيمان بأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه من عند الله العلى الحكيم، وأنه كلامه سبحانه وتعالى. وأن كل ما فيه من أخبار صادق، وما فيه من أحكام واجبة الطاعة. وأنه حجة الله الخالدة، وأنه حبل الله تعالى الممدود إلى يوم القيامة، وأنه محفوظ بحفظه، لا يعتريه تغيير ولا تبديل، لأن الله تعالى قد وعد بحفظه، وهو صادق، وأنه ما حاربه جبار إلا قصم الله تعالى ظهره.

٨. والكتاب الذى أنزل من قبل هو كتب النبيين السابقين التى أنزلها الله تعالى عليهم، ومعنى الإيمان بها التصديق برسالات الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى، وذكر فيها كتبهم، وذكر بجوارها أنها أنزلت، لأنها قد مضت وانقطع نز ولها.. وعبر عنها بالفرد دون الجمع، للإشارة إلى تصديق معناها الجامع لها، وهو أنها رسالات الله تعالى إلى أهل الأرض، وهو معنى لا يتغير.

٩. الأمر في قوله ﴿ءَامِنُواْ﴾ اثبتوا على إيمانكم واستمروا عليه، ولا تتحولوا عنه، فالأمر أمر بالثبات والدوام.

١٠. إن الحال التى عليها المؤمنون حال إذعان وتسليم وتصديق، والأمر بالإيمان مع هذه الحال التى هم عليها واستنارت قلوبهم بها بيان لأجزاء الإيمان، وأركانه وأصوله

ومعانيه المتلازمة، فلا يفرقون بين أجزائه، ولا يفرقون بين أحد من رسله سبحانه، وفى هذا الأمر بيان اتصال المسلمين بالديانات السابقة، وبيان أن الإسلام لا يهدم الأديان قبله. ولكنه يتممها. وأنه الخطوة الأخيرة فى الوحى الإلهى، وأن من يكفر به وقد أدركه يكفر بغيره، وإن ادعى اعتناقه، ومن يصدقه من غير إيمان بالكتب السابقة لا يكون صادقًا.

١١. كيف يقول الحق في صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا؟ ونقول: نرى في بعض الأحيان رجلاً يجري كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقول، فتكون كلمة الإيمان هي حق صحيح، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً. كما قال الحق: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

١٢. يذكر تعالى عن القران بقوله ﴿نَزَّلَ﴾ وعن غيره بـ"أنزل"، لأن القرآن قد نزل منجماً (أى مفرقًا بحسب الحوادث)، وكان لا يزال ينزل، وغيره قد تم نزوله، وفى ذلك إشارة إلى طريقة نزول القرآن وأنه أمر أراده الله تعالى لمصلحة العباد، وتسهيل هدايتهم به، وتسهيل حفظ النبي ومن معه له، ولأنس النبي ﷺ باستمرار الوحى ينزل عليه.

١٣. من فرَّق بين كتب الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى لا يعتد بإيمانه؛ لأنه متبع للهوى فيه أو للتقليد الذي هو عين الجهل، وقد وصف الله خاتم رسله وأمته التي هي خير الأمم بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

....

الإعراب[1]

آمَنُوا فعل أمر تعلق به الجار والمجرور بعده **بِاللَّهِ** والواو فاعله **وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ** عطف **الَّذِي** اسم موصول في محل جر صفة **نُزِّلَ عَلَى رَسُولِهِ** الجملة صلة الموصول **وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ** قبل مفعول فيه ظرف زمان مبني على الضم في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بأنزل **وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ** اسم الشرط مبتدأ ولفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بفعل الشرط يكفر **وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** عطف على اللّه تعالى **وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** عطف أيضاً **والآخر** صفة **فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً** فعل ماض ومفعول مطلق وصفته والفاعل مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من.

سبب النزول[2]

قال الكلبي: نـزلت في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمني أهل الكتاب، قالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فأنـزل الله تعالى هذه الآية.

القراءات[3]

«نَزَّلَ .. أَنزَلَ» قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم نون **«نَزَّلَ»** وهمزة **«أَنزَلَ»** وكسر الزاي فيهما **«نُزِّلَ» «أُنزِلَ»**، والباقون بفتح النون والهمزة والزاي فيهما.

الحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لله تعالى وعطف الثاني بفتح الهمزة عليه والحجة لمن ضم أنه جعله فعلا لما لم يسم فاعله وعطف الثاني بضم الهمزة عليه .

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

(٢) أسباب النزول – الواحدي النيسابوري.

(٣) البدور الزاهرة. الحجة في القراءات السبع.

النداء السابع والعشرون

لا تتخذوا الكافرين أولياء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

بين يدي النداء

إن حاجة المسلمين اليوم ماسة إلى أن يعودوا إلى دينهم، وأن يقووا أخوتهم ويحققوا الموالاة فيما بينهم فيقوي بعضهم بعضاً وينصر بعضهم بعضاً ويتراحمون ويتحابون ويكونون أمة واحدة كما يريد الله، لا بد من التحقق بذلك، مع كراهية ومعاداة أعداء الله، فإن هذا الأمر من عقائد الإسلام ومعاقده التي لا يجوز لمسلم أن يتساهل بها أو يفرط فيها.. فها نحن نرى بأم أعيننا أن قوى الكفر والظلم والطغيان قد تداعت علينا من كل حدب وصوب، وتنادى الجميع للقضاء على هذا الدين عبر وسائل مختلفة، ولن يقف في وجه هذه الحرب الصليبية اليهودية الوثنية، المتواطئة مع المرتدين والمنافقين سوى اتحاد المسلمين وتلاحمهم صفاً واحداً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

هداية وتدبر[1]

١. ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [آل عمران: 28] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: 139].

2. هذا نهي عن موالاة الكفرة، يعني مصاحبتهم، ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإفشاء

---

(١) محاسن التأويل. التفسير المنير. زهرة التفاسير. صفوة التفاسير.

أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28].

٣. **الموالاة الممنوعة:** الاستنصار بهم والتعاون معهم والاستعانة بهم لقرابة أو محبة، مع اعتقاد بطلان دينهم لأن الموالاة قد تجرّ إلى استحسان طريقتهم، والموالاة بمعنى الرّضا بكفرهم كفر، لأن الرّضا بالكفر كفر. أما الموالاة بمعنى المعاشرة الجميلة في الدّنيا بحسب الظاهر، مع عدم الرّضا عن حالهم، فليس ممنوعًا منه.

٤. من يوالي الكافرين من غير المؤمنين أي يتجاوز المؤمنين إلى الكفار، كأن يكون جاسوسًا للكفار، فليس من دين اللّه ولا من حزبه أو من ولاية اللّه في شيء، أي يكون بينه وبين اللّه غاية البعد، ويطرد من رحمته، ويكون منهم، ولا يكون مطيعًا لدينه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾.

٥. لا تمنع هاتان الآيتان وأمثالهما التّحالف أو الاتّفاق بين المسلمين وغيرهم، إن كان التّحالف أو الاتّفاق لمصلحة غير المسلمين[١] لأن النّبي ﷺ كان محالفًا خزاعة، وهم على شركهم.

٦. دلّت الآية على تحريم الاطمئنان إلى الكفار أو الثقة بهم والرّكون إليهم في أمر عام، والتّجسس لهم، واطّلاعهم على أسرار المسلمين الخاصة بمصلحة الدّين، واتّخاذهم أولياء وأنصارًا في شيء تقدّم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة[٢] لأن فيه إعانة للكفر على الإيمان.

---

(١) ولكن لا بد أن يكون للمسلمين فيه مصلحة ما .. تحسبها القيادة وقد ظهرت المصلحة لاحقًا.

(٢) وقصة حاطب المسندة في الصحيحين وغيرهما ملخصها: «أن حاطباً كتب كتابا لقريش يخبرهم فيه باستعداد النّبي ﷺ للزّحف على مكة، إذ كان يتجهّز لفتحها، وكان يكتم ذلك، ليبغت قريشاً على غير استعداد منها، فتضطر إلى قبول الصلح- وما كان يريد حربًا- وأرسل حاطب كتابه مع جارية وضعته في عقاص شعرها، فأعلم اللّه نبيّه بذلك، فأرسل في أثرها عليّا والزّبير والمقداد، وقال:

٧. في الآية دليل على أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في الحرب، وإليه ذهب بعض المالكية، ولقوله ﷺ- فيما رواه مسلم عن عائشة- لرجل تبعه يوم بدر: «ارجع فلن أستعين بمشرك»، ولأنه لا يؤمَن غدرهم، إذ العداوة الدينية تحملهم على الغدر إلا عند الاضطرار.. وأجاز الأكثرون من أتباع المذاهب الأربعة الاستعانة بالكافر على الكفار، إذا كان الكافر حسن الرأي بالمسلمين، وقيّد الشافعية ذلك أيضًا بالحاجة لأن النّبي ﷺ- فيما رواه مسلم- استعان بصفوان بن أمية يوم حنين لحرب هوازن، وتعاونت خزاعة مع النّبي ﷺ عام فتح مكة، وخرج قزمان- وهو من المنافقين- مع الصحابة يوم أحد، وهو مشرك. وأما حديث **«ارجع فلن أستعين بمشرك»** فهو منسوخ بدليل استعانته ﷺ بيهود قينقاع وقسمه لهم من الغنيمة.

٨. الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع إن وقع هذا منهم، وهو يتضمن التهديد لهم بتسليط مقت الله عليهم إن فعلوا فهو استفهام يتضمن إنكارًا للوقوع، أى لا يقع منهم، ولا يصح أن يقع، ويتضمن التحذير والإنذار.

....

انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فلما أتي به، قال: يا= =حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول اللّه، لا تعجل عليّ! إنّي كنت حليفاً لقريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت أن أتّخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه قد صدقكم»، واستأذن عمر النّبي ﷺ في قتله فلم يأذن له، قالوا: وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: ٦٠ / ١]. أي أن آية: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ .. لم تنزل في قصة حاطب، وإنما هذه الآية وما نزل في قصة حاطب يشتركان في النهي عن موالاة الكافرين.

المعاني المفردة[1]

أَوْلِيَاء: الولاية النصرة، والانتماء، والمحبة، والتبعية.

سُلْطَاناً: السلطان الحجة الظاهرة. قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو حجة.

مُّبِيناً: الْبَيِّنِ فِي نَفْسِهِ، وَالْمُبَيِّنِ لِغَيْرِهِ.

الإعراب[2]

"**أولياء**" مفعول ثان، الجار "**من دون**" متعلق بـ "**أولياء**"، جملة "**أتريدون**" مستأنفة لا محل لها. الجار "**لله**" متعلق بالمفعول الثاني. والجار "**عليكم**" متعلق بحال من "**سلطانا**".

---

(١) زاد المسير في علم التفسير. صفوة التفاسير. تفسير المنار.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

النداء الثامن والعشرون

أوفوا بالعقود

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

بين يدي النداء

[إنه لا بد من ضوابط للحياة.. حياة المرء مع نفسه التي بين جنبيه؛ وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة.. الناس من الأقربين والأبعدين، من الأهل والعشيرة، ومن الجماعة والأمة؛ ومن الأصدقاء والأعداء.. والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر.. والأشياء مما يحيط بالإنسان في هذا الكون العريض.. ثم.. حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهي أساس كل حياة.

والإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس. يقيمها ويحددها بدقة ووضوح؛ ويربطها كلها بالله سبحانه؛ ويكفل لها الاحترام الواجب، فلا تنتهك، ولا يستهزأ بها؛ ولا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات المتقلبة؛ ولا للمصالح العارضة التي يراها فرد، أو تراها مجموعة أو تراها أمة، أو يراها جيل من الناس فيحطمون في سبيلها تلك الضوابط.. فهذه الضوابط التي أقامها الله وحددها هي «المصلحة» ما دام أن الله هو الذي أقامها للناس.. هي المصلحة ولو رأى فرد، أو رأت مجموعة أو رأت أمة من الناس أو جيل أن المصلحة غيرها! فالله يعلم والناس لا يعلمون! وما يقرره الله خير لهم مما يقررون! وأدنى مراتب الأدب مع الله - سبحانه - أن يتهم الإنسان تقديره الذاتي للمصلحة أمام تقدير الله. أما حقيقة الأدب فهي ألا يكون له تقدير إلا ما قدر الله. وألا يكون له مع تقدير الله، إلا الطاعة والقبول والاستسلام، مع الرضى والثقة والاطمئنان..

هذه الضوابط يسميها الله «العقود»..ويأمر الذين آمنوا به أن يوفوا بهذه العقود..[1]].

---

(١) في ظلال القرآن.

هداية وتدبر[1]

١. أخرج الإمام أحمد عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما قال: أنزلت على رسول اللّه ﷺ سورة المائدة، وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها.

٢. نقل الألوسي عن الجلال السيوطي في بيان ذلك: أن سورة النساء قد اشتملت على عدة عقود صريحًا وضمنًا؛ فالصريح عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان، والضمني: عقد الوصِية والوديعة والوكالة والعارية والإجارة، وغير ذلك، الداخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فناسب أن تعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود، فكأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت وإن كان في هذه السورة أيضًا عقود.

٣. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أباح تعالى الأنعام في جميع الأحوال، وأباح الصيد في بعض الأحوال دون بعض، فهو تعالى مالك الأشياء وخالقها فلم يكن على حكمه اعتراض بوجه من الوجوه.

٤. **اختلفوا في المراد بالعهود هاهنا على خمسة أقوال:**

أحدها: أنها عهود الله التي أخذها على عباده فيما أحل وحرم وهذا قول ابن عباس ومجاهد.

والثاني: أنها عهود الدين كلها قاله الحسن.

والثالث: أنها عهود الجاهلية وهي الحلف الذي كان بينهم قاله قتادة.

---

(١) روح المعاني. زاد المسير في علم التفسير. زهرة التفاسير. محاسن التأويل. تفسير المنار. تفسير مفاتيح الغيب. الجدول في إعراب القرآن.

والرابع: أنها العهود التي أخذها الله على أهل الكتاب من الإيمان بالنبي محمد ﷺ قاله ابن جريج.

والخامس: أنها عقود الناس بينهم من بيع ونكاح أو عقد الإنسان على نفسه من نذر أو يمين وهذا قول ابن زيد.

٥. يجب على المؤمن أن يوفي بعقده مع ربه، ولا يجب عليه أن يوفي بعقده مع نفسه أو مع غيره إذا كان إيفاؤه بعقد منهما يخل بإيفائه بعقد ربه. فإذا حلف على ما فيه مخالفة أمر ربه فليحنث في يمينه وليوف عقده مع ربه ولا يوف بما حلف عليه؟ ولهذا ورد في الحديث: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»[1]. وإذا عقد عقدًا أو شرط شرطًا يقضى بتحليل محرم أو تحريم حلال أو التزام بباطل شرعًا فعليه أن يوفى بعقده مع ربه ولا يوفى بما يخالفه من عقود وشروط؟ ولهذا ورد في الحديث: **«الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا»**[2].

٦. وقد خاطب الله المخاطبين في أمرهم بالإيفاء بالعقود بوصف الإيمان ليشير إلى أن الإيفاء بالعقود مما يقتضيه الإيمان، وفي هذا حث على امتثال الأمر والإيفاء بالعقد. وهذا الذى أشار إليه القرآن صرح به رسول الله في سنته إذ عد الوفاء بالعهود من شعائر الإيمان وآيات المؤمن، ففي الحديث: **آية المؤمن ثلاث: إذا حدث صدق ، وإذا اؤتمن أدى، وإذا وعد وفى.**

٧. قال عليّ بن طلحة: قال ابن عباس: يعني بالعهود ما أحل الله وما حرم، وما فرض، وما حدّ في القرآن كلّه، ولا تغدروا ولا تنكثوا. وقال زيد بن أسلم: العقود ستة: عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين. **قال الزمخشريّ:** والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينه، من تحليل حلاله وتحريم حرامه.

---

(١) حديث ٣٨٠١ – الأيمان والنذور – سنن النَسائى.

(٢) حديث ٢٩٣١ – البيوع – سنن الدارقطنى .

٨. **فوائد من تفسير أبو بكر الجزائري:**

١) وجوب الوفاء بالعهود التي بين الله تعالى وبين العبد والمحافظة على العقود التي بين العبد وأخيه العبد لشمول الآية ذلك.

٢) إباحة أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلا الميتة منها.

٣) تحريم الصيد في حال الإحرام وحليته بعد التحلل من الإحرام وهو صيد البر لا البحر[١].

٩. رواية عن الفيلسوف الكندي ذكروا أن الكندي الفيلسوف قال له أصحابه: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم اعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاما ثم استثنى استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، لا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد.

....

المعاني المفردة[٢]

أَوْفُواْ: الوفاء هو القيام بمقتضى العهد وكذلك الإيفاء يقال وفى بالعهد وفاء وأوفى به إيفاء إذا أتى ما عهد به ولم يغدر.

بِالْعُقُودِ: والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود: ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ديناً إن حملنا الأمر على معنى يعم الوجوب والندب.

---

(١) لأن صيد البحر حلال في الإحرام وغيره لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ...مَادُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾ .

(٢) تفسير روح البيان. توفيق الرحمن. زاد المسير في علم التفسير. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

أُحِلَّتْ: رُخِّصت.

بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ: البهيمة كل ذات أربع وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب الخز والأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. سميت البهيمة: بهيمة؛ لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها.

إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ: عن ابن عباس: هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير ما أهل لغير الله به.

مُحِلِّي: مستحلي.

الصَّيْدِ: الصيد بمعنى المصدر أي الاصطياد في البر أو المفعول أي أكل صيده بمعنى مصيده.

حُرُمٌ: جمع حرام بمعنى محرم يقال: أحرم فلان إذا دخل في الحرم أو في الإحرام.

النحو والصرف[1]

- "**ما**" اسم موصول مستثنى، و"**غير**" حال من الضمير في "**لكم**"، "**محلي**" مضاف إليه مجرور بالياء. وجملة "**وأنتم حرم**" حالية من الضمير في "**لكم**".

- "**أوفوا**" فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء، وأصله أوفيوا، نقلت الضمة من الياء إلى الفاء ثم حذفت الياء لسكونها وسكون واو الجماعة. وزنه أفعوا. "**العقود**" جمع العقد وهو الربط المعنوي بمعنى العهد، وهو مصدر عقد يعقد باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون، ووزن العقود الفعول بضمّ الفاء. "**بهيمة**" اسم جامد لكلّ ذات أربع قوائم، وزنه فعيلة. "**محلّي**" جمع محلّ، اسم فاعل من أحلّ الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين. "**الصيد**" مصدر صاد يصيد باب ضرب.. ويجوز أن يكون بمعنى المصيد أي اسم المفعول وزنه فعل بفتح فسكون. "**حرم**" جمع حرام، صفة مشبّهة لاسم الفاعل بمعنى محرم، وزنه فعال بفتح الفاء، جمعه فعل بضمّتين.

---

(١) مشكل إعراب القرآن. الجدول في إعراب القرآن.

النداء التاسع والعشرون

لا تحلوا شعآئر الله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

بين يدي النداء

[إنها قمة في ضبط النفس؛ وفي سماحة القلب.. ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء.

إنها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس.. التبعة التي لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجاً من السلوك الذي يحققه الإسلام، ومن التسامي الذي يصنعه الإسلام. وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة؛ تجذب الناس إليه وتحببهم فيه.

وهو تكليف ضخم؛ ولكنه - في صورته هذه - لا يعنت النفس البشرية، ولا يحملها فوق طاقتها. فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب، ومن حقها أن تكره. ولكن ليس من حقها أن تعتدي في فورة الغضب ودفعة الشنآن.. ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى؛ لا في الإثم والعدوان؛ ويخوفها عقاب الله، ويأمرها بتقواه، لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط، وعلى التسامي والتسامح، تقوى لله، وطلباً لرضاه.

ولقد استطاعت التربية الإسلامية، بالمنهج الرباني، أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية، والاعتياد لهذا السلوك الكريم.. وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوى وعن هذا الاتجاه.. كان المنهج العربي المسلوك والمبدأ العربي المشهور: "انصر

أخاك ظالماً أو مظلوماً.. كانت حمية الجاهلية، ونعرة العصبية. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى؛ وكان الحلف على النصرة، في الباطل قبل الحق. وندر أن قام في الجاهلية حلف للحق. وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بالله؛ ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله.. يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلي المشهور: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً".. وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي في صورة أخرى، وهو يقول:

وهــل أنــا إلا مــن غزيــة إن غــوت = غويــت، وإن ترشــد غزيــة أرشــد!

ثم جاء الإسلام.. جاء المنهج الرباني للتربية.. جاء ليربط القلوب بالله؛ وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله. جاء ليخرج العرب - ويخرج البشرية كلها - من حمية الجاهلية، ونعرة العصبية، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء..

وولد "الإنسان" من جديد في الجزيرة العربية.. ولد الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله.. وكان هذا هو المولد الجديد للعرب؛ كما كان هو المولد الجديد للإنسان في سائر الأرض.. ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً". كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء!

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية، وأفق الإسلام؛ هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً". وقول الله العظيم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾. وشتان شتان!]

هداية وتدبر[1]

1. الشهر الحرام يعني الأشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وقد

(١) لباب النقول في أسباب النزول. تفسير القرآن العظيم. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

حرم الله فيها القتال، وكانت العرب قبل الإسلام تحرمها ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء، فينسئونها- أي يؤجلونها- بفتوى بعض الكهان، من عام إلى عام. فلما جاء الإسلام شرع حرمتها، وأقام هذه الحرمة على أمر الله، يوم خلق الله السماوات والأرض كما قال في التوبة ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ وقرر أن النسيء زيادة في الكفر، وقد بين الله تعالى حكم القتال في الأشهر الحرم في سورة البقرة.

2. روي أن الرسول ﷺ كان في الحديبية مع أصحابه، وقد اشتد على المسلمين صدُّ المشركين لهم عن بلوغ البيت، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرقِ، يريدون العمرة، فقال المسلمون نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٣. وجوب احترام شعائر الدين كلها أداء لما وجب أداؤه، وتركاً لما وجب تركه.

٤. حرمة الاعتداء مطلقاً على الكافر لكفره.

٥. وجوب التعاون بين المؤمنين على إقامة الدين، وحرمة تعاونهم على المساس به.

٦. في صحيح البخاري: عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «**الزَّمَانُ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ**[1] وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

....

(١) حديث ٣٢٣٣ - بدء الخلق - صحيح البخارى.

المعاني المفردة[1]

(لاَ تُحِلُّواْ) لا تَنْتَهكُوا. لا تستحلّوا. **(شَعَآئِرَ اللّهِ)** مناسِكِ الحج أوْ مَعَالِمَ دينهِ. **(وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ)** الأشْهُرَ الأرْبَعةَ الحُرُمَ. قال ابن عباس: يعني: لا تستحلوا قتالاً فيه. **(الْهَدْيَ)** الذبيحة التي يسوقها الحاج أو المعتمر؛ وينحرها في آخر أيام الحج أو العمرة، فينهي بها شعائر حجه أو عمرته، وهي نافة أو بقرة أو شاة. **(الْقَلآئِدَ)** مَا يُقَلَّدُ به الهدْيُ عَلامةً له. **(آمِّينَ الْبَيْتَ)** قَاصِدِينَهُ وَهم الحجَّاجُ والعُمَّارُ. **(يَبْتَغُونَ)** يطلبون ويلتمسون. **(فَضْلاً)** الفضل: الإرباح في التجارة. **(وَرِضْوَاناً)** رضا الله عنهم، فلا يحلّ بهم من العقوبة في الدنيا ما أحلّ بغيرهم من الأمم في عاجل دنياهم بحجهم بيته. **(وَإِذَا حَلَلْتُمْ)** من الإحرام المشار إليه بقوله سبحانه: **(وَأَنتُمْ حُرُمٌ)**. **(وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ)** لاَ يحمِلَنَّكمْ أو لا يكْسِبَنَّكم. **(شَنَآنُ)** الشَّنَآنُ: الإبغاضُ. **(أَن صَدُّوكُمْ)** من أجل أن صدوكم. **(الْبِرِّ)** هو العمل بما أمر الله بالعمل به.

سبب النزول[2]

قال ابن عباس: نـزلت في الحطم - اسمه شريح بن ضُبَيِّعـة الكِندي - أتى النبي ﷺ من اليمامة إلى المدينة، فخلّف خيله خارج المدينة ودخل وحده على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: إلام تدعو الناس؟ قال: «**إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**»، فقال: حسن، إلا أن لي أمراء لا أقطع أمرًا دونهم، ولعلي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبيّ ﷺ قال لأصحابه: "**يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان**"، ثم خرج من عنده، فلما خرج قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبي غادر، وما الرجل بمسلم"، فمرّ بسرح المدينه فاستاقه، فطلبوه فعجزوا عنه، فلما خرج رسول الله ﷺ عام القضية سمع تلبية حجاج اليمامة، فقال لأصحابه: "هذا

---

(١) تفسير الطبري. النحاس. الفراء. في ظلال القرآن. تفسير خواطر محمد متولي الشعراوي. توفيق الرحمن.

(٢) الواحدي النيسابوري

الحُطَم وأصحابه"، وكان قد قلد هديًا من سرح المدينة وأهداه إلى الكعبة، فلما توجهوا في طلبه أنـزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يريد: ما أشعر الله، وإن كان على غير دين الإسلام.

وقال زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ وأصحابه بالحديبية حين صدَّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمرّ بهم ناس من المشركين يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: "صُدُّ هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنـزل الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي ولا تعتدوا على هؤلاء العمار إن صدكم أصحابهم.

الإعراب[1]

- **(آمِّين)** اسم معطوف على **(الْقَلآئِدَ)** على حذف مضاف، أي: ولا قتال آمِّين، و **(الْبَيْتَ)** مفعول به لـ **(آمِّينَ)**. جملة **(يَبْتَغُونَ)** حال من الضمير في **(آمِّين)** في محل نصب. والمصدر **(أَن صَدُّوكُمْ)** منصوب على نـزع الخافض اللام، والمصدر **(أن تعتدوا)** منصوب على نـزع الخافض **(عَلى)**. وجملة **(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ)** معطوفة على جملة **(لا تُحِلُّوا)** لا محل لها. وجملة **(وتعاونوا)** معطوفة على جواب النداء السابق. جملة **(وَاتَّقُواْ اللّهَ)** معطوفة على جملة **(وَلاَ تَعَاوَنُواْ)**. وجملة **(إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)** مستأنفة.

- **(شعائر)** جمع شعيرة، اسم لمعالم الدين وحرماته، وقد قلبت ياء المفرد همزة في الجمع، فوزنه في المفرد فعيلة، وفي الجمع فعائل. **(القلائد)** جمع قلادة، اسم جامد وزنه فعالة بكسر الفاء، وقدقلبت الياء إلى همزة في الجمع فوزنه فعائل. **(آمّين)** جمع أمّ، اسم فاعل من أمّ يؤمّ باب نصر وزنه فاعل، وقد أدغمت عين الكلمة مع لأمها.

(اصطادوا) في الفعل إبدال تاء الافتعال (طاء) لمجيئها بعد حرف من أحرف الاطباق وهو الصاد، وأصله اصتادوا، وزنه افتعلوا. **(شنآن)** مصدر شنأ يشنأ باب فرح، وزنه

---

(١) مشكل إعراب القرآن.

فعلان بفتحتين، وإذا سكّنت النون أصبح صفة مشبّهة. **(تعتدوا)** في إعلال بالحذف، أصله تعتديوا، استثقلت الضمّة على الياء فنقلت الى الدال وسكّنت الياء، ثمّ حذفت لالتقاء الساكنين. **(تعاونوا)** الثاني: حذفت منه إحدى التاءين أصله تتعاونوا وزنه تفاعلوا.

القراءات[1]

(وَرِضْوَانًا) قرأ شعبة بضم الراء **(وَرُضْوَانًا)**. والباقون بكسرها، وحجتهم أن ذلك لغتان معروفتان. **(شَنَآنُ)** قرأ ابن عامر وشعبة وأبو جعفر بإسكان النون **(شَنْآنُ)** وهو قليل، والباقون بفتحها وهو الاختيار لأن المصادر مما أوله مفتوح جاء أكثرها محركاً مثل غلى غلياناً وضرب ضرباناً. **(أَن صَدُّوكُمْ)** قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة **(إِن)**، وحجتهما أن الآية نزلت قبل فعلهم وصدهم قال اليزيدي معناه لا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا إن صدوكم يقول إن صدوكم فلا يحملنكم بغضهم على أن تعتدوا. والباقون بفتحها، أي لأن صدوكم وحجتهم أن الصد وقع من الكفار و المائدة في آخر ما أنزل من القرآن وقد صحت الأخبار عن جماعة من الصحابة أن نزول هذه السورة كان بعد فتح مكة لم يكن حينئذ بناحية مكة أحد من المشركين يخاف أن يصد المؤمنين عن المسجد الحرام فيقال لا يحملنكم إن صدكم المشركون عن المسجد بغضكم إياهم أن تعتدوا عليهم فلما كان كذلك دل على أن القوم إنما نهوا عن الاعتداء على المشركين لصد كان قد سلف. **(وَلاَ تَعَاوَنُواْ)** قرأ البزى في الوصل بتشديد التاء مع المد الطويل **(وَلاَ تَّعَاوَنُواْ)**. و الباقون بالتخفيف.

---

(١) البدور الزاهرة.

النداء الثلاثون

(إذا قمتم إلى الصلاة)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

بين يدي النداء

قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ويقول جل وعلا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١] كما قال في أول سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

تكرر في القرآن الكريم تأكيد الخالق الحكيم سبحانه وتعالى على قيمة الطهارة بين عباده، وجعلها واجبة على كل المسلمين في الوضوء لخمس صلوات في اليوم هي الفرائض، هذا غير النوافل، كما أنه جل وعلا افترض الغسل الشرعي لتطهير الجسد في مناسبات عدة للرجال والنساء، ويكفي بياناً لأهمية الطهارة في الإسلام أن أولى خطوات الدخول إلى الإسلام أن يغتسل المرء ثم يتلفظ بعد الغسل بالشهادتين.

وقد قال ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**»(١). ولم يكتف الإسلام بالاهتمام بالطهارة

(١) حديث 556 - باب فضل الوضوء - كتاب الطهارة - صحيح مسلم.

للإنسان نفسه فقط بل اهتم بطهارة المجتمع بشكل عام. وعَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **«أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِى الْمَاءِ الرَّاكِدِ»**[١]. وقد تبين أن كثيراً من الأوبئة مثل الكوليرا والتيفود وشلل الأطفال والتهاب الكبد المعدي تنتقل عن طريق الماء وتعيش فيه، فكان النهي هنا واجباً لصحة الناس ومنع العدوى من تلك الأمراض، ولأهمية الطهارة في الإسلام سر لطيف، يعيننا على إدراك قدرها، والسر في هذا هو أن هذا الدين يعلي من قدر أتباعه حين يقولون سمعنا وأطعنا، فيصيبهم من خير الأعمال الصالحة التي يتقربون بها إلى الله، والمسلم حين يتطهر إرضاء لله فإن الله يتم نعمته عليه فيسمو بنفسه وروحه، ويأخذه إلى آفاق من الطهر والنور، ويشبع أشواقه إلى السكينة والطمأنينة والهدوء النفسي بما لا تستطيع فعله كل عقاقير الأرض الكيماوية.

هداية وتدبر[٢]

1. إن الحديث عن الصلاة والطهارة إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء. وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام.. إنما يجيء لحكمة في نظم القرآن..

إنها - أولاً - لفتة إلى لون آخر من الطيبات.. طيبات الروح الخالصة.. إلى جانب طيبات الطعام والنساء.. لون يجد فيه قلب المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع. إنه متاع اللقاء مع الله، في جو من الطهر والخشوع والنقاء.. فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة؛ استكمالاً لألوان المتاع الطيبة في حياة الإنسان.. والتي بها يتكامل وجود «الإنسان».

واللفتة الثانية.. إن أحكام الطهارة والصلاة؛ كأحكام الطعام والنكاح؛ كأحكام

---

(١) حديث 681 - باب النهى عن البول فى الماء الراكد - كتاب الطهارة - صحيح مسلم.

(٢) في ظلال القرآن. توفيق الرحمن. محاسن التأويل. زهرة التفاسير. تفسير خواطر الشعراوي.

الصيد في الحل والحرمة؛ كأحكام التعامل مع الناس في السلم والحرب.. كبقية الأحكام التالية في السورة.. كلها عبادة لله. وكلها دين الله. فلا انفصام في هذا الدين بين ما اصطلح أخيراً – في الفقه – على تسميته «بأحكام العبادات»، وما اصطلح على تسميته «بأحكام المعاملات»..

٢. الأمر بالطهارة[١]. وبيان كيفية الوضوء وكيفية الغسل. وكيفية التيمم[٢]. وبيان الأعذار الناقلة للمؤمن من الوضوء إلى التيمم. وبيان موجبات الوضوء والغسل. والشكر هو علة الإنعام[٣].

٣. سئل عكرمة عن قول الله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فكلّ ساعة يتوضأ ؟ فقال: قال ابن عباس: لا وضوء إلا من حدث.

٤. أربعة أسباب للتيمم وهي: المرض، والسفر، والحدث (المجيء إلى الغائط)، وملامسة النساء، وفقد الماء في الحضر.

٥. ذكر – تعالى – موجب الغسل وهو الجماع، وكنى عنه بالملامسة، تعليماً لعباده المؤمنين الآداب الرفيعة في مخاطباتهم.

٦. تتعرض الآية إلى الأركان الأساسية في الوضوء.. ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك.. والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم في هذه الآية عن الوضوء، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شيء يُمسح. فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرافق والرجلين إلى الكعبين. والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس. والغسل قد يكفي مرة أو اثنتين أو ثلاثا ليتأكد الإنسان تمامًا من الغسل، ولكن إذا

---

(١) في الحديث الصحيح: "الطهور شطر الإيمان". رواه مسلم.

(٢) الأكثرون بالنسبة للتيمم على أنه من ضربتين: إحداهما للوجه، والأخرى لليدين، ومسح اليدين يكون ظهرًا وبطنًا، ليعم المسح أجزاءهما.

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. أبو بكر الجزائري.

كانت المياه قليلة فيكفي أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة.

٧. لم يأت الحق بالممسوح في جانب والمغسول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدي وإلا لجاء بالمغسول معًا والممسوح معًا.

٨. يقول الشعراوي رحمه الله تعالى في خواطره: وقد يقول قائل: أليست "لامستم النساء" كالجنابة؟ ونقول: إن الذي يجيء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه، لأن الحق يرتب لِعبادة لا تسقط عن المكلف أبداً؛ لذلك لن يكلفه بشيء قد لا يجده، فقد لا يجد الإنسان المياه، وعليه إذن بالتيمم؛ لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبدًا عن المكلف حتى في حالة مرضه الذي لا يستطيع أن يحرك معه أي عضو من جسمه، هنا يسمح سبحانه للمريض أن يصلي جالسًا، أو مستلقيًا أو يصلي بالإيماء برأسه، أو يصلِّي بأهداب عينيه، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على قلبه؛ لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن الإنسان مادام فيه عقل.

٩. إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَن أنعم عليه؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقائه. وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر: "الله أكبر" فهو منذ تلك اللحظة يوجد في حضرة الله. وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهي نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً. فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذي أنعم على الإنسان، إنها فيوضات من غيب؛ فكرمه لك غيب كالاعتدال في المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر.

١٠. قال ﷺ: «لاَ تُقْبَلُ صَلاَةُ مَنْ أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ [1]»

....

(١) حديث ١٣٥ - الوضوء - صحيح البخارى.

المعاني المفردة[1]

(الْمَرَافِقِ) العضدان. **(وَامْسَحُواْ)** المسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء. **(الْكَعْبَينِ)** العظمان الناتئتان عند بداية الساق. **(جُنُباً)** الجماع والاحتلام. **(فَاطَّهَّرُواْ)** أصلها فتطهروا، فأدغمت التاء في الطاء لاتحاد مخرجيهما، ومعنى اطهروا: اغتسلوا. **(الْغَائِطِ)** مكان التغوط والتبول. **(فَتَيَمَّمُواْ)** فاقصدوا. من أم الشيء إذا قصده. **(صَعِيداً)** وجها ظاهرًا من الأرض. **(طَيِّباً)** طاهرًا غير نجس. **(حَرَجٍ)** ضِيقٍ فِي دِينِهِ.

النحو والصرف والبلاغة[2]

– الجملة الشرطية **(إذا قمتم..)** مستأنفة جواب النداء. **(وأرجلكم)** اسم معطوف على **(أيديكم)**. والجار **(أو على سفر)** متعلق بمعطوف على **(مرضى)** محذوف أي: أو كائنين على سفر، والجارُ **(منكم)** متعلق بنعت لـ **(أحد)**، **والجار (من الغائط)** متعلق بـ **(جاء)**. ومفعول **(يريد)** الأول محذوف أي العُسْر، والمصدر **(ليجعل)** مجرور متعلق بـ **(يريد)**. و **(حرج)** مفعول به، و **(من)** زائدة لدخولها على نكرة وسَبْقها بنفي. ومفعول **(يريد)** الثاني محذوف أي:اليسر، وجملة **(ولكن يريد)** معطوفة على جملة **(يريد)**، وجملة **(لعلكم تشكرون)** مستأنفة لا محل لها.

– **(المرافق)** جمع المرفق، اسم للعضو المعروف وزنه مفعل بكسر الميم وفتح العين أو بفتح الميم وكسر العين، ووزن المرافق مفاعل. **(الكعبين)** مثنّى كعب، اسم للعظم الناشز فوق القدم من الجانبين، وزنه فعل بفتح فسكون. **(اطّهّروا)** الأمر من اطّهّر بمعنى تطهّر، وهو وزن شاذ من أوزان المزيد وزنه افتعل بتشديد العين.. وفيه إبدال تاء الافتعال طاء لمجيئها بعد الطاء، ثمّ أدغمت الطاءان معا.

– **الكناية:** في قوله تعالى **﴿أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الْغائِطِ﴾** فالمجيء من الغائط– وهو

---

(١) التفسير المنير. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. تفسير خواطر الشعراوي.

(٢) إعراب مشكل القرآن. الجدول في إعراب القرآن.

المطمئن أو المنخفض في الأرض- كناية عن الحدث، جرياً على عادة العرب، وهي أن الإنسان منهم إذا أراد قضاء حاجة قصد مكاناً منخفضاً من الأرض وقضى حاجته فيه.

القراءات[1]

(وَأَرْجُلَكُمْ) قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي يعقوب بنصب اللام، والباقون بكسرها **(وَأَرْجُلِكُمْ)**. الحجة لمن نصب أنه رده بالواو على أول الكلام لأنه عطف محدودا على محدود لأن ما أوجب الله غسله فقد حصره بحد وما أوجب مسحه أهمله بغير حد والحجة لمن خفض أن الله تعالى أنزل القرآن بالمسح على الرأس والرجل ثم عادت السنة للغسل ولا وجه لمن أدعى أن الأرجل مخفوضة بالجوار لأن ذلك مستعمل في نظم الشعر للاضطرار وفي الأمثال والقرآن لا يحمل على الضرورة وألفاظ الأمثال.

(لاَمَسْتُمُ) قرأ حمزة والكسائي وخلف بحذف الألف بين اللام والميم **(لَمَسْتُمُ)**، والباقون بإثباتها. الحجة لمن أثبتها أنه جعل الفعل للرجل والمرأة ودليله أن فعل الاثنين لم يأت عن فصحاء العرب إلا بـ فاعلت وبـ المفاعلة، وأوضح الأدلة على ذلك قولهم جامعت المرأة، ولم يسمع منهم جمعت. والحجة لمن طرحها أنه جعلها فعلا للرجل دون المرأة ودليله قوله تعالى: **(إذا نكحتم المؤمنات)** ولم يقل ناكحتم. وكل قد ذهب من العربية مذهباً أبان به عن فضله وفصاحته.

---

(١) البدور الزاهرة. الحجة في القراءات.

النداء الواحد والثلاثون

كونوا قوامين لله شهداء بالقسط

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

بين يدي النداء

[لقد نهى الله الذين آمنوا من قبلُ أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام، على الاعتداء. وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل. وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق. فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين! والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة. فيقدم له بما يعين عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ...﴾ ويعقب عليه بما يعين عليه أيضاً: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله. حين تقوم لله، متجردة عن كل ما عداه. وحين تستشعر تقواه، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور. وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق، ويثبتها عليه. وما غير القيام لله، والتعامل معه مباشرة، والتجرد من كل اعتبار آخر، يملك أن

يستوي بهذه النفس على هذا المرتقى. وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين، كما يكفله لهم هذا الدين؛ حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر؛ وأن يتعاملوا معه، متجردين عن كل اعتبار.

وبهذه المقوّمات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير؛ الذي يتكفل نظامه للناس جميعاً - معتنقيه وغير معتنقيه - أن يتمتعوا في ظله بالعدل؛ وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه، يتعاملون فيها مع ربهم، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن. وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية. مهما يكن فيها من مشقة وجهاد. ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة؛ وأدت تكاليفها هذه؛ يوم استقامت على الإسلام. ولم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا، ولا مجرد مثل عليا، ولكنها كانت واقعاً من الواقع في حياتها اليومية، واقعاً لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد، ولم تعرفه في هذا المستوى إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة. والأمثلة التي وعاها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة. تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية، قد استحالت في حياة هذه الأمة منهجاً في عالم الواقع يؤدى ببساطة، ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة. إنها لم تكن مثلاً عليا خيالية، ولا نماذج كذلك فردية. إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن هناك طريقاً آخر سواه. وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها - بما فيها جاهلية العصور الحديثة - ندرك المدى المتطاول بين منهج يصنعه الله للبشر، ومناهج يصنعها الناس للناس. ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة. إن الناس قد يعرفون المبادىء؛ ويهتفون بها. ولكن هذا شيء، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر. وهذه المبادىء التي يهتف بها الناس للناس طبيعي، ألا تتحقق في عالم الواقع. فليس المهم أن يُدعى الناس إلى المبادىء؛ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها. المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة. المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر. المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدحهم لتحقيق هذه المبادىء. وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادىء التي تدعو إليها، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله، فما يقوله فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان

له على النفوس والضمائر؟ وماذا يملك للناس حين يعودون إليه بكدحهم وكدهم في تحقيق هذه المبادىء؟

يهتف ألف هاتف بالعدل. وبالتطهر. وبالتحرر. وبالتسامي. وبالسماحة. وبالحب. وبالتضحية. وبالإيثار.. ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس؛ ولا يفرض نفسه على القلوب. لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان! ليس المهم هو الكلام.. ولكن المهم من وراء هذا الكلام!

ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادىء والمثل والشعارات - مجردة من سلطان الله - ولكن ما أثرها؟ إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم. تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور. فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس. فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر!

ثم إن قيمة هذه «الوصايا» في الدين، أنها تتكامل مع «الإجراءات» لتكييف الحياة. فهو لا يلقيها مجردة في الهواء. فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا؛ وإلى مجرد شعائر؛ فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان..

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين؛ وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه. ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات!. وهذا هو «الدين» في المفهوم الإسلامي دون سواه. الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة.

وحين تحقق «الدين» بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة؛ والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة؛ كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء. وحين تحول «الدين» إلى وصايا على المنابر؛ وإلى شعائر في المساجد؛ وتخلى عن نظام الحياة. لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة! [1].

---

(١) في ظلال القرآن.

هداية وتدبر[1]

١. يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله، شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم، فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري.

٢. ثمرة الآية الدلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالقسط. يدخل فيه الشهادة بالعدل والحكم به. وكذلك الفتوى. وأن قول الحق لا يترك وجوبه بعدوّ ولا صديق. ولا يجوز اتباع الهوى.

٣. إن التكاليف وإن كثرت إلاّ أنها محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فقوله ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى النوع الأول وهو التعظيم لأمر الله، ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية، وقوله ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله وفيه قولان: **الأول:** قال عطاء: يقول لا تحاب في شهادتك أهل ودك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

الثاني: قال الزجاج: المعنى تبينون عن دين الله، لأن الشاهد يبين ما يشهد عليه.

٤. إذا كان هذا العدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. وفي الآية تنبيه على مراعاة حق المؤمنين في العدل، إذ كان تعالى قد أمر بالعدل مع الكافرين.

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن. توفيق الرحمن. تفسير مفاتيح الغيب. انوار التنزيل واسرار التأويل. تفسير البحر المحيط. النكت والعيون. زهرة التفاسير: الإمام الجليل / محمد أبو زهرة. تفسير اللباب في علوم الكتاب. التفسير المنير. تفسير المنار: محمد رشيد رضا.

٥. ﴿ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ فى هذه الشهادة ثلاثة أقاويل. **أحدها**: أنها الشهادة بحقوق الناس، وهذا قول الحسن. **والثاني**: الشهادة بما يكون من معاصي العباد، وهذا قول بعض البصريين. **الثالث**: الشهادة لأمر الله تعالى بأنه حق.

٦. لما كان الشنآن محله القلب وهو الحامل على ترك العدل أمر بالتقوى، وأتى بصفة خبير ومعناها عليم، ولكنها تختص بما لطف إدراكه، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية[١].

٧. المقصود بهذا إشعار المؤمنين بأن إيفاءهم بالعقود جملة وتفصيلا هو من مقتضى الإيمان، وأن نكث العهود والإخلالى بما تقتضيه العقود لا يتفق والإيمان. فالمؤمن حقا يوفى بالتزاماته لربه ولنفسه ولغيره. ومن هنا نفهم معنى الحديث عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ: **«لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهْوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»** [٢].

٨. نهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكِيداً، ثم ذكر علة الأمر بالعدل وهو قوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، والمعنى: أقرب إلى الاتقاء من معاصي اللَّه، وقيل: أقرب إلى الاتقاء من عذاب اللَّه.

٩. **يقول الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي:**

- نفاذ حكم العدو على عدوه في اللّه تعالى، ونفاذ شهادته عليه لأنه تعالى أمر بقوله: كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ بالعدل وإن أبغضه، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه مع البغض له، لما كان لأمره بالعدل فيه وجه.
- إن كفر الكافر لا يمنع من العدل في معاملته، وفي الآية الآمرة بالعدل والتقوى

---

(١)

(٢) حديث ٦٨٩٨ – المحاربين – صحيح البخارى.

دلالة أيضا على أن يقتصر في المحاربة على المستحق للقتال، وأن المثلة بالأعداء غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وآذونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لإيقاع الغم والحزن بهم.

- وجوب أداء الشهادات على وجهها من غير محاباة ولا ظلم. فهذه الآية وآية النساء [٤- ١٣٥] تعالج داء خطيرا من أكبر الكبائر وهو كتمان الشهادة وشهادة الزور.
- وجوب العدل في معاملة الناس قاطبة، سواء كانوا أعداء أو أصدقاء لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ..﴾ الآية.
- عرفان الجميل ووجوب تذكر نعمة اللّه على المؤمنين في رد كيد الأعداء عنهم وعن نبيهم عليه الصلاة والسلام.
- وجوب تقوى اللّه بنحو عام في كل أحوال الإنسان، ووجوب التوكل على اللّه بعد اتخاذ الأسباب، لإحراز السعادة الدنيوية والأخروية.

١٠. (الْقِسْطُ): هو ميزان الحقوقِ، متى وقعت فيه المحاباة والجور - لأي سبب أو علة من العلل - زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفاسد وضروب العدوان بينهم، وتقطعت روابطهم الاجتِماعية، وصار بأسهم بينهم شديدًا، فلا يلبثون أن يسلط الله تعالى عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل والشهادة بالقسط منهم، فيزيلون استقلالهم، ويذيقونهم وبالهم، وتلك سنة الله التي شهدناها في الأمم الحاضرة، وشهد بها تاريخ الأممِ الغابرة، ولكن الجاهلين الغافلين لا يسمعون ولا يبصِرون؛ فأنى يعتبرون ويتعِظون؟!

....

المعاني المفردة[1]

"قَوَّامِينَ" ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية. وَالْقِيَامُ هُنَا بِمَعْنَى الْمُوَاظَبَةِ. **"بِالْقِسْطِ"** بالعدل لا بالجور. **"وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ"** لا يحملنكم. **"شَنَآنُ"** بغض.

سبب النزول[2]

نزلت هذه الآية في النبي ﷺ، واختلف المفسرون فى سبب نزولها فيه على قولين: أحدهما: أن النبي خرج إلى يهود بني النضير، يستعين بهم في دية، فهمّوا أن يقتلوه، فنزل ذلك فيه، وهذا قول قتادة، ومجاهد. ثم إن الله تعالى ذكرهم نِعَمَهُ عليهم بخلاص نبيهم بقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾. والقول الثاني: أن قريشاً بعثت رجلاً، ليقتل رسول الله ﷺ، فَأَطْلَعَ الله نَبِيَّهُ على ذلك، فنزلت فيها هاتان الآيتان، وهذا قول الحسن.

الإعراب والبلاغة[3]

- الجار **"لله"** متعلق بـ **"قوّامين"**، **"شهداء"** خبر ثان، والجار **"بالقسط"** متعلق بـ **"شهداء"**. وجملة **"ولا يجرمنّكم"** معطوفة على جملة **"كونوا"** لا محل لها. والمصدر **"ألا تعدلوا"** مجرور بـ على متعلق بـ**"يجرمنّكم"**. وجملة **"هو أقرب"** مستأنفة لا محل لها.

- التكرير في طلب العدل: في قوله تعالى ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ﴾ وذلك إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأول نزل في المشركين وهذا في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ.

---

(١) توفيق الرحمن. تفسير الكشاف. التحرير والتنوير.

(٢) تفسير النكت والعيون/ الماوردي.

(٣) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. الجدول في إعراب القرآن. مشكل إعراب القرآن للمسكي.

القراءات

(**شَنَآنُ قَوْمٍ**) قرأ ابن عامر و شعبة وأبو جعفر بإسكان النون (**شَنْآنُ**)، مثل سرعان ووشكان، والباقون بفتحها، مثل غلى غلياناً وضرب ضرباناً.

النداء الثاني والثلاثون

اذكروا نعمت الله عليكم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [**المائدة: ١١**].

بين يدي النداء

نعم الله لا تعد ولا تحصى، والإنسان في هذه الدنيا يتقلب في نعم الله سبحانه وتعالى، وإذا تحدثنا عن نعم الله سبحانه وتعالى وكيف يتعامل معها المسلم فإننا أمام قواعد في التعامل مع هذه النعم من أهمها ما يلي:

أولاً: إن نعم الله كثيرة على كل إنسان لا يمكن أن تعد، يقول تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [**النحل: ١٨**].

شكا رجل ضيق حاله ومعاشه.. فقال له عالم حكيم: أتبيع بصرك بمئة ألف؟ قال: لا. قال الحكيم: أتبيع سمعك بمئة ألف؟ قال: لا. قال الحكيم: فأنت الغني بما لا يباع بثمن.

ثانياً: إن النعم ابتلاء وامتحان كلها، حتى ما كان ظاهره الجزاء والإكرام فهو في الحقيقة ابتلاء جديد، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [**الفجر: ١٥ - ١٧**].

ولو كانت النعمة إكراماً لكان الرسل أغنى الناس وأكثرهم أموالاً ولما كان للكفار شيء من الدنيا إطلاقاً.

ثالثاً: النجاح في التعامل مع النعم إنما يكون بشكر الله تعالى على هذه النعم،

والشكر أقسام:

القسم الأول: الشكر بالقلب:

ويتحقق بالاعتقاد الجازم بأن كل النعم من الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

القسم الثاني: الشكر باللسان: هو إظهار الشكر لله بالتحميد، وإظهار الرضا عن الله تعالى والتحدث بالنعم.

عن النعمان بن بشير قال: قال النبي ﷺ على المنبر: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»(١).

الشكر بالعمل:

والشكر العملي يختلف من نعمة إلى أخرى، فمن رزقه الله الهداية دعا الناس إليها، ومن رزقه الله رجاحة العقل تعلم وعلم، واستخدمه في حل المشكلات خاصة كانت أم عامة، ومن آتاه الله مالاً سخره للإنفاق في سبيل الله سراً وعلانية، وحافظ عليه فلم يسرف فيه ولم يقتر على نفسه وعياله، ولم يضع ماله مع من يتلفه بسوء استخدام أو نحوه، ومن آتاه الله ولداً أحسن تربيته وإصلاحه، فالشكر العملي أن تستخدم هذه النعم جميعاً في طاعة الله لا في معصيته قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

الرابع: أننا نتقلب بين نعم الله الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان: ٢٠].

---

(١) حديث ١٨٩٤٦ – حديث النعمان بن بشير – مسند أحمد.

الخامس: من قواعد التعامل مع نعم الله تعالى، بل إن اعظمها هو أن إعظم نعمة امتنها الله علينا أن هدانا لتوحيده جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [**فاطر: ٣**].

ثم من أعظم نعم الله علينا أن جعلنا من أمة محمد ﷺ الذي آتاه ربه الكتاب (وهو القرآن العظيم) والحكمة (وهي السنة النبوية) قال ربنا سبحانه ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [**البقرة: ٢٣١**].

هداية وتدبر[1]

١. تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيّهم، فإنه لو حصل ذلك لكان من أعظم المحن. والذكر يعني استحضار الشيء إلى الذهن؛ لأن الغفلة تطرأ على الإنسان وعليه الا يستمر فيها.

٢. ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: "نعم"؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها؛ فكل نعمة مفردة في عظم وضخامة تستحق الشكر عليها، أو أن نعمة الله هي كل فيضه على خلقه، فأفضل النعمة أنه ربنا.

٣. جاء سبحانه بـ "**إذ**" فالمراد نعمة بخصوصها؛ لأن "**إذ**" تعني "حين" فالحق يوضح: اذكروا نعمة الله عليكم في ذلك الوقت الذي حدثت فيه هذه المسألة؛ لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته في هذا الموقف، إنه يذكرنا بالنعمة التي حدثت عندما همّ قوم ببسط أيديهم إليكم.

٤. إن الذي عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله، من جلب المنفعة ودفع المضرة، ما لا يحصل لغيره. وكذلك الدعاء. والقرآن يدل على ذلك في مواضع كثيرة. قال

---

(١) انظر: محاسن التأويل. والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. وتفسير البحر المحيط. والتحرير والتنوير/ ابن عاشور. وخواطر محمد متولي الشعراوي. وفي ظلال القرآن.

تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[**الطلاق: ٢- ٣**]. والحسب: الكافي. فبيّن أنه كاف مَنْ توكل عليه.

٥. جاء الأمر بالتقوى أمر مواجهة مناسباً لقوله اذكروا. وجاء الأمر بالتوكل أمر غائب لأجل الفاصلة، وإشعاراً بالغلبة، وإفادة لعموم وصف الإيمان، أي: لأجل تصديقه بالله ورسوله يؤمر بالتوكل كل مؤمن، ولابتداء الآية بمؤمنين على جهة الاختصاص وختمها بمؤمنين على جهة التقريب.

٦. عرفان الجميل، ووجوب تذكر نعمة اللّه على المؤمنين في رد كيد الأعداء عنهم وعن نبيهم عليه الصلاة والسلام.

٧. وجوب تقوى اللّه بنحو عام في كل أحوال الإنسان، والأمر بالتقوى عقب ذلك لأنّها أظهر للشكر، فعطف الأمر بالتَّقوى بالواو للدلالة على أنّ التّقوى مقصودة لذاتها، وأنّها شكر لله بدلالة وقوع الأمر عقب التذكير بنعمة عظمى.

٨. وجوب التوكل على اللّه بعد اتخاذ الأسباب؛ لإحراز السعادة الدنيوية والأخروية. أمر لهم بالاعتماد على الله دون غيره. وذلك التّوكل يعتمد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات فناسب التّقوى. وكان من مظاهره تلك النّعمة الّتي ذُكّروا بها.

٩. **البلاغة:** بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس.

١٠. القرآني يتبع طريقة الصورة والحركة – بسط الأيدي وكفها – لأن هذه الطريقة تطلق الشحنة الكاملة في التعبير؛ كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى؛ مصاحباً للواقعة الحسية التي يعبر عنها مبرزاً لها في صورتها الحية المتحركة.. وتلك طريقة القرآن.

....

المعاني المفردة [١]

- هَمَّ قَوْمٌ: أرادوا وتمنوا، وعزموا على إنفاذ إرادتهم. والهمّ هو حديث النفس، فإذا ما خرج إلى أول خطا النزوع فذلك هو القصد، والهم هو الشيء الذي يغلب على فكر الإنسان في نفسه ويكون مصحوباً بغم.

يَبْسُطُواْ: يقال: بسط إليه لسانه: إذا شتمه، وبسط إليه يده: إذا بطش به. يَبْطُشُوا بِكُمْ بِالقَتْلِ وَالإِهْلاَكِ.

فَكَفَّ: منع وردّ وحبس. وهو مجَاز عن الإعراض عن السوء خاصّة.

سبب النزول [٢]

في سبب نزولها أقوال:

أحدها: أن رجلاً من محارب قال لقومه الا أقتل لكم محمداً فقالوا وكيف تقتله فقال أفتك به فأقبل إلى رسول الله ﷺ وسيفه في حجره فأخذه وجعل يهزه ويهم به فيكبته الله ثم قال يا محمد ما تخافني قال: لا. قال: لا تخافني وفي يدي السيف؟ قال: يمنعني الله منك، فأغمد السيف. وفي بعض الألفاظ فسقط السيف من يده. وفي لفظ آخر فما قال له النبي ﷺ شيئا ولا عاقبه.

والثاني: أن اليهود عزموا على الفتك برسول الله ﷺ فكفاه الله شرهم قال ابن عباس صنعوا له طعاما فأوحي إليه بشأنهم فلم يأت وقال مجاهد وعكرمة خرج إليهم يستعينهم في دية فقالوا اجلس حتى نعطيك فجلس هو وأصحابه فخلا بعضهم ببعض

---

(١) التفسير الواضح. ومحاسن التأويل. وتفسير القرآن/الفيروز آبادي. وبحر العلوم/السمرقندي. والبحر المحيط/أبو حيان. وأيسر التفاسير/ أبو بكر الجزائري. وأيسر التفاسير/ أسعد حومد. خواطر محمد متولي الشعراوي.

(٢) زاد المسير – ابن الجوزي. والواحدي.

وقالوا لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فقال عمرو بن جحاش أنا فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله يده وجاء جبريل فأخبره وخرج ونزلت هذه الآية.

الإعراب[1]

- **قوله (إذ همَّ قوم)**: اسم ظرفي في محل نصب بدل اشتمال من **(نعمة)**. وجملة **(همَّ)** مضاف إليه في محل جر، والمصدر **(أن يبسطوا)** منصوب على نـزع الخافض الباء. والفاء في **(فليتوكل)** زائدة، وجملة **(وعلى الله فليتوكل المؤمنون)** مستأنفة.

- **الكناية:** في قوله تعالى: «**أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**» أي بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك. فالكلام كناية عن بطشهم.

القراءات[2]

(نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ) رسم بالتاء ووقف عليه بالهاء **(نِعْمَة)** ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وغيرهم بالتاء **(نِعْمَتَ)**.

---

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

(٢). البدور الزاهرة.

النداء الثالث والثلاثون

ابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

بين يدي النداء

[الخوف ينبغي أن يكون من الله. فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان. أما الخوف من السيف والسوط فهو منزلة هابطة. لا تحتاج إليها إلا النفوس الهابطة.. والخوف من الله أولى وأكرم وأزكى.. على أن تقوى الله هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن؛ وهي التي تكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس، ولا تتناولها يد القانون. وما يمكن أن يقوم القانون وحده - مع ضرورته - بدون التقوى؛ لأن ما يفلت من يد القانون حينئذ أضعاف أضعاف ما تناله. ولا صلاح لنفس، ولا صلاح لمجتمع يقوم على القانون وحده؛ بلا رقابة غيبية وراءه، وبلا سلطة إلهية يتقيها الضمير.

والبشر حين يشعرون بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون في الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية؛ ويكونون - بهذا - في أصلح أوضاعهم وأقربها إلى الفلاح.[(١)]

هداية وتدبر[(٢)]

١. أ. اتقوا الله.

ب. ابتغوا إليه الوسيلة.

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) انظر: توفيق الرحمن. ومحاسن التأويل. والتفسير المنير. تفسير الطبري. خواطر متولي الشعراوي. الجدول في إعراب القرآن.

جـ. جاهدوا في سبيله.

د. النتيجة: الفلاح.

٢. عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَة** [(١)]».

٣. يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب، وأوعد من العقاب.. أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم. واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه. وجاهدوا أيها المؤمنون أعدائي وأعداءكم في سبيلي - دينه وشريعته التي شرعها لعباده، وهي الإسلام - وأتعبوا أنفسكم في قتالهم وحملهم على الدخول فـي الحنيفية المسلمة كيما تنجحوا فتدركوا البقاء الدائم، والخلود فـي جنانه.

٤. عن أبي وائل: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، قال: القربة في الأعمال. وقال ابن زيد: المحبة تحبّبوا إلى الله، وقرأ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

٥. لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان:

أحدها: التوسّل بطاعته. فهذا فرض لا يتمّ الإيمان إلاّ به.

والثاني: التوسّل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته.

والثالث: التوسّل به. بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته. فهذا هو الذي لم

---

(١) حديث ٦١٧ – الأذان – صحيح البخاري.

تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا في مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم. وإنما ينقل شيءٌ من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة. أو عن مَن ليس قوله حجة، وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه، إنه لا يجوز. ونهوا عنه حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق، ولا يقول أحد: أسألك بحق أنبيائك. قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحدٍ أن يدعوا إلاّ به. وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك، أو بحق خلقك. وهو قول أبي يوسف. قال أبو يوسف: بمعقد العز من عرشه هو الله. فلا أكره هذا. وأكره أن يقول: بحق فلانٍ، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام. قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز. لأنه لا حق للخلق على الخالق. فلا تجوز وفاقاً.

وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه - من أن الله لا يُسأل بمخلوق - وهو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق، فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق، أولى وأحرى. وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾.- فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته، ما يحسن معه إقسامه. بخلاف المخلوق، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها. كما قال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ** »[1]. وفي لفظ: «**فقد كفر**». وقد صححه الحاكم. وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**أَلاَ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلاَ يَحْلِفْ إِلاَّ بِاللَّهِ**». فكانت قريش تحلف بآبائها فقال «**لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**». وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة، أو بما يعتقد هو حرمته - كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وغير ذلك... - لا ينعقد يمينه، ولا كفارة في الحنث بذلك. والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور، وهو مذهب أبي حنيفة، وأحد القولين

(١) حديث ١٦٢٠ - النذور والأيمان - سنن الترمذى. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

في مذهب الشافعي وأحمد. وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك.

٦. الوسيلة المطلوبة هى الأعمال الصالحة، والعمل الصالح يحتاج فى أدائه إلى عزيمة تقهر العقبات، وتسترخص النفس والنفيس، وهذا هو الجهاد المؤدى إلى الفلاح.

٧. الجهاد من الجهد: وهو المشقة والتعب، وسبيل اللّه: هي طريق الحق والخير والفضيلة والحرية للأمة، والجهاد في سبيل اللّه يشمل جهاد النفس بكفها عن أهوائها، وحملها على العدل في جميع الأحوال، وجهاد الأعداء الذين يقاومون دعوة الإسلام.

٨. الجهاد في سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أن يظل المنهج الذي آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة، وذلك لا يتأتّى إلا بإشاعة المنهج في العالم كله. والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد في سبيل الله كان عندها شيء من الإيثار الإيماني. وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصّله إلى غيرها، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها في غير ديار الإسلام، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شيء.

٩. فمن مصلحة الخيِّر أن يشيع خيره في الناس؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره؛ لأن الناس تأمن جانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر.

فقوله الحق: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ يصنع أمة إيمانية مُتحضرة، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره في الكون. فمن يعبد الإله الواحد أولى بسرّ الله في الوجود، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب، لكننا نملك المصانع التي تنتج، وعندنا الزراعة التي تكفي حاجات الناس، عندئذ سنحقق الكفاية. وما لا تستعمله في الحرب سيعود على السلام. ويجب أن تفهموا أن

كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب، وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام.

١٠. نعلم أن لعلّ تفيد الترجي وتأمُّل حصول الشيء أما في القرآن الكريم فقد وردت كثيرا في ختام الآيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كما في هذه الآية و﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ..﴾ إلخ كما في آيات كثيرة ولكنها في هذا المجال لا تفيد رجاء وقوع الشيء وإمكانية حصوله، وإنما تفيد تحققه وحصوله يقينا دون أدنى ريب. وهذا أسلوب بارع من أساليب الإعجاز في القرآن الكريم.

....

المعاني المفردة[(١)]

وَابْتَغُواْ: اطلبوا. تقرّبوا.

الْوَسِيلَةَ: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضًا: عَلم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش. وهي القربة التي ينبغي أن يطلب بها. قال الراغب: الوسيلة: التوصل إلى الشىء برغبة، وهى أخص من الوصيلة، لتضمنها معنى الرغبة، وحقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة، وهى كالقربة. والواسل: الراغب إلى الله – تعالى..

تُفْلِحُونَ: تفوزون. تنجون من النار وتدخلون الجنة.

(١) تفسير ابن كثير. والتفسير المنير. وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. والوسيط في تفسير القرآن الكريم.

الإعراب[1]

- **(اتّقوا)** فعل أمر مبني على حذف النون.. و**الواو** فاعل **(اللّه)** لفظ الجلالة مفعول به منصوب **(الواو)** عاطفة **(ابتغوا)** مثل اتّقوا **(إلى)** حرف جرّ و**(الهاء)** ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ **(ابتغوا)** - يجوز أن يتعلّق بالوسيلة لأنها بمعنى التوسّل به. -، **(الوسيلة)** مفعول به منصوب **(الواو)** عاطفة **(جاهدوا)** مثل اتّقوا **(في سبيل)** جارّ ومجرور متعلّق ب **(جاهدوا)**، و**(الهاء)** ضمير مضاف إليه **(لعلّ)** حرف مشبّه بالفعل و**(كم)** ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ **(تفلحون)** مضارع مرفوع.. والواو فاعل.

- **(ابتغوا)** فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف، أصله ابتغيوا بضمّ الياء، ثقلت الضمّة على الياء فنقلت الى الغين وسكّنت الياء- إعلال بالتسكين- ثمّ حذفت الياء تخلّصا من التقاء الساكنين فأصبح ابتغوا، وزنه افتعوا. **(الوسيلة)** اسم مشتقّ وزنه فعيلة بمعنى مفعولة من فعل وسل يسل باب وعد.

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

النداء الرابع والثلاثون

لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

بين يدي النداء

[إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية؛ وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها؛ ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه

للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان؛ حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! - ناسين تعليم القرآن كله؛ وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً. وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذي شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان.. في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر[1]، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية الإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرؤون القرآن. وإذا قرؤوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام؛ فظنوها دعوة الولاء الذي يحذِّر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض؛ تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذي لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعي الوحيد!][2].

---

(١) وأفغانستان والعراق والفلبين والشيشان والسودان...

(٢) في ظلال القرآن.

هداية وتدبر[1]

١. إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنَّه منهم في التحزّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.

٢. ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ هو حكم تكليفي. وحيثية الإيمان بالله. فما دمت قد آمنت بالله فكل من تقدح أنت في إيمانه بمخالفته لمنهج ربه لا يصح أن يكون مؤتمناً على نصرتك؛ لأنه لم يكن أميناً على ما معه فهل تتوقع منه أن يعينك على الأمانة التي معك لا؛ لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من منهج. والولاية نصرة، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور. وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك، أو يتظاهرون بنصرتك، إنهم سيفعلون ما قاله الحق: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [التوبة: 47] إنهم لو دخلوا في صفوفكم لفعلوا فيكم مثلما يفعل المنافقون، فما بالنا بالذين خانوا أمانة الكتب المنزلة عليهم؟ إذن فالموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك في الغاية العليا. وما دام هناك من يختلف مع الإسلام في الغاية العليا وهي الإيمان فلا يصح أن يأمنه المسلم.

٣. علل تعالى النهي بقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر، فـ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري. جامع لطائف التفسير. زهرة التفاسير. تفسير النكت والعيون. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لباب التأويل في معاني التنزيل. تفسير البحر المحيط. تفسير لطائف الإشارات. تيسير التفسير/ القطان. خواطر محمد متولي الشعراوي. مفاتيح الغيب حـ ٨ صـ١٠ ـ ١١.

(٢) قال ﷺ: «لاَ تَرَايَا نَارَاهُمَا». ومنه قول عمر رضي الله عنه لأبي موسى في كاتبه النصراني: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خوّنهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله: وروي: أنه قال

4. لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه – سبحانه – إيثاراً للسكون إلى الحظ، أو احتشاماً من القيام للحق، أو ركوناً إلى قرابة نَسَبٍ، أو استحقاقاً لمودة حميم، أو تهيباً من استيحاش صديق. بل صمموا عقودكم على التبرِّي منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ التحق بهم، وانخرط في سِلكهم، وعُدَّ في جملتهم.

٥. حكم هذه الآية باقٍ. وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظه من هذا المقت الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملابسة فلا تدخل في النهي، وقد عامل رسول الله ﷺ يهودياً ورهنه درعه.

٦. إن كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله، وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوباً له في ذلك الدين، وتصويب الكفر كفر، والرضا بالكفر كفر، فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة. **وثانيها**: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع منه. والقسم **الثالث**: وهو كالمتوسط بين القسمين الأولين، هو أن موالاة الكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة، والمظاهرة، والنصرة إما بسبب القرابة، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه، وذلك يخرجه عن الإسلام فلا جرم هدد الله تعالى فيه فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

٧. لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء بمعنى أن يتولوهم دون المؤمنين، فأما إذا تولوهم وتولوا المؤمنين معهم فذلك ليس بمنهي

له أبو موسى: لا قوام للبصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام، يعني هب أنه قد مات، فما كنت تكون صانعاً حينئذ فاصنعه الساعة، واستغن عنه بغيره.

عنه، وأيضاً فقوله ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه زيادة مزيّة، لأن الرجل قد يوالي غيره ولا يتخذه موالياً فالنهي عن اتخاذه موالياً لا يوجب النهي عن أصل مولاته.؟ الجواب: هذان الاحتمالان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تجوز موالاتهم دلّت على سقوط هذين الاحتمالين.

٨. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ يحتمل وجهين: **أحدهما**: موالاتهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر. **والثاني**: موالاتهم في الدين فإنه منهم في حكم الكفر، وهذا قول ابن عباس.

٩. تعليل صريح للنهى عن أن يكون المؤمنون أو بعضهم فى ولاية غير المؤمنين، وأن تكون سيوفهم وكل قوتهم لغير المؤمنين. والذى يستفاد أن السبب فى أنه لا يجوز للمؤمنين أن يتولوا غير المؤمنين بأن يكونوا فى ولايتهم، يتكون من ثلاثة أمور:

أولها: أن غير المؤمنين لا يمكن أن يرعوا حقوق المؤمنين حق الرعاية، بل لا يألونهم خبالاً، وقد حققت الأيام ذلك، فإن مسلمى يوغسلافيا مع قيامهم بحق إقليمهم فى نصرته لا يكادون يستمتعون بأى حق سياسى، ولا يتولون أعمالاً إدارية إلا فى صغير الأمور.

وثانيها: أن الذى يكون فى ولاية غير المسلمين تكون نصرته وقوته لغير المسلمين؟ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إذ تكون كل قوته وكل نشاطه الإنساني والاجتماعي لهم، وليس للإسلام منه شىء.

وثالثها: أن المسلمين الذين يكونون فى ولاية غيرهم يفتنون فى دينهم، ولو من قبيل العدوى وعدم تنفيذ أحكام الإسلام فى الدولة، وفى ذلك فساد أى فساد. ولذا قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

10. التنبيه إلى أن تولي المؤمنين لغيرهم ليس معناه المحبة، فإن بر المؤمن لغير المؤمن

واجب إن تحقق السبب الموجب للبر، فقد قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8 - 9].

١١. من يدخل **فى** ولاية الكافرين، ويترك ولاية المؤمنين فقد قطع صلته بالله سبحانه وتعالى قطعاً تاماً؛ لأن ولاية المؤمنين هى ولاية الله تعالى.

١٢. روي أن النبى ﷺ قال: **«لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله، حتى يحب فى الله أبعد الناس، ويبغض فى الله أقرب الناس إليه»**(١)

١٣. إذا كان تودد أهل الكتاب لرسول الله ﷺ لقصد افتتانه عن بعض ما أنزل الله مع غاية كماله، فكيف حال من يتودد إليهم من المؤمنين؟.

١٤. إن اليهود بتدبير من النصارى، وبقوة سلاحهم جاؤوا واغتصبوا فلسطين وأجزاء من سورية ومصر، بمعونة أمريكا وسلاحها ومالها، ولا يزالون في حماية أمريكا. وحتى أوروبا والدول الغربية جميعاً فإنهم يعطِفون على اليهود أعداء العالم أجمع، ونحن بحكم جهلنا، لا نزال نستنصر أمريكا وغيرها ونطلب المعونة منها، مع أننا لو اجتمعت كلمتُنا ووحّدنا صفوفنا، لما احتجنا إلى شيء من ذلك. ولكنّنا تفرّقنا، وبعُدنا عن ديننا ومزّقتنا الأهواء وحب المناصب. بذلك قوي اليهود من ضعفنا، فهم يهدّدوننا، ويهاجموننا، ويعيثون في الأرض فساداً. هذا وكلُّ منّا يود المحافظة على ذاته الفانية.

١٥. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ظاهره العموم والمعنى على الخصوص، أي: من سبق في علم الله أنه لا يهتدي. قال ابن عطية: أو يراد التخصيص مدة الظلم والتلبس بفعله، فإن الظلم لا هدى فيه، والظالم من حيث هو ظالم ليس بمهتد في

(١) ذكره أبو السعود فى تفسيره: ج ٤، ص ٥٤، الكشاف: ج ٢، ص١٨. قال جمال الدين الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: غريب.

ظلمه. وقال أبو العالية: الظالم من أبي أن يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وقال ابن إسحاق: أراد المنافقين. وقيل: الظالم هو الذي وضع الولاية في غير موضعها.

....

المعاني المفردة[1]

أَوْلِيَاء: نصراء وحلفاء. الأولياء جمع ولى ويطلق بمعنى النصير والصديق والحبيب. والمراد بالولاية هنا: مصافاة أعداء الإِسلام والاستنصار بهم، والتحالف معهم دون المسلمين.

سبب النزول[2]

في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة إذا رضوا بحكم سعد إنه الذبح.

والثاني: أن عبادة بن الصامت قال يا رسول الله إن لي موالي من اليهود وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود فقال عبد الله بن أُبَيّ إني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ إلى الله من ولاية يهود فنزلت هذه الآية.

والثالث: أنه لما كانت وقعة أحد خافت طائفة من الناس أن يدال عليهم الكفار فقال رجل لصاحبه أما أنا فألحق بفلان اليهودي فآخذ منه أماناً أو أتهود معه فنزلت هذه الآية.

النحو والصرف[1]

---

(١) التفسير المنير. الوسيط في تفسير القرآن الكريم.

(٢) زاد المسير – ابن الجوزي.

- جملة «**يأيّها الذين ..**» لا محلّ لها استئنافيّة. وجملة «**آمنوا**» لا محلّ لها صلة الموصول. وجملة «**لا تتخذوا ..**» لا محلّ لها جواب النداء. وجملة «**بعضهم أولياء ..** » لا محلّ لها اعتراضيّة- أو تعليليّة. وجملة «**من يتولّهم ...** » لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء. وجملة «**يتولّهم منكم**» في محلّ رفع خبر المبتدأ «من» - يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا - . وجملة «**إنّه منهم**» في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء. **وجملة «إنّ الله لا يهدي .. » لا محلّ لها استئنافيّة**. وجملة «**لا يهدي ..** » في محلّ رفع خبر إنّ. - «**يتولّ**» فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه يتفعّ.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن.

النداء الخامس والثلاثون

مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

بين يدي النداء

[إن اختيار الله للعصبة المؤمنة لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض وتمكين سلطانه في حياة البشر وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة هو مجرد فضل الله ومنته فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة فهو وذاك والله غني عنه وعن العالمين والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم، والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا صورة واضحة السمات قوية الملامح وضيئة جذابة حبيبة للقلوب فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم الحب هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش هو الذي يربط القوم بربهم الودود وحب الله لعبد من عبيده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها، أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي الذي يعرف من هو الله من هو صانع هذا الكون الهائل وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير من هو في عظمته ومن هو في قدرته ومن هو في تفرده ومن هو في ملكوته من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب والعبد من صنع يديه سبحانه وهو الجليل العظيم الحي الدائم الأزلي الأبدي الأول والآخر والظاهر والباطن، وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً

وفضلاً غامراً جزيلاً فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه هو إنعام هائل عظيم وفضل غامر جزيل وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين. ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى الحس مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد وهي تقول: فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب. وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد والحب من العبد للمنعم المتفضل يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض وينطبع في كل حي وفي كل شيء فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب. والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل[1]. وعجباً لقوم يقولون إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر وعذاب وعقاب وجفوة وانقطاع. إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية لا تجفف ذلك الندى الحبيب بين الله والعبيد فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزية إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين "يحبهم ويحبونه". ثم، أذلة على المؤمنين وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين فالمؤمن ذلول للمؤمن هين لين ميسر مستجيب سمح ودود، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة إنما هي الأخوة ترفع الحواجز وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين. إن حساسية

---

(١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾. ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾. وغيرها كثير..

الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموساً عصياً شحيحاً على أخيه فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به وماذا يبقى له في نفسه دونهم وقد اجتمعوا في الله إخواناً؛ يشيع الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه، أعزة على الكافرين فهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء، إنها العزة للعقيدة والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين، ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى؛ وهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك في أثناء الطريق الطويل يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فالجهاد في سبيل الله لإقرار منهج الله في الأرض وإعلان سلطانه على البشر وتحكيم شريعته في الحياة لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد وهم يجاهدون في سبيل الله؛ ليس لأنفسهم من هذا حظ.. لا يخافون لومة لائم، وفيم الخوف من لوم الناس وهم قد ضمنوا حب رب الناس وفيم الوقوف عند مألوف الناس وعرف الجيل ومتعارف الجاهلية وهم يتبعون سنة الله ويعرضون منهج الله للحياة، إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس؛ ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس؛ إننا نحسب حساباً لما يقول الناس؛ ولما يفعل الناس؛ ولما يملك الناس؛ ولما يصطلح عليه الناس؛ ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم، إنه منهج الله وشريعته وحكمه فهو وحده الحق وكل ما خالفة فهو باطل، ولو كان عرف ملايين الملايين ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون إنه ليست قيمة أي وضع أو أي عرف أو أي تقليد أو أية قيمة أنه موجود، وأنه واقع، وأن ملايين البشر يعتنقونه ويعيشون به ويتخذونه قاعدة حياتهم، فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي، إنما قيمة أي وضع وأي عرف وأي تقليد وأية قيمة أن يكون لها أصل في منهج الله الذي منه وحده تستمد القيم والموازين.] (١)

---

(١) في ظلال القرآن.

هداية وتدبر[1]

١. عن عياض الأشعري قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، قال: أومأ ﷺ إلى أبي موسى بشيء كان معه فقال: **«هم قوم هذا»**[٢].

٢. ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، قال عليّ رضي الله عنه: أهل رقة على أهل دينهم، أهل غلظة على من خالفهم في دينهم.

٣. قال الضحاك: ﴿.. وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾ هو: أبو بكر وأصحابه، لَّما ارتدّ من ارتدّ من العرب عن الإسلام، جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردّهم إلى الإسلام.

٤. فى النص إيماء إلى أن العرب فيهم من سيرتد بعد إيمان، وذلك قد كان، فبعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتدت قبائل عربية ولم تبق مساجد تقام فيها الصلوات إلا مسجد المدينة ومكة وعبدالقيس، وقد تصدى لهم الصديق، وأصحاب رسول الله ﷺ، حتى أزالوا شوكة الردة.

5. وصف الله تعالى أولئك الذين يأتى بهم فى المكان الذى أخلاه المرتدون بأربع صفات هى من نعم الله تعالى عليهم، أولها: أن الله تعالى يحبهم وهم يحبونه. الصفتان الثانية والثالثة هما: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ والمعنى السامى لهذين الوصفين الكريمين أنهم أرقاء على المؤمنين فى معاملتهم يخفضون جناحهم، كما قال تعالى فى رفق الولد للأبوين: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [**الإسراء**: 24]. فهى ذلة حانية لأن خفض جناح الأخ لأخيه غير المتحكم فيه هى من قبيل التآلف العاطفى، لا من قبيل الخنوع الذميم. **الصفة الرابعة:** ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾.

---

(١) انظر: توفيق الرحمن. زهرة التفاسير.

(٢) قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

٦. إن محبة الله تعالى للمؤمنين أعلى ما يصل إليه أهل الإيمان من نعمه، ومحبة المؤمنين لله أعلى درجات الطاعة والإيمان. ومحبة الله تعالى لعباده التى تليق بذاته الكريمة، هى أعلى درجات الرضا.

٧. عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: قال ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**[١].

٨. عن أبى ذر قال: أَمَرَنِى خَلِيلِى ﷺ بِسَبْعٍ أَمَرَنِى بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ وَأَمَرَنِى أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِى وَلاَ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِى وَأَمَرَنِى أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ وَأَمَرَنِى أَنْ لاَ أَسْأَلَ أَحَداً شَيْئاً وَأَمَرَنِى أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا وَأَمَرَنِى أَنْ لاَ أَخَافَ فِى اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ وَأَمَرَنِى أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ[٢].

....

المعاني المفردة[٣]

يَرْتَدَّ: الارتداد معناه الخروج عن الدين، ويسمى ذلك ردة؟ لأنه انصراف عن الحق بعد أن اهتدى، ورجوع إلى الظلام بعد أن خرج إلى النور، وهو كمن يرتد على أدباره غير مبصر الطريق الضال الذى يسلكه لأنه لا يواجهه.

أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: جمع ذليل. رحماء بهم. جانبُهم لَيِّنٌ على المؤمنين.

أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ: جمع عزيز. جانبُهم غليظٌ على الكافرين.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ: في نصرة دينه.

---

(١) مسلم- كتاب البر والصلة والآداب- باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم- حديث ٦٧٥١ .

(٢) حديث ٢٢٠٢٦ – مسند أحمد.

(٣) زهرة التفاسير. تفسير النهر الماد/ الأندلسي. لسان العرب.

وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ: صلاب في دينه لا يبالون بمن لام فيه فمتى شرعوا في أمر معروف أو نهي عن منكر أمضوه لا يمنعهم اعتراض معترض ولا قول قائل.

النحو والصرف والبلاغة(١)

- (**مَن**) اسم شرط مبتدأ، و (**يَرْتَدَّ**) فعل مضارع مجزوم بالسكون، وَحُرِّكَ بالفتح لالتقاء الساكنين، والجار (**منكم**) متعلق بحال من فاعل "**يرتد**"، والجار (**عن دينه**) متعلق بـ "يرتد"، (**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**) في موضع النعت. (**أذلةٍ**) نعت "قومٍ" مجرور، أي يَرؤُفُونَ بهم ويرحمونهم، ويجوز "**أذلّةً**" بالنصب على الحال أي يُحِبّهم ويُحِبّونَهُ في هذا الحال. جملة (**يجاهدون**) صفة "**قوم**" في محل جر. (**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ**) **ابتداء وخبر.** وجملة (**يؤتيه**) حالية في محل نصب.

- **(لومة)** مصدر مرّة من لام يلوم باب نصر، وزنه فعلة بفتح الفاء. **(لائم)** اسم فاعل من لام الثلاثيّ وزنه فاعل، وفيه قلب الواو همزة لمجيئها بعد ألف فاعل وأصله لاوم، وهذا القلب مطّرد في كلّ فعل معتلّ.

- **الطباق: بين أذلة وأعزّة..**

القراءات(٢)

(**يَرْتَدَّ**) قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بدالين الأولى مكسورة والثانية مجزومة بفك الإدغام (**يَرْتَدِدْ**)، وحجتهم أنه أتى بالكلام على الأصل ورغب مع موافقة اللغة في الثواب إذ كان له بكل حرف عشر حسنات. والباقون بدال واحدة مشددة مفتوحة بالإدغام. وحجتهم أنه لغة أهل الحجاز لأنهم يدغمون الأفعال لثقلها كقوله تعالى إنما نعد لهم عدا ويظهرون الأسماء لخفتها كقوله عدد سنين ليفرقوا بذلك بين الاسم والفعل.

---

(١) مشكل إعراب القرآن. وإعراب القرآن للنحاس. الجدول في إعراب القرآن.

(٢) البدور الزاهرة. الحجة في القراءات السبع.

النداء السادس والثلاثون

لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا أولياء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

بين يدي النداء

[ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن؛ الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه وأهينت عبادته وأهينت صلاته واتخذ موقفه بين يدي ربه مادة للهزء واللعب فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلة؛ ويرتكبونها لنقص في عقولهم فما يستهزئ بدين الله وعبادة المؤمنين به إنسان سوي العقل؛ فالعقل حين يصح ويستقيم يرى في كل شيء من حوله موحيات الإيمان بالله وحين يختل وينحرف لا يرى هذه الموحيات لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله، فالوجود كله يوحي بأن له إلهاً يستحق العبادة والتعظيم. والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك فلا يتخذها هزواً ولعباً وهو صحيح مستقيم. ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب في الفترة التي كان هذا القرآن يتنزل فيها على قلب رسول الله ﷺ للجماعة المسلمة في ذلك الحين ولم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى ولكن الله سبحانه كان يضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها وحياتها الدائمة وكان الله سبحانه يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين وها نحن أولاء رأينا ونرى أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ أمس واليوم من الذين قالوا إنهم نصارى كانوا أكثر عدداً من اليهود ومن الكفار مجتمعين فهؤلاء كهؤلاء قد ناصبوا الإسلام العداء وترصدوه القرون تلو القرون وحاربوه حرباً لا هوادة فيها منذ أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبى بكر وعمر رضي الله عنهما حتى كانت

الحروب الصليبية، ثم كانت المسألة الشرقية التي تكتلت فيها الدول الصليبية في أرجاء الأرض للإجهاز على الخلافة؛ ثم كان الاستعمار الذي يخفي الصليبية بين أضلاعه فتبدو في فلتات لسانه[١]؛ ثم كان التبشير الذي مهد للاستعمار وسانده؛ ثم كانت وما تزال تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامي في أي مكان في الأرض وكلها حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة الكتاب الذي يبني تصورها الاعتقادي كما يبني نظامها الاجتماعي كما يبني خطتها الحركية سواء وها هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وينهاها أن يكون ولاؤها لليهود والنصارى والكافرين ويجزم ذلك الجزم الحاسم في هذه القضية ويعرضها هذا العرض المنوع الأساليب إن هذا الدين يأمر أهله بالسماحة وبحسن معاملة أهل الكتاب، والذين قالوا إنهم نصارى منهم خاصة ولكنه ينهاهم عن الولاء لهؤلاء جميعاً لأن **السماحة وحسن المعاملة مسألة خلق وسلوك أما الولاء فمسألة عقيدة ومسألة تنظيم** إن الولاء هو النصرة هو التناصر بين فريق وفريق، ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب كما هو الشأن في الكفار لأن التناصر في حياة المسلم هو تناصر في الدين، وفي الجهاد لإقامة منهجه ونظامه في حياة الناس، ففيم يكون التناصر في هذا بين المسلم وغير المسلم وكيف يكون؟ إنها قضية جازمة حاسمة لا تقبل التميع ولا يقبل الله فيها إلا الجد الصارم، الجد الذي يليق بالمسلم في شأن الدين[٢]] .

(١) استخدمت عبارة "حملة صليبية" (Crusade) من قبل الرئيس الأمريكي جورج بوش الصغير في يوم ١١ سبتمبر، ٢٠٠١ وفي يوم الرثاء الوطني، حيث قال الرئيس الأمريكي "هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب ستأخذ بعض الوقت". ثم قال: هي زلة لسان..

(٢) في ظلال القرآن.

هداية وتدبر[1]

1. لا تتخذوا اليهود والنصارى أيها المؤمنون أنصاراً وإخواناً وحلفاء، فإنهم لا يألونكم خبالاً وإن أظهروا لكم مودّة وصداقة. وكان اتخاذ هؤلاء اليهود الذين أخبر الله عنهم المؤمنين أنهم اتخذوا دينهم هزواً ولعباً الدين على ما وصفهم به ربنا تعالى ذكره، أن أحدهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كفره مقيم، ثم يراجع الكفر بعد يسير من المدّة بإظهار ذلك بلسانه قولاً بعد أن كان يبدي بلسانه الإيـمان قولاً وهو للكفر مستبطن، تلعباً بالدين واستهزاء به، كما أخبر تعالى ذكره عن فعل بعضهم ذلك بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.
2. النداء للمؤمنين بالوصف الذى ميزوا به، واختصوا به دون الناس، وهو مناط رفعتهم وجامع وحدتهم، وإذا كان الدين هو الجامع لهم فالذين يسخرون منه، ويستهزئون به يصيبونهم فى صميم ما عليه مجتمعون، وبه يعملون، وفى سبيله قدموا، ويقدمون الفداء.
3. هذا النص تحريض على عدم الانتماء إليهم بذكر ما هو سر اجتماعهم، وفيه إشارة جلية إلى أنهم لا يمكن أن يكونوا نصراء يريدون العزة لهم؟ لأن ما به عزتكم واجتماعكم يتخذونه سخرية يلهون به ويعبثون.
4. نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ هم يد واحدة على المسلمين، لاتحادهم في الكفر والضلال، وملة الكفر واحدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أى من جملتهم وحكمه حكمهم، **قال الزمخشري**: وهذا تغليظ من الله

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن. زهرة التفاسير. زاد المسير. صفوة التفاسير. محاسن التأويل. الجامع لاحكام القرآن. خواطر الشعراوي.

وتشديد في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله، كما قال ﷺ: "لا تراءى نارهما".

٥. اتخاذهم الدين هزواً ولعباً هو إظهارهم الإسلام وإخفاؤهم الكفر وتلاعبهم بالدين. وإنما رتب النهي على وصف اتخاذهم الدين هزواً ولعباً. تنبيهاً على العلة، وإيذاناً بأن من هذا شأنه، جدير بالبغضاء والشنآن والمنابذة. فكيف بالموالاة ؟.

٦. التفرقة بين الهزء واللعب؟ هما فى النص الكريم معطوف أحدهما على الآخر، وبمقتضى هذا العطف هما متغايران، وإن كانا ينتهيان إلى معنى واحد، وهو السخرية بالاستهزاء، والعبث، فهم يسخرون من الدين، ويسخرون من أهله، ويستهزئون بأهله، ويتعابثون به ويلعبون بحقائقه. والهزء معناه المزح فى خفة، أو المزح فى مقام الجد للسخرية بموضوعه، والعبث به، وقد يكون بالقيام بظاهر بعض الأعمال، وهو يخفى نقيضها، كما قال سبحانه عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

٧. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هنا بيانية فيها بيان لأولئك الذين يستهزئون ويلعبون بدين الله دين الحق، وهم اليهود والنصارى، وعبر عنهم بـ ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ لأن أصل شرعهم ينتمى إلى كتاب منزل، وإن حرفوا فيه الكلم عن مواضعه وغيروا وبدلوا ونسوا حظاً مما ذكروا به، وهم كفار، وليس كفر أعظم من كفر، إلا أن تكون بقية علم عندهم، وهى لا تجعل لهم مقاماً أدنى فى الكفر، ولو كانت تجعل فى الإمكان التلاقى فى بعض المعلومات الدينية التى لم يعبثوا بها.

٨. إن عطف الكفار على أهل الكتاب من باب عطف العام على الخاص، فكلمة كفار تشمل كل كافر بمحمد ﷺ، على أنه خص أهل الكتاب بالذكر، لأنه الموضوع من الأصل فى عدم موالاة المؤمنين لليهود والنصارى، ثم عمم الحكم على الجميع ممن كفروا بمحمد ﷺ.

٩. وهُزْء أهل الكتاب من أهل الحق لون من الانفعال العكسى. فساعة يرى بعض أهل الباطل واحداً ملتزماً يُصلّي ولا يُحملق في النساء قد يصفونه بصفات غير

لائقة؛ لأنهم لا يستقبلون التزامه إلا بلونٍ من السخرية، وحتى لا يفهم أنه خيرٌ منهم، وقد يضلونه فيتبعهم.

١٠. الأمر بالتقوى فى هذا المقام، للإشارة إلى أن ذلك هو الحصن الحصين الذى يغني عن طلب الأولياء، فالنصرة لا تكون إلا منه، وهو المعاذ، والملجأ والناصر والولي، ولأن اجتلاء النفس بتقوى الله تعالى وخشيته تجعل كل قوي مهما تكن سطوته لا يصل إلى إضعاف قلب المؤمن، ولأن اتخاذ غير الله تعالى ولياً ينافى تقوى الله، واستشعار عظمته وجبروته سبحانه. وقد بين سبحانه أن ذلك وصف أهل الإيمان، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

١١. مقتضى الإيمان حفظ وتعظيم الدين الذي هو رأس مال الكمالات، الذي به انتظام المعاش والمعاد، وهو مناط السعادت الأبدية.

١٢. المنع من التأييد والانتصار بالمشركين ونحو ذلك. روى جابر: أن النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى أحد جاءه قوم من اليهود فقالوا: نسِير معك؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنا لا نستعين على أمرِنا بالمشركين**» وهذا هو الصحيح من مذهب الشافعي. وأبو حنيفة جوّز الانتصار بهم على المشركين للمسلمين؛ وكتاب الله تعالى يدل على خلاف ما قالوه مع ما جاء من السنة في ذلك.

١٣. وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين مادة للهزء أولياء، وعلى المؤمنين اليقظة والحذر؛ لأن الحق يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان، عليكم ألا توالوا اليهود والنصارى وكذلك من يتمسح في الإيمان نفاقاً ويريد الانتفاع بمزايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين. وتقوى الله تبدأ من أن ينفذ المؤمن المنهج، ويحاول أن يستبقي للمنهج مناعة اقتداره أمام خصومه بألا يُدخل المؤمنُ في حماية المنهج مَن لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين.

....

المعاني المفردة[1]

(هُزُواً): الهُزْءُ والهُزُؤ: السُّخْرِيةُ والتَّنكيت. هُزِئَ به ومنه. والهزء معناه المزح فى خفة، أو المزح فى مقام الجد للسخرية بموضوعه، والعبث به، وقد يكون بالقيام بظاهر بعض الأعمال، وهو يخفي نقيضها، كما قال سبحانه وتعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

(وَلَعِباً): اللعب: ضد الجد.

سبب النزول[2]

أن رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث كانا قد أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فنزلت هذه الآية قاله ابن عباس. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن قوماً من اليهود والمشركين ضحِكوا من المسلمين وقت سجودهم فنزلت..

الإعراب[3]

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ فعل مضارع مجزوم تعدَّى إلى مفعولين: "**الذين**"، "**أولياء**"، والفعل "**اتخذوا**" تعدَّى إلى مفعولين:

"**دينكم، هزواً**". والجار ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ متعلق بحال من فاعل "**اتخذوا**"، والجار **(من قبلكم) متعلق بـ "أوتوا"**

وجملة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مستأنفة لا محل لها. وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله.

---

(١) لسان العرب. زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة. خواطر الشعراوي. التفسير المنير.

(٢) زاد المسير – ابن الجوزي.

(٣) مشكل إعراب القرآن.

(هُزُوًا) قرأ حفص بالواو بدلاً من الهمزة وصلاً ووقفاً مع ضم الزاى، وقرأ خلف بإسكان الزاى مع الهمز وصلاً ووقفاً. وقرأ حمزة بإسكان الزاى مع الهمز وصلاً **(هُزْءاً)** وهي لغة تميم وأسد وقيس، ولحمزة فى الوقف وجهان: الأول: نقل حركة الهمزة إلى الزاى وحذف الهمزة فيصير النطق بزاى مفتوحة بعدها ألف**(هُزًا)**. الثانى: إبدال الهمزة واواً على الرسم. وقرأ الباقون بضم الزاى مع الهمز وصلاً ووقفاً **(هُزُؤًا)**.

(وَالْكُفَّارَ) قرأ أبو عمرو ويعقوب و الكسائي بخفض الراء **(وَالْكُفَّارِ)**. والباقون بنصبها.

النداء السابع والثلاثون

التشريع قضية الألوهية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

بين يدي النداء

[قضية التشريع هي قضية الألوهية.. الله هو الذي يحرم ويحلل.. والله هو الذي يحظر ويبيح.. والله هو الذي ينهى ويأمر.. ثم تتساوى المسائل كلها عند هذه القاعدة. كبيرها وصغيرها. فشؤون الحياة الإنسانية بجملتها يجب أن ترد إلى هذه القاعدة دون سواها.

والذي يدعي حق التشريع أو يزاوله، فإنما يدعي حق الألوهية أو يزاوله.. وليس هذا الحق لأحد إلا لله.. وإلا فهو الاعتداء على حق الله وسلطانه وألوهيته.. والله لا يحب المعتدين.. والذي يستمد في شيء من هذا كله من عرف الناس ومقولاتهم ومصطلحاتهم، فإنما يعدل عما أنزل الله إلى الرسول.. ويخرج بهذا العدول عن الإيمان بالله ويخرج من هذا الدين.

إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية. والحق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم. فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء.. وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم. فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه. والخارج على هذا المبدأ البديهي معتدٍ لا شك في اعتدائه! والذين آمنوا لا يعتدون بطبيعة الحال على الله الذي هم به مؤمنون. ولا يجتمع الاعتداء على الله والايمان به في قلب

واحد على الإطلاق!][1].

هداية وتدبر[2]

١. يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، وأقرّوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ أنه حقّ من عند الله ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حَدَّ الله الذي حدّ لكم فيما أحلّ لكم وفيما حرّم عليكم فتجاوزوا حَدَّهُ الذي حَدَّه، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحبّ من اعتدى حدّه الذي حدّه لخلقه فيما أحلّ لهم وحرّم عليهم.

٢. وتطلق الطيبات على ما كان طريق كسبها حلالاً لا خبث فيه.

٣. الاستمتاع بالطيبات المباحات من غير اعتداء ولا تجاوز الحدود، فهو مباح للمسلم والكافر على السواء. فما عاب الله قوماً وسَّع عليهم الدنيا، فتنعموا وأطاعوا، ولا عذَر قوماً زواها عنهم فعصَوه.

٤. ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى أحلها، فتحريمها معاندة لله، ويدخل فاعل ذلك ضمن من يشملهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ..﴾ [النحل: 116]. ومعنى تحريمها أن يأخذوا على أنفسهم ميثاقاً بألا يتناولوها، فليس التحريم فى معنى الترك المجرد، فقد يتركها لأنه لا يستسيغها، أو يتركها لمرض، أو يتركها عفواً من غير سبب، أما

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب.

(٢) تفسير الطبري. زهرة التفاسير. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. تفسير الرازي. الوسيط في تفسير القرآن الكريم. تيسير التفسير– القطان.

تركها بعهد يعهده وميثاق يأخذ نفسه به فهذا هو التحريم.

٥. إن شرط إباحة الحلال، ومنع تحريمه ألا يكون ثمة اعتداء، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾. والاعتداء له شعبتان: إحداهما – تكون بالإسراف فى البذخ، والتعالى والتفاخر فإن ذلك يؤدى إلى استيلاء الشهوات على نفسه، وذلك يؤدى إلى الضلال إذ يكون عبد شهوته، وتنماع إرداته، ولذلك قال تعالى فى آية أخرى:

٦. ﴿... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]، وقد قال ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِى غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ[1] ». والشعبة الثانية – أن ينحرف فيعتدى على حقوق الناس ويتناول المحرم، ويتجاوز ما شرعه الله تعالى إلى ما لم يشرعه.

٧. عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا: وأين نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّى أُصَلِّى اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول اللَّه ﷺ فَقَالَ: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّى أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى»**[2]

٨. قالت العلماء هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها تردّ على غلاة المترهبين وأهل البطالة من المتصوفين، وقال الطبري لا يجوز لمسلم تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من الطيبات.

٩. ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبسًا أو شيئًا ما عدا

(١) باب قوله (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) – اللباس – صحيح البخارى .
(٢) حديث ٥١١٨ – النكاح – صحيح البخارى .

النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشربًا أو شيئًا من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين.

١٠. إن قيل: ما الحكمة في هذا النهي، فمن المعلوم أن حب الدنيا مستول على الطباع والقلوب فإذا توسع الإنسان في اللذات والطيبات اشتد ميله إليها وعظمت رغبته فيها،وذلك يمنعه عن الاستغراق في معرفة الله وفي طاعته ويمنعه عن طلب سعادات الآخرة، وأما إذا أعرض عن لذات الدنيا وطيباتها، فكلما كان ذلك الإعراض أتم وأدوم كان ذلك الميل أضعف والرغبة أقل، وحينئذٍ تتفرغ النفس لطلب معرفة الله تعالى والاستغراق في خدمته، وإذا كان الأمر كذلك فما الحكمة في نهي الله تعالى عن الرهبانية؟

والجواب: من وجوه:

الأول: أن الرهبانية المفرطة والاحتراز التام عن الطيبات واللذات مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسية التي هي القلب والدماغ، وإذا وقع الضعف فيهما اختلت الفكرة وتشوش العقل. ولا شك أن أكمل السعادات وأعظم القربات إنما هو معرفة الله تعالى.

والثاني: النفوس المستعلية الكاملة لا يكون استعمالها في الأعمال الحسية مانعاً لها من الاستكمال بالسعادات العقلية، فإنا نشاهد النفوس قد تكون ضعيفة بحيث متى اشتغلت بمهم امتنع عليها الاشتغال بمهم آخر، وكلما كانت النفس أقوى كانت هذه الحالة أكمل.

الثالث: وهو أن من استوفى اللذات الحسية، كان غرضه منها الاستعانة بها على استيفاء اللذات العقلية فإن رياضته ومجاهدته أتم من رياضة من أعرض عن اللذات الحسية، لأن صرف حصة النفس إلى جانب الطاعة أشق وأشد من الإعراض عن حصة النفس بالكلية، فكان الكمال في هذا أتم.

الرابع: وهو أن الرهبانية التامة توجب خراب الدنيا وانقطاع الحرث والنسل. وأما ترك الرهبانية مع المواظبة على المعرفة والمحبة والطاعات فإنه يفيد عمارة الدنيا والآخرة، فكانت هذه الحالة أكمل.

١١. أمر التحريم موكول إلى خالق الآله الإنسانية، وأمر التحليل موكول إلى خالق الآلة الإنسانية.

فالإنسان لا يتدخل في ذلك أبداً. لأن تدخل الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحل الله، وأحياناً يكون تدخل الإنسان بتحليل ما حرم الله.

١٢. جاء رجل إلى الحسن البصرى فقال له: إن لى جاراً لا يأكل الفالوذج فقال له: ولم؟ قال: يقول، لا يؤدى شكره. فقال الحسن: أفيشرب الماء البارد؟ قال: نعم. فقال الحسن: إن جارك جاهل، فإن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذج.

١٣. من محاسن شرعنا أنه يميل دائماً إلى التوسط في الأمور، وعلينا أن نقتدي بالرسول الكريم عليه صلوات الله، فإنه كان يأكل أطيب الطعام، إذا وجد، وتارة يأكل أخشنه، وحينا يجوع، وأخرى يشبع، ويحمد الله على الحالين.

....

المعاني المفردة[1]

١. **لاَ تُحَرِّمُواْ:** التحريم: المنع أي لا تمتنعوا.

٢. **طَيِّبَاتِ:** ما طاب ولذّ منه. والطيبات هى المشتهيات الحلال، التى تستطيبها النفس ولا تمجها. وتطلق الطيبات على ما كان طريق كسبها حلالا لا خبث فيه.

٣. **الْمُعْتَدِينَ:** الاعتداء مجاوزة الحد. والمعتدون هنا هم المعتدون في التحليل والتحريم.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير). زهرة التفاسير - محمد أبو زهرة. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير.

سبب النزول[1]

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن أبي قِلابة، قال: أراد ناس من أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويترهبوا فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقالة ثم قال: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالتَّشْدِيدِ، شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَأُولَئِكَ بَقَايَاهُمْ فِي الدِّيَارِ وَالصَّوَامِعِ، فَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ، وَحُجُّوا وَاعْتَمِرُوا وَاسْتَقِيمُوا يُسْتَقَمْ بِكُمْ**» قال: ونزلت فيهم الآية.

النحو[2]

(لا تُحَرِّمُوا) مضارع مجزوم بلا الناهية و**الواو** فاعله **(طَيِّباتِ)** مفعوله والجملة مستأنفة. **(ما)** اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة **(أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)** صلة الموصول لا محل لها أي ما أحله اللّه لكم، **(وَلا تَعْتَدُوا)** مثل لا تحرموا والجملة معطوفة. **(إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)**: **إن** ولفظ الجلالة اسمها وجملة: **لا يحب المعتدين** خبرها وجملة: **إن اللّه** تعليلية لا محل لها.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار).

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

النداء الثامن والثلاثون

الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

بين يدي النداء

[لقد بدأت الأوامر والنواهي بعد « الإسلام ».. بعد الاستسلام.. بعد أن لم يعد للمسلم في نفسه شيء.. بعد أن لم يعد يفكر في أن يكون له إلى جانب أمر الله رأي أو اختيار.

فلم يكن تحريم الخمر وما يتصل بها من الميسر أمراً مفاجئاً.. فلقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل وخطوات في علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة، المتلبسة بعادات النفوس ومألوفاتها، والمتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملابساتها.

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم كانت هذة الرابعة الحاسمة والأخيرة، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤاً كاملاً فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان.

ولما نزلت آيات التحريم هذه، في سنة ثلاث بعد وقعة أحد، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة: «ألا أيها القوم. إن الخمر قد حرمت».. فمن كان في يده كأس حطمها ومن كان في فمه جرعة مجها، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه.. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر!] [١]

هداية وتدبر[٢]

1. في سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل، وفي خط التربية للأمة المسلمة في المدينة، وتخليصها من جو الجاهلية ورواسبها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية، يجيء النص القاطع الأخير في تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام. أي إلى الشرك بالله.

٢. يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، إن الخمر التي تشربونها والميسر الذي تتياسرونه والأنصاب التي تذبحون عندها والأزلام التي تستقسمون بها إثم ونَتْن، سخِطه الله وكرهه لكم - وهو - من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم. فاتركوه وارفضوه، ولا تعملوه. لكي تنجحوا فتدركوا الفلاح عند ربكم، بترككم ذلك.

٣. أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "**شارب الخمر كعابد الوثن**"

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) تفسير الطبري. تفسير الكشاف. تفسير القرطبي. في ظلال القرآن. خواطر الشعراوي. تيسير التفسير- القطان. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ومنها أنه جعلهما رجساً، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة.

٤. قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى عنه، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون. أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟. لما علم عمر رضي الله عنه أن هذا وعيد شديد زائد على معنى ٱنتهوا قال: ٱنتهينا. وأمر ﷺ مناديه أن ينادي في سكك المدينة، ألاَ إنّ الخمر قد حُرّمت؛ فكسرت الدِّنان، وأُريقت الخمر حتى جرت في سِكك المدينة.

٥. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- قَالَ «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ** [(١)]». وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ «**لاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِى فَيَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَلاَةً أَرْبَعِينَ صَبَاحاً**[(٢)]». وقال رسول الله ﷺ: **لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ**[(٣)] ". عن عثمان بن عفان قال: قال ﷺ: **إن اللّه لا يجمع الخمر والإيمان في إمرىء أبداً.**

٦. فَهِمَ الجمهورُ من تحريم الخمر، واستخباث الشرع لها، وإطلاق الرِّجس عليها،

---

(١) حديث 1985 - الأشربة - سنن الترمذى. وحديث 5625 - الأشربة - سنن النَسائى . وحديث 3517 - الأشربة - سنن ابن ماجه . وحديث 6715 - مسند عبد الله بن عمرو - مسند أحمد .

(٢) حديث 7032 - مسند عبد الله بن عمرو - مسند أحمد .

(٣) حديث 3676 - الأشربة - سنن أبى داود .

والأمر باجتنابها، الحكم بنجاستها. كما ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخمر لا يجوز تخليلها لأحد. ولم يختلف قول مالك وأصحابه أن الخمر إذا تخللت بذاتها أن أكل ذلك الخلّ حلال. وهو قول عمر بن الخطاب وأحد قولي الشافعي، وهو تحصيل مذهبه عند أكثر أصحابه.

٧. قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه؛ لا بشرب ولا بيع ولا تخلِيل ولا مداواة ولا غير ذلك. وعلى هذا تدل الأحاديث الواردة في الباب. **قال رسول الله ﷺ: «إن الذي حَرّم شربها حَرّم بيعها»**[١].

٨. والعاقل الذي يتمعن في كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هي أمور لا تستطيبها النفس غير المنزوعة من الشيطان، فكأن قوله الحق: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء.

٩. قال القرطبي في تفسيره: هذه الآية تدل على تحريم اللعب بالنّرد والشِّطْرَنج قماراً أو غير قمار؛ لأن الله تعالى لما حرم الخمر أخبر بالمعنى الذي فيها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ الآية. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ الآية. فكل لهوٍ دعا قليله إلى كثير، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر، وأوجب أن يكون حراماً مثله. فإن قيل: إنّ شرب الخمر يورث السكر فلا يقدر معه على الصلاة وليس في اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج هذا المعنى؛ قيل له: قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر في التحريم، ووصفهما جميعاً بأنهما يوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدّان عن ذكر الله وعن الصلاة؛ ومعلوم أن الخمر إن أسكرت فالميسر لا يسكر، ثم لم يكن عند الله ٱفتراقهما في ذلك يمنع من التسوية بينهما في التحريم

---

(١) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر - حديث 4128 .

لأجل ما ٱشتركا فيه من المعاني. وأيضاً فإن قليل الخمر لا يسكر كما أن اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج لا يسكر ثم كان حراماً مثل الكثير، فلا ينكر أن يكون اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج حراماً مثل الخمر وإن كان لا يسكر. وأيضاً فإن ٱبتداء اللعب يورث الغَفْلة، فتقوم تلك الغَفْلة المستولية على القلب مكان السكر؛ فإن كانت الخمر إنما حرّمت لأنها تسكر فتصدّ بالإسكار عن الصلاة، فليحرم اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنْج لأنه يُغفِل ويُلهي فيصدّ بذلك عن الصلاة.

١٠. التعبير بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أبلغ من التعبير بلفظ حرم لأنه يفيد التحريم وزيادة وهو التنفير والإبعاد عنه بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾. وهذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الأماكن التي فيها الخمور. فلا نجلس مع من يشربونها، ولا نتاجر فيها حتى لا نقع في المعصية. فإذا رأيت مكاناً فيه خمر فابتعد عنه في الحال. حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله. والحق جل جلاله يقول في المحرمات: "لا تقربوا "واجتنبوا.. أي لا تحوموا حولها. لأنها إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها. ولذلك يقول ﷺ: **"إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ والْحَرَامَ بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل مَلَكٍ حِمَى ألا وإن حمى الله محارمه"**.

١١. بعض الناس يقولون: ان الخمر غير محرّمة، لأنه لم يقل الله انها حرام صراحةً بل قال: اجتنبوه. وقولهم هذا كلام فيه الهوى والتذرّع بالتلاعب بالألفاظ لتعليل الأمور التي يحبونها، فالقرآن ليس كتاب فقه حتى ينصّ على كل شيء بأنه حرام أو حلال، وإنما هو قرآن كريم له أسلوب عربي فريد لا يدانيه أسلوب. وأكبر دليل على تحريم الخمر تحريما نهائياً أن الله تعالى قرن الخمر بالميسر الذي هو القمار، وبالأزلام والأنصاب، وقد جاء تحريم الأزلام والأنصاب صريحاً في أول هذه

السورة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ..﴾ الآية ولما نزلت ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ...﴾ الآية قال سيدُنا عمر: أُقرِنْتِ بالميسِر والأنصابِ والأزلام، بُعداً لكِ وسحُقاً.

١٢. فإذا كانت عبادة الأصنام والذبحُ عندها تقرّباً لها حلالاً، فإن الخمر تكون حلالاً، وإذا كانت الأزلام والاستقسام بها حلالاً، فإن الخمر تكون كذلك، وإذا كان الميسر والمقامرة حلالاً فإن الخمر كذلك تكون حلالاً.. فالذين يقولون بتحليلها لا يخشَون الله فيما يقولون.

١٣. **من مضرات المسكرات**[1]:

- إن المسكرات لا تروي الظمأ بل تزيده.
- إنها لا تفيد شيئاً في قضاء الأعمال.
- إنها توقف النمو العقلي والجسدي في الأولاد.
- إنها تضعف قوة الإرادة فتفضي إلى ارتكاب الموبقات، وتجر إلى الفقر والشقاء.
- هي من المسكنات كالبنج والإيثر.
- إنها تعد للأمراض المعدية.
- إنها تعد بنوع خاص للتدرن والسل. - إنها تضر في ذات الرئة والحمى التيفودية أكثر مما تنفع.
- إنها تقرب النهاية المحزنة في الأمراض التي تنتهي بالموت، وتطيل مدة الشفاء في الأمراض التي تنتهي بالصحة.
- إنها تعد لضربة الشمس والرعن في أيام الحر.

---

(١) محاسن التأويل.

- إنها تسرع بإنفاق الحرارة في أيام البرد.
- إنها تغير مادة القلب والأوعية الدموية.
- إنها كثيراً ما تسبب التهاب الأعصاب، والآلام المبرحة. - إنها تسرع بجويصلات الجسم إلى الهدم.
- إن المقدار العظيم الذي يتناوله أصحاب الأعمال الجسدية من أشربتها هو سبب شقائهم وفقرهم وذهاب صحتهم.
- إن الامتناع عنها مما يقضي إلى صحة وسعادة الجنس البشري.

١٤. حدث تحريم الخمر في سنة ثلاث بعد الهجرة بعد وقعة أحد التي حدثت في شوال سنة ثلاث من الهجرة، واستظهر ابن حجر أنها حرمت سنة ثمان من الهجرة. وأما حد الخمر فثبت بالسنة النبوية، إما أربعون جلدة وهو رأي الشافعية، وإما ثمانون جلدة وهو رأي الجمهور، عَنْ أَنَسٍ **أَنَّ نَبِىَّ اللَّهِ ﷺ جَلَدَ فِى الْخَمْرِ بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ ثُمَّ جَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ. فَـلَمَّا كَانَ عُمَرُ وَدَنَا النَّاسُ مِنَ الرِّيفِ وَالْقُرَى قَالَ مَا تَرَوْنَ فِى جَلْدِ الْخَمْرِ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَأَخَفِّ الْحُدُودِ. قَالَ فَجَلَدَ عُمَرُ ثَمَانِينَ.** وروى مسلم عن علي رضي الله عنه قال: «**جلد رسول الله ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنّة، وهذا أحب إلي**» .

....

المعاني المفردة[1]

الْخَمْرُ: اسم لكل ما خامر العقل وخالطه فغيره فمنعه من التفكير السليم.

الْمَيْسِرُ: يَسَرَ يَيْسَرُ يَسْراً، القمار - بكسر القاف - وهو فى الأصل مصدر ميمى

---

(١) لسان العرب. في ظلال القرآن. الوسيط في تفسير القرآن الكريم.

من يَسَر كالموعد من وعد. وهو مشتق من اليُسر بمعنى السهولة، لأن المال يجيء للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ، ثم أصبح علماً على كل ما يتقامر عليه. وهو اللَّعِبُ بالقِداح،.

الأَنصَابُ: النَّصْبُ والنُّصُبُ: كلُّ ما عُبِدَ من دون اللّه تعالى، والجمع أَنْصابٌ. الأَوثان. أصنام كانوا في الجاهلية يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها، كما كانت تذبح عليها الذبائح التي تقدم للآلهة أي لكهنتها!.

الأَزْلاَمُ: قداح – سهام – كانوا يستقسمون بها افعل أو لا تفعل. كان الرجل منهم يضعها في وعاء له، فإذا أَراد سفراً أَو رَواحاً أَو أَمراً مُهمّاً أَدخل يده فأَخرج منها زُلَماً، فإن خرج الأَمرُ مضى لشأْنه، وإن خرج النهي كَفَّ عنه ولم يفعله. وهي قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه. فالذي قدحه (المُعَلى) يأخذ النصيب الأوفر، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه. وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها!

رِجْسٌ: خبيث. قال الزجاج: اسم لكل ما استقذر من عمل. سخط، وشرٌ، وإثم، وقذر.

مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ: من تزيين الشيطان.

فَاجْتَنِبُوهُ: لا تقربوه.

تُفْلِحونَ: تسعدون في الدنيا والآخرة.

سبب النزول

روى الترمذي[1] أن عمر رضي اللّه عنه قال: اللهمّ بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ.. الآية فدعي عمر فقرئت عليه.

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (٥/ ٢٣٦) ، كتاب التفسير حديث رقم (٣٠٤٩).

فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣] فدعي عمر رضي اللّه عنه فقرئت عليه، ثم قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء. فنزلت التي في المائدة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾ **إلى قوله:** ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فدعي عمر رضي اللّه عنه فقرئت عليه، فقال: انتهينا انتهينا.

الإعراب[1]

- "**إِنَّمَا**" كافة ومكفوفة. "**الْخَمْرُ**" مبتدأ. "**وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ**" معطوفة. "**رِجْسٌ**" خبر المبتدأ. "**مِنْ عَمَلِ**" متعلقان بمحذوف صفة الرجس. "**الشَّيْطانِ**" مضاف إليه. "**فَاجْتَنِبُوهُ**" : الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر : إذا كان الخمر من عمل الشيطان فاجتنبوه والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم.

- **(رجس)** اسم للعمل القبيح والقذر، وزنه فعل بكسر فسكون ويصح الفتح والسكون والفتح والكسر.

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

النداء التاسع والثلاثون

ليبلونكم الله بشيء من الصيد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [المائدة: ٩٤].

بين يدي النداء

إن من السنن الكونية وقوع البلاء على المخلوقين اختباراً لهم، وتمحيصاً لذنوبهم، وتمييزاً بين الصادق والكاذب منهم قال الله تعالى ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾وقال تعالى ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾. وقال ﷺ «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**». رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وأكمل الناس إيماناً أشدهم إبتلاء قال ﷺ «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد به بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**». أخرجه الإمام أحمد وغيره.

وفوائد الإبتلاء:

- تكفير الذنوب ومحو السيئات. □
- رفع الدرجة والمنزلة في الآخرة. □
- الشعور بالتفريط في حق الله واتهام النفس ولومها. □
- فتح باب التوبة والذل والانكسار بين يدي الله. □

- تقوية صلة العبد بربه. □
- تذكر أهل الشقاء والمحرومين والإحساس بالآمهم. □
- قوة الإيمان بقضاء الله وقدره واليقين بأنه لاينفع ولا يضر الا الله. □
- تذكر المآل وإبصار الدنيا على حقيقتها.

والمؤمن كل أمره خير فهو في نعمة وعافية في جميع أحواله قال الرسول ﷺ **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**. رواه مسلم.

واقتضت حكمة الله اختصاص المؤمن غالباً بنزول البلاء تعجيلاً لعقوبته في الدنيا أو رفعاً لمنزلته أما الكافر والمنافق فيعافى ويصرف عنه البلاء. وتؤخر عقوبته في الآخرة قال ﷺ **«مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»** رواه مسلم.

والبلاء له صور كثيرة: بلاء في الأهل وفى المال وفى الولد، وفى الدين، وأعظمها ما يبتلى به العبد في دينه.

وقد جمع للنبي كثير من أنواع البلاء فابتلى في أهله، وماله، وولده، ودينه فصبر واحتسب وأحسن الظن بربه ورضي بحكمه وامتثل الشرع ولم يتجاوز حدوده فصار بحق قدوة يحتذي به لكل مبتلى.

والواجب على العبد حين وقوع البلاء عدة أمور: □

- أن يتيقن ان هذا من عند الله فيسلم الأمر له. □
- أن يلتزم الشرع ولا يخالف أمر الله فلا يتسخط ولا يسب الدهر. □
- أن يتعاطى الأسباب النافعة لد فع البلاء. □
- أن يستغفر الله ويتوب إليه مما أحدث من الذنوب. □
- ومما يؤسف له أن بعض المسلمين ممن ضعف إيمانه إذا نزل به البلاء تسخط وسب

الدهر، ولام خالقه في أفعاله وغابت عنه حكمة الله في قدره واغتر بحسن فعله فوقع في بلاء شر مما نزل به وارتكب جرماً عظيماً.

وهناك معاني ولطائف اذا تأمل فيها العبد هان عليه البلاء وصبر وآثر العاقبة الحسنة وأبصر الوعد والثواب الجزيل:

أولاً: أن يعلم أن هذا البلاء مكتوب عليه لا محيد عن وقوعه واللائق به ان يتكيف مع هذا الظرف ويتعامل بما يتناسب معه.

ثانياً: أن يعلم أن كثيراً من الخلق مبتلى بنوع من البلاء كل بحسبه ولا يكاد يسلم أحد فالمصيبة عامة، ومن نظر في مصيبة غيره هانت عليه مصيبته.

ثالثاً: أن يذكر مصاب الأمة الإسلامية العظيم بموت رسول الله ﷺ الذى انقطع به الوحي وعمت به الفتنه وتفرق بها الأصحاب "**كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله**".

رابعاً: ان يعلم ما أعد الله لمن صبر في البلاء أول وهلة من الثواب العظيم قال رسول الله "**إنما الصبر عند المصيبة الأولى**".

خامساً: أنه ربما ابتلاه الله بهذه المصيبة دفعاً لشر وبلاء أعظم مما ابتلاه به، فاختار الله له المصيبة الصغرى وهذا معنى لطيف.

سادساً: أنه فتح له باب عظيم من أبواب العبادة من الصبر والرجاء، وانتظار الفرج فكل ذلك عبادة.

سابعاً: أنه ربما يكون مقصراً وليس له كبير عمل فأراد الله أن يرفع منزلته و يكون هذا العمل من أرجى أعماله في دخول الجنة.

ثامناً: قد يكون غافلاً معرضاً عن ذكر الله مفرطاً في جنب الله مغتراً بزخرف الدنيا، فأراد الله قصره عن ذلك وإيقاظه من غفلته ورجوعه الى الرشد.

فاذا استشعر العبد هذه المعاني واللطائف انقلب البلاء في حقه الى نعمة وفتح له باب المناجاة ولذة العبادة، وقوة الاتصال بربه والرجاء وحسن الظن بالله وغير ذلك من

أعمال القلوب ومقامات العبادة ما تعجز العبارة عن وصفة.

قال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيها كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء. وقال رسول الله: **(يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقارض)** رواه الترمذي.

ومن الأمور التي تخفف البلاء على المبتلى وتسكن الحزن وترفع الهم وتربط على القلب:

- **الدعاء:** قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة.
- **الصلاة:** فقد كان ﷺ اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة رواه أحمد.
- **الصدقة"** وفى الأثر "**داوو مرضاكم بالصدقة**"
- **تلاوة القرآن:** ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾
- **الدعاء المأثور:** ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ وما استرجع أحد في مصيبة إلا أخلفه الله خيراً منها.

هداية وتدبر[1]

١. هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة المسلمة، فنجحت حيث أخفقت يهود. وكان هذا مصداق قول الله سبحانه في هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

(١) تفسير الطبري. زاد المسير في علم التفسير. محاسن التأويل. وتفسير المنار. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. تفسير الرازي. خواطر الشعراوي. الجواهر الحسان في تفسير القرآن. في ظلال القرآن.

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ ولقد نجحت هذه الأمة في مواطن كثيرة حيث أخفق بنو إسرائيل. ومن ثم نزع الله الخلافة في الأرض من بني إسرائيل وائتمن عليها هذه الأمة. ومكن لها في الأرض ما لم يمكن لأمة قبلها. إذ أن منهج الله لم يتمثل تمثلاً كاملاً في نظام واقعي يحكم الحياة كلها كما تمثل في خلافة الأمة المسلمة. ذلك يوم أن كانت مسلمة. يوم أن كانت تعلم أن الإسلام هو أن يتمثل دين الله وشريعته في حياة البشر. وتعلم أنها هي المؤتمنة على هذه الأمانة الضخم؛ وأنها هي الوصية على البشرية لتقيم فيها منهج الله، وتقوم عليه بأمانة الله.

٢. الابتلاء والاختبار سنة الله في تمحيص عباده ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [**العنكبوت: ٢**]. فيبتلي الله من شاء بما شاء سبحانه. والمراد من الابتلاء في مثل هذا المقام أن يعامل العباد معاملة المبتلي المختبر، ليتعرف حالهم وهل يثبتون على المحن والشدائد أو لا يثبتون.

٣. يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ليختبرنكم الله ببعض الصيد في حال إحرامكم بعمرتكم أو بحجكم. لأنه لم يبلهم بصيد البحر وإنما ابتلاهم بصيد البرّ، إما باليد، كالبيض والفراخ وإما بإصابة النبل والرماح، وذلك كالحمر والبقر والظباء، كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به والمنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه، من الذي يخاف الله، فيتقي ما نهاه عنه ويجتنبه خوف عقابه بالغيب، بمعنى: في الدنيا بحيث لا يراه. فمن تجاوز حدّ الله الذي حدّه له بعد ابتلائه بتحريم الصيد عليه وهو حرام، فاستحلّ ما حرم الله عليه منه بأخذه وقتله فَلَهُ عَذَابٌ من الله مؤلم موجع.

٤. ابتلاء الله تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ بالحديبية بكثرة الصيد بين أيديهم يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [المُلك: ١٢]. وحرم عليهم صيده فامتثلوا أمر الله تعالى ولم يصيدوا فكانوا خيراً من بني إسرائيل وأفضل منهم على عهد أنبيائهم.

٥. ما تناله الأيدي هو صغار الأفراخ والأشياء السهلة اليسيرة، أما ما تناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه. وقال الحق: ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾ لأن هناك فارقاً بين أن يلحّ الإنسان على المعصية فيفعلها، وبين أن يصل إلى منزلة لا يلح فيها على معصية، بل قد تقع عليه المعصية، وإن وقعت عليه المعصية فهو لا يرتكبها. كأن الحق يبتلينا ما دمنا لا نلح على المعصية، ويريد أن يرى ماذا يكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نفعلها أو لا؟. فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية. ولذلك يبتليكم الله بشيء من الصيد المحرّم عليكم بأن يجعله في متناول أيديكم.

٦. ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ هذا مجاز؛ لأنه تعالى عالم لم يزل ولا يزال واختلفوا في معناه فقيل نعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم، وقيل: ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف، وقيل هذا على حذف المضاف والتقدير: ليعلم أولياءُ الله من يخافه بالغيب. وقيل: ليستمرَّ علمه تعالَىٰ عليه، وهو موجودٌ؛ إذ قد علم تعالَىٰ ذلك في الأزل. وقيل: ليرى، فعبر عن الرؤية بالعلم لأنها تؤول إليه.

٧. ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ فيه وجهان: **الأول:** من يخافه حال إيمانه بالغيب كما ذكر ذلك في أول كتابه وهو قوله ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]. **الثاني:** من يخاف بالغيب أي يخافه بإخلاص وتحقيق ولا يختلف الحال بسبب حضور أحد أو غيبته كما في حق المنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم. **المسألة. الثالثة:** الباء في قوله ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ في محل النصب بالحال والمعنى من يخافه حال كونه غائباً عن رؤيته ومثل هذا قوله ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [ق: ٣٣]

و﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

٨. في ﴿مَن﴾ قولان: أحدهما أنها للتبعيض، ثم فيه قولان: أحدهما أنه عنى صيد البر دون صيد البحر، والثاني أنه عنى الصيد ما داموا في الإحرام، كأن ذلك بعض الصيد. والثاني: أنها لبيان الجنس كقوله ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

٩. في قوله وأنتم حرم ثلاثة أقوال: أحدها وأنتم محرمون بحج أو عمرة قاله الأكثرون. والثاني وأنتم في الحرم، يقال أحرم إذا دخل في الحرم وأنجد إذا أتى نجداً. والثالث الجمع بين القولين.

١٠. معنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾: التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعضٌ من كلٍّ، بالنسبة إلى مقدور الله تعالى. وإنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول. وأنه مهما اندفع عنهم ممَّا هو أعظم في المقدور فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل، لطفاً بهم ورحمةً. ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر، وحاملاً على الاحتمال.

١١. رأى الحنفية: أن أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذا اصطاده الحلال، سواء صيد من أجله أو لم يصد لظاهر قوله تعالى: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ فحرّم صيده وقتله على المحرمين، دون ما صاده غيرهم. لحديث البهزي- زيد بن كعب- في رواية مالك وغيره عن النّبي ﷺ في حمار الوحش العقير أنه أمر أبا بكر، فقسمه في الرّفاق. وحديث أبي قتادة عن النّبي ﷺ وفيه: «**إنما هي طعمة أطعمكموها اللّه**» فقد أكل النّبي ﷺوالصحابة مما أهدي إليهم من لحم الحمار الوحشي.

١٢. إنه تعالى يعاملكم معاملة المختبر الذي يريد أن يعلم الشيء وإن كان علام الغيوب، لأن هذا من ضروب تربيته لكم وعنايته بتزكيتكم.

١٣. إشارة: إنْ مَنْ قصَدَنا فعليه نَبْذُ الأطماعِ جملةً، ولا ينبغي أن تكون له مطالبة بحالٍ

من الأحوال. وإن من قصد بيتنا فينبغي أن يكون الصيد منه في الأمان، لا يتأذى منه حيوان بحال، لذا قالوا: البَرُّ مَنْ لا يؤذي الذر ولا يُضْمِر الشر.

المعاني المفردة[(١)]

لَيَبْلُوَنَّكُمُ: قال الزجاج اللام في ليبلونكم لام القسم ومعناه لنختبرن طاعتكم من معصيتكم.

الصَّيْدِ: مَصْدَرٌ أُطْلِقَ عَلَى مَا يُصْطَادُ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ مُطْلَقًا وَمِنْ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّ الْوَحْشِيَّةِ لِتُؤْكَلَ، وَقِيلَ مُطْلَقًا فَيَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُ الْمَأْكُولِ لَحْمُهُ إِلَّا مَا أُبِيحَ قَتْلُهُ.

تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ: صغار الصيد وفراخه.

وَرِمَاحُكُمْ: كبار الصيد تؤخذ بالرمح.

لِيَعْلَمَ اللّهُ: يظهر علمه.

فَمَنِ اعْتَدَى: من صاد بعد التحريم. فمن تجاوز حدود اللّه بعد هذا البيان الشافي في الصيد.

سبب النزول[(٢)]

أخرج ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن مقاتل أنها نزلت في عمرة الحديبية حيث ابتلاهم اللّه بالصيد وهم محرمون، فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، وكانوا متمكنين من صيدها أخذاً بأيديهم، وطعناً، برماحهم، وذلك قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ فهموا بأخذها، فنزلت هذه الآية، وخص الأيدي والرماح، لأن الصيد يكون بهما غالباً.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير. لسان العرب. شرح الكلمات وما ترشد إليه الآيات. تفسير المنار. تفسير القرآن العظيم.

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

الإعراب[1]

"**لَيَبْلُوَنَّكُمُ**" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف. جملة "**تَنَالُه أيديكم**" في محل جر نعت، والمصدر "**لِيعلَم الله**" مجرور متعلق بـ "**يَبلُوَنَّكم**". والجار "**بالغَيب**" متعلق بحال من فاعل "**يخاف**"، وجملة "**فمن اعتدى**" معطوفة على جواب النداء لا محل لها.

- **(رماح)** جمع رمح، اسم جامد، وقد سمع اشتقاق فعل رمح يرمح باب فتح منه أي طعنة بالرمح وزنه فعل بضمّ فسكون، والجمع فعال بكسر الفاء.

البلاغة

- **التنكير:** في قوله تعالى ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ فتنكير شيء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التي تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال. وإنما هو من قبيل ما ابتلي به أهل أيلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على أن من لم يثبت في مثل هذا كيف يثبت عند شدائد المحن.

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. مشكل الإعراب للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

النداء الأربعون

لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة: ٩٥].

هداية وتدبر[١]

١. في قوله وأنتم حرم ثلاثة أقوال:

أحدها: وأنتم محرمون بحج أو عمرة قاله الأكثرون. **والثاني:** وأنتم في الحرم يقال أحرم إذا دخل في الحرم وأنجد إذا أتى نجداً. **والثالث:** الجمع بين القولين.

٢. قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن يتعمد قتله ذاكراً لإحرامه قاله ابن عباس وعطاء.

والثاني: أن يتعمد قتله ناسياً لإحرامه قاله مجاهد. فأما قتله خطأ ففيه قولان:

أحدهما: أنه كالعمد قاله عمر وعثمان والجمهور، قال الزهري نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ، يعني ألحقت المخطئ بالمتعمد في وجوب الجزاء، وروي عن النبي ﷺ أنه قال الضبع صيد[٢] وفيه كبش إذا قتله المحرم وهذا عام في العامد والمخطئ، قال القاضي أبو يعلى أفاد تخصيص العمد بالذكر ما ذكر في أثناء الآية من الوعيد وإنما يختص ذلك بالعامد. **والثاني،** أنه لا شيء فيه قاله ابن عباس وغيره.

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير. ومحاسن التأويل. والتفسير المنير. الحَاوى فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم.
(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ– عَنِ الضَّبُعِ فَقَالَ « هُوَ صَيْدٌ وَيُجْعَلُ فِيهِ كَبْشٌ إِذَا صَادَهُ الْمُحْرِمُ». حديث ٣٨٠٣ – الأطعمة – سنن أبى داود.

٣. هل يجوز للمحرم ذبح الصيد؟ قال مالك وأبو حنيفة: لا يجوز ذبح المحرم للصيد، لنهي اللّه سبحانه المحرم عن قتله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ فصار المحرم ليس أهلاً لذبح الصيد. وقال الشافعي: ذبح المحرم للصيد جائز، لأنه ذبحٌ صدر من أهله وهو المسلم، مضاف إلى محله وهو الأنعام، فأفاد مقصوده من حلّ الأكل، كذبح الحلال.

٤. هل تستثنى السباع من صيد البر؟ للعلماء آراء ثلاثة:

قال مالك: كل شيء لا يعدو من السباع مثل الهر والثعلب والضبع وما أشبهها، فلا يقتله المحرم،

وإن قتله فداه. ولا بأس بقتل كل ما عدا ذلك على الناس في الأغلب، مثل الأسد والذئب والنمر والفهد، وكذلك لا بأس عليه بقتل الحيات والعقارب والفأرة والغراب والحدأة، لقوله ﷺ فيما رواه مسلم والنسائي وابن ماجه عن عائشة: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا» .

والخلاصة: أنه لا بأس بقتل المذكور في هذا الحديث ويقاس عليها السباع.

قال أبو حنيفة: لا يقتل المحرم من السباع إلا الكلب العقور والذئب خاصة، سواء ابتدأه أو ابتدأهما، وإن قتل غيره من السباع فداه، فإن ابتدأه غيرهما من السباع فقتله فلا شيء عليه. ولا شيء عليه في قتل الحية والعقرب والغراب والحداة، لأن النّبي ﷺ خص دوابّ بأعيانها، وأرخص للمحرم في قتلها من أجل ضررها، فلا وجه أن يزاد عليها إلا أن يجمعوا على شيء فيدخل في معناها. والخلاصة: لا بأس بقتل المذكور في الحديث، ولا يقاس عليها السباع. أما الذئب فهو كالكلب.

وقال الشافعي: كل ما لا يؤكل لحمه، فللمحرم أن يقتله، وصغار ذلك وكباره سواء.

٥. صيد الحرم المكي والمدني: أي حرم مكة وحرم المدينة، وزاد الشافعي حرم الطائف: لا يجوز قطع شجره، ولا صيد صيده، ومن فعل ذلك أثم ولا جزاء عليه في مذهبي مالك والشافعي، ودليل التحريم قوله ﷺ في الصحيح: **«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ**

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَهْىَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِى وَلَمْ تَحْلِلْ لِى إِلاَّ سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا[1] وَلاَ تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ»[2].

ودليل عدم أخذ الجزاء: عموم قوله ﷺ في الصحيح: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثا أو أوى محدثا، فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللّه منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا[3]» فأرسل ﷺ الوعيد الشديد، ولم يذكر كفارة.

وقال أبو حنيفة: صيد المدينة غير محرّم، وكذلك قطع شجرها، لحديث سعد بن أبي وقاص عن النّبي ﷺ أنه قال: **«من وجدتموه يصيد في حدود المدينة أو يقطع شجرها، فخذوا سلبه»** أي ما يكون معه من متاع وسلاح، لكن اتفق الفقهاء على أنه لا يؤخذ سلب من صاد في المدينة، فدل ذلك على أنه منسوخ. واحتج لهم الطحاوي أيضا بحديث أنس: «ما فعل النّغير؟» فلم ينكر صيده وإمساكه.

٦. حالة العود أو التكرار: إن قتل المحرم في إحرامه شيئاً من الصيد، ثم عاد إلى القتل مرة أخرى، فعليه في رأي الجمهور (مالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم) الجزاء كلما قتل، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ﴾.. الآية.. فالنهي دائم مستمر عليه، ما دام محرماً، فمتى قتله، فالجزاء لأجل ذلك لازم له.

٧. قال الشافعي والحسن البصري: إذا اتفق الحكمان لزم الحكم، وإن اختلفا نظر في غيرهما، ولا ينتقل عن المثل الخلقي إذا حكما به إلى الطعام، لأنه أمر قد لزم. وقال مالك: يخيّر الحكمان قاتل الصيد كما خيّره اللّه في أن يخرج هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ، أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً فإن اختار الهدي حكما عليه بما يريانه

---

(١) الخلى: النبات الرقيق ما دام رطباً، ويختلى: يقطع.

(٢) حديث ٤٣٥٨ - المغازى - صحيح البخارى.

(٣) عير: جبل بناحية المدينة. وأما ثور فهو جبل بمكة، وذكره هنا وهم من الراوي وخطأ. والصرف: التوبة، والعدل: الفدية.

نظيراً لما أصاب، وما لم يبلغ شاة حكما فيه بالطعام، ثم خيّر في أن يطعمه أو يصوم مكان كل مدٍّ يوماً.

٨. قال أبو حنيفة: إذا قتل جماعة صيداً في الحرم المكي، وكلهم محلّون، عليهم جزاء واحد، بخلاف ما لو قتله المحرمون في الحل والحرم، على كل واحد جزاء كامل. ودليله أن الجناية في **الإحرام** على العبادة قد ارتكب كل واحد منهم محظور إحرامه. وإذا قتل المحلّون صيداً في الحرم، فإنما أتلفوا دابة محرمة، بمنزلة ما لو أتلف جماعة دابة، فإن كل واحد منهم قاتل دابة، ويشتركون في القيمة.

وقال مالك: على كل واحد منهم جزاء كامل، بناء على أن الرجل يكون محرما بدخوله الحرم، كما يكون محرما بتلبيته بالإحرام. قال ابن العربي: وأبو حنيفة أقوى منا.

٩. **بلاغة:** ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ استعارة مكنية تبعية، حيث شبه سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام بالطعام المستوبل المستوخم يذوقه.

....

المعاني المفردة[١]

مُّتَعَمِّداً: قاصداً للشيء ذاكراً لإحرامه.

فَجَزَاء: أي: فعليه جزاء. فمكافأة.

النَّعَمِ: الإبل والبقر والغنم[٢].

ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ: رجلان مؤمنان عدلان، لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به.

---

(١) انظر: محاسن التأويل. والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. التوقيف على مهمات التعاريف. القاموس الفقهي لغة واصطلاحا.

(٢) يُقَالُ: إنَّ الأَنْعَامَ إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِهِ لِمَا يُتَنَعَّمُ بِهِ مِنْ لُحُومِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ.

هَدْياً: الهدي وهو اسم ما يهدى إلى مكة للتقرب من شاة أو بقر أو بعير الواحدة هدية.

بَالِغَ الْكَعْبَةِ: أي: يبلغ به الحرم. فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه. □

كَفَّارَةٌ: الكفارة لغة من الكفر الستر وشرعاً ما وجب على الجاني جبراً لما منه وقع وزجرا عن مثله. ما يستغفر به الآثم من صدقة، وصوم، ونحو ذلك. □

عَدْلُ: مثل.

وَبَالَ أَمْرِهِ: أي: شدة وثقل هتكه لحرمة الإحرام.

عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ: يَعْنِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ لا الإِسْلَامِ، أَوْ عَمَّا قَبْلَ بَيَانِ الْحُكْمِ ؛ فَإِنَّ الْوَاقِعَ قَبْلَهُ عَفْوٌ.

عَزِيزٌ: لا يُغلب. ومقتضى عزته الانتقام من هاتك حرمته.

النحو والصرف والبلاغة[1]

- جملة "**وأنتم حُرُمٌ**" حالية، وجملة "**ومَن قَتَله**" معطوفة على جواب النداء، والجار "**منكم**" متعلق بحال من فاعل "**قَتَل**"، و"**متعمِّدًا**" حال من فاعل "**قَتَلَهُ**"، وقوله "**فجزاءٌ**": مبتدأ، والخبر مقدر، أي: فعليه، وجملة "**فعليه جزاء**" جواب الشرط، و"**مِثْلُ**" نعت لـ"**جزاء**"، و "**ما**" اسم موصول مضاف إليه، والجار "**مِن النَّعَمِ**" متعلق بحال من "**ما**"، وجملة "**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا**" نعت لـ"**جزاء**". وقوله "**هَدْياً**": حال من الضمير في "**به**"، "**بالغَ**" نعت "**هديًا**"، وهذه الإضافة لفظية؛ أفادت التخفيف بحذف التنوين، ولا تفيد التعريف؛ ولذلك جاز نعت النكرة بها. قوله "**أو كَفَّارَةٌ**": معطوف على "**جزاء**"، "**طعامُ**" بدل من "**كفارة**"، وقوله "**عدل**": معطوف على "**كفَّارَةٌ**"، "**صياما**" تمييز، والمصدر "**ليذُوقَ**" مجرور متعلق بمقدر، أي: جُوزي بذلك ليذوق، وجملة "**فينتقمُ**" خبر لمبتدأ محذوف، تقديره هو، والجملة جواب الشرط.

- **(بالغ)** اسم فاعل من بلغ الثلاثيّ، ومنه فاعل. **(الكعبة)** اسم لبيت الله الحرام،

---

(١) مشكل عراب القرآن للمسكي.

وسمّيت بذلك لتكعيبها أي تربيعها إذ يقال لكل بيت مربّع كعبة، وزنه فعلة بفتح فسكون. **(وبال)** اسم للشيء الثقيل ولا سيّما في المكروه، وزنه فعال بفتح الفاء.

- الاستعارة المكنية التبعية: في قوله تعالى **«لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ»** حيث شبه سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام بالطعام المستوبل المستوخم يذوقه.

القراءات[1]

(فَجَزَاءٌ مِّثْلُ) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب بتنوين جزاء ورفع لام **(مِّثْلُ)**، والباقون بحذف التنوين وخفض اللام في **(فَجَزَاءُ مِّثْلِ)**.

(كَفَّارَةٌ طَعَامُ) قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بحذف تنوين **(كَفَّارَةُ)** وخفض ميم **(طَعَامِ)**، والباقون بتنوين **(كَفَّارَةٌ)** ورفع ميم **(طَعَامُ)**، وأجمعوا على قراءة **(مَسَاكِينَ)** هنا بالجمع.

---

(١) البدور الزاهرة.

النداء الحادي والأربعون

الإسلام منهج حقيقي للحياة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [المائدة: ١٠١].

بين يدي النداء

عقد البخاري في صحيحه بابًا في كتاب الاعتصامِ عنوانه: باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه، وقوله تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ أَوْرَدَ فِيهِ تِسْعَةَ أَحَادِيثَ[1]:

– قال ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَىْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (٧٣٧٥).

– اتَّخَذَ النَّبِىُّ ﷺ حُجْرَةً فِى الْمَسْجِدِ مِنْ حَصِيرٍ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا لَيَالِىَ حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ ثُمَّ فَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «مَا زَالَ بِكُمُ الَّذِى رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ مَا قُمْتُمْ بِهِ فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِى بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلاَةِ الْمَرْءِ فِى بَيْتِهِ إِلاَّ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ» (٧٣٧٦).

– سئل ﷺ عن أشياء كرهها فلما أكثروا عليه المسألة غضب وقال: «سَلُونِى». فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبِى قَالَ «أَبُوكَ حُذَافَةُ». ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبِى فَقَالَ «أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ». فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَضَبِ قَالَ إِنَّا نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. (7377)

---

(١) باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه – الاعتصام بالكتاب – صحيح البخارى.

- كتب معاوية إلى المغيرة اكتب إلى ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّهُ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ الْمَالِ وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَمَنْعٍ وَهَاتِ. (7378)

- عن أنس قال: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ. (7379)

- خَرَجَ ﷺ حين زاغت الشمس فصلى الظهر فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أمورًا عظامًا ثم قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَىْءٍ فَلْيَسْأَلْ عَنْهُ فَوَاللَّهِ لاَ تَسْأَلُونِى عَنْ شَىْءٍ إِلاَّ أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مَا دُمْتُ فِى مَقَامِى هَذَا». قال أنس فأكثر الناس البكاء وأكثر ﷺ أن يقول: «سَلُونِى». فقال أنس فقام إليه رجل فقال أين مدخلى يا رسول اللَّه قال: «النَّارُ». فقام عبد اللَّه بن حذافة فقال من أبى يا رسول اللَّه قال: «أَبُوكَ حُذَافَةُ». قَالَ ثُمَّ أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ «سَلُونِى سَلُونِى». فَبَرَكَ عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً. قَالَ فَسَكَتَ ﷺ حِينَ قَالَ عُمَرُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ عُرِضَتْ عَلَىَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِى عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ وَأَنَا أُصَلِّى فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». (7380)

– قال رجل يا نبى اللَّه من أبى قال «أَبُوكَ فُلاَنٌ». ونزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآيَةَ. (7381)

– قَالَ ﷺ: «لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ» (7382)

- قال ابن مسعود رضى الله عنه كُنْتُ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى حَرْثٍ بِالْمَدِينَةِ وَهْوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ تَسْأَلُوهُ لاَ يُسْمِعْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ. فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ. فَقَامَ سَاعَةً يَنْظُرُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْىُ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾. (٧٣٨٣)

[إن منهج الإسلام واقعي جاد. يواجه وقائع الحياة بالأحكام، المشتقة لها من أصول شريعة الله، مواجهة عملية واقعية. مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة وملابساتها، ثم تقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقاً كاملاً دقيقاً.

فأما الاستفتاء عن مسائل لم تقع، فهو استفتاء عن فرض غير محدد. وما دام غير واقع فإن تحديده غير مستطاع. والفتوى عليه حينئذ لا تطابقه لأنه فرض غير محدد. والسؤال والجواب عندئذ يحملان معنى الاستهتار بجدية الشريعة؛ كما يحملان مخالفة للمنهج الإسلامي القويم.

ومثله الاستفتاء عن أحكام شريعة الله في أرض لا تقام فيها شريعة الله، والفتوى على هذا الأساس!. إن شريعة الله لا تستفتى إلا ليطبق حكمها وينفذ. فإذا كان المستفتي والمفتي كلاهما يعلمان أنهما في أرض لا تقيم شريعة الله؛ ولا تعترف بسلطان الله في الأرض وفي نظام المجتمع وفي حياة الناس. أي لا تعترف بألوهية الله في هذه الأرض ولا تخضع لحكمه ولا تدين لسلطانه. فما استفتاء المستفتي؟ وما فتوى المفتي؟ إنهما - كليهما - يرخصان شريعة الله، ويستهتران بها شاعرين أو غير شاعرين سواء!

ومثله تلك الدراسات النظرية المجردة لفقه الفروع وأحكامه في الجوانب غير المطبقة. إنها دراسة للتلهية! لمجرد الإيهام بأن لهذا الفقه مكاناً في هذه الأرض التي تدرسه في معاهدها ولا تطبقه في محاكمها! وهو إيهام يبوء بالإثم من يشارك فيه، ليخدر مشاعر الناس بهذا الإيهام!

إن هذا الدين جد. وقد جاء ليحكم الحياة. جاء ليعبد الناسَ لله وحده، وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان، فيرد الأمر كله إلى شريعة الله، لا إلى شرع أحد سواه. وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها؛ ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها، ولتدلي بحكم الله في الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها.

ولم يجيء هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار. ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة. ولا لتعيش مع الفروض التي لم تقع، وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية في الهواء! هذا هو جد الإسلام. وهذا هو منهج الإسلام. فمن شاء من «علماء» هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله في واقع الحياة. أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف بالأحكام في الهواء!] (١)

هداية وتدبر(٢)

١. كان المسلمون الأولون كثيرى السؤال للنبى ﷺ عن أحكام، يسألونه عن أمور يشددون بها على أنفسهم، ويسألونه عن أمور تتجافى عن مبادئ الإسلام، ولكن لم يئن وقت تحريمها – لأن الإسلام شريعة عامة خالدة، وقد ابتدأ مخاطبا العرب بهذه الأحكام، ومنها من لم يكن عندهم أنس بتحريمها فاحتاجوا إلى التدرج، حتى يشربوا روح الإسلام، فينزل عليهم التحريم، وقد استأنست قلوبهم ببعض معالي الإسلام، ولقد كان منهم مخلصون يطلبون الحق فى الأمور، ولا يلتفتون إلى مبادئ التدرج فى الشرع، ومنهم غير مخلصين يريدون الإعنات، ومنهم بين أولئك وهؤلاء من يظهرون بألسنتهم التفقه والذين طلبوا التشديد.

٢. يؤدب الله تعالى عباده المؤمنين، وينهاهم عن أن يسألوا عن أشياء لا فائدة لهم في السؤال عنها، وعن التنقيب عن خفاياها، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأشياء ربما ساءتهم، وشق عليهم سماعها.

٣. وهذا حكم لا يختص بحياته ﷺ فقط، ولا يخص الصحابة دون من بعدهم، بل فرض علينا نحن امتثال أمره، واجتناب نهيه، وترك البحث والتفتيش عما سكت عنه.. وليس ذلك الترك جهلاً وتجهيلاً لحكمه، بل إثبات لحكم العفو وهي الإباحة

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) انظر: زهرة التفاسير. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. تفسير المنار. أيسر التفاسير. خواطر محمد متولي الشعراوي.

العامة، ورفع الحرج عن فاعله.

٤. في الآية دليل على كراهية الإلحاف في السؤال والتقعر في الأسئلة والتنطع فيها والسؤال لغير حاجة، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْعًا وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ».[1].

٥. ما وجه أنه تعالى نهاهم عن السؤال ثم أذن لهم بقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا﴾ الخ؟ الجواب: إن تسألوا عن غيرها مما دعت الحاجة إليه، ففي الكلام حذف مضاف.

٦. إن بنى اسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم فى أشياء فإذا أُمروا تركوها فهلكوا كما سأل قوم ثمود صالحاً الناقة وسأل قوم عيسى مائدة.

٧. لما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ صار التقدير كأنه قال: ما بلغه الرسول إليكم فخذوه وكونوا منقادين له، وما لم يبلغه الرسول إليكم فلا تسألوا عنه ولا تخوضوا فيه، فإنكم إن خضتم فيما لا تكليف فيه عليكم فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الفاسد من التكاليف ما يثقل ويشق عليكم.

٨. لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس في الأمور التي تؤدي بهم إلى المشقة والتعب وتسيء إليهم وتقبَّل الحقُّ من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشريعة مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهر الحرام وغيرها. أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق في شأنها: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

....

المعاني المفردة

تُبْدَ لَكُمْ: تظهر لكم.

عَفَا اللّهُ عَنْهَا: سكت عنها فلم يذكرها أو لم يؤاخذكم بها.

---

(١) حديث ٤٥٨٠ – باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة – كتاب الأقضية – صحيح مسلم.

سبب النزول[1]

ذُكر أنها أنزلت على رسول الله ﷺ بسبب مسائل كان يسألها إياه أقوام، امتحاناً له أحياناً، واستهزاء أحياناً، فيقول له بعضهم: من أبي؟ ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته: أين ناقتي؟ فقال لهم تعالى ذكره: لا تسألوا عن أشياء من ذلك، كمسألة عبد الله بن حذافة إياه من أبوه، ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ يقول: إن أبدينا لكم حقيقة ما تسألون عنه ساءكم إبداؤها وإظهارها.

النحو والصرف[2]

- **إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**: في محل جر صفة لـ **أَشْيَاء**. **عَفَا اللّهُ**: في محل جر صفة ثانية لـ **أَشْيَاء**.

- **(أشياء)** جمع شيء، اسم جامد وزنه فعل بفتح فسكون، جمعه شيئاء بوزن فعلاء، فالهمزة الأولى لام الكلمة والألف بعدها والهمزة الأخيرة زائدتان ثمّ دخله القلب المكانيّ.. قدّمت الهمزة التي هي لام الكلمة فصار أشياء وزنه لفعاء «١». **(تبد)** فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه تفع بضمّ التاء وفتح العين. **(تسؤكم)** فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه تفلكم.

القراءات[3]

(**يُنَزَّلُ**) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالتخفيف(**يُنْزَلُ**)، والباقون بالتشديد.

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري.

(٢) الجدول في إعراب القرآن.

(٣) البدور الزاهرة.

النداء الثاني والأربعون

عليكم أنفسكم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

بين يدي النداء

[إنه التميز والمفاصلة بينهم وبين من عداهم. ثم إنه التضامن والتواصي فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة.

أنتم وحدة منفصلون عمن سواكم، متضامنون متكافلون فيما بينكم. فعليكم أنفسكم.. عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها؛ وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها؛ ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم. ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم.

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادىء أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى.. إن الأمة المسلمة هي حزب الله. ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان. ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك في عقيدة؛ ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة؛ ولا اشتراك في تبعة أو جزاء.

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها؛ وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها.. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى.. ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى. والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها. فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم..

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولاً، ثم في الأرض جميعاً، وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته. وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه.. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً؛ وعلى البشرية كلها أخيراً.

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إذا اهتدى هو بذاته - ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض - إذا هي اهتدت بذاتها - وضل الناس من حولها.

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان - وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم] (١).

هداية وتدبر(٢)

١. يا أيها المؤمنون عليكم أنفسكم، كملوها بالعلم والعمل وأصلحوها بالقرآن والسنن وانظروا فيما يقربها إلى اللّه حتى تكون في رفقة الأنبياء الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وبعد هذا لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. نعم لا يضركم شيء إذا قمتم بما عليكم من واجبات وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكرات، فاللّه يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ثم إلى اللّه وحده المرجع والمآب وسيجازى كلاً على عمله، إن خيراً فخير، وإن شرّا فشر.

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) توفيق الرحمن. محاسن التأويل. التحرير والتنوير.

٢. ظاهر هذه الآية يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بواجب إذا استقام الإنسان، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لولا ما ورد من تفسيرها في السنة وأقاويل الصحابة والتابعين، كما تقدم في سبب النزول.

وعلى كل حال يمكن فهم الآية بغير الرجوع إلى السنة، فهي تطالب المؤمن أولا ببناء الذات والتسلح بفضائل الأعمال والاعتماد على النفس في كل أنواع القربات، واجتناب المعاصي والسيئات. وذلك لأن هناك آيات كثيرة تطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تعارض بين الموضوعين، فهذه الآية في تكوين الشخصية والذات المسلمة، وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النطاق الاجتماعي فهي توجب التناصح والتعاون على الخير وإقرار الفضيلة، ومقاومة الشر ومحاربة الرذيلة والمنكر.

٣. أخرج الترْمذيُّ عن أبي ثعلبة الخُشَني، قال: سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ» .

وحدث في زمن أبي بكر ما أخرج أصحاب «السنن» أن أبا بكر الصديق بلغه أن بعض الناس تأول الآية بسقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فصعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: (يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية. . وإنّكم تَضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ يُوشِكُ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ، وَإِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ».

. وعن ابن مسعود أنه قرئت عنده هذه الآية فقال: إن هذا ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة (أَيِ النصيحة) ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يُقبل منكم فحينئِذ عليكم أنفسكم (يريد أن لا يجب عليهم قتال لتقبل نصيحتهم). وعنه أيضًا: إذا اختلفَت القلوب وأُلبِستم شيعًا وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه.

. وعن عبد اللَّه بن عمر أنه قَال: إنها (أَي هذه الآية) ليست لي ولا لأصحابي لأن

رسول اللّه قال: «**أَلا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**» فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيؤون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. الزموا أنفسكم أن تصلحوها باتباع كتاب الله وسنة رسوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ أي: ممن قال: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أو أخذ بشبهة. وكأن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالهم. فقيل لهم: عليكم أنفسكم وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى. لا يضركم ضلال الضالين وجهل الجاهلين، إذا كنتم مهتدين. كما قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

٤. الزموا أن تصلحوا أنفسكم باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله. والعقليات المؤيدة بها، ودعوة الإخوان إلى ذلك. بإقامة الحجج ودفع الشبه، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بما أمكن من القول والفعل. لا تقصروا في ذلك. إذ لا يضركم – بعد ذلك – من ضل إذا اهتديتم. إذ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون، من التقصير أو الإيفاء قولاً وفعلاً، في حق أنفسكم أو غيركم.

٥. لا يُتوهّم من هذه الآية أنها رخصة للْمسلمين في ترك الدعوة إلى الخير والأَمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، لأن جميع ذلك واجب بِأدلة طفحت بها الشريعة. فكان ذلك داخلاً في شرط إذا اهتديتم. ولِما في قوله عليكم أنفسكم من الإِشعار بالإعراض عن فريق آخر وهو الْمبين بـ من ضل، ولما في قوله إذا اهتديتم من خفاء تفاريع أنواع الاهتداء عرض لبعض الناس قديمًا في هذه الآية فشكّوا في أن يكون مفادها الترخيص في ترك الأمر بالمعروف والنهي عنِ الْمنكر. وقد حدث ذلك الظن في عهد النبي ﷺ.

٦. نقل الرازي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإنه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني عليكم أهل دينكم – ولا يضركم من ضل من الكفار – بأن يعظ بعضكم بعضاً، ويرغّب بعضكم

بعضاً في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات. والذي يؤكد ذلك ما بينا أن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ معناه: احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب. فكان ذلك أمراً بأن نحفظ أنفسنا. فإذا لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان ذلك واجباً.

٧. ودلت الآية على توجيه إنذار عام إذ إن مصير الخلائق جميعاً واحد، مصير المؤمنين ومصير المخالفين، وهو تعالى يجازيكم بأعمالكم.

٨. شمل الاهتداء جميع ما أمرهم به اللَّه تعالى. ومن جملة ذلك دعوة الناس إِلَى الْخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، فلَو قَصروا في الدعوة إلى الخير والاحتجاج لَه وسكتوا عن الْمنكَر لضرهم من ضل لأن إثم ضلاله محمول عليهِم.

....

المعاني المفردة[(١)]

عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ: أي احفظوها وقوموا بصلاحها. عَلَيْكُمْ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى الْزَمُوا.

فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ: أي فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها.

سبب النزول[(٢)]

قال الفخر الرازي: ذكروا في سبب النزول وجوها:

أحدها: ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما قبل من أهل الكتاب الجزية ولم يقبل من العرب إلا الإسلام أو السيف، عير المنافقون المؤمنين بقبول الجزية من بعض الكفار دون البعض، فنزلت هذه الآية أي لا يضركم ملامة اللائمين إذا كنتم على الهدى، **وثانيها**: أن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالتهم.

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. التحرير والتنوير.

(٢) مفاتيح الغيب حـ ١٢ صـ ٩٣.

فقيل لهم: عليكم أنفسكم، وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين، **وثالثها:** أنهم كانوا يغتمون لعشائرهم لما ماتوا على الكفر فنهوا عن ذلك. والأقرب عندي أنه لما حكى عن بعضهم أنه إذا قيل لهم: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [**المائدة: ١٠٤**] ذكر تعالى هذه الآية، والمقصود منها بيان أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتشبهوا بهم في هذه الطريقة الفاسدة ، بل ينبغي أن يكونوا مصرين على دينهم، وأن يعلموا أنه لا يضرهم جهل أولئك الجاهلين إذا كانوا راسخين في دينهم ثابتين فيه.

النحو(١)

عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ: أَنفُسَكُمْ: منصوب على الإغراء، أي: احفظوا أنفسكم، كما تقول: عليك زيداً. **لاَ يَضُرُّكُم:** في موضع الجزم، لأنه جواب: **عَلَيْكُمْ**. وكان ينبغي أن يفتح آخره، إلا أنه أتى به مضموماً تبعاً لضم ما قبله. **إِذَا اهْتَدَيْتُمْ:** ظَرْفٌ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الشَّرْطِ يَتَعَلَّقُ بِ يَضُرُّكُمْ.

المناسبة في السياق(٢)

قال ابن عاشور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ تذييل جرى على مناسبة في الانتقال فإنّه لما ذكر مكابرة المشركين وإعراضهم عن دعوة الخير عقّبه بتعليم المسلمين حدود انتهاء المناظرة والمجادلة إذا ظهرت المكابرة، وعذر المسلمين بكفاية قيامهم بما افترض الله عليهم من الدعوة إلى الخير، فأعلمهم هنا أن ليس تحصيل أثر الدعاء على الخير بمسؤولين عنه، بل على الداعي بذل جهده وما عليه إذا لم يصغ المدعوّ إلى الدعوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [**القصص: ٥٦**].

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

(٢) التحرير والتنوير.

النداء الثالث والأربعون

إذا حضر أحدكم الموت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٦].

بين يدي النداء

[الوصية إحدى وسائل التكافل الاجتماعي في الإسلام، وهي مُكمِّلة لنظام الميراث لكونها تمليكًا من المورِّث مضافًا إلى ما بعد الموت تبرُّعًا، بجزء من التركة لمن يشاء من أهل مودته أو أقاربه أو غيرهم.

شرع الله عز وجل قواعد الميراث فرضًا لازمًا بتحديد المستحقين وتحديد نصيب كل منهم دون تدخل لإرادة المورث أو لورثته في ذلك، ونظرًا لأن المورث هو صاحب المال الذي جمعه بجهده وكسبه، فقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يجعل هذه الفريضة متعلقة بثلثي التركة، وأن يترك للمورث ثلث التركة يتصرف فيها باختياره بأن يهديه إلى من يشاء ممن تربطه به مودة أو قرابة أو غيرهم، أو ليتدارك به تقصيرًا في دنياه، أو ليزداد به مثوبة عند الله بتوجيهه إلى جهة بر أو إلى تحقيق مصلحة للأمة.

وقد رغَّبَتْ الشريعة في الوصية وجعلت لها منزلة كبيرة؛ إذ تسبق في التنفيذ حقوق الميراث، وذلك لأنها تتم بإرادة المتوفى وليست جبرًا عنه، فتكون جزءًا من كسبه الدنيوي ومن صالح أعماله التي يثاب عليها بعد وفاته.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قال ﷺ: **«إِنَّ اَللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ؛ زِيَادَةً فِي حَسَنَاتِكُمْ»**(١).

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد والدَّارَقُطْنِيُّ والبزَّار وابن ماجة.

وتأتي الوصية في المرتبة الثانية في الحقوق المتعلقة بتركة الميت - بعد تجهيزه ودفنه - بعد أداء الديون، ويقدم الدَّين على الوصية بإجماع الفقهاء؛ لأن الدين واجب من أول الأمر، لكن الوصية تبرُّع ابتداء، والواجب يؤدى قبل التبرع، فعَنْ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَقْرَؤونَ الْوَصِيَّةَ قَبْلَ الدَّيْنِ، وَقَدْ شَهِدْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَدَأَ بِالدَّيْنِ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ»(١)](٢).

هداية وتدبر(٣)

1. يؤكد الحق سبحانه وتعالى أمر الوصية حتى في الوقت الذي يعز فيه التأكيد، فأمر الإنسان أن يوصي بها إن كان بين أهله وقومه، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادي اثنين من أهل دينه ويوصيهما. وإن لم يجد أحداً من أهل دينه فليُسْمِع وصيته اثنين من غير أهل دينه.
2. ومعنى ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ تليـمين. وما بينكم كناية عن التنازع والتشاجر، وإنما أضاف الشهادة إلى التنازع لأن الشهود إنما يحتاج إليهم عند وقوع التنازع، وحذف ما من قوله ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ جائز لظهوره، ونظيره قوله ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ [الكهف: ٧٨] أي ما بيني وبينك، وقوله ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾.
3. قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ معناه إذا قارب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. وكقوله: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] ومثله كثير.

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد والترمذي، وابن ماجة، والحاكم في المستدرك، والدارقطني والبيهقي في سننيهما، وأبو داود الطيالسي والحميدي وأبو يعلى في مسانيدهم، وعبد الرزاق وابن أبي شيبة في مصنفيهما. وقال الترمذي: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم أنه يبدأ بالدين قبل الوصية.

(٢) http://www.iicwc.org/lagna/iicwc/iicwc.php/id=529، موقع اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل.

(٣) انظر: تفسير الطبري. تفسير الرازي. تفسير القرطبي. تفسير ابن كثير. تفسير النكت والعيون.

4. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ دليل على وجوب الوصية، لأنه تعالى جعل زمان حضور الموت غير زمان الوصية، وهذا إنما يكون إذا كانا متلازمين، وإنما تحصل هذه الملازمة عند وجوب الوصية.

5. اختلف المفسرون في قوله ﴿مِنكُمۡ﴾ على قولين: **الأول:** وهو قول عامة المفسرين أن المراد: اثنان ذوا عدل منكم يا معشر المؤمنين، أي من أهل دينكم وملتكم، وقوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أو شهادة آخرين من غير أهل دينكم وملتكم إذا كنتم في السفر، فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة في الحضر والسفر. **القول الثاني:** ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي من أقاربكم، وقوله ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي من الأجانب إن أنتم ضربتم في الأرض أي إن توقع الموت في السفر، ولم يكن معكم أحد من أقاربكم، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية. وجعل الأقارب أولاً لأنهم أعلم بأحوال الميت وهم به أشفق، وبورثته أرحم وأرأف.

6. في ﴿أَوۡ﴾ في هذا الموضع قولان:

أحدهما: أنها للتخيير في قبول اثنين منا أو آخرين من غيرنا.

والثاني: أنها لغير التخيير، وإن معنى الكلام، أو آخران من غيركم إن لم تجدوا، منكم.

7. المراد بعد أداء الصلاة، أي صلاة كانت والغرض من التحليف بعد إقامة الصلاة هو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكان احتراز الحالف عن الكذب في ذلك الوقت أتم وأكمل، والله أعلم.

8. قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ هذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية؛ كما صرح بذلك شريح القاضي. قال ابن جرير: عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في الوصية.

9. في قوله تعالى: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ تأويلان: **أحدهما**: لا نأخذ عليه رشوة. **والثاني**: لا نعتاض عليه بحق.

....

المعاني المفردة[1]

إِذَا حَضَرَ: إذا قارب الحضور.

الْوَصِيَّةِ: أَوْصى الرجلَ ووَصَّاه: عَهِدَ إِليه. والوصِيَّةُ: ما أَوْصَيْتَ به.

ذَوَا عَدْلٍ: أمانة وعقل.

ضَرَبْتُمْ: سرتم وسافرتم.

تَحْبِسُونَهُمَا: توقفونهما.

سبب النزول

عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت قال بريء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة فمرض فأوصى إليهما وامرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء فلما قدمنا إلى أهله دفعنا اليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع الينا غيره فلما أسلمت تأثمت من ذلك فأتيت أهله فخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه فحلف فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إلى قوله أن ترد أيمان بعد أيمانهم فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا

---

(١) لسان العرب. تفسير معالم التنزيل.

فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء. تنبيه: جزم الذهبي بأن تميماً النازل فيه غير تميم الداري وعزاه لمقاتل ابن حبان. قال الحافظ ابن حجر وليس بجيد للتصريح في هذا الحديث بأنه الداري.

الإعراب والصرف[1]

(شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ): رفع بالابتداء، وخبره (**ٱثْنَانِ**): والتقدير شهادة اثنين. **(إِذَا حَضَرَ)** ظرف للشهادة. **(حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ)** بدل منه أو ظرف لحضر. **(ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ)**: نعت. **(أَوْ آخَرَانِ)** عطف. **(تَحْبِسُونَهُمَا)** صفة آخران. **(إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ)** هذه الجملةُ لا محلَّ لها لأنها استئنافيةٌ، أخبروا عن أنفسِهم بأنهم من الآثمين إنْ كتموا الشهادة، ولذلك أتوا بـ «إذَنْ» المؤذنة بالجزاء والجواب.

(آخران) مثنّى آخر- بفتح الخاء- اسم بمعنى غير ليس له فعل من لفظه، وزنه فاعل. **(الأوليان)** مثنى الأولى، وزنه أفعل بمعنى الأقرب، فهو على صيغة اسم التفضيل من فعل ولي يلي باب وثق يثق وولي يلي باب ضرب ... وقد قلبت الألف ياء في المثنى لأنها رابعة في الكلمة. **(أدنى)** اسم تفضيل وزنه أفعل من باب دنا، فيه إعلال بالقلب قلبت الواو ألفا لتحرّكها وفتح ما قبلها.**(يخافوا)** في الفعل إعلال بالقلب، أصله يخوفوا- بسكون الخاء وفتح الواو- ثم جرى فيه إعلال بالتسكين حيث سكّنت الواو وحرّكت الخاء بالفتح ... وحينئذ جرى الإعلال بالقلب لتحرك الواو في الأصل وفتح ما قبلها فصار يخافوا.

المناسبة في السياق

لما أمر تعالى بحفظ النفس في قوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أمر بحفظ المال في قوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾.

---

(١) إعراب القرآن – النحاس. تفسير الكشاف. تفسير الجلالين.

النداء الرابع والأربعون

إذا لقيتم الذين كفروا زحفا

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

بين يدي النداء

إن ظهور الدين أن يكون السلطان كله لدين الله وتكون كلمة الله هي العليا إذ لا يصح الدين لله والخلق خلق الله ثم تكون الطاعة ويكون الخضوع لغيره سبحانه فالحكم والسلطان والطاعة والخضوع حق من حقوق الخالق فإذا صرف الناس هذا الحق لغيره وجب الجهاد حتى يصرف هذا الحق له وحده. وحتى لا تكون فتنة، فلا يكون في الأرض شرك فطواغيت الكفر والشرك عاملون وساعون بكل ما أوتوا من قوة ومن وسيلة ومن حيلة لتكون السيادة في الأرض لكفرهم وشركهم ولتكون العبادة ويكون التعظيم له من دون الله تعالى وفي هذا فساد كبير وفتنة عظمى ففرض الله الجهاد لمنع هذه الفتنة ومنع هذا الفساد، فرض الله الجهاد لمحاربة طواغيت الكفر والشرك حتى يتم تحطيمهم وإزالتهم وإزالة فتنتهم وفسادهم وإزالة كفرهم وشركهم من الأرض قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وإن الله فرض الجهاد لحماية المسلمين في سائر أنحاء الأرض من بطش أهل الكفر والشرك. ولإنجاد المستضعفين من المسلمين الذين وقعوا تحت قهر وبطش أهل الكفر والطغيان وما أوضح هذا الهدف هذا اليوم ما أوضح هذا الهدف في عصر اشتدت فيه الحاجة إلى الجهاد بسببه فكم من مسلمة اليوم تنادي في سائر أنحاء الأرض، كم من مسلمة تنادي في الفلبين، وكم من مسلمة تنادي في البلقان وكم من مسلمة تنادي في فلسطين، وكم من مسلمة تنادي في إفريقيا وفي آسيا، وكم من مسلمة تنادي بأعلى صوتها: وإسلاماه وما من مجيب في إخوانها من المسلمين.

لقد أعظم أهل الكفر والطغيان -من يهود وصليبيين وشيوعيين وباطنيين- النكاية في المسلمين، أعظموا النكاية في من يليهم من المسلمين ومن تحت أيديهم من المؤمنين قتلوا الشيوخ والنساء والأطفال وهتكوا أعراض المسلمات وضاعت صيحات ونداءات هؤلاء أدراج الرياح لأنها لم تلامس نجدة هارون ولا نخوة المعتصم إنما لامست أسماعنا التي أصابها الصمم، إننا مشغولون عن الجهاد بمتاع الدنيا القليل، لقد أصاب قلوبنا الشلل فكل يوم نسمع أنباء المسلمين في أنحاء الأرض فإذا هي القتل والتشريد ولا تتحرك القلوب. الذل يعمي ويصم وقد أصاب قلوبنا وضرب أطنابه في حياتنا فأصابنا بالشلل فالكوارث والنكبات وأخبار الكوارث والنكبات التي تحل بالمسلمين ما عادت تحرك فينا عِرقاً، هذا الوهن الذي سيطر على القلوب وضرب أطنابه في حياتنا إن لم نتخلص منه بالجهاد فإن عقابنا عند الله شديد.

هداية وتدبر[1]

١. يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذَا لَقِـيتُـمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فـي القِتالِ زَحْفـا بعضكم إلـى بعض، فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم فإن الله معكم علـيهم. ومن يولهم منكم ظهره إلا مستطرداً لقتال عدوّه بطلب عورة له يـمكنه إصابتها فـيكرّ علـيه أو إلا أن يولـيهم ظهره متـحيزاً إلـى فئة، صائراً إلـى حيز الـمؤمنـين الذين يفـيئون به معهم إلـيهم لقتالهم ويرجعون به معهم إلـيهم.

٢. يأمر الله تعالَى المؤمنين بالثبات في المعركة، وبمواجهة الكافرين بقلوب مؤمنة، ويحثّهم على عدم الفرار وتولية الظهور للأعداء، وإن كان الكَافِرون أكثر من المؤمنين عدداً، لأن الفرار يحدث الوهن في الجيش الإِسلاَمي المقاتل.

٣. الفرار من الزحف من الكبائر.. تدل ظواهر النصوص الشرعية على حرمة الفرار من الزحف إلا في حالتين اثنتين وهما: حالة الفر من أجل الكرّ خدعة للعدو -

---

(١) أيسر التفاسير. تفسير آيات الأحكام/ الصابوني. تفسير الطبري. تفسير القرطبي. تفسير ابـن كـثير. خواطر محمد متولي الشعراوي. السراج المنير حـ ٢ صـ ٣٠٧ ـ ٣٢١.

وحالة الالتحاق إلى جماعة المسلمين والانضمام إلى صفوفهم ليتقوى بهم وقد بينت السنة النبوية أن الفرار من الزحف من الكبائر فقد قال ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ **«الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ»** [١].

٤. تحريم التولي من الزحف، والوعيد عليه في الآية آكد من إيجاب الثبات في الْقتَال.

٥. عدد العدو الذي يحرم الفرار منه بينته الآية في آخر سورة الأنفال وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ **[الأنفال: ٦٦]، فقد** أوجبت هذه الآية على المسلمين أن يثبتوا أمام أعدائهم إذا كان العدو ضِعفهم وقد كانوا من قبل مكلفين بملاقاة العدو والصمود حتى ولو كانوا عشرة أضعافهم فنسخ الله ذلك وخفف عن عباده رحمة بهم وتيسيراً عليهم، فإذا كان جيش الكفار يزيد أضعافاً مضاعفة على جيش المسلمين فإنه لا يجب عليهم ملاقاته إلا إذا كان هناك خطر جسيم كهجوم المشركين على ديار المسلمين فإنه يجب حينئذٍ الدفاع عليهم، ويفترض القتال على الرجل والمرأة والصغير والكبير. وأما المغامرة في الحرب فقد قال بعض العلماء: لا يقتحم الواحد على العشرة ولا القليل على الكثير لأن في ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة[٢].

٦. يجوز الفرار عند الضرورة في غير الحالتين السابقتين التي أشارت إليهما الآية وذلك كأن يحيط العدو بالجيش أو يقطعوا على المجاهدين طريق المؤنة والغذاء، فقد روي

---

(١) حديث 2805 – الوصايا – صحيح البخارى.

(٢) والصحيح كما قال (ابن العربي): إنه تجوز المغامرة لكسر شوكة المشركين وإضعاف نفوسهم فإنهم إذا رأوا هذه الشجاعة النادرة من شخص واحد دبّ الرعب في قلوبهم وأيقنوا بعدم قدرتهم على مقاومة المسلمين وفي ذلك إعزاز لدين الله وقهر للمشركين والله أعلم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «كنا في غزاة فحاص الناس حيَصةً» أي «فروا أمام العدو»، قلنا كيف نلقى النبي ﷺ وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، فأتينا النبي ﷺ قبل صلاة الفجر فخرج فقال: **«من القوم؟»** فقلنا: نحن الفرّارون. فقال: **«لا بل أنتم العكّارون»** وفي رواية **«الكرارون»** - المتعاطفون إلى الحرب - فقبَّلنا يدَه. فقال: **«أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين»** ثم قرأ ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾. وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيد لما قُتل على الجسر بأرض فارس؛ لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيز إليَّ لكنت له فئة. وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله تعالى عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف، فقال عمر: أنا فئتك.

٧. هذه الآية حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدوّ أن يولوهم الدبر منهزمين، إلاَّ لتحرّف القتال، أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزماً بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده إلاَّ أن يتفضل عليه بعفوه.

٨. لا يحل عند الجمهور فِرار مائة إلا مما زاد على المائتين؛ فمهما كان في مقابلة مسلم أكثر من ٱثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن. وقد وقف جيش مُؤْتَة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف، منهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة من لَخْم وجُذَام.. [1]. قال ابن وهب: سمعت مالكاً يسأل عن القوم يلقون العدوّ أو يكونون في محرس يحرسون فيأتيهم العدوّ وهم يسير، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم؟ قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى

---

(١) ووقع في تاريخ فتح الأندلس، أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة؛ فالتقى ومِلك الأندلس لذريق وكان في سبعين ألف عِنان؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق، وكان الفتح.

أصحابهم فآذنوهم.

٩. قال تعالى ﴿زَحۡفٗا﴾ ولم يقل هَرْولوا إلى القتال؛ لأن الزحف هو انتقال كتلته لا ترى الناقل فيها، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك. وكأن الحق تعالى يقصد: أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون.

١٠. قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾. يريد الله أن يعطي صورة بشعة في أذن القوم؛ لأن «الأدبار» جمع «دبر» والدبر مفهوم أنه الخلف ويقابله القُبُل، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أي دبرك، لأن هذا أمر مستهجن، ولذلك نجد الإمام علياً - كرّم الله وجهه - يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له ظِهار، أي مغطى من الصدر، وليس له ظهر.: «ثكلتني أمي إن مكّنت عدوي من ظهري»، وكأن شهامة وشجاعة الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية.

....

المعاني المفردة[1]

زَحْفاً: زحف الرجل إذا مشى على بطنه كالحية، أو دبّ على مقعده كالصبي، وشبّه به هنا مشي الجيش الكثير للقتال بزحف الصبيان، لأنه لكثرته يرى كأنه يزحف زحفاً. الزحف الدنوّ قليلاً قليلاً.

لأَدْبَارَ: جمع دُبُر وهو الخَلْف ويقابله (القُبُل) وهو الأمام، ويطلق القُبُل والدّبُر على سوأتي الإنسان، وأمّا إطلاقه على الأمام والخلف فمشهور في اللغة قال تعالى: ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ [يوسف: ٢٥].

مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ: يقال: تحرّف وانحرف إذا مال وعدل من طَرَف إلى طرف، مأخوذ

---

(١) تفسير آيات الأحكام/ الصابوني.

من الحَرْف وهو الطرف أي الجانب، والتحرف للقتال الفرّ للكرّ أي يتظاهر بالفرار ليغرّ عدوه حتّى يُخيّل له أنه انهزم، ثم يكر عليه فيقتله، وهذا من باب مكايد الحرب (والحرب خدعة).

مُتَحَيِّزاً: منضماً. **فِئَةٍ**: جماعة. **بَآءَ بِغَضَبٍ**: رجع بغضب وسخط من الله. **وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ**: أي مسكنه وملجأه.

الإعراب والصرف[(1)]

- **زَحْفاً**: أي متزاحفين نصب على الحال، ويجوز أن يكون حالاً للكفار، ويجوز أن يكون حالاً للمخاطبين وهم المؤمنون.

- **(زحفا)** مصدر سماعيّ لفعل زحف الثلاثيّ، وزنه فعل بفتح فسكون. **(تولّوا)** فيه إعلال بالحذف، أصله تولّيوا بضمّ الياء، استثقلت الضمّة على الياء فنقلت حركتها إلى الحرف قبلها، فلمّا اجتمع ساكنان حذفت الياء لام الكلمة فأصبح تولّوا وزنه تفعّوا.

المناسبة في السياق[(2)]

قال أبو حيان: لما أخبر تعالى أنه سيلقي الرّعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضربٍ فوق أعناقهم وبنانهم حرضهم على الصبر عند مكافحة العدوّ ونهاهم عن الانهزام.

وقال البقاعى: لما قرر إهانتهم في الدنيا والآخرة بما حسر عليهم القلوب، حسن أن يتبع ذلك نهي من ادعى الإيمان عن الفرار منهم وتهديد من نكص عنهم بعد هذا البيان وهو يدعي الإيمان.

---

(١) تفسير الرازي. وإعراب القرآن للنحاس. الجدول في إعراب القرآن.

(٢) البحر المحيط حـ ٤. في تفسيره الآية. ونظم الدرر حـ ٣ صـ ١٩٥.

النداء الخامس والأربعون

أطيعوا الله ورسوله..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

بين يدي النداء

[إن طاعة الله ورسوله والاستجابة لله ولرسوله سبب لرحمة الله، فمن اتصف بهذه الصفات فهو من أهل الرحمة، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١].

وأخبر تعالى بما أعده للمؤمنين والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين وماكثين فيها، في مساكن حسنة البناء طيبة القرار، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

وبين سبحانه أن رضى الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، وإن هذا الفوز الذي حصل لهم هو الفوز العظيم على الحقيقة فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

وقد أمر الله المؤمنين بالاستجابة لله وللرسول، وناداهم باسم الإيمان، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فأخبر تعالى أن الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم فيه حياة لهم وصلاح لهم؛ لأنه يدعوهم إلى الحق والإيمان وإلى العمل بالقرآن الذي فيه نجاتهم وبقاؤهم وسعادتهم وحياتهم بعد موتهم، وعصمتهم في الدارين.

وفي الصحيح عن أبى سعيد بن المعلى – رضى الله عنه – قال كنت أصلى فمر بى رسول الله –ﷺ– فدعانى فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾» [1].

فطاعة الله ورسوله والاستجابة لله ولرسوله سبب للحياة الحقيقية، حياة الإيمان والهدى والرشاد والعزة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد أخبر الله –تعالى– أن ما عند الله من الثواب في الآخرة خير وأبقى للمؤمنين الذين من صفاتهم الاستجابة لربهم، وذلك باتباع رسله وطاعة أمره واجتناب نهيه، مع توكلهم على الله وبعدهم عن الكبائر والفواحش، وإقامتهم للصلاة، وإحسانهم إلى خلق الله بالمال والعفو والحلم وكظم الغيظ عند الغضب، فقال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [**الشورى**].

وقد أوضح تعالى عاقبة المستجيبين والمطيعين لله ولرسوله، وإن عاقبتهم حميدة، وما لهم من السعادة والمال الحسن الطيب، وإن لهم الجزاء الحسن وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهم في نعمة وحبور وبهجة وسرور، قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأسكنهم فسيح جناته، وأحلهم دار كرامته ورضوانه، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [**الرعد**: ١٨].

أما الذين لم يستجيبوا لله ولم يطيعوا الله، فإن عاقبتهم وخيمة، ومصيرهم مؤلم، ومأواهم في الآخرة جهنم بعد سوء الحساب حين يناقشون الحساب، ومن نوقش الحساب عذب، يحاسبون على أعمالهم جليلها وحقيرها، ثم يستفزون في النار وبئس الفراش والمهاد لهم، ويؤدون لو يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملئ الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة، ولكنه لا يتقبل منهم، قال الله –تعالى–

---

(١) حديث 4692 – التفسير – صحيح البخارى.

فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨] (١)].

هداية وتدبر(٢)

١. هذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبي بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان. ومطلوب الإيمان تنفيذ التكاليف التي يأتي بها المنهج من الله عز وجل، ومن المبلغ عنه رسول الله ﷺ، في الأوامر وفي النواهي.

٢. الطاعة لله تكون في الأمر الإجمالي، وطاعة الرسول ﷺ تكون في اتباع الحكم التفصيلي التطبيقي الذي يأتي به رسول الله للأمر الإجمالي. وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة في أي أمر أو حكم؛ لأن الله قد فوض رسوله ﷺ في ذلك: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]. ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول ﷺ في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧] .

٣. احذروا أن تكونوا مثل الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وهم المنافقون والمشركون، فإنهم يتظاهرون بالسماع والاستجابة، وليسوا كذلك، والحال أنهم لا يسمعون أبداً. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] .

٤. إن ثمرة السماع الفهم والتصديق وثمرتهما الإرادة وثمرتها الطاعة فلا تصح دعوى السماع مع الإعراض.

---

(١) عبدالعزيز عبدالله الراجحي – بتصرف – من موقعه:
http://shrajhi.com/Cat=3&SID=9600

(٢) تفسير الطبري. روح المعاني. صفوة التفاسير. أحكام القرآن لابن العربي. خواطر الشعراوي. التفسير المنير.

٥. ذكر الله تعالى (رسولَه) هنا للدلالة على أن من يطع الرسول يطع الله تعالى.

٦. هذه الآية بيان شاف وإيضاح كاف في أن القول لا يكون إلا بالعمل، وأنه لا معنى لقَول المؤمن: سمعت وأطعت، ما لم يظهر أثر قوله بامتثال فعله؛ فأما إذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي باقتحامها فأي سمع عنده؟ أو أي طاعة له؟ وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويسر الكفر، وذلك هو المراد بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ﴾ الآية يعني بذلك المنافقين، فالخبرة تكشف التلْبيس، والفعل يظهر كمائن النفوس.

٧. أرشدت الآية إلى شيئين: الأمر بطاعة اللّه والرسول، والتحذير من مخالفة أمرهما ونهيهما. وشأن المؤمنين سماع الحق، والاهتداء بنوره، وإطاعة الأوامر، واجتناب النواهي والزواجر.

وهؤلاء هم فئة المؤمنين المصدقين، وأكمل الناس وأرشدهم.

٨. الملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل: ولا تولوا عنهما. قياساً بالأسلوب البشري. لكنه قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام في أمرين اثنين؛ طاعة الله وطاعة الرسول، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين؛ لأن طاعة الرسول هي طاعة لله تعالى. وإن التولي لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله؛ لأن الله لاحقه ومدركه في أي وقت.

٩. هذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله، والبلاغ أول وسيلة له الأُذن، لأن الأُذن أول وسيلة للإدراكات، ولذلك فإنّ الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ، فأبلغ ﷺ الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظاً.

١٠. ثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس، ولذلك أخذنا حكما هاماً من الأحكام من قوله الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾. أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون. ولكن أيكفي السماع في أن نعلم المنهج. لا، لا يكفي في

السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق، ولكن عليك أن تبحث أنت. فإن كان في الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجٍ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها، ويشغل نفسه بالبحث. وجزء من التبعة في ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدُّوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم.

....

المعاني المفردة[١]

أَطِيعُوا: الطاعة: ضد المعصية ومعناها الانقياد والاستسلام والخضوع.

وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ: أى لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره، وأصله «تتولوا» حذفت منه إحدى التاءين تخفيفا. والتولى الإعراض، أو الانصراف، والمعنى لا تنصرفوا.

لا يَسْمَعُونَ: لا ينقادون.

الإعراب[٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ: أَيُّ: منادى مبني على الضم، **«هَا»**: للتنبيه، والموصول **«الَّذِينَ»** عطف بيان. **وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ:** جملةٌ حالية من الواو في « **تَوَلَّوْا** »..

المناسبة في السياق[٣]

لما خاطب اللّه المشركين والكفار بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أتبعه بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة اللّه والرسول إذا دعاهم للجهاد وغيره لأن الكلام من أول السورة

(١) صفوة التفاسير ـ للصابونى. زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة. تفسير العلامة محمد العثيمين.

(٢) مُشكِل إعراب القرآن– أ.د. أحمد بن محمد الخراط.

(٣) التفسير المنير فى العقيدة و الشريعة و المنهج.

إلى هنا في الجهاد. ومن عادة القرآن مقابلة الأشياء ببعضها، فلما حذر الكافرين، اقتضى تنبيه المؤمنين لئلا يتقاعسوا عن الدفاع عن الدين وإجابة دعوة النبي الكريم.

القراءات

(**وَلاَ تَوَلَّوْا**) قرأ البزى بتشديد التاء وصلاً مع المد المشبع للساكنين (**وَلاَ تُّوَلَّوْا**)، والباقون بالتخفيف.

النداء السادس والأربعون

الاستجابة لله والرسول حياة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [**الأنفال: ٢٤**].

بين يدي النداء

إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة . . إنها دعوة إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من قيود الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء. . ويدعوهم إلى شريعة من عند الله، تعلن تحرر «الإنسان» وتكريمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفاً متساوين في مواجهتها، لا يتحكم فرد في شعب، ولا طبقة في أمة، ولا جنس في جنس، ولا قوم في قوم . . ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد. .

ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور، يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة والمتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق، هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد، ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء . .

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم، والثقة بدينهم وبربهم، والانطلاق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» بجملته، وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده، وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله، فاستلبها منه الطغاة!

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، لتقرير ألوهية الله سبحانه – في الأرض وفي حياة الناس، وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة، ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله – سبحانه

- وحاكميته وسلطانه، حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده، وعندئذ يكون الدين كله لله. حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة.[١]

هداية وتدبر[٢]

١. استجيبوا لله تعالى تشريعاً، وللرسول ﷺ بلاغاً، وغاية التشريع والبلاغ واحدة، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل، بل وللرسول ﷺ تفويض بأن يشرع. ورسول الله لم يشرع من نفسه، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [**الحشر: ٧**] .

٢. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد، ففي سبب تسمية الجهاد بالحياة وجوه: **أحدها**: هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني. فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار. **وثانيها**: أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [**آل عمران: 169**] **وثالثها**: أن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة معدن الحياة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ [**العنكبوت:٦٤**] أي الحياة الدائمة. والقول **الرابع**: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي لكل حق وصواب، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة. والمراد أيضاً: الحياة الطيبة الدائمة قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [**النحل: ٩٧**].

٣. عن ابن عباس: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال: يحول بين المؤمن

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) انظر: زاد المسير - ابن الجوزي. صفوة التفاسير ـ للصابونى. محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي. خواطر الشعراوي. مفاتيح الغيب حـ ١٥ صـ ١١٧ ـ ١٢٠.

والكفر، وبين الكافر والإيمان. وعن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، أي: حتى يتركه لا يعقل. وعن أنس بن مالك قال: كان النبي - ﷺ - يكثر أن يقول: « **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِى عَلَى دِينِكَ** ». **قَالَ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ فَقَالَ « نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا »**[1].

٤. أكثر الفقهاء على أن ظاهر الأمر للوجوب، وتمسكوا بهذه الآية على صحة قولهم من وجهين:

الوجه الأول: أن كل من أمره الله بفعل فقد دعاه إلى ذلك الفعل، وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعاه الله إليه.

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الآية على ثبوت هذا المطلوب، ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر على باب أبي بن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال: «ما منعك عن إجابتي» قال كنت أصلي قال: «ألم تخبر فيما أوحى إلي استجيبوا لله وللرسول» فقال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك، والاستدلال به أن النبي ﷺ لما دعاه فلم يجبه لامه على ترك الإجابة.

فإن قالوا: إنه تعالى ما أمر بالإجابة على الإطلاق بل بشرط خاص وهو قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فلم قلتم إن هذا الشرط حاصل في جميع الأوامر؟

قلنا: قصة أبي بن كعب تدل على أن هذا الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين، وأيضاً فلا يمكن حمل الحياة ههنا على نفس الحياة. لأن إحياء الحي محال. فوجب حمله على شيء آخر وهو الفوز بالثواب، وكل ما دعا الله إليه ورغب فيه فهو مشتمل على ثواب، فكان هذا الحكم عاماً في جميع الأوامر وذلك يفيد المطلوب.

٥. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال ابن الانباري المعنى يحول بين المرء وعقله فبادروا الأعمال فإنكم لا تأمنون زوال العقول فتحصلون على ما

---

(١) حديث ١٢٤٣٦ - مسند أنس بن مالك - مسند أحمد.

قدمتم.

٦. حكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم وقلة عددهم فدخل الخوف قلوبهم أعلمه الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله بالخوف الأمن ويبدل عدوه بالقوة الضعف وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب المتصرف فيها.

٧. بين تعالى أن ما يدعوهم إليه الرسول، فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فالدين حياة، والكفر موت. وقيل: المحسن حي وإن كان في دار الأموات، والمسيء ميت وإن كان في دار الأحياء.

٨. روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: **ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله تعالى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال: **لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج**، فذهب رسول الله، ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**.

٩. الذين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحييهم يظلون في الحياة الدنيا غارقين في اللهو واللعب، إنهم كالموتى.

١٠. كما أحيا الحق الأجسام بالروح التي نفخها في القالب الطيني فصار لها حس وحركة، فهو قد أنزل المنهج أيضاً روحاً من عنده لترتقي به روح الحس والحركة، حتى لا يصير الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلاً: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

١١. لطيفة: حُكي عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله، حين دعاهم الى الحق «**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا**

حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه!! فأسكت معاوية رضي الله عنه وأخجله.

١٢. لطيفة: الحق تبارك وتعالى قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ولم يقل: إذا دعَوَاكُمْ، وفي ذلك توحيد للغاية، فلم يفصل بين حكم الله التشريعي وبلاغ الرسول لنا. ونعلم أن الأشياء التي حكم فيها الرسول ﷺ حكماً ثم عدّل الله له فيها الحكم، هذا التعديل نشأ من الله، وهو ﷺ لم ينشىء حكماً عدّله الله تعالى إلا فيما لم يُنزِل الله فيه حكماً. وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وضعه الرسول، فمن عظمته ﷺ أنه أبلغنا هذا التعديل، وهكذا جاءت أحكامه ﷺ إذا وافقت حقّاً فلا تعديل لها، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو ﷺ يعدل لنا. وبذلك تنتهي كل الأحكام إلى الله تعالى.

....

المعاني المفردة(١)

اسْتَجِيبُوا: أجيبوا. والاستجابة هي السماع الصحيح. والاستجابة: الطاعة.

يَحُولُ: يفصل.

الإعراب(٢)

- **«إذا»** ظرفية محضة متعلقة باستجيبوا، وجملة **«دعاكم»** مضاف إليه، والمصدر **«أن الله يحول»** سد مسد مفعولي علم، والمصدر الثاني معطوف على الأول في محل نصب.

- المجاز في قوله تعالى: **«يحول بين المرء وقلبه»**. فأصل الحول تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل: حال بينهما فحقيقة كون اللّه يحول بين المرء وقلبه أنه يفصل بينهما، فهو مجاز مرسل عن غاية القرب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن. والظلال. والشوكاني.

(٢) إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين الدرويش.

من العبد، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما، فالعلاقة المحلية أو السببية. ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيلية لغاية قربه من العبد، واطلاعه على مكنونات القلوب وسرائر النفوس.

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعي: ولما كان ما مضى من نكال الكافرين مسبباً عن عدم الاستجابة، أمر المؤمنين بها تحذيراً من الكون الكفرة في مثل حالهم فيحشروا معهم في مآلهم.

(١) نظم الدرر حـ ٣ صـ ٢٠١.

النداء السابع والأربعون

التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]

بين يدي النداء

[سأل بعض خلفاء بني العباس بعض العلماء أن يحدّث بما أدرك، فقال: أدركت عُمَر بن عبد العزيز، فقيل له: يا أمير المؤمنين! أفقرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم، وكان في مرض موته، فقال: أدخلوهم عليّ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً، ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال: والله ! يا بني! ما منعتكم حقاً هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فادفعها إليهم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني.

قال: ولقد رأيت بعض ولده حمل على مائة في سبيل الله، يعني أعطاها لمن يغزو عليها.

- هذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب بالأندلس وغيرها من جزيرة قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها، إلى أقصى اليمن، وإنما أَخَصَّ كلَّ واحد من أولاده من تركته شيئاً يسيراً، يقال أقل من عشرين درهماً-.

قال: وحضرتُ بعض الخلفاء وقد اقتسم تركتَه بنوه، فأخذ كل واحد ستمائة ألف دينار، ولقد رأيت بعضَهم يتكفف الناس، أي : يسألهم بكفه][1].

---

(١) انظر: محاسن التأويل.

هداية وتدبر[1]

١. قال ابن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون. وقال ابن عباس: لاَ تَخُونُواْ اللّهَ: بترك فرائضه، وَالرَّسُولَ: بترك سنته، وارتكاب معصيته، وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ والأمانة: الأعمال لا تنقصوها.

٢. يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه. فإن الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً. فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها، استحق العقاب الوبيل، وصار خائنا لله وللرسول ولأمانته، منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي: الأمانة. ولما كان العبد ممتحنا بأمواله وأولاده، فربما حملته محبته ذلك، على تقديم هوى نفسه، على أداء أمانته.

٣. الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنهما عارية، ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها «وأن الله عنده أجر عظيم». فإن كان لكم عقل ورأي، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

٤. إن الرجل لحبه لولده قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه ما لا يستحقه فيكون قد خان أمانته، وكذلك قد يؤثر زيادة حفظه أو ماله يأخذ ما لا يستحقه أو محاباة مَنْ يُدَاهنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته، ثم إن المؤدي الأمانة، مع مخالفة هواه، يثيبه الله فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه بنقيض قصده، فيذل أهله ويذهب ماله.

---

(١) انظر: توفيق الرحمن. فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن. محاسن التأويل. زهرة التفاسير. في ظلال القرآن. لطائف الإشارات جـ 1 صـ 618.

٥. دلت سنة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة يجب أداؤها، مثل قوله لأبي ذر رَضِي اللّهُ عَنْهُ في الإمارة: **«إِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حسرة وَنَدَامَةٌ. إلا مَنْ أَخَذَهَا بحقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ»**. وقال ﷺ: **«إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**. قيل: يا رسول الله! وما إِضَاعَتُهَا؟ قال: **«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**[1]. وقد أجمع المسلمون على هذا. وقال ﷺ: **«الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات»**، وهو حديث صحيح، بعضه في الصحيحين وبعضه في سنن الترمذيّ، وقال ﷺ: **«مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّاها اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ »** رواه البخاريّ.

٦. خيانة الله ورسوله، تشمل عدم إطاعة الشرع، ومخالفة نواهيه، وترك الجهاد، وإفشاء أسرار المؤمنين، وإعلان ما أمر الله بكتمانه، والغلول فى الغنيمة قبل قسمتها، والكيد لجماعات المسلمين، واتخاذ بطانة من غيرهم، وموالاة أعداء الحق، وفى الجملة مناوأة أهل الحق سراً وباطناً، فهذه كلها خيانة لله ورسوله، وعدم رعاية الأمانات، ومناصرة الظالم، ومعاونته على الظلم وعدم مراعاة الأمانات، وفى الجملة تشمل خيانة الله ورسوله كل خيانة للشريعة، سواء أكانت تتعلق با لآحاد والجماعات. ويدخل في خيانة الله تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده، وفي خيانة رسوله رفض سنته، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به. وقد روي في نزول الآية شيء مما ذُكر. ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره.

---

(١) حديث ٥٩ – العلم – صحيح البخارى. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ بَيْنَمَا النَّبِىُّ -ﷺ- فِى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُحَدِّثُ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ « أَيْنَ – أُرَاهُ – السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ » .قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ». قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

٧. النهى عن خيانة الله وخيانة رسوله هى واحدة، لأن ما يطلبه الله يطلبه رسوله، ولكن ألحق جلاله مع النبي أو النبي مع الله؟ لتأكيد المعنى فى أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، ولبيان أن الرسول لا يطلب إلا ما يطلبه الله تعالى؟ ولأن يبين أن نصرة الرسول نصرة لله، ومحبة الرسول محبة لله ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٣١]، وإن خيانة الرسول خيانة لله تعالى.

٨. الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤَمَّل منك بحق التعويل، فخيانةُ اللهِ بتضييع ما ائتمنك عليه، وذلك بمخالفة النُّصح في دينه، وخيانة الرسولِ بالاتصاف بمخالفة ما تبدي من مشايعته. والخيانة في الأمانات بترك الإنصاف، والاتصاف بغير الصدق. وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة، فمن اؤتِمِنَ في مالٍ فتصرَّفَ فيه بغير إذن صاحبه - خيانة، ومن اؤتمن على الحُرَم فملاحظته إياهن - خيانة. فعلى هذا: الخيانةُ في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قِبَلَك دون التحقيق بأنَّ مُنْشِئها اللهُ. والخيانة في الأحوال ملاحظتُك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق. وإذا أَخْلَلْتَ بِسُنَّةٍ من السُّنَنِ أو أدبٍ من آداب الشَّرع فتلك خيانة الرسول ﷺ. والخيانة في الأمانات - بينك وبين الخلْق - تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل.

٩. **وقد دلت هذه الآيات هنا على ما يلي**[1]:

أ- تحريم الخيانة المتعمدة مطلقاً، وإيجاب الأمانة: وهي أداء التكاليف الشرعية، والأعمال التي ائتمن اللّه عليها العباد، أي الفرائض والحدود. وأما الخيانة: فهي الإخلال بالواجبات، والتقصير في أداء الفرائض، وإفشاء الأسرار، وعدم ردّ الودائع والأمانات إلى أصحابها، وتضييع حقوق الآخرين.

---

(١) انظر: التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج.

ب- الأموال والأولاد فتنة واختبار يمتحن به المؤمن الصادق الإيمان، فإن كان كسب المال حلالاً وإنفاقه في وجوه الخير، نجا صاحبه من إثمه وطغيانه، وإن ربي الوالد ولده تربية دينية خلقية، وأطعمه الحلال الطيب، خلص من الحساب يوم الآخرة. وإن كان العكس في كل ذلك عرّض نفسه للعقاب والإثم.

ج- تنبيه على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لأنها أعظم شرفاً، وأتم فوزاً، وأخلد مدة وأثرا لأنها تبقى بقاء لا نهاية له، لذا وصف اللّه تعالى الأجر بالعظم.

١٠. لا خيار في أن تكون أميناً أو ألا تكون أميناً، فمقتضى أن تكون مؤمناً أن تكون أميناً؛ لأن الإيمان والأمانة متلازمان، فلا يمكن أن يكون إيمان بدون أمانة؛ لأنه خلق المؤمن؛ حتى قال ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له»**.

١١. إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول. فالقضية الأولى في هذا الدين هي إفراده تعالى بالحاكمية في حياة الناس الأرضية - كما أنهم مقرّون بحاكميته في نظام الكون - تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ كذلك كانت هي حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله؛ ومن ثم الالتزام بكل ما يبلغهم إياه. هذه هي قضية هذا الدين - اعتقاداً لتقريره في الضمير، وحركة لتقريره في الحياة - ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول؛ يحذر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان؛ فأصبح متعيناً عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي؛ والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد. كذلك يحذرها خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله - ﷺ - على الإسلام. فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعيات. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق؛ ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية

الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء؛ وتأمين الحق والعدل للناس جميعاً؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت؛ وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله . . وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها؛ وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله.

١٢. الخيانة ثلاثة أقسام[1]:

الأول: خيانة على المستوى العالمي: إنها الخيانة التي فاح عفنها ونتنها في كل البقاع والأصقاع، خيانة يخطط لها في البيت الأبيض، وفي البيت الأحمر في الكرملن، مروراً بمنظمة هيئة الأمم المتحدة، ومروراً بحلف الأطلسي، ومروراً بالنظام والاتحاد الأوروبي، كل هذه الهيئات وكل هذه المنظمات وكل هذه الأحلاف الدولية تؤصل الآن للخيانة تأصيلاً، إنها خيانة أزكمت الأنوف بعفنها ونتنها، فأي قانون وأي عرف وأي جيل يقر هذه الخيانة العفنة التي تجري الآن منذ عقود على أرض فلسطين؟! وأي عرف وأي ميثاق يقر هذه الخيانة العفنة النتنة التي تمارس على خشبة المسرح العالمي؟ لقد جلس النظام الغربي على مقاعد هذا المسرح العالمي ليصفق بقوة وحرارة وجدارة للجندي اليهودي الجبان الغشوم الظالم، وقف النظام الغربي الخائن كله ليصفق لهؤلاء المجرمين، بل ليمنحهم السلاح لا من وراء ستار، بل على مرأى ومسمع من العالم كله، فبسلاح أمريكي خائن يقتل المسلمون في فلسطين، وبسلاح أمريكي خائن يقتل المسلمون في العراق، وبسلاح أمريكي خائن ضرب جنوب السودان، وضربت أفغانستان، وفي كل موقع من المواقع الآن، لا من وراء ستار، بل على مرأى ومسمع من العالم الإسلامي الهزيل المريض، وعلى مرأى ومسمع من العالم الغربي الخائن الذي تفوح منه الخيانة بعفنها ونتنها . . إن البشرية الآن تشهد من صنوف الخيانة وألوان الوحشية والبربرية والهمجية ما تخجل الوحوش الضارية أن تفعله ببعضها البعض في عالم الغابات، واسمحوا لي

(١) من دروس للشيخ محمد حسان.

أن أكرر هذه الكلمات: أقول: والله! إن البشرية الآن تشهد في ظل قيادة الرجل الغربي الخائن من صنوف الوحشية والبربرية والخيانة ما تخجل الوحوش الضارية أن تفعلها ببعضها البعض في عالم الغابات.

الثاني: خيانة على مستوى الأمة: ما خان الغربي إلا يوم أن تخلت أمة الأمانة عن الأمانة، وما تولى الرجل الغربي قيادة العالم وقيادة الأمة إلا يوم أن وقعت الأمة في الخيانة؛ فلقد خانت الأمة ربها ورسولها. .خيانة بتضييع الفرائض، وخيانة بالتفريط في السنة، وتغييب الشريعة، وخيانة بتضييع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله، فأمة لا تقدم الأكفاء أمة خائنة، وأمة تؤخر الأكفاء وتقدم صنفاً للمحسوبية أو للعنصرية البغيضة أو للعصبية الجاهلة؛ أمة خائنة لا تستحق السيادة ولا العزة ولا الكرامة.

الثالث: خيانة على مستوى الأفراد: **«خيانة الكلمة»**، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». و**«خيانة العلم»**، **«من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار، ومن تعلم العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار»**. و**«خيانة المجالس»**، فقد يجلس المسلم مع أخيه ويخرج بعد ذلك لينقل كل ما دار بينهما في المجلس، من فعل هذا فهو خائن؛ إنما المجالس بالأمانة، «إن من أشر الناس يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها». و**«خيانة الأولاد»**، (ليس اليتيم من انتهى أبواه وخلفاه في همّ الحياة ذليلاً إن اليتيم هو الذي ترى له أماً تخلت أو أباً مشغولا). و**«خيانة الوظيفة»**، بأخذ الرشاوى، أو بتضييع العمل مع حاجة العمل إليه، بدعوى أن الراتب لا يتلاءم ولا يتواءم مع الجهد الذي يبذله! أو بالتعسير على المسلمين وتعطيل مصالحهم. و**«خيانة الدَين»**، **«من أخذ أموال الناس ينوي أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله»**.

١٤. **من الأمانات: أمانة العمر**: الوقت والعمر جعله الله وعاءً لك لتملأه بالإيمان والعمل الصالح، هذا أمانة؛ لأنه ساعات محدودة، وأنفاس معدودة، يوم يذهب ولا يعود.

أمانة المال وحفظها: **«لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به»**.

الأمانة بين العبد وربه: وهي كثيرة ومنها: أمانة العقيدة والتوحيد. أمانة الصلاة. أمانة الزكاة، أمانة الصيام. أمانة الحج.

الأمانة بين العبد وبين الناس: ومنها: أمانة بر الوالدين. أمانة الزوجة. أمانة الجار وحقوقه. أمانة طاعة ولي الأمر في غير معصية. أمانة الإخلاص للناس وحبهم.

الأمانة بين العبد ونفسه: ومنها: أمانة الجوارح، (العين، الأذن، اللسان). أمانة اليد والرجل. أمانة الفرج والبطن.

....

المعاني المفردة[1]

تَخُونُواْ: الخيانة: النقص وإخلاف المرتجى. ولذا يقال لنقيضها، **«وفى»**. فيقال خان الأمانة، بمعنى نقصها، ويقال وفاها أى أداها على وجهها.

أَمَانَاتِكُمْ: ما ائتمنتم عليه من الدّين وغيره من التكاليف الشرعية، والأمانة: كل حق يجب أداؤه إلى الغير. **الأمانة هي:** الدين، فالدين كله أمانة.

فِتْنَةٌ: اختبار، وابتلاء بما يشق على النفس فعله أو تركه. وهي تكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء، فيمتحن اللّه المؤمن والكافر على السواء.

---

(١) زهرة التفاسير. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج.

سبب النزول[1]

نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر وذاك أن النبي ﷺ لما حاصر قريظة سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن ولده وأهله كانوا عندهم فبعثه إليهم فقالوا ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه إنه الذبح فلا تفعلوا فأطاعوه فكانت تلك خيانته. قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ونزلت هذه الآية هذا قول ابن عباس والأكثرين. وروي أن أبا لبابة ربط نفسه بعد نزول هذه الآية إلى سارية من سواري المسجد وقال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام كذلك، ثم تاب الله عليه، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاء فحله بيده، فقال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ: يجزئك الثلث.

الإعراب والبلاغة[2]

- جملة «**وأنتم تعلمون**» حالية من الواو في «**تخونوا**».

- الاستعارة: في قوله تعالى «**وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ**» فمعنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء التمام. ومنه تخونه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد أستعير فقيل: خان الدلو الكرب، وخان المشتار السبب، والمشتار مجتني العسل، والسّبب الحبل، وإذا انقطع الحبل فيهما فكأنه لم يقف. والاستعارة هنا تصريحية تبعية.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير .

(٢) إعراب مشكل القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعى: ولما ختم الآية هو في غاية النصيحة منه تعالى لهم من الإيواء والنصر والرزق الطيب المشار به إلى الامتنان بإحلال المنعم، وختم ذلك بالحث على الشكر؛ نهانا عن تضييع الشكر في ذلك بالخيانة في أوامره بالغلول أو غيره.

(١) نظم الدرر جـ 3 صـ 206 ـ 207.

النداء الثامن والأربعون

الـزاد وعـدة الطريـق

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

بين يدي النداء

[هذا هو الزاد، وهذه هي عدة الطريق.. زاد التقوى التي تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقي. وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مد البصر؛ فلا تغبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة.. ثم هو زاد المغفرة للخطايا. الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار.. وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفد الأزواد وتقصر الأعمال.

إنها حقيقة: أن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له منعرجات الطريق. ولكن هذه الحقيقة - ككل حقائق العقيدة - لا يعرفها إلا من ذاقها فعلاً! إن الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقوها!.

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل؛ والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر؛ والباطل يظل متلبساً بالحق عند مفارق الطريق! وتظل الحجة تُفحم ولكن لا تُقنع. وتُسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل. ويظل الجدل عبثاً والمناقشة جهداً ضائعاً.. ذلك ما لم تكن هي التقوى.. فإذا كانت استنار العقل، ووضح الحق، وتكشف الطريق، واطمأن القلب، واستراح الضمير، واستقرت القدم وثبتت على الطريق!

إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة.. إن هناك اصطلاحاً من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه؛ والذي خلقت به السماوات والأرض.. ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة.. الهوى هو الذي ينشر الغبش، ويحجب الرؤية، ويُعمي المسالك،

ويخفي الدروب.. والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى.. تدفعه مخافة الله، ومراقبته في السر والعلن.. ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة، ويرفع اللبس، ويكشف الطريق.

وهو أمر لا يقدر بثمن.. ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب. ثم يضيف إليهما ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾..

ألا إنه العطاء العميم الذي لا يعطيه إلا الرب «الكريم» ذو الفضل العظيم!] [1]

هداية وتدبر[2]

1. تعددت الأوامر بالتقوى في القرآن الكريم، ولكن جاء الأمر هنا بلفظ الشرط لأنه تعالى خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضا، فإذا اتقى العبد ربه- وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه- وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرّمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر، بمراعاة غير اللّه في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقاناً.
2. إن الآية في سورة الأنفَال ومعظمها يتعلق بحال المسلمين قبل واقعة بدر، وكانوا في ضيق شديد كان الخروج منه بِإِنْجائِهِم من عدوهم ونصرهم عليه، وما نصِروا على قلتهم إِلا بتَقوى الله التي جمعت كلمتَهم وقَوت عزيمتَهم. والتقْوى تكون سبب الفرقانِ والمخرج في كل شيء بحسبه؛ لأنها عبارة عنِ اتقاء أَسباب الضرر والْخذلان في النفس وفي الخارج.
3. كلمة **«الفرقان»** فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة، فالتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق، ومعناها في أصل

---

(1) في ظلال القرآن.

(2) تفسير المنار. التفسير المنير فى العقيدة و الشريعة و المنهج. تفسير الشعراوي.

اللغة: الفصل بين الشيئين أو الأشياء، والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والْحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفْريق بين الأشياء والأمور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل، وإنما الْعلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الأجناس والأنواع والأصناف والأشخاص، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات، والبسائط والمُركَّبات، والنسب بين أجزاءِ الْمُرَكَّبات، من الْحسيات والمعنويات، ويبين كل شيء من ذلك، ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازًا من غيره.

٤. إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سننه في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتزيلون بين الحجة والشبهة. وقد روي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين المحق والمبطل، بما يعز المؤمن ويذل الكافر، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا، ومن العذاب في الآخرة. وهذا من الفرقان العملي الذي هو ثمرة العلمي.

٥. **ذكرت الآية ثلاثة أنواع من الجزاء على التقوى:**

النوع الأول: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾: وهو يشمل جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار:

ففي الدنيا: يخص تعالى المؤمنين بالهداية والمعرفة، ويخص صدورهم بالانشراح كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]، ويزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، والمكر والخداع عن صدورهم، ويخصهم بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]. وأمر الفاسق

والكافر بالعكس من ذلك.

وفي **الآخرة**: يكون الثواب والمنافع الدائمة والتعظيم من اللّه والملائكة.

النوع الثاني: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي أنه تعالى يزيل آثار جميع الذنوب والآثام الكبائر والصغائر ويمحوها ويسترها في الدنيا. ولا شك بأن التوبة أحد مظاهر التقوى.

النوع الثالث: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويزيلها يوم القيامة لأنه صاحب الفضل العظيم، ومن كان كذلك، فإنه إذا وعد بشيء وفّى به.

وفي الجملة: تكون التقوى نوراً في الدنيا والآخرة، وسبباً للسعادة فيهما، وتحقيق الآمال جميعها، والنجاة من كل سوء وشر، لذا قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

٦. إن الله سبحانه يَعِدُ عباده المؤمنين أنهم عندما يتقونه فإنه يجعل لهم دلائل تبين لهم الحق من الباطل ويستر عنهم السيئات ويغفر لهم. لماذا؟ لأن الله الذي يعلمنا هو الحق سبحانه العليم بكل شيء. وعلم الله ذاتي، أما علم الإنسان فقد يكون أثرا من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان في تقنين شيء يخرجه مما يكون فيه من شر ولكن علم العليم الأعلى سابق على ذلك لأنه علم ذاتي.

٧. إن أردت بالتقوى «التزام أمر» فتكفير السيئات يعني أن نتقي الله بترك الكبائر فيكفر عنا السيئات وهي الصغائر. والتكفير على نوعين؛ أولاً أن يسترها عليك في الدنيا، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة، ولذلك يقول سبحانه في ختام جميل للآية: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

....

المعاني المفردة[1]

تَتَّقُواْ: التقوى: هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات وسميت بذلك لأنها تقي العبد من النار.

فُرْقَاناً: الفرقان من مادة «فرق»، وتأتي دائماً للفصل بين شيئين، مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْق كالطود العظيم. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: ٥٠]. أي نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير. ومخرجاً في الدين من الضلال. وفتحاً ونصراً ونجاة. ومعنى في القلب يفرق به بين الحق والباطل. وهداية نوراً في قلوبكم تعرفون به وتفرقون بين الحق من الباطل، وبين الرشد والغي. وفصلاً بين الحق والباطل. وحجة تفرق بين الحق والباطل.

وَيُكَفِّرْ: تكفير الذنوب : محوها.

وَيَغْفِرْ: غفرها: سترها عن الناس.

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ: واسع الفضل عظيم العطاء، يعطي الثواب الجزيل.

الإعراب[2]

إن تَتَّقُواْ اللّهَ: **إن**: حرف شرط جازم يجزم فعلين الأول فعل الشرط، والثاني جوابه وجزاؤه، **تَتَّقُواْ**: فعل مضارع مجزوم لأنه فعل شرط، وعلامة جزمه حذف النون. **يَجْعَل**: فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط، وعلامة جزمه السكون. **وَيُكَفِّرْ**: معطوف على يجعل. **سَيِّئَاتِكُمْ**: مفعول به منصوب. **وَيَغْفِرْ**: معطوف على ما قبله . **لَكُمْ**: جار

---

(١) تفسير الشعراوي. الإتقان في علوم القرآن. كلمات القرآن. معاني القرآن للفراء. توفيق الرحمن. روح المعاني. التفسير المنير فى العقيدة و الشريعة و المنهج.

(٢) مفاتيح العربية على متن الآجرومية.

ومجرور ومتعلق بـ (يغفر).

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعي: ولما ذكّرهم ما كانوا عليه قبل الهجرة من الضعف، وامتنَّ عليهم بما أعزهم به، وختم هذه بالتحذير من الأموال والأولاد الموقعة في الردى، وبتعظيم ما عنده الحامل على الرجاء، تلاها بالأمر بالتقوى الناهية عن الهوى بالإشارة إلى الخوف من سطواته إشارة إلى أنه يجب الجمع بينهما، وبين تعالى أنه يتسبب عنه الأمن من غيره في الأولى والنجاة من عذابه في الأخرى.

---

(١) نظم الدرر حـ ٣ صـ ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

النداء التاسع والأربعون

عوامل النصر الحقيقية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

بين يدي النداء

[هذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو. والاتصال بالله بالذكر. والطاعة لله والرسول. وتجنب النزاع والشقاق. والصبر على تكاليف المعركة. والحذر من البطر والرئاء والبغي..

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما. وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون؛ وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟!

وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي. إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب؛ والثقة بالله الذي ينصر أولياءه.. وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية؛ وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا؛ لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي.. كما أنه توكيد لهذا الواجب - واجب ذكر الله - في أحرج الساعات وأشد المواقف.. وكلها إيحاءات ذات قيمة في

المعركة؛ يحققها هذا التعليم الرباني.[1]]

هداية وتدبر[2]

١. لما ذكر تعالى أنواع نعمه على الرسول وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة وهي الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب:

الأول: الثبات وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدثوها بالتولي. **والثاني**: أن يذكروا الله كثيراً، وفي تفسير هذا الذكر قولان:

القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم ذاكرين الله. قال ابن عباس: أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم، تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز أن يخلى قلبه ولسانه عن ذكر الله، ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله، كان الذاكر لله أعظم أجراً. **والقول الثاني**: أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر، لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونته تعالى.

٢. قال الأستاذ الإمام: إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سببا للظفر؛ لأنه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه: لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته.

٣. هذه طائفة من الإرشادات والوصايا الإلهية تعدّ من ركائز قواعد القتال وأسسه الضرورية النابعة أصالة من وعاء الإيمان، لذا افتتحت بخطاب المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، حتى وإن كانوا قلائل ضعفاء، والإيمان يمنح القوة ويرفع المعنويات، أما الكفر فشأن أهله الجبن وضعف المعنويات، حتى وإن انتصروا أحيانا.

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن. جامع لطائف التفسير. محاسن التأويل. تفسير الشعراوي. التفسير الوسيط للزحيلي. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. تفسير المنار جـ ٢ صـ ٢٧ – ٣٤.

٤. هذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلى ذكره، ولا من الدِّين إلاّ رَسْمُه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدوّ شرقاً وغرباً براً وبحراً، وعَمّت الفتن وعظُمت المحَن ولا عاصم إلا من رحِم!. رحم الله الإمام القرطبى فكأنه كان ينظر من شرفات الغيب بهذا الكلام الذى يجسد واقعنا المر وما آلت إليه أحوال الأمة الممزقة. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٥. الثبات حين البأس يتطلب نفساً مفعمة باليقين والتضحية يقول الشاعر:

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده = إليـه الحفـاظ المـر والخلـق الـوعر

وقد كان عبد الله بن رواحة نموذجاً نبيلاً وهو يكبح نوازع الحياة فى دمه ويرغم النفس على شرف الفداء وملاقاة الردى قائلا: يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت..! يقصد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وقد استشهدا قبله، وكانا أميرى الجيش فى مواجهة الرومان. فلحق بهما ثابتاً كريماً واجتمع الثلاثة فى ديار النعيم فى الجوار الكريم!! وذكر الله الشعور بقرب لقائه وأن المصير إليه والكفاح من أجله. وإذا كان المرء قلقا على فراق أحبة يغادرهم فإن الله من بعده هو متوليهم وكافلهم...

٦. قال الأستاذ الإمام: إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سببا للظفر؛ لأنه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه؛ لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته.

٧. **للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:**

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإنّ ذكره يُعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم واذكروه بألسنتكم، فإنّ القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على

الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ماعندكم من وعد الله لكم في اتباعه أنفسكم ومثامنته لكم.. والأظهر: أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. ولهذا قالوا: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عز وجل: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، ولرخص للرجل في الحرب، يقول الله عز وجل: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

٨. إذا حاربتم جماعة فاثبتوا للقائهم واصبروا على مبارزتهم، فلا تفروا ولا تجبنوا ولا تنكلوا، وتفسير اللقاء بالحرب لغلبته عليه، كالنزال ولم يصف الفئة بأنها كافرة، لأنه معلوم غير محتاج إليه.

٩. أول هذه القواعد الحربية: الثبات أمام الأعداء، فإذا حاربتم أيها المؤمنون أعداءكم والتقيتم معهم في ميدان القتال، فالواجب عليكم أن تثبتوا في قتالهم، وتصمدوا للقائهم، وإياكم والفرار من الزحف، فالثبات فضيلة وركيزة أساسية، والفرار كبيرة موجبة للعقاب. ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه، التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «**يا أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**». ثم قال: «**اللهم منزل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**».

١٠. في الآية إشعار بأن على العبد ألا يفتُر عن ذكر ربه، أشغل ما يكون قلباً، وأكثر ما يكون هماً، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال . . .

١١. ساعة تسمع كلمة «**فئة**» فاعلم أن معناها جماعة اختصت بخوض المعارك في ميدان القتال، فليست مطلق جماعة، بل هي جماعة مترابطة من المقاتلين؛ لأن كل مقاتل

يفيء لغيره من زملائه، أي جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا، أما المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم، ويحاول كل منهم أن يحمي زميله، إذن فكل منهم يفيء إلى الآخرين. والحق تبارك يقول: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣]. إذن فالفئة هي جماعة في الحرب.

١٢. إن مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جارياً مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى، وهذا هو أعظم مقامات العبودية، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوباً فاز بالشهادة والدرجات العالية، أما إن كانت المقاتلة لا لله بل لأجل الثناء في الدنيا وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح.

١٣. لطيفة: قال الشيخ الشنقيطي: أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالثبات عند لقاء العدو، وذكر الله كثيراً مشيراً إلى أن ذلك سبب للفلاح، والأمر بالشيء نهي عن ضده، أو مستلزم للنهي عن ضده، كما علم في الأصول، فتدل الآية الكريمة على النهي عن عدم الثبات أمام الكفار، وقد صرح تعالى بهذا المدلول في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ **إلى قوله** ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى في أضيق الأوقات؛ وهو وقت التحام القتال دليل واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال، ولاسيما في وقت الضيق، والمحب الصادق في حبه لا ينسى محبوبه عند نزول الشدائد.

١٤. لطيفة: إن قيل: فهذه الآية توجب الثبات على كل حال، وهذا يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز. قلنا: هذه الآية توجب الثبات في الجملة، والمراد من الثبات الجد في المحاربة. وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول الثبات في المحاربة بل كان الثبات في هذا المقصود، لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز.

١٥. لطيفة: قال قتادة: افترض الله جل وعز ذكره على عباده، أشغلَ ما يكونون عند الضّراب بالسيوف. وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً ؛ لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحداً. فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنه يَفُتّ في أعضاد العدوّ. وروى أبو داود عن قيس بن عُباد قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند القتال. وروى أبو بُرْدة عن أبيه عن النبيّ ﷺ مثل ذلك. قال ابن عباس: يكره التلثّم عند القتال. قال ابن عطية: وبهذا والله أعلم استنّ المرابطون بطَرْحه عند القتال على صيانتهم به.

....

المعاني المفردة(١)

لَقِيتُمْ: أي قاتلتم لأن اللقاء اسم للقتال غالباً.

فِئَةً: فِرْقة وجماعة من الناس. والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد.

فَاثْبُتُواْ: الثبات ضد الزوال، يقال: ثبت يثبت ثباتا.

الإعراب(٢)

جملة الشرط جواب النداء مستأنفة، وجملة «**لقيتم**» في محل جر مضاف إليه، و«**كثيرا**» نائب مفعول مطلق، وجملة «**لعلكم تفلحون**» مستأنفة لا محل لها.

المناسبة في السياق

لما ذكر تعالى أنواع نعمه على الرسول وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة وهي الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب..

---

(١) . جامع لطائف التفسير. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. مفردات ألفاظ القرآن.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

النداء الخمسون

العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكاً

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

بين يدي النداء

[إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكاً؛ فإما تجرد لها، وإما انسلاخ منها، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة؛ ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة.. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي المحركة والدافعة. فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة؛ على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع؛ وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض. فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق - في غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب، باعتباره لوناً من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليتمتع بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

فإذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة تتقطع أواصر الدم والنسب، وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله. فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة.[1]]

---

(١) في ظلال القرآن.

هداية وتدبر[1]

1. **قال الطبري**: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسرارَكم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المُكْثَ بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار بتوحيده، ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقَام معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام هم الذين خالفوا أمرَ الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره.

٢. الخطاب للمؤمنين كافة وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين وقالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب نهوا أن يوالوا الآباء والإخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى البلاد والكفر إن استحبوا: أي أحبوا كما يقال: استجاب بمعنى أجاب وهو في الأصل طلب المحبة، ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدها.

٣. الولي هو الذي يليك وينجز ما تحبه، وتلجأ إليه في كل أمر، وتأخذ منه النصيحة، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك، والقريب الذي يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك، ويكون معك في كل أمورك. إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق.

٤. إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قوياً لا خلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق ما يطلبه المخلوق؛ لأنك إن

---

(١) صفوة التفاسير. فتح القدير. مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير). تفسير الشعراوي. التفسير المنير فى العقيدة و الشريعة و المنهج. التفسير الوسيط للزحيلي. أيسر التفاسير/ أسعد حومد. مفاتيح الغيب/ الرازي.

أغضبت المخلوق في رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله في قلب كل من حولك رضاهم عنك، وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولا ترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك. فإن شهدت زوراً لصالح بشر. يعرف عنك هذا الذي شهدت زوراً في حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدفة لتشهد عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط في نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل ما يغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظاً معه. وخصوصاً مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

٥. اقتضت حكمة إقامة الدين ومصلحة المسلمين حين نزول القرآن أن تكون هناك قطيعة تامة بين المؤمنين وأقاربهم الكافرين، حتى يبقى الدين سليماً، فلا يتجزأ الانتماء وتتوزع العواطف، ولأن رابطة الدين أسمى وأولى وأقوى من رابطة القرابة أو العصبية أو القبلية أو الأسرية. والمراد بالإخوان في الآيتين إخوان النسب.

٦. النهي عن مخالطة غير المؤمنين للتحريم لا للتنزيه، لوصف من تولاهم أو خالطهم بأنهم هم الظالمون.

٧. ﴿ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ قال ابن عباس: يريد مشركاً مثلهم لأنه رضي بشركهم، والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق. قال القاضي: هذا النهي لا يمنع من أن يتبرأ المرء من أبيه في الدنيا، كما لا يمنع من قضاء دين الكافر ومن استعماله في أعماله.

٨. كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا في مكة، وكانت حياته في مكة قبل إسلامه غاية في الترف، وكان يرفل في الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادي الصعب، لدرجة أن رسول الله -ﷺ- رآه في الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبي عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإينما بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها.

٩. روى أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أنس: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**».

١٠. لطيفة: قال العلامة القرطبي: دل قوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ على أن القرب قرب الأديان، لا قرب الأبدان، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً:

يقولـون لـي دار الأحبـة قـد دنـت = وأنـت كئيـب إن ذا لعجيـب

فقلـت ومـا تغـني ديـار قريبـة = إذا لم يكـن بـين القلـوب قريـب

فكـم مـن بعيـد الـدار نـال مـراده = وآخـر جـار الجنـب مـات كئيـب

١١. لطيفة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قد يستدل بالآية على أن الولد يكون مؤمنًا بإيمان والده؛ لأنه لم يذكر الولد فى استحبابه الكفر على الإيمان، مع أنه أولى بالذكر، وما ذاك إلا أن حكمه مخالف لحكم الأب والأخ. وهو الفرق بين المحجور عليه لصغره وجنونه، وبين المستقل، كما استدل سفيان بن عُيَيْنَةَ وغيره بقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]، أن بيت الولد مندرج فى بيوتكم؛ لأنه وماله لأبيه.

١٢. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي راغبة وهي مشركة أفأصلها ؟ قال: «**نَعَمْ صِلِى أُمَّكِ**»[1].

---

(١) حديث ٢٦٥٨ - الهبة - صحيح البخارى.

المعاني المفردة[١]

أَوْلِيَاء: أي بطانة وأصدقاء. جمع وليّ وهو من تتولاه بالمحبة والنصرة ويتولاك بمثل ذلك.

اسْتَحَبُّواْ: اختاروا. أحبوا.

الظَّالِمُونَ: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أحب من لا تجوز محبته فقد وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم.

سبب النزول[٢]

لما أمر المسلمون بالهجرة جعل الرجل يقول لأهله إنا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع إلى ذلك ومنهم من يتعلق به عياله وزوجته فيقولون ننشدك الله أن تدعنا إلى غير شيء فيرق قلبه فيجلس معهم فنزلت هذه الآية قاله أبو صالح عن ابن عباس.

الإعراب[٣]

«أولياء» مفعول ثان منصوب، وجملة **«إن استحبوا»** مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دَلَّ عليه ما قبله، والجار **«منكم»** متعلق بمحذوف حال من فاعل **«يتولَّهم»**، وجملة **«ومن يتولهم»** معطوفة على جواب النداء لا محل لها.

المناسبة في السياق

لما ذكر تعالى قبائح المشركين، واثنى على المهاجرين المؤمنين، الذين هجروا الديار والاوطان حباً في الله ورسوله، حذر هنا من ولاية الكافرين، وذكر أن الانقطاع من الآباء والأقارب واجب بسبب الكفر.

---

(١) محاسن التأويل. مختصر تفسير البغوي. الجامع لأحكام القرآن. أيسر التفاسير/ أبو بكر الجزائري.

(٢) زاد المسير.

(٣) إعراب القرآن وبيانه.

النداء الحادي والخمسون

المشـركـون نجَـس

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

بين يدي النداء

يستحضر الفلسطينيون وسط الحصار بعض آيات الكتاب الحكيم محرضين أنفسهم بضرورة الصمود بوجه العالم الراغب بتركيعهم وحملهم على الإذعان لشروط الكيان الصهيوني.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾، هذه إحدى الآيات التي يستحضرونها للحث على التوكل على الله سبحانه، والاسترزاق منه وحده.. من قلب التاريخ المضيء لهذه الأمة قبل أربعة عشر قرناً.. حينها كان المسلمون يعالجون مع نبيهم موقفاً مشابهاً، إذ نزل القرآن عليهم بآياته فأبردت على الفور الصدور الوجلة من عيلة (افتقار) دولتهم الناشئة بسبب منعهم خصومهم من الاقتراب من المسجد الحرام وما ترتب عليه من فقدانهم لمزية التبادل التجاري معهم في موسم الحج..

ولعل المشهد يعاود استنساخ نفسه اليوم بعيلة جديدة يحاذرها الفلسطينيون لتمسكهم الصلب بعدم الاعتراف بالكيان الصهيوني بما ألب عليهم «قبائل» العالم البعيدة الأنساب والقريبة الأرحام سواء بسواء.. ومفتاح الحل بنظرة الأرض واحدة: «الاقتراب من المسجد الحرام» أو «الاعتراف بالكيان الغاصب».. لكن معيار السماء جد مختلف ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

والرب الرزاق الوهاب رحيم.. لم يعنف المسلمين إبان أزمتهم الأولى على هذا الخوف من العيلة، بل بشرهم بالخير القادم، يقول الإمام القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز، وليس ذلك بمناف للتوكل، وإن كان الرزق مقدراً، وأمر الله وقَسْمه مفعولاً، ولكنه علقه بالأسباب حكمة؛ ليعلم القلوب التي تتعلق بالأسباب مِن القلوب التي تتوكل على رب الأرباب.. فالسبب لا ينافي التوكل، قال ﷺ: **«لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّه حَقّ تَوَكُّله لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُق الطَّيْر تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوح بِطَانًا»**..

ومن هنا كان تفهم هذا القلق الذي يعتري الفلسطينيين اليوم منطقياً، وإنما الاسترسال في هواجسه أمر يتسامى عنه شعب عرفه العالم كله بالصلابة والصمود في لأواء طريق المقاومة والنضال في طلب حقوقه المشروعة.. فالوقوف مع الأشقاء في فلسطين اليوم في محنتهم نعم هو واجب الوقت الآن في ربوع بلدان العالم الإسلامي، لكن الفلسطينيين من جهة أخرى مدعوون لأن يستلهموا المعنى العظيم لهذه الآية الكريمة بالتوازي مع جهد الآخرين في حلها سواء من الداخل الفلسطيني أو من الأشقاء المسلمين المحبين لأهل البلد الطيب المبارك - فلسطين-.

هداية وتدبر[١]

1. قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله وأقرُّوا بوحدانيته: ما المشركون إلا نَجَس. فلا تدعوهم أن يقربوا المسجد الحرام بدخولهم الحرَم. وإنما عنى بذلك منعَهم من دخول الحرم، لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام، بعد العام الذي نادَى فيه علي رحمة الله عليه ببراءة، وذلك عام حجَّ بالناس أبو بكر، وهي سنة تسع من الهجرة، وإن خفتم فاقَةً وفقرًا، بمنع المشركين من أن

(١) انظر: تفسير الطبري. إتحاف النبهاء بضوابط الفقهاء. الدر المصون في علم الكتاب المكنون. المعنى القرآني فى ضوء اختلاف القراءات. صفوة التفاسير. محاسن التأويل. تفسير الشعراوي. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج. مفاتيح الغيب.

يقربوا المسجد الحرام ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾. فأمرهم بقتال أهل الكتاب، وأغناهم من فضله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، بما حدثتكم به أنفسكم، أيها المؤمنون، من خوف العيلة عليها بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، وغير ذلك من مصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه.

٢. **قال القاسمي ﷺ في محاسن التأويل:** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: ذوو نجس، لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، هو مجاز عن خبث الباطن، وفساد العقيدة، مستعار لذلك، أو هو حقيقة، لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها.

٣. ليس نجس إلا ما ورد الدليل الشرعي الصحيح الصريح بإثبات نجاسته فنقول به في هذا الشيء بعينه ويبقى ما عداه على أصل الطهارة ولا يطلب الدليل.

٤. النجاسة في هذا النص يراد بها النجاسة المعنوية لا الحسية. روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة في قصة ثمامة بن أثال قال «فبعث النبي ﷺ خيلاً فجاءت برجل فربطوه بسارية من سواري المسجد» قد كان كافراً، فاستفدنا من ذلك طهارة أعيان الكفار. وروى ابن ماجه من أنه ﷺ أنزل وفد ثقيف المسجد فقيل يا رسول الله إنهم قوم أنجاس فقال عليه الصلاة والسلام «ليس على الأرض من أنجاس القوم شيء إنما أنجاسهم على أنفسهم» والمراد بالنجاسة التي على أنفسهم نجاسة.

٥. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: بعد حج عامهم هذا، وهو عام تسع من الهجرة، حين أمّر النبي ﷺ أبا بكر على الموسم، ثم أتبع أبا بكر بعلي رضي الله عنهما، لينادي في المشركين: **«ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»**. فأتم الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدَراً.

٦. الفضل المذكور في الآية مطلق، يشمل كل ما أغناهم الله به، وهو الأصح، وقيل:

المراد به حمل الطعام إلى مكة من البلاد التي أسلم أهلها كجدة وصنعاء وحنين، فإنه سد حاجتهم وأغناهم عما في أيدي المشركين. وقيل: المراد به الجزية، وقيل: الفيء.

٧. إن العمل الباطل الحرام ليس مصدر رزق، والله يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [**الطلاق**].

٨. بلاد الإسلام بالنسبة لدخول الكفار إليها وإقامتهم فيها ثلاثة أقسام: **الأول - الحرم المكي:** يمنع الكافر من دخول الحرم المكي وهو قول الشافعية والحنابلة، عملاً بظاهر الآية. وأجاز المالكية لغير المسلم دخول حرم مكة دون البيت الحرام بأمان لمدة ثلاثة أيام، أو بحسب الحاجة في تقدير المصلحة من قبل الإمام. وأباح أبو حنيفة أيضاً للكافر دخول الحرم بإذن الإمام أو نائبه، ثلاثة أيام بلياليها. **الثاني - الحجاز:** وهو ما بين عدن إلى حدود العراق طولاً، وما بين جدّه وما والاها من ساحل البحر إلى حدود الشام عرضاً. يجوز للكافر دخولها بالإذن لمدة ثلاثة أيام فقط. روى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب، فلا أترك فيها إلا مسلماً**» وفي رواية لمسلم: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**». والمراد من جزيرة العرب في رأي الشافعية والحنابلة هو الحجاز خاصة، كما حكى ابن حجر عن الجمهور، بدليل رواية أحمد: «**أخرجوا اليهود من الحجاز**» ولفعل عمر رضي اللّه عنه فيما رواه البخاري والبيهقي، حيث أجلى اليهود والنصارى من الحجاز فقط دون جزيرة العرب، وأقرهم في اليمن مع أنها من جزيرة العرب. ولا يجوز عند المالكية لغير المسلم استيطان جزيرة العرب (الحجاز واليمن) لعموم الحديث السابق عن ابن عمر، وحديث عائشة عند أحمد: «**لا يترك بجزيرة العرب دينان**» وما أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري مرسلاً: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**». **الثالث - سائر بلاد الإسلام:** يجوز للكافر أن يقيم فيها بأمان، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن المسلم.

٩. قال الألوسي في روح المعاني: والإشارة في قوله تعالى: إنما المشركون نجس الخ، إلى أن من تدنس بالميل إلى السوى وأشرك بعبادة الهوى لا يصلح للحضرة وهل يصلح لبساط القدس إلا المقدس.

١٠. لما أراد الله تعالى أن يُنهي وجود المشركين في البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم، وأنها ستؤثر على تجارتهم وأرزاقهم في مواسم التجارة والحج. لذلك قال بعدها مباشرة: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ...﴾ فساعةَ يقرؤونها في التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما في نفوسهم، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به، وهذا يعني أن التشريع يأتي ليعالج كل خواطر النفس، فلا ينزعك من شيء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهِب هذه المخاوف.

١١. النص صريح في أن المشرك نجس، وفي أن المؤمن طاهر ليس بنجس. لذا كان مذهب المالكية والحنابلة: إيجاب الغسل على الكافر إذا أسلم، وقال الشافعي: أحب إلي أن يغتسل.

١٢. في هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بأسباب الرزق جائز، ولا ينافي ذلك التوكل، وإن كان الرزق مقدراً، ولكنه علقه بالأسباب، لحمل الناس على العمل، والسبب لا ينافي التوكل، بدليل ما أخرج البخاري من قوله ﷺ: **«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»**.

١٣. المراد من المسجد الحرام هو جميع الحرم والدليل عليه قوله تعالى ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ وذلك لأن موضع التجارات ليس هو عين المسجد؛ فلو كان المقصود من هذه الآية المنع من المسجد خاصة لما خافوا بسبب هذا المنع من العيلة وإنما يخافون العيلة إذا منعوا من حضور الأسواق والمواسم، وهذا استدلال حسن من الآية، ويتأكد هذا القول بقوله سبحانه ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ

أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [**الإسراء: ١**]. مع أنهم أجمعوا على أنه إنما رفع الرسول عليه الصلاة والسلام من بيت أم هانىء، وأيضاً يتأكد هذا بما روي عنه ﷺ أنه قال: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**».

١٤. قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ إخبار عن غيب في المستقبل على سبيل الجزم في حادثة عظيمة وقد وقع الأمر مطابقاً لذلك الخبر فكان معجزة.

١٥. الغرض بالخبر في قوله تعالى ﴿إِن شَآءَ﴾ إزالة الخوف بالعيلة وهذا الشرط يمنع من إفادة هذا المقصود، وجوابه من وجوه:

الأول: أن لا يحصل الاعتماد على حصول هذا المطلوب فيكون الإنسان أبداً متضرعاً إلى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات.

الثاني: أن المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الأدب كما في قوله ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [**الفتح: ٢٧**].

الثالث: أن المقصود التنبيه على أن حصول هذا المعنى لا يكون في كل الأوقات وفي جميع الأمور لأن إبراهيم عليه السلام قال في دعائه ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [**البقرة: ١٢٦**]. وكلمة ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعيض، فقوله تعالى في هذه الآية إن شاء المراد منه ذلك التبعيض.

١٦. ورد في هذه الآية قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ إنه تشبيه بليغ يخلع على المشركين صفة النجاسة، فهم ليسوا متنجسين فحسب، وإنما هم نجس خالص. وبهذا يتحدد معنى الشرك والكفر كيف أنه يصم صاحبه بمنتهى أوصاف القذارة والقبح والخبث، فقد تحول هذا المخلوق، عند ما تنكب جادة الإيمان، وامتطى شيطان الكفر إلى نجس وقذر، فهو لا يستحق الوجود، ولا يمكن أن نتعامل معه أو نتعايش معه، بل لا بد من التطهّر منه وتخليص المجتمع من وبائه وضرره، فليس

هناك تعبير أشدّ وأدهى من هذا التعبير ليجسد معنى الكفر والشرك، في واقع الناس وحياتهم. وجمهور الفقهاء على أن النجس معنوي في الآية الكريمة، فالذي يمس الكافر لا ينجس، كما أنه إذا مات يبقى طاهر الجسد.

....

المعاني المفردة[1]

نَجَسٌ: النَّجاسَة: ضِد الطَّهارة. ونجس: خبيث فاجر. تنجس: تلطخ بالقذر. وفي اصطلاح الفقهاء: عين النجاسة. أما النجس فهو ما لا يكون طاهراً.

عَيْلَةً: يقال عال الرجل يعيل عَيْلَة إذا افتقر.

سبب النزول

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه فلما نهوا عن أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا الطعام فأنزل الله ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

الإعراب والصرف والبلاغة[2]

– ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ **ابتداء وخبر** والجملة جواب النداء مستأنفة، وجملة ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ﴾ معطوفة على المستأنفة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾، وقوله ﴿هَٰذَا﴾ : نعت مؤول بمشتق أي: عامهم المشار إليه، جملة ﴿إِن شَآءَ﴾ مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دَلَّ عليه ما قبله.

---

(١) العباب الزاخر. القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً. كتاب العين: الفراهيدي. الزاهر في معاني كلمات الناس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس. ومشكل إعراب القرآن للمسكي. صفوة التفاسير.

- ﴿نَجَسٌ﴾ مصدر سماعيّ لفعل نجس ينجس باب فرح وباب كرم وفي لغة من باب نصر، وزنه فعل بفتحتين. وفي القاموس النجس بالفتح وبالكسر وبالتحريك ككتف وعضد. **(عيلة)** مصدر عال يعيل باب سار، وزنه فعلة بفتح فسكون.

- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أى كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد، حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

- صيغة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجساً، فهو للمبالغة في اتّصافهم بالنجاسة حتّى كأنّهم لا وصف لهم إلاّ النجسية. ووصف (العام) باسم الإشارة ﴿عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ لزيادة تمييزه وبيانه.

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعى: ولما تقدم في الأمر والنواهي وبيان الحكم المرغبة والمرهبة ما لم يبق لمن عنده أدنى تمسك بالدين شيئا من الالتفات إلى المفسدين، بين أن العلة في مدافعتهم وشديد مقاطعتهم أنهم نجس وأن المواضع - التي ظهرت فيها أنوار عظمته وجلالته وأشرقت عليها شموس نبوته ورسالته، ولمعت فيها بروق كبره وجالت صوارم نهية وأمره - مواضع القدس ومواطن الأنس، من دنا إليها من غير أهلها احترق بنارها، وبهرت بصره أشعة أنوارها، فقال مستخلصا مما تقدم ومستنتجا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾الآية.

---

(١) نظم الدرر جـ ٣ صـ ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

النداء الثاني والخمسون

إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

بين يدي النداء

المعنى العام لأكل أموال الناس بالباطل هو أخذها بغير وجه شرعي من الوجوه التي يبذل الناس فيها هذه الأموال بحق يرضاه الله عز وجل وهو أنواع: (منها) ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله زاهد في الدنيا؛ ليدعو لهم ويشفع لهم عند الله في قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم. (ومنها) ما يأخذه سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التي بنيت بأسمائهم من الهدايا والنذور، التي يحملها إلى تلك المواضع فتحبس عليها الأراضي والعقارات، وتقدم لها النذور والهدايا تقرباً إلى تلك الأسماء أو المسميات. (ومنها) ما هو خاص بالنصارى بل ببعض فرقهم كالأرثوذكس والكاثوليك، وهو ما يأخذونه جُعلاً على مغفرة الذنوب أو ثمناً لها، ويتوسلون إليها بما يسمونه سر الاعتراف؛ إذ ترتب عليه فساد كبير في استباحة الفواحش وكبائر المعاصي. (ومنها) ما يؤخذ على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال، فأولو المطامع والأهواء يفتون الملوك والأمراء وكبار الأغنياء بما يساعدهم على إرضاء شهواتهم، والانتقام من أعدائهم، أو ظلم رعاياهم ومعامليهم، بضروب من الحيل والتأويل يصورون به النوازل بغير صورها، ويلبسون به المسائل أثواباً من الزور تلتبس بحقيقتها.

هداية وتدبر[1]

١. يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيرًا من العلماء والقُرَّاء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى يأخذون الرشى في أحكامهم، ويحرّفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا ثم يقولون: ﴿هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ويأخذون بها ثمنًا قليلاً من سِفلتهم ويمنعون من أرادَ الدخول في الإسلام الدخولَ فيه، بنهيهم إياهم عنه. وبشّر الكثيرَ من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، بعذابٍ أليم لهم يوم القيامة، مُوجع من الله.

٢. عن ثوبان قال: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ قال رسول الله - ﷺ- «**تبا للذهب والفضة**»، قالوا: يا رسول الله فأي المال نكنز؟ قال: «قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة صالحة».

٣. تنبيه للمؤمنين حتى لا يحوموا حول ذلك الحمى ولذا وجه الخطاب إليهم.

٤. في الباطل أربعة اقوال: أحدها- أنه الظلم. والثاني- الرشا في الحكم. والثالث- الكذب. والرابع- أخذه من الجهة المحظورة.

٥. المراد بسبيل الله هاهنا قولان: أحدهما- الإيمان برسول الله ﷺ. والثاني- أنه الحق والحكم.

٦. في الكنز المستحق عليه هذا الوعيد **ثلاثة اقوال: أحدها-** أنه ما لم تؤد زكاته قال ابن عمر: كل مال أديت زكاته وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز وكل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض. وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور فعلى هذا معنى الإنفاق إخراج الزكاة. **والثاني-** أنه ما زاد على أربعة

---

(١) زاد المسير في علم التفسير. تفسير الطبري. تفسير الشعراوي. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. تفسير المنار. في ظلال القرآن.

آلاف روي عن علي بن أبي طالب أنه قال أربعة آلاف نفقة وما فوقها كنز. **والثالث-** ما فضل عن الحاجة وكان يجب عليهم إخراج ذلك في أول الإسلام ثم نسخ بالزكاة.

٧. أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب، ولكنهم يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه.

٨. أراد سبحانه أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل في تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن هذا التعامل يقتضي الحركة الدائمة للمال؛ لأن وظيفة المال هي الانتفاع به في عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فإنه ينقص كل عام بنسبة ٢,٥٪ وهي قيمة الزكاة. ولذلك يفنى هذا المال في أربعين سنة.. ولكن إذا أدار صاحب المال ما يملكه في حركة الحياة، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به؛ لأن الذي يستثمر أمواله مثلاً في بناء عمارة ليس في باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التي صنعت مواد البناء أخذت، وأخذ العمال أجورهم؛ في مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن: فقد انتفع عدد كبير في المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم.

٩. التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «**لتركبنّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذّة**». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**». وفي رواية : فارس والروم؟ قال: «وَمَن الناس إلا هؤلاء؟».

١٠. قال أبو بكر الجزائري هداية الآيتين في تفسيره: «بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى، وهي أنهم ماديون باعوا آخرتهم بدنياهم يحاربون الإسلام ويصدون

عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام. وحرمة أكل أموال الناس بالباطل. وحرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه. المال الذي تؤدى زكاته كل حول لا يقال له كنز ولو دفن تحت الأرض. بيان عقوبة من يكنز المال ولا ينفق منه في سبيل الله وهي عقوبة شديدة».

١١. ولا بد أن نلحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهي في قول الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ ..﴾.. للاحتراز من الحكم على القليل منها الذي لا يزاول هذه الخطيئة. ولا بد من أفراد في أية جماعة من الناس فيهم بقية خير.. ولا يظلم ربك أحداً.. والكثير من الأحبار والرهبان يكنزون هذه الأموال التي يأكلونها بالباطل. وقد شهد تاريخ هؤلاء الناس أموالاً ضخمة تنتهي إلى أيدي رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة. وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاة! والسياق القرآني يصور عذابهم في الآخرة بما كنزوا، وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، في مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروعة.

١٢. لطيفة: إن قيل، كيف قال يُنْفِقُونَها وقد ذكر شيئين فعنه جوابان: **أحدهما-** أن المعنى يرجع إلى الكنوز والأموال. **والثاني-** أنه يرجع إلى الفضة وحذف الذهب لأنه داخل في الفضة. قال الشاعر: نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأي مختلف.

يريد نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض ذكر القولين الزجاج.

١٣. لطيفة: عبر تعالى عن أخذ الأموال بالأكل على سبيل الاستعارة لأن المقصود الأعظم من جمع الأموال هو الأكل، فسمي الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده.

....

المعاني المفردة[١]

الأَحْبَار: (الحبر) العالم (ج) أحبار وحبور. قال الأَزْهَرِيُّ: وسأَلَ عبدُ اللّهِ بنُ سَلام كَعْباً عن الحِبْرِ فقال: هو الرجُلُ الصّالحُ. قال أَبو عُبَيْد: وأَمّا الأَحبارُ والرُّهْبَانُ فإِن الفُقَهاءَ قد اختلفوا فيهم، فبعضُهم يقولُ: حَبْرٌ، وبعضُهُم يقول: حِبْرٌ بالكسر وهو أَفصحُ؛ لأَنه يُجْمَعُ على أَفعال، دُونَ فَعْلٍ ويُقَال ذلك للعالِم بتَحْبِيرِ الكلامِ والعِلْمِ وتَحْسِينه. والأحبار علماء اليهود.

الرُّهْبَانِ: الرَّاهِبُ: واحِدُ رُهْبَانِ النَّصارَى، ومَصْدَرُهُ: الرَّهْبَةُ والرَّهْبَانِيَّةُ[٢] أو

---

(١) أساس البلاغة. تاج العروس من جواهر القاموس. المعجم الوسيط. القاموس المحيط. المحكم والمحيط الأعظم. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية. القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر. المحيط في اللغة. القاموس الفقهي لغة واصطلاحا. الجامع لأحكام القرآن.

(٢) واصطلاحا: حياة دينية منعزلة عن المجتمع، سماتها: التقشف، والاستغراق فى العبادة وصورتها: حياة الفرد وحده منعزلا عن الناس، أو فى جماعة عزلت نفسها عن المجتمع فى الصحراء، أو فى بناء خاص يطلق عليه: الدير. وتدل الرهبنة فى مجال التاريخ الدينى والاجتماعى على شكل اجتماعى له الخصائص التالية:

مجموعة من الرجال -أو النساء- يعيشون معا فى تجمعات صغيرة، داخل مجموعات أكبر، وتتصرف فيما تحت يدها على أساس أنه ملكية شائعة طبقا للتعاليم التقشفية التى التزموا بها، ويلتزمون فى جميع تصرفاتهم بما رسمه لهم الحبر الأكبر فى معزل عن إخوانهم فى العقيدة. ولا يرتبط ظهور الرهبنة بجنس خاص من البشر ولا تتعلق الرهبنة بلغة معينة، فهى ظاهرة عامة وجدت فى كثير من المجتمعات،وتأسست تحت عباءة أديان عدة على درجات متفاوتة، وبصور متعددة، إذ توجد فى الهندوسية، والبوذية، (وخاصة فى سيلان والتبت). وكان أول ظهورها بين المسيحيين فى مصر، وكانت فى صورة حياة داخل صوامع،تحولت فيما بعد إلى أديرة على يد Basilius 330-370 ثم أدخلها547-480 Benedikt -الذى يعتبر أب الرهبنة الأوروبية- إلى أوروبا على شكل حياة فى أديرة خاصة منعزلة عن المجتمع.

ظهرت الرهبنة فى التاريخ الدينى مرتبطة بالمسيحية، ويرجع المؤرخون السبب فى ظهورها بين المسيحيين إلى أنهم كانوا يرون من ملوكهم ما لا يصبرون عليه، فاتخذوا أسرابا وصوامع وابتدعوا ذلك فلما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع، ودخلوا فيه، لزمهم تمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوما لم يفترض عليه لزمه أن يتمه.

الرُّهْبَانُ بالضم قد يكونُ واحِداً[1] ج: رَهابِينُ ورَهابِنَةٌ ورَهْبانُونَ. ولا رَهْبانِيَّةَ في الإِسْلامِ: هي كالاخْتِصاءِ واعْتِناقِ السَّلاسِلِ ولُبْسِ المُسوحِ وتَرْكِ اللَّحْمِ ونَحْوِها. والرَّاهِبُ: المتعبد في الصومعة، والجمع الرُّهْبانُ.

بِالْبَاطِلِ: الباطل: ضد الحق، والجمع أباطيل. وقد بطل الشئ يبطل بطلا وبطولا وبطلانا، ويقال: بطل الشئ: ذهب ضَياعا وخُسْراً.

وَيَصُدُّونَ: صد عنه يصد صدودا: أعرض. وصده عن الأمر صدا. منعه وصرفه عنه. وأصده لغة.

يَكْنِزُونَ: الكنز[2]: المال المدفون. وقد كنزته أكنزه. وفى الحديث: «كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز». واكتنز الشئ: اجتمع وامتلأ. وقد كنزت التمر. الكنز أصله في اللغة الضم والجمع ولا يختص ذلك بالذهب والفضة.

الإعراب والبلاغة[3]

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ رفع بالابتداء ويجوز أن يكون معطوفاً على ما في يأكلون أي ويأكلها الذين يكنزون الذهب والقضة ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُلْ ينفقونهما ففيه أربعة أقوال يكون التقدير ولا ينفقون الكنوز، ويكون ولا ينفقون الأموال، ويكون ولا ينفقون الفضة وَحُذِفَ من الأول لدلالة الثاني عليه وأنشد سيبويه: نَحنُ بِمَا عِندَنا وأنتَ بما عِنْـدَكَ راضٍ والرأيُ مُختَلِفُ. والتقدير الرابع أن يكون ينفقونها للذهب والثاني معطوفاً عليه. ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والفاء زائدة والجملة في موضع خبر الابتداء أي اجعل لهم موضِعَ البشارة عذاباً أليماً.

---

(١) أنشد ابن الأعرابي: لَوْ كَلَّمَتْ رُهْبانَ دَيْرٍ في القُلَلْ لانحَدَرَ الرُّهْبانُ يَسعَى فَنَزَلْ.

(٢) والمراد به في آية التوبة باتفاق أئمة الفتوى، وجماهير العلماء: هو المال الذى لا تـؤدى زكاتـه، سـواء كان مدفوناً، أم ظاهراً. أما ما أديت زكاته فليس بكنز، سواء كان مدفونا، أم بارزا.

(٣) إعراب القرآن وبيانه. الجدول في إعراب القرآن.

- **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ والتعبير عن الأخذ بالأكل مجاز مرسل، والعلاقة العلية والمعلولية، أو اللازمية والملزومية، فإن الأكل ملزوم للأخذ كما قيل. وجوز أن يكون المراد من الأموال الأطعمة التي تؤكل مجازاً مرسلاً.

سبب النزول(١)

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها- أنها نزلت عامة في أهل الكتاب والمسلمين، قاله أبو ذر والضحاك. والثاني- أنها خاصة في أهل الكتاب، قاله معاوية بن أبي سفيان. والثالث- أنها في المسلمين قاله ابن عباس والسدي.

المناسبة في السياق(٢)

هاتان الآيتان متصلتان بسياق الكلام في أهل الكتاب متممتان له، ومقررتان لموعظة عامة تقتضيها المناسبة؛ ذلك بأنه تقدم في هذا السياق أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا فعبدوا غيره من دونه، وإنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذي أفاضه على عباده برسالة محمد ـ ﷺ ـ وأن الله لا يريد إطفاءه بل يريد إتمامه وقد فعل - فناسب أن يبين مع هذا شيئاً من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين العملية؛ ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، والأسباب التي تحملهم على محاولة إطفاء نور الله تعالى، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير.

(٢) تفسير المنار.

النداء الثالث والخمسون

التثاقل عن الجهاد في سبيل الله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

بين يدي النداء

لم يعد خافياً اليوم على كل مسلم ما تتعرض له بلدان المسلمين قاطبة من غزو سافر وحرب شرسة على مختلف الأصعدة، وذلك من قبل أعدائها الكفرة وأذنابهم المنافقين، فعلى الصعيد العسكري ترزح بعض بلدان المسلمين تحت الاحتلال العسكري لجيوش الكفرة المعتدين التي غزت أهل هذه البلدان في عقر دارهم كما هي الحال في أفغانستان والشيشان والعراق وفلسطين وكشمير، وعلى صعيد الحرب على الدين والأخلاق والإعلام والتعليم، والاقتصاد لم يسلم بلد من بلدان المسلمين من ذلك.

وكما هو مقرر عند أهل العلم أن جهاد الكفار يصبح متعيناً على أهل كل بلد عندما يغزون في عقر دارهم ويجب على كل قادر أن ينفر لصد العدوان وقتال الكفار حتى يجلوا عن أرض المسلمين، والجهاد في هذه البلدان يكون بالنفس والمال، ويجب على بقية بلدان المسلمين أن ينصروا إخوانهم في بلدانهم المغزوة بأن يمدوهم بالمال والسلاح والبيان والدعاء، وإذا لم يكف المقاتلون في البلد المعتدى عليه في صد العدوان وجب على البلاد المجاورة لهم أن تمدهم بالرجال والمال حتى يكتفوا، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى– حيث يقول: «وإذا دخل العدو بلاد المسلمين فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب إذ بلاد المسلمين كلها بمنزلة البلدة الواحدة» [الاختيارات الفقهية ص٤٤٨]، كما يجب على من كان من المسلمين ذا خبرة عسكرية في فن من فنون

القتال أن ينفر لنصرة إخوانه في البلدان المغزوة، قال الله - عز وجل-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة].

هذا فيما يتعلق بقتال الدفع عن المسلمين الذين احتل الكفار ديارهم وغزوهم في عقر دارهم، أما البلدان التي غزاها الكفار في عقرها عقدياً واجتماعياً وإعلامياً واقتصادياً وثقافياً وتعاون معهم إخوانهم المنافقون في تنفيذ مخططاتهم، فهذا النوع من الغزو لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين، وقد تسارع الغزاة في تنفيذ مخططهم الإفسادي في السنوات الأخيرة بشكل ملفت وخطير، فما هو الواجب على المسلمين في هذه البلدان تجاه هذا الغزو الخطير؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى-: «والجهاد: منه ما هو باليد ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان، والرأي، والتدبير والصناعة فيجب بغاية ما يمكنه» [الاختيارات الفقهية ص٤٤٧].

وإن الغزو الخطير الذي يتعرض له المسلمون قاطبة في بلدانهم والموجه لهم من أمم الكفر ليستهدف دينهم وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، وهذه هي الضرورات الخمس والمقاصد العظيمة التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها وتكميلها وحمايتها من الفساد والمفسدين، إذن فما هو الواجب تجاه هذا الغزو الخطير الموجه للمسلمين في عقر

دارهم من الكافرين والمنافقين؟

هداية وتدبر[1]

١. قال أبو جعفر: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، أيّ شيء أمرُكم إذا قال لكم رسولُ الله محمدٌ اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها. أرضيتم بحظ الدنيا والدّعة فيها، عوضًا من نعيم الآخرة، وما عند الله للمتقين في جنانه فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذّاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدَّها الله لأوليائه وأهل طاعته يسير. فاطلبوا، أيها المؤمنون، نعيم الآخرة، وشرف الكرامة التي عند الله لأوليائه، بطاعتِه والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوِّه.
٢. حثٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم –تبوك–.
٣. مَا لَكُمْ: استفهام للتقريع والتوبيخ، وهو توبيخ على ترك الجهاد، وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك.
٤. يتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع في أي وقت. ويعطي ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين. إذن: فَلِكَيْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً؛ لا بد أن يوجد استعداد دائم للقتال في سبيل الله ورغبة في الشهادة، وهنا يقول الحق: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكأن الاستعداد المستمر للقتال في سبيل الله أمر لا بد أن يوجد بالفطرة وبالعقل، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار

---

(١) تفسير الطبري. صفوة التفاسير. تفسير الشعراوي. التفسير المنير فى العقيدة و الشريعة و المنهج. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. تفسير الماوردى.

هذا الأمر موطناً للتعجب؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال في سبيل الله أو أن يتكاسلوا.

٥. في قوله ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ **ثلاثة أوجه:**

أحدها: إلى الإقامة بأرضكم ووطنكم.

والثاني: إلى الأرض حين أخرجت الثمر والزرع. قال مجاهد: دعوا إلى ذلك أيام إدراك النخل ومحبة القعود في الظل.

الثالث: اطمأننتم إلى الدنيا، فسماها أرضاً لأنها فيها، وهذا قول الضحاك.

٦. قال الجصاص: اقتضى ظاهر الآية وجوب النفير على من لم يستنفر، وقال في آية بعدها: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾. فأوجب النفير مطلقًا غير مقيد بشرط الاستنفار، فاقتضى ظاهره وجوب الجهاد على كل مستطيع له. عن أبي راشد الْحُبرانِي أنه وافى المقداد بن الأسود، وهو يجهز، قال: فقلت: يا أبا الأسود قد أعذر اللَّه إليك، أو قال: قد عذرك اللَّه، يعني في القعود عن الْغزو؛ فقال: أتت علينا سورة براءة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾.

٧. **قال أبو بكر الجزائري في تفسيره: من هداية الآية:**

١) وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام.

٢) يجب أن يكون النفير في سبيل الله لا في سبيلٍ غير سبيله تعالى.

٣) بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة.

٨. قال ﷺ: «**وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ -وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ- فِى الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ**».[1] وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ،

(١) صحيح مسلم- كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة- حديث ٧٣٧٦.

أنه قال: «**مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِى الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ ...**»[1].

وأخرج ابن ماجة عن المستور بن شداد رضي الله عنه قال: كنت في ركب مع رسول الله ﷺ إذ مر بسخلة ميتة فقال « **أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها** ». وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إن الله جعل الدنيا قليلاً وما بقي منها إلا القليل، كالثعلب في الغدير شرب صفوه وبقي كدره**». عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ يوم الفتح فتح مكة: (**لا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِنَّ ٱسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**).

٩. الثقل معناه: أن كتلة الشيء تكون زائدة على قدرة من يحمله، فإن قلت: إن هذا الشيء ثقيل فهذا يعني أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله. ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة، أي: لك قدرة على الفعل، ولكنك تتصنع أنك غير قادر، فقوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم.

١٠. ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال في سبيل الله، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر في داخل نفوسهم، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة. ولكن المنطق الإيماني يقول: إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية، فلا بد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء؛ لأنه رضي بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله.

١١. يجيء الحق بالنفرة في الجهاد لأن الذي يعوق الإنسان عن الجهاد حبه لدَعَته، ولراحته، ولسعادته بمكانه، وبأهله، وبماله، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب فضل الجهاد والرباط - حديث ٤٩٩٧.

نفسه.

١٢. إذا كان النفير عاماً: تعين فرض الجهاد على كل أحد، فيكون الاشتغال في هذه الحال بالجهاد أفضل من تعلم العلم لأن ضرر العدو إذا وقع بالمسلمين لم يمكن تلافيه، وتعلم العلم ممكن في سائر الأحوال، ولأن تعلم العلم فرض على الكفاية، لا على كل أحد في خاصة نفسه. وأما إذا لم يكن النفير عاما: ففرض الجهاد على الكفاية، مثل تعلم العلم، إلا أن الاشتغال بالعلم في هذه الحال أولى وأفضل من الجهاد، لعلو مرتبة العلم على مرتبة الجهاد لأن ثبات الجهاد بثبات العلم، ولأن الجهاد فرع عن العلم ومبني عليه [١].

....

المعاني المفردة[٢]

انفِرُواْ: النفر: الخروج بسرعة. يقال نفر القوم ينفرون نفراً ونفيراً إذا خرجوا إلى مكان لمصلحة توجب الخروج، والقوم الذين يخرجون يقال لهم النفير، واستنفر الإمام الناس لجهاد العدو أي طلب منهم الخروج إلى الغزو وحثهم عليه. وأصل النفر مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج إلى ذلك.

اثَّاقَلْتُمْ: قعدتم. تباطأتم ولم تسرعوا. أصله تثاقلتم. (والتثاقل) تكلّف الثقل، أي إظهار أنّه ثقيل لا يستطيع النهوض.

مَتَاعُ: المتاع المنفعة والنعيم.

قَلِيلٌ: مستحقر لا يؤبه له.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣ / ١١٩.

(٢) تفسير روح البيان. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. زاد المسير في علم التفسير. صفوة التفاسير. محاسن التأويل. التحرير والتنوير.

سبب النزول[١]

نزلت في الحث على غزوة تبوك[٢]، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حنين أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من البأس وجدب من البلاد وشدة من الحر، حين أخرفت النخل وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والما ل، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية.

الإعراب والصرف[٣]

- **«ما لكم»**: اسم استفهام مبتدأ، الجار **«لكم»** متعلق بالخبر، والجملة الشرطية حال من الضمير في **«لكم»**، الجار **«من الآخرة»** متعلق بحال من **«الحياة»**، وجملة **«أرضيتم»** مستأنفة، وجملة **«فما متاع الحياة»** مستأنفة، و **«ما»** مهملة لانتقاض نفيها بـ **«إلا»**.

- **«اثّاقلتم»** أصله تثاقلتم، ثمّ قلبت التاء ثاء للإدغام بعد سكونها وزيادة همزة الوصل لمناسبة السكون وكان وزنه تفاعلتم ثمّ أصبح افّاعلتم أو أتفاعلتم قياسا على

---

(١) أسباب نزول الآيات- الواحدي النيسابوري.

(٢) قال الحافظ في فتح الباري : وكان السبب فيها - أي الغزوة - ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا : بلغ المسلمين من الأنباط الذي يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء . فندب النبي ـ ﷺ ـ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم. وروى الطبراني من حديث عمران بن حصين قال : كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل : إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلا من عظمائهم يقال له قباد وجهز معه أربعين ألفا، فبلغ النبي ـ ﷺ ـ ذلك ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام فقال : يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية - أي من الفضة - قال : فسمعته يقول : « لا يضر عثمان ما عمل بعدها ». وقد كانت غزوة تبوك في شهر رجب من سنة تسع باتفاق الرواة.(تفسير المنار).

(٣) إعراب القرآن وبيانه. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وزن اضطرب افتعل حيث لا يتغيّر الوزن بوجود الإبدال في الكلمة.

المناسبة في السياق[1]

بعد أن ذكر تعالى أقوال المشركين المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة فبين تعالى أن هذا المانع خسيس لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه.

---

(١) مفاتيح الغيب.

النداء الرابع والخمسون

التقوى والصدق

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

بين يدي النداء

الصدق عزيز، حث عليه ربنا بقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ والصدق كما قال حبيبنا محمد – ﷺ – يهدي إلى البرّ، والبر يهدي إلى الجنة.. «وللصالحين والفضلاء في الصدق أقوال جميلة وعبارات سديدة منها:

قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - «**عليك بالصدق وإن قتلك**» وقال أيضاً: «لأن يضعني الصدق ـ وقلّ ما يفعل ـ أحب إلي من أن يرفعني الكذب وقلّ ما يفعل» وقال: «**قد يبلغ الصادق بصدقه. ما لا يبلغه الكاذب باحتياله**».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر**». وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «**ما كذبت مذ علمت أن الكذب يشين صاحبه**».

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: «والله لو نادى منادٍ من السماء أن الكذب حلال ما كذبت».

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: «**لأن أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إلى من أن أضرب بسيفي في سبيل الله**».

وقال الشعبي رحمه الله: «**عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك فإنه ينفعك. واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك**»

وقال عبد الملك بن مروان لمعلم أولاده: «**علمهم الصدق كما تعلمهم القران**».

ويقول الشاعر:

عـود لسـانك قـول الصـدق تحـظ بـه = إن اللســـان لمـــا عـــودت معتـــاد

اصدُق القول والفعل تفز برضوان الله تعالى، ولا يضيرك ما يقول الناس عنك أنه لابد من المجاملات الكاذبة كي نتربع في قلوب الناس على حساب دخولنا في دائرة الوعيد!! افتح صفحة صدق بيضاء نقية ليس من الغد بل من هذه اللحظة، وارفع شعار الصدق في كل حين حتى تلقى ربك به، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وأنت صدّيق - بإذن الله تعالى-.

إن أعظم ما في الصدق أنه يقود صاحبه إلى الجنة، وهذا هو الفوز العظيم قال -ﷺ- «أنا زعيم بيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً»، فهذا هو الرّبح الأوفر لأهل الصدق، وأي ربح أعظم من الجنة لكن يبقى أن تسأل نفسك: ما هو نصيبك من هذا الخير العظيم؟ فإنه ما زاد نصيب الرجل في الصدق إلا وقلّ نصيبه من الكذب، والعكس كذلك، وقد قالوا: قد يكذب الصدوق ـ أي نادراً ولكن لا يصدق الكذوب ـ. أسأل الله تعالى أن يجعلنا مع الصادقين وأن يحشرنا معهم وأن يعصمنا من الكذب والزلل وبالله التوفيق.

هداية وتدبر[١]

١. يقول تعالى ذكره للمؤمنين معرّفهم سبيل النجاة من عقابه والخلاص من أليم عذابه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه وتجنب حدوده، وكونوا في الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة مع

(١) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن. مفاتيح الغيب. تفسير القرآن الكريم/ ابن كثير. بحر العلوم. زاد المسير في علم التفسيرمدارك التنزيل وحقائق التأويل. اللباب في علوم الكتاب. الدر المنثور في التفسير بالمأثور. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. أيسر التفاسير/ أسعد حومد. خواطر محمد متولي الشعراوي. الوسيط في تفسير القرآن الكريم/ طنطاوي.

الصادقين في الجنة. يعني مع من صدق الله الإيمان به فحقق قوله بفعله ولم يكن من أهل النفاق فيه الذين يكذّب قيلهم فعلهم.

٢. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطابٌ عام يندرج فيه التائبون اندراجاً أولياً وقيل: لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوكَ خاصة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملةُ مع رسول الله ﷺ في أمر المغازي دخولاً أولياً ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودِهم أو في دين الله نيةً وقولاً وعملاً أو في كل شأنٍ من الشؤون فيدخل ما ذُكر، أو في توبتهم وإنابتهم فيكون المرادُ بهم حينئذ هؤلاء الثلاثةَ وأضرابَهم.

٣. الآية دالة على فضل الصدق وكمال درجته.. روي أن واحداً جاء إلى النبي عليه السلام وقال: إني رجل أريد أن أومن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب، والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها، فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك، فقال عليه السلام «**اترك الكذب**» فقبل ذلك ثم أسلم، فلما خرج من عند النبي عليه السلام عرضوا عليه الخمر، **فقال: إن شربت وسألني الرسول عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا، فجاء ذلك الخاطر فتركه، وكذا في السرقة، فعاد إلى رسول الله ﷺ وقال: ما أحسن ما فعلت، لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي، وتاب عن الكل.** وقيل في قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، إن إبليس إنما ذكر هذا الاستثناء، لأنه لو لم يذكره لصار كاذباً في ادعاء إغواء الكل، فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الاستثناء، وإذا كان الكذب شيئاً يستنكف منه إبليس، فالمسلم أولى أن يستنكف منه.

٤. المراد هنا بالمؤمنين والصادقين؛ قيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل:

هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله. ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ **أي** مع الذين خرجوا مع النبيّ ﷺ لا مع المنافقين. أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة. وقيل: هم المراد بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ ـ الآية إلى قوله ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [**البقرة**: ١٧٧]. وقيل: هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [**الأحزاب**:٢٣] وقيل: هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السَّقِيفة؛ إن الله سمّانا الصادقين فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ [**الحشر**: ٨] الآية، ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ الآية. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم. قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفةُ في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومَن دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب. وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

٥. حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار؛ قال ﷺ: «**عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهْدِي إلى البر وإن البر يهدِي إلى الجنة وما يزال الرجل يصْدُق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً**» والكذب على الضد من ذلك؛ قال ﷺ: «**إياكم والكذبَ فإن الكذب يَهْدِي إلى الفجور وإن الفجور يهدِي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**» خرّجه مسلم.

٦. **قال مالك**: لا يُقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول

الله ﷺ. وقال غيره: يقبل حديثه. والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كَمُلت خصاله ولا خَصلة هي أشرّ من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات.

٧. **قال السمرقندي في تفسير بحر العلوم: قوله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ يعني اخشوا الله ولا تعصوه، يعني من أسلم من أهل الكتاب ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قال الضحاك يعني مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله - ﷺ - إلى الغزو بإخلاص ونية. ويقال هذا الخطاب **(للمنافقين)** الذين كانوا يعتذرون بالكذب، ومعناه يا أيها الذين آمنوا في العلانية اتقوا الله وكونوا مع الثلاثة الذين صدقوا.

٨. وفي المراد بالصادقين **خمسة أقوال: أحدها:** أنه النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عمر. **والثاني:** أبو بكر وعمر، قاله سعيد بن جبير، والضحاك. وقد قرأ ابن السميفع. وأبو المتوكل، ومعاذ القارىء: ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ بفتح القاف وكسر النون على التثنية. **والثالث:** أنهم الثلاثة الذين خُلِّفوا، صدقوا النبي ﷺ عن تأخُّرهم، قاله السدي. **والرابع:** أنهم المهاجرون، لأنهم لم يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد، قاله ابن جريج. قال أبو سليمان الدمشقي: وقيل: إن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية يوم السقيفة، فقال: يا معشر الأنصار، إن الله يقول في كتابه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [**الحشر**: ٨] من هم؟ قالت الأنصار: أنتم هم. قال: فان الله تعالى يقول: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فأمركم أن تكونوا معنا، ولم يأمرنا أن نكون معكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. **والخامس:** أنه عامّ، قاله قتادة و«**مع**» بمعنى «**مِنْ**»، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

٩. الكذب عار، وأهله مسلوبو الشهادة، وقد رد - ﷺ- شهادة رجل في كذبة كذبها. وسُئل شريك بن عبد الله فقيل له: يا أبا عبد الله، رجل سمعته يكذب متعمداً، أصلي خلفه؟ قال: لا.

١٠. أمر تعالى المؤمنين بالكون مع الصادقين، ومتى وجب الكون مع الصادقين فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت، وذلك يمنع من إطباق الكل على الباطل، ومتى امتنع إطباق الكل على الباطل، وجب إذا أطبقوا على شيء أن يكونوا محقين. فهذا يدل على أن إجماع الأمة حجة.

١١. **يقول مالك بن أنس:** قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

١٢. **قال الحسن البصري:** إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

١٣. هذه الآية تنبيه على رتبة الصدق، وكفى بها أنها ثانية لرتبة النبوة في قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾.

١٤. الأمر بـ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أبلغ في التخلق بالصدق من نحو: اصدقوا. ونظيره.

١٥. هناك فرق بين ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ و﴿ **كونوا من الصادقين**}، فـ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي: التحموا بهم فتكونوا في معيّتهم وبعد أن تلتحموا بهم يأتي الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

١٦. **مجالات الصدق:** - الصدق في الإخلاص لله تعالى[(١)] - الصدق في الأقوال[(٢)] -

---

(١) عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة فقال: «إنّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية «إلا شاركوكم في الأجر» (رواه مسلم).

(٢) يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

الصدق في المعاملات[1] - الصدق في الورع والزهد[2] - الصدق في الأعمال الصالحة[3] - الصدق في الجهاد في سبيل الله[4] - الصدق في التوبة والرجوع إلى الله[5] - الصدق في أداء الأمانة[6] - الصدق في الحياء[7] - الصدق في الإحسان إلى الناس[8] - الصدق في الترفع عن الكذب والنفاق والمواربة[9] - الصدق في معرفة عدوك[10].

....

(١) قال الرسول ﷺ: «البيعان بالخيار، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما» (رواه البخاري).

(٢) عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» قال الإمام النووي : «اترك ما تشك في حله واعدل إلى ما لا تشك فيه».

(٣) يقول الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(٤) يقول الرسول ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء و إن مات على فراشه» (رواه مسلم).

(٥) يقول الله سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

(٦) يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

(٧) مر ﷺ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان» (متفق عليه).

(٨) يقول الرسول ﷺ: «لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو تلقى أخاك بوجه طلق» (رواه مسلم).

(٩) يقول الله جل وعلا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

(١٠) يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

المعاني المفردة[١]

اتَّقُواْ: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية.

الصَّادِقِينَ: الصدق نقيض الكذب، وهو قول الحق، والمطابق للواقع والحقيقة، والصادق هو المخبر بما يطابق اعتقاده، والصِدِّيق المبالغ في الصدق. والصادق هو القائل بالحق العامل به لأنه صفة مدح ولا يطلق إلا على من يستحق المدح على صدقه.

سبب النزول[٢]

في سبب نزولها قولان. **أحدهما**: أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلِّفين. **والثاني**: أنها في أهل الكتاب. والمعنى:

يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ وكونوا مع الصادقين.

الإعراب[٣]

اتقوا اللّه: فعل وفاعل ومفعول به. **وكونوا: عطف على اتقوا والواو** اسم كان. **ومع الصادقين:** متعلقان بمحذوف خبر كونوا.

المناسبة[٤]

لما حكم تعالى بقبول توبة الثلاثة[١]، ذكر ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضى، وهو

(١) خواطر محمد متولي الشعراوي. لسان العرب لابن منظور ج ١ص١٩٣.

(٢) تفسير زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي.

(٣) إعراب القرآن وبيانه: محي الدين درويش.

(٤) تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير/ الرازي.

التخلف عن رسول الله ﷺ في الجهاد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمر الرسول ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يعني مع الرسول وأصحابه في الغزوات، ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت.

---

(١) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

النداء الخامس والخمسون

خطة الحركة الجهادية

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

في ظلال النداء

أكتفي هنا بظلال الشهيد بما لا مزيد عليه.. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.. وحتى لا يطول البحث أكثر. يقول رحمه الله في ظلاله المبارك:

خطة الحركة الجهادية التي تشير إليها الآية في قوله تعالى :﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ . .

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون « دار الإسلام » ويجاورونها، مرحلة فمرحلة. فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم. ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس، فلم يتركوا وراءهم جيوباً؛ ووحدت الرقعة الإسلامية، ووصلت حدودها، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، متماسكة الأطراف؛.. ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت، أو على أساس القوميات! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون.

وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام « أمة واحدة » في « دار الإسلام » المتصلة الحدود -وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان- ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله -ﷺ- وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين.

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾..

فنجد أمراً بقتال الذين يلون المسلمون من الكفار. لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم.. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير، الذي يجعل « الانطلاق » بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد، وليس هو مجرد « الدفاع » كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة.

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن.. أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيداً من النصوص المرحلية السابقة؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء! والنص القرآني بذاته مطلق، وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام، أن يكون دقيقاً في كل موضع؛ وألا يحيل في موضع على موضع؛ بل يتخير اللفظ المحدد؛ ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص. إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر، وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب، أو فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك.

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذا الأحكام، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون الله – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا ان يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار!.. يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة؛ ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة!

إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو...

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل الله».. جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله.. جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد.. ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وأنه ليس جهاداً لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله. إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد! وليس جهاداً لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد! وليس جهاداً لإقامة مملكة لعبد، وإنما هو جهاد لإقامة مملكة الله في الأرض.. ومن ثم ينبغي له أن يطلق في «الأرض» كلها، لتحرير «الإنسان» كله. بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها.. فكلها «أرض» يسكنها «الإنسان» وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد!

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعاً أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم.. إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلاً لا تستساغ!.. لولا أن الأمر ليس كذلك. وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية. فليس لواحد منها أن يقول: إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعاً من ذلة العبودية للعباد؛ ويرفع البشر جميعاً إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك!

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوماً صليبياً منظماً لئيماً ماكراً خبيثاً يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد!

والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة.. لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.. إن الإسلام يقوم على قاعدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾

ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهداً؛ ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾؟.. إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد.. بل لأمر مناقض تماماً للإكراه على العقيدة.. إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد؛.. لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الإرض» من العبودية للعباد؛ يواجه دائماً طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد. ويواجه دائماً أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد؛ تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور؛ وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل.. وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله.. ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة، ويدمر هذه القوى التي تحميها.. ثم ماذا؟.. ثم يترك الناس - بعد ذلك - أحراراً حقاً في اختيار العقيدة التي يريدونها. إن شاءوا دخلوا في الإسلام، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وكانوا إخواناً في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية، إعلاناً عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة؛ ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فرداً على تغيير عقيدته؛ كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوباً بأسرها - كشعب الأندلس قديماً وشعب زنجبار حديثاً - لتكرههم على التنصر. وأحياناً لا تقبل منهم حتى التنصر، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون.. وأحياناً لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية.. وقد ذهب مثلاً اثناء عشر ألفاً من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذا أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط، أو من الآب والابن معاً! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية.. إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية!

وأخيراً فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحياً في هذا الزمان وتتعاظمهم؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر.. وهو يهول فعلاً!.. فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين، وهم شعوب مغلوبة على أمرها؛ أو قليلة الحيلة عموماً! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعاً بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! إنه لأمر لا يتصور عقلاً.. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلاً.

ولكن فات هؤلاء جميعاً أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين، ونظمت على أساسه. وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله بيعة صدق، فنصرها الله يوماً بعد يوم، وغزوة بعد غزوة، ومرحلة بعد مرحلة.. وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمداً -ﷺ- ليدعو الناس - في جاهليتهم - إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فجاهد والقلة التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة. وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة.. وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول.. ثم يصلوا - يوم أن يصلوا - إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله.. ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء؛ والذي تتقاسمة الرايات القومية والجنسية والعنصرية. ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية: لا إله إلا الله. ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعاراً، ولا تتخذ لها مذهباً ولا منهجاً من صنع العبيد في الأرض؛ إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين، وهم في مثل ما هم فيه من الهزال! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين، الذين يتعاملون مع الكتب

والأوراق الباردة! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق. وحفظ ما في متون الكتب. والتعامل مع النصوص في غير حركة، لا يؤهل لفقه هذا الدين، ولم يكن مؤهلاً له في يوم من الأيام!

وأخيراً فإن الظروف التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾..

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم.. وهم أهل كتاب.. ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملي، بما في عقيدتهم من انحراف، وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد.. وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب، المنحرفين عن كتابهم، المتحكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم!.. وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه، في أي زمان وفي أي مكان!

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة، وعقب على هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾..

ولهذا التعقيب دلالته.. فالتقوى هنا.. التقوى التي يحب الله أهلها.. هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار؛ وتقاتلهم في ﴿غِلْظَةً﴾ أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع.. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعاً أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب!

إنه قتال يسبقه إعلان، وتخيير بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال.. ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد - في حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية؛ ولا عهد في غير هذه

الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها).

وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله ﷺ:

- عن بريدة – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله – ﷺ- إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: **«اغزوا باسم الله، في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً. فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. وإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم..»**.. (أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي).
- وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: **«وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله -ﷺ- فنهى رسول الله -ﷺ- عن قتل النساء والصبيان»**.. (أخرجه الشيخان).

وأرسل النبي – ﷺ- معاذ بن جبل -رضي الله عنه- إلى أهل اليمن معلماً فكانت وصيته له:

«إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم، فإنه

ليس بينها وبين الله حجاب».

وأخرج أبو داود - بإسناده - عن رجل من جهينة. أن رسول الله - ﷺ - قال: **«لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم، فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك، فإنه لا يصلح لكم».**

وعن العرباض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين. وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً. فأقبل إلى النبي - ﷺ - فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول الله - ﷺ - وقال: **«يا ابن عوف اركب فرسك، ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة »** فاجتمعوا. ثم صلى بهم، ثم قام فقال: **«أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن! ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر. وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذي عليهم».**

ورفع إليه - ﷺ - بعد إحدى المواقع أن صبية قتلوا بين الصفوف، فحزن حزناً شديداً، فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين؛ فغضب النبي - ﷺ -؛ وقال - ما معناه - إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين. فإياكم وقتل الأولاد. إياكم وقتل الأولاد.

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:

روى مالك عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال: «**ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً».**

وقال زيد بن وهب: أتانا كتاب عمر - رضي الله عنه - وفيه: **«لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، واتقوا الله في الفلاحين».**

ومن وصاياه! **«ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى**

الزحفان، وعند شن الغارات».

وهكذا تتواتر الأخبار الخط العام الواضع لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعداءه، وفي آدابه الرفيعة، وفي الرعاية لكرامة الإنسان. وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه. أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة؛ وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، غير المحاربين أصلاً؛ وليست تمثيلاً بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان. وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين، ولاحترام بشرية المحاربين. إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة؛ وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالحرمة والرأفة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب، بقدر ما تقتضي حالة الحرب، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.

....

المعاني المفردة[1]

يَلُونَكُم: يقربون منكم.

غِلْظَةً: الغِلظة بالكسر الشدة العظيمة. والغلظة ضد الرقة، وهي الشدة في إحلال النقمة، والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر والمنع عن القبيح.

الإعراب[1]

(١) الكشاف. ومفاتيح الغيب. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

– **قاتلوا**: فعل أمر وفاعل. «**الذين**» مفعول به وجملة **يلونكم**: صفة. «**من الكفار**» حال. «**وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**» **الواو** عاطفة واللام **لام الأمر**. «**يجدوا**» فعل مضارع مجزوم بلام الأمر و**الواو**: فاعل. «**فيكم**» جار ومجرور متعلقان بيجدوا. «**غلظة**» مفعول به. «**واعلموا**» عطف على الأمر السابق. **وان** وما في حيزها سدت مسد مفعولي اعلموا. «**أن واسمها ومع المتقين**»: ظرف متعلق بمحذوف خبرها.

– **(يَلُونَكُم)** فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف، أصله يليونكم بضمّ الياء الثانية، استثقلت الضمّة على الياء فسكنت ونقلت الحركة إلى اللام.. ولّما التقى ساكنان الياء والواو حذفت الياء فأصبح يلونكم، وفيه إعلال بالحذف أيضا لأن ماضيه لفيف مفروق تحذف فاؤه في المضارع وهي الواو فالوزن يعونكم. **(غِلْظَةً)** مصدر سماعيّ لفعل غلظ يغلظ من أبواب نصر وضرب وكرم.. وزنه فعلة بكسر الفاء، وثمّة مصادر أخرى بضمّ الفاء وفتحها، وغلظ بكسر الغين وغلاظة بكسر الغين.

المناسبة في السياق[٢]

قال البقاعى: ولما علمت المقاصد وتهيأت القلوب لقبول الفوائد، وأمر بالإنذار بالفقه، وكان من الناس من لا يرجع إلا بشديد البأس، أقبل على الكل مخاطباً لهم بأدنى أسنان القلوب ليتوجه إلى الأدنى ويتناول الأعلى منه من باب الأولى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه حـ ٤ صـ ١٥٠ ـ ١٩٩. الجدول في إعراب القرآن.

(٢) نظم الدرر جـ ٣ صـ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

النداء السادس والخمسون

وافعلوا الخير

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

بين يدي النداء

إن من الفهم القاصر للإسلام أن نعتبر أعمال البر من المستحبات التي يثاب المرء على فعلها ولا يعاقب على تركها وليس من الواجبات التي يُسأل المرء عنها يوم القيامة، فأحاديث الرسول ﷺ العديدة ربطت ما بين قضايا وسلوكيات وأعمال البر بالإيمان مباشرة، يقول ﷺ «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**[1]».

إن حقيقة الإيمان عندما تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح. فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً. وهذا ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون]. إنها تبدأ بالاستفهام الذي يجذب الأنظار لتتوجه بالإجابه على سؤال من هذا الذي يكذب بالدين؟.. وإذا الجواب ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون].

إن المسلم العاقل هو الذي يبحث عن أسرع الطرق إلى الجنة، وعن أكثر الأعمال ثواباً فيؤديها. ولعل من أكثر الأعمال ثواباً هي أعمال البر؛ فالرسول ﷺ يقول: «**السَّاعِي**

---

(١) حديث 6087 – الأدب – صحيح البخارى.

عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[١]

ويقول أيضاً: «**مَنْ أَدْخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُرُورًا لَمْ يَرْضَ لَهُ اللهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ**»[٢].

والرسول ﷺ ضرب لنا أروع الأمثلة في سعيه على الفقراء والمساكين فقد جاء في وصفه ﷺ: «**يُكْثِرُ الذِّكْرَ وَيُقِلُّ اللَّغْوَ وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ وَيُقْصِرُ الْخُطْبَةَ وَلَا يَأْنَفُ وَلَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُمَا حَاجَتَهُمَا**»[٣].

أما الصحابة فقد كان اتصالهم بالعمل الخيرى دائماً لا ينقطع طوال يومهم وظلت روح التكافل فى الأمة الاسلامية مستمرة حتى ظهر نظام الوقف الذى لعب دوراً كبيراً فى تدعيم قوة الأمة حيث أنشأت أوقافاً للعلم وللمساجد والمرضى .

فقد حرص ﷺ على تربية صحابته الكرام على هذه القيم السامية ففي ذات يوم قال ﷺ لصحابته الكرام: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا** ». **قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه أَنَا. قَالَ «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه أَنَا. قَالَ «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه أَنَا. قَالَ «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- «مَا اجْتَمَعْنَ فِى امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**[٤].

هداية وتدبر[٥]

1. يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ارْكَعُوا لله في صلاتكم وَاسْجُدُوا له فيها،

---

(١) حديث 5407 - النفقات - صحيح البخارى.

(٢) حديث ٩١٠ - الْمُعْجَمُ الصَّغِيْرُ لِلطَّبَرَانِيِّ.

(٣) حديث ١٥- مسند الصحابة في الكتب التسعة - مسند عبد الرحمن بن صخر(أبي هريرة).

(٤) حديث ٢٤٢١ - باب من جمع الصدقة وأعمال البر - كتاب الزكاة - صحيح مسلم.

(٥) جامع البيان. الكشاف. فتح القدير. تيسير التفسير/ اطفيش. خواطر محمد متولي الشعراوي. النهر الماد/ الأندلسي. التفسير المنير.

وقيل: كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود. وقيل: المراد الأمر بالخضوع لله. وذكر من الصلاة الركوع والسجود؛ وذلوا لربكم، واخضعوا له بالطاعة، واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله. ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ الذي أمركم ربكم بفعله. عن ابن عباس صلة الأرحام ومكارم الأخلاق. لتفلحوا بذلك، فتدركوا به طَلِباتكم عند ربكم.

2. دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، وخصّ الصلاة لكونها أشرف العبادات، ولأنهما أظهر أعمال الصلاة، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحجّ والغزو، ثم عمّ بالحثّ على سائر الخيرات.
3. الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس، فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات.
4. الفلاَح يكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل الخير، فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أيِّ مجتمع يتحرك أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وعندها لن ترى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة.. الخ، هذا الفلاح في الدنيا، ثم يأتي زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة.
5. قال ﷺ: **«الْعَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**[1]. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.
6. لطيفة: لعل أداة للترجي، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض، فمثلاً حين تقول:

---

(١) حديث 2830 – الإيمان – سنن الترمذى. قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب.

لعل فلاناً يعطيك، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه، فإنْ قلت: لعلّي أعطيك. فالرجاء - إذن - في يدك، فهذه أرجى من سابقتها، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين، وربما أعطيك أو لا، إنما حين تقول: لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله، فهذه أرجى من سابقتها، فإذا قال الله تعالى بذاته: لعلي أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب.

7. أمروا أولاً بالصلاة وهي نوع من العبادة. وثانياً بالعبادة وهي نوع من فعل الخير. وثالثاً بفعل الخير وهو أعم من العبادة فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم.
8. ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا مجاز مرسل، من إطلاق الجزء على الكل، أي صلوا باعتبار الركوع والسجود من أهم أركان الصلاة.

....

المعاني المفردة(١)

«وَاعْبُدُوا» العبادة: ما أمر الله النّاس أن يتعبدوا به مثل الصيام والحج.

«الْخَيْرَ» كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف.

«لَعَلَّكُمْ» لعل كلمة للترجية فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتي به هل هو مقبول عند الله تعالى، والعواقب أيضاً مستورة «وكل ميسر لما خلق له».

«تُفْلِحُونَ» الفلاح الظفر بنعيم الآخرة. والظفر بالمطلوب.

---

(١) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير/ الرازي. التحرير والتنوير/ ابن عاشور. خواطر محمد متولي الشعراوي.

الإعراب والصرف[1]

- «**اركعوا**» فعل أمر مبني على حذف النون «**الواو**» فاعل. «**واسجدوا**» عطف على اركعوا واعبدوا ربكم عطف أيضاً. «**وافعلوا الخير**» عطف على ما تقدم. وجملة «**لعلكم تفلحون**» حال من الواو في اركعوا وما عطف عليه أي افعلوا هذه الأمور حال كونكم راجين الفلاح.

- **(جهاد)** مصدر سماعيّ لفعل جاهد الرباعيّ، وزنه فعال بكسر الفاء، أمّا المصدر القياسيّ فهو مجاهدة وزنه مفاعلة بفتح الفاء وفتح العين. **(سمّاكم)** فيه إعلال بالقلب أصله سمّيكم، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا وزنه فعّلكم.

المناسبة[2]

قال البقاعى: ولما أثبت سبحانه أن الملك والأمر له وحده، وأنه قد أحكم شرعه، وحفظ رسله، وأنه يمكن لمن يشاء أيّ دين شاء، وختم ذلك بما يصلح للترغيب والترهيب، وكانت العادة جارية بأن الملك إذا برزت أوامره وانبثت دعاته، أقبل إليه مقبلون، خاطب المقبلين إلى دينه، وهم الخلص من الناس، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش. الجدول في إعراب القرآن.

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ/ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش.

النداء السابع والخمسون

التحذير من آثار قصة الإفك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١].

بين يدي النداء

يحكى أن عابداً في صومعته كان بجواره رجلان لهما أخت، فسافرا لأمر، وتركا أختهما في حراسة العابد، فكان كل يوم يضع لها الطعام أمام باب الصومعة لتأخذه فوسوس له الشيطان أن يضع الطعام على باب بيتها بحجة أنها لا تتجشم مشقة التعب والحضور إليه، ثم انتقل إلى خطوة أخرى، وهي أن يزيدها إكراماً فيطلبها لتأخذ الطعام، ثم انتقل إلى خطوة ثالثة ورأى من وسوسة الشيطان أن المرأة في طول مقامها منفردة تلقى مشقة وتعباً فقد يكون من الخير لها أن تجلس معه ليسري عنها بالتحدث إليه فترة وجيزة ففعل، وهنا ينطبق الحديث «ما اجتمع رجل بامرأة إلا وكان الشّيطان ثالثهما»، فلما اجتمعا وقعا في التهلكة، لأن العابد مهما كان فهو رجل، والمرأة مهما كانت فهي أنثى، وفيهما الغريزة الجنسية! فأنت ترى أن الشيطان جاءهما من طريق مؤثر، وهو في الظاهر خير، فحقّاً لا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه للإنسان عدو مبين.

أبعد هذا يتوانى المسلمون في فهم الحقائق البشرية، وتطبيق قواعد الدين ؟! ومن العجب أن ينادى بعض المسلمين بالاختلاط بين الجنسين، ويجره الشيطان إلى هذا بحجة أن الاختلاط يمنع الوقوع في المعصية، وما علم أن الطبيعة البشرية أقوى، ولا يعدلها و يخفف من حدتها، ويوجهها إلى الوجهة العليا إلا الخوف من اللّه، وتلاوة القرآن ومدارسة الحديث، ومجالسة العلماء، والانضمام إلى الجمعيات الدينية حتى يشغل فراغه

ويصرف وقته في النافع، وإن أساس الوقوع في المعصية هو الشباب والفراغ والمال فإذا أمكننا صرف الشباب إلى الوجهة النافعة، وشغل وقتهم وفراغهم بالهوايات الصالحة النافعة كالرياضة البدنية وغيرها توصلنا بهذا إلى التقليل من وقوع الجرائم الجنسية. والنبي ﷺ قد عالج هذا الموضوع بقوله «**يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة - أى: النكاح - فليتزوّج وإلاّ فعليه بالصّوم فإنّه له وجاء**». ولا شك أن في الصوم جنة، ورياضة روحية، وإضعافا للقوة الجسمية.

هداية وتدبر[1]

١. يا أيها المؤمنون المصدّقون باللّه ورسوله لا تسيروا في طرائق الشيطان ومسالكه، ولا تسمعوا لوساوسه وتأثيراته وما يأمر به، في الإصغاء إلى الإفك والتلقي له، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فإن من يتبع وساوس الشيطان ويقتفي آثاره خاب وخسر لأنه- أي الشيطان- لا يأمر إلا بما أفرط قبحه وما أنكره الشرع وحرمه وقبّحه العقل ونفّر منه، فلا يصح لمؤمن طاعته، وهذا تنفير وتحذير صريح.

٢. إنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية، وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه. وهو نموذج منفر شنيع. وإن الإنسان لضعيف، معرض للنزعات، عرضة للتلوث. إلا أن يدركه فضل الله ورحمته. حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه.

٣. وحكمة تخصيص المؤمنين بالذكر هي أن يتشددوا في ترك المعصية، لئلا يتشبهوا بحال أهل الإفك.

---

(١) وانظر: التفسير المنير. تفسير الشعراوي. زهرة التفاسير. صفوة التفاسير. الهداية إلى بلوغ النهاية. التفسير الواضح. في ظلال القرآن.

٤. كأن الشيطان له خطوات متعددة ليست خطوة واحدة، فإنْ وسوس لك من جهة، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً في هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى، وزيّن لك من باب آخر، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقِعك، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف في تكوينه، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة.

٥. والشيطان يوسوس للنفوس الضعيفة، ويزين لها الوقوع في المعاصي، عن طريق التدرج خطوة فخطوة حتى يتم له ما أراد، وإن خطوات الشيطان تكون فيما نحقر من أعمالنا «ولكنها تجرنا إلى المهالك». فأعظم حادثة أو أكبر فاحشة لا تقع دفعة واحدة، ولكن لها خطوات يضعها الشيطان حتى يتم له ما أراد. نظرة ... فكلام ... فموعد ... فلقاء.. فوقوع في المهالك ... وهكذا.

٦. ذكر سبحانه العواقب الوخيمة التى تترتب على ترداد الإفك على ألسنة الناس؛ فإنه يترتب عليه فساد أمر المؤمنين وتشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وفى هذه الآية يشير إلى أنه من وسوسة الشيطان، ومن اتباع مسالكه، ونهى المؤمنين عن ذلك صيانة لأنفسهم، ولعقولهم.

٧. **قال ابن عباس:** ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير ينفع به نفسه، ولم يتق شيئاً من الشر يدفعه عن نفسه. وقال ابن زيد: «ما زكى» ما أسلم، قال: وكل شيء في القرآن زكى وتزكى فهو الإسلام.

٨. للّه تعالى وحده الفضل في تزكية المؤمنين وتطهيرهم وهدايتهم، لا بأعمالهم.

٩. الاستعارة اللطيفة ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ شبه سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه، بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة البديعة.

١٠. جواب **(مَنْ)** الشرطية هنا حُذِف لأنه يُفهم من السياق، ودَلَّ عليه بذكر عِلَّته والمسبّب لَه، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب: مَنْ يتبع خطوات الشيطان يُذِقْه ربه عذاب السعير؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، فَمَنْ يتبع خطواته، فليس له إلا العذاب، فقام المسبّب مقام جواب الشرط.

* **فيا أيها المسلمون:** لولا فضل اللّه عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا وكيف يسير الإنسان على الصراط المستقيم، وهو بين قائد ضال ودافع أضل؟ ولكن اللّه يزكى من يشاء، ويهدى إليه من ينيب، واللّه سميع عليم، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون. أليس في هذا خير لنا وهداية؟ نسأله التوفيق والسداد.

....

المعاني المفردة(١)

تَتَّبِعُوا: تسلكوا.

خُطُوَاتِ: الخطوات جمع خطوة وهي ما بين القدمين والخَطوة بالفتح المصدر. تزيين. طرق وأوامر ومسالك وآثار.

الشَّيْطَانِ: هو المتمرد العاصي من الجن، فالجن مقابل الإنس، فمنهم الطائع والعاصي، والعاصي منهم هو الشيطان، وعلى قِمتهم إبليس.

بِالْفَحْشَاء: بالقبائح من الأفعال. ما أفرط قبحه.

وَالْمُنكَرِ: ما ينكره الشرع ويكرهه الله، وتنفر منه العقول السليمة.

زَكَا: تطهر.

---

(١) صفوة التفاسير ـ للصابونى. مختصر تفسير البغوي. تفسير الشعراوي.

الإعراب والصرف[1]

- جملة «**لا تتبعوا**» جواب النداء مستأنفة، «**مَن**» شرطية مبتدأ، وجملة «**يتبع**» خبره، جملة «**ولولا فضل الله**» مستأنفة، وجملة «**ما زكا منكم**» جواب الشرط، الجار «**منكم**» متعلق بحال من «**أحد**»، و«**أحد**» فاعل، و«**من**» زائدة، «**أبدا**» ظرف زمان متعلق بـ «**زكا**»، جملة «**ولكن الله يزكي**» معطوفة على جملة «**ولولا فضل**».

- **(زكى)** رسم في المصحف بالياء غير المنقوطة وكان حقّه أن يرسم بالألف الطويلة زكا، لأنّ المضارع يزكو، وفيه إعلال، تحرّك حرف العلّة لام الفعل بعد فتح قلب ألفا.

المناسبة في السياق[2]

لما ذكر تعالى حادثة الإفك، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد.

القراءات[3]

«**خُطُوَاتِ**» ضم الطاء حفص وقنبل والشامي والكسائي، وأبو جعفر ويعقوب، حجتهم أن أصل فعلة إذا جمعت أن تحرك العين بحركة الفاء هذا المستعمل في العربية مثل ظلمة وظلمات وحجرة وحجرات وقربة وقربات وخطوة وخطوات وقالوا ولم تستثقل العرب ضمة العين قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. وأسكنها غيرهم «**خُطْوَاتِ**» وحجتهم أنهم استثقلوا الضمتين بعدهما واو في كلمة واحدة فسكنوا الطاء طلبا للتخفيف.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش.

(٢) صفوة التفاسير ـ للصابونى.

(٣) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة. حجة القراءات – ابن زنجلة.

النداء الثامن والخمسون

أدب الاستئذان على البيوت

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

بين يدي النداء

[لقد جعل الله البيوت سكناً يأوي إليها أهلها، تطمئن فيها نفوسهم، ويأمنون على حرماتهم، يستترون بها مما يؤذي الأعراض والنفوس، يتخففون فيها من أعباء الحرص والحذر. وإن ذلك لا يتحقق على وجهه إلا حين تكون محترمة في حرمتها، لا يستباح حماها إلا بإذن أهلها. في الأوقات التي يريدون، وعلى الأحوال التي يشتهون. إن اقتحام البيوت من غير استئذان؛ هتك لتلك الحرمات، وتطلع على العورات، وقد يفضي إلى ما يثير الفتن، أو يهيئ الفرص لغوايات تنشأ من نظرات عابرة.. تتبعها نظرات مريبة.. تنقلب إلى علاقات آثمة، واستطالات محرمة.

وفي الاستئذان وآدابه ما يدفع هاجس الريبة، والمقاصد السيئة. إن كل امرئ في بيته قد يكون على حالة خاصة، أو أحاديث سرية، أو شؤون بيتية، فيفجؤه داخل من غير إذن قريباً كان أو غريباً، وصاحب البيت مستغرق في حديثه، أو مطرق في تفكيره، فيزعجه هذا أو يخجله، فينكسر نظره حياءً، ويتغيظ سخطاً وتبرماً.

ولقد يقصِّر في أدب الاستئذان بعض الأجلاف ممن لا يهمه إلا قضاء حاجته، وتعجُّل مراده، بينما يكون دخوله محرجاً للمزور مثقلاً عليه. وما كانت آداب الاستئذان وأحكامه إلا من أجل ألا يفرِّط الناس فيه أو في بعضه، معتمدين على اختلاف مراتبهم في الاحتشام والأنفة، أو معولين على أوهامهم في عدم المؤاخذة، أو رفع الكلفة.

إن التفاصيل الدقيقة في آداب الاستئذان تؤكد فيما تؤكد حرمة البيوت، ولزوم

حفظ أهلها من حرج المفاجآت، وضيق المباغتات، والمحافظة على ستر العورات. عورات كثيرة تعني كل ما لا يُرغب الاطلاع عليه من أحوال البدن، وصنوف الطعام واللباس وسائر المتاع، بل حتى عورات المشاعر والحالات النفسية، حالات الخلاف الأسري، حالات البكاء والغضب والتوجع والأنين. كل ذلك مما لا يرغب الاطلاع عليه لا من الغريب ولا من القريب، إنها دقائق يحفظها ويسترها أدب الاستئذان. فهل يدرك هذا أبناء الإسلام؟!] (١)

هداية وتدبر(٢)

١. هذه من الآداب الاجتماعية الشرعية ذات مدلول حضاري، وتمدن رفيع لما فيها من تنظيم لحياة المجتمع وأحوال الأسر في البيوتات، حفظاً لروابط الود والمحبة، وإبقاء على حسن العشرة وتبادل الزيارات بين المؤمنين. والساحة الإسلامية ملأى بالآداب والأخلاق الرفيعة ذات المعاني الحضارية السامية، والمقومات الأساسية لبناء المجتمع الفاضل، والقصد من تشريع هذه الآداب صون قاعدة الحرية، والاحتفاظ بالأسرار الشخصية، والترفع عن المباذل والدناءات وسفساف الأمور، ووضع الحواجز والموانع التي تمس العورات والأعراض، وتتعلق بخصوصيات الإنسان.

٢. المراد بالسلام هنا: سلام الاستئذان لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، ومن المعلوم أن الاستئناس بعد السلام، فالواو لا تقتضي الترتيب، على ذلك.

٣. يكره للمستأذن أن يقول: أنا، إذا سئل: من أنت؟ ففي الصحيح: أن جابراً أتى إلى النبي ﷺ يستأذن عليه، فقال النبي: **«من؟ قال: أنا، قال النبي ﷺ: أنا أنا!! كأنه**

---

(١) في ظلال القرآن – بتصرف –.

(٢) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. محاسن التأويل/ محمد جمال الدين القاسمي. التفسير المنير/ الزحيلي. مفاتيح الغيب/ فخر الدين الرازي. التحرير والتنوير.

كرهها عليه الصلاة والسلام». فيكره أن تقول: أنا، وليست الكراهية على الإطلاق، إنما هي في باب الاستئذان، بل قل: أنا فلان.

٤. إذا وجدت في البيت امرأةً بمفردها، وقالت لك: ادخل، وأنت وحدك؛ فلا يشرع لك الدخول؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء! قال قائل: أفرأيت الحمو يا رسول الله؟! -أي: قريب الزوج- قال: الحمو الموت»**. أما إذا أتيت أنت وزوجك إلى رجلٍ في بيته، فلم تجدا في البيت إلا امرأته، وأذنت لكما بالدخول، فتدخل أنت وزوجك، وتجلس زوجك معها، وأنت تنتظر داخل البيت في مكان آمن. وإذا كان مجموعة رجال، والفتنة مأمونة، والبيت به امرأة واحدة، وأذنت بالدخول برضا زوجها بذلك؛ جاز لهم الدخول، قال النبي ﷺ: «**ألا لا يلجن رجلٌ على مغيبة بعد يومي هذا، إلا ومعه الرجل أو الرجلان والثلاثة»**، والنبي ﷺ دخل هو وأبو بكر وعمر بيت أبي التيهان الأنصاري رضي الله عنه في غيابه، لما أذنت لهم المرأة، وهذا محله عند أمن الفتنة، والله لا يحب الفساد.

٥. قال الزمخشري: وذلك لأن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الداخل على عورة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها، ولأنه تصرف في ملك غيرك. فلا بد من أن يكون برضاه، وإلا أشبه الغصب والتغلب.

٦. لا فرق في وجوب الاستئذان وتحريم الدخول بغير إذن بين أن يكون الباب مغلقا أو مفتوحا. ويجوز الإذن من الصغير والكبير، وقد كان أنس بن مالك يستأذن على رسول اللّه ﷺ، وكذلك الصحابة مع أبنائهم وغلمانهم رضي اللّه عنهم.

٧. والاستئذان حقٌّ على كل داخل من قريب و بعيد من الرجل والمرأة، ومن الأعمى والبصير.

عن عطاء بن يسار «**أن رسول الله سأله رجل فقال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، قال الرجل: إني معها في البيت؟ فقال رسول الله: استأذن عليها.**

فقال الرجل: إني خادمها. فقال له رسول الله: استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟، قال: لا. قال: فاستأذن عليها» [رواه مالك بإسناد جيد].

لطائف

١. كلمة بيت: نفهم منها أنه ما أعِدّ للبيتوتة، حيث يأوي إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم، ويُسمَّى أيضاً الدار؛ لأنها تدور على مكان خاص بك؛ لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن، يقولون: بيت من بابه. حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد، وكان السَّكَن بهذه الطريقة عِصْمةً من الريبة؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد.

٢. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

٣. والاستئذان يكون بالسلام، أو بقرع الباب، أو النداء لمن في البيت، أو التسبيح والتحميد أو صريح الاستئذان وغير ذلك.

٤. حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب فإن واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد ولا يغرنَّه قول الناس: إذا استوى الحب سقط الأدب.

....

المعاني المفردة[1]

تَسْتَأْنِسُوا: الاستئناس: الاستئذان بلطف. والاستئذان الاستعلام تقول آذنته بكذا أي أعلمته وآنست منه كذا أي علمت منه. تستعلموا وتستكشفوا الحال . وقيل من الأُنْس والاطمئنان.

سبب النزول[2]

أن امرأة من الانصار جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إني اكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد فلا يزال يدخل علي رجل من اهلي فنزلت هذه الآية فقال ابو بكر بعد نزولها يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن التي ليس فيها ساكن فنزل قوله ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة الآية..

الإعراب والبلاغة[3]

-**«غير»** نعت، والمصدر المؤول **«أن تستأنسوا»** مجرور متعلق بـ **«تدخلوا»**، وجملة **«ذلكم خير»** مستأنفة، الجار **«لكم»** متعلق بـ **«خير»، وجملة «لعلكم تذكّرون»** مستأنفة، وجملة **«تَذَكَّرون»** خبر لعل.

- الكناية: في قوله تعالى **«حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا»**. **«تستأنسوا»** فيه وجهان: أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس، فالمعنى حتى يؤذن لكم، كقوله **«لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ»**. هذا من باب الكناية والإرداف، لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن، فوضع موضع الإذن

---

(١) زاد المسير – ابن الجوزي. محاسن التأويل/ محمد جمال الدين القاسمي. تفسير الشعراوي.

(٢) زاد المسير – ابن الجوزي.

(٣) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

والثاني: أن يكون الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا.

المناسبة في السياق[1]

لما حذر تعالى من قذف المحصنات، وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الإتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات، أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت، فأمر بالإستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده.

القراءات[2]

﴿بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ورش ويعقوب حفص، بضم الباء في الكلمتين وإظهار التنوين قبل الغين وبتفخيم الراء وإسكان الميم. **﴿بِيُوتاً غَيْرَ بِيُوتِكُمْ﴾** ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وقالون وشعبة بضم الباء في الكلمتين وإظهار التنوين قبل الغين وبتفخيم الراء وإسكان الميم.

(١) صفوة التفاسير ـ للصابونى.

(٢) البدور الزاهرة.

النداء التاسع والخمسون

ثلاث عورات لكم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٨].

بين يدي النداء

إن الإسلام منهاج حياة كامل؛ فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها. ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة؛ وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية.

إن بعض الناس قد تهاونوا بهذا الأدب مع أولادهم بدافع الدلال المفرط أو عدم المبالاة؛ فنجد أن بعض الناس يكون أولاده مدركين، ثم لا يأمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة، بل إن البعض قد زاد هذا الأمر بجمعه معهم في مضجع واحد، وظنوا أنه من مصلحتهم، ولكنهم مخطئون؛ فهم يدركون ما يرون، وربما وقعت أنظارهم على عورات أهليهم أو غيرها، وربما بدأ الشعور الجنسي عندهم مبكراً، ثم يشغل بالهم ما رأوه.

وقد ينتبه لهم الأبوان بعد هذه الحال، فيعزلونهم، ولكنهم لا يفرقون بين الذكور والإناث في المضاجع؛ فقد يقع فساد كبير، وفي ذلك الأدب حفظ لهم ولسلامة فطرهم.

هداية وتدبر[1]

١. الاستئذان أدب رفيع يدل على حياء صاحبه وشهامته وتربيته وعفته ونزاهة نفسه وتكريمها عن رؤية ما لا يجب أن يراه عليه الناس، أو سماع حديث لا يحل له أن يسترقه دون معرفة المتحدثين، أو الدخول على قوم وإيقاعهم بالمفاجأة والإحراج، ومع تقدم الحضارة وصناعة البيوت المقفلة والأبواب المحكمة فما زال هناك من يدخل دون سلام، أو يغشى غرفة غيره أو يقتحم مجلساً دون إعلام واستئذان.

٢. شرع الله لنا آداب الاستئذان؛ لأن الإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً، ويكثر ظاهره للخاصة من أهله في أمور لا يُظهرها على الآخرين، إذن: فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة، وحرية المرء في أسرته أوسع من حريته في المجتمع العام، فإنْ كان في حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة. فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمي هذه الخصوصيات، وتُنظِّم علاقات الأفراد في الأسرة الواحدة، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة.

٣. يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، يجب أن تأمروا عبيدكم وإماءكم وصبيانكم الذين لم يصلوا إلى حد البلوغ ألا يدخلوا عليكم إلا بعد الاستئذان فى ثلاثة أوقات، وهى: قبل صلاة الفجر، وحين تتخففون من ثيابكم وقت القيلولة، ومن بعد صلاة العشاء عند الاستعداد للنوم. فهذه الأوقات يتغير فيها نظام اللبس باستبدال ثياب النوم بثياب اليقظة، ويبدو من عورات الجسم ما لا ينبغى رؤيته، ولا حرج عليكم ولا عليهم فى الدخول بغير استئذان فى غير هذه الأوقات، لأن العادة جرت بأن يتردد فيها بعضكم على بعض لقضاء المصالح.

٤. تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبويْن والأبناء، ثم

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري. المنتخب في تفسير القرآن الكريم / لجنة القرآن و السنة. خواطر محمد متولي الشعراوي. أحكام القرآن/ الكيا الهراسي.

الأتباع مثل الخدم وغيرهم، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُنشِّىءَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون.

٥. وهذا الأدب تكليف من الله تعالى لكل مؤمن داخل الأسرة، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور، فالمأمور بالاستئذان هم مِلْك اليمين والأطفال الصغار، فأمر الله الكبارَ أن يُعلِّموا الصغار، كما ورد في الحديث الشريف: **(مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر)**.

٦. **وإنما** خص الله تعالى في هذه الأوقات، لأنها في الغالب يخلو فيها المرء بأهله، ولذلك قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾، فنبه به على أنها أوقات تكشف العورة فيها وفي مثلها، لا يجوز لمن ليس ببالغ أن يدخل ويهجم.

٧. يشمل الأمر بالاستئذان النساء كما يشمل الرجال، لأنه شرع لئلا يطلع أحد على أحد على ما يطوي الناس في بيوتهم مما لا يحبون أن يطلع عليه أحد، إلى جانب عدم النظر الى ما لا يحل له أن ينظر إليه.

٨. عن أم أياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة رضى الله عنها فقلت: ندخل؟ فقالت: لا، فقالت واحدة: السلام عليكم أندخل؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها.

٩. لطيفة: انظر إلى هذا التحفّظ الذي يوفره لك ربك ـ عز وجل ـ حتى لا تُقيِّد حريتك في أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة، وكأن هذه الأوقات مِلْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك، والاستئذان يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذِن. أما في بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة.

....

المعاني المفردة[1]

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ: العبيد والإِماء. هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير لأن الأجير يستطيع أن يتركك في أي وقت، أمَّا العبد فليس كذلك؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له، فالمملوكية راجحة في هؤلاء، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفْلت منه.

وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ: الصبيان ذكوراً وإناثاً. هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبْلَغ التكليف، ويقضون المصالح.

طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ: أي يمضون ويجيئون.

سبب النزول[2]

روي أن عمر بعث إليه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج وكان نائماً، فدق عليه الباب ودخل، فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء؛ فقال عمر وددت أن الله تعالى نهى أبناءنا ونساءنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد هذه الآية قد نزلت؛ فخر ساجداً لله. وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضي الله تعالى عنه للوحي.

---

(١) تفسير النهر الماد / الأندلسي. خواطر محمد متولي الشعراوي.

(٢) تفسير النهر الماد / الأندلسي. روح المعاني/ الالوسي.

الإعراب والصرف[١]

- «**الذين**» عطف بيان من المنادى، وجملة «**ليستأذنكم**» جواب النداء مستأنفة، وقوله «**والذين**»: اسم معطوف على الموصول المتقدم، الجار «**منكم**» متعلق بحال من الواو، «**ثلاث**» نائب مفعول مطلق، والجار «**من قبل**» متعلق بـ «**يستأذن**»، و«**حين**» ظرف زمان متعلق بـ «**يستأذن**»، والجار «**من بعد**» متعلق بـ «**يستأذن**»، وقوله «**ثلاث**»: خبر لمبتدأ محذوف أي: هي ثلاث، والجملة مستأنفة، الجار «**لكم**» متعلق بنعت لـ «**عورات**»، جملة «**ليس عليكم جناح**» نعت لـ «**ثلاث**»، «**بعدهن**» ظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلَّق به الخبر، «**طوّافون**» خبر لمبتدأ محذوف أي: هم، والجملة مستأنفة، الجار «**عليكم**» متعلق بـ «**طوافون**»، و«**بعضكم**» مبتدأ، والجار «**على بعض**» متعلق بالخبر، وجملة «**بعضكم على بعض**» بدل من جملة «**هم طوافون**»، الكاف في «**كذلك**» نائب مفعول مطلق، والتقدير: يبين الله تبييناً مثل ذلك التبيين، وجملة «**يبين**» مستأنفة، وكذا جملة «**والله عليم حكيم**».

- (**الحلم**) اسم للبلوغ أو مصدر من الثلاثيّ حلم يحلم باب نصر، وزنه فعل بضمّتين. (**الظهيرة**) اسم لوقت الظهر وانتصاف النهار، وزنه فعيلة بفتح الفاء. (**طوّافون**) جمع طوّاف، مبالغة اسم الفاعل من طاف يطوف وزنه فعّال..

المناسبة في السياق[٢]

قال البقاعي: لما ختمها بالتمكين لأهل هذا الدين، وتوهين أمر المعتدين، شرع في إكمالها، بإثبات بقية أحوالها، تأكيداً لما حكم به من التمكين، وما ختمه من ذلك من التوهين، وتحذيراً مما ختمه من العذاب المهين، وتحقيقاً لما ألزم به من الطاعة، ولزوم السنة والجماعة، فقال واصلاً بما ختم به الأحكام الأولى، من الأمر بإنكاح الأيامى، والكف عن إكراه البغايا، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الآية.

---

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

(٢) نظم الدرر حـ 5 صـ 281 ـ 283.

القراءات[1]

(ثَلاَثُ عَوْراتٍ) نافع ابن كثير أبو عمرو ابن عامر أبو جعفر يعقوب حفص برفع التاء، **(ثَلاَثَ عَوْراتٍ)** حمزة والكسائي وخلف وشعبة، بنصب الثاء جعلوه بدلاً من قوله ثلاث مرات و ثلاث مرات نصب على الظرف.

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية و الدرة.

النداء الستون

الأحزاب.. حرب مستمرة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

بين يدي النداء

تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله لله سبحانه، وقد سجل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائمًا لأن يُغزَوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور؛ لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص.

فما أشبه الليلة بالبارحة! لمن تأمل أحداث غزوة الأحزاب، وما جرى من أمور في الحرب على غزة العزة، وذلك بعد اثنين وعشرين يوماً من الاعتداء الغاشم عليها(١)، فوجدت أنّ التاريخ قد أعاد نفسه في جوانب عديدة، **فمن ذلك**:

أولاً: حفظ الله للمجاهدين في سبيله.

ثانياً: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾. اليهود هم اليهود، نقضة العهود، وذلك أمر مطرد لا انفكاك له عنهم..

ثالثاً: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾. ولهذا أوقدوا نار الحرب في الأحزاب وغيرها، فقتلوا في حربهم الآثمة على غزة أكثرَ من (١٣٠٨)، منهم (٤١٨) طفلاً، و(١١٠) امرأة، و(٨٨) مسناً، وفاق عدد الجرحى (5450) جريحاً، فأيُّ عداوةٍ

---

(١) بدأت الحرب على غزة يوم السبت ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

هذه؟.

رابعاً: الجهاد سبيل العزة والكرامة.

خامساً: تمايز الصفوف، وظهور المنافقين. وفي العدوان على غزة فاحت رائحة المنافقين تحقيقاً لقول رب العالمين: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾، فمن مقالاتهم: (الصواريخ العبثية)، (المقامة لو حتدمر شعبنا فلا نريد المقاومة)، (لو استجابت حماس لما حصل هذا)...

سادساً: ثمن النصر. الحق منصور، ولكن لابد أن يسبق بابتلاء وتمحيص، سنة الله، ولن تجد لها تبديلاً. كما ابتلي المؤمنون في الأحزاب بما أخبر به ربنا في كتابه،كما ابتلوا بالخوف، والجوع، والبرد، وتخاذل اليهود، ابتلي المجاهدون بغزة، دماء أُريقت، وأنفس أُزهقت، وبيوت هدمت، ومساجد قصفت، دمار في كل مكان، ولكن لابد للكرامة من ثمن.

هداية وتدبر[١]

١. يا أيها المصدقون بالله ورسوله، اذكروا بالشكر والحمد نعمة اللّه التي أنعم بها عليكم، حين وقعتم في حصار جنود وحشود هائلة من قريش وغطفان واليهود وغيرهم، الذين جاؤوا لإبادتكم، فأرسلنا عليهم ريحا باردة في ليلة شاتية، وجنودا ملائكة لم تروها، أرعبتهم، فأكفأت القدور، وقلبت البيوت، وآثروا فك الحصار والنجاة، وكان اللّه مطلعا على جميع أعمالكم من حفر الخندق، والتعرض للشدائد، والاستعداد للقتال، واللّه يجازيكم عليها.
٢. بعد أن انتهت الحرب بين المسلمين والمشركين، قال رسول اللّه ﷺ: **«لا يغزونكم بعد هذا أبداً، ولكن أنتم تغزونهم»**[٢]. واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة،

(١) التفسير الوسيط/ د وهبة الزحيلي. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/ أبو بكر الجزائري.

(٢) 3253 الْمَغَازِى - فتح البارى، وقال: أخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر...

وقتل من المشركين أربعة.

٣. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - قَالَ **«نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»**[١].

الدبور: الريح الغربية. الصبا: الريح الشرقية.

٤. اختلف في السنة التي كان فيها غزوة الأحزاب فقال قوم كانت سنة خمس وقال آخرون كانت سنة أربع وكانت في شوال، وسميت بغزوة الأحزاب لتحزب المشركين على قتال الرسول والمؤمنين فصاروا حزباً واحداً.

٥. عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر فرأيته يرتجز بكلمات ابن رواحة يقول: **اللهم لولا أنت ما هدينا.. ولا تصدقنا ولا صلينا.. فأنزلن سكينة علينا.. وثبت الأقدام إن لاقينا.**[٢]

٦. أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عمرو المزني قال: خطّ رسول اللّه ﷺ الخندق عام الأحزاب، فأخرج اللّه من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة، فأخذ رسول اللّه ﷺ المِعول، فضربها ضربة، صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة٣، فكبّر، وكبّر المسلمون، ثم ضربها الثانية، فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبّر وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة، فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبّر، وكبّر المسلمون، فسئل عن ذلك، فقال: ضربت الأولى، فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم، ثم ضربت الثانية، فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة، فأضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.

……………………………………………

(١) حديث ١٠٤٣ - الاستسقاء - صحيح البخارى.

(٢) حديث ٢٨٧٤ - الجهاد - صحيح البخارى. وصحيح مسلم - حديث ٤٧٦٩ - كتاب الجهاد والسير - باب غزوة خيبر .

(٣) جانبي المدينة.

المعاني المفردة[1]

نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ: ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق.

جُنُودٌ: الجنود: قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير.

وَجُنُوداً: الملائكة.

سبب النزول[2]

أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب، ونحن صافون قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخاف على ذرارينا، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون، إذ استقبلنا النبي ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى علي، فقال: ائتني بخبر القوم، فجئت، فإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبراً، فواللّه، إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضربهم، وهم يقولون: الرحيل الرحيل، فجئت، فأخبرته خبر القوم، وأنزل اللّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ...﴾ الآية.

---

(١) توفيق الرحمن / فيصل بن عبد العزيز آل مبارك.

(٢) التفسير المنير/ الزحيلي.

الإعراب[1]

«اذْكُرُوا» أمر وفاعله و**«نِعْمَةَ اللَّهِ»** مفعول به مضاف إلى لفظ الجلالة **«عَلَيْكُمْ»** متعلقان بنعمة والجملة ابتدائية لا محل لها. **«إِذْ» ظرف زمان «جاءَتْكُمْ»** ماض ومفعوله **«جُنُودٌ»** فاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة. **«فَأَرْسَلْنا» ماض وفاعله «عَلَيْهِمْ»** متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها **«رِيحاً»** مفعول به **«وَجُنُوداً»** معطوف على ريحا. **«لَمْ تَرَوْها»** مضارع مجزوم بلم والواو فاعله وها مفعول به والجملة صفة جنود **«وَكانَ اللَّهُ»** الواو حرف استئناف وكان ولفظ الجلالة اسمها «بِما» متعلقان بالخبر بصيرا «تَعْمَلُونَ» مضارع وفاعله «بَصِيراً» خبر والجملة صلة وجملة كان اللّه .. مستأنفة لا محل لها.

المناسبة في السياق[2]

بعد أن أمر اللّه تعالى بالتقوى بحيث لا يبقى في نفس المؤمن خوف من أحد، ذكر مثالاً واقعياً من وقعة الأحزاب، حيث تجمع المشركون من قريش ومن عاونوهم من اليهود والأحباش عشرة آلاف حول المدينة بقصد القضاء على النبي وصحبه، فدفع اللّه القوم عن المؤمنين من غير قتال وآمنهم من الخوف، مما يدل على أنه لا يخاف العبد غير ربه، فإنه القادر سبحانه.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ/ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَمَّاش.

(٢) التفسير المنير/ الزحيلي.

النداء الحادي والستون

الذكر جلاء القلوب وصفاؤها

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

إن حياة القلب أولى بالاهتمام من حياة الجسد، ذلك لأن حياة القلب تؤهّل لعيش حياة طيبة طاهرة في الدنيا وسعادة أبديّة في الآخرة، بينما حياة الجسد حياة مؤقتة، سُرعان ما تزول وتنقضي، ولا سبيل لعلاج حياة القلب وزيادة الإيمان فيه إلا بالطاعات، فهي كلّها لازمة لحياة القلب كما يلزم الطعام والشراب لحياة الجسد، ومن أعظم ما يحتاجه قلب العبد من الأغذية النافعة ذكر الله عزّ وجل، فالذكر هو المنزلة الكبرى التي يتزوّد منها العارفون وفيها يُتاجرون وإليها دائماً يتردّدون، وهو قوت قلوبهم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وهو عمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سِلاحهم الذي يُقاتلون به قُطّاع الطريق، وهو دواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، وهو السبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب.

فبذكر الله تُدفع الآفات وتُكشف الكُرُبات وتهون المصيبات. كان السلف إذا أَظَلّهم البلاء فإلى ذكر الله ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مَفزعُهم، فهو رياض جنّتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتَّجِرون. الذكر يَجعل القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر إلى المذكور□أي إلى ربّه–، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي عبادة غير مؤقتة، بل يُؤمر العبد بذكر مَعبوده ومحبوبه في كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنبه.

ذكر الله عزّ وجل هو جلاء القلوب وصفاؤها ودواؤها إذا مرِضت، وكلما ازداد الذاكر في ذكره ازداد محبة إلى لقاء ربه. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عِوَضاً من كل شيء. به يزول الوقر عن الأسماع، والبَكم عن الألسنة، وبه تنقشع الظلمة عن الأبصار، فالذكر هو باب الله

الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يُغلقه العبد بغفلته. قال الحسن البصري رحمه الله: «تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذّكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مُغلق».

هداية وتدبر[1]

إن ذكر الله نعمة كبرى، ومنحة عظمى، به تستجلب النعم، وبمثله تستدفع النقم، وهو قوت القلوب، وقرة العيون، وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح. ما أشد حاجة العباد إليه، وما أعظم ضرورتهم إليه، لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال.

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله: **(ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم}** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **(ذكر الله عز وجل)**[رواه أحمد].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى، عن النبي قال: **(مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت).**

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا** ذكرني، **فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة».**

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، أي: كثيراً. ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

---

(١) انظر: الوابل الصيب/ لابن القيم.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل.

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء. فإذا ترك الذكر صدئ، فإذا ذكره جلاه.

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[**الكهف**: ٢٨].

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر، أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة، وأمره فرط، لم يقتد به، ولم يتبعه فإنه يقوده إلى الهلاك.

من فوائد الذكر

- يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.
- يرضي الرحمن عزوجل.
- يزيل الهم والغم عن القلب.
- يجلب للقلب الفرح والسرور.
- يقوي القلب والبدن.
- ينور الوجه والقلب.
- يجلب الرزق.
- يحط الخطايا.
- أنه سبب نزول السكينة.
- غراس الجنة.

بعض الأذكار

- **من استصعب عليه أمر:** «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً».
- **ما يقول ويفعل من أتاه أمر يسره أو يكرهه:** كان ﷺ إذا أتاه أمر يسره قال: «الحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات »وإذا أتاه أمر يكرهه قال: «الحمد لله على

كل حالٍ». كان النبي ﷺ إذا أتاه أمر يسره أو يُسر به خر ساجداً شكراً لله تبارك وتعالى».

- **ما يقول عند التعجب والأمر السار:** «سبحان الله» «الله أكبر».
- **في الشيء يراه ويعجبه ويخاف عليه العين:** إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، فإن العين حق.
- **الدعاء عند صياح الديك ونهيق الحمار ونباح الكلاب:** إذا سمعتم صياح الديك [من الليل]، فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً. «إذا سمعتم نُباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعوذوا بالله فإنهن يرين ما لا ترون».
- **دعاء صلاة الاستخارة:** إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - يسمي حاجته - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجلة وآجله - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجله وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم ارضني به».
- **كفارة المجلس:** من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ؟ فقال فيل أن يقوم من مجلسه ذلك: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك». إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك.
- **دعاء ليلة القدر:** «اللهم إنك عفو تُحب العفو فاعف عني».
- **ما يقال عند الذبح أو النحر:** «بسم الله والله أكبر [اللهم منك ولك] اللهم تقبل مني».
- **ما يقال عند زيارة المريض وما يقرأ عليه لرقيته:** «لا بأس طهور إن شاء الله». «اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً، أو يمشي لك إلى جنازة» ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله فيقول سبعة مرات: «أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن

يشفيك إلا عوفي». «بسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك، من شر كل نفس، وعين حاسدة بسم الله أرقيك، والله يشفيك». «أذهب الباس، رب الناس، إشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاء لا يُغادر سقماً ».

- **ما يقول من يئس من حياته:** «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى».
- **كراهية تمني الموت لضر نزل بالإنسان:** «اللهم أحيني ما كنت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».
- **من رأى مبتلى:** «من رأى مُبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً لم يُصبه ذلك البلاًء».
- **تلقين المحتضر:** «لقنوا موتاكم قول: لاإله إلا الله». «من كان آخر كلامه لاإله إلا الله دخل الجنة».
- **الدعاء عند إغماض الميت:** «اللهم اغفر (لفلان) وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه».
- **ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول:** «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مُصيبتي واخلف لي خيراً منها . إلا آجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيراً منها».
- **الدعاء للميت في الصلاة عليه:** «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نُزُله. ووسع مُدخلهُ. واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر (ومن عذاب النار) » «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأُنثانا، اللهم من أحييته منا فأحييه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان، اللهم لاتحرمنا أجره ولاتضلنا بعده» «اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، وحبل جوارك فقِهِ من فتنة القبر وعذاب النار، أنت الغفور الرحيم» «اللهم عبدك وابن عبدك وابن امتك إحتاج إلى رحمتك، وأنت غني عن عذابه، إن كان مُحسناً فزده في حسناته، وإن كان مُسئاً فتجاوز عنه». وإن كان الميت صبياً «اللهم أعذه من عذاب القبر» «اللهم اجعله فرطاً وسلفاً، وأجراً »

- **عند إدخال الميت القبر:** بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله (أو على سُنة رسول الله).
- **ما يقال بعد الدفن:** «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل».
- **دعاء زيارة القبور:** «السلام عليكم أهل الديار، من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المُستقدمين منا والمستأخرين وإنا، أن شاء الله بكم للاحقون».
- **دعاء التعزية:** «إن لله ما أخذ وله ما أعط. وكل شيء عنده بأجل مُسمى... فلتصبر ولتحتسب».
- **دعاء الريح إذا هاجت:** «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». «اللهم إني أسألك خيرها، وأعوذ بك من شرها».
- **الدعاء عند نزول المطر:** «اللهم صيباً نافعاً».
- **الدعاء بعد نزول المطر:** «مُطرنا بفضل الله ورحمته».
- **الدعاء عند سماع الرعد:** «سبحان الذي يُسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته».
- **دعاء الأستسقاء:** «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا اللهم أغثنا». «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً نافعاً غير ضار، عاجلاً غير آجل» . «اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت».
- **ما يقول إذا كثر المطر وخيف منه الضرر:** «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكامِ والظرابِ وبُطون الأودية، ومنابت الشجر».
- **الدعاء عند رؤية الهلال:** «اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله».
- **إذا أحبك أحد في الله فقل له:** «إني أحبك في الله».
- **إذا أخبرك أحد أنه يحبك في الله فقل له:** «أحبك الله الذي أحببتني له».
- **إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: «أحسبُ فُلاَنا. والله حسيبُهُ. ولا أزكي على الله أحداً. أحسبه إن كان يعلم ذاك، كذا وكذا».**
- **الدعاء لمن صنع لك معروفاً:** «من صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً

فقد أبلغ في الثناء».

- **الدعاء لمن سببته:** «اللهم فأيما مؤمن سببته فاجعل ذلك له قربه إليك يوم القيامة».
- **الدعاء لمن عرض عليك ماله:** «بارك الله لك في أهلك ومالك».
- **الدعاء الذي يرفع به الدين ويرجى قضاؤه:** «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عن سواك» «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال».
- **الدعاء عند إرجاع الدَّين:** «بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحمد».
- **عند دخول السوق:** «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويُميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شئ قدير».
- **دعاء من أصابته مصيبة:** ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول كما أمره الله «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها» إلا أخلف الله له خيراً منها.
- **دعاء الهم والحزن:** ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أوعلمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي». إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً. «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال». كان رسول الله ﷺ يكثر من هذا الدعاء.
- **دعاء الغضب:** «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».
- **دعاء الكرب:** «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش الكريم». «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت». «الله، الله ربي لاأشرك

به شيئاً».. «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».

- دعاء الفزع: «لا إله إلا الله».
- **ما يقول ويفعل من أذنب ذنباً:** ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غُفر له.

....

المعاني المفردة(١)

وَسَبِّحُوهُ: التسبيح: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف، تقول: سَبَّحْتُ الله تسبيحاً له أي نزهته تنزيهاً، سبحانك أي أُنزهك يا رب من كل سوء وأُبرئك.

بُكْرَةً: البُكْرَةُ: الغُدْوَةُ. ويقال: أَتيته بُكرة، بالضم، أَي باكِراً.

وَأَصِيلاً: الأَصِيلُ العَشِيُّ، والجمع أُصُل وأُصْلان. والأَصيلُ الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أُصُلٌ وآصالٌ وأَصائِلُ. الأصيل بعد العَشِيّ وجمعه أصُلٌ وآصالٌ.

الإعراب(٢)

جملة: «**يأيها الذين** ... » لا محل لها استئنافية. وجملة: «**آمنوا** ... » لا محل لها صلة الموصول (**الذين**). وجملة: «**اذكروا** ... » لا محل لها جواب النداء.

(١) لسان العرب. الصّحّاح في اللغة. مقاييس اللغة.

(٢) إعراب القرآن وبيانه جـ 7 صـ 593 : جـ 8 صـ 30.

المناسبة في السياق[1]

لمّا تضمنت الآيات السابقة حكماً من الأحكام، كان مبعث ظنون، ومثار شغب عند المنافقين والذين في قلوبهم مرض.. وليس يحمى المؤمنين من غبار هذه الظنون، ودخان هذا الشغب، إلا أن يعتصموا بالله، وأن يذكروا جلاله وعظمته، وأن يستحضروا علمه وقدرته، فذلك هو الذي يحفظ عليهم إيمانهم، ويدفع عنهم غواشى الشكوك والريب، التي يسوقها إليهم الكافرون والمنافقون ..

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن جـ 11 صـ 725 ـ 730.

النداء الثاني والستون

حكم المطلقات قبل الدخول

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

بين يدي النداء

عقدُ النكاح أحدُ العقودِ التي أمر الله بالوفاء بها، فهو عقدُ النكاح عقدٌ ذو شأنٍ كبير، ولذا وصفَه الله بأنّه ميثاق، وأنّ هذا الميثاقَ ميثاق غليظ،، ميثاقٌ يقوم بسببه البيت، فيه غضّ البصر وتحصين الفرج وحصول الولد وسكون النفس وطمأنينتُها.

والطلاق هو حل للرابطة الزوجية وإنهاء للعلاقة بينهما، فالعرب قبل الإسلام في الجاهلية كان للرجل أن يطلق زوجته ما شاء أن يطلقها فإذا أوشكت عدتها أن تنقضي راجعها ثم طلقها. وفي الديانة اليهودية المحرّفة الطلاق بيد الرجل ويحق له أن يطلق زوجته لعيب خُلقي أو خَلقي وليس للمرأة أن تطلب الطلاق. وفي الديانة النصرانية المحرفة الطلاق محرم جاء في إنجيل متّى: (ما جمعه الله لا يفرقه إنسان) لذا يعيش كل منهما حياته الخاصة بين الخليلات.. منهيان رابطة العلاقة الزوجية بينهما.

وفي إسلامنا فالطلاق بيد الرجل، ولكن للمرأة الحق أن تطلب الطلاق، وللقاضي أن يفرق بين الزوجين إذا أثبتت الزوجة أن ضرراً وإيذاء لحق بها من قبل الزوج.

إن نظام الطلاق في الإسلام نظام محكم متماسك يضمن للأسرة أن تعيش في هناء وسعادة، حتى إذا وصلت الأمور في بعض الأسر إلى مضائق حرجة وخلافات حادة تتعذر معها الحلول كلها، وتبذل الأسباب فلا تغني شيئاً، عند ذلك فإن الإسلام عالجها خير معالجة، وحينما يجد الإسلام أن لا مناص من الفرقة بين الزوجين، وأن بقاء رباط الزوجية يضر أكثر مما ينفع، فإنه حينئذ يأذن بالطلاق على طرائق ومراتب فصلتها كتب

الفقه، تدل على حكمة الإسلام وعظمته، وأنه لا نظير له في الأكوان كلها فيما سبق وفيما يلحق لأنه دين الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه أصول الدعوة:

[وقد ذهب بعض الجهال إلى الاعتراض على مبدأ الطلاق، وطالبوا بإلغائه، وكثيراً ما نسمع شيئاً من هذا اللغو أو نقرؤه في صحيفة أو كتاب. والواقع أن هذا القول لا يصدر إلا عن جاهل أو معاند لشرع الإسلام، فإن الطلاق في الإسلام من محاسن الشريعة وواقعيتها، وهو بمثابة العلاج الذي تقدمه الشريعة حيث لا ينفع غيره، ولا عيب في تحضير العلاج استعداداً لحالات الطوارئ والمرض.. وخلاصة القول في مسألة الطلاق وحكمته أن الإسلام يرغب في إبقاء الرابطة الزوجية وإدامتها على المودة والوئام لتحقق أغراضها المرسومة لها، وفي سبيل ذلك سهل الإسلام إجراءات النكاح وشرع فيها الخطبة وأباح رؤية المخطوبة لضمان بقاء الرابطة، وندب الزوج إلى الصبر على المرأة إذا رأى منها ما يكرهه كما بينا. وبين الإسلام أن من الفضل للزوج أن يكون حسن الأخلاق مع زوجته، ومع هذا فإن الإسلام لا يغفل عن الواقع، فقد ينشب الخلاف بين الزوجين مما يؤدي إلى الطلاق، ولعلاج هذه الحالة قرر الإسلام ما يأتي:

أولاً: شكّك الإسلام الزوج في وجدانه إذا أحس بكره زوجته وذكره باحتمال خطئه وتسرعه قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

ثانياً: إذا استمرت الزوجة في مشاكساتها ومخالفاتها، فللزوج أن يؤدبها عن طريق الوعظ والنصيحة والهجر في المضاجع والضرب غير المبرح قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

ثالثاً: إذا استشرى الخلاف وجب اللجوء إلى التحكم بأن يختار الزوج حكماً من أهله، وتختار الزوجة حكماً من أهلها، فيجتمعان وينظران في الخلاف بين الزوجين وأسبابه ويعملان على إزالته، وكثيراً ما ينجح هذا التحكيم لأن كلاً من الحكمين حريص على حسم الخلاف لمصلحتها في حسمه، كما أنهما - لعلاقتهما العائلية - يمكنها الوقوف على أسباب الخلاف، ولا شك أن معرفة الأسباب الحقيقية تسهل معالجتها. قال تعالى في التحكيم بين الزوجين: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء: ٣٥].

رابعاً: إذا لم ينفع التحكيم واستمر الخلاف وأراد الزوج الفراق فعليه أن يسلك فيه مسلكاً يقيه شر العجلة والتسرع والغضب، فأوجب عليه الإسلام أن يوقع الطلاق بالكيفية الآتية:

أ) أن يطلقها وهي طاهرة غير حائض ولم يكن قد مسّها في طهرها هذا، والحكمة في ذلك أن الزوج إذا طلقها في هذه الحالة فإن ذلك يعني أن نفسه راغبة عنها وأن هناك من الأسباب القوية ما يحمله على فراقها إلى درجة أن امتنع عن مسيسها قبل طلاقها.

ب) ومع هذا فإن الشرع الإسلامي إحتاط للأمر احتياطاً آخر فقد يكون الزوج لم يقدر المسألة حق قدرها وتسرع في تصميمه على الطلاق، ولهذا أوجب عليه أن يطلقها طلقة واحدة هي التي تسمى في الإصطلاح الشرعي بالطلقة الرجعية ويكون له في هذا الطلاق الرجعي الحق في إرجاع زوجته خلال مدة العدة وهي عدة تمتد إلى ما يقرب من ثلاثة أشهر. فإذا فكر بهدوء فقد يظهر له أنه قد تسرع في طلاقه، وقد يحمله تفكيره الهادئ إلى ترجيح إبقاء الرابطة الزوجية على قطعها وإن كان هناك ما يبرر قطعها إيثاراً لمصلحة أولاده الصغار من الضياع، ولهذا أعطاه الشرع الإسلامي الحق في إرجاع زوجته خلال مدة العدة كما قلنا. وقد يكون هذا الطلاق نذيراً للمرأة فلا تعود لما أدى إليه.

ج) فإذا انتهت مدة العدة ولم يراجعها الزوج، ثم أسف الزوج على ما وقع وأراد إرجاع زوجته، ففي هذه الحالة، يشترط أن ترضى الزوجة بالرجوع وأن يتم ذلك بعقد نكاح جديد ومهر جديد.

د) فإذا كرر الزوج الطلاق مرتين بالكيفية التي بيناها، ثم طلقها المرة الثالثة، ففي هذه الحالة لا يمكنه إعادتها إليه إلا بشروط ثقيلة، هي: أن تنتهي عدتها، ثم تنكح زوجاً غيره نكاحاً حقيقياً لا صورياً، ثم يفارقها هذا الزوج بموت أو طلاق، ثم تنتهي عدتها من هذه الفرقة، ثم تعقد نكاح جديد مع مطلقها الأول برضى تام منهما وبمهر جديد.

هذه هي إجراءات الشرع الإسلامي لمنع وقوع الطلاق، أو لمنع إساءة إستعماله بدون رؤية وتأمل، فإذا لم تنفع كل هذه الإجراءات الطويلة لمنع أو إزالة أسباب الطلاق، فإن وقوعه هو الحل الوحيد لفض النزاع وإنهاء هذه الرابطة التي لم تعد مبعث ارتياح واستقرار، وإنما أصبحت مبعث شر وخصام، ولإفساح المجال لكل من الزوجين ليجرب حظه في زواج آخر.]

هداية وتدبر[1]

١. قال الطبري في تفسيره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ من قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ يعني من إحصاء أقراء، ولا أشهر تحصونها عليهن؛ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به من عرض أو عين مال. وقوله ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وخلوا سبيلهن تخلية بالمعروف، وهو التسريح الجميل.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن/ محمد بن جرير الطبري. مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير). زهرة التفاسير/ محمد أبو زهرة. تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ/ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش.

٢. قال ابن كثير في تفسيره: هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها:

- إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

- وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

- وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق.

- لا طلاق قبل النكاح: في الآية دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع، لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح، حتى لو قال لامرأة أجنبية: إذا نكحتك فأنت طالق. وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وطاووس ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم. وذهب الشافعي وروى عن ابن مسعود، أنه يقع الطلاق وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي. والقول الأول هو الأرجح، لقول ابن عباس: جعل الله الطلاق بعد النكاح.

- وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾: هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها مَنْ شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً.

- وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[البقرة: ٢٣٧]، وقال ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ٢٣٦]. وفي

صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل، فلما أدخِلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيَّين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: إن كان سمى لها صداقاً، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

٣. **قال الشيخ أبو بكر الجزائري في تفسيره: من هداية الآيات:**

- جواز الطلاق قبل البناء.
- ليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة بل لها أن تتزوج ساعة ما تطلق.
- المطلقة قبل البناء إن سمى لها صداق فلها نصفه، وإن لم يسم لها صداق فلها المتعة واجبة يقدرها القاضي بحسب سعة المطلق وضيقه.
- حرمة أذية المطلقة بأي أذى، ووجوب تخلية سبيلها تذهب حيث شاءت.
- مشروعية المتعة لكل مطلقة.

٤. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**لا طلاق فيما لا يملك**»[1].

٥. المسّ فى أصل معناه اللغوى: اللمس، فهو يطلق على كل ما يكون فيه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على كل ما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية ولها مظهر حسى، ولذا كنى به القرآن الكريم عما يكون بين المرء وزوجه، كما فى هذه الآية الكريمة.

٦. لما كانت العدة حقاً للرجال قال: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ ولما كانت العدة واجبة، عبر بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عليهن﴾ وأكد النفي بإثبات الجار في قوله: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ ودل

(١) سنن ابن ماجه – حديث ٢٠٤٧ – قال الشيخ الألباني : حسن صحيح.

على اعتيادهم ذلك ومبالغتهم فيه والمضاجرة به كما في الظهار بالافتعال فقال: ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ أي تتكلفون عدها وتراعونه.

٧. خصّ تعالى المؤمنات والحكم الذي نطقت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات لبيان أن الأولى به: أن يتخير لنطفته، وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة، ويتنزه عن مزاوجة الفواسق فما بال الكوافر، ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة اللّه ووليه، فالتي في سورة المائدة: تعليم ما هو جائز غير محرّم، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب.

- وفي الآية دليل على أن المسيس مطلق، ويراد به الوطء.

....

المعاني المفردة[(١)]

نَكَحۡتُمُ: النكاح هنا العقد بالاتفاق، واختلفوا في مفهومه لغة، فقيل هو مشترك بين الوطء والعقد اشتراكا لفظياً. وقيل: حقيقة في العقد مجاز في الوطء، وقيل: بقلبه.

طَلَّقۡتُمُوهُنَّ: الطلاق لغةً: مأخوذ من الإطلاق وهو الإرسال والترك تقول أطلقت الأسير إذا حللت قيده وأرسلته. وشرعاً: [هو: «حل قيد النكاح - أو بعضه - في الحال أو المآل بلفظ مخصوص»[(٢)]. ومعناه متفق عليه بين أهل العلم[(٣)]،

---

(١) انظر: روح المعاني. محاسن التأويل. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. صفوة المسائل في التوحيد والفقه والفضائل.

(٢) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين عليه (٢ \ ٤١٤).

(٣) انظر حاشية الروض المربع لابن قاسم (٦ \ ٤٨٢)، وانظر أمثلة لتعريفات الطلاق في فتح القدير، وشرح العناية (٣ \ ٣٢٥)، البهجة في شرح التحفة (١ \ ٣٣٦) وانظر أيضا التعريفات ص (١٤١) ومعجم لغة الفقهاء ص (٢٩١).

وفائدة إضافة القيد - أو بعضه - إدخال الطلاق الرجعي.][1].

تَمَسُّوهُنَّ: تجامعوهن. أطلق المسّ على الجماع لأنه طريق له كما سمي الخمر إثماً لأنها سببه.

تَعْتَدُّونَهَا: تستوفون عددها.

فَمَتِّعُوهُنَّ: أعطوهن ما يستمتعن به من عرَض أو عين مال.

وَسَرِّحُوهُنَّ: خلوا سبيلهن بإخراجهن من منازلكم؛ إذ ليس لكم عليهن عدة.

جَمِيلاً: من غير ضرار ولا منع حق.

الإعراب والبلاغة[2]

- **إِذَا:** ظرف مستقبل. وجملة **نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**: في محل جر بإضافة الظرف إليها. **ثُمَّ**: حرف عطف وتراخ. طَلَّقْتُمُوهُنَّ: فعل وفاعل ومفعول به والميم علامة جمع الذكور والواو لإشباع الضمة. **مِن قَبْلِ**: متعلقان بطلقتموهن. **أَن تَمَسُّوهُنَّ**: المصدر المؤول مضاف لقَبْلِ. الفاء رابطة لجواب إذا. **مَا**: نافية. **لَكُمْ**: خبر مقدم. **عَلَيْهِنَّ**: متعلقان بمحذوف حال. **مِنْ**: حرف جر زائد. **عِدَّةٍ**: مجرور لفظاً مبتدأ محلاً. وجملة **تَعْتَدُّونَهَا**: صفة لعِدَّةٍ. الفاء: الفصيحة. **مَتِّعُوهُنَّ**: فعل أمر وفاعل ومفعول به **وَسَرِّحُوهُنَّ**: عطف على مَتِّعُوهُنَّ. **سَرَاحاً جَمِيلاً**: مفعول مطلق.

- **المجاز المرسل:** في قوله تعالى «**إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**»: تسمية العقد نكاحاً مجاز مرسل، علاقته الملابسة، من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسميتهم الخمر إثماً، لأنها سبب في اقتراف الإثم

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

(٢) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش. الجدول في إعراب القرآن.

الكناية: في قوله تعالى «**تَمَسُّوهُنَّ**» من آداب القرآن: الكناية عن الوطء بلفظ: الملامسة، والمماسة، والقربان، والتغشي، والإتيان.

المناسبة في السياق(١)

ذكرت الآيات السابقة حالا من أحوال الطلاق والزواج، وهو طلاق امرأة الابن المتبنَّى، ثم زواجها من أبيه المتبنّى له.. فناسب أن يذكر حكم المرأة المطلقة، من حيث العدة، والنفقة..

القراءات(٢)

(تَمَسُّوهُنَّ) عاصم بفتح التاء وحذف الألف بعد الميم، حجتهم أن الرجل هو المنفرد بالمسيس ويقوي هذه القراءة قوله في قصة مريم ولم يمسسني بشر ولم يقل يماسني وجاء في الحديث أيضا إذا طلق الرجل من قبل أن يمس

(تُمَآسُّوهُنَّ) حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وبألف بعد الميم

حجة من قرأ تماسوهن أن المسيس وإن كان من الرجل فالمرأة مشاركة فيه وكل ماس شيئا فالممسوس ماس له وكذلك الملاقي ويقوي هذه القراءة قوله من قبل أن يتماسا على إسناد الفعل إليهما

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ – نقلا عن الشيخ عبد الكريم الخطيب.

(٢) البدور الزاهرة. وحجة القراءات.

النداء الثالث والستون

الحجاب أطهر لقلوب الجميع

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

بين يدي النداء

العلاقة الوثيقة من الحب والمودة والألفة كانت شعار الرباط بين رسول الله - ﷺ - وأصحابه، فهؤلاء الرجال الذين كانوا يتحينون وقت طعام رسولهم - ﷺ - لم يكونوا إلا رجالاً أحبوا نبيهم من شغاف قلوبم وتعلقت نفوسهم ببيته الكريم، ولم يشعروا أنهم يؤذون النبي بتصرفاتهم تلك، لأن سماحة نفسه - ﷺ -، وسعة صدره وكرمه قد أغرتهم بما كانوا يفعلونه.

ولعل نداءهم بوصف الإيمان يؤكد تلك العروة الوثقى بينهم وبين نبيهم، إنها رابطة الإيمان وما تستلزمه من حب متبادل، وود وألفة مسبقة.

إن القرآن الكريم يرسم للمؤمنين الخطوط العامة لآداب الضيافة من التحلي بالعفة، ومراعاة حال المزور، ووقته إلى آخر تلك الآداب، فالفاء في قوله: ﴿فَٱدۡخُلُواْ﴾ تشير إلى وجوب مبادرة المخاطبين إلى تلبية الإذن بالدعوة إلى طعامه - ﷺ - بلا تراخ، مراعاة لأوقاته - ﷺ، لأن التأخر عن الطعام ليس من الأدب، إذ يجعل صاحب الدعوة - ﷺ - في انتظار، وكذلك أشارت الفاء في قوله «فانتشروا» إلى وجوب المسارعة في خروج المدعوين من بيته - ﷺ - فور الفراغ من الطعام، وذلك لانقضاء الغرض من

الدعوة بانقضاء الطعام مراعاة لأحواله وأوقاته - ﷺ.

والتنكير في قوله: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يفيد التقليل، فقد نهي المخاطبون عن الاستئناس بعد الطعام بأي حديث مهما كان قصيراً معه - ﷺ - وذلك مراعاة لوقته - ﷺ - وأحواله، فالمخاطبون كانوا قد ألفوا الرسول - ﷺ - وحديثه، وكانوا يجدون في ذلك كل الإيناس، ويساعدك على هذا الفهم ما في معنى الاستئناس من إصغاء وعناية في التسمع، وهذا يناسبه إصغاؤهم لحديث رسولهم - ﷺ - والاستئناس له لا لحديث بعضهم لبعض في بيت النبي.

قال الشنقيطي -رحمه الله-: ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه ﷺ، فلا شك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الريبة، فمن يحاول منع نساء المسلمين - كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم - من الاقتداء بهن في هذا الأدب السماوي الكريم المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاش لأمة محمد ﷺ، مريض القلب كما ترى.

هداية وتدبر(١)

١. تعرضت الآية الكريمة لأمرين هامين هما «آداب الدعوة» و«مشروعية الحجاب» ولكل منهما سبب نزول.

٢. يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى - ﷺ - إلا فى حال إذنه لكم لتناول الطعام غير منتظرين إدراك نضجه، (أي إِذا دعيتم إِلى طَعَامٍ في بيت رسول اللهِ فَلاَ تدخلوا إِلا إِذا علِمتم أن الطعام قَد تَم نضجه وإِعداده)، ولكن إذا دعاكم الرسول إِلى الدخول فادخلوا، فإذا أَكلتم الطعَامَ فانصرفوا، ولا تمكثوا بعد ذلك مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً. لأن الدخول بدون إذنه وإطالة المكث بعد الطعام كان

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. أيسر التفاسير/ أسعد حومد. محاسن التأويل. مفاتيح الغيب/ الرازي. تفسير الشعراوي.

يؤذى النبى ويثقل عَليهِ وَعَلى أَهلِهِ، فيستحى أن يطلب إليكم الخروج، والله الذِي يريد أَن يحسِن تَربيتَكم وتأديبكم، يريد أَن يقولَ لكم الحَقَّ لتعملوا بِه، فسبحانه لا يمنعه من الجهر بالحق ما يمنع المخلوقين، وإذا سألتم إحدى زوجات النبى - ﷺ - شيئاً تتمتعون بِه، من مَاعونٍ، وَغيرِهِ، فاسألوهن من وراء سترٍ بينكم وبينهن. ذلك الدخول بَعْدَ الاستئذان، وعدم البقاء بعد الطعام للاستئنَاسِ بِالحديث، وسؤال نساء النبِي المَتَاعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.. أعظم طهارة لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان، وأبعَد عَن الريبِ والشكوك، ولاَ ينبَغي للْمؤمنين أن يفعلوا فعلاً فِي حياة النبِي يؤذيه ويزعجه، ولَيس لَهم أن يؤذوه بعد وفاته بالتزَوج بِنِسَائِهِ من بعده أبدا. فَإِيذَاء النبِي فِي حَيَاتِهِ وبعد مماته هو أَمر عَظِيم لاَ يقَدِّر قدره إلا الله تَعَالى.

٣. ينبغي أن يُعلم أن وقت النبِي ليس لنفر يحبسونه في بيته فهو وقت الأمة كلها داعياً ومعلماً ومربياً ومجاهداً.

٤. الحق سبحانه هنا يُعلِّمنا الأدب مع رسول الله، ويجعله لنا قدوة، فهو ﷺ عاش عيشة الكفاف مطعماً وملبساً ومسكناً، فليس عنده إلا عدة حجرات، لكل زوجة من زوجاته حجرة واحدة، فليس لديه حجرة صالون أو استقبال، فلا بُدَّ أن تتعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة في مثل هذه الحالة، وخاصة مع رسول الله في بيوته.

لطائف

٥. «الإني»: مصدر. يقال أنى الشيء يأنى أنياً بالفتح. و«أنى»: مفتوحاً مقصوراً. و«إنى»: بالكسر مقصوراً، أي: حان وأدرك. قال عَمْرو بن حسان: تَمَخَّضَتِ الْمَنُوْنَ لَهُ بِيَوْمٍ أَنىْ وَلِكُلِّ حَاْمِلَةٍ تَمَاْمُ.

٦. وهذا دليل على تحريم التطفل. لذا فقد سُميت هذه الآية بآية الثُّقَلاءِ.[1]

---

(١) لا أرى هذا مقبولاً بحق صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا يحبون الله ورسوله.

٧. قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إضافة البيوت إلى النبي - ﷺ - إضافة تشريف، مثل ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣] و(بيت الله) الإضافة فيها للتكريم والتشريف فلبيوت النبي - ﷺ - من الحرمة ما ليس لغيرها من البيوت، وهذه الأحكام المذكورة هنا خاصة ببيوت النبي ﷺ تكريماً له عليه السلام وتشريفاً.

٨. قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ في الكلام باء محذوفة تسمّى (باء المصاحبة) أي إلاّ بأن يؤذن لكم. وتضمين (الإذن) معنى (الدعوة) للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن وجد صريح الإذن بالدخول، حتى لا يكون الإنسان (طفيلياً) يحضر الوليمة بدون سابق دعوة.. وممّا يدل على هذا التضمين قوله تعالى بعدها: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ﴾ فإنها صريحة في أن المراد بالإذن (الدعوة) فتنبه لهذا السّر فإنه دقيق.

٩. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ قال الإمام الرازي: «فيه لطيفة وهي أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلاّ بإذن، يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً ولا بالدعاء، فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون، بل كونوا طائعين سامعين، إذا قيل لكم: لا تدخلوا فلا تدخلوا، وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا». وهذا معنى لطيف.

١٠. كلمة ﴿بُيُوتَ﴾ جمع بيت، وهو ما أُعِدَّ للبيتوتة أي: للمبيت فيه، والمبيت في الأغلب الأعَمِّ لليل، فهو محل السكون والبيات، أما النهار فهو محلُّ الحركة، ولا بد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوي بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفيء إليه؛ لذلك سُمِّي البيت سكناً، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه. فالبيت مسكن لإيواء القلب وراحته، والمرأة سَكَن لإيواء القلب وراحة النفس، فكلاهما ينبغي أن يكون مصدراً للراحة.

....

المعاني المفردة[1]

{نَاظِرِينَ إِنَاهُ}: منتظرين نضجه واستواءه.

{فَانتَشِرُوا}: أي فاخرجوا وتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا.

{مُسْتَأْنِسِينَ}: معنى الاستئناس: طلب الأنس بالحديث لأن السين والتاء للطلب تقول: استأنسَ بالحديث: طلب الأنس والطمأنينة والسرور به.

{يُؤْذِي النَّبِيَّ}: يضايقه ويثقل عليه، ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره.

{فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ}: فيستحيي من إخراجكم، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف، لخلقه الرفيع، وقلبه الرحيم.

{وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق.

{حِجَابٍ}: حجبَ الشيءَ يحجبُه أي ستره، وقد احتجب وتحجّب إذا اكتنّ من وراء حجاب، وامرأة محجوبة قد سترت بستر، والحجاب: اسم ما احتجب به، وكل ما حال بين شيئين فهو حجاب، قال تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾.

{أَطْهَرُ}: أسلم وأنقى، أفعل تفضيل من الطهارة بمعنى النزاهة والنقاء،.

{وَمَا كَانَ لَكُمْ}: وما ينبغي لكم ولا يليق بكم.

سبب النزول

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: **«بنى النبيُّ ﷺ بزينبَ، فأَوْلَمَ بخبزٍ ولحمٍ، فأُرْسِلْتُ على الطعام داعياً، فيجيءُ قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، ثم يجيءُ قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، فدعوتُ حتى ما أَجِدُ أحداً أَدْعُو، فقلتُ: يانبيَّ اللّه، ما أَجدُ أحداً أَدعو، قال:**

(١) زاد المسير. صفوة التفاسير. تفسير آيات الأحكام/ الصابوني.

«ارفعوا طعامكم» وبقي ثلاثةُ رهْطٍ يتحدَّثونَ في البيت، فخرجَ النبيُّ ﷺ، فانطلق إلى حُجْرة عائشة، فقال: «**السلام عليكم أهلَ البيت ورحمةُ اللّه**»، **وقالت: وعليك السَّلامُ ورحمة اللّه، كيف وجدتَ أهلكَ؟ باركَ اللّهُ لك، فتقرَّى حُجَرَ نسائه كُلِّهِنَّ، يقولُ لهن كما يقولُ لعائشة، ويقُلْنَ له كما قالت عائشةُ، ثمَّ رجعَ النبيُّ ﷺ، فإذا رهطٌ ثلاثةٌ في البيتِ يتحدَّثونَ، وكان النبيُّ ﷺ شديدَ الحياء، فخرج مُنْطلقا نحو حُجرةِ عائشة، فما أدري أخبَرْتُهُ أو أُخْبِرَ أنَّ القومَ قد خرجوا، فرجع حتى وضع رِجْلَهُ في أُسْكُفَّةِ البابِ داخلة، وأخرى خارجة، أرْخى السِّتْر بيني وبينه، وأنزلَ الحجابُ»**[1].

الإعراب[2]

– جملة «**لا تدخلوا**» جواب النداء مستأنفة، «**إلا**» للحصر، والمصدر المؤول «**أن يؤذن**» منصوب على نـزع الخافض (الباء) متعلقة بحال مقدرة بـمصحوبين بالإذن، الجار «**إلى طعام**» متعلق بـ «**يؤذن**»، «**غير**» حال من الضمير في «**لكم**»، «**إناه**»: مفعول به لاسم الفاعل «**ناظرين**»، وجملة «**ولكن إذا دعيتم فادخلوا**» معطوفة على جواب النداء. وجملة «**فإذا طعمتم فانتشروا**» معطوفة على جملة الشرط المتقدمة، وجملة «**طعمتم**» مضاف إليه. «**مستأنسين**»: اسم معطوف على «**غير**»، والجار متعلق بـ «**مستأنسين**» أي: لا تدخلوها غير ناظرين، ولا مستأنسين، وجملة «**إن ذلكم...** » معترضة، جملة «**والله لا يستحيي**» معطوفة على جملة «**إن ذلكم كان**»، جملة «**وإذا سألتموهن فاسألوهنَّ**» معطوفة على جملة الشرط المتقدمة، و «**متاعا**» مفعول ثان، وجملة «**ذلكم أطهر**» مستأنفة، والجار «**لقلوبكم**» متعلق بأطهر. جملة «**وما كان لكم أن تؤذوا**» معطوفة على جملة «**لا تدخلوا**» جواب النداء، الجار «**لكم**» متعلق بخبر كان، والمصدر «**أن تؤذوا**» اسم كان، والمصدر الثاني المؤول «**أن تنكحوا**» معطوف على المصدر المتقدم، وجملة «**إن ذلكم كان**» مستأنفة.

– **(إناه)** مصدر سماعي لفعل أنى يأني بمعنى نضج، وزنه فعل بكسر ففتح، وفيه

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول. - ٧٦٥ - (خ م ت س).

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

إعلال بالقلب أصله إنيه بكسر ثمّ فتح فسكون، سبق الياء فتح فقلبت ألفا فقيل إناه.

(مستأنسين) جمع مستأنس، اسم فاعل من **(استأنس)** السداسيّ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين.

- عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ - رضى الله عنه -: **«قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ»**[1].

المناسبة في السياق[2]

بعد أن ذكر تعالى حال النبي ﷺ مع أمته بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَـٰذِيرٗا﴾ أردف ذلك بيان حال المؤمنين مع النبي ﷺ إرشادا لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم فى خلوته وفى الملإ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان فى الخلوة بقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلخ.

القراءات

«فَسَلُوهُنَّ» ابن كثير الكسائي بفتح السين وحذف الهمزة. والباقون **«فَسْئَلُوهُنَّ»** بإسكان السين وبعدها همزة مفتوحة.

---

(١) حديث ٤٨٣٧ - التفسير - صحيح البخارى..

(٢) تفسير المراغي ج ٢٢، ص : ٣٠.

النداء الرابع والستون

إمام المرسلين فداك روحـــــي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

بين يدي النداء

[إمـام المرسـلين فـداك روحـــي = وأرواح الأئمـــة والدعـــــــاة

رســول العــالمين فــداك عرضــي = وأعــراض الأحبــة والتقــــــاة

ويـا علـم الهـدى يفـديك عمـــري = ومــالي يــا نــبي المكرمــــــات

ويـا تـاج التقـى تفـديك نفســـي = ونفــس أولــي الرئاسـة والـــولاة

فـداك الكـون يـا عطـر السجايــا = فمـا للنـاس دونـك مـن زكـــاة

فلـو جحـد البريـة منـك قــــولا = لكبــوا في الجحـيم مـع العصـــاة

وذكــرك يــا رســــول الله زاد = تضــاء بــه أســارير الحيــــــاة

ومـا لجنـان عـدن مـــن طريـق = بغــير هــداك يـاعلم الهـــــداة

ولم تنطــق عـــن الأهـــواء يومــاً = وروح القـدس منـك علـى صـلات

عليـك صـلاة ربـك مـا تجلـــــى = ضــياء واعتلــى صـوت الهـــداة

يحـار اللفـظ في نجـواك عجـــزا = وفي القلـب اتقـاد الموريـــــات

ولـو سـفكت دمانـا مـا قضينـــا = وفـاءك والحقـوق الواجبـــات][1]

---

(١) http://www.saaid.net/mohamed/66.htm من موقع صيد الفوائد.

[لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور. وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس _ والعدد اليوم أكثر من مليار وثلاث مئة مليون _ أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟!

أما انأ فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل هذا القبول،فما الناس إلا بله مجانين، فوا أسفا ! ما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والرحمة.

وبعد، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئا ألبته من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان. ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم ؟

والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب، فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت.. وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه الملايين من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه، فينهدم، فكأنه لم يكن. وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا قول صادق. كلا، ما محمد بالكاذب، ولا الملفق، وهذه حقيقة تدفع كل باطل، و تدحض حجة القوم الكافرين. كان عادلاً صادق النية كان ذكي اللب شهم الفؤاد، لوذعيا، كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم، ممتلئا نوراً، رجلاً عظيماً بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك. ويزعم المتعصبون من النصارى أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية، ومفاخرة الجاه والسلطان. كلا – وأيم الله – لقد كان في فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، النفس، المملوء رحمة وخيرا

وحكمة وحجة – أفكار غير الطمع الدنيوي، وكيف لا، وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا إن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون الاصطلاحات الكاذبة، ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة اذ ترى محمدا لم يرضى إن يتلفق بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمبتدع الأباطيل. إذا فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين أن محمدا كاذب، ونعد موافقتهم عارا، وسبة، وسخافة، وحمقا، فلنربأ بأنفسنا عنه. وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير ان يكون حقا وجدير ان يصدق به وإنما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان ان يومن به وهذا الشيء هو روح جميع الأديان وراوح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابا متعددة وهو في الحقيقة شيء واحد وبإتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيرا لهذه المبعد الكبير – الكون- جاريا على قواعد الخالق تابعا للقوانين لا مجادلا عبثا ان يقاومها ويدافعها. لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة وما كان يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصارى وكل ما لم يكن بحق فانه حطب ميت. أيزعم الافّاكون الجهلة انه مشعوذ محتال؟ كلا ثم كلا ما كان قط ذلك القلب المحند الجائش كأنه تنور فِكر يضور ويتأجج – ليكون قلب محتال ومشعوذ، لقد كانت حيته في نظره حقاً وهذا الكون رائعة كبيرة.مثل هذه الأقوال، وهذه الأفعال ترينا في محمد أخ الإنسانية الرحيم، أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق وابن أمنا وأبينا الأول . واني لأحب محمداً لبراءة طبعة من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار رجلاً مستقل الرأي، لا يقول إلا عن نفسي ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبراً، ولكنه لم يكن ذليلاً َضرِعاً، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة، وكان يعرف لنفسه قدرها، ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت معه مع الأعراب من مشاهد قوة، ولكنها كذلك لم تخل من دلائل رحمة وكرم وغفران، وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولم يفتخر من الأخرى.

وما كان محمداً بعابث قط، ولا شاب من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده

أمر خسران وفلاح، ومسالة فناء وبقاء ولم يكن منه بازائها إلا الإخلاص الشديد والجد المرير. وفي الإسلام خلة أراها من اشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على اصدق النظر وأصوب الرأي، فنفس المؤمن رابطة بجميع دول الأرض، والماس في الإسلام سواء..

إلى أن قال: وسع نوره الأنحاء، وعم ضوؤه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند، ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة بنور الفضل والنُبل، والمروءة، والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة [(١)]

هداية وتدبر(٢)

١. الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء، إنما هي تنفيذ مباشر ورحمة شاملة وعامة، ويكفي من رحمته تعالى لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتم الرسل، فلا يستدرك عليه أحد، يكفيه من رحمته وإنعامه وثنائه عليه أنْ قرن اسمه باسمه؛ لذلك خاطبه بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة، لا لأمته فحسب، إنما للخَلْق جميعاً، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسله بأسمائهم المشخِّصة لهم، وخاطبه هو بالوصف المكرم في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ...﴾.

٢. أما عن صلاة الملائكة، فهي دعاء، واقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ

(١) الفيلسوف الانجليزي توماس كارليل الحائز على جائزة نوبل حيث قال في كتابه الإبطال كلامًا طويلاً عن النبي ﷺ يخاطب به النصارى.

(٢) تفسير الشعراوي.

وَمَن صَـٰلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

فإذا كان الخَلْق جميعاً محلَّ صلاة الملائكة واستغفارهم ودعائهم، حتى الذين أذنبوا منهم، ثم تابوا، فما بالك برسول الله، وهو هادي الناس جميعاً.

٣. أما الصلاة من المؤمنين، فهي الاستغفار، واستغفارهم ليس لرسول الله، إنما هو استغفارهم لأنفسهم؛ لأن رسول الله جاء رحمةً لهم، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً فَهُمْ إنِ استغفروا، فاستغفار عن الغفلة عنه ﷺ، أو عن أنهم لم يتقدم اسمه، فيصلون عليه.

والمؤمن حين يُصلِّي على رسول الله، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله؟ ماذا بأيدينا؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله، إنك لا تقول أصلي، ولكن تقول: اللهم صَلِّ على محمد، أو صلَّى الله على محمد، فتطلب مِمَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلي على رسول الله؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤدِّيه لرسول الله.

إذن: فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة، والصلاة من الملائكة الدعاء، والصلاة من المؤمنين الاستغفار.

٤. **ذكر ابن القيم ٣٩ فائدة للصلاة على النبي ﷺ منها:**

امتثال أمر الله سبحانه وتعال .. حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة. . يكتب له عشر حسنات ويمحو عنه عشر سيئات. أن يرفع له عشر درجات. أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه فهي تصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين. أنها سبب لشفاعتهﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له، أو إفرادها. أنها سبب لغفران الذنوب. أنها سبب لكفاية الله ما أهمه. أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة. أنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة الملائكة عليه. أنها سبب لرد النبي ﷺ الصلاة والسلام على المصلي. أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة. أنها سبب لنفي الفقر. أنها تنفي عن العبد اسم (البخيل) إذا

صلى عليه عند ذكره ﷺ. أنها سبب لإلقاء الله سبحانه وتعالى الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه، والجزاء من جنس العمل فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك. . أنها سبب للبركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه لأن المصلي داع ربه أن يبارك عليه وعلى آله وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه. أنها سبب لعرض اسم المصلي عليه ﷺ وذكره عنده كما تقدم قوله ﷺ: **{إن صلاتكم معروضة عليّ}** وقوله ﷺ: **{إن الله وكّل بقبري ملائكة يبلغونني عن أمتي السلام}** وكفى بالعبد نبلاً أن يذكر اسمه بالخير بين يدي رسول الله ﷺ . أنها سبب لتثبيت القدم على الصراط والجواز عليه لحديث عبدالرحمن بن سمرة في رؤيا النبي ﷺ وفيه: **{ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط ويحبو أحياناً ويتعلق أحياناً، فجاءته صلاته عليّ فأقامته على قدميه وأنقذته}** [(رواه أبو موسى المديني وبنى عليه كتابه في «الترغيب والترهيب» وقال: هذا حديث حسن جداً]. أنها سبب لدوام محبة الرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه فسيتضاعف حبّه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره وإحضار محاسنه يغلبه، نقص حبه من قلبه، ولا شيء أقر لعين المحب من رؤية محبوبه ولا أقر لقلبه من ذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه والحس شاهد بذلك. أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه، فإنه كلما أكثر الصلاة عليه ﷺ وذكره، استولت محبته على قلبه، حتى لا يبقى في قلبه معارضة لشيء من أوامره، ولا شك في شيء مما جاء به، بل يصير ما جاء به مكتوباً مسطوراً في قلبه ويقتبس الهدي والفلاح وأنواع العلوم منه، فأهل العلم العارفين بسنته وهديه المتبعين له كلما ازدادوا فيما جاء به من معرفة، ازدادوا له محبة ومعرفة بحقيقة الصلاة المطلوبة له من الله.

٥. اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبي (ﷺ)، ثم اختلفوا، فقيل: تجب في العمر مرة، وهو القول المعتمد، وقول الأكثرين. وقيل: تجب في كل صلاة، في التشهد الأخير، وهو مذهب الشافعي. وقيل: تجب كلما ذكر. لكن المعتمد أنها مستحبة عند ذكره (ﷺ). والمقدار الواجب (اللهم صل على محمد) وما زاد سنة. أما الأكمل فهو ما رواه عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: **«قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد»**.

٦. عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: **«البخيل الذي إذا ذكرت عنده فلم يصل علي»** أخرجه الترمذي - وقال حديث حسن غريب صحيح.

....

الإعراب والصرف[1]

- **(على النبي)** متعلق بـ **(يصلون)**. **(تسليما)** مفعول مطلق منصوب. وجملة: «**إن الله ... يصلون**» لا محل لها استئنافية. وجملة: « **يصلون على النبي ...** » في محل رفع خبر إن. وجملة: « **يأيها الذين ...** » لا محل لها استئناف بياني. وجملة: «**آمنوا ...** » لا محل لها صلة الموصول **(الذين)**. وجملة: «**صلوا ...**» لا محل لها جواب النداء. وجملة: «**سلموا ...** » لا محل لها معطوفة على جملة صلوا ...

- **(صلّوا)** فيه إعلال بالحذف حذفت الياء لام الكلمة- المضارع يصلّي- لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة.

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. الجدول في إعراب القرآن.

المناسبة في السياق[1]

قال الشيخ عبد الكريم الخطيب: مناسبة هذه الآية هنا، هو أن الآيات السابقة عرضت لأمور هى من خصوصيات النبي ـ ﷺ ـ وبهذه الخصوصيات التي اختصه الله سبحانه وتعالى بها، كحل التزوج بعدد من النساء لا يحل لغيره من المسلمين التزوج بهن، وكالتزوج ممن يهبن أنفسهن له، من غير مهر، وكتلك الحراسة التي أقامها الله على بيت النبوة من خارج ومن داخل ـ نقول بهذه الخصوصيات يعرف بعض ما لرسول الله من منزلة كريمة، ومقام عظيم، عند ربه.. وإذ عرف المسلمون هذا، فليعرفوا أيضا أن ذلك ليس هو كل ما للنبى عند ربه.. بل إن له عند ربه أكثر وأكثر.. «**إن الله وملائكته يصلون على النبي**».. فهذه صلاة خاصة بالنبي، غير تلك الصلاة العامة التي للمؤمنين، والتي جاءت في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ .. إنها صلاة من الله وملائكته، اختص بها النبى وحده.. وإذا كان ذلك كذلك فإن على المؤمنين جميعاً أن يشاركوا في الصلاة على النبى، والتسليم له، تسليم ولاء، وخضوع، وامتثال..

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن حـ ١١ صـ ٧٤٨.

النداء الخامس والستون

لا تكونوا كالذين آذوا موسى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

بين يدي النداء

من السياسيين الذين أدركوا ببصيرتهم النافذة خطر اليهود على مجتمعاتهم: الرئيس الأمريكي فرانكلين. ففي القرن الثامن عشر وعلى التحديد في عام (١٧٨٩م) أصدر بنجامين فرانكلين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وثيقة رسمية لتحذير الأمريكان من اليهود، وقد ألقاها في خطاب رسمي عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيها:

[هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وهو خطر اليهود، وفي كل أرض حلّ فيها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي، وأفسدوا الذمة التجارية، وهم منعزلون لا يندمجون مع غيرهم، وهم منذ أكثر من (١٧٠٠) عام يندبون حظهم، لأنهم طردوا من ديار آبائهم[١]، ولو ردت إليهم فلسطين فلن يذهبوا جميعهم إليها، لأنهم طفيليات لا يعيش بعضهم على بعض، ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم، وإذا لم يبعد هؤلاء اليهود عن الولايات المتحدة بنص دستورها، فإن سيلهم سيتدفق إليها في غضون مائة سنة، وسيتمكنون من أن يحكموا شعبنا ويدمروه، ويغيروا شكل الحكم الذي بذلنا في سبيله دماءنا، وضحينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا، ولن تمر مائتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا العمل في الحقول لإطعام اليهود، على حين يظل اليهود مسيطرين على المؤسسات المالية، وإذا لم يبعد الشعب الأمريكي اليهود نهائيًا، فسوف يلعنهم أبناؤهم وأحفادهم في قبورهم، كما أن اليهود لن يمارسوا المثل الأمريكية العليا، ولو عاشوا بين الأمريكيين عشرة أجيال، لأن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط. إن اليهود خطر على أمريكا إذا سمح لهم بحرية الدخول، وسيقضون على

(١) بزعمهم الكاذب.

المؤسسات الأمريكية، وعليه يجب استبعادهم بنص الدستور.]

إن ما جاء في هذا الخطاب في القرن الثامن عشر ينطبق تمام الانطباق على اليهود في

هذه الأيام، فقد سيطروا على اقتصاد أمريكا وسياسة أمريكا، وقد حل بالشعب الأمريكي ما تنبأ به الزعيم الراحل بنجامين فرانكلين. وما تخبئه الأيام لأمريكا من كيد اليهود أعظم وأعظم، وكما قال الشاعر العربي قديمًا:

ستبدي لـك الأيـام مـا كنـت جـاهلاً = ويأتيـــك بالأخبـــار مـــن لم تـــزوّد!

أو كما قال الشاعر الآخر:

أمرتهمـــو أمـــري بمنعـــرج اللّـــوى = فلـم يسـتبنوا النصـح إلا ضـحى الغـد

قال الشيخ عبد الكريم الخطيب[1]: [أشاع اليهود في المدينة جوّا خبيثاً من الدس والنفاق، وخلق الأراجيف وإذاعة الشائعات، واتخذوا من هذا كله أسلحة يحاربون بها الدعوة الإسلامية، ويدخلون منها على من في قلوبهم مرض من المسلمين، فيفتنونهم في دينهم، ويتخذون منهم أبواقا لترديد الأكاذيب، وإشاعة الأراجيف.. وقد أخزى اللّه اليهود، ونكّل بهم، وكفى المسلمين شرهم، وطهر المدينة من رجسهم.. وبقي بعد هذا أشتات من الناس، قد تمكن فيهم النفاق والكيد الذي ورثوه عن اليهود، فجاء قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠] جاء منذرا هؤلاء المخلفين من صنائع اليهود، بأن ينزعوا عما هم فيه، وإلا أصابهم ما أصاب أصحابهم من قبل.. وفي الآية إلفات للمسلمين عامة، وإشارة إلى المنافقين، ومرضى القلوب وضعاف الإيمان منهم، خاصة، إلى أن يعتزلوا اليهود عزلة شعورية، وأن يقطعوا كل ما كان بينهم من صلات قائمة على التشبه بهم، والجري على أساليبهم، لأنهم شر خالص، وبلاء محض.. كالداء الخبيث إن لم يقتل صاحبه، أفسد عليه حياته، ونغّص معيشته.. وإنه لا سلامة للمسلمين من اليهود إلا إذا تخلصوا من كل أثر مادى أو نفسى كان لهم فيهم.. وأما وقد جلا

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن حـ ١١ صـ ٦٥٥ ـ ٦٥٩.

اليهود عن المدينة إلى غير رجعة، ولم يبق إلا ما تركوه في بعض الناس من آثار، فى أساليب الحياة، وصور التفكير، فإنه لكى يأمن المسلمون على سلامتهم في أنفسهم وفي عقيدتهم ـ ينبغى أن يتخلصوا من كل مخلفات اليهود فيهم، من ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا.. والتطاول على مقام الرسل، والافتنان في إيذائهم والكيد لهم، طبيعة غالبة على اليهود.. وقد قص القرآن الكريم على المسلمين كثيرا من مواقفهم اللئيمة المنحرفة مع رسل اللّه.. فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال سبحانه وتعالى متوعدا إياهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] .

«وموسى» الذي يدين اليهود بشريعته وبالتوراة التي تلقاها من ربه ـ قد لقى من كيد اليهود وأذاهم في شخصه حيّا، وفي شريعته، بعد موته، ما لقى الأنبياء منهم، من ألوان الكيد والأذى.. وقولهم الذي قالوه في موسى هو ما حكاه القرآن الكريم عنهم في قولهم لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩] وكان ذلك ردّا على قوله لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فهذا القول هو اتهام له، وتكذيب بالوعد الذي وعدهم إياه بأمر ربه.. وكان في هذا الاتهام أذى له، خاصة وهو في مواجهة فرعون، وفي معمعة الصراع المحتدم بينهما.. إنهم يكذبون موسى، ويتهمونه بالخداع لهم بهذه الأمانى التي يحدثهم بها.. وقد برأ اللّه موسى من هذا الاتهام الوقح، فصدقه الوعد الذي وعده، ونجّى القوم على يديه من فرعون، وأراهم من آيات اللّه عجبا.. والمنافقون ومن في قلوبهم مرض من المسلمين، هم المعنيون بهذا الأمر الذي تحمله الآية الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

هداية وتدبر[1]

١. يقول تعالى ذكره للمؤمنين باللّه ورسوله، لا تؤذوا الرسول ﷺ بالقول أو العمل، مما يكرهه ولا يحبه، ولا تكونوا مثل الذين آذوا موسى، كتعييبه كذبا وزوراً، أو تعجيزه برؤية اللّه جهراً، أو تركه يقاتل وحده، أو مطالبته بأنواع من الطعام، فبرأه اللّه مما قالوا من الكذب والزور، وكان موسى عند الله مشفعًا فيما يسأل ذا وجه ومنزلة عنده بطاعته إياه. ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل.

٢. هذا تعليم للمؤمنين ونهي لهم من إيذاء نبيهم كما أوذي موسى عليه السلام. وفي هذا أيضاً تسلية لرسول اللّه ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال: «**رحمة اللّه على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**».

٣. ضرب الله بني إسرائيل مثلاً للالتواء والانحراف في مواضع من القرآن كثيرة. فيكفي أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم. وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه، لينفر حس كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلا صارخاً للانحراف والالتواء.

٤. عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلا حَيِيًّا سِتِّيرًا لا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا**

---

(١) أَحْكَام الْقُرْآن لابن الْعَرَبِيّ، ج٦، ص٤٣٣. جامع البيان/ أبو جعفر الطبري. التفسير المنير/ وهبة الزحيلي. في ظلال القرآن.

فذلك قوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ .. ﴾[1].

٥. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به، فبرأه الله مما آذوه به. وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم: إنه أبرص. وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون. وجائز أن يكون كل ذلك؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا.

٦. النهي عن التشبه ببني إسرائيل في إذاية نبيهم موسى: وفيه تحقيق الوعد بقوله: **{لتركبن سنن من كان قبلكم}**. فوقع النهي، تكليفاً للخلق، وتعظيماً لقدر الرسول ﷺ ووقع المنهي عنه تحقيقا للمعجزة، وتصديقا للنبي ﷺ وتنفيذا لحكم القضاء والقدر.

٧. من مظاهر إيذاء النبي ﷺ ما رواه الترمذي وأبو داود عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: قال: قال رسولُ الله ﷺ : **«لا يُبَلِّغْني أحد عن أحد من أصحابي شيئا، فإني أُحِبُّ أن أخرجَ إليهم وأنا سليمُ الصدر»**. قال عبد الله: فأُتِيَ رسولُ الله ﷺ بمال، فقسمه النبيُّ ﷺ فانتهيتُ إلى رجلين جالسين، وهما يقولان: والله، ما أراد محمد بقسمته التي قسمها وجه الله، ولا الدَّارَ الآخرة، فتَثَبَّتُّ حتى سمعتُها، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُهُ، فاحمَّر وجهُه، فقال: **«دَعْني عنك، فقد أُوذي موسى بأكثر من هذا فَصَبَر»**. وفي رواية قال: قال رسولُ الله ﷺ : **«لا يبَلِّغني أحد عن أحد شيئا»**[2].

....

(١) صحيح البخارى- أحاديث الأنبياء - حديث ٣٤٤٠. ومسند أحمد- مسند أبى هريرة - حديث ١٠٩٦٣.

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول. ٦٢٢٢.

المعاني المفردة[1]

«آذَوْا» التنقيص، وقلة الأدب. يقال: آذيته أو أذيته إيذاءً وأذية وأذى، ومنه: الأذي، وهو الموج المؤذي لركاب البحر.

«فَبَرَّأَهُ» فطهره ونزه مقامه عن تنقيصهم، بأن حقق فضله، وأسمى منزلته، وآتاه الوجاهة – وهي العظمة والقرب – عنده.

«وَجِيهاً» الوجيه: سيد القوم ذو الجاه والوجاهة يقال وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه. محببا مقبولاً. والوجيه عند الله العظيم القدر الرفيع المنزلة.

الإعراب[2]

– **«لا»** ناهية. **وتكونوا**: فعل مضارع ناقص مجزوم بلا، **والواو** اسمها. «**كالذين**» خبرها على أن الكاف اسم بمعنى مثل والذين مضاف إليه ويجوز أن تكون جارة والجار والمجرور خبر تكونوا. وجملة «**آذوا موسى**» صلة. **«فَبَرَّأَهُ» الفاء عاطفة**. **«برأه اللّه»** فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر. «**مما**» يجوز أن تكون ما موصولة أو مصدرية أي من الذي قالوه أو من قولهم وعلى كل هو متعلق ببراءة. **والواو** عاطفة. «**وكان**» فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هو يعود على موسى. **وعند اللّه**: متعلق بوجيهاً ووجيها: خبر كان.

– **«وجيها»** صفة مشبّهة من الثلاثيّ وجه باب كرم أي صار ذا جاه، وزنه فعيل.

المناسبة في السياق[3]

قال البقاعى: السبب في هذا التهديد كله ما كانوا يتعمدونه من أذى رسول الله ﷺ بقولهم: تزوج امرأة ابنه، وغير ذلك. من مثل ما ورد أن بعض الناس لم يرض بقسمة الرسول، وبحكمه في الفيء، وهذا بلا شك إيذاء.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن/ الراغب الأصفهاني. صفوة التفاسير/ للصابونى. فتح القدير/ الشوكاني. محاسن التأويل/ القاسمي. مختصر تفسير البغوي. إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش.

(٢) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش. الجدول في إعراب القرآن.

(٣) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ/ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش. التفسير الواضح/ محمد محمود حجازى.

النداء السادس والستون

قولوا قولا سديدا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)﴾ [الأحزاب].

بين يدي النداء

الأمر من الله للمؤمنين بالقول السديد يدخل في عموم الأمر بالتقوى، ولكن الله سبحانه خصَّ القول السديد بالأمر به زيادةَ عناية بتقويم الأقوال، واستقامة اللسان، فالعطف من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لتمام العناية بالقول السديد.

وكما دلَّت هذه الآية بمنطوقها على الأمر بالقول السديد؛ فقد دلَّت بمفهومها على تحريم الأقوال الباطلة المحرَّمة أو المكروهة، وجاءت النصوص من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تنهى بمنطوقها عن أقوال الباطل والأقوال المحرَّمة، وتوجِب حفظَ اللسان والقلم من كلِّ قولٍ محرَّم.

عن معاذ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِرْوَةِ سَنَامِه**»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذِرْوَة سَنَامِه الجهاد»، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟؛ قلتُ: بلى يا رسول الله. قال: فأخذ بلسانه، قال: «كُفَّ عليك هذا». قلتُ: يا نبي الله، وإنَّا لمؤاخَذون بما نتكلم به؟! قال: «ثَكِلَتْكَ أمُّكَ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم - أو على مناخِرِهم – إلا حصائد ألسنتهم!! »[1].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «**إن الرجل ليتكلَّم بالكلمة، ما**

---

(١) رواه الترمذي، وقال:حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، من حديثٍ طويلٍ.

يتبيَّن ما فيها – يذلُّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» (1).

وعن أبي هريرة أيضًا، عن النبيﷺ - قال: «**إن الرجل ليتكلَّم بالكلمة، لا يرى بها بأسًا – يهوي بها سبعين خريفًا في النار**»(2).

ومما نهى الله عنه: قول الزُّور؛ قال عز وجل: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [**الحج**: ٣٠]، وعن أبي بكرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها؛ حتى قلنا: ليته سكت(3).

ومما نهى الله عنه: لَبْسُ الحقِّ بالباطل؛ لتزيين الباطل ومدحه، وتحبيبه إلى النفوس، أو التنفير من الحق وخذلانه وذمِّه، والنيل منه أو من أهله؛ قال تعالى عن أهل الكتاب أيضًا: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [**آل عمران**: ٧١]، والنهي نهيٌ لنا؛ لأننا نُهينا أن نتشبَّه بهم.

وإذا اقترن باللَّبْس سوء نيَّة المتكلِّم؛ فقد عظم العقاب، ووقع الفساد؛ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [**الكهف**: ٢٩]، وأنفع شيءٍ للإنسان: بيان الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال.

ومما نهى الله عنه: الغيبة والنميمة، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قتَّات»؛ أي: نمام، والشتم والاستهزاء والسخرية والكذب من الكبائر، ومن آفات اللسان، فامتثال الأمر في القول السديد لا يكون إلا بفعله، وبترك ما يضادّه من الأقوال الباطلة. فيا مَن اتقى الله وقال قولاً سديدًا، أبشر بأعظم الثواب والأمن من العقاب، فالربُّ لا يخلِف الميعاد، ولا يظلم مثقال ذرَّة، وقد بشَّر ربنا على التقوى والقول السديد بصلاح الأعمال ومغفرة

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه البخاري ومسلم.

الذنوب؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أرأيتم التأمين على الحياة، والتأمين على التجارة، والتأمين على المؤسسات! تقوى الله والقول السديد هو الذي يؤمِّن الله به مستقبل الإنسان، هو الذي يحفظ الله به العبد في تقلُّباته وأموره كلها، هو الذي يُصلِح الله به الدنيا والآخرة، هو الذي يُزكِّي الله به الأعمال، ويبارك فيها ويحفظها.

ومَرَدُّ هذا الإصلاح والثواب ومغفرة الذنوب وحسن الرعاية من الله: أن الله تعالى أخبر أنه مع المتقين، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

هداية وتدبر[1]

١. يوجه القرآن المؤمنين إلى تسديد القول وإحكامه والتدقيق فيه ؛ ومعرفة هدفه واتجاهه، قبل أن يتابعوا المنافقين والمرجفين فيه؛ وقبل أن يستمعوا في نبيهم ومرشدهم ووليهم إلى قول طائش ضال أو مغرض خبيث. ويوجههم إلى القول الصالح الذي يقود إلى العمل الصالح.

٢. فالله يرعى المسددين ويقود خطاهم ويصلح لهم أعمالهم جزاء التصويب والتسديد. والله يغفر لذوي الكلمة الطيبة والعمل الصالح؛ ويكفر عن السيئة التي لا ينجو منها الآدميون الخطاءون. ولا ينقذهم منها إلا المغفرة والتكفير.

٣. طاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها؛ وهي الفوز العظيم، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم. أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة. فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل. والله يرزق من يشاء بغير حساب.

---

(١) تفسير المنتخب/ لجنة من علماء الأزهر. تفسير المراغي/ أحمد مصطفى المراغي. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/ أبو بكر الجزائري. التفسير القرآني للقرآن/ الدكتور عبد الكريم الخطيب. الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي. التفسير المنير/ الزحيلي.

٤. هذه هى صفات المؤمنين حقّا، وذلك هو منطقهم، وتلك هى سبيلهم.. إنهم على إيمان وثيق باللّه، قد امتلأت قلوبهم بتقواه، وخشيته، فلا يقولون زوراً، ولا ينطقون بهتاناً، وإنما قولهم الحق، ومنطقهم الصدق.. وبهذا يصلح اللّه أعمالهم، ويتقبلها منهم، ويغفر لهم ذنونهم.. وهذا لا يكون إلا لمن أطاع اللّه ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.. إذ إنه لا فوز أعظم من النجاة من عذاب اللّه، والفوز بدخول الجنة: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٥. أمر سبحانه المؤمنين بشيئين: الصدق في الأقوال، والخير فى الأفعال، وبذلك يكونون قد اتقوا اللّه وخافوا عقابه، ثم وعدهم على ذلك بأمرين:

١) إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم في الجنة خالداً فيها أبدا.

٢) ومغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم.

٦. القول السديد هو لا إله إلا الله وهو القصد الحق، وهو الذي يوافق ظاهره باطنه، وهو ما أريد به وجه الله دون سواه وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض والقول السديد الصائب يعم الخيرات فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك.

٧. أوجب اللّه تعالى الخير في الأفعال أو التقوى، والصدق في الأقوال وهو ما يقابل الأذى المنهي عنه بالنسبة للرسول ﷺ والمؤمنين . ووعد اللّه تعالى أنه يجازي على القول السديد، وتقوى اللّه بإصلاح الأعمال (أي قبولها وجعلها صالحة لا فاسدة بتوفيقهم إليها) وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة. ومن يطع اللّه ورسوله ﷺ فيما أمر به ونهى عنه، فقد نجا من النار وفاز بالجنة، أو وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي.

....

المعاني المفردة[1]

قَوْلاً سَدِيداً: صواباً. والقول السديد: القول الصدق الذي يراد به الوصول إلى الحق، من قولهم: سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرميّ ولم يعدل به عن سمته. مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

الإعراب[2]

اتقوا اللّه: فعل أمر وفاعل ومفعوله. **وقولوا** فعل أمر وفاعل. **وقولاً**: مفعول مطلق. **وسديداً**: نعت.

مناسبة الآية في السياق

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول اللّه ﷺ بقول أو فعل، أرشدهم إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سبباً في الفوز والنجاة في الدار الآخرة، والقرب من اللّه سبحانه والحظوة إليه.

---

(١) تفسير الجلالين – المحلي والسيوطي. تفسير المراغي/ أحمد مصطفى المراغى.

(٢) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش.

النداء السابع والستون

إن تنصروا الله ينصركم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

بين يدي النداء

قضى الله أن يكون الصراع بين الحق والباطل ظاهراً متلازماً إلى قيام الساعة، فمهما صال الباطل وانتفش وكشّر عن أنيابه وانتعش، إلا أنه إلى نهاية زوال: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء: ٨١].

والناظر في هذا الزمن يرى أن الصراع بلغ ذروته ومنتهاه، واستوى على أشده، حتى أصبح الكفر ملة واحدة، ضد الإسلام والمسلمين ودعاته الصادقين، فسيم المسلمون ألوان العذاب، وعاث الأعداء في الأرض الفساد، وبلغ المسلمون من الذلة والمهانة واستخفاف أعدائهم بهم مبلغاً عظيماً، حتى خيّل لبعضهم أن الحق مع قوته وحقيقته لن ينتصر، ودب اليأس في صفوف الآخرين وقلوبهم إلا ما رحم ربي، وأصبح المسلم في هذا الزمن يردد ما كان يردده المسلم من قبل في زمن نزول الرسالة قائلاً: متى نصر الله؟

لا شك أن أعز مقاصدك وأشهى مطالبك في هذه الحياة، أن ترى دينك منتصراً، وكتابك ظاهراً، ورايتك خفاقة عالية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل تتحق هذه الأهداف، وتلك المقاصد بالدعاوى والأمنيات؟

أسباب تحقيق النصر

١- إقامة توحيد الله عز وجل وشرعه في الأرض والحكم به والتحاكم إليه وترك ما سوى ذلك من القوانين الوضعية والأحكام البشرية ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ

ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ .

٢- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

٣- الصدق مع الله عز وجل والتوكل عليه والالتجاء إليه والاعتصام به والخوف منه وحده ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾[آل عمران: ١٧٣].

٤- التسلح بالإيمان والتوبة إلى الله والرجوع إليه ويقظة المسلمين مما هم فيه من الغفلة والضياع ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

٥- توحيد الصفوف وإصلاح الآخرين ورأب الصدع وتأليف القلوب وجمع الكلمة حتى لا ينخر في سفينة الأمة من يغرقها «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» [رواه البخاري ٤٨١]

٦- التربية الجادة للأمة بإحياء السلوك الإسلامي فيها والقضاء على السيئ منها ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٥].

٧- إحياء روح الجهاد في سبيل الله وإعداد النفوس لذلك ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١].

٨- تقوية الصلة بالله تعالى والتوجه إليه في السراء والضراء والمحنة والمنحة ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات:٥٠].

٩- تحقيق مفهوم الولاء لله عز وجل ولمن يحبهم سبحانه وتعالى من الأنبياء والصالحين ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].

١٠- البراءة من كل ما يُعبد من دون الله تعالى والكفر به ومعاداته ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف].

١١- التضحية بالغالي والنفيس، والإنفاق في سبيل الله مع تخليص النفس من الشح وحب الدنيا والركون إليها ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

١٢- إرهاب العدو بإعداد العدة الجسمية والعقلية والعسكرية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

١٣- طلب الشهادة في سبيل الله، والتطلع إليها بشتى الوسائل مع الصدق في النية **«من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»**. [رواه مسلم: ١٩٠٩]

١٤- الإلحاح على الله عز وجل بالدعاء بتثبيت قلوب المؤمنين على هذا الدين والانتصار على الكافرين ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

هداية وتدبر(١)

* يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، إن تنصروا الله ينصركم بنصركم رسوله محمداً ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمته العُليا ينصركم عليهم، ويظفركم بهم، فإنه ناصر دينه وأولياءه. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: ويقوّكم عليهم، ويجرّئكم، ويوطد أمركم حتى لا تولوا عنهم، وإن كثر عددهم، وقلّ عددكم. فتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب.

* قال قتادة: حق على الله أن يعطي من سأله وينصر من نصره.

* إن نصرة الله تعالى من العبد بنصرة دينه جل شأنه بإيضاح الدليل وتبيينه وشرح

---

(١) (جامع البيان في تأويل القرآن). (توفيق الرحمن). (روح المعاني). (التفسير المنير). (مفاتيح الغيب). (تفسير المنار). (ابن عاشور). (التفسير الواضح). (التفسير القرآني). (في ظلال القرآن).

فرائضه وسننه وإظهار معانيه وأسراره وحقائقه بالجهاد عليه وإعلاء كلمته وقمع أعدائه. أما نصرته تعالى للعبد فبإرسال الرسل وإنزال الكتب وإظاهر المعجزات والآيات وتبيين السبل إلى النعيم والجحيم ثم بالأمر بالجهاد الأصغر والأكبر وتوفيق السعي فيهما طلبا لرضاه عز وجل، ويقوى روحكم المعنوية تقوية بها تخوضون غمار الحرب فائزين منتصرين، وقد حصل ذلك مع النبي وصحبه.

* إن نصر اللّه مرهون بأمرين: الإعداد المادي والمعنوي للجهاد كما قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ ونصرة دين اللّه وتطبيق شرعه وتنفيذ أحكامه. وبالقيام بما أمر به ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الاتّكال على مجرد الاتّصاف بالإسلام قولاً لا عملاً، وطلب النّصر بخوارق العادات، والأدعية فقط، دون إعداد ولا تحقيق الصفة الإسلامية الحقّة التي اتّصف بها السّلف الصالح، فلا يحقق شيئاً من النّصر المرتجى على العدو في فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام المعتدى عليها، أو المحتلّة.

* وإنما نصر الله أن يقصد بالحرب حماية الحق وتأييده وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاة الله ومثوبته، وآيته مراعاة سنن الله في أخذ أهبته، وإعداد عدته، التي أرشد إليها كتابه العزيز في مثل قوله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾، وقوله: ﴿ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، والإيمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية، يكون مرجحاً بين من تساوت أسبابهم الأخرى، فليس النصر به من خوارق العادات. ولكنه يقتضي الاستعداد وأخذ الحذر، وإنما غُلب المسلمون في هذه القرون الأخيرة وفتح الكفار بلادهم التي فتحوها هم من قبل بقوة الإيمان، وما يقتضيه من الأعمال؛ لأنهم ما عادوا يقاتلون لإعلاء كلمة الله وتأييد الحق ونشر الإسلام، ولا عادوا يعدون ما استطاعوا من قوة كما أمرهم القرآن، فهم يستطيعون أن ينشئوا البوارج المدرعة، والمدافع المدمرة ويتعلموا ما يلزم لها وللحرب من العلوم الرياضية والطبيعية والميكانيكية، وهي فرض عليهم بمقتضى قواعد دينهم؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد

تركوا كل ذلك بل صار أدعياء العلم فيهم يحرمون ذلك عليهم.

* وتثبيت الأقدام: تمثيل لليقين وعدم الوهن بحالة من ثبتت قدمه في الأرض فلم يَزِل، فإن الزلل وهَن يسقط صاحبه، ولذلك يمثَّل الانهزام والخيبة والخطأ بزلل القدم قال تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

* ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.. إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سبباً فيه. وهذا صحيح. ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه. فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر ﷺ والإيمان، وبين الحق والضلال. فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة. للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر. وفي عدم التراخي بعده والتهاون. وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء. ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر. ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن. والعلم لله.

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم مهما كانوا فاللّه يدافع عن الذين آمنوا واللّه يثبت أقدامكم في الحرب.

* وفى إسناد نصر اللّه إلى المؤمنين تكريم لهم، ورفع لقدرهم، وإنزالهم منزلة المعين للّه، المؤيّد له، واللّه سبحانه غنى عن كل معين ومؤيد. إذ كل شى ء فى هذا الوجود هو منه، وله. لا يملك أحد شيئا. فكيف يطلب النصر من خلقه الذين لا يقوم وجودهم لحظة واحدة إلا بحفظه، ورعايته؟ إن ذلك ـ كما قلنا ـ هو تكريم للمؤمنين، وإحسان من اللّه إليهم. كما فى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]. فاللّه سبحانه هو المعطى لكل ما فى أيدى الناس. ثم هو سبحانه ـ فضلاً وإحساناً منه ـ يدعوهم إلى أن يقرضوه مما أعطاهم!!.

وفى قوله تعالى: ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ـ إشارة إلى أن نصر المؤمنين للّه، ليس

نصراً على حقيقته، وإنما هو مظهر من مظاهر الطاعة والولاء للّه. وإلا فإن النصر الحقيقي هو الذي يمنحه اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين، ويمدهم بالأسباب الممكنة لهم منه. فهو سبحانه الذي ينصرهم على عدوهم، وثبت أقدامهم فى مواقع القتال على حين يملأ قلوب الذين كفروا رعبا وفزعا .. ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]. ومع أن هذا النصر من عند اللّه، فإنه محسوب للمؤمنين، يلقون عليه أحسن الجزاء فى جنات النعيم.

المعاني المفردة[١]

تَنصُرُوا: نَصَر اللهُ المسلمين: آتاهمُ الظّفرَ على عدوِّهم، ينصرهم نَصْراً. والنَّصْر العَطاء.

وَيُثَبِّتْ: ثَبَتَ الشيءُ يَثْبُتُ ثَباتاً وثُبوتاً فهو ثابتٌ وثَبِيتٌ وثَبْتٌ، وأَثْبَتَه هو، وثَبَّتَه بمعنىً. وشيء ثَبْتٌ: ثابتٌ. ويقال ثَبَتَ فلانٌ في المَكان يَثْبُتُ ثُبُوتاً، فهو ثابتٌ إِذا أَقام به. لا يَبْرَحُ.

الإعراب[٢]

إن: شرطية. **تنصروا**: فعل الشرط. **واللّه**: مفعول به. **ينصركم**: جواب الشرط. **ويثبت أقدامكم**: عطف على الجواب ولا بدّ من حذف مضاف أي دين اللّه ورسوله.

القراءات

﴿**وَيُثَبِّتْ**﴾: قرأه العامَّةُ مُشَدَّداً. ورُوي عن عاصم تخفيفُه مِنْ أَثْبَتَ.

النداء الثامن والستون

لا تبطلوا أعمالكم

(١) مقاييس اللغة. ولسان العرب.

(٢) إعراب القرآن وبيانه/ محي الدين درويش.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣].

بين يدي النداء

[هذا التوجيه يوحي بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة؛ أو من تثقل عليه بعض التكاليف، وتشق عليه بعض التضحيات، التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تقف للإسلام، وتناوشه من كل جانب؛ والتي تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب فصمها والتخلي عنها نهائياً كما تقتضي العقيدة ذلك.

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفاً عميقاً في نفوس المسلمين الصادقين، فارتعشت له قلوبهم، وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم، ويذهب بحسناتهم..

قال الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: .. عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.. فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وروي من طريق عبد الله بن المبارك، .. عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.. فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش. حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦].

فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك. فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها.

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات

القرآن : كيف تهتز لها وتضطرب، وكيف ترتجف منها وتخاف، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها، وكيف تتحرى أن تكون وفقها، وأن تطابق أنفسها عليها . . وبهذه الحساسية في تلقي كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز![1]]

هداية وتدبر[2]

* يقول تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما، وكفركم بربكم والنفاق ثواب أعمالكم فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح. ولا تكتفوا بكلمة الشهادة:

عن أبى العالية قال: كان أصحاب النبى ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت هذه الآية، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

* أطيعوا الله بتوحيده، وأطيعوا الرسول بتصديقه. وأطيعوا الله في حرمة الرسول، وأطيعوا الرسول في تعظيم الله.

* لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي، ولا تبطلوها بالكبائر، ولا تبطلوها بالرياء والسمعة، وأخلصوها لله.

* الآية اعتراض بين جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٢]، وبين جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن. التحرير والتنوير. الوسيط في تفسير القرآن الكريم/ سيد طنطاوي. تيسير التفسير/ اطفيش. أيسر التفاسير/ أسعد حومد. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير. تفسير الماوردى : النكت والعيون.

[محمد: ٣٤].

وُجه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ وتجنب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتباراً بما حكي من حال المشركين في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ.

فوصف الإيمان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقابل وصف الكفر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[محمد: ٣٢]، وطاعة الله مقابل الصدّ عن سبيل الله، وطاعةُ الرسول ضد مشاقة الرسول ﷺ والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا. فطاعة الرسول ﷺ التي أمروا بها هي امتثال ما أمَر به ونهَى عنه من أحكام الدين. وأما ما ليس داخلاً تحت التشريع فطاعة أمر الرسول ﷺ فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله ﷺ في مراجعة زوجها مُغيث لمّا علمتْ أن أمره إياها ليس بعزم.

* ومعنى النهي عن إبطالهم الأعمالَ: النهي عن أسباب إبطالها، بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بيَّن الدِينُ أنه مبطل للعمل كلاً أو بعضاً مثل الردة ومثل الرياء في العمل الصالح فإنه يبطل ثوابه. وهو عن ابن عباس قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلاً لثواب الأعمال الصالحة ويحمل هذه الآية على ذلك، وقد قالت عائشة لما بلغها أن زيد بن أرقم عقد عقداً تراه عائشة حراماً: «أخبروا زيداً أنه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يترك فعله هذا» ولعلها أرادت بذلك التحذير وإلا فما وجهُ تخصيص الإحباط بجهاده وإنما علمتْ أنه كان أنفس عمل عنده.

* عن الحسن البصري والزهري: «لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر». وأحسن أقوال السلف في ذلك ما رويَ عن ابن عمر قال: « كنا نرى أنه ليس شيء من

حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فكففنا عن القول في ذلك وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها» اهـ. والذي جاء به القرآن وبينته السنة الصحيحة أن الحسنات يُذهبن السيئات ولم يجيء: أن السيئات يذهبن الحسنات، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

* وحمل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ على معنى النهي عن قطع العمل المتقرب به إلى الله تعالى. وإطلاق الإبطال على القطع وعدمِ الإتمام يشبه أنه مجاز، أي لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه، فأخذوا منه أن النفل يجب بالشروع لأنه من الأعمال، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقاً. ومالك قال بوجوب سبْع نوافل بالشروع، وهي: الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد. ولم يرَ الشافعي وجوباً بالشروع في شيء من النوافل **وهو الظاهر**.

* العطف ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم، كأنه تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير.

* ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهاً **أحدها:** دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]. **الوجه الثاني:** ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إلى أن

قال: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجُرات: ٢]. **الثالث:** ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ [الحجُرات: ١٧] وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لأجل قلبك، ولولا رضاك به لما فعلت، وهو مناف للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص.

....

المعاني المفردة[1]

أَطِيعُوا: طاع له يَطُوعُ ويَطاعُ: انْقادَ.

تُبْطِلُوا: تحبطوا وتضيعوا ثوابها من بَطَل الشيء يَبْطُل بُطْلاً وبطلاناً: ذهب ضياعاً وخسراً. والإبطال: جعل الشيء باطلاً، أي لا فائدة منه، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة.

سبب النزول[2]

أخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وقيل: إن بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم منّوا بذلك فنزلت فيهم هذه وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ [الحجُرات: ١٧].

---

(١) لسان العرب. التحرير والتنوير/ ابن عاشور. تفسير آيات الأحكام/ الصابوني.

(٢) روح المعاني/ الالوسي. وأسباب النزول للواحدي.

الإعراب

(**أيها**) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب. (**الذين**) في محل نصب بدل من أي - أو عطف بيان عليه - (**الواو**) عاطفة (**لا**) ناهية جازمة.. جملة: «النداء..» لا محل لها استئنافية. وجملة: «**آمنوا**..» لا محل لها صلة الموصول (**الذين**). وجملة: «أطيعوا الله..» لا محل لها جواب النداء. وجملة: «**أطيعوا الرسول**..» لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء. وجملة: «**لا تبطلوا**..» لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء.

المناسبة في السياق

لما حدى ما تقدم كله من ترغيب المخلص وترهيب المتردد والمبطل إلى الإخلاص، ودعا إلى ذلك مع بيان أنه لا غرض أصلاً، وإنما هو رحمة ولطف وإحسان ومنّ، أنتج قوله منادياً من احتاج إلى النداء من نوع بعد لاحتياجه إلى ذلك وعدم مبادرته قبله: **{يا أيها الذين آمنوا..}** ولما كانت الطاعة قد تحمل على إقامة الصورة الظاهرة، قال منبها على الإخلاص لتكمل حساً ومعنى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي بمعصيتهما.

النداء التاسع والستون

لا تقترحوا على الله ورسوله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجُرات: ١].

بين يدي النداء

من المعروف أنه كان عند العرب جفاء وغاظة. وشدة في الحديث والإسلام العظيم انما جاء ليبعث فيهم مكارم الأخلاق. ويربيهم ومن آمن به من الأمم. على الكمالات الإنسانية والفضائل العليا السامية. وهذه الآية من تلك الآيات القرآنية التي رسمت لهم طريق الهدى والرشاد. وفيها بيان للأدب الرفيع، أدّب الله به عباده المؤمنين فيما يجب أن يعاملوا به رسوله الأمين محمداً ﷺ من التوقير، والتبجيل، والاحترام، والإكرام. فناداهم وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. فهي أمر بمكارم الأخلاق، ورعاية أدب الخطاب، مع أشرف مخاطب، وأنبل إنسان، وأكرم رسول، وخير العالمين، وسيد المصطفين الأخيار.

فالله تعالى ينهى المؤمنين عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهو معنى قول الله عز وجل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله. وقول رسوله ﷺ وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومن قدم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول إنما يأمر عن أمر الله عز وجل ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

ويدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حيث

قال له النبي ﷺ حين بعثه الى اليمن: «بم تحكم ؟» **قال: بكتاب الله تعالى: قال ﷺ: «فان لم تجد ؟» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال: «فان لم تجد ؟» قال رضي الله عنه: اجتهد رأيي. فضرب في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله».**

ولقد أخر معاذ رضي الله عنه رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة. ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله، وقد نهى الله تبارك وتعالى عنه في هذه الآية الكريمة من أول سورة الحجرات. وهذا الأمر عام شامل لكل أمر ولكل حكم فلا يجوز للمسلم أن يقدم أي عمل ما لم يكن موافقاً لكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ. وإلا كان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله. وهذا ما يجب أن يتحاشاه المسلم. ففي التقديم بين يدي الله ورسواه الهلاك والخسارة وإحباط العمل.

هداية وتدبر[١]

* يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، وبنبوّة نبيه محمد ﷺ لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكيّ عن العرب فلان يقدّم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه.

* هو أدب نفسي مع الله ورسوله. وهو منهج في التلقي والتنفيذ. وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته. وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها. هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم.. وكل ذلك في آية واحدة قصيرة، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة.

* **[مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)]** هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ

---

(١) تفسير الطبري. روح المعاني. مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير). التفسير المنير. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. في ظلال القرآن.

بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء:]، فوصفهم ـ سبحانه ـ بأنهم لا يسبقونه بالقول، وأنهم بأمره يعملون،فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر ـ سبحانه ـ بما يخبر به؛ فيكون خبرهم وقولهم تبعًا لخبره وقوله، كما قال: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ **وأعمالهم تابعة لأمره، فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به، فهم مطيعون لأمره – سبحانه – .**

*** دلت الآيات على ما يأتي :**

١. وجوب طاعة اللَّه تعالى ورسوله ﷺ، وتقديم حكم القرآن والسنة على ما سواهما. فلا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجترئوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله تعالى ورسوله ﷺ به ويأذنا فيه. فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه.. تقوى منه وخشية، وحياء منه وأدباً..

٢. تعليم العرب وغيرهم مكارم الأخلاق وفضائل الآداب، إذ كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس.

٣. قال القرطبي وابن العربي: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به. وربما احتج نفاة القياس بهذه الآية، وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالته، فليس في فعله تقديم بين يديه، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشريعة، فليس فيه تقديم بين يديه.

٤. الأمر بالتقوى وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية، ومنها التقدم بين يدي اللَّه تعالى ورسوله ﷺ المنهي عنه، واللَّه يراقب الناس، فهو سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم.

* أعمال المجالس التشريعية اليوم من أهم مهامها التقديم بين يدي الله ورسوله فهم

يصيغون القوانين والتشريعات بعيداً عن النظر فيما يحكم الله ويشرِّع.

يقول محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان: «وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله، لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله».

❋ ١- وجوب تقديم حكم الله تعالى وحكم رسوله على رأينا واجتهادنا.

٢ - يجوز الاجتهاد بالرأي عند عدم وجود نص من الكتاب والسنة.

٣- يجب أن يكون الحكم في الاجتهاد بالرأي قريبا إلى مراد الله ورسوله.

٤- إذا ظهر للمجتهد نص من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله، ترك رأيه واجتهاده، وأخذ بما ظهر له من النص.

....

المعاني المفردة

لا تُقَدِّمُوا: لا تتقدموا بقول أو فعل.

بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: قبل الرجوع إلى الله وإلى الرسول في حياته وإلى القرآن والسنة بعد مماته. لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله.

سبب النزول[1]

أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت الآية.

وقيل: إنها نزلت في قوم ذبحوا قبل النبي، فأمرهم أن يعيدوا الذبح.

قال قتادة: ذُكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا . لو صح كذا . فكره الله تعالى ذلك.

الإعراب والبلاغة[1]

- «**الذين**» عطف بيان، جملة «**واتقوا**» معطوفة على جملة «**لا تُقَدِّموا**».

- استعارة تمثيلية: في قوله تعالى «**لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**» . استعارة تمثيلية، للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته، تصويرا لهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نهوا عنه، كتقدم الخادم بين يدي سيده في سيره، حيث لا مصلحة فالمراد: لا تقطعوا أمرا وتجزموا به وتجترئوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله تعالى ورسوله (ﷺ) به ويأذنا فيه.

---

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

النداء السبعون

الأدب مع نبينا في الحديث والخطاب

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحُجُرات: ٢].

بين يدي النداء

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: متى الساعة ؟! قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟». قال: إني أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت».

بهذا الحب تلقى رسول الله ﷺ على الحوض فتشرب الشربة المباركة الهنيئة التي لا ظمأ بعدها أبداً.

قال القرطبي: كان ثوبان مولى رسول الله ﷺ شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له النبي ﷺ: «ما غير لونك؟!». قال: يا رسول الله.. ما بي ضر ولا وجع غير أنى إذا لم أراك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين، وأنى إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل لا أراك أبداً، فأنزل الله عز وجل قوله: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

رحم الله ثوبان.. حاله مع رسول الله ﷺ كما قال الشاعر:

الحـــزن يحرقـــه والليـــل يقلقـــه = والصـــبر يسكتـــه والحـــب ينطقـــه

ويســـتر الحـــال عمـــن لـيـــس = يعـذره وكيـف يسـتره والـدمع يسـبقه

قال الحسن بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي ﷺ، فإنه قال فيه: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وقال في نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

اصـــبر لكـــل مصيـــبة وتجلـــد = واعلـــم بـــأن المـــرء غـــير مخـــلد

واصـبر كمـا صبـــر الكـــرام فإنهـــا = نـــوب تنـــوب اليـــوم تكشـــف في غـــد

وإذا أتـتـــك مصيبـــة تبلـــى بهـــا = فاذكـــر مصـــابك بـــالنبي محمـــد

لما فقده الجذع الذي كان يخطب عليه قبل اتخاذ المنبر حن إليه وصاح كما يصيح الصبي، فنزل إليه فاعتنقه، فجعل يهذي كما يهذي الصبي الذي يسكن عند بكائه، فقال ﷺ: « لو لم أعتنقه لحنّ إلى يوم القيامة ».

كان الحسن البصري إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

قد تمر علينا هذه الكلمات مروراً عابراً لكنها لم تكن كذلك مع رجل من أمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي قال: يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**».

قال الخطابي: «فمعناه أن تصدق في حبي حتى تفنى نفسك في طاعتي، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك».

ولـــو وزنـــت بـــه عـــرب وعجـــم = جعلـــت فـــداه مـــا بلغـــوه وزنـــاً

إذا ذكـــر الخليـــل فـــذا حبيـــب = عليـــــه الله في القـــــرآن أثنـــــى

وإن ذكـــروا نجـــى الطـــور فـــاذكر = نجـــى العـــرش مفتقـــراً لتغنـــى

وإن الله كلـــــم ذاك وحيـــــاً = وكلـــــم ذا مخـاطبــــة وأثنـــــى

ولـــو قابلـــت لفظـــة لـــن ترانـــي = لـــ«مـا كـذب الفـؤاد» فهمـت معنـى

فموســـى خـــر مغشـــياً عليـــه = وأحمـــد لم يكـــن ليزيـــغ ذهنـــاً

وإن ذكـــروا سليمـــانًا بملـــك = فحـــاز بـــه الكنـــوز وقـــد عرضـــنا

فبطحـــا مكـــة ذهبـــاً أباهـــا = يبيـــد الملـــك واللـــذات تفنـــى

وإن يـــك درع داود لبوســـاً = يقيـــه مـــن اتّقـــاء البـــأس حصـــنا

فـــدرع محمـــد القـــرآن لمـــا = تـــلا: «والله يعصمـــك» اطمأنـــا

وأغـــرق قومـــه في الأرض نـــوح = بـــدعوةٍ: لا تـــذر أحـــداً فـــأفنى

ودعـــوة أحمـــد: رب اهـــد قومـــي = فهـــم لا يعلمـــون كمـــا علمنـــا

وكـــل المرســـلين يقـــول: نفســـي = وأحمـــد: أمـــتي إنســـاً وجـــنا

وكـــل الأنبيـــاء بـــدور هـــدي = وأنـــت الشـــمس أكملـــهم وأهـــدى

هداية وتدبر[1]

* يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب، وَلاَ تَبلُغُوا بها الحَدَّ الذي يَبْلُغُهُ صَوْتُهُ، ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً: يا محمد، يا محمد، بَلْ خَاطُبوهُ بالنُّبُوَّةِ (كَيَا نَبِيَّ اللهِ، وَيَا رَسُولَ اللهِ) مَخَافَةَ أَنْ يُؤَدِّيَ ذلِكَ التَّهَاوُنُ فِي تَوْقِيَةِ الرَّسُولِ حَقَّهُ مِنَ الاحتِرامِ، إِلى الكُفْرِ وَبُطْلانِ الأعْمَالِ، وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ بِذلِك.

(١) جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري. التأدب مع رسول الله في ضوء الكتاب والسنة/ حسن نور حسن. تفسير أيسر التفاسير/ أسعد حومد. الفروق اللغوية/ أبو هلال العسكري. في ظلال النداء.

* **يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية:** «هذا أدب ثان أدّب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته[1].

والأدب هنا يحصل بمجانبة أمرين اثنين: **أولاهما:** رفع الصوت فوق صوته ﷺ أخذاً من النهي الوارد في قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [**الحُجُرات:** ٢].

ثانيهما: الجهر بالقول له ﷺ كالجهر بعضهم بعضاً أخذاً من النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [**الحُجُرات:** ٢].

وقد فرّق المفسرون بين النهيين الواردين في الآية حيث قالوا: إن الأول يتعلق برفع الصوت فوق صوته ﷺ أثناء كلامه معهم. وأمّا الثاني يتعلق بالجهر له ﷺ وقت صمته.

ومنهم من يقول: إنّ النهي الأول يتعلق وقت خطابه معهم أو خطابهم معه أو صمته، وأن الثاني يتعلق بندائه ﷺ باسمه المجرد أو بكنيته، مثل: يا محمد، يا أبا القاسم.

* **قال ابن العربي:** حرمة النبي - ﷺ - ميتاً كحرمته حياً. وذكر بعض العلماء أن كلامه المأثور - بعد وفاته - ﷺ - مثل كلامه المسموع من لفظه، من حيث وجوب الإنصات، وعدم جواز رفع الصوت عند من يتلو كلامه، كما لا يجوز الإعراض عنه.

* أمر الله تعالى أصحاب النبي ﷺ بأمور، تعظيماً لقدر نبيه ﷺ وهي:

- أن يتأدبوا معه في الخطاب، وذلك بخفض أصواتهم عند الحديث بحضرته.

- أن لا ينادوه باسمه يا محمد، ويا أبا القاسم، ولكن ينادوه بلفظ النبوة أو الرسالة، يا نبي الله، ويا رسول الله. أما نحن، فإنه يجب علينا أن نتأدب عند ذكره ﷺ، أو ذكر

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٢٠٥).

حديثه، فلا نضحك، ولا نظهر استهزاءً أو استخفافاً به وبكلامه. كما علينا أن نظهر الأدب والاحترام والتوقير له عند زيارة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، وأن لا نرفع اصواتنا فيه إلا لأذان، أو خطبة، أو إقامة صلاة .

* لقد عمل هذا النداء في نفوس الصحابة الكرام، وهذا التحذير المرهوب، عمله العميق الشديد، ارتعشت قلوبهم وارتجفت وتأدبوا في حضرة رسول الله ﷺ خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون. ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه!

قال ابن الزبير رضي الله عنه: فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه!.. وروي عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه قال لما نزلت هذه الآية: قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالهمس!).

وقال الإمام أحمد: .. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « لما نزلت هذه الآية، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت. فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار. حبط عملي. وجلس في أهله حزيناً. ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ فأخبروه بما قال. قال النبي ﷺ: لا. بل هو من أهل الجنة » قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة.

* **الفرق بين الجهر والإظهار:** أن الجهر عموم الاظهار والمبالغة فيه ألا ترى أنك إذا كشفت الامر للرجل والرجلين قلت أظهرته لهما ولا تقول جهرت به إلا إذا أظهرته للجماعة الكثيرة فيزول الشك ولهذا قالوا ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] أي عيانا لا شك معه، وأصله رفع الصوت يقال جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها وفي القرآن ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك في

صلاتك، وصوت جهير رفيع الصوت ولهذا يتعدى بالباء فيقال جهرت به كما تقول رفع صوته به لانه في معناه وهو في غير ذلك إستعارة، وأصل الجهر إظهار المعنى للنفس وإذا أخرج الشئ من وعاء أو بيت لم يكن ذلك جهرا وكان إظهارا، وقد يحصل الجهر نقيض الهمس لان المعنى يظهر للنفس بظهور الصوت.

....

المعاني المفردة(١)

«تَجْهَرُوا» جهر الشيء إذا ظهر وأجهرته أنا وأجهر فلان ما في صدره ورأيته جهرة أي عياناً. وجهر بكذا: أعلنه. وقد جهر بكلامه وقراءته: رفع بهما صوته.

«تَحْبَطَ» الحبوط بطلان العمل من حبط بطنه إذا فسد بالمأكل الرديء. حبط عمله حبطاً بالتسكين، وحبوطاً: بطل ثوابه. وأحبطه الله تعالى.

سبب النزول

روى البخاري والترمذي عن ابن أبي مليكة قال: حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي ﷺ؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه؛ فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله؛ فتكلما عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما؛ فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافك؛ قال: فنزلت هذه الآية: قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه.

الإعراب والبلاغة(٢)

- الجار «**كجهر**» الكاف نائب مفعول مطلق أي: جهرا مثل جهر، الجار «**لبعض**» متعلق بالمصدر **(جهر)**، والمصدر «**أن تحبط**» مفعول لأجله أي: خشية، جملة «**وأنتم لا**

---

(١) التعاريف للمناوي. والصحاح للجواهري.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن.

تشعرون» حالية.

- التكرير[1]: في قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. إعادة النداء عليهم: استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كلّ خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكلّ حكم نازل، وتحريك لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله (ﷺ) من الأدب الذي تعود المحافظة عليه بعظيم الجدوى في دينهم.

النداء الحادي والسبعون

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [**الحجُرات**: ١].

إِنْ جاءكمْ فاسِقٌ بِنَبأ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرات: ٦].

بين يدي النداء

الإشاعة هي نشر أخبار مشكوك في صحتها يقوم بها مصدر، وتتعلق بكافة نواحي الحياة المختلفة. ولا بد أن يكون لها موضوع ذو أهمية وغموض لدى الأفراد القابلين لتصديقها والمتفاعلين معها حتى تنتشر في المجتمع.

وهي ذات سمات وخصائص متعددة، وتتضمن عناصر معينة يتم من خلالهم ترويجها ونقلها، لأسباب وأهداف يسعى إلى تحقيقها.

وتعد من أسلحة الدعاية والإعلان، كما لها دور في نشر الفساد في المجتمع، وتؤثر على اضطرابه واستقراره وتماسك جبهته الداخلية ونشر الخوف والقلق بين أفراده.

ولا تشمل فردا معينا أو فئة معينة من الناس، بل تعرض لها الأنبياء والرسل والدعاة والمصلحون وغيرهم من فئات المجتمع وشرائحه المختلفة.

وكما تؤثر في المجالات الدنيوية تؤثر ـ أيضاً ـ على المصادر الدينية لتشويهها، ويقوم بذلك اليهود والنصارى ومن يساعدهم ممن ينتمي للإسلام كالمنافقين والجواسيس، فيروجون الإشاعات ويبثونها في المجتمع .

وهي تشكل خطراً على الجانب السياسي، سواء على مستوى الدولة نفسها، أو على علاقات الدول مع بعضها البعض ـ وعلى الجانب الاقتصادي الذي يمثل شريان الحياة، وعلى الجانب الأمني، فبها يتكدر الأمن العام وينتشر القلق عند الأفراد ويسود المجتمع جو من الانفلات الأمني.

ولا يستقل خطرها وأثرها على وقت السلم فقط، بل يتعدى ذلك إلى وقت الحروب، فيكون لها دور كبير في تحطيم الروح المعنوية للمقاتلين والنيل منها وإضعافها،

الأمر الذي يؤدي إلى الهزيمة أو ترك القتال وعدم الاستمرار فيه مما يكون له تأثير على الجبهة الداخلية للمجتمع وإدخال الشك في القدرات القتالية مما يكون له أثر في وقف الإمداد المادي والمعنوي للمقاتلين.

ولأجل هذا وضع الدين الإسلامي الحنيف منهجا دقيقا ومحكما للفرد والجماعة للوقاية من خطر الإشاعة وآثارها.

لقد عالج الإسلام قضية الإشاعة عن طريق ثلاث نقاط:

أ - **النقطة الأولى: التثبت:**

يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجُرات: ٦] **و في قراءة أخرى** «فتثبتوا». **فأمر الله بالتبين والتثبت، لأنه لا يحل للمسلم أن يبث خبراً دون أن يكون متأكداً من صحته. والتثبت له طرق كثيرة؛ فمنها:**

أ- إرجاع الأمر لأهل الاختصاص:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

قال الشيخ السعدي: (هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة؛ ما يتعلق بسرور المؤمنين أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم؛ أهل الرأي والعلم والعقل الذين يعرفون المصالح وضدها) فكم من إشاعة كان بالمكان تلافي شرها بسؤال أهل الاختصاص.

ب- التفكر في محتوى الإشاعة: إن كثيراً من المسلمين لا يفكر في مضمون الإشاعة الذي قد يحمل في طياته كذب تلك الإشاعة، بل تراه يستسلم لها ينقاد لها وكأنها من المسلمات.

ولو أعطينا أنفسنا ولو للحظات في التفكر في تلك الإشاعات لما انتشرت إشاعة أبداً.

لقد بين الله حال المؤمنين الذين تكلموا في حادثة الإفك فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥].

ب- النقطة الثانية: الناقل للإشاعة من الفاسقين. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ **فجعل الله من نقل الخبر دون تثبت من الفاسقين.. فمجرد نقل الأخبار دون التأكد من صحتها موجب للفسق؛ وذلك لأن هذه الأخبار ليس كلها صحيح، بل فيها الصحيح والكاذب، فكان من نقل كل خبر وإشاعة؛ داخل في نقل الكذب، لذا جعله الله من الفاسقين. وقد صرح النبي بذلك ففي صحيح مسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».. فالمؤمن لا بد له من الحذر في أن يكون عند الله من الفاسقين «الكاذبين». وكفى بذلك كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب.. فالعاقل يعلم أنه ليس كل ما يسمع يقال. ولا كل ما يعلم يصلح للإشاعة والنشر.. بل قد يكون الخبر صحيحاً ولكن لا مصلحة في نشره أبداً.**

ث- النقطة الثالثة: التفكر في عواقب الإشاعة. يقول الله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

هداية وتدبر[1]

* إن هذه الآية دلت على وجوب التثبت من خبر الفاسق، ولكن لا يلزم من ذلك وصف الوليد بالفسق؛ لأن الوليد لم يتعمد الكذب، بل أخبر بما رأى، فهو لما رأى الحارث وقومه ظن أنهم اجتمعوا لقتله، فأخبر النبي - ﷺ - بما ظنه، قال الرازي:

---

(١) الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري. التفسير الواضح ج ٣، ص: ٥٠٤. جامع التحصيل ص 96. تهذيب التهذيب 11 / 142 - 144.

«ما ذكره المفسرون من أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة حين بعثه إلى بني المصطلق، إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت من خبر الفاسق، وأنها نزلت في ذلك الحين الذي وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد، وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهو ضعيف، لأن الوليد لم يقصد الإساءة إليهم، وحديث أحمد يدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى جماعة الحارث، فظن أنها خرجت لحربه، فرجع وأخبر رسول الله ﷺ بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله، ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ «الفسق» على الوليد شيء بعيد، لأنه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقاً»، وقال الحافظ ابن حجر – في ختام ترجمة الوليد بن عقبة: «والرجل قد ثبتت صحبته، وله ذنوب أمرها إلى الله تعالى، والصواب السكوت عنها».

* إنه على تقدير وصف الوليد بالفسق فهذا شيء نادر في الصحابة، والنادر لا حكم له، ثم إنه حصلت له التوبة التي تُذهب وصف الفسق، قال العلائي: «الصحابة كلهم عدول، ولا يقال فقد وقع من بعض الصحابة الكذب كما نقله أهل التفسير في قصة الوليد بن عقبة، ونزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ الآية. لأنا نقول إن سُلِّم صحة ذلك فهو نادر جداً لا أثر له، والحكم إنما هو للغالب المستفيض الشائع، وقد تقدم قول البراء رضي الله عنه ولم يكن بعضنا يكذب بعضاً، وهذا هو الأمر المستقر الذي أطبق عليه أهل السنة أعني القول بعدالة جميع الصحابة رضي الله عنه، ولا اعتبار بقول أهل البدع والأهواء ولا تعويل عليه».

* ولقد سمى الوليد بن عقبة فاسقاً تنفيراً وزجراً عن المبادرة والاستعجال إلى الأمر من غير تثبيت كما فعل هذا الصحابي الجليل، لكنه مؤول ومجتهد فليس فاسقا حقيقة.

* الفرق بين النبأ والخبر: أن النبأ لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر ويجوز أن

يكون المخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه ولهذا يقال تخبرني عن نفسي ولا يقال تنبئني عن نفسي، وكذلك تقول تخبرني عما عندي ولا تقول تنبئني عما عندي، وفي القرآن ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء: 6] وإنما استهزءوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته ولو علموا ذلك لتوقوه يعني العذاب وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [هود: 100]. وكان النبي ﷺ لم يكن يعرف شيئاً منها، وقال علي بن عيسى: في النبأ معنى عظيم الشأن وكذلك أخذ منه صفة النبي ﷺ، قال أبو هلال ولهذا يقال سيكون لفلان نبأ ولا يقال خبر بهذا المعنى، وقال الزجاج في قوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أنباؤه تأويله والمعنى سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم.

قال أبو هلال العسكري في الفروق: وإنما يطلق عليه هذا لما فيه من عظم الشأن.

وقال أبو هلال والانباء عن الشئ أيضا قد يكون بغير حمل النبأ عنه تقول هذا الامر ينبئ بكذا ولا تقول يخبر بكذا لان الاخبار لا يكون إلا بحمل الخبر.

....

المعاني المفردة[1]

«فَاسِقٌ» المرتكب الكبيرة من الذنوب. فاجر.

«بِنَبَإٍ»[2] النَّبَأُ مُحرَّكَةً الخَبَرُ. وهما مترادفان، وفرَّق بينهما بعضٌ، وقال الراغبُ: النَّبأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحْصُل بهِ عِلْمٌ أَو غَلَبَةُ ظَنَ، ولا يُقال للخَبَر في الأَصْلِ! نَبَأٌ حتى يَتَضَمَّنَ هذه الأَشياءَ الثلاثةَ ويَكونَ صادِقاً، وحقُّه أَنْ يَتَعرَّى عنِ الكَذِبِ، كالمُتَواتِرِ وخَبَرِ اللَّهِ وخَبرِ الرسولِ ﷺ ولتَضَمُّنِه معنى الخَبرِ يقال: أَنْبَأْتُه

---

(١) الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية/ إسماعيل بن حماد الجوهري.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس.

بكذا، ولتَضَمُّنه معنى العِلْمِ يقال: أَنْبَأتُه كذا.

«فَتَبَيَّنُوا» تثبتوا.

«بِجَهَالَةٍ» الجهل: خلاف العلم. وقد جهل فلان جهلاً وجهالة. وتجاهل، أي أرى من نفسه ذلك وليس به. واستجهله: عده جاهلاً، واستخفه أيضاً. قال الشاعر: نزو الفرار استجهل الفرار أوالتجهبل: أن تنسبه إلى الجهل.

سبب النزول[١]

روي في سبب النزول أنه: بعث النبي ﷺ الوليد بن عقبة في جمع صدقات بنى المصطلق، فلما سمعوا بمقدمه أعدوا أنفسهم للقاء رسول اللّه فحدثه الشيطان بأنهم قاتلوه. فرجع، وقال للنبي ﷺ: إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم، فغضب لذلك رسول اللّه، وهم بغزوهم، أما هم فلما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول اللّه يشرحون له حقيقة الحال، وقالوا: نعوذ باللّه من سخط اللّه ورسوله! بعث إلينا رجلاً يجمع الصدقة فسررنا لذلك وجمعنا أنفسنا لاستقباله ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من اللّه ورسوله.. ثم نزلت الآية.

الإعراب[٢]

– جملة الشرط مستأنفة جواب النداء، والمصدر «**أن تصيبوا**» مفعول لأجله، أي: خشية.

– التنكير: في قوله تعالى ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾: ففي تنكير الفاسق والنبأ: شياع في الفساق والأنباء، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ، فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الناس لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى

(١) التفسير الواضح، ج ٣، ص : ٥٠٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

الكذب الذي هو نوع فيه. وطبعا هذا الشياع والشمول لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق النفي.

القراءات[1]

«فتبينوا» قرأ الأخوان[2] وخلف بثاء مثلثة فوقية مفتوحة بعد التاء وبعدها باء موحدة مفتوحة مشددة وبعدها تاء مثناة فوقية مضمومة. **«فتثبتوا»** أي فتأنوا وتوقفوا حتى تتيقنوا صحة الخبر.

والباقون بباء موحدة مفتوحة بعد التاء وبعدها ياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة، وبعدها نون مضمومة. **«فتبينوا»** وحجتهم قول رسول الله ﷺ: ألا إن التبين من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا.

النداء الثاني والسبعون

لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية و الدرة، لعبد الفتاح القاضي. وحجة القراءات - ابن زنجلة.

(٢) الأخَوان: حمزة والكسائي.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجُرات: ١١].

بين يدي النداء

[لم أكن جاوزت الثلاثين حين أنجبت زوجتي أوّل أبنائي .. ما زلت أذكر تلك الليلة .. بقيت إلى آخر الليل مع الشّلة في إحدى الاستراحات .. كانت سهرة مليئة بالكلام الفارغ .. بل بالغيبة والتعليقات المحرمة .. كنت أنا الذي أتولى في الغالب إضحاكهم .. وغيبة الناس .. وهم يضحكون .. أذكر ليلتها أنّي أضحكتهم كثيراً .. كنت أمتلك موهبة عجيبة في التقليد .. بإمكاني تغيير نبرة صوتي حتى تصبح قريبة من الشخص الذي أسخر منه .. أجل كنت أسخر من هذا وذاك .. لم يسلم أحد منّي أحد حتى أصحابي .. صار بعض الناس يتجنّبني كي يسلم من لساني.

أذكر أني تلك الليلة سخرت من أعمى رأيته يتسوّل في السّوق.. والأدهى أنّي وضعت قدمي أمامه فتعثّر وسقط يتلفت برأسه لا يدري ما يقول .. وانطلقت ضحكتي تدوي في السّوق .. عدت إلى بيتي متأخراً كالعادة.. وجدت زوجتي في انتظاري .. كانت في حالة يرثى لها .. قالت بصوت متهدج: راشد .. أين كنتَ ؟

قلت ساخراً: في المريخ .. عند أصحابي بالطبع ..

كان الإعياء ظاهراً عليها .. قالت والعبرة تخنقها : راشد أنا تعبة جداً .. الظاهر أن موعد ولادتي صار وشيكاً ..

سقطت دمعة صامته على خدها .. أحسست أنّي أهملت زوجتي .. كان المفروض أن أهتم بها وأقلّل من سهراتي .. خاصة أنّها في شهرها التاسع .. حملتها إلى المستشفى بسرعة .. دخلتْ غرفة الولادة .. جعلت تقاسي الآلام ساعات طوال .. كنت أنتظر ولادتها بفارغ الصبر .. تعسرت ولادتها .. فانتظرت طويلاً حتى تعبتُ .. فذهبت إلى

البيت وتركت رقم هاتفي عندهم ليبشروني .. بعد ساعة .. اتصلوا بي ليزفوا لي نبأ قدوم سالم ذهبت إلى المستشفى فوراً .. أول ما رأوني أسأل عن غرفتها .. طلبوا منّي مراجعة الطبيبة التي أشرفت على ولادة زوجتي.

صرختُ بهم: أيُّ طبيبة؟! المهم أن أرى ابني سالم.

قالوا: أولاً راجع الطبيبة ..

دخلت على الطبيبة .. كلمتني عن المصائب .. والرضى بالأقدار .. ثم قالت: ولدك به تشوه شديد في عينيه ويبدو أنه فاقد البصر!!

خفضت رأسي .. وأنا أدافع عبراتي .. **تذكّرت ذاك المتسوّل الأعمى الذي دفعته في السوق وأضحكت عليه الناس .. سبحان الله كما تدين تدان!** بقيت واجماً قليلاً .. لا أدري ماذا أقول .. ثم تذكرت زوجتي وولدي .. فشكرت الطبيبة على لطفها ومضيت لأرى زوجتي..

لم تحزن زوجتي.. كانت مؤمنة بقضاء الله.. راضية. **طالما نصحتني أن أكف عن الاستهزاء بالناس . . كانت تردد دائماً، لا تغتب الناس ..**

خرجنا من المستشفى، وخرج سالم معنا. في الحقيقة، لم أكن أهتم به كثيراً. اعتبرته غير موجود في المنزل. حين يشتد بكاؤه أهرب إلى الصالة لأنام فيها. كانت زوجتي تهتم به كثيراً، وتحبّه كثيراً. أما أنا فلم أكن أكرهه، لكني لم أستطع أن أحبّه!

كبر سالم .. بدأ يحبو .. كانت حبوته غريبة .. قارب عمره السنة فبدأ يحاول المشي .. فاكتشفنا أنّه أعرج. أصبح ثقيلاً على نفسي أكثر. أنجبت زوجتي بعده عمر وخالداً .

مرّت السنوات وكبر سالم، وكبر أخواه. كنت لا أحب الجلوس في البيت. دائماً مع أصحابي. في الحقيقة كنت كاللعبة في أيديهم ..

نت تدعو لي دائماً بالهداية. لم تغضب من تصرّفاتي الطائشة، لكنها كانت تحزن كثيراً إذا رأت إهمالي لسالم واهتمامي بباقي إخوته.

كبر سالم وكبُر معه همي. لم أمانع حين طلبت زوجتي تسجيله في أحدى المدارس

الخاصة بالمعاقين. لم أكن أحس بمرور السنوات. أيّامي سواء.. عمل ونوم وطعام وسهر.

في يوم جمعة، استيقظت الساعة الحادية عشر ظهراً. ما يزال الوقت مبكراً بالنسبة لي. كنت مدعواً إلى وليمة. لبست وتعطّرت وهممت بالخروج. مررت بصالة المنزل فاستوقفني منظر سالم. كان يبكي بحرقة!

إنّها المرّة الأولى التي أنتبه فيها إلى سالم يبكي مذ كان طفلاً. عشر سنوات مضت، لم ألتفت إليه. حاولت أن أتجاهله فلم أحتمل. كنت أسمع صوته ينادي أمه وأنا في الغرفة. التفت.. ثم اقتربت منه. قلت: سالم! لماذا تبكي ؟!

حين سمع صوتي توقّف عن البكاء . فلما شعر بقربي، بدأ يتحسّس ما حوله بيديه الصغيرتين. ما بِهِ يا ترى؟! اكتشفت أنه يحاول الابتعاد عني!! وكأنه يقول: الآن أحسست بي. أين أنت منذ عشر سنوات؟! تبعته .. كان قد دخل غرفته. رفض أن يخبرني في البداية سبب بكائه. حاولت التلطف معه.. بدأ سالم يبين سبب بكائه، وأنا أستمع إليه وأنتفض.

أتدري ما السبب!! تأخّر عليه أخوه عمر، الذي اعتاد أن يوصله إلى المسجد. ولأنها صلاة جمعة، خاف ألاّ يجد مكاناً في الصف الأوّل. نادى عمر .. ونادى والدته .. ولكن لا مجيب .. فبكى.

أخذت أنظر إلى الدموع تتسرب من عينيه المكفوفتين. لم أستطع أن أتحمل بقية كلامه. وضعت يدي على فمه وقلت: لذلك بكيت يا سالم ..!!

قال: نعم ..

نسيت أصحابي، ونسيت الوليمة وقلت: سالم لا تحزن. هل تعلم من سيذهب بك اليوم إلى المسجد؟

قال: أكيد عمر .. لكنه يتأخر دائماً ..

قلت: لا .. بل أنا سأذهب بك ..

دهش سالم .. لم يصدّق. ظنّ أنّي أسخر منه. استعبر ثم بكى. مسحت دموعه بيدي

وأمسكت يده. أردت أن أوصله بالسيّارة. رفض قائلاً: المسجد قريب .. أريد أن أخطو إلى المسجد – إي والله – قال لي ذلك.

لا أذكر متى كانت آخر مرّة دخلت فيها المسجد، لكنها المرّة الأولى التي أشعر فيها بالخوف والنّدم على ما فرّطته طوال السنوات الماضية. كان المسجد مليئاً بالمصلّين، إلاّ أنّي وجدت لسالم مكاناً في الصف الأوّل. استمعنا لخطبة الجمعة معاً وصلى بجانبي .. بل في الحقيقة أنا صليت بجانبه ..

بعد انتهاء الصلاة طلب منّي سالم مصحفاً. استغربت!! كيف سيقرأ وهو أعمى؟ كدت أن أتجاهل طلبه، لكني جاملته خوفاً من جرح مشاعره. ناولته المصحف .. طلب منّي أن أفتح المصحف على سورة الكهف. أخذت أقلب الصفحات تارة وأنظر في الفهرس تارة .. حتى وجدتها.

أخذ مني المصحف ثم وضعه أمامه وبدأ في قراءة السورة .. وعيناه مغمضتان .. يا الله !! إنّه يحفظ سورة الكهف كاملة !!

خجلت من نفسي .. أمسكت مصحفاً .. أحسست برعشة في أوصالي .. قرأت وقرأت .. دعوت الله أن يغفر لي ويهديني. لم أستطع الاحتمال .. فبدأت أبكي كالأطفال. كان بعض الناس لا يزال في المسجد يصلي السُنة .. خجلت منهم فحاولت أن أكتم بكائي. تحول البكاء إلى نشيج وشهيق ..

لم أشعر إلاّ بيد صغيرة تتلمس وجهي ثم تمسح عنّي دموعي. إنه سالم !! ضممته إلى صدري ..

نظرت إليه. قلت في نفسي .. لست أنت الأعمى بل أنا الأعمى، حين انسقت وراء فساق يجرونني إلى النار.

عدنا إلى المنزل. كانت زوجتي قلقة كثيراً على سالم، لكن قلقها تحوّل إلى دموع حين علمت أنّي صلّيت الجمعة مع سالم . .

من ذلك اليوم لم تفتني صلاة جماعة في المسجد. هجرت رفقاء السوء .. وأصبحت

لي رفقة خيّرة عرفتها في المسجد. ذقت طعم الإيمان معهم. عرفت منهم أشياء ألهتني عنها الدنيا. لم أفوّت حلقة ذكر أو صلاة الوتر. ختمت القرآن عدّة مرّات في شهر. رطّبت لساني بالذكر لعلّ الله يغفر لي غيبتي وسخريتي من النّاس. أحسست أنّي أكثر قرباً من أسرتي. اختفت نظرات الخوف والشفقة التي كانت تطل من عيون زوجتي. الابتسامة ما عادت تفارق وجه ابني سالم. من يراه يظنّه ملك الدنيا وما فيها. حمدت الله كثيراً على نعمه.

ذات يوم .. قرر أصحابي الصالحون أن يتوجّهوا إلى أحدى المناطق البعيدة للدعوة. تردّدت في الذهاب. استخرت الله واستشرت زوجتي. توقعت أنها سترفض .. لكن حدث العكس !

فرحت كثيراً، بل شجّعتني .. فلقد كانت تراني في السابق أسافر دون استشارتها فسقاً وفجوراً.

توجهت إلى سالم. أخبرته أني مسافر فضمني بذراعيه الصغيرين مودعاً ..

تغيّبت عن البيت ثلاثة أشهر ونصف، كنت خلال تلك الفترة أتصل كلّما سنحت لي الفرصة بزوجتي وأحدّث أبنائي. اشتقت إليهم كثيراً .. آآآه كم اشتقت إلى سالم !! تمنّيت سماع صوته .. هو الوحيد الذي لم يحدّثني منذ سافرت. إمّا أن يكون في المدرسة أو المسجد ساعة اتصالي بهم.

كلّما حدّثت زوجتي عن شوقي إليه، كانت تضحك فرحاً وبشراً، إلاّ آخر مرّة هاتفتها فيها. لم أسمع ضحكتها المتوقّعة. تغيّر صوتها ..

قلت لها: أبلغي سلامي لسالم، فقالت: إن شاء الله .. وسكتت ..

أخيراً عدت إلى المنزل. طرقت الباب. تمنّيت أن يفتح لي سالم، لكن فوجئت بابني خالد الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره. حملته بين ذراعي وهو يصرخ: بابا .. بابا .. لا أدري لماذا انقبض صدري حين دخلت البيت.

استعذت بالله من الشيطان الرجيم ..

أقبلت إليّ زوجتي . . كان وجهها متغيراً. كأنها تتصنع الفرح.

تأمّلتها جيداً ثم سألتها: ما بكِ؟

قالت: لا شيء.

فجأة تذكّرت سالماً فقلت .. أين سالم؟

خفضت رأسها. لم تجب. سقطت دمعات حارة على خديها ..

صرخت بها .. سالم ! أين سالم ..؟

لم أسمع حينها سوى صوت ابني خالد يقول بلغته: بابا.. ثالم لاح الجنّة.. عند الله..

لم تتحمل زوجتي الموقف. أجهشت بالبكاء. كادت أن تسقط على الأرض، فخرجت من الغرفة.

عرفت بعدها أن سالماً أصابته حُمّى قبل موعد مجيئي بأسبوعين فأخذته زوجتي إلى المستشفى .. فاشتدت عليه الحمى ولم تفارقه .. حين فارقت روحه جسده ..

إذا ضاقت عليك الأرض بما رحبت، وضاقت عليك نفسك بما حملت فاهتف.. يا الله..

إذا بارت الحيل، وضاقت السبل، وانتهت الآمال، وتقطعت الحبال، نادي .. يا الله] (١).

هداية وتدبر(٢)

* يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين عسى أن يَكون المهزوء منهم خير**عند الله** من الهازئين ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهنّ أن يكنّ خيراً من الهازئات. ولا يعب بعضكم بعضاً،

---

(١) قصة ذكرها الشيخ خالد الراشد كثيراً.

(٢) تفسير الطبري. روح المعاني. فتح القدير. محاسن التأويل. نحو تفسير موضوعي. الجامع لأحكام القرآن. مفاتيح الغيب. التفسير القرآني للقرآن. تفسير المنتخب.

ولا يدْعُ الواحد أخاه بما يستكره من الألقاب. بئس الذكر للمؤمنين أن يُذكروا بالفسوق بعد اتصافهم بالإيمان، ومن لم يرجع عمَّا نهى عنه فأولئك هم - وحدهم - الظالمون أنفسهم وغيرهم.

* إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس. وهي من كرامة المجموع. ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس، لأن الجماعة كلها وحدة، كرامتها واحدة.

* في التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد. وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير. والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف. وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام. وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم. وذو العصبية من اليتيم. وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين!

* يشير تعالى إلى ترك الأعجاب بالنفس والنظر إلى أحد بعين الاحتقار فإن الظاهر لا يعبأ به والباطن لا يطلع عليه فرب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله تعالى لأبره.

* التنابز بالألقاب هو أن يقول لأخيه المسلم يا فاسق يا منافق أو يقول لمن أسلم يا يهودي يا نصراني، وهو كل شيء أخرجت به أخاك من الإسلام كقولك يا كلب يا حمار يا خنزير.

* إن مناط الخيرية في الفريقين، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال والأوضاع والأطوار التي عليها يدور أمر السخرية غالباً. بل إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى، والاستهانة بمن عظمه الله

تعالى. ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنيّ للفقير. وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة، فيسخر به من أجلها.

❈ إن الله عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحلّ لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك .

❈ رفض الإسلام اللمز والتعيير والتجسس وظن السوء والغيبة والنميمة. والمؤسف أن أغلب مجالس الناس لا تخلو من هذه الآفات، ولو كف الناس عنها لقضوا نصف أعمارهم صامتين..!

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً = لما تحصل شيء فى الغرابيل!

وعلينا نحن المسلمين أن نعرف رسالتنا بين الناس. إننا لم نخلق لننظر إليهم من أعلى. إننا أصحاب رسالة كلفنا بشرحها بالأدب والحكمة والرحمة والحب. وأخشى أن يكون فشلنا فى صبغ العالم بها يرجع إلى سوء عرضنا وفشل أسلوبنا..!

❈ قال بعض العلماء: المراد بهذه الألقاب ما يكرهه المنادي، أو يفيد ذما له، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها، كالأعمش والأعرج وما أشبه ذلك، فلا بأس بها إذا لم يكرهها المدعو بها، وأما الألقاب التي تكسب حمدا ومدحا، وتكون حقا وصدقا، فلا تكره. فمدار الأمر ذم المرء والنيل منه، فإن كان اللقب يفيد ذلك فهو حرام، وإلا فلا.

❈ إفراد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر.

❈ في الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والنبز، **فالسخرية**، هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر وأقل من أن يلتفت إليه، فقال لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم. **الثاني هو اللمز**، وهو ذكر ما في الرجل من

العيب في غيبته وهذا دون الأول لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه. **الثالث هو النبز،** وهو دون الثاني لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يوجب بغضه وحط منزلته وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه.

* إن من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات، استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظراً ساخراً، فإن ذلك من شأنه أن يغرى هؤلاء المستخفّين المستهزئين بمن استخفوا بهم، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخفّ بها، المستصغر لشأنها ـ على أن تدافع عن نفسها، وأن تردّ هذه السخرية، وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء، ممن سخروا منهم، وهزءوا بهم.. وهذا أول قدح لشرارة الحرب.. فإن الحرب أولها الكلام، كما يقولون.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هؤلاء المستهزئين الساخرين قد يكونون أقل عند اللّه شأناً، من هؤلاء الذين اتخذوهم غرضاً للهزء والسخرية.. فلا ينبغى الانخداع بالظاهر، ووزن الأمور عليها.. فكيف يكون الحال لو أن هؤلاء المستهزأ بهم كانوا عند اللّه أفضل وأكرم من هؤلاء المستهزئين؟ ألا يخافون أن ينتقم منهم اللّه لأوليائه؟ ألا يستحون أن يستخفّوا بمن هم أثقل منهم ميزانا، وأكرم منهم معدنا؟ إن هذا أمر لو لم يؤثمه الدين، لأنكره العقل، ورفضته المروءة، وجفاه المنطق، ولفظه العدل والإنصاف.

* في صحيح الترمذي عن عائشة قالت: حكيت للنبي ﷺ رجلاً، فقال: **«ما يسرني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا»**. قالت فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأة – وقالت بيدها – هكذا، يعني أنها قصيرة. فقال: **«لقد مزجت بكلمة لو مزج بها البحر لمزج»**.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**.

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس»**

ويروى: «**وغمط الناس**» والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له.

....

المعاني المفردة(١)

«**يَسْخَرْ**» يهزأ أو ينتقص. وسَخِرْتُ من فلان هي اللغة الفصيحةُ. «**قَومٌ**» القوم هنا اسم للرجال دون النساء. فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في لفظ القوم. قال زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري = أقوم آل حصن أم نساء

وإنما سموا قوماً لأنهم يقومون بالأمور. القوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإنما واحده امرؤ، وقياسه أن لا يجمع، وشذ جمعه، قالوا: أقوام، وجمع جمعه قالوا: أقاويم فقيل يختص بالرجال. وقد يطلق على الرجال والنساء نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ الآية .

تَلْمِزُوا: اللَّمْزُ: العَيْبُ، والإِشَارَةُ بالعَيْنِ ونحوِها، يَلْمُزُهُ، ويَلْمِزُهُ، والضَّرْبُ، والدَّفْعُ.

وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ: لا تتداعوا بالألقاب. التنابز: التفاعل من النبْز بالتسكين وهو المصدر، والنبَز بالتحريك اللقب والجمع أنباز. والألقاب جمع لقب وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان والمراد هنا لقب السوء والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضاً. **بِئْسَ الاِسْمُ:** قبح اسم.

---

(١) لسان العرب. القاموس المحيط. زاد المسير – ابن الجوزي. فتح القدير – الشوكاني. تفسير ابن كثير. تفسير البحر المحي - ابن حيان الأندلسي. أضواء البيان/ محمد الأمين الشنقيطي. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير/ أبو بكر الجزائري.

الْفُسُوقُ: الفِسْق: العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق. وفَسَق عن أمر ربه أي جار ومال عن طاعته.

سبب النزول

عن الشعبى قال حدثنى أبو جبيرة بن الضحاك قال: فِينَا نَزَلَتْ فِى بَنِى سَلِمَةَ ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلاَّ وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ فَكَانَ إِذَا دُعِىَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِاسْمٍ مِنْ تِلْكَ الأَسْمَاءِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا - قَالَ – فَنَزَلَتْ ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ (١) .

الإعراب(٢)

جملة «**لا يسخر**» جواب النداء مستأنفة، الجار «**من قوم**» متعلق بـ «**يسخر**»، جملة «**عسى أن يكونوا**» مستأنفة، و«**أن**» وما بعدها فاعل «**عسى**» التامة، الجار «**منهم**» متعلق بـ «**خيرا**». قوله «**ولا نساء**»: اسم معطوف على «**قوم**»، الجار «**من نساء**» معطوف على «**من قوم**»، ويتعلق بما تعلق به، وجملة «**عسى أن يكنَّ**» مستأنفة، والمصدر المؤول «**أن يكنَّ**» فاعل «**عسى**»، جملة «**بئس الاسم**» مستأنفة، وفعل ماض وفاعل، و«**الفسوق**» خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الفسوق، وجملة (هو الفسوق): تفسيرية لـ«**الاسم**»، الظرف «**بعد**» متعلق بالمصدر (الفسوق)، وجملة «**ومن لم يتب**» مستأنفة، «هم» ضمير فصل.

– **«يكنّ»** فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون بدخول نون النسوة، أصله يكونن – بنون ساكنة بعدها نون مفتوحة – اجتمع ساكنان فحذفت الواو فأصبح يكنّ – بعد إدغام النونين – وزنه يفلن. **«تنابزوا»** حذف منه إحدى التاءين أصله تتنابزوا. **«الألقاب»** جمع لقب، اسم لما يسمّى به المرء– غير اسمه الأول – مشعرا برفعة أو ضعة، وزنه فعل بفتحتين ووزن ألقاب أفعال.

---

(١) مسند أحمد – حديث أبى جبيرة بن الضحاك – حديث 18782.

(٢) إعراب القرآن وبيانه - محي الدين درويش.

- **سر الجمع:** في قوله تعالى ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ حيث لم يقل: رجل من رجل: ولا امرأة من امرأة، على التوحيد، إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم، وغير واحدة من نسائهم، على السخرية، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه، لأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهي ويستضحك على قوله، ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر، وكذلك كلّ من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به، فيؤدي ذلك- وإن أوجده واحد- إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما. **التنكير:** في قوله تعالى ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ....وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾. حيث نكّر القوم والنساء، لأن كلّ جماعة منهية، على التفصيل في الجماعات، والتعرض بالنهي لكلّ جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

النداء الثالث والسبعون

كل المسلم على المسلم حرام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ١٢].

بين يدي النداء

قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه = وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بفعل عداته = وأصبح في ليل من الجهل مظلم

هداية وتدبر[(١)]

❋ يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيرا من الظنّ بالمؤمنين، وذلك أن تظنوا بهم سوءاً، فإن الظانّ غير محقّ، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: الظنّ كله، إذ كان قد أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ فأذن الله جلّ ثناؤه للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قيله فيهم على يقين. إن ظنّ المؤمن بالمؤمن الشرّ لا الخير إثم، لأن الله قد نهاه عنه، ففعل ما نهى الله عنه إثم. ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره. ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره المقول فيه ذلك أن يقال له في وجهه. أيحبّ أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتا، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه، لأن الله حرّم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حياً، كما كرهتم لحمه ميتاً، فإن الله حرّم غيبته حياً، كما حرم أكل لحمه ميتاً. فاتقوا الله أيها الناس، فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظنّ

---

(١) تفسير الطبري. التفسير الواضح/ الدكتور محمد محمود حجازى. التفسير المنير/ وهبة الزحيلى. في ظلال النداء.

أحدكم بأخيه المؤمن ظنّ السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم، إن الله راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه.

❊ هذه الآية تقيم سياجاً في هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب..

❊ يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيِّئ، فيقع في الإثم؛ ويدعه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي يخدشها ظن السوء؛ والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع. وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون!

❊ يقاوم القرآن العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم. وتمشياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب.

❊ قالت العلماء: الظن هو هنا التهمة بدون قرينة حال تدل عليها أو تدعو إليها وقد صح الحديث بتحريم الظن السيء بقوله ﷺ. في رواية الصحيح «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا**».

❊ والتجسس هو الدور الثاني للظن السيئ فإن الإنسان يظن بأفعال أخيه الظنون ثم ينظر فيها فلا يجد لها أسبابا قوية فيأخذ في البحث وتتبع العورات لعله يجد ما يؤيد ظنه، وهو في ذلك إن رأى حسنة أعرض عنها، وإن رأى سيئة شنع بها، ذلك من ضعف الإيمان، وسوء الاعتقاد، ولقد صدق رسول اللّه حيث قال خطيباً: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تتّبعوا عورات المسلمين فإنّ من**

تتبّع عورات المسلمين فضحه اللّه في قعر بيته». نعم فإنه لا يعمل هذا إلا ضعيف الإيمان حقّا، وليس المربى والراعي داخلين في ذلك حيث يتتبعان العورات للإصلاح لا لإشاعة السوء والتشنيع.

* ذكر العلماء أشياء ليس لها حكم الغيبة، فالغيبة لا تحرم إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصل إليه إلا به **وهي ستة أمور**[1]:

الأول- التظلم: فلمن ظلم تقديم شكوى للحاكم لإزالة ظلمه، لحديث أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

الثاني- الاستعانة على تغيير المنكر: بأن يذكره لمن يظن قدرته على تغيير، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

الثالث- الاستفتاء: كأن يقول للمفتي: ظلمني فلان بكذا، فما طريق الوصول إلى حقي؟ لقول هند للنبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن عائشة: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبي ﷺ: نعم فخذي».

الرابع- التحذير من الفسّاق: فلا غيبة لفاسق فاجر كمدمن خمر وارتياد أماكن الفجور، للحديث الذي رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي عن بهز بن حكيم: **«اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس»**.

الخامس- التحذير من سر عام: كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمفتين مع عدم الأهلية، ونصح الخاطب والشريك ونحو ذلك.

السادس- التعريف بلقب مشهور إذا لم تمكن المعرفة بغيره، كالأعور والأعمش والأعرج. وصنف القرافي ما استثناه العلماء من الغيبة المحرمة وهي ست صور كما

---

(١) انظر الإحياء للغزالي : 3/ 132.

يلي: النصيحة، والتجريح والتعديل في الشهود، والمعلن بالفسوق، وأرباب البدع والتصانيف المضلة، ينبغي أن يشهر الناس فسادها وعيبها، والعلم السابق بالمغتاب به بين المغتاب والمغتاب عنده، والدعوى عند ولاة الأمور(١).

* قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تجسَّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا**». روى أنه ﷺ قال: «**أ تدرون ما الغيبة ؟**» قالوا. اللّه ورسوله أعلم، قال: « **هي ذكرك أخاك بما يكره** » قيل: أفرأيت لو كان في أخى ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه**». قال النبي ﷺ: «**إن اللّه حرم من المسلم دمه وعرضه، وأن يظنّ به ظنّ السوء**» ذكره القرطبي والألوسي، وقال أيضاً عن عائشة مرفوعاً: «**من أساء بأخيه الظن فقد أساء الظن بربه، إن اللّه تعالى يقول: اجتنبوا كثيرا من الظن**».

....

المعاني المفردة(٢)

اجْتَنِبُوا: اتركوا. تباعدوا.

الظَّنِّ: التُّهَمة والتخوُّن. الظنّ: ما يقع فى نفس الإنسان من تصورات للأمر، من واردات خيالاته، وأوهامه، دون أن يكون بين يديه دليل ظاهر، أو حجة قاطعة ..

تَجَسَّسُواْ: التلصص والتصنت إلى أسرار الناس. نهي عن تتبع العورات.

يَغْتَب: الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره.

سبب النزول(٣)

(١) الفروق : الفرق بين الغيبة المحرمة والغيبة التي لا تحرم : 4/ 205- 208.

(٢) لسان العرب. تفسير الشعراوي. التفسير الواضح. التفسير القرآني للقرآن.

(٣) تفسير البغوي (معالم التنزيل).

قيل: نزلت الآية في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما، ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضمَّ سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام فلم يهيئ لهما شيئًا، فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئًا؟ قال: لا غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعامًا، فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعامًا، فقال له رسول الله ﷺ: انطلق إلى أسامة بن زيد، وقل له: إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله، فأتاه فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا كان عند أسامة طعامٌ ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فلما رجع قالا لو بعثناك إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان، هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ؟ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما»، قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحمًا، قال: بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ .

الإعراب[1]

-«**كثيرا**» مفعول به، الجار «**من الظن**» متعلق بنعت لـ «**كثيرا**»، جملة «**أيحب أحدكم**» مستأنفة، والمصدر المؤول مفعول به، «**ميتا**» حال من «**أخيه**»، جملة «**فكرهتموه**» معطوفة على فعل محذوف تقديره: عرض عليكم ذلك فكرهتموه، وجملة (**عرض**) مستأنفة.

- التنكير: في قوله تعالى «كَثِيراً». حيث أن مجيئه نكره يفيد معنى البعضية، وإن في الظنون ما يجب أن يجتنب من تبيين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد على ظنّ إلا بعد

(١) إعراب القرآن وبيانه/ الدين درويش.

نظر وتأمّل، وتمييز بين حقه وباطله، بأمارة بينة، مع استشعار للتقوى والحذر ولو عرّف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطا بما يكثر منه دون ما يقل. ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبا، وما اتصف منه بالقلة مرخصا في تظننه.

والاستعارة التمثيلية: في قوله تعالى ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. في هذه الآية الكريمة تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى، منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخا، ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا.

القراءات[1]

«**وَلا تَجَسَّسُوا**»: قرأ البزي وصلاً بتشديد التاء مع المد المشبع لالتقاء الساكنين، «**ولا تّجسسوا**».

«**مَيْتاً**»: شدد الياء المدنيان ورويس، «**ميّتاً**» وخففها الباقون. أصل الكلمة ميوت على فيعل فقلبوا الواو ياء للياء التي قبلها فصارت ميتا فمن قرأ بالتخفيف فإنه استثقل تشديد الياء مع كسرها فأسكنها فصارت ميتا وزنه فيل ومن قرأ بالتشديد فإن التشديد هو الأصل وذلك أنه في الأصل ميوت فاستثقلوا كسرة الواو بعد الياء فقلبوها ياء للياء التي قبلها ثم أدغموا الساكنة في الثاني فصارتا ياء مشددة. واعلم أنهما لغتان معروفتان **قال الشاعر:**

لــيس مــن مــات فاســتراح بميــت = إنمـــا الميـــت ميـــت الأحيـــاء

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية و الدرة، لعبد الفتاح القاضي. وحجة القراءات – ابن زنجلة.

النداء الرابع والسبعون

لا إيمان بغير الإيمان بالنبي محمد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

بين يدي النداء

علق عز وجل في كتابه العزيز على التقوى خيرات عظيمة وسعادات جسيمة من ذلك أن الله عز وجل مع المتقي دائماً يحفظه وينصره ويؤيده قال جل وعلا: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ومن فضائل التقوى وخيراتهما محبة الله للمتقين قال سبحانه: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التقوى سبب للأمن فقد نفى الله الخوف والحزن عن المتقي المصلح فقال جل وعلا: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ التقوى فرقان بين الحق والباطل وكفارة للسيئات ومغفرة للذنوب قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، ومن خيرات التقوى النجاة من النار قال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ومن ذلك أن التقوى سبب للخروج من شدائد الرزق من حيث لا يحتسب قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن ذلك أن الله ييسر ويسهل أمور المتقين كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ ويعظم له الأجر: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ ومن ذلك الوعد من الله بالجنة للمتقين: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾ [القمر]

ومن خيرات التقوى أيضاً الكرامة عند الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فالتقوى هي طاعة الله عز وجل بفعل أوامره والابتعاد عن نواهيه، والمتقون هم الذين يراهم الله حيث أمرهم ولا يقدمون على ما نهاهم عنه، وهم الذين يعترفون بالحق قبل أن يشهد عليهم، ويعرفونه ويؤدونه وينكرون بالباطل، ويجتنبون ويخافون الرب الجليل الذي لا تخفى عليه خافية، إنهم يعملون بكتاب الله فيحرمون حرامه ويحلون حلاله، لا يخونون في أمانة ولا يرضون بالذل والإهانة ولا يعقون ولا يقطعون ولايؤذون جيرانهم ولايضربون إخوانهم. المتقون يصلون من قطعهم ويعطون من حرمهم ويعفون عمن ظلمهم، الخير عندهم مأمول والشر من جانبهم مأمون، المتقون لا يغتابون ولا يكذبون ولا ينافقون، ولا يحسدون ولا يراؤون ولا يرابون ولا يرشون ولا يقذفون ولا يأمرون بمنكر ولا ينهون عن معروف، بل المتقون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، تلك صفات المتقين حقاً الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة خائفون مشفقون، المتقون حقاً هم أهل الفضائل منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليه، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كما نزلت في الرخاء، عظُم الخالق جل شأنه في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة فأعقبهم راحة طويلة وتجارة مربحة يسرها لهم ربهم.

أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسَرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافُّون أقدامهم يتلون آيات الله، إذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم، واذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زئير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون من الله تعالى أن يفك رقابهم من النار، فالمتقون لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري.

هداية وتدبر[1]

* يقول ابن جرير الطبري في جامع البيان: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله محمد ﷺ. يُعطكم ضعفين من الأجر، لإيمانكم بعيسى ﷺ، والأنبياء قبل محمد ﷺ، ثم إيمانكم بمحمد ﷺ حين بعث نبيا. عن ابن عباس ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ قال: والكفلان أجران بإيمانهم الأوّل، وبالكتاب الذي جاء به محمد ﷺ . قال ابن زيد، في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ قال: أجرين: أجر الدنيا، وأجر الآخرة.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالرسل السابقين وآخرهم عيسى - عليه السلام - ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ الخاتم محمدٍ ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ مثلين من الأجر - وزادهم النور - على إيمانكم بعيسى ومَنْ سبقه من الرسل ومحمد ﷺ، والكفل الحظ والنصيب.. عن ابن زيد: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أجر الدنيا والآخرة.

* أمر اللّه تعالى صراحة مؤمني أهل الكتاب - الذين آمنوا بموسى وعيسى - أن يتقوا اللّه حق تقاته باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، فإن فعلوا كان لهم مثلان من الأجر على إيمانهم بعيسى ومحمد ﷺ، ويجعل اللّه لهم أيضاً نوراً، أي بياناً وهدى إلى الحق في الدنيا، وضياء يمشون به على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة، ويغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم. وهذا وعد من اللّه منجز في أمور ثلاثة: مضاعفة الثواب، وجعل النور، وغفران الآثام.

* - إن تقوى الله- تعالى- والإيمان برسوله - ﷺ - يؤديان إلى الحصول على النور:

---

(١) انظر: زاد المسير/ ابن الجوزي. فتح القدير/ الشوكاني. فتح المجيد في تفسير سورة الحديد «دراسة تحليلية»: دكتور عوض أبوعليان. الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي. تفسير الشعراوي. التفسير المنير/ وهبة الزحيلى. تفسير القرآن الكريم/ ابن القيم.

القرآن أو اتباعهم النبي ﷺ، أو ما يمشون به على الصراط، وإلى الجنة، أو علم وهدى تفرقون به بين الحق والباطل، أو الإيمان، أو بياناً وهدى إلى الحق في الدنيا، أو كلها مجتمعة.، وهما- كذلك- سبب لمغفرة الذنوب والمعاصي.

* أن إيمان أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل وبموسى وعيسى لا يكفي، ولا ينفع شيئا، ما لم يؤمنوا بالنبي ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين.

* **عن أبي موسى الأشعري** قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»** أخرجاه في الصحيحين. قال البخاري: .. عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: **«مثل المسلمين، واليهود، والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال أكملوا بقية عملكم؛ فإن ما بقي من النهار شيء يسير. فأبوا، فاستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»** انفرد به البخاري .

* في قوله ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ إعلام بأن تصرفهم، وتقبلهم الذي ينفعهم: إنما هو بالنور، وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم. ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه.

وفيه: أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزّمانة والانقطاع. فلا مشي لقلوبهم، ولا لأحوالهم، ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات. وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم.

وفي قوله: ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة. وهي: أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم،

كما يمشون بها بين الناس في الدنيا. ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه.

* إثبات صفتي المغفرة والرحمة لله جل جلاله.

....

المعاني المفردة(١)

اتَّقُوا اللَّهَ: اجعلوا بينكم وبين غضبه، وسخطه، وعقابه، وتعسير أموركم، والنار وقاية. والوقاية أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر.

كِفْلَيْنِ: ضعفين. قال الزجاج الكفل كساء يمنع الراكب أن يسقط فالمعنى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي.

سبب النزول(٢)

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ...﴾ الآية، فخَرَ مؤمنو أهل الكتاب عن أصحاب النبي - ﷺ- فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب.

الإعراب

(يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) يؤتكم: فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر وعلامة جزمه حذف حرف العلّة. **والكاف** مفعول به أول. **كفلين**: مفعول به ثان. **ومن رحمته:** نعت لكفلين **(وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ) تمشون به:** نعت لنوراً.

---

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم/ محمد رالتب النابلسي. زاد المسير/ ابن الجوزي.

(٢) فتح المجيد في تفسير سورة الحديد «دراسة تحليلية»/ عوض أبوعليان.

النداء الخامس والسبعون

لا تتناجوا بالإثم والعدوان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [المجادلة: ٩].

بين يدي النداء

وأنا أتأمل آيات سورة المجادلة استوقفني فيها أن الكلام عن التناجي أخذ لب ما فيها، وصار جل محورها، ثم استوقفني تكرار كلام ربنا عن الموضوع، فكانت الآيات وهي تتكلم عن التناجي، تتوالى، وهذا يدل على أهمية الموضوع ومكانته، وفي الوقت نفسه رأيت أننا عن هذا الأمر في سبات، فلا تكاد تجد مجلساً من مجالسنا - إلا ما رحم ربي - إلا وهو واقع في هذه المعصية، غير متدارك لها.

اقرأها تجد التكرار واضحاً، والتأكيد على الأمر صارخاً، حيث بدأ بالخطاب مع النبي ﷺ، ثم ثنى بخطابه مع المؤمنين مباشرة، وكل الخطاب لا يتعدى النهي عن النجوى، ذلك لأن صفة التناجي ليست من صفات المؤمنين إنما هي من صفات اليهود.

فكان فعل اليهود سبباً لنزول هذه الآيات الكريمة فكانوا عندما يمر المسلم من أمامهم يتناجون فيما بينهم، ويفعلون هذا أمامه لأجل إخافته ويوهموه أنهم يدبرون حوله المكائد ويدسون حوله الدسائس فنزل قوله تعالى معلنا إنما النجوى من الشيطان إلى نهاية الآية.

فجاء تنبيه الله من عليائه أن أصلها من الشيطان، هو الذي حرض عليها، وهو الذي دفع إليها، إذ هو يريد دائماً إحزان المسلم، لا يريدك سعيداً يوماً من الأيام، إنما دائماً يريد أن يجلب النكد والهم والغم لأهل الإيمان.

يقول الإمام ابن كثير: «عندما يصدر هذا عن المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه:

﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: ليسوءهم: ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.ومن أحس من التناجي ضرراً فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله».

والتحريم في كل هذا لسبب واحد، وهو لأنه يحزن الذين آمنوا، يحزن فقط..!! واذا كان الله تعالى ينزل كل هذه الآيات ليمنع أحزان المسلم فقط، فما بالك بالاعتداء عليه؟ فما بالك بسبه؟ بشتمه؟ بغيبته؟ بالاعتداء عليه؟ بل بقتله وتعذيبه.

ولهذا نجد السنة النبوية الشريفة أكدت على هذا الموضوع، ووضحته، وفصّلته، وجعلته أدباً من آداب المسلم. فهذا ابن مسعود يروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس؛ من أجل أن ذلك يحزنه»، فحتى السنة تقول إن التناجي يحزن. ألم تجرِّب ذلك؟.

فلربما توهم هذا الرجل الثالث أن نجواهما لتبييت رأي أو تجسيس غائلة ضده، أو يحس أن ذلك احتقاراً له واستخفافاً به.

أما إذا كانا وحدهما ودخل ثالث فبهذه الحالة لا بد له من أن يستأذنهما لئلا يكون بينهما كلام خاص، وأمر محصور، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه لما جاءه رجل يريد أن يدخل بينه وبين رجل آخر؛ لكزه في صدره وقال له: ألم تسمع أن رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان اثنان يتناجيان فلا تدخل بينهما».

قال ابن عبد البر رحمه الله: «لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجيين في حال تناجيهما».

أما إذا كان هناك إذن أو حاجة فلا بأس، قال النووي رحمه الله في رياض الصالحين باب: النهي عن تناجي اثنين دون الثالث بغير إذنه إلا لحاجة: فصار هناك شرطان لجواز التناجي:

أولاً: أن يكون بإذن الشخص الثالث.

ثانياً: أن تكون هناك مصلحة راجحة أو حاجة ملحة.

وللتناجي المحرم صور كثيرة منها:

- التكلم بلغة لا يعرفها الشخص الثالث، فهذا تناج واضح لا يجوز فعله.
- الكتابة، مثل أن يكتب شخص لآخر ورقة فيها بعض الكلمات فيعطيها أمام الثالث، أو يرسل له بالجوّال وهم في مجلس واحد.
- الإشارات والرموز والحركات التي يفهمها طرف واحد، فيبقى الطرف الآخر حزيناً لا يعرف ماذا يقصدون.

ونختم بهذه القصة التي تبين لنا كم كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يطبقون هذه الآيات ويعملون بمقتضاها. روى الإمام مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال: «كنت أنا وابن عمر عند دار خالد بن عقبة في السوق، فجاء رجل يريد أن يناجي ابن عمر، وليس مع ابن عمر أحد غيري، فدعا ابن عمر رجلاً آخر من السوق حتى كنا أربعة، ثم قال لي وللرجل الثالث الذي دعا استأخرا شيئاً، - من التأخر - حتى يبلغ المناجي مراده، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يتناجى اثنان دون الثالث».

فنسال الله العظيم أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

هداية وتدبر

* يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله إذا حدث منكم تناج ومسارّة فى أنديتكم وخلواتكم، فلا تتناجوا وتسارروا بالإثمِ والذنب، والاعتداء على الآخرين، والظلم، ومخالفة الرسول، كما يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين، بل تناجوا بطاعة الله، متواصين بالخير والتحرز عن الآثام، وتناجَوا باتقائه بأداء ما كلَّفكم من فرائضه واجتناب معاصيه، والعفاف عما نهى عنه، وخافوا الله الذي إليه- لا إلى غيره - تساقون بعد بعثكم، وعنده مجتمعكم أن يعاقبكم على تضييع فرائضه، ويجازيكم على ما قلتم وما عملتم.

وهذا من جملة تأديب الله تعالى لعباده المؤمنين.[١]

* يبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور، ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيداً عن قيادتهم. الأمر الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية، وروح التنظيم الإسلامي، التي تقتضي عرض كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء، وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة. كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة، وما يؤذي الجماعة المسلمة ولو لم يكن قصد الإيذاء قائماً في نفوس المتناجين ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم، قد يؤدي إلى الإيذاء، وإلى عدم الطاعة.. وهنا يناديهم الله بصفتهم التي تربطهم به، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره

* جعل الله تعالى النجوى مظنة الإثم والشر مطلقاً؛ والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب إظهار الخير والتحدث به في الملأ، وأن الشر والإثم هو الذي يُخفى، ويُذكر في السر والنجوى، وفي الحديث الشريف: «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»، وقلما يكتم الناس شيئاً من الخير المطلق المتفق على كونه خيراً، وإنما الغالب في كتمان بعض الخير وإسراره وجعل الحديث فيه نجوى أن يكون ذلك الخير خيراً للمتناجين وشراً لغيرهم أو مؤذياً له ولو من بعض الوجوه، كأسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بها أهلها نفع أنفسهم وضرر غيرهم فيكتمون أخبارها ويجعلونها نجوى بينهم لئلا تصل إلى خصمهم وعدوهم الذي يضره ما ينفعهم، وينفعه ما يحبط عملهم ويبطل كيدهم، ويشبه ذلك ما يكون بين التجار وغيرهم من طلاب الكسب من التناجي فيما يخافون أن يطلع عليه غيرهم فيسبقهم إليه أو

---

(١) انظر: تفسير الطبري. تفسير ابن كثير. التفسير المنير - وهبة الزحيلي. تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي، ٢٨/ ١٥. تفسير المنتخب - لجنة من علماء الأزهر، ٢/ ٤٥٩.

يشاركهم فيه، فإن ما يريدون أن يفوته من الكسب خير لهم وشر لهم. وهنالك أمور من الخير تتوقف خيريتها أو كمال الخير فيها وخلوه من الشوائب على كتمانه وجعل التعاون عليه سراً والحديث فيه نجوى، وهو ما ذكره الله - تعالى - من هذه الأمور الثلاثة: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. فما استثناها الله تعالى من النجوى التي لا خير في أكثرها إلا لأنها يحتاج فيها إلى النجوى. وإنما المراد بالنجوى الكثيرة المنفي الخير عنها النجوى في شئون الناس؛ ولذلك استثنى الأمور الثلاثة التي هي مجامع الخير للناس[1].

* سأل النَّواس بن سَمعَان رسول الله ﷺ عن البِّر والإثم فقال: «البر حُسْنُ الخُلق الإثمُ ما حك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». أي أثر في قلبه وأهمه أنه ذنب وخطيئة. ومنه حديثه ﷺ: «الإثم ما حَكَّ في صَدْرك وإن أَفْتَاكَ الناس عنه وأَفْنَوْك». أي أرْضَوْك. ومنه الحديث: إياكم والحكَّاكات فإنها المآثم». أي الأمور التى تحكّ في الصدور[2].

* **الفرق بين الإثم والذنب:** أن الإثم في أصل اللغة التقصير أثم يأثم إذا قصر، ومنه قول الأعشى:

جماليـــــة تغتلـــــي بـــــالرداف = إذا كـــذب الآثمـــات الهجـــيرا

الاغتلاء: بعد الخطو، والرداف: جمع رديف، وكذب: قصر، وعنى بالآثمات المقصرات، ومن ثم سمي الخمر إثماً لأنها تقصر بشاربها لذهابها بعقله.

والفرق بين الإثم والعدوان: الإثم: الجرم كائناً ما كان. والعدوان: الظلم. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٦٢]. من عطف الخاص على

---

(١) انظر: تفسير المنار.

(٢) الفائق في غريب الحديث – الزمخشري ١/ ٣٠٢.

العام[1].

* وزيادة في البيان: **الاثم**: عند الفقهاء: هي كل ما أوجب الحد. وعند المحققين: هي كل شئ نهى الله عنه. وعند ابن عباس، والحسن البصري: هي كل ذنب ختمه الله تعالى بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وعند الحنفية: كل ما كان شنيعاً بين المسلمين. وفيه هتك حرمه الدين. وهو الأصح. وهي كل ما كان حراماً محضاً، معاقباً عليه بنص قاطع في الدنيا والآخرة. وهي كل فعل يرفض المروءة، والكرم. وعند الشافعية: هي كل ما فيه وعيد شديد بنص من الكتاب، أو السنة. وهي كل جريمة تدل على قلة اكتراث مرتكبها بالدين. وهي ما يوجب الكفارة. وعند الحنابلة: هي كل ما أوجب حداً في الدنيا، أو وعيداً في الآخرة. وعند الظاهرية: هي ما سماها رسول الله ﷺ كبيرة، أو جاء فيه الوعيد بالنار في القرآن الكريم، أو على لسان رسول الله ﷺ.[2]

* ذكر أهل التفسير أن الإثم في القرآن على ستة أوجه[3]:

أحدها: الزنى. ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

والثاني: الخطأ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ [البقرة: ١٨٢].

والثالث: الشرك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٦٢].

والرابع: المعصية دون الشرك. ومنه قوله تعالى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥].

والخامس: الحرام. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ٢٠].

---

(١) الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري ١/ ١٥.

(٢) القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً - سعدي أبو جيب ١/ ٣١٤.

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر - بن الجوزي ١/ ١٤٧.

والسادس: الخمر. ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

....

المعاني المفردة(١)

تَنَاجَيْتُمْ: التَّناجي: الحديث المكتوم. والنجوى: إسرار الحديث. تناجى القوم تساروا، ويقال الهموم تتناجى في صدره فهو المناجي وهي المناجية.

الْإِثْمِ: الذنب والوِزْر. ثم استعير فيما يحصل به الإثم. وهو ما يجب التحرز منه شرعاً وطبعاً. **والإثم** والآثام اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، **والآثم** بالمد المتحمل للإثم. وقد أثم الرجل بالكسر إثماً ومأثماً، إذا وقع في الإثم، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضاً. وأثمه الله في كذا يأثمه، أي عده عليه إثماً، فهو مأثوم.

وَالْعُدْوَانِ: في اللغة المجاوزة للحق. والمجاوزة في الظلم، أو مجاوزة الحد فى المعاصى. ومجاوزة ما فرض الله عليكم. وقيل: الإثم ما يختص بالذات والعدوان ما يتعدى إلى الغير.

بِالْبِرِّ: البر: عمل الخير والمعروف، ومنه البَر والبرية للسعة، وهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما وفي الحديث «البر لا يبلى والذنب لا ينسى».

---

(١) صفوة التفاسير ـ للصابونى. القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً - سعدي أبو جيب. المعجم الوسيط. المخصص ـ لابن سيده. الاشتقاق – ابـن دريـد. التعريفـات – الجرجـاني ١/ ٢٣. التوقيـف علـى مهمات التعاريف – المناوي ١/ ٣٤. الصحاح – الجوهري ٦/ ١٣٥. نزهة الأعين النـواظر في علـم الوجوه والنظائر – بن الجوزي ١/ ١٤٧. معانى القرآن للأخفش. معاني كلمات القـرآن الكـريم – محمد الدروبي [سورة المائدة آية ٢].

الإعراب

إِذَا: ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط. وجملة **تَنَاجَيْتُمْ:** في محل جر بإضافة الظرف إليها. **الَّذِي:** صفة للّه.

القراءات[1]

(فَلَا تَتَنَاجَوْا) قرأ رويس **(فلا تَنْتَجُوا)** بتقديم النون على التاء فينطق بتاء مفتوحة فنون ساكنة فتاء مفتوحة فجيم مضمومة. والباقون بتاءين مفتوحتين خفيفتين فنون مفتوحة بعدها ألف فجيم مفتوحة. **(وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ)** رسم بالتاء. ووقف عليه بالهاء المكي والبصريان والكسائي . وغيرهم بالتاء.

النداء السادس والسبعون

---

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة – لعبد الفتاح القاضي.

تفسحوا في المجالس

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١].

بين يدي النداء

ينبغي على المسلم أن يراعي آداب المجلس بما يلي:

1. تعميرها بذكر الله [1]. ومن الذكر الوارد:

أ. تلاوة كتاب الله[٢]. ب. الاستغفار[٣]. ت. التسبيح والتحميد والتمجيد وسؤال الله الجنة والاستعاذة من النار[٤].

---

(١) قال رسول الله ﷺ: ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة. رواه أحمد (7053) .

(٢) قال رسول الله ﷺ: ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) عن ابن عمر قال: كان يعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب [الرحيم] الغفور. رواه الترمذي (٣٤٣٤).

(٤) قال رسول الله ﷺ إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم ما يقول عبادي قالوا يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول هل رأوني قال فيقولون لا والله ما رأوك قال فيقول وكيف لو رأوني قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وتحميدا وأكثر لك تسبيحا قال يقول فما يسألوني قال يسألونك= =الجنة قال يقول وهل رأوها قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو أنهم رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم

2. اختيار الرفيق الصالح[١]. ٣. النهي عن إقامة الرجل من مجلسه[٢]. ٤. إذا رجع إلى مجلسه فهو أحق به[٣]. ٥. رفع الأذية عن الجلساء[٤]. ٦.السلام في القدوم والذهاب[٥]. ٧.أن يجلس حيث ينتهي به المجلس[٦]. ٨. لا يفرِّق بين اثنين[٧]. ٩. دعاء كفارة المجلس أو في آخر المجلس[٨]. ١٠. النهي عن الجلوس بين الظل

يتعوذون قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم. رواه البخاري (٦٠٤٥).

(١) عن النبي ﷺ قال: مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك – يعطيك – وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة. رواه البخاري (٥٢١٤). وقال رسول الله ﷺ الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل. رواه الترمذي (٢٣٧٨).

(٢) عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. رواه البخاري (٥٩١٥).

(٣) قال رسول الله ﷺ إذا قام أحدكم – من قام من مجلسه – ثم رجع إليه فهو أحق به. رواه مسلم (٢١٧٩).

(٤) عن جابر قال: مر رجل في المسجد بسهام فقال له رسول الله ﷺ أمسك بنصاله. رواه البخاري (440).

(٥) قال رسول الله ﷺ: إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة. رواه الترمذي (٢٧٠٦).

(٦) عن جابر بن سمرة قال : كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي. رواه الترمذي (٢٧٢٥).

(٧) قال رسول الله ﷺ: لا يحل للرجل أن يفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما. رواه الترمذي (٢٧٥٢).

(٨) قال رسول الله ﷺ من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك. رواه الترمذي (3433) .

والشمس[١]. **١١.** التحول من المجلس عند النعاس[٢]. **١٢.** النهي عن التسمع على الآخرين[٣]. **١٣.** النهي عن تناجي اثنين - إذا كانوا ثلاثة – بدون إذن الثالث[٤]. **١٤.** التفسح[٥]. **١٥.** عدم مقاطعة المتحدث[٦]. **١٦.** النهي عن الاتكاء على ألية اليد اليسرى خلف الظهر ويكره أن يتكئ أحد على يده اليسرى من وراء ظهره[٧]. **١٧.** تجنب طرق الناس[٨].

وأما مكانة العلم والعلماء:

فيقول تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

---

(١) عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ نهى أن يقعد بين الظل والشمس. رواه ابن ماجه (٣٧٢٢).

(٢) قال رسول الله ﷺ يقول إذا نعس أحدكم في المسجد يوم الجمعة فليتحول من مجلسه ذلك إلى غيره. رواه الترمذي (٥٢٦).

(٣) قال : من تحلَّم بحُلْم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ. رواه البخاري (٦٦٣٥).

(٤) قال النبي ﷺ: إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجل أن يحزنه. رواه البخاري (٥٩٣٢).

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

(٦) بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة. رواه البخاري (٥٩).

(٧) عن الشريد بن سويد قال مر بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا أي وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي فقال: "لا تقعد قعدة المغضوب عليهم"، رواه أبو داود، وإسناده جيد.

(٨) قال رسول الله ﷺ: إياكم والجلوس بالطرقات قالوا يا رسول الله لا بد من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رواه البخاري (٥٨٥٧).

[الزُّمَر: ٩].

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر، العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به، فقد أخذ بحظ وافر**»[1].

قال الحسن: «كانوا يقولون: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار». وقال الأوزاعي: «الناس عندنا أهل العلم، ومن سواهم فلا شيء». وقال سفيان الثوري: «لو أن فقيها على رأس جبل، لكان هو الجماعة».

وحول هذه المعاني يقول الشاعر:

الناس من جهة التمثال أكفاء = أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم في أصلهم نسب = يفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم = على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه = والجاهلون لأهل العلم أعداء

إذن، فالنيل من العلماء وإيذاؤهم يعد إعراضا أو تقصيرا في تعظيم شعيرة من شعائر الله، وما أبلغ قول بعض العلماء: «أعراض العلماء على حفرة من حفر جهنم»

كلنا يدرك أن من أكل الربا فقد آذنه الله بالحرب، إن لم ينته ويتب عن ذلك الجرم العظيم، كلنا يدرك هذا، ولكن هل نحن ندرك – أيضاً – أن من آذى أولياء الله فقد حارب الله – جل وعلا – هل نحن نستحضر هذا الوعيد الشديد، عندما نهم بالحديث في عالم من العلماء؟

لعل في ذلك تبييناً لفضل العلماء، وتذكيراً ببعض ما يجب لهم علينا من الحقوق.

هداية وتدبر

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والدارمي، وهو حديث حسن.

* يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله: إذا طلب منكم أن يوسع بعضكم فى المجالس لبعض بأن تقوموا للمقبلين إذا كثرت المزاحمة فأوسعوا ولا تثاقلوا عن القيام والانتقال، يوسع الله لكم، وإذا طلب منكم أن تنهضوا من مجالسكم إلى موضع آخر لضرورة داعية إليه فانهضوا وأطيعوا من أمركم به. فمن فعل ذلك طاعة للأمر وتوسعة للإخوان يُعْلِ الله مكانة المؤمنين المخلصين ويرفعهم بالنصر وحسن الذكر في الدنيا والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة لأن من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه يُعْلِ الله مكانة المؤمنين المخلصين، ويرفع العلماء منهم خاصة طبقات عالية ومراتب مرتفعة بسبب ما جمعوا من العلم والعمل، فهو من عطف الخاص على العام للدلالة على علو شأنهم وسموا مكانهم حتى كأنهم جنس آخر درجات والله بما تعملون خبير [(١)].

* بيان علو درجـات العلم والعلماء بسبب ما جمعوا من العلم والعمل فإن العلم لعلو درجته يقتضي للعمل المقرون به مزيد رفعة. كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، فضل العلماء وسمو منزلتهم. قال صاحب الكشاف: عن عبد الله بن مسعود أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: يأيها الناس افهموا هذه الآية، ولترغبكم فى العلم. وفى الحديث الشريف: «**بين العالم والعابد مائة درجة**» وفى حديث آخر: «**فضل العالم عل العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم**».

* الآية عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه، قال ﷺ: «**من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به**» ولكن يوسع لأخيه مالم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه. روى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**لا يقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه**». **وعن النبي ﷺ** «**أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه في آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا**». وكان ابن عمر يكره أن يقوم

(١) تفسير المنتخب، ٢/ ٤٥٩. تفسير روح البيان، ٩/ ٣٨٨.

الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. لفظ البخاري.

* **في تفسير المجلس أربعة أقوال:**

الأول: أنه مجلس النبي ﷺ، قاله ابن مسعود. وكان قوم إذا أخذوا فيه مقاعدهم شحوا على الداخل أن يفسحوا له.

الثاني: أنه المسجد يوم الجمعة.

الثالث: أنه مجلس الذكر.

الرابع: أنه موقف الصف في سبيل الله في القتال.

والصحيح أن الجميع مراد بذلك؛ لأن الأمر محتمل له، والتفسح واجب فيه.

* فصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها[1] في أنهما يجمعهما غرض التأدب مع الرسول ﷺ وتلك المراعاة أولى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.. ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول ﷺ والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول ﷺ وأخرت تلك عن آيات النجوى العامة إيذاناً بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في النجوى هو مسوغ الانتقال من النوع الأول إلى النوع الثاني، والإِيماءُ إلى تميزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.

....

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

المعاني المفردة[(١)]

تَفَسَّحُوا: توسعوا.

انشُزُوا[(٢)]**:** نَشَزَ يَنْشُزُ ويَنْشِزُ. نشز الشيء: ارتفع ونشز عن مكانه: ارتفع ونهض، وأنشزه: رفعه عن مكانه. أي: إذا قيل انهضوا إلى حرب، أو طاعة، فانهضوا.

سبب النزول[(٣)]

قال مقاتل: كان النبي ﷺ في الصُفة، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة، وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثالبت بن قيس بن شماس وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال انبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر: قم يافلان وأنت يافلان بعدد القائمين من أهل بدر، قشق ذلك على من أقيم، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

---

(١) أساس البلاغة – الزمخشري. القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً- سعدي أبو جيب. المحيط في اللغة ـ الصاحب بن إدريس الطالقاني

(٢) [نشز] ن ش ز : النَّشْزُ بوزن الفلس المكان المرتفع من الأرض وجمعه نُشُوزٌ وكذا النَّشَزُ بفتحتين وجمعه أَنْشازٌ و نِشَازٌ بالكسر كجبل وأجبال وجبال و نَشَزَ الرجل ارتفع في المكان وبابه ضرب ونصر ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ ونَشَزَتِ المرأة استعصت على بعلها وأبغضته وبابه دخل وجلس و نَشَزَ بعلها عليها ضربها وجفاها ومنه قوله تعالى (وإن امرأة خافت من بعلها نُشُوزا) [مختار الصحاح - الرازي].

(٣) أسباب نزول الآيات- الواحدي النيسابوري.

الإعراب[1]

جملة الشرط جواب النداء مستأنفة، ونائب فاعل «قيل» ضمير المصدر، وجملة «فافسحوا» جواب الشرط، جملة «يفسح» جواب شرط مقدر، وكذا جملة «يرفع»، الجار «منكم» متعلق بحال من الواو، «درجات» مفعول ثان على تضمين الفعل معنى يبلِّغ.

المناسبة في السياق

لما بين تعالى أن اليهود يحيونه بما لم يحيه به الله، وذمهم على ذلك، وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالتعطف والتآلف، حتى يفسح بعضهم لبعض، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله والنظر إليه. قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض.

القراءات[2]

«**الْمَجَالِسِ**» قرأ عاصم بفتح الجيم وألف بعدها على الجمع. جعله عاماً أي إذا قيل لكم توسعوا في المجالس أي مجالس العلماء والعلم فتفسحوا. وغيره بإسكان الجين على الإفراد،«**الْمَجْلِسِ**».

«**أُنشُزُوا فَانشُزُوا**» قرأ المدنيان والشامي وحفص وشعبة بخلف عنه بضم الشين. والباقون بكسرها «**اِنشِزُوا فَانشِزُوا**»، وهو الوجه الثاني لشعبة ومن ضم الشين ضم الهمزة ابتداء ومن كسرها كسر الهمزة ابتداء أيضًا.

---

(١) المجتبى من مشكل إعراب القرآن الكريم - أ.د.أحمد بن محمد الخراط.

(٢) حجة القراءات – عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة. الحجة في القراءات السبع – ابن خالويه. والشاطبية.

النداء السابع والسبعون

إذا ناجيتم الرسول

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

بين يدي النداء

إن الكلام مع رؤساء الأعمال وأصحاب الدعوات، وولاة المناصب الكبرى قد يكثر ويتسع من غير مسوغ واضح؛ اللهم إلا أن الأتباع والأعوان يطيب لهم أن «يتكلموا» مع رئيسهم الكبير.

وقد يكون كلاًمهم هذا متصلاً بموضوع الرسالة التى يهتمون جميعا بها أو العمل الذى يتعاونون جميعا على إنجاحه. لكن هذا الكلام فى أغلب الأحيان يكون قليل الجدوى. ولو أن كل واحد منهم انصرف إلى نفسه يتعهدها، وإلى عمله الخاص يتقنه، وإلى واجبه المنوط به يجيده، ويبتكر الطرق للنبوغ به؟ لكان ذلك أربى للإنتاج، وأزكى عند الله !!. ولعل هذا سر الأمر الذى صدر للصحابة أن يخففوا من مناجاتهم للرسول الكريم، وأن يقدموا بين يدى نجواهم صدقة!!. إن الإحسان للفقراء قربة ميسرة فى كل آن. فإذا أراد أحد أن ينال خطوة عند الله وعند رسوله فليتصدق، فهذا مجال رحب للثواب المطلوب. وهو أولى من الجلوس عند رسول الله رغبة فى الجلوس فحسب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ . على أن هذا التوجيه لا يعنى فرض ضريبة على كل من يريد مخاطبة صاحب الرسالة، فإن الكلام معه مباح، بل قد يجب فى شؤون كثيرة، وإنما المقصود تنبيه المؤمنين إلى الطريق الصحيح لمثوبة الله، وتوفير الوقت لصاحب الرسالة حتى لاً يشغله ـ بلاً ضرورة ـ هواة الجلوس مع العظماء. لذلك قال عر وجل: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ

نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. إن مجالسة العظماء كما علمتنا التجارب وسيلة للزلفى، ومضيعة للوقت، وشغل عن واجبات كثيرة. فلا عجب إذا وضعت القيود عليها ونبه إلى ما هو أجدى منها.

هداية وتدبر[1]

* يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا أردتم أن تكلموا رسول الله ﷺ فيما بينكم وبينه، فقدموا قبلها صدقة تصدقوا بها على الفقراء، إن تقديم الصدقات قبل مناجاته، أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله، وتعظيم لمقام الرسول ﷺ، ومضاعفة الأجر والثواب، والقيام بحق الإخاء، بالعود على ذوي المسكنة بالمواساة والإغناء. وتمييز بين المخلص والمنافق، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة. وأطهر لذنوبكم، ولأنفسكم من رذيلة البخل والشح، ومن حب المال وإيثاره الذي قد يكون من شعار المنافقين، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإيمان كيفما كان، والثاني يغص به، ولو في أضرّ الأوقات. فإن لم تجدوا ما تتصدقون به، فإن الله يسامحكم ويعفو عنكم، لأنه لم يكلف بذلك إلا القادر منكم.
* هذه الصدقة شرعها الله تعالى وجعل سببها مناجاة الرسول ﷺ فذكرت عقب آي النجوى لاستيفاء أنواع النجوى من محمود ومذموم.
* هذه الآية على رأي جماهير أهل العلم منسوخة، فكل مفسر ساق في تفسيره قول

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٤٧. صفوة التفاسير ـ للصابونى. محاسن التأويل – القاسمي. تفسير ابن كثير، ٨/ ٤٩. الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ عن ابن عاشور. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي – مصطفى بن العدوى. التفسير المنير. ٢٨/ ٤٩. التفسير المنير. ٢٨/ ٤٢. الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. تفسير القرطبى. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ٥/ ٢٩٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. من تفسير سورة النحل صـ٤٤٩ ــــ. التفسير القرآني للقرآن، ١٤/ ٨٣٧.

من قال بالنسخ، نسختها الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾[المجادلة: ١٣]. ولكن مسألة المصالح المرسلة، إذا كنت مسئولاً وبابك مفتوح، فالكل سيأتي يتكلم، قد يأتي الذي له حاجة، والذي ليست له حاجة، فيضر الذي ليست له حاجة بالذي له الحاجة، وتضيع الأوقات سدى.. فإذا قال قائل بجواز هذا الأمر، فلا يتكلم الشخص إلا على عرض حال دمغة؛ تنظيماً للأعمال، فلا يقال حينئذ: إنه مبتدع، أو قد أحدث حدثاً في الدين، وغاية ما يقال: إنها مسألة اجتهادية، تعد من المصالح المرسلة، وليست تشريعات تصادم الكتاب والسنة، بل هي تندرج في الجملة تحت قول النبي ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، فعلى الأقل إذا أثيرت مثل هذه المسألة، فيقال: في المسألة وجهان: وجه بالجواز تنظيماً للأمور وترتيباً للمصالح، ووجه بالمنع؛ لأن الآية منسوخة، وللتعسير الذي يأتي على الفقراء، فحينئذ تمتص المسألة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* **عن علي بن أبي طالب قال:** [لما نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال لي النبي ﷺ: ما ترى دينار؟ قلت لا يطيقونه قال فنصف دينار؟ قلت لا يطيقونه قال فكم ؟ قلت شعيرة قال إنك لزهيد قال: فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ الآية. فبي خفف الله عن هذه الأمة][1] .
والمراد بالشعير هنا وزن شعيرة من ذهب وليس المراد واحدة من حب الشعير.

* أوجب اللّه تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ، تعظيماً لنبيه وتخفيفاً عنه من كثرة الأسئلة، ثم خفف اللّه عن الأمة، ورفع التكليف. والظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة، فقد تصدق علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، كما تقدم، ولم

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والنحاس وابن مردويه.

يوجد مقتض للمناجاة لدى بقية الصحابة الذين تريثوا وفهموا علة التكليف. وكان التكليف مقصوراً على الأغنياء، لأنه تعالى جعل الصدقة بالمال خيراً من إمساكها، وأطهر لقلوبهم من المعاصي والذنوب، فإن لم يجد الواحد ما يتصدق به، فإن اللّه غفور له، رحيم به.

* ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾: استعارة، استعار اليدين لما يكون قبل الشيء، أي قبل نجواكم، وهي استعارة بالكناية، حيث شبه النجوى بالإنسان، وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو اليدان. ويصح أن يكون في التركيب استعارة تمثيلية. ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾: استفهام معناه التقرير.

* **قال الفخر الرازي كلاماً جميلاً مفيداً أكتفي بما يلي:** في الآية مسائل:

المسألة الأولى: هذا التكليف يشتمل على أنواع من الفوائد أولها: إعظام الرسول ﷺ وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه، وإن وجده بالسهولة استحقره. وثانيها: نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة. وثالثها: قال ابن عباس: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة. ورابعها: قال مقاتل بن حيان: إن الأغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبي ﷺ وأكثروا من مناجاته حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة، فأما الأغنياء فامتنعوا، وأما الفقراء فلم يجدوا شيئاً، واشتاقوا إلى مجلس الرسول ﷺ، فتمنوا أن لو كانوا يملكون شيئاً فينفقونه ويصلون إلى مجلس رسول الله ﷺ، فعند هذا التكليف ازدادت درجة الفقراء عند الله، وانحطت درجة الأغنياء.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجباً، لأن الأمر للوجوب، ويتأكد ذلك بقوله في آخر الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن ذلك

لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه، ومنهم من قال: إن ذلك ما كان واجباً، بل كان مندوباً، واحتج عليه بوجهين الأول: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض والثاني: أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به، وهو قوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ﴾ إلى آخر الآية. والجواب عن الأول: أن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر، فالواجب أيضاً يوصف بذلك. والجواب عن الثاني: أنه لا يلزم من كون الآيتين متصلتين في التلاوة، كونهما متصلتين في النزول، وهذا كما قلنا في الآية الدالة على وجوب الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً، إنها ناسخة للاعتداد بحول، وإن كان الناسخ متقدماً في التلاوة على المنسوخ، ثم اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ، فقال الكلبي: ما بقي ذلك التكليف إلا ساعة من النهار ثم نسخ، وقال مقاتل بن حيان: بقي ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ.

❋ **وقال القرطبي**: قال ابن العربي: وفي هذا ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم نسخه مع كونه خيراً وأطهر. ولكن قد يقال إن ما قد نسخ من أجله قد يكون أكثر منفعة للمسلمين في دينهم ودنياهم. وإن كان خافياً عن المسلمين لا يعلمونه. واعلم أنه يجوز نسخ الأخف بالأثقل، والأثقل بالأخف. فمثال نسخ الأخف بالأثقل: نسخ التخيير بين الصوم والإطعام المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ بأثقل منه، وهو تعيين إيجاب الصوم في قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.ونسخ حبس الزواني في البيوت المنصوص عليه بقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾، بأثقل منه وهو الجلد والرجم المنصوص على الأول منهما في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وعلى الثاني منهما بآية الرجم التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها ثابتاً، وهي قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها

البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) ومثال نسخ الأثقل بالأخف: نسخ وجوب مصابرة المسلم عشرة من الكفار المنصوص عليه في قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، بأخف منه وهو مصابرة المسلم اثنين منهم المنصوص عليه في قوله: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ﴾ .

❊ هذا الحكم قيل: نُسخ قبل العمل به. وقال قتادة: عمل به ساعة من نهار. وقال مقاتل: عشرة أيام. وقال عليّ كرم الله وجهه: ما عمل به أحد غيري أردت المناجاة ولي دينار فصرفته بعشرة دراهم وناجيت عشر مرار أتصدق في كل مرة بدرهم ثم ظهرت مشقة ذلك على الناس فنزلت الرخصة في ترك الصدقة.[١]

❊ **أما الدكتور عبد الكريم الخطيب** فلا يرى نسخاً هنا ويقول: لا نسخ فى القرآن، وأنه لا نسخ فى هذه الآية بالذات .. وذلك من وجوه.

أولاً: أن الصدقة التي دعى المؤمنون إلى تقديمها بين يدى نجواهم غير محددة المقدار، ومن هنا كانت أىّ صدقة يقدمها المؤمن فى هذا المقام مجزية له، ولو كانت شقّ تمرة .. وإذن فليس فى هذه الصدقة ما يشق على المؤمنين، حتى يجيء الأمر بنسخ تقديم هذه الصدقة.

وثانيا: ليس ما جاءت به الآية من الأمر بتقديم الصدقة ـ واللّه أعلم ـ أمراً ملزماً، يقع موقع الوجوب، بل هو أمر للندب والاستحباب، ولذلك علّل له بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.. ثم جاءت المجاوزة عنه عند عدم وجود الصدقة: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

....

(١) قاله أبو حيان.

المعاني المفردة[١]

(نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ): أردتم مناجاته والحديث معه.

(بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ): قبل نجواكم.

(أَطْهَرُ): أزكى.

سبب النزول[٢]

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت يوم جمعة وقد جاء ناس من أهل بدر وفي المكان ضيق فلم يفسح لهم فقاموا على أرجلهم فأقام ﷺ نفراً بعدتهم وأجلسهم مكانهم فكره أولئك النفر ذلك فنزلت واخرج من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم الآية فلما نزلت صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة فأنزل الله بعد ذلك أأشفقتم الآية.

الإعراب[٣]

إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة **ناجيتم في** محل جر بإضافة الظرف إليها **وناجيتم** فعل وفاعل والرسول مفعول به **والفاء** رابطة **وقدّموا** فعل أمر **والواو** فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم **وبين** ظرف متعلق بقدّموا **ويدي** مضاف إليه وعلامة جرّه الياء **ونجواكم** مضاف ليدي **وصدقة** مفعول به لقدموا (ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ) **ذلك** مبتدأ والإشارة إلى تقديم الصدقة على المناجاة **وخير** خبر **ولكم** متعلقان بخير **وأطهر** عطف على خير (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) **الفاء** عاطفة **وإن**

(١) تفسير المراغي، ٢٨/ ١٩.

(٢) أسباب نزول الآيات- الواحدي النيسابوري.

(٣) إعراب القرآن وبيانه.

شرطية **ولم** حرف نفي وقلب وجزم **وتجدوا** فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون وهو فعل الشرط **والفاء** رابطة لجواب محذوف، أي فلا تثريب عليكم. وجملة **إن اللّه غفور رحيم** تعليل لرفع الحرج والتثريب.

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعي: لما نهى الله تعالى عما يحزن من المقال والمقام، وكان المنهي عنه من التناجي إنما هو لحفظ قلب الرسول ﷺ عما يكدره فهو منصرف إلى مناجاتهم غيره، وكان ذلك مفهماً أن مناجاتهم له ﷺ لا حرج فيها، وكان كثير منهم يناجيه ولا قصد له إلا الترفع بمناجاته فأكثروا في ذلك حتى شق عليه ﷺ، وكان النافع للإنسان إنما هو كلام من يلائمه في الصفات ويشاكله في الأخلاق، وكان رسول الله ﷺ أبعد الناس من الدنيا تقذراً لها لأجل بغض الله لها، أمر من أراد أن يناجيه بالتصدق ليكون ذلك أمارة على الاجتهاد في التخلق بأخلاقه الطاهرة من الصروف عن الدنيا والإقبال على الله، ومظهراً له عما سلف من الإقبال عليها فإن الصدقة برهان على الصدق في الإيمان، وليخفف عنه ﷺ ما كانوا قد أكثروا عليه من المناجاة، فلا يناجيه إلا من قد خلص إيمانه فيصدق، فيكون ذلك مقدمة لانتفاعه بتلك المناجاة كما أن الهدية تكون مهيئة للقبول كما ورد «نعم الهدية أمام الحاجة».

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

النداء الثامن والسبعون

محاسبة النفس

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

بين يدي النداء

إنّ محاسبةَ النَّفسِ من الدواءِ الناجع لعلاجِ القلوب. ولَّما تركَ النَّاسُ اليومَ محاسبةَ النفسِ عاشوا في الهموم والغمومِ.

قال الفُضَيل بن عِياض: المؤمنُ يحاسب نفسه ويعلم أنّ له موقفاً بين يدي الله تعالى، والمنافق يغفل عن نفسه، فَرَحِمَ اللهُ عبداً نظر لنفسه قبل نزول مَلَك الموتِ به.

ويعين على هذه المحاسبة: معرفة أنّه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلّما أهملها اليوم اشتدّ عليه الحساب غداً.

ويعين عليها أيضاً: معرفة أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب عزوجل، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقّن هذا هان عليه الحساب اليوم؛ فحقّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطواتها.

ومحاسبة النفْس نوعان: **نوع قبل العملِ، ونوع بعده**.

فأما **النوع الأول**: فهو أن يقف عند أولِ همه وإِرادته، ولا يبادر بالعملِ حتى يتَبين له رجحانه على تركه. قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبداً وقَف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر».

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل: وهو ثلاثةُ أَنواعٍ:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور، وهي:

الإخلاص في العملِ. والنصيحة لله فيه. ومتابعة الرسولِ فيه. وشهود مشهد الإحسان فيه. وشهود منة الله عليه. وشهود تَقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيُحَاسِبُ نَفْسَهُ: هل وفَّى هذه المقاماتِ حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطَّاعةِ؟

الثَّاني: أَنْ يُحاسِبَ نفسَهُ على كلِّ عملٍ كانَ تَرْكُه خيراً لهُ مِن فِعْلِهِ.

الثَّالثُ: أَنْ يُحاسِبَ نفسَهُ على أَمْرٍ مُباحٍ، أو مُعتادٍ: لِمَ فَعَلَهُ؟ وهل أرادَ بهِ الله والدَّارَ الآخِرَةَ؟ فيكونَ رابحاً، أو أرادَ بهِ الدُّنيا وعاجِلَها؛ فيَخْسَرَ ذلك الرِّبحَ ويفوتَه الظَّفَرُ بهِ!

وجِماعُ ذلك: أَنْ يُحاسِبَ نفسَهُ أوَّلاً على الفرائِضِ، فإِنْ تَذَكَّرَ فيها نَقْصاً تَداركَهُ، إمَّا بقضاءٍ أو إصلاحٍ.

ثمَّ يُحاسِبُها على المناهي، فإنْ عَرَفَ أَنَّهُ ارتَكَبَ منها شيئاً تداركَهُ بالتَّوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحِيَةِ.

ثمَّ يحاسِبُ نفسَهُ على الغَفْلَةِ، فإنْ كان قد غَفِلَ عمَّا خُلِقَ لَهُ؛ تداركَهُ بالذِّكْرِ والإقبالِ على الله تعالى.

ثمَّ يُحَاسِبُها بما تكلَّمَ بهِ، أو مَشَتْ إليهِ رجلاهُ، أو بَطَشَتْ يداهُ، أو سمعَتْهُ أُذناهُ: ماذا أرادَتْ بهذا؟ ولِمَنْ فَعَلَتْهُ؟ وعلى أيِّ وجهٍ فَعَلَتْهُ؟ ويعلم أنه لا بد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: لمَ فعلتَ؟ وكيفَ فَعلتَ؟ **فالأوَّلُ:** سؤالٌ عن علَّة الفعلِ، وباعثِهِ، وداعيهِ: هل هو حظٌّ عاجلٌ مِن حُظوظِ العاملِ، وغرضٌ مِن أغراضِ الدُّنيا في محبَّةِ المدحِ مِن الناس، أو خوفِ ذمِّهم، أو استجلابِ محبوبٍ عاجلٍ، أو دفعِ مكروهٍ عاجلٍ؟ أم الباعثُ على الفعلِ القيامُ بحقِّ العبوديَّةِ، وطلبُ التودُّدِ والتقرُّبِ إلى الرَّبِّ سبحانه وتعالى،

وابتغاءُ الوسيلةِ إليهِ؟

والثاني: سؤالٌ عن متابعةِ الرَّسولِ ﷺ في ذلك التعبُّدِ؛ أي: هل كان ذلك العمل ممّا شَرَعْتُهُ لك على لسانِ رسولي؟ أم كانَ عملاً لم أَشْرَعْهُ ولم أَرْضَهُ؟

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «**لا تزولُ قدما عبدٍ حتَّى يسألَ عن عُمْرِهِ فيما أفناهُ، وعنْ علمهِ فيما فعل، وعن مالهِ منْ أينَ اكتسبهُ وفيما أنفقه، وعنْ جسمهِ فيما أبْلاهُ**».

وقد دلَّ على وُجوبِ محاسبة النَّفسِ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [**الحشر**: ١٨].

والمقصودُ مِن هذا النظرِ: ما يُوجبه ويقتضيه، من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما يُنجيه من عذاب الله، ويُبيض وجهه عند الله.

نحن أحوج ما نكون اليوم إلى محاسبة النفسِ بعد تهالك الناس على الدنيا، وسيرهم وراء الشهوات، وتنافسهم في الفانياتِ، وزهدهم في الباقيات الصالحات.

ولهذه المحاسبة الذاتية فوائد جليلة، وآثارٌ على مستعمله عظيمة:

مِنْهَا: الاطِّلاعُ عَلَى عُيوبِ النفس ونقائصها، فيمكِنُهُ السَّعي في إصلاحها، ومَن لَمْ يطَّلعْ عَلَى عَيْبِ نفسِهِ، لَمْ يُمكِنْهُ إِزالَتُه، فَإِذَا اطَّلَعَ عَلَى عَيْبِها؛ مَقَتَها فِي ذاتِ اللهِ تَعَالَى.

وقيل: «مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوامِ الأوقاتِ، ولم يخالفها فِي جميعِ الأحوالِ، ولم يَجُرَّها إِلَى مكروهها فِي سائِر أَوقاتِه؛ كَانَ مغروراً، ومَن نَظَرَ إِلَيْهَا باستحسانِ شيءٍ مِنها؛ فَقَدْ أَهلَكَها».

فالنَّفْسُ داعيةٌ إِلَى المَهالِكِ، مُعينَةٌ للأعداءِ، طامِحَةٌ إِلَى كلِّ قبيحٍ، مُتَّبِعَةٌ لكُلِّ سوءٍ، فَهِيَ تَجري بطَبْعها فِي ميدانِ المخالَفَةِ.

ومنها: أنها توجب للعبد الإمساك عن الخوض في عيوب الناس، فإنَّ من شُغِل بعيب نفسه لمْ يبق لديه من الوقت ما ينفقه في الحديث عن عيوب الناس، وطوبى لمن

شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه، وتفرَّغ لعيوب الناس.

ومِنها: أنه يعرفُ بذلك حقَّ الله تعالى؛ ويورثه مَقتَ نفسِه، والإزراءَ عليها، ويُخلِّصُه مِن العُجْبِ ورُؤيَةِ العملِ، ويفتَحُ لَهُ بابَ الخضوعِ والذلِّ والانكسارِ بينَ يدي ربِّهِ، واليأسِ مِن نفسِهِ، وأنَّ النَّجاةَ لاَ تحصُلُ لَهُ إلاَّ بعفوِ اللهِ، ومغفرتِه ورحمتِه، فإِنَّ مِن حقِّهِ أَنْ يُطاعَ وَلاَ يُعْصَى، وأنْ يُذْكَرَ فلا يُنسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ.

فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا الحقِّ الَّذِي لربِّهِ عَلِمَ علمَ اليقينِ أَنَّهُ غيرُ مؤدٍّ لَهُ كَمَا ينبغي، وأَنَّهُ لاَ يسعهُ إِلاَّ العفوُ والمغفرةُ، وأَنَّهُ إنْ أُحيلَ عَلَى عملِهِ هَلَكَ.

فمحاسَبَةُ النفس هِيَ نظرُ العَبْدِ فِي حقِّ اللهِ عَلَيهِ أَوَّلاً. ثُمَّ نَظَرهُ: هَلْ قامَ بِهِ كَمَا يَنبغي ثانِياً.

ما أعظم رقابة الله على عباده: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[ق]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[الزُّخرُف: ٨٠] .

هداية وتدبر[1]

* يا أيها المصدّقون بالله ورسوله اتَّقُوا اللَّهَ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه. ولينظر أحدكم ما قدّم وادخر لنفسه ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه، كعلم علَّمه، أو كتاب صنَّفه، أو حبيس احتبسه، أو بناء بناه من مسجد أو رِباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أم من السيئات التي توبقه، كوظيفة وظفها بعض الظلاّم على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان ومَلاهٍ، أو تعامل وتخابر لمصلحة عدو الأمة، وكذلك كل سُنّة حسنة، أو سيئة يستنّ بها.

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩. القرطبي. زاد المسير. تفسير ابن كثير. التفسير المنير ٢٨/ ١٠٦. مفاتيح الغيب. روح المعاني. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. في ظلال النداء.

* والعرب تكني عن المستقبل بالغد. وقيل: ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة؛ كما قال الشاعر: وإن غداً للناظرين قريب. وقال الحسن وقتادة: قرَّب الساعة حتى جعلها كغد. ولا شك أن كل آت قريب؛ والموت لا محالة آت. وأعاد اللّه تعالى الأمر بالتقوى مرة ثانية للتأكيد، كقولك: اعجل اعجل، ارم ارم. وقيل التقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب، والثانية اتقاء المعاصي في المستقبل. إن الله ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرّها، لا يخفى عليه منها شيء، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير، وهو مجازيكم على جميعها. قال سعيد بن جبير: أي بما يكون منكم.

* التقوى حالة في القلب يشير إليها اللفظ بظلاله، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها. حالة تجعل القلب يقظاً حساساً شاعراً بالله في كل حالة. خائفاً متحرجاً مستحيياً أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها. وعين الله على كل قلب في كل لحظة. فمتى يأمن أن لا يراه؟!

* فلتنظر النفس وتراقب صالح عملها الذى هو زادها غداً وخير الزاد التقوى فللنفس يوم وغد، وهى في سير وحركة على مسافة، والغاية هو الله سبحانه وعنده حسن الثواب وهو الجنة فعليها أن تدوم على ذكر ربها ولا تنساه؛ فإنه سبحانه هو الغاية، ونسيان الغاية يستعقب نسيان الطريق فمن نسى ربه نسى نفسه، ولم يُعِدَّ لغده ومستقبل مسيره زاداً يتزود به ويعيش باستعماله فهو الهلاك.

* قَالَ ﷺ: «الْكَيِّسُ – العاقل – مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ». قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِ «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ». يَقُولُ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِى الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ[1] وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِى الدُّنْيَا. وَيُرْوَى عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ لاَ يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ

---

(١) ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨].

مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ.(١)

* **قال الإمام علي** رضي الله عنه: «إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة وإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل».

* ذكر تعالى النفس والغد على سبيل التنكير: أما الفائدة في تنكير النفس فلاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة، كأنه قال فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وفيه حث عظيم على النظر وتعيير بالترك وبأن الغفلة قد عمت الكل فلا أحد خلص منها. وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل الغد لا يعرف كنهه لعظمه.

* إن آياتِ الكتاب العزيز متعددة وفي غاية الكثرة تأمر بتقوى الله، فهي وصية ربنا لنا، ووصية الأنبياء لأممهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا الختام يعظم مراقبة العبد لربه، وينبغي أن يكون العبد على هذه الحال من المراقبة، وهي مرتبة الإحسان التي قال عنها النبي ﷺ: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، فجدير بالعبد أن يعبد الله سبحانه وتعالى على هذه الصفة كأنه يرى ربه.

* عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِى النِّمارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَتهمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

---

(١) سنن الترمذى – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ حديث ٢٦٤٧. عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ.

نَفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ الآيَةِ، وَقرأ : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ **تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ** – حتى قَالَ - **وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً ..**[1] [2]».

....

الإعراب[3]

اتَّقُوا: فعل أمر مبني على حذف النون. **الواو:** فاعل. **اللَّهَ:** مفعوله. **الواو** حرف عطف. **اللام:** لام الأمر. **تَنظُرْ:** فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. **نَفْسٌ: فاعل. مَّا:** مفعول تنظر. وجملة **قَدَّمَتْ:** صلة ما والعائد محذوف أي قدّمته. **لِغَدٍ:** متعلقان بقدّمت. **وَاتَّقُوا اللَّهَ:** كرر الأمر بالتقوى تأكيداً له، وجملة. **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ:** تعليل للأمر بالتقوى وإن واسمها وخبرها.

المناسبة في السياق

لَّما ذكر تعالى صفات كلٍ من المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال، وعظ المؤمنين بموعظةٍ حسنة، تحذيراً من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾..

---

(١) «مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً»الحديث «.. فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنيَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ».

(٢) صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة – حديث 2398. المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار : جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب

(٣) إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ٥٥.

النداء التاسع والسبعون

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

بين يدي النداء

إن مسألة الولاء والبراء تكاد تكون القضية الإيمانية الأولى في واقعنا اليوم بكل تفريعاتها وتشعباتها وأحكامها وموجباتها فضلاً عن كونها ركناً من أركان العقيدة، وشرط من شروط الإيمان، تغافل عنه كثير من الناس وأهمله البعض فاختلطت الأمور وكثر المفرطون.

ومنزلة عقيدة الولاء والبراء من الشرع عظيمة فهي جزء من معنى الشهادة وهي قول: «لا إله إلا الله» فإن معناها البراء من كل ما يعبد من دون الله.

وهي شرط في الإيمان كما قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة].

إن هذه العقيدة أوثق عرى الإيمان، لما روى أحمد في مسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **{أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله}**. **{من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان}** أخرجه أبو دا ود.

فلا يتم الدين أو يقام عَلَم الجهاد أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا

بالحب في الله والبغض في الله، والمعاداة في الله، والموالاة في الله، ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء، لم يكن فرقاناً بين الحق والباطل، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

إنها سبب لتذوق حلاوة الإيمان ولذة اليقين، لما جاء عنه ﷺ أنه قال: **{ثلاث من وجدهن وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار}** متفق عليه.

إنها الصلة التي يقوم على أساسها المجتمع المسلم ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحُجُرات: ١٠]].

إنه بتحقيق هذه العقيدة تنال ولاية الله، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله فإنما، تنال ولاية الله بذلك.

إن عدم تحقيق هذه العقيدة قد يدخل في الكفر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: ٥١].

إن كثرة ورودها في الكتاب والسنة يدل على أهميتها.

حتى أنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يواد إلا لله، ولا يعادى إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله.

ومن صور موالاة الكفار: التشبه بهم في اللبس والكلام. **والإقامة** في بلادهم، وعدم الانتقال منها إلى بلاد المسلمين لأجل الفرار بالدين. **والسفر** إلى بلادهم لغرض النزهة ومتعة النفس. **واتخاذهم** بطانة ومستشارين. **والتأريخ** بتاريخهم خصوصاً التاريخ

الذي يعبر عن طقوسهم وأعيادهم كالتاريخ الميلادي. والتسمي بأسمائهم. ومشاركتهم في أعيادهم أو مساعدتهم في إقامتها أو تهنئتهم بمناسبتها أو حضور إقامتها. ومدحهم والإشادة بما هم عليه من المدنية والحضارة، والإعجاب بأخلاقهم ومهاراتهم دون نظر إلى عقائدهم الباطلة ودينهم الفاسد. والاستغفار لهم والترحم عليهم.

وعلى المسلم أن يفطن إلى الفرق بين حسن التعامل والإحسان إلى أهل الذمة وبين بغضهم وعدم محبتهم. ويتعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب، ولا تعظيم شعائر الكفر. ومن برهم لتقبل دعوتنا: الرفق بضعيفهم، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف معهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، والدعاء لهم بالهداية. وينبغي أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا، وتكذيب نبينا محمد ﷺ.

هداية وتدبر[1]

* يأمرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالله ورسوله بأن لا يتخذوا الكفارَ الذين هم أعداء الله وأعداء المؤمنين أعواناً وأنصاراً لهمْ يبلغونهم أخبارَ الرسولِ التي لا ينبغِي لأعدائِه أن يطَّلِعوا عليها من خطط حربية، أو أعمال نافعة فى نشر دينه وبثّ دعوته. بسبب ما بينكم وبينهم من مودة. وقد كفرَ هؤلاءِ الكفارُ باللهِ وبرسولِه وبكتابِه، فكيفَ بكم بعد هذا تتخذونَهمْ أنصاراً تُسِرُّونَ إليهم بما ينفعهمْ، ويضرُّ الرسولَ والمسلمينَ، ويعوق نشر دينكم. وقد أخرجوا الرسولَ وأصحابه من بين أظهُرِهمْ كُرْهاً بالتوحيدِ، وإخلاصِ العبادةِ للهِ وحده، وتركهم ما هم عليه من الدين، ولم يكنْ لهم ذنبٌ ولا جرم يؤاخَذونَ عليه غيرُ ذلِكَ. وفى هذا تهييج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم، ثم زادهم تهييجاً بقوله: إنْ كنتم، يا أيها المؤمنون، قد خرجتم مجاهدين في سبلِي، **باغين** مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم،

---

(١) أيسر التفاسير/ أسعد حومد. بيان المعاني/عبد القادر ملاحويش الديرزوري ٥/ ٥٠١. التفسير القرآني للقرآن ١٤/ ٨٩٢. مفاتيح الغيب ٨/ ١٠ ـ ١١. زاد المسير. في ظلال القرآن.

وقد أخرجوكم من دياركم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم. ومن يفعلْ هذه الموالاةَ، ويُفشِ سرَّ الرسُول لأعدائهِ، فقد حاد عن قصْد الطريقِ المُوصلةِ إلى الجنةِ، وبقي تائهاً في عماه لا يهتدي إلى خير.

* أول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب، وهو المسلم المهاجر، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة.. وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها؛ وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها.

* يقف الإنسان أمام عظمة الرسول ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل: **«ما حملك على ما صنعت»** في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق، ومن ثم يكف الصحابة عنه: **«صدق لا تقولوا إلا خيراً»**. ليعينه وينهضه من عثرته، فلا يطارده بها ولا يدع أحداً يطارده. بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر: «إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين. فدعني فلأضرب عنقه». فعمر رضي الله عنه إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم. أما رسول الله ﷺ فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها، ومن كل جوانبها، مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية. في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابسات والظروف.

* يقف الإنسان أمام كلمات حاطب، وهو في لحظة ضعفه، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح.. ذلك حين يقول: «أردت أن تكون لي عند القوم يد.. يدفع الله بها عن أهلي ومالي». فالله هو الذي يدفع، وهذه اليد لا تدفع بنفسها، إنما يدفع الله بها. ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول: «وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع.. الله.. به عن أهله وماله » فهو الله حاضر في تصوره، وهو الذي يدفع لا العشيرة. إنما

العشيرة أداة يدفع الله بها.. ولعل حس رسول الله الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل، فكان هذا من أسباب قوله ﷺ: «**صدق. لا تقولوا إلا خيراً**».

* ثم يقف الإنسان أمام تقدير الله في الحادث؛ وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة. وأن تدركه لحظة الضعف البشري وهو من القلة المختارة. ثم يجري قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين. كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع، ولا تنفج بالقول: ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه، ولو أودعناه نحن ما بحنا به! فلم يرد من هذا شيء. مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم، وتواضعهم في الظن بأنفسهم، واعتبارهم بما حدث لأخيهم..

* تحريم موالاة الكفار ومناصرتهم ومعاونتهم بأي وجه من الوجوه، والسورة أصل في النهي عن موالاة الكفار، ولو في الظاهر، مع عدم الرضا في القلب بالاعتقاد الذي هم عليه.

* النداء للمؤمنين جميعاً، الذين كانوا فى مواجهة المشركين من قريش وأحلافهم، حيث كانوا يتربصون بالنبي وبالمؤمنين، ويكيدون لهم، ويستعدون ضعاف الإيمان عليهم، ويجذبونهم إليهم بالوعد وبالوعيد.

* الإلقاء بالمودة، بذلها فى صورة رسائل، أو هدايا، أو عواطف من الحب والود، مع بعد الشقة النفيسة، التي ينبغى أن تكون بين المؤمنين باللّه والكافرين به، أو بعد الشقة المكانية حيث المؤمنون فى المدينة، والمشركون فى مكة .. ولهذا عدّى الفعل بالياء، لتصمنه معنى تبعثون إليهم بالمودة، مع إفادته معنى السر والخفاء حيث تلقى إليهم المودة فى كلا الحالين فيتلقفونها من غير أن يراها أحد.

❊ **كون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:**

أحدها: أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله، وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوِّباً له في ذلك الدين، وتصويب الكفر كفر والرضا بالكفر كفر، فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة. رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مُقِيمٍ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**». **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِمَ؟ قَالَ: «لاَ تَرَايَا نَارَاهُمَا»**(1).

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع منه.

والثالث: وهو كالمتوسط بين القسمين الأولين هو أن موالاة الكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة، والمظاهرة، والنصرة إما بسبب القرابة، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه، وذلك يخرجه عن الإسلام، فلا جرم هدد الله تعالى فيه فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾.

❊ ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الباء زائدة والمعنى تلقون إليهم المودة، ومثله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [**الحج**: ٢٥] . هذا قول الفراء وأبي عبيدة وابن قتيبة والجمهور.

والثاني: تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وسره بالمودة التي بينكم وبينه قاله الزجاج.

❊ **العدو:** المراد هنا قد عم وخص في وصفه، فوصفه أولاً بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ وخص بوصفه ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾، والوصف بالكفر يشمل الجميع، فيكون ذكرهما معاً للتأكيد والاهتمام بالخاص، كقوله تعالى:﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ

(١) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي/ البيهقي. حديث ١٦٩١٢.

وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: ٩٨] ففي ذكر الخاص هنا وهو وصف العدو بإخراج الرسول والمؤمنين للتهييج على من أخرجوهم من ديارهم كقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] .

وقد بين تعالى المراد بالذين أخرجوا الرسول والمؤمنين في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] أي مكة، ومنها قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة:٤٠].

فعليه يكون المراد بعدوي وعدوكم هنا، خصوص المشركين بمكة[1].

* الحكم المستخلص من هذه الآية هو تحريم إسرار المودة القلبية والجهر بالمودة الظاهرة للكفار مطلقاً، وأن مجرد كفرهم مقتضٍ للعداوة، وإن من مظاهر الجهر بالمودة للكفار إعانتهم على المسلمين برأي أو مشورة أو توجيه مهما ادعى فاعل ذلك سلامة القلب لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

....

المعاني المفردة[2]

أَوْلِيَاء: أصدقاء وأحباء وأعوان تَوادُّونهمْ وتُناصحونهم. جمع ولي.

تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ: أي ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التي بينكم وبينهم. (**إلقاء**) الشيء الثقيل من علو (**إليهم**) على بعدهم منكم حساً ومعنى.

يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ: أي من مكة.

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن/ الشنقيطي.

(٢) أيسر التفاسير/ أسعد حومد. صفوة التفاسير. تفسير المراغي ٢٨/ ٦٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي.

أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ: أي لأجل. أَوْ كَرَاهَةً لِإِيْمَانِكُمْ.

سبب النزول[1]

لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة، كتب «حاطب بن أبي بلتعة»[2] إلى أهل مكة يخبرهم بذلك، وقال لهم: إن رسول الله، يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم، ثم أرسل الكتاب مع ظعينة – أي امرأة مسافرة – فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ علياً، والزبير، والمقداد، وقال: انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ» – مكان على بعد قليل من المدينة المنورة –. فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا لها: لتخرجن الكتاب أو لنلقين عنك الثياب، فأخرجته من عقاصها – ضفائر شعرها –، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة، إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله، فقال النبي ﷺ: **ما هذا يا حاطب؟،** فقال يا رسول الله: لا تعجل على، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان

(١) صفوة التفاسير.

(٢) نص كتاب حاطب: «أما بعد فإن رسول اللّه قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم باللّه لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره اللّه بكم ولأنجز له موعده فيكم فإن اللّه وليّه وناصره».
وذكر القشيري والثعلبي أن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلا من أهل اليمن وكان في مكة حليف بني أسد بن عبد العزّى رهط الزبير بن العوّام وقيل كان حليفا للزبير بن العوّام فقدمت من مكة سارة إلى المدينة ورسول اللّه يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول اللّه: أمهاجرة جئت يا سارة؟ فقالت: لا. فقال: أمسلمة جئت؟ قالت: لا. قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشير وقد ذهب بعض الموالي يعني قتلوا يوم بدر وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني فقال عليه الصلاة والسلام: فأين أنت من شباب مكة وكانت مغنية قالت ما طلب مني شي ء بعد وقعة بدر، فحث رسول اللّه بني عبد المطلب على إعطائها فكسوها وحملوها وأعطوها فخرجت إلى مكة وأتاها حاطب فقال أعطيك عشرة دنانير وبردا على أن تبلغي هذا الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب أن رسول اللّه يريدكم فخذوا حذركم إلى آخر القصة.

من معك من المهاجرين لهم قرابات، يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً وارتداداً عن ديني!! فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق!! فقال ﷺ: **(إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!}** فنزلت الآية.

الإعراب[1]

«**أولياء**»: مفعول ثان. جملة «**تلقون**»: تفسيرية لموالاتهم إياهم. جملة «**وقد كفروا**» حال من الضمير في «**تُلْقون**»: جملة «**يخرجون**»: تفسيرية لكفرهم. «**وإياكم**»: ضمير نصب منفصل معطوف على «**الرسول**»: والمصدر «**أن تؤمنوا**»: مفعول لأجله، وجملة «**إن كنتم خرجتم**»: مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله أي: فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. «**جهادا**»: مفعول مطلق لفعل محذوف أي: تجاهدون، جملة «**تُسِرُّون**»: مستأنفة، جملة «**وأنا أعلم**»: حال من فاعل «**تسرُّون**». وجملة الشرط مستأنفة. الجار «**منكم**»: متعلق بحال من فاعل يفعله.

النداء الثمانون

(١) إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ٥٨.

الزوجية امتزاج واستقرار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٠].

بين يدي النداء

صحيح أن الإسلام يجيز زواج المسلم من غير المسلمة (مسيحية أو يهودية) ولا يجيز زواج المسلمة من غير المسلم. وللوهلة الأولى يُعد ذلك من قبيل عدم المساواة، ولكن إذا عرف السبب الحقيقي لذلك انتفى العجب، وزال وَهْمُ انعدام المساواة. فهناك وجهة نظر إسلامية في هذا الصدد توضح الحكمة في ذلك. وكل تشريعات الإسلام مبنية على حكمة معينة ومصلحة حقيقية لكل الأطراف.

الزواج في الإسلام يقوم على المودة والرحمة والسكن النفسي. ويحرص الإسلام على أن تبنى الأسرة على أسس سليمة تضمن الاستمرار للعلاقة الزوجية. والإسلام دين يحترم كل الأديان السماوية السابقة ويجعل الإيمان بالأنبياء السابقين جميعًا جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية. وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية فإن المسلم مأمور باحترام عقيدتها، ولا يجوز له ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ أن يمنعها من ممارسة شعائر دينها، والذهاب من أجل ذلك إلى الكنيسة أو المعبد .

أما إذا تزوج غير مسلم من مسلمة فإن عنصر الاحترام لعقيدة الزوجة يكون مفقودًا. فالمسلم يؤمن بالأديان السابقة، وبأنبياء الله السابقين، ويحترمهم ويوقرهم، ولكن غير المسلم لا يؤمن بنبي الإسلام، ولا يعترف به، بل يعتبره نبيًّا زائفًا وَيُصَدِّق ـ في العادة ـ كل ما يشاع ضد الإسلام وضد نبي الإسلام من افتراءات وأكاذيب، وما أكثر ما يشاع.. وحتى إذا لم يصرح الزوج غير المسلم بذلك أمام زوجته فإنها ستظل تعيش تحت

وطأة شعور عدم الاحترام من جانب زوجها لعقيدتها. وهذا أمر لا تجدي فيه كلمات الترضية والمجاملة. فالقضية قضية مبدأ. وعنصر الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة أساس لاستمرار العلاقة الزوجية.

وقد كان الإسلام منطقيًّا مع نفسه حين حرّم زواج المسلم من غير المسلمة التي تدين بدين غير المسيحية واليهودية، وذلك لنفس السبب الذي من أجله حرّم زواج المسلمة بغير المسلم.

فالمسلم لا يؤمن إلا بالأديان السماوية وما عداها تُعد أديانًا بشرية. فعنصر التوقير والاحترام لعقيدة الزوجة في هذه الحالة ـ بعيدًا عن المجاملات ـ يكون مفقودًا. وهذا يؤثر سلبًا على العلاقة الزوجية، ولا يحقق المودة والرحمة المطلوبة في العلاقة الزوجية.

❖ يقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي:

وحكمة ذلك: أن المسلم يؤمن بكل الرسل بما فيهم موسى وعيسى عليهم السلام. وبكل الكتب بما فيها التوراة والإنجيل. بينما لا يؤمن أهل الكتاب إلا برسولهم وكتابهم. وقد أجاز الإسلام للزوجة الكتابية للمسلم أن تذهب إلى أماكن عبادتها كالكنيسة والمعبد، بينما لا يجيز هؤلاء الكتابيين للمسلمة ـ لو تزوجوها ـ أن تذهب للمسجد وتظهر شعائر الإسلام .

والأهم من ذلك: أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، والزواج ولاية وقوامة، فيمكن أن يكون المسلم ولياً وقواماً على زوجته الكتابية، بينما لا يمكن أن يكون غير المسلم ولياً أو قواماً على المسلمة، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾.

والزوجة عليها طاعة زوجها، فلو تزوجت المسلمة غير المسلم لتعارضت طاعتها له مع طاعتها لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ولعل هناك حكما أخرى كامنة فى منع زواج المسلمة من غير المسلم، يعلمها الله تعالى، العليم بما يصلح العباد ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وما على المؤمن بالله تعالى وبحكمته وعلمه؛ إلا أن يقول: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

❖ **ويقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ:**

رب البيت المسلم يستحيل أن يمر بخاطره أن يهين موسى أوعيسى، إنه يحترمهما كما يحترم نبيه محمداً، ويصفهما بالوجاهة والرسالة وقوة العزم وصدق البلاغ!

وهذا معنى يلقي السكينة في نفوس أتباعهما.

أما اليهود والنصارى فإن ضغائنهم على محمد أعيت الأولين والآخرين، وقد استباحوا قذفه بكل نقيصة.

وفي عصرنا هذا منحت إنجلترا أعظم جائزة أدبية لكاتب نكرة، كل بضاعته شتم محمد والولوغ في عرضه والتهجم عل حرمه ! فكيف تعيش مسلمة في بيت تلك بعض معالمه؟

إن الزواج ليس عشق ذكر لمفاتن أنثى!! إنه إقامة بيت على السكينة النفسية والآداب الاجتماعي، في إطار محكم من الإيمان بالله، والعيش وفق هداياته، والعمل على إعلاء كلمته، وإبلاغ رسالاته. أهـ

وهذا الذي ذكر ما هو إلا محاولات لاستنباط الحكمة من المنع، ويبقى الكثير الذي لا يدركه إلا الله، على أن الفيصل في المسألة أنه أمر تعبدي محض.

هداية وتدبر(١)

❋ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ النساء الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ من دار الكفر إلى دار

---

(١) الطبري ٢٣/ ٣٢٨. تفسير المنتخب ٢/ ٤٧٠. التفسير المنير ٢٨/ ١٤٣. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ، عن الألوسي. في ظلال النداء.

الإسلام فاختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن. الله أعلم بحقيقة إيمانهن. فإن أقررن واطمأننتم عند المحنة بما يصحّ به عقد الإيمان لهنّ، والدخول في الإسلام، فلا تردوهنّ عند ذلك إلى أزواجهن الكفار. فلا المؤمنات بعد هذا حلال للكافرين، ولا الكافرون حلال للمؤمنات. وأعطوا الأزواج المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ما أنفقوا في نكاحهم إياهنّ من الصداق. ولا حرج عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا آتيتموهن صداقهن، ولا تتمسكوا بعقد زوجية الكافرات الباقيات فى دار الشرك أو اللاحقات بها، واطلبوا من الكفار ما أنفقتم من صداق على اللاحقات بدار الشرك وليطلبوا - هم - ما أنفقوا على زوجاتهم المهاجرات. ذلكم - التشريع - حكم حكمه الله عزّ وجلّ يفصل به بينكم وبين أهل الهدى وأهل الضلالة، والله عليم بمصالح عباده، حكيم فى تشريعه.

* عائشة - رضى الله عنها - زوج النبى ﷺ قالت: كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ» لاَ وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعَهُنَّ بِالْكَلاَمِ وَاللَّهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ إِلاَّ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ «قَدْ بَايَعْتُكُنَّ». كَلاَمًا[1].

* يحرم على المؤمنين زواج المشركات والاستمرار معهن في العصمة الزوجية، فمن كانت له امرأة كافرة مشركة، فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين. وكان الكفار يزوجون المسلمين، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية. وهذا دال على تحريم صريح للمشركات، وهو خاص بهن، دون الكوافر من أهل الكتاب.

---

(١) حديث ٥٣٤٤ - الطلاق - صحيح البخارى.

* إن الامتحان أمر في الظاهر فقط، أما في الحقيقة والواقع، فلا يعلم حقيقة حالهن إلا اللّه سبحانه، واللّه أمركم بالظواهر، وهو يتولى السرائر، فإن غلب على ظنكم أنهن مؤمنات بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به، فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين الكافرين. وإنما سمّي الظن علماً من باب الظن الغالب، وما يفضي إليه الاجتهاد، والقياس جار مجرى العلم. قال ابن كثير: فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطّلاع عليه يقيناً.

* ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر، وما فيها من شطط وجور. على طريقة الإسلام في كل معاملاته الداخلية والدولية.

* سُئِلَ ابن عباس: كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: كان يمتحنهنّ بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله.

* قال الرازي في تفسيره: قوله: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ أمر بمعنى الوجوب أو بمعنى الندب أو بغير هذا وقال الواحدي هو بمعنى الاستحباب. **وقال:** ما الفائدة في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ وذلك معلوم من غير شك نقول فائدته بيان أن لا سبيل إلى ما تطمئن به النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهن فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب.

وقال: ما الفائدة في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ويمكن أن يكون في أحد الجانبين دون الآخر نقول هذا باعتبار الإيمان من جانبهن ومن جانبهم إذ الإيمان من الجانبين شرط للحل ولأن الذكر من الجانبين مؤكد لارتفاع الحل وفيه من الإفادة ما لا يكون في غيره، فإن قيل هب أنه كذلك لكن يكفي قوله: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ لأنه لا يحل أحدهما للآخر فلا حاجة إلى الزيادة عليه والمقصود هذا لا غير نقول التلفظ بهذا اللفظ لا يفيد ارتفاع الحل من الجانبين بخلاف التلفظ بذلك اللفظ

وهذا ظاهر. وأضاف: كيف سمى الظن علماً في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ نقول إنه من باب أن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم وأن صاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

* غير المؤمنين فريقان: **أحدهما:** كافر، عدو للّه وللمؤمنين، لا يألو جهداً في أذاهم، والإيقاع بهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهؤلاء قد نهانا اللّه عن برّهم، وتوليهم، وموادتهم، بل أمرنا أن نقعد لهم كل مرصد، وأن نعدّ لقتالهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل. **والفريق الثاني:** قوم كافرون، ولكنهم لم يقاتلونا، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا، إما لعهد بيننا وبينهم، وإما لأنهم قوم ضعاف لا يستطيعون حرباً، ولا قتالاً، ولا إخراجاً، ولا مظاهرة على إخراج، وهؤلاء قد بيّن اللّه أنه لا ينهانا عن برّهم والإقساط إليهم. **وهناك فريق** لا يعلم المؤمنون حالهم على الجزم، وهم يظهرون الإيمان، فهؤلاء بيّن اللّه حكمهم في الآيات التي معنا.

* وكان الأمر في أول الهجرة متروكاً بغير نص، فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر؛ ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة، لأن المجتمع الإسلامي لم يكن قد استقرت قواعده بعد.. فأما بعد صلح الحديبية أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة؛ وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات، كما يستقر في واقعهم، أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله.

....

المعاني المفردة[1]

(١) المصباح المنير. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. روح المعاني. المعجم الوسيط. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. الجامع لأحكام القرآن. التفسير المنير. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. صفوة التفاسير.

فَامْتَحِنُوهُنَّ: [م ح ن] مَحَنْتُهُ: «مَحْنًا» اختبرته، و«امْتَحَنْتُهُ» كذلك والاسم «المِحْنَةَ» والجمع «مِحَنٌ». فاسألوهن واستحلفوهن لماذا جئتن. فاختبروهن بمايغلب على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن في الإيمان.

أُجُورَهُنَّ: مهورهن. الأجر: عوض العمل والانتفاع والمهر (ج) أجور وفي التنزيل العزيز (فآتوهن أجورهن فريضة) والأجر الحق. (في الاقتصاد) الأجر الذي يكفي العامل ليعيش عيشة هادئة مريحة (مج).

بِعِصَمِ: جمع عصمة وهي ما يديم علقة النكاح. ما تعتصم به الكافرات من عقد وسبب، جمع عصمة. وأصل العصمة المنع، وسمى النكاح عصمة، لأن المنكوحة تكون فى حبال الزوج وعصمته.

الْكَوَافِرِ: جمع كافرة والمراد هنا عبدة الأوثان ومثلها المشركة التي تدين بالشيوعية أو البوذية. ممن لا يجوز ابتداء نكاحها، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب.

سبب النزول

- **قال ابن عباس**: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه، فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبيّ ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها وكان كافرًا، فقال: يا محمد ردّ عليّ امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

الإعراب[1]

«**الذين**» عطف بيان، وجملة الشرط جواب النداء مستأنفة، «**إذا**» ظرفية شرطية متعلقة بمعنى الجواب، «**مهاجرات**» حال من «**المؤمنات**»، جملة (الله أعلم) معترضة، الجار

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

«**بإيمانهن**»، متعلق بأعلم، جملة «**فإنْ علمتموهن**» معطوفة على جملة الشرط قبلها، «**مؤمنات**» مفعول به ثان. جملة «**لا هنَّ حلّ**» مستأنفة، «**لا**» نافية مهملة، وما بعدها مبتدأ وخبر، «**ما**» اسم موصول مفعول به ثان، جملة «**ولا جناح عليكم**» معطوفة على جملة «**لا ترجعوهُنَّ**»، والمصدر «**أن تنكحوهن**» منصوب على نـزع الخافض (في)، إذا ظرفية شرطية متعلقة بمعنى الجواب المقدر، دلَّ عليه ما قبله، «أجورهنَّ» مفعول ثان، جملة «**ولا تمسكوا**» معطوفة على جملة «**لا ترجعوهن**»، جملة «**ذلكم حكم**» مستأنفة، جملة «**يحكم**» حال من «حكم»، والرابط مقدر أي: به، وجملة «**والله عليم**» مستأنفة.

- **«عصم»** جمع عصمة اسم بمعنى عقدة النكاح، وزنه فعلة بكسر فسكون، ووزن عصم فعل بكسر ففتح. **«الكوافر»** جمع كافرة مؤنث كافر، اسم فاعل من الثلاثيّ كفر، وزنه فاعل والكوافر فواعل.

المناسبة

بعد بيان أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال السلم، أبان اللّه تعالى حكم ردّ النساء المهاجرات من بلاد الكفر إلى ديار الإسلام، والتزوج بهن عقب صلح الحديبية، والزواج بالمشركات،

القراءات[1]

«**تمْسِكوا**» قرأ البصريان بفتح الميم وتشديد السين« **تمَسّكوا** ». وغيرهما بإسكان الميم

---

(١) إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع. تحبير التيسير في القراءات العشر ص٥٨٠. معانى القرآن للأخفش. الشاطبية. حجة القراءات ص ٧٠٦ ـ ٧٠٧. الدر المصون في علم الكتاب المكنون ١٣/ ٣٨٤.

وتخفيف السين.

«**واسألوا**» نقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة في الحالين المكي والكسائي وخلف في اختياره وكذا حمزة إن وقف «**وسَلُوا**».

النداء الواحد والثمانون

حرمة تولي اليهود وخطرهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

بين يدي النداء

إن كتاب الله تعالى ذكر لنا عن اليهود والنصارى، فنجد أنه قد ذكر أهل الكتاب (يهود ونصارى) في (٩٩) آية، وذكر النصارى والنصرانية في (٦٠) آية، بينما اختص ذكر اليهود من بين الأمم والديانات بـ (٢٧٨) آية، انظر الجدول التالي:

جدول يوضح موضوعات الآيات القرآنية التي تتحدث عن اليهود والنصارى
وعدد الآيات لكل موضوع

	اليهود في القرآن		النصارى في القرآن	
م	الموضوع	عدد الآيات	الموضوع	عدد الآيات
١	أوامر الله إليهم	١٥		
٢	نعمه عليهم	٣٧		
٣	قضاؤه إليهم	٥		
٤	حالاتهم	٨٩	مواقفهم	١٥
٥	معاندتهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء	٦٨	معاندتهم والانتقام منهم	١
٦	تحريفهم كلام الله	٦		
٧	أخذ الميثاق عليهم	٧	نسيانهم الميثاق وإغراء العداوة بينهم	١
٨	شدة حرصهم على الحياة	٦		
٩	عداوتهم لله والملائكة والمؤمنين	٢		
١٠	أقوالهم وجرأتهم على الله	٧	أقوالهم وجرأتهم على الله	٨
١١	إلقاء العداوة بينهم	٢		
١٢	غرورهم وأمانيهم	٧	غرورهم وأمانيهم وطعنهم باليهود	٦
١٣	عدم رضاهم عمن لم يتبع ملتهم	١	عدم رضاهم عمن لم يتبع ملتهم	١
١٤	ما حرّم عليهم بسبب بغيهم	١		
١٥	إفسادهم في الأرض مرتين	٥		
١٦	جزاؤهم لو آمنوا	١٠	أجرهم لو آمنوا	٦
١٧	أحبارهم	٤	الحواريون	٤
١٨	أصحاب السبت	٦	الرهبان	٧
١٩			التثليث	٤
٢٠			القسيسون	٤
٢١			اجر المؤمنون منهم	٣
	المجموع	٢٧٨		٦٠

يتبين لنا من خلال تحليل هذا الجدول ما يلي:

١) هناك صفات ذميمة مشتركة بين اليهود والنصارى، مثل معاندتهم، وجرأتهم على الله، وغرورهم، وأمانيهم، وعدم رضاهم عمّن لم يتبع ملتهم وشركهم.

٢) لم نلاحظ وجود صفة ذميمة خاصة بالنصارى دون اليهود.

٣) نلاحظ وجود العديد من الصفات الخاصة باليهود، مجرمة في حق الله تعالى والأنبياء والملائكة والمؤمنين، مثل:

- تحريف كلام الله.
- قتلهم الأنبياء.
- عداوتهم لله تعالى والملائكة وشدتها على المؤمنين.
- شدة حرصهم على الحياة.
- إفسادهم في الأرض مرتين.
- بغيهم، حيث أدى ذلك بهم إلى تحريم بعض ما أحل لهم.

هذا عن الصفات الذميمة التي اختص بها اليهود، أما عن الصفات الحسنة، فلم يتصف اليهود بأية صفة حسنة.

بالنظر إلى الجدول السابق يتضح لنا كذلك أن زيادة تكرار الآيات الخاصة بذكر بني إسرائيل أكثر من أربعة أضعاف ونصف الضعف عن الآيات الخاصة بالنصارى له دلالة واضحة على اهتمام الشريعة الإسلامية بالتحذير من اليهود والتركيز على فضحهم لما اختصوا به من صفات ذميمة. علماً أن الله تعالى يعلم أن عدد النصارى سيبلغ في المستقبل أكثر من مائة ضعف عن عدد اليهود.

وعليه تؤكد لنا هذه الآيات الكثيرة، على مدى خطورة اليهود على العالم مع قلة عددهم فهم جذر الداء، فهل من مدَّكر؟

ومما يدلنا كذلك على مدى خطر اليهود هو ذكرهم في أم الكتاب بالمغضوب

عليهم، إذ أن اليهود استحقوا الغضب لأنهم علموا الحق وجحدوه. ولذلك فإن كل مقلّل أو مهمِّش لخطر اليهود العالمي ومخالف للقرآن وللتاريخ، وللواقع حاضراً.

إن اليهود وراء كل جريمة، إمّا تخطيطاً وتنفيذاً، وإما تخطيطاً وتوريطاً لغيرهم بالدعاية والأكاذيب، فهم المحرفون قصداً للديانات ماضياً، وهم المحرفون للواقع حاضراً، وهم قتلة الأنبياء قديماً، وهم قتلة دعاة الحق اليوم، وهم وراء إشعال الحروب والفتن قديماً وحديثاً: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] .

وأما خطرهم هذا الزمان فيتمثل في تطبيق وكلائهم الشيوعيين لبروتوكولات حكماء صهيون الذي اشتهر بالاسم الآخر «الإنجيل البلشفي». ويجب أن لا يفهم من قولنا: إن اليهود وراء كل جريمة، إلغاء الأدوار الأخرى، أو أنهم يحققون كل ما يصبون إليه، فكثير من مخططاتهم فضح الله أمرها قبل تحقيقها، فهم بشر يصيبون ويخطئون، وخطؤهم أكثر من صوابهم، ولكن بجهلنا علوا علينا. ولما كان ذكر الخطر اليهودي يحتاج إلى دراسة معمّقة في القرآن والتوراة والتلمود والبروتوكولات، ويحتاج كذلك لتتبع الأذرع اليهودية الممتدة في العالم.

ولمن أراد الاطلاع والبحث فليقرأ بعضاً مما كتب في موضوع الخطر اليهودي أمثال هذه الكتب: «خطر اليهودية» «الصهيونية في المجال الدولي» «أسرار المؤامرة الصهيونية» «احذروا اليهودية» «الشيوعية منشئاً ومسلكاً» «الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام» «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر» «الفكر الصهيوني المعاصر» «التحدي الصهيوني» «اليهودية» «جذور البلاء» «موسكو وإسرائيل» «سقوط الجولان» «من ملفات الجولان» «سلسلة أبناء يهوذا في الخفاء» «حكومة العالم الخفية». وعلى رأس هذه الكتب «بروتوكولات حكماء صهيون» و«توراتهم».

إن كل متستر على أخطار اليهودية والتقليل من شأنها على الرغم أن الله تعالى ذكر فيهم قوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا

كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]. و: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] .

إن كل متستر على هذه الحقائق القرآنية بقصد أو بغير قصد، إنما يريد صرف الناس عن أخطر عدو خارجي يتهدد كيان الأمة الإسلامية، وبالتالي تقع الأمة الإسلامية فريسة ولقمة سائغة بيد عدوها.

هداية وتدبر

* بعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن موادة المشركين في أول السورة، عاد تعالى فكرر هذا النهي في آخرها فقال تعالى ذكره للمؤمنين به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من اليهود[١] بالنصرة والمحبة، فكيف توالوا منهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء؟ وقد يئس هؤلاء من خير وثواب الله لهم في الآخرة، وكرامته، لكفرهم وتكذيبهم رسوله محمداً ﷺ على علم منهم بأنه لله نبيّ، كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية، بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبدا. وكما يئس الكفار من أصحابِ القبورِ أيضاً: من ثواب الآخرة ونعيمها. ولكن كونوا ممن سبح الله وصلى[٢].

* حرمة موالاة اليهود بالنصر والمحبة.

---

(١) لأنه عز وجل قد عبر عنهم في غير هذه الآية بالمغضوب عليهم، (غير المغضوب عليهم) وقيل: والنصارى وجميع طوائف الكفر. وقيل: هم المنافقون.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن. روح المعاني. أيسر التفاسير. الجامع لاحكام القرآن. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. توفيق الرحمن. صفوة التفاسير. معانى القرآن – للفراء ٣ / ١٤٧ ـ ١٥٢.

* ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ فيها التشبيه المرسل المجمل. كما أن فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام[1].

* قوله: ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية أي: إنهم لا يُوقنون بالآخرةِ البتةَ. و﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ فيه وجهان، **أحدُهما:** أنها لابتداء الغايةِ أيضاً، كالأولى، والمعنى أنهم لا يُوقنون ببَعْثِ الموتى البتَةَ، فيَأْسُهم من الآخرةِ كيأسِهم مِنْ مَوْتاهم لاعتقادِهم عَدَم بَعْثِهم. **والثاني:** أنَّها لبيانِ الجنس، يعني: أنَّ الكفارَ هم أصحابُ القبورِ. والمعنى: أن هؤلاء يئسوا من الآخرة كما يَئِس الكفارُ، الذين هم أصحابُ القبور، مِنْ خيرِ الآخرة، فيكون متعلَّقُ «يَئِس» الثاني محذوفاً[2].

* عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ «فَلا يُؤْمِنُوا بِهَا وَلا يُؤْجَرُوا، هَذَا الْكَافِرُ إِذَا مَاتَ وَعَايَنَ ثَوَابَهُ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ»[3].

* عن ابن عمرَ قَال قال رسولُ اللَّه ﷺ: **«وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»**[4].

....

المعاني المفردة[1]

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) الدر المصون في علم الكتاب المكنون.

(٣) حديث ٨٩٦١ – رواه الطبراني في المعجم الكبير عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف. [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد].

(٤) حديث ٥٢٣٢ – مسند عبد الله بن عمر – مسند أحمد. حسنه الألباني في الإرواء حديث : ١٢٦٩، وصَحِيح الْجَامِع : ٢٨٣١، وصححه في كتاب جلباب المرأة المسلمة : ٢٤ .

لا تَتَوَلَّوْا: لاَ تَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ. لا توالوهم ولا تناصحوهم.

قَوْماً: هُمُ اليَهُودُ أَوِ الكُفَّارُ عَامَّةً.

غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: مسخوطاً عليهم لمعاداتهم الحق، ومحاربتهم الصلاح، وعيثهم الفساد.

يَئِسُوا: اليأْسُ واليآسَةُ: القنوطُ. وقيل: اليَأْس نقيض الرجاء، أو قَطْعُ الأَمَلِ، يَئِسَ من الشيء يَيْأَس ويَيْئِس.

سبب النزول[٢]

نزلت في ناس من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين وتواصلوا بهم فيصيبون بذلك من ثمارهم، فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك.

الإعراب[٣]

جملة **غضب اللّه عليهم**: نعت لقوماً ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ الجملة نعت ثان لقوما أو حال بعد أن وصف، **وكما** نعت لمصدر محذوف. **يئس الكفار**: الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول الحرفي. **ومن أصحاب القبور**: فيه وجهان أحدهما أن من لابتداء الغاية كالأولى والمعنى أنهم لا يوقنون ببعث الموتى البتة فيأسهم من الآخرة كيأسهم من موتاهم لاعتقادهم عدم بعثهم. والثاني أن من لبيان الجنس يعني أن الكفّار هم أصحاب القبور فيكون متعلق الجار والمجرور بمحذوف حال ومتعلق يئس الثاني محذوفا والمعنى أن هؤلاء يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار حال كونهم من أصحاب القبور من خير الآخرة.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن. الصحاح في اللغة. لسان العرب. القموس المحيط. محاسن التأويل.

(٢) أسباب نزول الآيات- الواحدي النيسابوري.

(٣) إعراب القرآن وبيانه.

النداء الثاني والثمانون

أشد البغض وأعظمه وأبلغه وأفحشه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف].

بين يدي النداء

إن الإيمان ليس مجرد كلمات يقولها الإنسان بلسانه، أو عبادات، إنما الإيمان سلوك ومعاملة وأخلاق تترجم إلى واقع حي يراه الناس، فصاحب الإيمان الصحيح تظهر آثاره في السلوك والالتزام مؤشراً على صدقه وصلاحه.

ومن ناحية أخرى فالعبادات في الإسلام لها حكم أخلاقية سلوكية وقلبية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والصيام يغرس التقوى والرحمة للفقراء والمساكين والزكاة طهارة من الشح والبخل والأثرة والحج يغرس التواضع وحب المسلمين وكراهية الشر بأنواعه.

والمؤمن لا يخالف قوله فعله، وهو الذي يبدأ بنفسه أولاً فيحملها على الخير والبر، قبل أن يتوجه بهما إلى غيره ليكون بذلك الأسوة الحسنة والقدوة المثلى لمن يدعوهم، وليكون لكلامه ذلك التأثير في نفوس السامعين الذين يدعوهم، بل إنه ليس بحاجة إلى كثير عندئذ، فحسْبُ الناس أن ينظروا إلي واقعه وسلوكه، ليروا فيهما الإسلام والإيمان حياً يمشي أمامهم على الأرض وليشعّ بنوره على من حوله، فيضيء الطريق للسالكين، وتنفتح عليه العيون ويقع في القلوب، فيحمل الناس بذلك على التأسي والإتباع.. فهو يدعو بسلوكه وواقعه قبل أن يدعو بقوله وكلامه.. ولنا في رسول الله ﷺ خير أسوة، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا أمر الناس بأمر كان أشد الناس تمسكاً به، وكان يحمل أهل بيته على ذلك قبل أن يدعو غيرهم.

وما أعظم ذنب أولئك الذين يصدون عن دين الله ويقفون حجرة عثرة أمام الدخول فيه والتمسك بأحكامه؛ لأنهم بسلوكهم ذاك ينفّرون الناس من الدين، وتنطلق الألسنة المتبجحة لتقول: انظروا إلى فلان.. إنه يدعونا إلى شيء ويخالفنا إلى غيره، ولو كان ما دعونا إليه حقاً لاتبعه وتمسك به ؟ فيتركون - عندئذ - الدين، بسبب سلوكه ذاك!!

وكم يتحملون من أوزار الذين تابعوهم في سلوكهم ذاك، إذ أنهم حملوهم على المخالفة والإثم بالإيحاء والقدوة العملية، ولولاهم ما وقعوا في ذلك، فهم الذين سنُّوا هذه السنة السيئة فكان عليهم إثمهم وآثام من اتبعهم فقد : قال رسول الله - ﷺ: « **وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَىْءٌ** »[1].

وما أجمل الحكمة التي أجراها الله تعالى على لسان أبي الأسود الدؤلي، عندما قال:

يـا أيهـا الرجـل المعلـم غيـره = هـلا لنفسـك كـان ذا التعليـم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى = كـيما يصـح بـه وأنـت سـقيم

ابـدأ بنفسـك فانههـا عـن غيهـا = فـإن انتهـت عنـه فأنـت حكيـم

لا تنـه عـن خلـق وتـأتي مثلـه = عـار عليـك إذا فعلـت عظيـم

والغالب على المسلم الخوف من عدم القبول يصف ربنا تبارك وتعالى حال العباد الصالحين إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

أخرج الإمام أحمد أن أمّنا عائشة رضي الله عنها سألت النبي عن المذكورين في

---

(١) صحيح مسلم - كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة – من حديث ٦٩٧٥.

الآية: أهم الزناة والسرّاق وشربة الخمر، يفعلون ذلك وهم يخافون الله؟! فأجابها المصطفى بقوله: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل».

وقد كان هذا دأب سلفنا الصالح، فهذا محمد بن واسع يقوم ليله يبكي حتى إن جيرانه لم يناموا من بكائه، فلما كانت صلاة الفجر كلّمه جاره فقال له: ارفق بنفسك وبنا، فوالله ما نمنا البارحة من بكائك، قال: «والله، إني عندما صففت قدميّ بين يدي الله البارحة تصورت أن الجبار جلّ جلاله يناديني فيقول: يا محمد، اعمل ما شئت، فلن أتقبل منك». فاحرصوا ـ رحمني الله وإياكم ـ على القبول من ربكم في كل عمل تعملونه صغيرًا كان أم كبيرًا.

ولله در بن الجوزي وهو يقول كما في صيد الخاطر: «ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس. وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل. ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام. وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه. أو دمعت عينه. فقلت لنفسي: كيف بك إن نجوا وهلكت: فصحت بلسان وجدي: إلهي وسيدي إن قضيت علي بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا عَذَّب من دل عليه».

هداية وتدبر(١)

* يا أيها الذين آمنوا: لأى شىء ولأى غرض تقولون بألسنتكم: لوددنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير ما لا تصدقه أفعالكم؟، ولِمَ تَعِدون وعدًا، أو تقولون قولا

(١) تفسير المنتخب. تفسير مجمع فهد. تفسير المراغي. التفسير القرآني للقرآن. صفوة التفاسير. تفسير الشعراوي.

ولا تفون به؟! إن الله تعالى كره كُرهاً شديداً أن تقولوا ما لا تفعلون. حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم وأعرضتم؟ وهذا إنكار وتوبيخ شديد موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به، وإلى كل مَن يخالف فعله قولَه. وإنما وجّه إلى القول لبيان أن معصيتهم مزدوجة، وأنهم عملوا جرمين. فهم تركوا فعل الخير. وقد وعدوا بفعله.

* يعاتب الله الذين آمنوا عتاباً شديداً على أمر حدث من طائفة منهم. أمر يكرهه الله أشد الكره، ويمقته أكبر المقت، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص.

* والنصوص القرآنية دائماً أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهتها، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها. ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة، مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات النزول.

* يُحتَج بها في أن كل من ألزم نفسه عبادة أو قربة وأوجب على نفسه عقدا لزمه الوفاء به إذ ترك الوفاء به يوجب أن يكون قائلاً ما لا يفعل، وقد ذم الله فاعل ذلك، وهذا فيما لم يكن معصية، فأما المعصية فإن إيجابها في القول لا يلزمه الوفاء بها.

* إنكار من اللّه سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يلبسوا ثوب الإيمان ظاهراً، ثم يكون هذا الظاهر على خلاف مع الباطن.. أو أن تقول ألسنتهم ما ليس فى قلوبهم.. فهذا وجه من وجوه النفاق.. لا يليق بالمؤمن أن يلمّ به، أو يدخل على إيمانه شيء منه.. فالأقوال التي لا يصدّقها العمل، لا تخلو من أحد وصفين: إما أن تكون لغوا من القول.. وهذا مما ينبغى للمؤمن أن ينزه نفسه عنه.. فإن الكلمة على لسان المؤمن يجب أن تكون عقدا بين المؤمن ونفسه، لا تبرأ ذمته حتى يفى بهذا العقد، ويحققه.. فإنه عن الكلمة تلقّى المؤمن رسالة السماء، وعرف شريعة اللّه.. فليكن الكلمة عنده ـ سواء نطق بها هو، أو استمع إليها ـ حساب وتقدير.. وإما أن تكون الكلمة التي ينطق بها اللسان، ولا يصدقها العمل، كلمة كاذبة أو منافقة.. ولا

يجتمع الإيمان مع النفاق. ومن أجل هذا جاء قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعقيباً على هذا الإنكار، وتجريحا لهذا القول الذي لا يصدّقه العمل، وأنه قول ممقوت عند اللّه، يبغضه، ويبغض أهله..

* كان من عادة العرب الّذين هم عرب يفعلون ولا يقولون فيقضون حوائج المحتاجين ودين المدينين ونصرة المظلومين ولا يُدرَى بهم، ثم قلت المروءة عند بعضهم فصاروا يفعلون ويقولون، ثم تدانوا وتخاسسوا فصاروا لا يقولون ولا يفعلون، ثم تدنت نفوسهم ورذلت فصاروا يقولون ولا يفعلون، فذمهم اللّه تعالى في هذه الآية، وأنبهم بأن القول بلا فعل مما يوقع العبد في غضب اللّه ويبعده عنه، ومن هذا القبيل من يعد بشيء ويقوله ولا يفعله، ومن يتعهد ولا يوفي، ويحلف ويخلف، ويواثق وينكث.

* ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] .

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود: ٨٨] .

عن أسامة بن زيد قال قيل له ألا تدخل على عثمان فتكلمه فقال أترون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم والله لقد كلمته فيما بينى وبينه ما دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من فتحه ولا أقول لأحد يكون على أميرا إنه خير الناس. بعد ما سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»(١).

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله - حديث ٧٦٧٤.

عن أبى هريرة عن النبى – ﷺ – قال: **«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »**[1].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:« **مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ قَالَ قُلْتُ مَنْ هَؤُلاَءِ قَالُوا خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ**».

وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا؛ فسكت. ثم قيل له: حدثنا. فقال: أترونني أن أقول ما لا أفعل فاستعجل مقت الله!.

* من عجيب الأمر في مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً، والعمل ينقسم: إما قول، وإما فعل. فكل تحريك لجارحة لتؤدي مهمة يسمى عملاً، لكن عمل اللسان يسمى قولاً، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً.

فأخذ اللسان هذه المكانة؛ لأن به الإنذار من الحق، وبه التبشير، وبه البلاغ من الرسول؛ لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾. ولم يقل: ما لا تعملون. لأن القول يقابله الفعل، وهُما معاً عمل، والعمل بنية القلب.

....

المعاني المفردة[2]

كَبُرَ: كصَغُرَ: عَظُمَ وجَسُمَ.

مَقْتًا: المقت: أشد البغض وأعظمه وأبلغه وأفحشه، ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد.

---

(١) صحيح البخارى – الإيمان - حديث ٣٣.

(٢) تفسير المراغي، ج ٢٨، ص : ٨٠. القاموس المحيط. تفسير الكشاف.

سبب النزول(١)

قال المفسرون: كان المسلمون يقولون: لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فدلهم الله على أحبّ الأعمال إليه فقال: **(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) الآية. فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: (لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)** .

الإعراب والبلاغة(٢)

«**لم**»: اللام جارة، «**ما**» اسم استفهام في محل جر متعلق بـ «**تقولون**»، وحذفت ألف «**ما**» لسَبْقِها بحرف جر، «**ما**» اسم موصول مفعول به، وجملة «**تقولون**» جواب النداء مستأنفة. **(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)** جملة «كبر» مستأنفة، «**مقتا**» تمييز، الظرف «**عند**» متعلق بـ «**كبر**»، والمصدر المؤول مِنْ «**أنْ**» وما بعدها فاعل «**كبر**».

- أسلوب التوبيخ **(لم تقولون ما لا تفعلون)**؟ وهي **(لِمَ)** الاستفهامية حذفت ألفها تخفيفا، والغرض من الاستفهام التوبيخ. والإطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه **(كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)** وبين (**تَقُولُوا . . تَفْعَلُونَ**) طباق.

---

(١) أسباب نزول الآيات- الواحدي النيسابوري.

(٢) صفوة التفاسير.

النداء الثالث والثمانون

أحسن التجارة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: ١٠].

بين يدي النداء

- قال - ﷺ -: **«مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم وتوكَّل الله للمجاهد في سبيله إنْ توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالمًا مع أجرٍ أو غنيمة»** البخاري.

- قال ﷺ: **رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»** مسلم.

- قال ﷺ: **حُرِّمَتْ عَيْنٌ عَلَى النَّارِ سَهِرَتْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ»**. النسائى.

- قال ﷺ: **رِبَاطُ يَوْمٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»**. البخارى.

- قال ﷺ: **«مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»** البخارى.

- قال ﷺ -: **«لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِى الضَّرْعِ وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»** الترمذى.

- قال - ﷺ -: **«أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِىَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»** البخارى.

- قال ﷺ: **«إِنَّ فِى الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ**

وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ». قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ « وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» البخارى.

– جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: **دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: «لاَ أَجِدُهُ» قال: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ» قال: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِى طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ.** البخارى.

– قال ﷺ: **«انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِى وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ وَلَوَدِدْتُ أَنِّى أُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ»** البخاري ومسلم بنحوه. وفي رواية لهما **«وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ حَمُولَةً وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ وَيَشُقُّ عَلَىَّ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى وَلَوَدِدْتُ أَنِّى قَاتَلْتُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقُتِلْتُ ثُمَّ أُحْيِيتُ ثُمَّ قُتِلْتُ ثُمَّ أُحْيِيتُ»** البخارى.

– قال ﷺ: **«رِبَاطُ يَوْمٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ»** الترمذي.

هداية وتدبر[1]

* عن محمد بن يزيد أن معنى «تُؤْمِنُونَ» آمِنوا على جهةِ الإِلزام. قال أبو العباس: والدليل على ذلك ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جزم لأنه جواب الأمر وعطف عليه ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾.
* قال قتادة: فلولا أن الله بين التجارة ودلّ عليها المؤمنين لتلهّف عليها رجال أن يكونوا يعلمونها، وقد دلّكم الله عليها وأعلمكم إياها.

---

(١) إعراب القرآن – النحاس. توفيق الرحمن. التفسير المنير، ٢٨/ ١٨٤. الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

* لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ليلة العقبة. قال لرسول الله ﷺ: «اشترط لربك ولنفسك ما شئت». فقال ﷺ: **«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»**.. قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: **«الجنة»** قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل».

* وهذا أسلوب فيه ترغيب وتشويق، وقد جعل العمل الصالح لنيل الثواب العظيم بمنزلة التجارة، لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، ونوع التجارة كما بيّنت الآيتان التاليتان، ومعناهما أن الإيمان والجهاد ثمنهما من اللّه الجنة، وذلك بيع رابح، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[التوبة: ١١١]. ثم بين نوع التجارة وهي أن تدوموا على الإيمان باللّه تعالى ورسوله ﷺ، وتخلصوا العمل للّه، وتجاهدوا من أجل إعلاء كلمة اللّه ونشر دينه بالأنفس والأموال. وقدم تعالى الأموال، لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق. وإن ذلك المذكور من الإيمان والجهاد خير لكم وأفضل من أموالكم وأنفسكم، ومن تجارة الدنيا والاهتمام بها وحدها، إن كنتم من أهل العلم والوعي للمستقبل، فإن المهم هو النتائج والغايات، ولا يدرك تلك الغاية النبيلة أهل الجهل.

* في الآية تخلص إلى الغرض الذي افتتحت به السورة من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾. فبعد أن ضربت لهم الأمثال، وانتقل الكلام من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، أي هل أدلكم على أحب العمل إلى الله لتعملوا به كما طلبتم إذ قلتم لو نعلم أيَّ الأعمال أحبّ إلى الله لعملنا به فجاءت السورة في أُسلوب الخطابة. والظاهر أن الضمير المستتر في

﴿أَدُلُّكُمْ﴾ عائد إلى الله تعالى لأن ظاهر الخطاب أنه موجه من الله تعالى إلى المؤمنين. ويجوز أن يجعل الضمير إلى النبي ﷺ على تقدير قول محذوف وعلى اختلاف الاحتمال يختلف موقع قوله الآتي ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والاستفهام مستعمل في العَرض مجازاً لأن العارض قد يسأل المعروضَ عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض كما يقال: هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة. وألفاظ الاستفهام تخرج عنه إلى معان كثيرة هي من ملازمات الاستفهام.

وجيء بفعل ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ لإفادة ما يذكر بعده من الأشياء التي لا يهتدى إليها بسهولة. وأطلق على العمل الصالح لفظُ التجارة على سبيل الاستعارة لمشابهة العمل الصالح التجارةَ في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكد فيه.

❋ **لطيفة: قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى: بصيرة فى التجارة:**

وقد ذكرها الله تعالى فى ستَّة مواضع:

الأوّل: تجارة غُزَاة المجاهدين بالرُّوح، والنفْس، والمال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

الثانى: تجارةُ المنافقين فى بَيْع الهدى بالضَّلالة: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾.

الثالث: تجارة قراءَة القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

الرّابع: تجارة عُبّاد الدّنيا بتضييع الأعمال، فى استزادة الدرهم والدّينار: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾.

الخامس: فى معاملة الخَلْق بالبيع والشِّرَى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

السّادس: تجارة خواصّ العباد بالإِعراض عن كلّ تجارة دنيويّة: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

....

المعاني المفردة

تِجَارَةٍ: التجارة في اللغة عبارة عن المعاوضة؛ ومنه الأجر الذي يعطيه البارىء سبحانه العبد عِوضاً عن الأعمال الصالحة التي هي بعض مِن فعله.[1] وهي التَّصرّف فى رأْس المال؛ طلباً للرّبح. تَجَر يَتْجُرُ فهو تاجر. والجمع تَجْر - كصاحب وصَحْب - وتُجّار وتِجَار.[2]

تُنجِيكُم: تخلصكم.

أَلِيمٍ: مؤلم. موجع، وذلك عذاب جهنم.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وقال تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية. فسمى ذلك كله بيعاً وشراء على وجه المجاز، تشبيهاً بعقود الأشِرية والبياعات التي تحصل بها الأغراض، وهي نوعان: تقلُّب في الحضر من غير نُقلة ولا سفر، وهذا تربُّص واحتكار قد رغِب عنه أولو الأقدار، وزهِد فيه ذوو الأخطار. والثاني تقلّب المال بالأسفار ونقله إلى الأمصار، فهذا أليق بأهل المروءة، وأعمّ جدوى ومنفعة، غير أنه أكثر خطراً وأعظم غرراً. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن المسافر وماله لعلَى قَلَتٍ إلاّ مَا وَقَى الله» يعني على خطر. [تفسير القرطبى حـ ٥ صـ ١٥٠].

(٢) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

سبب النزول[1]

قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت واختصيت وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أفطر بنهار أبدا! فقال رسول الله ﷺ: «**إن من سنتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله وخصاء أمتي الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس منى**». فقال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها؛ فنزلت.

المناسبة في السياق

بعد حث المؤمنين على الجهاد في سبيل اللّه، وتحذيرهم من المخالفة، حتى لا يكونوا أمثال بني إسرائيل الذين خالفوا موسى وعيسى، ذكر اللّه تعالى أن التجارة الرابحة التي لا تبور هي في الإيمان باللّه والجهاد في سبيله بالمال والنفس.

الإعراب[2]

هل: حرف استفهام معناه الإخبار والإيجاب أي سأدلّكم وإنما أورده في صيغة الاستفهام تشويقاً وإلهاباً للرغبة، و**أدلكم** فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا. **والكاف:** مفعول به. و**على تجارة**: متعلقان بأدلكم وجملة **تنجيكم** صفة لتجارة. **ومن عذاب:** متعلقان بتنجيكم. و**أليم:** صفة لعذاب.

القراءات[3]

(تنجيكم): قرأ الشامي بفتح النون وتشديد الجيم **(تنَجِّيكم)**. وغيره[1] بإسكان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن.

(٢) إعراب القرآن وبيانه.

(٣) الشاطبية. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة. الدر المصون. الحجة في القراءات السبع.

النون وتخفيف الجيم **(تُنجِيكُم)**. مِنْ أَنْجى؛ لأن التضعيفَ والهمزةَ مُعَدِّيان. ومعناهما قريب، وهما لغتان، فالدليل على التخفيف قوله تعالى: ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ **[الأعراف: ١٦٥]**. والدليل على التشديد قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **[الصافات: ٧٦]**.

---

(١) الباقون.

النداء الرابع والثمانون

أنصار الله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

بين يدي النداء

قضى الله وقدر أن يكون الصراع بين الحق والباطل ظاهراً متلازماً إلى قيام الساعة ما دامت الدنيا، فمهما صال الباطل وانتفش وكشّر عن أنيابه وانتعش، إلا أنه أقرب للنهاية والزوال﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء: ٨١] .

والناظر في هذا الزمن يرى أن الصراع بلغ ذروته ومنتهاه، واستوى على أشده، حتى أصبح الكفر ملة واحدة، ضد الإسلام والمسلمين ودعاته الصادقين، فسيم المسلمون ألوان العذاب، وعاث الأعداء في الأرض الفساد، وبلغ المسلمون من الذلة والمهانة واستخفاف أعدائهم بهم وبلغاً عظيماً، حتى خيّل لبعضهم أن الحق مع قوته وحقيقته لن ينتصر، ودب اليأس في صفوف الآخرين وقلوبهم إلا ما رحم ربي، وأصبح المسلم في هذا الزمن يردد ما كان يردده المسلم قبله في زمن النبوة ونزول الرسالة قائلا: متى نصر الله؟ إن نصر الله واقع، وكلمته قائمة، فمهما رصد الباطل من قوى الحديد والنار، والدعاية والافتراء، والحرب والمقاومة، لخنق الحق وإيقافه، وزهقه من عالم الوجود، إلا أن الوعد الذي وعد الله به عباده لا يُخلف، لكنها السنن تجري جريان الكواكب والنجوم، فمن منا يتعامل مع هذه الحقيقة؟

لا شك أن أعز مقاصدك وأشهى مطالبك في هذه الحياة، أن ترى دينك منتصراً، وكتابك ظاهراً، ورايتك خفاقة عالية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل تتحق هذه

الأهداف، وتلك المقاصد بالدعاوى والأمنيات، ونحن لم نقدم لدين الله نصراً؟ أليس الله يقول. ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] فمتى نصرْنا الله ولم ينصرنا..؟ وهذه أسباب تحقيق النصر أو بعضها:

١. إقامة توحيد الله عز وجل وشرعه في الأرض والحكم به والتحاكم إليه وترك ما سوى ذلك من القوانين الوضعية والأحكام البشرية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٢. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

٣. الصدق مع الله عز وجل والتوكل عليه الالتجاء إليه والاعتصام به والخوف منه وحده ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾[آل عمران: ١٧٣] .

٤. التسلح بسلاح الإيمان والتوبة إلى الله والرجوع إليه ويقظة المسلمين مما هم فيه من الغفلة والضياع ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

٥. توحيد الصفوف وإصلاح الآخرين ورأب الصدع وتأليف القلوب وجمع الكلمة حتى لا ينخر في سفينة الأمة من يغرقها **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)** [رواه البخاري ح ٤٨١].

٦. التربية الجادة للأمة بإحياء السلوك الإسلامي فيها والقضاء على السيئ منها.﴿وَأَنَّ

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٧. إحياء روح الجهاد في سبيل الله وإعداد النفوس لذلك ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] .

٨. تقوية الصلة بالله تعالى والتوجه إليه في السراء والضراء والمحنة والمنحة ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

٩. تحقيق مفهوم الولاء لله عز وجل ولمن يحبهم سبحانه وتعالى من الأنبياء والصالحين ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

١٠. البراءة من كل ما يُعبد من دون الله تعالى والكفر به ومعاداته ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ [الزُّخرُف].

١١. التضحية بالغالي والنفيس والإنفاق في سبيل الله مع تخليص النفس من الشح وحب الدنيا والركون إليها ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] .

١٢. إرهاب العدو بإعداد العدة الجسمية والعقلية والعسكرية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

١٣. طلب الشهادة في سبيل الله، والتطلع إليها بشتى الوسائل مع الصدق في النية «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» [رواه مسلم: ح ١٩٠٩]

١٤. الإلحاح على الله عز وجل بالدعاء بتثبيت قلوب المؤمنين على هذا الدين والانتصار على الكافرين ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

هداية وتدبر[1]

* من العلماء من قال: هنا مقدر محذوف، والمعنى: كونوا أنصار دين الله، أي: انصروا دين الله، وانصروا كتاب ربكم وسنة نبيكم، وملة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأنصار الحق الذي أنزله وأمر به.
* عن قتادة قال: قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقّه، وذُكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلاً من الأنصار، ذُكر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلّها أو يسلموا. ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: **«أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم»**. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال: **«لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»** ففعلوا، ففعل الله. وقال: إن الحواريين كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام.
* لما علم عيسى عليه السلام أن اليهود يريدون قتله استنصر للحماية منهم كما قاله الحسن ومجاهد ولم يستنصر للقتال معهم على الإيمان بما جاء به، وهذا هو الذي لم يؤمر به لا ذلك بل ربما يدعى أن ذلك مأمور به لوجوب المحافظة على حفظ النفس، وقد روي أن اليهود لما طلبوه ليقتلوه قال للحواريين: أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى فيه شبهي فيقتل مكاني ؟ فأجابه إلى ذلك بعضهم.
* الحواريون اثنا عشر رجلا وهم: سَمْعَان بطرس، وأخوه أندراوس، ويوحنا بن زبْدي، وأخوه يعقوب، وهؤلاء كلّهم صيادو سَمك ومتَّى العشَّار وتوما وفيليبس،

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. محاسن التأويل. توفيق الرحمن. روح المعانى ٣/ ١٧٦. التحرير والتنوير ٣/ ١٠٥. النكت والعيون ١/ ٣٩٥. نحو تفسير موضوعى صـ ٤٥٧. محاسن التأويل.

وبرثو لماوس، ويعقوب بن حلفي، ولباوس، وسمعان القانوى، ويهوذا الأسخريوطي.

* **اختلفوا في سبب استنصار المسيح بالحواريين على ثلاثة أقاويل:**

أحدها: أنه استنصر بهم طلباً للحماية من الكفار الذين أرادوا قتله حين أظهر دعوته، وهذا قول الحسن، ومجاهد. **والثاني:** أنه استنصر بهم ليتمكن من إقامة الحجة وإظهار الحق. والثالث: لتمييز المؤمن الموافق من الكافر المخالف.

* انقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين: جماعة آمنت به وصدقته، وجماعة كفرت وكذبت برسالة عيسى. قال ابن كثير: لما بلغ عيسى ابن مريم رسالة ربه، اهتدت طائفة من بني إسرائيل، بما جاءهم به، وضلت طائفة فجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعنة الله، وغلت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة «الأب والابن وروح القدس» ومنهم من قال: إن عيسى هو (الله) - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى.

* استعداد المؤمن فى كل موطن لنصرة الله وإعلاء كلمته. إنه يمشى فى دروب الحياة مصيخا السمع، فإذا بلغته صيحة تدعو إلى الله هرع إليها ولبى صاحبها وكان رجع الصدى، كما نصدق المؤذن عندما يشق بصوته أجواز الفضاء داعيا إلى الصلاة. وقد اعتمد عيسى على هذا التأييد عندما رأى اليهود يرتابون فيه وينصرفون عنه فصاح: «من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله»! وحواريو عيسى كأصحاب محمد، ككل متجرد للحق يؤنس وحشته ويرفع رايته، هم أمل الرسالات فى قيامها وبقائها. والإسلام فى هذا العصر بحاجة إلى أن نفهم هذه الآية فى ختام سورة الصف «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله..».

* يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض؛ وأن

أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه؛ يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله، كما يحب الله؛ ويتضح طريقه، فلا يبقى في تصوره غبش، ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغمة في هذه القضية، أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد.

* فيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق، مجتمعين عليه، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين، كما وقع لسلفهم، اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا.

* **لطيفة**: ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى، إما على تقدير: قل لهم، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟..

....

المعاني المفردة

الْحَوَارِيُّونَ: قال الطبرى: «سموا بذلك لبياض ثيابهم، ولأنهم كانوا غسّالين»[1].

عَلَى عَدُوِّهِمْ: من اليهود والرومان الوثنيين.

ظَاهِرِينَ: صاروا غالبين عليهم بالحجة والبرهان والسلطة القاهرة.

---

(١) وذلك أن«الحوَر» عند العرب شدة البياض، ولذلك سمي«الحُوَّارَى» من الطعام«حُوّارَى» لشدة بياضه، ومنه قيل للرجل الشديد البياض مقلة العينين«أحور»، وللمرأة«حوراء». وقد يجوز أن يكون حواريو عيسى كانوا سُمُّوا بالذي ذكرنا، من تبييضهم الثيابَ، وأنهم كانوا قصّارين، فعرفوا بصحبة عيسى، واختياره إياهم لنفسه أصحابًا وأنصارًا، فجرى ذلك الاسم لهم، واستُعمل حتى صار كل خاصّة للرجل من أصحابه وأنصاره: «حواريُّه»، ولذلك قال النبي ﷺ. «إنّ لكلّ نبيَ حواريًّا، وَحوَاريَّ الزبير» [أخرجه مسلم].

الإعراب[1]

الكاف نائب مفعول مطلق لقول مقدر أي: قلنا لهم ذلك قولا مثل قول عيسى، الجار «**إلى الله**» متعلق بحال من الياء أي: كائنا، بمعنى متوجها إلى الله. جملة «**قال**» مستأنفة، جملة «**آمنت**» مستأنفة، الجار «**من بني**» متعلق بنعت لـ «**طائفة**»، جملة «**أيّدنا**» معطوفة على جملة «**كفرت**».

المناسبة في السياق[2]

قال البقاعي: ولما هز سبحانه إلى الجهاد وشوق إليه بأنه متجر رابح، ولوح إلى النذارة بالتنشيط بالبشارة، فتهيأت النفوس إلى الإقبال عليه وانبعثت أي انبعاث، حض عليه بالإيجاب المقتضي للثواب أو العقاب، فقال مناديا بأداة البعد والتعبير بما يدل على أدنى الأسنان تأنيبا على أنه لا يعدم الوصف بالإيمان إلا مقرون بالحرمان تشويقاً وتحبباً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أقروا بذلك فأذعنوا بهذا الوعظ غاية الإذعان أني أمرت رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقول لكم: ﴿كُونُوٓاْ﴾ أي بغاية جهدكم ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي راسخين في وصف النصرة وفي الذروة العليا من ثبات الأقدام في تأييد الذي له الغنى المطلق لتكونوا - بما أشارت إليه قراءة الجماعة بالإضافة - بالاجتهاد في ذلك كأنكم جميع أنصاره، فإنكم أشرف من قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، وما ندبكم سبحانه لنصرته إلا لتشريفكم بمصاحبة رسله الذين هم خلاصة خلقه عليهم الصلاة والسلام فقولوا سمعنا وأطعنا نحن أنصار الله.

القراءات[1]

---

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

(٢) نظم الدرر حـ ٧ صـ ٥٨٨.

«**أنصار الله**» قرأ المدنيان[٢] والمكي[٣] والبصري[٤] بتنوين أنصار وزيادة لام مكسورة في لفظ الجلالة فيصير النطق بلام مكسورة بعدها لام مفتوحة مشددة «**أنصاراً لِلَّه**»، أي كونوا لله أنصارا أي اثبتوا أو دوموا على هذا.

والباقون بحذف تنوين أنصار وحذف اللام المكسورة من لفظ الجلالة. وحجتهم في ذلك إجماع الجميع على الإضافة في قوله نحن أنصار الله ولم يقل نحن أنصار لله فكان رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى أنصار واحدها ناصر مثل شاهد وأشهاد وصاحب وأصحاب.

الرسمُ يحتمل القراءتَيْن معاً. واللامُ يُحتمل أَنْ تكونَ مزيدةً في المفعولِ للتقوية لكونِ العاملِ فَرْعاً، إذ الأصلُ: أنصاراً اللَّهَ، وأَنْ تكون غيرَ مزيدةٍ، ويكونَ الجارُّ والمجرورُ نعتاً لـ«أَنْصاراً» والأولُ أظهر. وأمَّا قراءةُ الإِضافةِ ففرعُ الأصل المذكور. ويؤيِّدُ قراءةَ الإِضافةِ الإِجماعُ عليها في قوله: {نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}. ولم يُتَصَوَّرْ جَرَيانُ الخلافِ هنا لأنه مرسومٌ بالألفِ.

النداء الخامس والثمانون

صلاة الجمعة

---

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية و الدرة، لعبد الفتاح القاضي. حجة القراءات – ابن زنجلة. الدر المصون،١٣/ ٣٩٦.

(٢) نافع وأبو جعفر.

(٣) ابن كثير.

(٤) أبو عمرو.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

بين يدي النداء

أوّل خُطْبة خطبها ﷺ بالمدينة: «**الحمدُ لله. أحْمَده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفُره، وأعادي من يكفُر به. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهُدَى ودِين الحق، والنور والموعظة والحكمة على فَتْرة من الرُّسل، وقلّة من العلم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاع من الزمان ودُنُوٍّ من الساعة، وقُرْب من الأجل. من يُطِع الله ورسولَه فقد رَشَد. ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد غَوَى وفرّط وضلّ ضلالاً بعيداً. أُوصيكم بتَقْوى الله، فإنه خير ما أوصَى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. واحذَروا ما حذّركم الله من نفسه؛ فإن تقوى الله لمن عَمل به على وَجَلٍ ومخافةٍ من ربه عَوْنُ صدقٍ على ما تبغُون من (أمر) الآخرة. ومن يُصْلِح الذي بينه وبين ربّه من أمره في السِّر والعَلاَنِية، لا ينوِي به إلا وَجْهَ الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذُخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قَدّم. وما كان مما سوى ذلك يَوَدّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً.** ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾**. هو الذي صَدق قولَه، وانجز وعده، لا خُلْف لذلك؛ فإنه يقول تعالى:** ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ **فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجِله في السرّ والعلانية؛ فإنه** ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾**. ومن يَتّقِ الله فقد فاز فوزاً عظيماً. وإنّ تقوى الله توقّي مَقْتَه وتُوَقّي عقوبتَه وتُوَقّى سَخَطه. وإن تقوى الله تبيّض الوجوهَ، وتُرْضِي الربّ، وترفع الدرجة. فخُذوا بحظّكم ولا تفرِّطوا في جَنْب الله، فقد علّمكم كتابَه، ونَهَج لكم سبيلَه؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حقّ جهاده؛ هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين. لِيَهْلِك من هَلَك عن بيِّنة، ويحيا من حيّ عن بينة. ولا حول ولا قوّة إلا بالله. فأكثروا**

ذكر الله تعالى، واعمَلوا لما بعد الموت؛ فإنه من يُصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضِي على الناس ولا يَقْضُون عليه، ويملِك من الناس ولا يملِكون منه. الله أكبر، ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم»

هداية وتدبر[1]

* يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من عباده: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله إذا دعيتم إلى صلاة الجمعة بالأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة فامضوا إلى ذكر الله - الخطبة فاستمعوها - مسرعين قصداً فإن السعي دون العدو، واعملوا له وأصل السعي في هذا الموضع العمل. عن قتادة، قوله: والسعي يا بن آدم أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضي إليها. ذَٰلِكُمْ السعي إلى ذكر الله. خَيْرٌ لَّكُمْ من المعاملة في الكسب والتجارة لأن الصلاة تفوت بخروج وقتها، والبيع لا يفوت. فإن نفع الآخرة خير وأبقى.. إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الخير والشر الحقيقيين، أو إن كنتم من أهل العلم.

* صلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة، التي لا تصح إلا جماعة. وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله. وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة؛ وكلاهما عبادة. وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية.

* يتسم المنهج الإسلامي بالتوازن. الذي هو من مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكد ونشاط وكسب. وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر. وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن. التنزيل واسرار التأويل. تفسير الجلالين. تفسير القرآن/ الفيروز آبادي. بحر العلوم. الجامع لاحكام القرآن. تفسير ابن كثير. النكت والعيون/ الماوردي. الجدول في إعراب القرآن الكريم. معالم التنزيل/ البغوي.

والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى. وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة. ولكنه مع هذا لا بد من فترة للذكر الخالص، والانقطاع الكامل، والتجرد الممحض. كما توحي هاتان الآيتان.

* كان يقال ليوم الجمعة: العَرُوبة. وقيل: أول من سماها جمعة الأنصارُ. قال ابن سيرين: جمع أهل المدينة مِن قبل أن يَقْدَم النبيّ ﷺ المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة؛ وهم الذين سموها الجمعة؛ وذلك أنهم قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه، في كل سبعة أيام يوم وهو السبت. وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه ونستذكر ـ أو كما قالوا ـ فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى؛ فاجعلوه يوم العَرُوبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرَارة (أبو أمامة رضي الله عنه) فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم، فسمّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا.

وأما أوّل جمعة جمَّعها النبيّ ﷺ بأصحابه؛ فقال أهل السير والتواريخ: قَدِم رسول الله ﷺ مهاجراً حتى نزل بقُبَاء، على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لأثنتي عشرة ليلةٍ خلت من شهر ربيع الأوّل حين اشتّد الضُّحَى.

* إنما سميت الجمعة جمعة؛ لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمل جميع الخلائق؛ فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح. وقال ابن أبي حاتم:.. قال أبو القاسم ﷺ **«يا سلمان ما يوم الجمعة؟»** قلت: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: **«يوم الجمعة يوم جمع الله فيه أبواكم ـ أو أبوكم ـ »**

* في **السعي إليها** أربعة أقاويل:

أحدها: النية بالقلوب.

الثاني: أنه العمل لها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

الثالث: أنه إجابة الداعي.

الرابع: المشي على القدم من غير إسراع.

وفي **ذكر الله** ها هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها موعظة الإمام في الخطبة.

الثاني: أنها الوقت.

الثالث: أنه الصلاة، وهو قول الجمهور.

* منع الله من البيع عند صلاة الجمعة وحرمه في وقتها على ما كان مخاطباً بفرضها. وفي وقت التحريم قولان: **أحدهما**: أنه بعد الزوال إلى ما بعد الفراغ منها، قاله الضحاك. **الثاني**: من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ من الصلاة، قاله الشافعي رحمه الله، فأما الأذان الأول فمحدث، فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس به لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها، وقد كان عمر أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد، فجعله [عثمان] آذانين في المسجد، وليس يحرم البيع بعده وقبل الخطبة، فإن عقد في هذا الوقت المحرم بيع لم يبطل البيع وإن كان قد عصى الله، لأن النهي مختص بسبب يعود إلى العاقدين دون العقد، وأبطله ابن حنبل تمسكاً بظاهر النهي.

* صلاة الجمعة من فروض الأعيان، تجب على كل من جمع العقل، والبلوغ، والحرية، والذكورة، والإقامة، إذا لم يكن له عذر. فمن تركها استحق الوعيد. وأما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما، لأنهما ليسا من أهل أن يلزمهما فروض الأبدان لنقصان أبدانهما، ولا جمعة على النساء بالاتفاق.

* **العدد الذي تنعقد به الجمعة:** قال عبيد اللَّه بن عبد اللَّه وعمر بن عبد العزيز

والشافعي وأحمد وإسحاق: لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلا من أهل الكمال، وذلك بأن يكونوا أحرارا بالغين عاقلين مقيمين في موضع لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفا إلا لحاجة وقد اشترط عمر بن عبد العزيز الوالي حتى تصح الجمعة. أما الشافعي فقال: تصح بلا وال، وقال أبو حنيفة: تنعقد الجمعة بأربعة، شريطة وجود الوالي، وقال الأوزاعي وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال، وقال الحسن: تنعقد باثنين كسائر الصلوات، وقال ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلا، ولا يكمل العدد بمن لا تجب عليه الجمعة، كالعبد والمرأة والمسافر والصبي، ولا تنعقد إلا في موضع واحد، أما إذا كثر الناس وضاق الجامع، فجمهور الفقهاء على أنها تنعقد بأكثر من جامع. واللَّه أعلم.

* قَالَ ﷺ: **«مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَتَطَهَّرَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ ثُمَّ ادَّهَنَ أَوْ مَسَّ مِنْ طِيبٍ ثُمَّ رَاحَ فَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَصَلَّى مَا كُتِبَ لَهُ ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الإِمَامُ أَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى»**[١].

- قال ﷺ: **«من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى، فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرّب كبشا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام، حضرت الملائكة يستمعون الذكر»**[٢].

- قال ﷺ: **«إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَكْثِرُوا عَلَىَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَىَّ». قَالَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ قَالَ يَقُولُونَ بَلِيتَ. قَالَ «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ**

---

(١) حديث 918 – الجمعة – صحيح البخارى..

(٢) حديث 889 – الجمعة – صحيح البخارى.

أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ»[1].

....

المعاني المفردة

فَاسْعَوْا: فامضوا.

ذِكْرِ اللَّهِ: الصلاة والخطبة.

وَذَرُوا الْبَيْعَ: أي اتركوه. إذ هو الغالب من أعمال الناس، والا فسائر الأعمال يجب إيقافها والمضيُّ إلى الصلاة.

الإعراب والصرف[2]

«**الذين**» عطف بيان، جملة الشرط جواب النداء مستأنفة، الجار «**من يوم**» متعلق بحال من «**الصلاة**»، جملة «**ذلكم خير**» مستأنفة، الجار «**لكم**» متعلق بـ «**خير**»، وجملة «**إن كنتم**» مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله، وجملة «**ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**» معترضة.

الجمعة: اسم لواحد من أيّام الأسبوع، والأصل فيه أنّه مصدر بمعنى الاجتماع، وزنه فُعُلة بضمّتين.

اسعوا: فيه إعلال بالحذف شأن المضارع **(يسعون)**، فيه إعلال بالحذف أصله يسعاون، جاءت الألف ساكنة قبل واو الجماعة الساكنة فحذفت لالتقاء الساكنين، وفتح ما قبل الواو دلالة على الألف المحذوفة فأصبح يسعون وزنه يفعون بفتح العين والألف المحذوفة أصلها ياء لأن المصدر هو السعي.

---

(١) حديث 1533 - الوتر - سنن أبى داود. وصححه الألباني.

(٢) مشكل إعراب القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن الكريم.

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعي: لما قبح سبحانه المخالفة بين القول والفعل وصور صاحبها بصورة الحمار، وحذر من ذلك بما هيأ به العاقل للإجابة إلى دوام الطاعة بعد أن بين أن جميع الكائنات مقرة بشمول ملكه بما لها من التسبيح بألسنة الأحوال، والقيام في مراداته بغاية الامتثال، فكان العاقل جديراً بالمبادرة إلى غاية التسبيح بلسان المقال، وختم بالتحذير من الإخبار يوم الجمع الأعظم بجميع الأعمال، قال على طريق الاستنتاج مما مضى من الترغيب والترهيب، نادباً لهم - ليكونوا أولياء الله - إلى التزكية المذكورة التي هي ثمرة الرسالة بما حاصله الإقبال بالكلية على الله والإعراض بالكلية عن الدنيا ليجمع المكلف بين التحلي بالمزايا والتخلي عن الدنايا، فخص من المزايا أعظم تسبيح يفعله العاقل في أيام الأسبوع وهو الإسراع بالاجتماع العظيم في يوم الجمعة الذي يناظر الاجتماع لإجابة المنادي في يوم الجمع الأكبر، ثم الإقبال الأعظم بفعل صلاة الجمعة التي هي سر اليوم الذي ضيعه اليهود واستبدلوا به ما كان سبب تعذيبهم بعذاب لم يعذب به أحد من العالمين.

النداء السادس والثمانون

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

الأموال والأولاد ملهاة ومشغلة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

بين يدي النداء

إن الله يبتلي الإنسان بالمال ليرى؛ هل يشكر النعمة أو يكفرها؟ هل يؤدي حق المال أو يبخل به؟ هل يقتصر على الكسب الحلال أو يتجاوز إلى الحرام؟

ويبتلي الله المرء بالأولاد.. هل يربيهم التربية الحسنة ويتقي الله فيهم ويقيهم ناراً وقودها الناس والحجارة؟ هل يأمرهم بطاعة الله وينهاهم عن معصيته؟

وهل يقدم محبة هؤلاء الأولاد على محبة الله ورسوله إذا تعارضت المحبتان أو العكس؟

وهل يوفر لهم وسائل تعينهم على الخير وتسددهم إليه أم يوفر لهم وسائل تدمير القيم وحط الأخلاق وتقويض الدين في النفوس؟

والله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن] .

ومن فتنة الأموال والأولاد أنها قد تشغل عن ذكر الله. ولقد حذر الله من ذلك وأخبر أن من اشتغل بها عن ذكره فهو الخاسر الذي لا يربح ولا يفلح أبدا ؛ قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

وأخبر سبحانه أنه قد يعطي المال والولد عقوبة واستدراجاً للعبد فقال تعالى في المنافقين: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥].

والله تعالى يحذر المؤمنين من أن ينشغلوا عن أداء ما فرض عليهم واجتناب ما حرّم بأموالهم وأولادهم لأن كثيرًا من الناس يمنعهم عن طاعة الله أولادهم ومنهم من يضيع بعض الفرائض بسبب الحرص على المال فيرتكبون المحرمات ويتركون الفرائض لانشغالهم بالأموال والأولاد.

فكم من النساء يتركن بعض الفرائض من أجل أولادهن كالصلاة والصيام وكأن إرضاء أولادهن اولى من أداء فرائض الله .بل طاعة الله أولى من طاعة المخلوق ورضى الله مقدم على رضى العباد.

فهؤلاء النسوة اللذين ينشغلن بالمخلوق عن طاعة الخالق إنما جرهن إلى ذلك عدم تفكرهن بالموت وانصرافهن إلى الدنيا وشدة الغفلة.

وكذلك بعض الرجال يعصون الله من أجل اولادهم وذلك كأن يكتسب الأموال من طرق الحرام من أجل أن يصرفها على أولاده لزيادة التوسع في التنعم يريد بذلك أن يعيش أولاده حياة الغنى والترف كأولاد الأغنياء ،وقد كان الأجدر به أن يقنع بعيشة الفقر مع التقوى بدل عيشة الغنى مع الغفلة والمعصية ،وأن يمنع نفسه عن مد يده إلى الحرام سواء كان بالسرقة أو الاحتيال أو نحو ذلك وأن يكتفي بالقليل الذي بين يديه ويربي أولاده على العفاف والنزاهة والصلاح.

قال النبيّ: «إن جبريل نَفَثَ في رُوعي (قلبي) أنه لن تموت نفس قبل أن تستكمل رزقها وأجلها فأجملوا في الطلب خذوا ما حلّ ودعوا ما حَرُم».

لقد ذكر الله الأموال والأولاد في قوله ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لأنّ الأموال والأولاد أشدّ ما يلهي الناس عن طاعة الله وأكثر المعاصي التي تصيب

الإنسان من غير ذاته هي بسبب الأموال والأولاد.

فالإنسان المسلم باستطاعته أن يكون ملتزمًا بطاعة الله مع تحصيله لأمور المعيشة إذ إنه لا تعارض بين أن يسعى الإنسان لكسب المال من طرق الحلال وبين وقوفه عند حدود الشريعة.

هداية وتدبر[1]

* يآ أيها الذين آمنوا لا يشغلكم الاهتمام والاغتباط بتدبير أمور - الأولاد والأموال[2] - والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل، من توحيده ودعائه وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، أو ذكر ما أنزله وأوحى به، ولا عن الجهاد والصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود الحق جل شأنه، ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالي المؤمن بعزة المال والولد، مع عزة الله.. وحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله فذِكْرُ اللهِ تعالى مجاز عن مطلق العبادة والعلاقة سببية لأن العبادة سبب لذكره سبحانه وهو المقصود في الحقيقة منها. ويفهم كلام الكشاف من قوله تعالى: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، أنه إذا أريد بـ «ذكر» العموم يؤول المعنى إلى: لا تشغلنكم الدنيا عن الدين، والمراد بنهي الأموال وما بعدها نهي المخاطبين، وإنما وجه إليها للمبالغة لأنها لقوة تسببها للهو وشدة مدخليتها فيه جعلت كأنها لاهية، وقد نهيت عن اللهو، فالأصل لا تلهوا بأموالكم إلخ.. ومن يفعل ذلك أي اللهو بها وهو الشغل وهذا أبلغ مما لو قيل: ومن تلهه تلك فأولئك

---

(١) روح المعاني – الألوسي. محاسن التأويل. زاد المسير – ابن الجوزي. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. تفسير ابن كثير. محاسن التأويل ٨/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩. تفسير القرطبى ٤/ ١٥٣ ـ ١٥٤. الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ. في ظلال القرآن.

(٢) يرى صاحب الكشاف أن المراد بالأموال والأولاد الدنيا، وعبر بهما عنهما لكونهما أرغب الأشياء منها.

هم الخاسرون. حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي التعريف بالإشارة والحصر للخسران فيهم وفي تكرير الإسناد وتوسيط ضمير الفصل ما لا يخفى من المبالغة، وكأنه لما نهى المنافقون عن الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ وأريد الحث على الإنفاق جعل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا الخ تمهيداً وتوطئة للأمر بالإنفاق.

❋ وفي المراد **بذكر الله ها هنا أربعة أقوال:**

أحدها: طاعة الله في الجهاد قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: الصلاة المكتوبة قاله عطاء ومقاتل.

والثالث: الفرائض من الصلاة وغيرها قاله الضحاك.

والرابع: أنه على إطلاقه قال الزجاج حضهم بهذا على إدامة الذكر.

❋ لا ينبغي أن يُشغل عن ذكر الله شيءٌ و﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣]، وقد يبارك الله في المال القليل الذي تصحبه دعوة بالبركة فيه، وتصحبه آية من كتاب الله قد تليت، أو حديث لرسول الله قد حفظ. وهذه الآية الكريمة آية محكمة عند الجميع، ليست بمنسوخة بالاتفاق.

❋ يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبرًا لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

❋ قيل: هذه الآية من جملة ما نزل في أبي لبابة، وما فرط منه لأجل ماله وولده.

❋ قال عمر رضي الله عنه: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له **مال** ولم يحجّ فيضربون عليه الجزية؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وهذا خرج مخرج التغليظ.

* لما كان ذكر الله سبباً لدوام المحبة وكان الله سبحانه احق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والاجلال كان كثرة ذكره من انفع ما للعبد وكان عدوه حقا هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته ولهذا أمر الله سبحانه بكثرة ذكره في القرآن وجعله سببا للفلاح فقال تعالى واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون الجمعة. **وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا الجمعة. وقال تعالى** ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. **وقال تعالى** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ **الآية. وقال تعالى** ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقَالَ ﷺ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**». قَالُوا وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[1]. وقَالَ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِى دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ**». قَالُوا بَلَى. قَالَ «**ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى**». فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضى الله عنه مَا شَىْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ[2].

* **أنواع الذكر: الأول:** ذكره بأسمائه، وصفاته، والثناء عليه بها. **الثاني:** تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده. **الثالث:** ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم. **الرابع:** ومن أفضل ذكره ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، فذكره هنا: كلامه الذي أنزله على رسوله. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى - حديث ٦٩٨٤ – عن أبي هريرة.

(٢) حديث ٣٧٠٤ - الدعوات - سنن الترمذى - عن أبى الدرداء رضى اللّه عنه.

٢٨]، **الخامس:** ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه.

....

المعاني المفردة[١]

لا تُلْهِكُمْ: لا تشغلكم.

الْخَاسِرُونَ: الخسارة النقص فيما شأنه النماء. والخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب للإنسان فيقال خسر فلان، وللفعل يقال خسرت تجارته.

الإعراب[٢]

- (**وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**) **الواو** عاطفة. **مَنْ:** اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ. **ذلك:** مفعول به. **الفاء:** رابطة لجواب الشرط. **أولئك:** مبتدأ. **هم:** مبتدأ ثان أو ضمير فصل. **الخاسرون:** خبر أولئك أو خبر (هم) والجملة خبر (أولئك). وجملة **فأولئك هُمُ الْخاسِرُونَ:** في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر **مَنْ**.

- **تلهكم:** فيه إعلال بالحذف، حذفت لامه لمناسبة الجزم، وزنه تُفْعِكُم.

المناسبة في السياق[٣]

لما ذكر تعالى قبائحَ المنافقين وكشف أحوالهم، المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد، فتلهيهم كما ألهت أهل النفاق، وشغلتهم عن ذكر الله.

النداء السابع والثمانون

التحذير من عداوة الأزواج والأولاد

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف-محمد عبد الرؤوف المناوي.

(٢) إعراب القرآن وبيانه. الجدول في إعراب القرآن.

(٣) انظر: صفوة التفاسير. وسلسلة التفسير لمصطفى العدوي. وابن عاشور.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

بين يدي النداء

بين أيدينا موضوع غاية في الأهمية.. قضية قد تعرض لها كثير من الآباء والأمهات في مجتمعاتنا، إنها قضية عداوة الآباء للأمهات والأولاد، أو عداوة الأمهات للآباء والأولاد، أو عداوة الأبناء للآباء، أو عداوة الآبناء للأمهات، أو عداوة الأبناء للآباء والأمهات، قضية وقع فيها الكثير وابتلي بها الكثير، ولم يسلم منها أحد الا من رحم الله تعالى، حتى أن بعض أهل العلم تعرضوا لهذا الابتلاء، ولمَ لا وقد ابتلي بعض الأنبياء بهذا الابتلاء العظيم.. فها هو نبي الله نوح عليه السلام ابتلي في ابنه وفلذة كبده، وقد ورد ذلك مفصلاً في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، فكان جوابه باحتياطات مادية فقط، ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾. وها هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي أبتلي في أبيه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾. وها هو نبي الله نوح عليه السلام ونبي الله لوط عليه السلام ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ . واذا كان الأمر كذلك، فإن ديننا دين الاسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا ووضحها وبينها، كي نستبشر ونحذر ونتنبه، نستبشر بفرج الله وما أعده لعباده في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ونحذر من كل أمر حذرنا منه رب العزة تبارك وتعالى في كتابه العزيز ووضحه لنا الحبيب ﷺ في السنة المطهرة، ونتنبه ونعي كل ما يدور حولنا كي لا نقع في المزالق والهوى.

وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدواً، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوا بهذا المعنى بعينه وعموم قوله ﴿ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. والله أعلم.

هداية وتدبر[1]

* يا معشر المؤمنين إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم، عداوة أخروية، يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله، من الخير والأعمال الصالحة التي تنفع في الآخرة، فاحذروا أن تستجببوا لهم وتطيعوهم، واحذروا أن تؤثروا حبهم وشفقتكم عليهم على طاعة اللّه تعالى. والآية تعم كل من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد، وإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصفحتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم، فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، يعاملكم بمثل ما عاملتم.
* إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية. ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء. فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله. كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير. كما يتعرض هو وأهله للعنت. وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده. فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدواً له، لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا. كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد

---

(١) صفوة التفاسير. التفسير المنير. [إذا المرء لا برعاك إلا تكلفاً.... فدعه ولا تكثر عليه التأسفا]. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. نحو تفسير موضوعي- محمد الغزالي. تفسير الشعراوي. تفسير المنار. محاسن التأويل. في ظلال القرآن.

يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله.

* ﴿مِنْ﴾ هنا للتبعيض في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، فليس كل الأزواج أعداء، وليس كل الأبناء أعداء، فقد قال ﷺ: **«خير ما يكنز العبد المرأة الصالحة»**، وقال: **«الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»**، وقال زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، من أهل العلم من قال: ليست العداوة هنا أن ينصبوا لك العداء بالسيف ولا بالضرب، وإن كان هذا قد يرد في حق أقلية، لكن المراد بالعداوة هنا فعل ما يفعله الأعداء، فالعدو يطلق عليه عدو لفعله - عند بعض العلماء - وليس لذاته إلا في شأن الكفار. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: إن من أزواجكم وأولادكم من يفعل بكم فعل أعدائكم من صرفكم عن طاعة الله سبحانه وتعالى وطاعة رسول الله ﷺ، فالأعداء يصرفوننا عن طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ، فكذلك من الزوجات من تصرفنا عن طاعة الله وطاعة رسوله، فتتنزل حينئذٍ منزلة العدو، كذلك: إن من أبنائكم من يصرفكم عن طاعة الله وعن طاعة رسوله، فيتنزل هذا الابن منزلة العدو؛ لصرفه لك عن طاعة الله وعن طاعة رسول الله ﷺ، فالمؤدى من العدو ومن الزوجة الصارفة لك عن الدين ومن الابن الصارف لك عن الدين؛ مؤدى واحد. فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] من يصرفكم عن دين الله، ومن تفتنون به فتصرفون بسببه عن دين الله، ومن تقعون في المحرمات بسببه، فثم امرأة تحمل زوجها على الكسب الحرام إشباعاً لشهواتها وإرضاء لنزواتها، فتفعل بزوجها فعل الأعداء الذين يحملونه على فعل الحرام، وكذلك كم من ابن يحمل أباه على أن يكتسب له

من الحرام ويطعمه، فيفعل بذلك فعل الأعداء مع أبيه.

❊ لبى نداء الهجرة أناس فسبقوا سبقاً بعيداً، وتقاعس آخرون ليستريحوا مع زوجاتهم وأولادهم ففقدوا هذا الشرف. وكثير أولئك الذين يصمون آذانهم عن نداء الواجب ليحيوا مع من يحبون! لهؤلاء يقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ الآية.

❊ في هذا القول نجد أن العداوة تأتي من الأزواج قبل الأولاد، ونعلم أن الزوجة في بعض الأحيان هي التي تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء، وهذا كلام منطقي؛ لأن الذي يتكلم هو رب حكيم.

❊ قوله تعالى ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ معناه على أنفسكم، والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن وإما لضرر في الدين، وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة، فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

❊ قال القاضي أبو بكر بن العربي: إن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة.

❊ **كان أكثر أولاد المؤمنين عند نزول هذه الآية مشركين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ الآيات.. وإننا نرى كثيراً من المسلمين، حتى اللابسين منهم لباس الدين يرتكبون المعاصي والدنايا في هاتين الفتنتين، ومنهم من يحرم بعض أزواجه وأولاده من إرثه بالهبة للآخرين منهم، أو وقف العقار وحبسه عليهم.**

❊ عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَضَمَّهُمَا

إِلَيْهِ وَقَالَ «**إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ**»[1]. أي: يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته، ويمتنع أبوه من الإنفاق في الطاعة خوف فقره، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته.

* جاء في الحديث أن النبي ﷺ، قال: « **يأتي زمان على أمتي، يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيّرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء، فيهلك** »[2]

* قَالَ ﷺ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ**»[3].

* قَالَ ﷺ: «**فَوَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»[4].

* قَالَ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لاِبْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ لَهُ أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ - قَالَ - فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ. - قَالَ - فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ - قَالَ - ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ - قَالَ - فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**»[5]. وقعود الشيطان يكون بوجهين: **أحدهما:** يكون بالوسوسة. **والثاني:** بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد

---

(١) حديث ٣٧٩٧ - الأدب - سنن ابن ماجه.

(٢) تفسير الألوسي : ٢٨/ ١٢٦.

(٣) حديث ٢١ - الإيمان - صحيح البخارى. عَنْ أَنَسٍ - رضى الله عنه.

(٤) حديث ١٤ - الإيمان - صحيح البخارى. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه.

(٥) حديث ١٦٣٧٩ - حديث سبرة بن أبى فاكه - مسند أحمد.

والصاحب. قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصِّلَت: ٢٥].

....

المعاني المفردة[1]

فَاحْذَرُوهُمْ: الحذر: احتراز من مخيف، يقال: حذر حذراً، وحذرته، قال عز وجل: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [**الزُّمَر**: ٩].

سبب النزول[2]

قال ابن عباس: كان الرجل يُسْلِمُ، فإذا أراد أن يُهاجِرَ منعه أهلُه وولدُه، وقالوا: نَنْشُدُكَ الله أن تذهب وتدع أهلَك وعشيرتك، وتَصيرَ إلى المدينة بلا أهل ولا مال. فمنهم من يَرِقُّ له ويُقيمُ ولا يُهاجرُ. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعن إسماعيل بن أبي خالد قال: كان الرجل يُسلم فَيلُومُه أهلُه وبنوه، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

قال عكرمة عن ابن عباس: وهؤلاء الذين منعهم أهلُهم عن الهجرة، لَمَّا هاجروا ورأوا الناسَ قد فَقِهُوا في الدين، هَمُّوا أنْ يُعاقبوا أهلِيهم الذين منعوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإعراب[3]

«**إِنَّ**» حرف مشبه بالفعل «**مِنْ أَزْواجِكُمْ**» خبر إن المقدم «**وَأَوْلادِكُمْ**» معطوف على

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ـ الراغب الأصفهاني.

(٢) الجامع لأحكام القرآن. صفوة التفاسير.

(٣) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ عن:[إعراب القرآن وبيانه].

أزواجكم «**عَدُوًّا**» اسم إن المؤخر «**لَكُمْ**» متعلقان بعدوا والجملة ابتدائية لا محل لها. «**فَاحْذَرُوهُمْ**» الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها «**وَ**» الواو حرف عطف «**إِنْ تَعْفُوا**» إن حرف شرط جازم ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله «**وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا**» معطوفان على تعفوا «**فَإِنَّ اللَّهَ**» الفاء واقعة في جواب الشرط وإن واسمها «**غَفُورٌ رَحِيمٌ**» خبراها والجملة في محل جزم جواب الشرط.

المناسبة في السياق[1]

قال البقاعي: لما كانت أوامر الدين تارة تكون باعتبار الأمر الديني من سائر الطاعات المحضة، وتارة باعتبار الأمر التكويني وهو ما كان بواسطة مال أو أهل أو ولد، أتم سبحانه القسم الأول في الآيتين الماضيتين، شرع في الأمر الثاني لأنه قد ينشأ عنه فتنة في الدين وقد ينشأ عنه فتة في الدنيا.

---

(١) الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ.

النداء الثامن والثمانون

تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

بين يدي النداء

[تُعرَّف التربيةُ الإسلاميةُ بأنها إعداد الإنسان للحياة السوية كما أرادها الله، وذلك من خلال تنشئته وتوجيهه وبناء شخصيته، وهي تربية شاملة متكاملة لأنها مستمدة من كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم ﷺ، ومصاحبة للإنسان قبل ولادته وإلى حين وفاته، حيث يحث الإسلام على اختيار الأم الصالحة والأسرة الصالحة، تمهيداً للحصول على الذرية الصالحة، ويحث على فعل الأسباب الجالبة لذلك من الدعاء، وإطابة المأكل والمشرب، ومن تربية الأم على التدين وطاعة الله، والبعد عن معصية الله، حتى ينشأ الأبناء والبنات على الطاعة، ويعيشوا في بيئة صالحة عامرة بذكر الله، ومليئة بالإيمان والعمل الصالح والخلق القويم، ويجني الوالدان ثمرة هذه التربية والإصلاح براً في الدنيا وثواباً في الآخرة كما قال النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**». وكما قال المصطفى ﷺ: «**ما نحل والد ولده خيراً من أدب حسن**» والمسلم مأجور ومثاب على سعيه في تربية أولاده وبناته، بل هو من المجاهدة، وخاصة إذا اعتنى بتربية عقولهم وقلوبهم بالإضافة لتربية أجسامهم، وهذا ما ميز ابن آدم على سائر المخلوقات التي تسعى لرزق أولادها، فالكل يسعى لذلك، ويقاتل دون أولاده، لكن ابن آدم يختلف بأنه يربي الروح والعقل ويربي القلب والفكر كما يربي الجسد.

وفي سيرة المصطفى ﷺ القدوة الحسنة والمثل الأعلى في التربية فقد استخدم عليه الصلاة والسلام عدة أساليب، وكان يأخذ في الاعتبار الفروق الفردية بين الأشخاص،

فما يصلح لفرد قد لا يصلح لآخر، وما يناسب موقفاً أو زماناً قد لا يناسب زماناً آخر، كما أن الشدة قد تكون نافعة في موضعها، وقد تكون الرأفة والرحمة والتغاضي أكثر نفعاً في موضع آخر، فالنبي عليه الصلاة والسلام يستخدم القدوة الحسنة في دعوته وتربيته كما يستخدم الموعظة والنصيحة والإرشاد، ويستخدم الترغيب أحياناً كما يستخدم الترهيب أحياناً أخرى، ويستخدم القصة في موضع كما يستخدم ضرب المثل في موضع آخر، وقد يستخدم العقاب في مناسبة كما يستخدم الهيبة والهدية في مناسبة أخرى، وقد يقدم الأمر أو التوجيه مباشرة كما يقدمها بالتدرج والمرحلية أحياناً أخرى، وصدق الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. والقدوة الحسنة من أفضل ما يمكن أن يُربى به الأولادُ، ويُدعى به إلى الله، بل هي الوسيلة المثلى الناجحة للأب في الأسرة، والمعلم في المدرسة، والمدير أو المسؤول في مقر العمل، وهي مهمة لتربية الجيل المسلم في جميع مراحل نموه، فهي مهمة لتربية الطفل كما هي مهمة لتربية الشاب والمراهق وهي مهمة أيضاً لتربية سائر الناس، وقد فطر الناس على تقليد من يعجبون به، ومن يلفت نظرهم في شخصيته، ولهذا نرى من القدوة السيئة تلك المظاهر التي يقتدي فيها بعض الناس بشخصيات منحرفة، أو شخصيات لا هدف لها في الحياة إلا مجرد الإعجاب بشخصياتهم، ولهذا فإن على الأب المسلم والأم المسلمة اختيار نماذج من الرجال والنساء ليكونوا قدوة لأبنائهم ابتداءً بالمصطفى ﷺ ومروراً بالصحابة والتابعين ومن تبعهم من السلف الصالح ممن كان لهم دور في خدمة الإسلام والمسلمين، كعمر بن عبدالعزيز، وسعيد بن المسيب، وابن تيمية، وأحمد بن حنبل وغيرهم.

إنا إذا لم نقم ببناء القدوات واختيار الشخصيات التي يقتدي بها الأبناء والبنات، ويجعلونها مثلهم الأعلى، فإن جهات أخرى سوف تتولى هذا الدور، وتبدأ بتلميع شخصيات تافهة، أو غير مقبولة وفق معاييرنا الشرعية والعقلية، وتقديمها للشباب والشابات كنماذج مغرية للاقتداء، وهم في هذه الحالة يتفننون في إبراز الوجوه الجميلة

والممتعة لتلك القدوات، حتى يقر في قلوب المراهقين أن هؤلاء هم المثل الأعلى والقدوة الحسنة.

وقدوة الطفل في البيت هما الوالدان فبسلوكهما يستقيم الطفل أو ينحرف وبحسب ما يراه منهما يفهم الحياة ويقتنع بها، فهو يفتح عينيه أول ما يفتحهما ليرى والديه فيعتقد أنهما كل شيء في الحياة، وأن ما يفعلانه هو الصحيح، وما سواه هو الباطل، ولهذا قال النبي ﷺ: **«كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»** أي أنهما هما اللذان يشكلان تصوره للحياة.

ومن هنا جاءت أهمية الأم الصالحة بل واختيار الأب الصالح، فبالنسبة للمرأة فالنبي ﷺ يقول: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»**، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ فمنصب الزوج الخاطب وماله وتجارته وحسبه ونسبه وأسرته ليس أهم من دينه وخلقه، فكل ما سبق زائل لكن الدين والخلق هو الباقي. ولعل زوجاً فقيراً صالحاً خير من غني منحرف، فالله عزَّ وجلّ قد تكفل لمن تزوج طلباً للعفاف أن يغنيه من فضله كما وعد الله **بذلك:** ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور: ٣٢]، وقال المصطفى ﷺ: **«التمسوا الزرق بالنِّكَاحِ»**[1].

وهذا الفعل من أهم أسباب التربية الصالحة وهو أساسها، فاختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة أساس بناء الأسرة المسلمة، إذ بهما تتوفر القدوة الحسنة والبيئة الصالحة لنشأة الجيل المسلم وبناء المجتمع المسلم الخالي من التناقض وانفصام الشخصية،

---

(١) رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث ابْن عَبَّاس. وَحَدِيث تزوجوا النِّسَاء فَإِنَّهُم يَأْتِين بِالْمَال، أخرجه الْبَزَّار، وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي الْعِلَل وَالْحَاكِم من حَدِيث عَائِشَة. قَالَ الْحَاكِم: تفرد بِهِ مُسلم وَهُوَ ثِقَة، وَقَالَ الْبَزَّار وَالدَّارَقُطْنِيّ: وَغير مسلم يرويهِ مُرْسلا، انْتَهَى. [الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي].

فكثيراً ما سمع الأبناء في منازلهم أو مدارسهم أو عبر وسائل الإعلام توجيهات ونصائح لكنهم يرون نقيضها في الحياة، فهل يصدقون ما يقال؟ أم يقتنعون بما يُفعل؟ والله تعالى حذر أشد التحذير من التناقض بين القول والعمل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

هذا أساس من أسس التربية الإسلامية وقاعدة من قواعدها وهي القدوة الحسنة المطلوبة من كل مسلم بوجه عام، ومن كل أب ومرب بوجه خاص، وهذا هو أهم أسباب توفير القدوة الحسنة وهو حسن اختيار الزوج والزوجة لبناء أسرة سعيدة ومجتمع صالح تسعد بهم الأمة، وبهم يُعبد الله حق عبادته.

اللهم ارزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وهب لنا ولأبنائنا وبناتنا القدوة الصالحة، واجعلنا في أنفسنا قدوة حسنة لغيرنا ودعاة بأعمالنا إلى ديننا، إنك ولي ذلك والقادر عليه.[١]]

هداية وتدبر[٢]

* يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، روّضوا أنفسكم وأهليكم، واتّخذوا لها وقاية من النار، أما بالنسبة للنفس فبحملها على طاعة اللّه تعالى، وأما بالنسبة للأهل فبالوصية لهم،وتعليمهم والحمل على الطاعة أيضاً، حتى لا تصيروا معهم إلى النار الرهيبة، التي تتوقد بالناس والحجارة، كما يتوقد غيرها بالحطب. وهذا دليل على أن المعلّم يجب أن يكون عالما بما يأمر به وينهى عنه. وعلى النار خزنة من الملائكة غلاظ الخلق والطباع، أشداء القلوب والبطش والفظاظة، ذوو قوة هائلة، والشدة: القوة.

---

(١) بقلم الشيخ: الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن التويجري- أستاذ بجامعة الملك سعود. http://www.aldaawah.com/?p=2478

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي. روح المعاني. غرائب القرآن ورغائب الفرقان. سلسلة التفسير لمصطفى العدوي. والظلال. (الإحكام) جـ 5 صـ 122. (مجموع الفتاوى) جـ 11 صـ 504.

* **قال القرطبى:** في الآية مسألة واحدة وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهلَه النار. قال الضحاك: معناه قُوا أنفسكم، وأهلوكم فَلْيَقُوا أنفسهم ناراً. **وعن** ابن عباس: قُوا أنفسكم وأْمُرُوا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يَقِيَهم الله بكم. وقال عليّ رضي الله عنه وقتادة ومجاهد: قُوا أنفسكم بأفعالكم وقُوا أهليكم بوصيّتكم. قال ابن العربي: وهو الصحيح.

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية. وعن هذا عبّر الحسن في هذه الآية بقوله: يأمرهم وينهاهم. وقال بعض العلماء لما قال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه.. فيعلّمه الحلال والحرام، ويجنّبه المعاصي والآثام، إلى غير ذلك من الأحكام. **وقال** عليه السلام: «**حَقُّ الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلّمه الكتابة ويزوّجه إذا بلغ**». وقال عليه السلام: قَالَ « **مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ**[1]» عن النبيّ ﷺ «**مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرّقوا بينهم في المضاجع**» خرّجه جماعة من أهل الحديث.

* إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله ثقيلة رهيبة. فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك.

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة. ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها. وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه، فلا يصعب على طارق، ولا يستعصي على مهاجم!

* في الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه.. كان قد أنشئ مجتمع مسلم في المدينة يهيمن عليه الإسلام. يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة

---

(١) حديث 2079 - البر والصلة - سنن الترمذى.

البشرية، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور. وكان المرجع فيه، مرجع الرجال والنساء جميعاً، إلى الله ورسوله. وإلى حكم الله وحكم رسوله. فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير.. وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام. وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام..

نحن الآن في موقف متغير. نحن نعيش في جاهلية. جاهلية مجتمع. وجاهلية تشريع. وجاهلية أخلاق. وجاهلية تقاليد. وجاهلية نظم. وجاهلية آداب. وجاهلية ثقافة كذلك!!»

* في الآية تنبيه إلى وجوب البدء بالنفس، يقول ﷺ: «**وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**»[1] . وإذا لم يستجب البعض فلا شيء على الولي والداعي والآمر فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدَّثر: ٣٨] .

* الآية فيها حث بل إلزام للرجل أن يتفقد أهل بيته، ولا يترك للمرأة الحبل على الغارب لتصنع ما تشاء، فإن النبي ﷺ يقول: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه.**»[2]. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم]. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتِ اسْتَيْقَظَ النَّبِىُّ - ﷺ - مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ يَقُولُ «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ كَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ فِى**

(١) حديث 1447 - الزكاة - صحيح البخارى. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث 2448 - الاستقراض - صحيح البخارى.

الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]. أي: كم من نفس مكسوة مستورة في الدنيا تأتي مفضوحة يوم القيامة، لكونها عارية عن الأعمال الصالحة التي لم تجد ما تستتر به. فأنت مسؤول عن أهلك أمام الله، لا تطع المرأة في المحرم، لا تسحبك امرأتك إلى حيث الفسق والفساد والشر، فأنت قيم عليها، ومسؤول عنها في الآخرة أمام الله سبحانه وتعالى، لذلك قال بعض أهل العلم في شرح حديث النبي ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ لَيَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»**[2]. قال: لأنه يجب عليه أن يعلمهم حرمة هذه النياحة.

* واستُدِل بها على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء وأدخل بعضهم الأولاد في الأنفس لأن الولد بعض من أبيه وفي الحديث رحم الله رجلا قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معه في الجنة وقيل: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهّل أهله.

* ووقاية النفس عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب، وروي أن عمر قال حين نزلت: يا رسول الله نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا فقال عليه الصلاة والسلام: تنهوهن عما نهاكم الله وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار.

* ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ أي اتقوا نوعاً من النار ممتازة عن غيرها من النيران وقودها الناس والحجارة لا تتقّد إلا بهما كاتقاد غيرها بالحطب، أو بأنها توقد بنفس ما يراد إحراقه وإحماؤه، أو بأنها لإفراط حرها إذا اتصلت بما لا يشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهبها.

* هذا حال هؤلاء الملائكة، قال بعض العلماء: إن الرحمة التي في قلوبهم تجاه أهل النار نزعت، فليس في قلوبهم رحمة لأهل النار أبداً، لذلك لم يضحك مالك خازن

---

(١) حديث 5905 - اللباس - صحيح البخارى.

(٢) حديث ١٣٠٠ - الجنائز - صحيح البخارى.

النار منذ خلقه الله سبحانه وتعالى.

* والحجارة قيل: هي حجارة الكبريت. وقيل: هي ما نحتوها أصناماً ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. لأنهم لما اعتقدوا فيها أنها شفعاؤهم عند الله، وأنهم ينتفعون بها ويدفعون المضارّ عن أنفسهم، جعلها الله عذابهم إبلاغاً في إيلامهم وتوريثاً لنقيض مطلوبهم، ونحوه ما يفعله بالذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، أي يمنعون حقوقها حيث ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]. والتاء في الحجارة لتأكيد التأنيث في الجماعة.

* وفائدة الجملتين: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أن الأولى لبيان الطواعية في الماضي، وأن من خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم. والثانية للمستقبل وفورية التنفيذ والامتثال، وأن من خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم.

* قَال ﷺ: **«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِى وَجْهِهَا الْمَاءَ وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِى وَجْهِهِ الْمَاءَ»**(١). النضح: الرش. وروى مسلم: أنه ﷺ كان إذا أَوْتَر يقول: **«قومي فأوْتِري يا عائشة»**. **«ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ»**(٢). **«مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِى الْمَضَاجِعِ»**.(٣)

---

(١) حديث ١٦٢١ – قيام الليل وتطوع النهار – سنن النَسائى. عن أَبِى هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث ٦٠٧٦ – الأدب – صحيح البخارى. عن أَبِى سليمان مالك بن الْحُوَيْرِثِ رضي الله عنه.

(٣) حديث 495 – الصلاة – سنن أبى داود . عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ رضي الله عنهم.

* ابن حزم رحمه الله ـ بعد أن ذكر فرض العين من العلم ـ قال: «فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس، ذكورهم وإناثهم، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم، وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلمّ ذلك من حين يبلغون الحلم وهم مسلمون، أو حين يُسلمون بعد بلوغهم الحلم، ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ماذكرنا إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء مَن يعلمهم»
* شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: ويجب تعليم أولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه، وتربيتهم على طاعة الله ورسوله، كما قال ﷺ: **«مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر وفرّقوا بينهم في المضاجع»**.

....

المعاني المفردة(1)

وَقُودُهَا: الوَقُودُ: الحطَب. قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٠].
الوَقَدُ: نَفْسُ النَّارِ. وبالضم: الاتِّقادُ.

غِلَاظٌ: الغِلَظُ: ضدّ الرّقّةِ في الخَلْق والطبْعِ والفِعْل والمَنْطِق والعيْش ونحو ذلك.

شِدَادٌ: الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وهي نَقِيضُ اللِّينِ تكون في الجواهر والأَعراض.

الإعراب والصرف والبلاغة(2)

– «**وقودها الناس**» نعت لـ «**نارا**»، وجملة «**عليها ملائكة**» نعت ثان، جملة «**لا يَعْصُون**» نعت لـ «**ملائكة**»، «**ما**» مصدرية، والمصدر المؤول «**ما أمرهم**» بدل اشتمال من الجلالة أي: لا يَعْصُون أَمْرَ الله.

(قوا): فيه إعلال بالحذف من موضعين، الأول فاء الكلمة بدءا من المضارع لأنها

---

(١) لسان العرب.

(٢) إعراب مشكل القرآن للمسكي. الجدول في إعراب القرآن الكريم.

وقعت بين ياء وكسرة، ثم امتّد الحذف إلى الأمر- كما في المعتلّ المثال-، والثاني لام الكلمة بدءاً من المضارع أيضاً حيث أسند إلى واو الجماعة، ثمّ امتدّ الحذف إلى الأمر.. الأصل يقيونا، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة الى القاف - وقال بعضهم: حذفت الياء لثقلها ثمّ ضمّت القاف لتناسب الواو-، فلما التقى ساكنان حذفت الياء، ثمّ انجرّ الحذف إلى الأمر، وحذفت النون للبناء.. وزنه عوا.

- **(يعصون)**: فيه إعلال بالحذف أصله يعصيون، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الصاد ولّما التقى ساكنان حذفت الياء فأصبح يعصون، وزنه يفعون.

- في قوله تعالى **(لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ}** فن السلب والإيجاب. وهذا الفن هو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى، أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من غير تلك الجهة. وفي الآية الكريمة، سلب عز وجل عن هؤلاء الموصوفين العصيان، وأوجب لهم الطاعة.

النداء التاسع والثمانون

تـوبـوا إلـى اللـه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

بين يدي النداء

ذكر ابن القيم أربع مراتب للناس مع الذنوب:

١- **المرتبة الأولى: مرتبة الخوف والحزن بعد المعصية:** في صحيح مسلم عن أبي أمامة قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَنَحْنُ قُعُودٌ معه إذ جاء رجل فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَعَادَ مرة أخرى فَسَكَتَ عَنْهُ، ثم َأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ فَلَمَّا انْصَرَفَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ لَحِقَ به الرَّجُلُ فأعاد عليه، فَقَالَ ﷺ: **«أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الْوُضُوءَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلاةَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. َقَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ».**

٢- **المرتبة الثانية: مرتبة الفرح بالذنب:** فإنه متى تكرر الذنب، واشتدت الغفلة، تحول خوف العاصي وحزنه إلى فرح عند ظفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح دليل على شدة الرغبة في المعصية، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، والجهل بقدر من عصاه سبحانه. ومن كان كذلك، فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه، وليحذر من أن يوافي ربه على ذلك.

٣- **المرتبة الثالثة: مرتبة الإصرار على الذنب:** فإن تكرار الذنب يقود العاصي ولا

بد إلى الإصرار، والإصرار على المعصية ذنب عظيم، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. ولهذا قيل: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

٤- المرتبة الرابعة: **مرتبة المجاهرة وإشاعة المعصية:** وهذه المرتبة من أخطر المراتب، وصاحبها متوعد بعدم المعافاة، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرين»**. ولهذا كان المجاهر دائراً بين الأمرين: بين قلة الحياء، وبين الكفر والانسلاخ من الدين عياذاً بالله.

عن النبي ﷺ أنه قال: **«اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله وليتب إلى الله»**.

وللتوبة شروط لا بد منها حتى تكون صحيحة مقبولة، والمشهور عند أهل العلم أربعة شروط:

شرط حالي: وهو الإقلاع عن المعصية.

شرط ماضٍ وهو الندم على ما سلف من الذنوب والمعاصي: قال ﷺ: **«الندم توبة»**.

شرط مستقبل وهو العزم على عدم العودة: فلا تصح التوبة من عبد ينوي الرجوع الى الذنب بعد التوبة، وإنما عليه أن يتوب من الذنب وهو يحدث نفسه ألا يعود إليه في المستقبل .

ردّ المظالم إلى أهلها: لقول الرسول ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ»**.

هداية وتدبر[١]

❊ يا أيها الذين صدّقوا الله ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله، وإلى ما يرضيه عنكم

(١) الطبري. الكشاف. الجامع لاحكام القرآن. انوار التنزيل واسرار التأويل/ البيضاوي.

رجوعاً لا تعودون فيها أبداً. وأمر بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان. عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ محمداً ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يسعى نورهم أمامهم، وبأيمانهم كتابهم، يسألون ربهم أن يبقي لهم نورهم، فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط، وذلك حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، واستر علينا ذنوبنا، ولا تفضحنا بها بعقوبتك إيانا عليها، إنك على إتمام نورنا لنا، وغفران ذنوبنا، وغير ذلك من الأشياء ذو قدرة.

* وُصِفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي؛ والنصح: صفة التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات، وذلك: أن يتوبوا عن القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن في الضرع، موطنين أنفسهم على ذلك. سُئل عمر رضي الله تعالى عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود إليه أبداً. وعن علي رضي الله تعالى عنه: أنه سمع أعرابياً يقول: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك، فقال: يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين. قال: وما التوبة؟ قال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب: الندامة، وللفرائض: الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن تذيب نفسك في طاعة الله، كما ربيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي. وقال فتح المَوْصِليّ: علامتها ثلاث: مخالفة الهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ.

* **في الأشياء التي يُتاب منها وكيف التّوبة منها. قال العلماء:**

الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو، إما أن يكون حقاً لله أو للآدميين. فإن كان حقاً لله كترك صلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاءُ ما فات

منها. وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطاً في الزكاة. وإن كان ذلك قتلَ نفس بغير حق فأن يُمَكِّن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوباً به. وإن كان قذفاً يوجب الحدّ فيبذل ظهره للجلد إن كان مطلوباً به. فإن عُفِيَ عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص. وكذلك إن عُفيَ عنه في القتل بمال فعليه أن يؤدِّيه إن كان واجداً له، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وإن كان ذلك حداً من حدود الله ـ كائناً ما كان ـ فإنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه. وقد نصّ الله تعالى على سقوط الحدّ عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم. وفي ذلك دليل على أنها لا تسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم؛ حسب ما تقدم بيانه. وكذلك الشُّرّاب والسُّراق والزُّناة إذا أصلحوا وتابوا وعُرف ذلك منهم، ثم رفعوا إلى الإمام فلا ينبغي له أن يحدّهم. وإن رُفُعوا إليه فقالوا: تُبْنا، لم يتركوا، وهم في هذه الحالة كالمحاربين إذا غُلبوا. هذا مذهب الشافعيّ. فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا بردّه إلى صاحبه والخروج عنه ـ عَيْناً كان أو غيره ـ إن كان قادراً عليه، فإن لم يكن قادراً فالعزم أن يؤدّيَه إذا قَدَر في أعجل وقت وأسرعه. وإن كان أضرّ بواحد من المسلمين وذلك الواحد لا يشعر به أو لا يدري من أين أتى، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له، فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه. وإن أرسل من يسأل ذلك له، فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه ـ عَرفَه بعينه أو لم يعرفه ـ فذلك صحيح. وإن أساء رجل إلى رجل بأن فزّعه بغير حقّ، أو غمّه أو لطمه، أو صفعه بغير حقّ، أو ضربه بسوط فآلمه، ثم جاءه مستعفِياً نادماً على ما كان منه، عازماً على ألاّ يعود، فلم يزل يتذلّل له حتى طابت نفسه فعفا عنه، سقط عنه ذلك الذنب. وهكذا إن كان شانَه بشتم لا حدّ فيه.

* ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إطماع من الله تعالى لعباده. و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة. وهو معنى قوله عليه السلام: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**. ذكر بصيغة الإطماع جرياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضل، والتوبة غير موجبة، وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء.

❊ قال ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[١].

❊ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وها هو إمام التائبين وسيد المستغفرين ﷺ يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**». وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «**إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[٢]. وقال ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[٣].

❊ قال ابن مسعود: نورهم يسعى بين أيديهم على قدر أعمالهم، يمرون على الصراط، منهم مَنْ نورُه مثل الجبل، ومنهم مَنْ نوُره مثل النخلة، وأدناهم نورًا مَنْ نوُره في إبهامه يتّقد مرة ويُطفأ أخرى. قال ابن عباس: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نورًا يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

....

المعاني المفردة[٤]

تَوْبَةً نَّصُوحاً: توبة بالغة في النصح، وقال الفراء: نصوحاً من صفة التوبة. والمعنى توبة تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه، وهو أنها الصادقة الناصحة ينصحون بها أنفسهم.

يُكَفِّرَ: يستر ويصفح ويغفر.

وَاغْفِرْ: غفر الشئ – غفراً: ستره. فهو غافر. استغفر الله ذنبه، ومن ذنبه، ولذنبه:

---

(١) حديث 4393 – الزهد – سنن ابن ماجه.

(٢) حديث 1518 – الوتر – سنن أبى داود. وصححه الألباني.

(٣) حديث 2687 – صفة القيامة – سنن الترمذى. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ عَلِىِّ بْنِ مَسْعَدَةَ عَنْ قَتَادَةَ. وحسنه الألباني .

(٤) مفاتيح الغيب. والجامع لاحكام القرآن. وتوفيق الرحمن. والقاموس الفقهي لغة واصطلاحاً.

طلب منه أن يغفره. المغفرة: الستر. في قول الجرجاني: هي أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته.

الإعراب والصرف[1]

- « **نَّصُوحاً** » صفة لـ «**توبة**» على المبالغة على أنها المصدر نفسه، جملة «**عسى ربكم**» مستأنفة، والمصدر «**أن يكفِّر**» خبر عسى، الظرف «**يوم**» متعلق بـ «**يدخلكم**»، جملة «**نورهم يسعى**» حال من «**النبي والذين آمنوا معه**»، جملة «**يقولون**» حال من الضمير في «**أيديهم**»، جملة «**إنك على كل شيء قدير**» مستأنفة في حيز جواب النداء.

- «**نَّصُوحاً** »: صفة مشبهة من الثلاثيّ نصح ... أو هي من صيغ المبالغة، وزنه فَعول بفتح الفاء.

القراءات[2]

«**نَّصُوحاً**» ضم النون شعبة «**نُّصُوحاً**» جعله مصدراً من نصح ينصح نصحاً ونصاحة ونصوحاً مثل شكرت شكوراً وجلست جلوساً وقعدت قعوداً، المعنى ينصحون فيها نصوحا يقال نصح الشيء نصوحا أي خلص. وفتحها غيره. جعلوه صفة للتوبة ومعناه توبة بالغة في النصح لأن فعولاً لا يستعمل إلا للمبالغة في الوصف كما تقول رجل صبور وشكور وجاء في التفسير أن التوبة النصوح التي لا ينوى معها معاودة.

تم بحمد الله تعالى

في

١٢/ربيع الأول/ ١٤٣٢هـ

الموافق ١٥/فبراير/٢٠١١

عين الباشا/الأردن

الفهرست

---

(١) مشكل إعراب القرآن للمسكي.

(٢) البدور الزاهرة. حجة القراءات - ابن زنجلة.